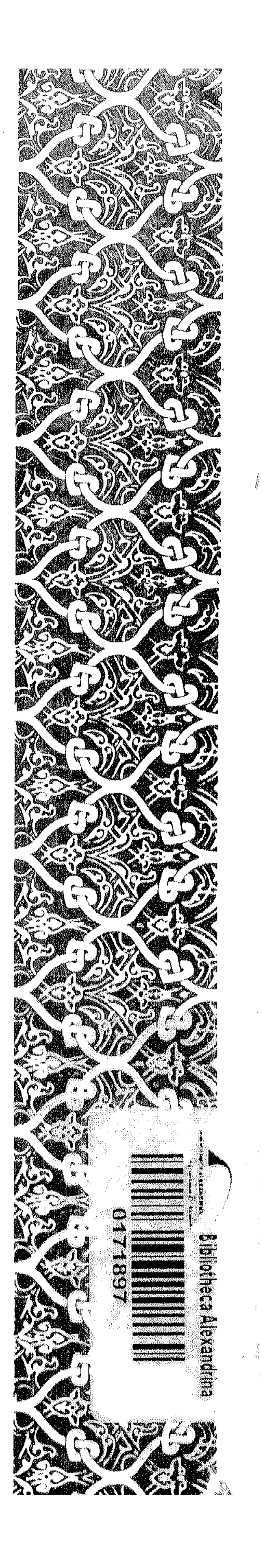


الإنسان ومستقبل الحضارة : وجهة نظر إسلامية



كتاب

المؤتمر العام التاسع

عمّان

٢٣ـ ٢٥ من المحرّم ١٤١٤هـ

١٣ـ ١٥ تموز (يوليو) ١٩٩٣م



الإنسان ومستقبل الحضارة :
وجهة نظر إسلامية

كتـــاب
المؤتمــر العام التاســع
عمّان
٢٣- ٢٥ من المحرّم ١٤١٤هـ
١٣- ١٥ تموز (يوليو) ١٩٩٣م

٢١٠،٥
م ؤ ت

المؤتمر العام للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية
(مؤسسة آل البيت) (٩ : ١٩٩٣ : عمّان)
كتاب المؤتمر العام التاسع : الانسان ومستقبل الحضارة : وجهة نظر اسلامية .ـ عمان : المجمع ، ١٩٩٤ .
ص (٦٩٣)، (منشورات المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية ؛ رقم ١٥٥) .
(عقد المؤتمر بتاريخ ٢٣ ـ ٢٥ محـــرم ١٤١٤هـ / ١٣ ـ ١٥ تموز (يوليو) ١٩٩٣م) .
ر.أ (١٩٩٤/٢/١٦٨)
١ ـ الاسلام ـ مؤتمرات   ٢ ـ الاسلام والحضارة
أ ـ المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية (مؤسسة آل البيت)
ب ـ العنوان
جـ ـ العنوان : الانسان ومستقبل الحضارة : وجهة نظر اسلامية
د ـ السلسلة
(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

الطابعــون
جمعية عمال المطابع التعاونية
هاتف ٢ ـ ٦٣٧٧٧١ ص ب ٨٥٧ ـ فاكس ٦٣٧٧٧٣
عمــان ـ الأردن

من خطاب صاحب السمو الملكي الأمير الحسن
نائب جلالة الملك ولي العهد المعظم
في حفل افتتاح المؤتمر

... ومن اجل ان تكون لنا مشاركة عالمية واضحة وناجحة ، فانه لا يكفي ان تدور احاديثنا وبحوثنا على المسلمين أنفسهم ، وان يقتصر اهتمامنا على احوالهم وحدهم - على اهمية كل ذلك وضرورته - ولكن لا بد لنا ايضاً من ان نبين موقف الاسلام من الانسان ، في عمومه ، ومن حيث هو انسان ، ونظرة هذا الدين الحنيف الى الانسانية ومستقبل الحضارة . وهو الموضوع الذي يشغل بالكم في هذا المؤتمر ، وتقدم اليكم فيه بحوث ودراسات من بعض علمائنا الكرام اعضاء هذا المجمع الزاهر ...

أيها الحفل الكريم ...

ونحن في مجال الحديث عن حقوق الانسان بصفة عامة ، لا بد من الاهتمام بحقوقه الاجتماعية والاقتصادية ، تلك الحقوق التي تعنى بالحياة الكريمة للانسان ، وتقيم مجتمعاً متكاملاً متراحماً . انني اشعر بالحاح هذه القضية امام انتشار ظاهرة الجوع والمرض والجهل في كثير من رحاب عالمنا الاسلامي ، اذ ان احواله الاقتصادية تتصف بخلل واضح في توزيع الثروة ، حيث تعيش قطاعات عريضة من السكان ، في كثير من بلدانه ، في مستويات معيشية متدنية جداً ، بينما تتوافر لبلدان اخرى على مستوى الحكومات وكثير من المواطنين اموال ضخمة غير مستثمرة فيما يعود بالخير على المجتمعات الاسلامية ، بل ومودعة في بنوك البلاد الاجنبية دون ان يؤدّى الحق الذي أوجبه الله تعالى فيها للفقراء والمساكين .

وارجو ان اصارحكم باننا لا نعطي هذا الموضوع حقه من الاهتمام الى جوار موضوعاتنا الاسلامية الاخرى ، وهذا يذكرني باهمية الزكاة ودورها في تحقيق معاني التكافل والتراحم في مجتمعاتنا الاسلامية ، ومن هنا جاءت دعوتي التي بعثت بها الى عدد من المسؤولين في العالم الاسلامي لاقامة مؤسسة عالمية للزكاة والتكافل ، تعمل على اداء دور الزكاة في المجتمع الانساني بعيداً عن الارتباط بالانظمة السياسية ، انما لتكون مؤسسة تنمية ورعاية واغاثة للمسلمين ولغير المسلمين ...

كلمة حضرة صاحب السمو الملكي

الأمير الحسن بن طلال

نائب جلالة الملك وولي العهد المعظم

في افتتاح المؤتمر العام التاسع

٢٣ من المحرم ١٤١٤هـ الموافق ١٣ تموز (يوليو) ١٩٩٣م



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله الغرّ الميامين .

أيها العلماء الأجلاء أعضاء المجمع ،

السيدات والسادة الأفاضل ،

أحييكم بأحسن التحية في هذا اللقاء العلمي المشهود ، الذي يتوافد إليه جلّة علماء المسلمين من مختلف أقطار الأرض ، وأرحّب بكم أجمل ترحيب يليق بكم في بلدكم ، وبين أهلكم ، وفي رحاب المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية « مؤسسة آل البيت » . وأحمد الله تعالى الذي وفّقنا لمرضاته ، وأعاننا على أن يكون هذا البلد موطناً يحرص على جمع كلمة المسلمين ، وتحقيق الرفعة والتقدم لهم . فقد كانت مؤتمراتكم وندواتكم المتتابعة عبر السنوات الماضية من عمر مجمعكم هذا ، تجسيداً لهذا العمل النبيل ، حيث أثرت بحوثكم وآراؤكم هذه المسيرة الخيرة .

ولقد كنا حريصين دائماً على احترام مفهوم التعددية السليمة في الآراء والاجتهادات ، والمواقف السياسية والعلمية والمذهبية ، وكنا نرى دائماً في هذه التعددية تنوعاً يزيد من خصب الحياة الإنسانية ونمائها وثرائها ، وعاملاً من عوامل الحرية الطبيعية التي يتحرك المسلمون خلالها في جوّ من الألفة والفهم الصحيح لجوهر هذا الدين ولمصالح الأمة ، وبذلك يصبح تعدد الآراء والاجتهادات سبباً للتقارب والتماسك والتقدم ، حين تكون أداته العقل ، ووسيلته الحوار ، وغايته طلب الحقيقة ، مثلما يصبح هذا التعدد سبباً للتناحر والتباغض والتباعد، حين يكون مبعثه الجهل ، وأساسه التعصب، وغايته تحقيق المطامع والمنافع الضيقة لشخص أو لفئة أو لأمة .

من أجل ذلك ، رأينا ألا تقتصرجهود تحقيق الوفاق الإسلامي على الاتصال بالزعماء ورؤساء المسلمين ، وعقد اللقاءات الثنائية والجماعية ، والتشاور معهم ، بل رأينا أن تمتد تلك الجهود إلى علماء الإسلام في مختلف المدارس الفكرية والمذاهب الفقهية التي تلتقي على الأصول . فعقدنا لقاءات متتالية لعلماء الأمة الإسلامية ، ينظمها مجمعكم في إطار علمي يحقق ما نرمي إليه ، حيث امتدت بينهم جسور الثقة ،

وسادهم جو التفاهم ، واحترام كل مذهب لوجهات نظر المذاهب الأخرى ، والاهتمام بقضايا التعاون والتكامل الإسلامي ، ومواجهة التحديات المعاصرة التي تتعرض لها الأمة، في إطار من التركيز على جوانب الالتقاء بين المذاهب ، بهدف إشاعة روح التفاهم والحوار بين المسلمين كافة ، وبذلك ينهض علماؤنا وفقهاؤنا ومفكرونا بواجبهم في جمع كلمة الأمة وتوحيد صفوفها .

أيها العلماء الأفاضل ،

ومن أجل أن تكون لنا مشاركة عالمية واضحة وناجحة ، فإنه لا يكفي أن تدور أحاديثنا وبحوثنا على المسلمين أنفسهم ، وأن يقتصر اهتمامنا على أحوالهم وحدهم - على أهمية كل ذلك وضرورته - ولكن لا بدّ لنا أيضاً من أن نبين موقف الإسلام من الإنسان ، في عمومه ، ومن حيث هو إنسان ، ونظرة هذا الدين الحنيف إلى الإنسانية ومستقبل الحضارة . وهو الموضوع الذي يشغل بالكم في هذا المؤتمر ، وتقدم إليكم فيه بحوث ودراسات من بعض علمائنا الكرام أعضاء هذا المجمع الزاهر .

إننا طالما أكثرنا من وصف شريعتنا الإسلامية الغرّاء بأنها الشريعة « السمحة » ، وهي كذلك حقاً ، ولكن علينا أن نقف عند هذه الصفة ونتدبّر معناها . ذلك أن « سماحة الإسلام » تتجلّى أروع تجّل وأنصعه في المنظور العالمي للإسلام ، وهو المنظور الذي يستوعب تعدُّد الأديان والأعراق واللغات ، ويتعامل معها كلها بما يكفل لها حقوقها وحرّياتها على مستوىً رفيع من احترام إنسانية الإنسان وكرامته وعقيدته ، وإرساء القواعد السليمة للتعامل معه في داخل المجتمع الاسلامي : على أسس من العدالة والحفاظ على الحقوق ، بعيداً عن كل ما يسيء إليه أو يؤذيه ، ونظم الإسلام القواعد لحماية أبنائه خارج حدود دار الإسلام من خلال العهود والمواثيق والمعاهدات ، بما يكفل الحفاظ على استمرار المصالح ، وهي غاية الحكم والمجتمع معاً . وبما يعبر أيضاً عن الرؤية الإسلامية القائمة على الإقرار بوجود غير المسلمين في هذا العالم كشركاء للمسلمين ، ومن هنا كان المسلمون طرفاً فاعلاً ومبادراً في بناء القانون الدولي وتطويره لتنظيم العلاقات بين الأسرة البشرية ، وجمع الإسلام الناس من مختلف الأعراق والألوان واللغات على قاعدة الايمان ، ولم يقبل أن يكبر شعب على حساب شعب آخر .

ولقد جاءت مشاركتي في المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان ، الذي انعقد في ڤينا في شهرحزيران الماضي ، للتوكيد على أنه لا بدّ للنظام العالمي الجديد الذي يتحدث الجميع عنه ، أن يكون بالأساس نظاماً إنسانياً في مضمونه وأهدافه ، وأن المشاكل الإنسانية التي تترك بصماتها على حياة الملايين من بني البشر ليست إلا نتاجاً للتجاوزات التي تستهدف إلحاق الضرر بحقوق الإنسان ، وتحدياً لمن يدعمون ضرورة التقيد بها والحفاظ عليها . ذلك أننا بحاجة إلى رؤية جديدة تنطلق من أسس التواضع والبساطة والنقد الذاتي والرؤية لعالم أفضل ، يشكل الاحترام المتبادل والتسامح والرحمة والتضامن الإنساني أرضية لها . وأننا بحاجة إلى بناء ميثاق شرف للسلوك البشري من شأنه إعطاء العلاقة المتبادلة بين الأفراد جوهرها ، ومناشدة الحكومات والحكام على حد سواء أن يضعوا احترام حقوق الإنسان والمبادىء الإنسانية في صميم سياساتهم وممارساتهم . ومن هنا جاء حرص جلالة الملك الحسين المعظم على تأسيس مركز لدراسات الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان في العالم العربي .

ولقد أوضحت في كلمتي أمام مؤتمر ڤينا أنه من خلال نشر مثل هذه المجموعة من القيم الأخلاقية ، فإن مسؤولية احترام حقوق الإنسان وكرامته ، على ما أرى ، لا تقع على عاتق الحكومات فحسب ، بل على عاتق الأفراد كذلك ، سواء انطلقوا من مواقعهم السياسية أو الفكرية أو المهنية ، أو باعتبارهم مواطنين عاديين . ولا يقتصر مدى هذه المهمة النبيلة على الحقوق القانونية والمادية المتراكمة ، بل يتسع ليشمل الحقوق الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، وفوق هذا وذاك الحقوق السياسية . وبذلك يستقر التصرف السليم تجاه حقوق الإنسان في المجتمع الدولي ، وتحترم حقوق الأقليات ، وتقوم العلاقات الدولية على أسس من العدل ، والتكافؤ والسلام ، فلا يقع المسلمون ضحية الكيل بمكيالين ، ولا نتعرّض للتنديد والاتهام من هنا وهناك دون وجه حق ، بحجة التطرف الديني أحياناً ، والرغبة في امتلاك أسلحة الدمار الشامل أحياناً أخرى ، وهما ليسا وقفاً على شعب من الشعوب أو دين من الأديان .

أيها الحفل الكريم ،

إن السعي لإنجاز مثل هذه الحقوق التي ذكرناها، إنْ لم يكن من قاعدة الإنصاف والعـدل والنزاهة الخلقية مع ما يستوجب ذلك من جرأة في القول ، تحيل مثل هذه المهمة إلى ملهاة ، بينما يعاني ملايين الناس من التشرد والتهجير والجـوع الضاري ،

وكلنا يعلم بالمأساة التي ألمّت بإخواننا في البوسنة ، وبالنكبة التي لحقت بأطفال العراق ، بحيث تقدر الإحصاءات أنه يوجد نحو مليون طفل عراقي دون الخامسة من العمر يتعرضون لخطر الموت والفناء في هذا الوقت بالذات .

وآملُ ألا يفهم الآخرون الدعوة الى التسامح الإسلامي بأنها دعوة إلى التساهل والتخاذل والاستسلام لجبروت القوة ، مادية أو اعلامية ، فنحن نرفض ابتداءً كل محاولة تسيء إلى سمعة الإسلام ، وبأن المسلمين هم أعداء الغد ، وبأنهم العنصر الإرهابي الذي يهدد النظام الدولي الجديد ، بعد انقضاء الحرب الباردة ، لذلك نقول من عمان ، من بيت العروبة والاسلام ، إن كلّ ذي هوى وسوء مقصد لاتهام الإسلام والمسلمين بتلك التهمة ، مجانب للعدل والإنصاف والأمانة في القول .

فالحقوق الثقافية للمسلمين ، سواء في القدس أو في البوسنة أو لدى الجماعات الإسلاميةخارج دار الإسلام ، هي أمانة في عنق كل واحد منا ، ولدينا الجرأة والثقة أن نطلب من صاحب كل قرار وفكر في هذا العالم أن يلتقي معنا على كلمة سواء ، لننظر باقتدار في المشاكل كلها ، لمعرفة أسبابها ومسبباتها وايجاد الحلول لها . إن ظاهرة الصمت وعدم الاكتراث تجعلنا أكثر إصراراً على متابعة مشروعنا الحضاري ، وندعو إلى استئناف أشكال الحوارات الجادة والهادفة كلها ، من أجل الحفاظ على حقوق الإنسان في كل مكان ، بدءاً بالإنسان المسلم ، نظراً لما يقع على عاتقه من مسؤولية نحو عالمه والحفاظ عليه ، حتى لا يبقى الشرق شرق والغرب غرب ـ ولن يلتقي التوأمان ـ بل إن كلّ مسؤول وراع لأمته مطالبٌ بجمع التوأمين .

أيها الحفل الكريم ،

ونحن في مجال الحديث عن حقوق الإنسان بصفة عامة ، لا بدّ من الاهتمام بحقوقه الاجتماعية والاقتصادية . تلك الحقوق التي تعنى بالحياة الكريمة للإنسان ، وتقيم مجتمعاً متكاملاً متراحماً ، إنني أشعر بإلحاح هذه القضية أمام انتشار ظاهرة الجوع والمرض والجهل في كثير من رحاب عالمنا الإسلامي ، إذ إن أحواله الاقتصادية تتصف بخلل واضح في توزيع الثروة ، حيث تعيش قطاعات عريضة من السكان في كثير من بلداننا في مستويات معيشية متدنيةجداً ، بينما تتوافر لبلدان أخرى ، على مستوى الحكومات وكثير من المواطنين ، أموالٌ ضخمةٌ غير مستثمرة فيما يعود بالخير على المجتمعات الإسلامية ، بل مودعة في بنوك البلاد الأجنبية ، دون أن يُؤَدّى الحق الذي أوجبه الله تعالى فيها للفقراء والمساكين .

وأرجو أن أصارحكم بأننا لا نعطي هذا الموضوع حقه من الاهتمام ، إلى جوار موضوعاتنا الإسلامية الأخرى . وهذا يذكرني بأهمية الزكاة ودورها في تحقيق معاني التكافل والتراحم في مجتمعاتنا الإسلامية ، ومن هنا جاءت دعوتي التي بعثت بها إلى عدد من المسؤولين في العالم الإسلامي لإقامة مؤسسة عالمية للزكاة والتكافل ، تعمل على أداء دور الزكاة في المجتمع الإنساني بعيداً عن الارتباط بالأنظمة السياسية ، لتكون مؤسسة تنمية ورعاية وإغاثة للمسلمين ولغير المسلمين .

أيها العلماء الكرام ،

إن التعامل الإسلامي مع الإنسان ـ مهما يكن دينه وجنسه ولغته ـ ومع مستقبل الحضارة ، لا بد أن يكون أيضاً من خلال صفة أخرى ، وهي أنه دين العقل والعلم . وهذان هما ـ مع السماحة ـ مدخلنا الحقيقي للتأثير في الخطاب الحضاري العالمي ، وتقديم المعالجات والمفاهيم الإسلامية لقضايا الإنسان التي تشمل قضايا : التعددية ، والشورى ، والأقليات ، والمرأة ، والشباب ، والطفولة ، ومواقف الاعتدال والوسطية ، بأساليب علمية موضوعية تقنع الآخرين ، مجردة من الانفعال والخطابية . وهذا كلّه يتطلب منا فهماً لقضايا العصر ومشكلاته ، وإدراكاً لموقع الأمة وما تعاني منه ، في خضم العلاقات والتكتلات الدولية القائمة على المصالح المحدودة والأهواء النفعية ، بعيداً عن الاهتمامات الضيقة ، والقضايا الشكلية ، والمعالجات السطحية .

لقد فهم المسلمون في عصورهم الزاهرة وصف الإسلام بأنه « دين العقل والعلم » فهماً صحيحاً ، قائماً على تداخل المعرفة وتكاملها في الثقافة الإسلامية ، والجمع بين علوم الدين والدنيا في نسق مطرد . واستطاعوا أن يجعلوا علومهم حلقة أساسية في سلسلة الحضارة الإنسانية . ومن هنا نشأ مجمعكم ليهتم بعلوم الحضارة الإسلامية كلها بالمفهوم الشامل للحضارة ، معارفها وعلومها وإنجازاتها . وهذا هو المعنى الواضح الذي قصدناه أيضاً من إنشاء « جامعة آل البيت » لتكون صرحاً علمياً للمسلمين جميعاً ، تتكامل فيه علوم الدين والدنيا في الطالب المسلم الواحد بمناهج ومقادير متوازنة ، وبغير هذا الفهم الشامل لا نستطيع أن نواجه ما نشهده الآن ، وما نتوقعه في نهاية هذا القرن ومطلع القرن الحادي والعشرين ، من تغيّرات وتحديات في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية .

أيها العلماء الاجلاء ،

إن أملنا أن يكون الموضوع العلمي لمؤتمركم منطلقاً لاستثارة الفكر الإسلامي ، ليستشرف آفاق المستقبل الذي نتطلع فيه جميعاً إلى خير عميم يظلل حياة الأجيال القادمة ، التي نرى سعادتها وازدهارها أمانة غالية في أعناقنا . فبسم الله أعلن افتتاح مؤتمركم ، وعلى بركة الله بدؤكم وختامكم ، ومنه سبحانه وتعالى توفيقكم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كلمة معالي الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد
رئيس المجمع

في افتتاح المؤتمر العام التاسع

٢٣ من المحرم ١٤١٤هـ الموافق ١٣ تموز (يوليو) ١٩٩٣م



بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد للهِ ربِ العالمين ، والصلاةُ والسلامُ على سيّدِنا محمد وعلى آله الطيّبين .

صاحبَ السُّموِّ الملكيّ ، الأمير الهاشمي ، الحسن بن طلال ،

نائبَ جلالةِ الملكِ وليَّ العهد ،

باسمِ هذه النخبة من العلماء أعضاءِ مجمعِ آل البيت ومن الضيوف الكرام ، أرحّبُ بسموُّكم الترحيب اللائق بمقامكم ، وقد عودتمونا هذه الرعاية الهاشمية السامية والحضورَ الشخصي الكريم في كل ملتقى للعلماء والمفكرين . فمنذ ثلاثةَ عشرَ عاماً ونحن نسعد بنَفَرٍ من علماء أمّتنا ، في مؤتمرات هذا المجمع ، الذي يَشْرُفُ بانتسابه إلى آل البيت الأطهار . وتبدو مظاهرُ سعادتنا جليّةً في حرص عميد آل البيت صاحبِ الجلالة الهاشمية ، الملكِ الحسين ، على افتتاح المؤتمر ، حين يكون جلالته في الأردنّ ، بكلماتٍ أصبحت مناراتِ هدايةٍ وتوجيه ، كما تبدو في حرص جلالته على الترحيب بأعضاء المجمع في مؤتمرهم ، وفي بلدهم الأردن ، بلدِ كلّ عربيّ وكل مسلم ، ترحيباً أصبح معروفاً عن جلالته ، بما يَشيع فيه من دفء العاطفة ، ونصاعةِ الصدق . ولم تَفُتْ جلالتَهُ ، ولا فاتتنا ، هذه الفرصةُ إلاّ مرة واحدة قبل اليوم . وكذلك تبدو مظاهر سعادتنا في حرص سموّك على رئاسة جلسات المؤتمر ، والمشاركةِ في أعماله ، وتوجيه مناقشاته، بما عرف عن سموّك من آفاق فكرية متراحبة ، وأُطُرٍ ثقافية قادرة على استيعاب الآراء والاتجاهات المختلفة . ولم تَفُتْ سموَّك ، ولا فاتتنا ، هذه الفرصة إلا مرة واحدة . وكان غيابُ جلالة الملك ، وغياب سمو الأمير في هذه المرات الثلاث استجابة لدواعٍ وطنية وقومية ، اقتضتها المصلحة العليا لأمتنا ، بشرح قضاياها والدفاع عن حقوقها في المحافل العربية والدولية .

سيدي صاحبَ السمو ،

العلماء أعضاء المجمع واحد وتسعون عضواً عاملاً ومراسلاً ، من سبعة وثلاثين قطراً ، يلتقون في المؤتمر العام فيجـدّدون بينهم مودّاتٍ قديمة متصلـة ، ويستحدثون

مودّات جديدة ثابتة ، ويتبادلون الأحاديث والآراء في شؤون أمتهم وشجونها ـ وما أكثرَها وأقساها ـ ويعرضون ما يمرّ على بلاد المسلمين من أحداث ، وما نتوجّس منه من مخاطرَ مصوَّبةٍ إلى صميم فكرنا وهُويَّتنا ، وإلى حقيقة ديننا وثقافتنا ، ويحاولون البحثَ في الوسائل التي تحصن الذاتَ العربية والذات المسلمة ، دون أن تنغلق تلك الذاتُ على نفسها وتتقوقعْ ، وليكونَ تحصينُها وسيلةً لاستئنافها لرسالتها ، ودخولها من أوسع الأبواب في المشروع الحضاري العالمي ، وإقامة الأسسِ الصحيحة والمعالمِ المتميزة للمشاركة الإسلامية في الخطاب الإنساني ، وتأثيرها فيه . وما موضوع هذا المؤتمر وهو « الإنسان ومستقبل الحضارة من وجهة النظر الإسلامية » إلا مثلٌ على ذلك . وكذلك كان موضوع المؤتمر السابع « السنة النبوية ومنهجها في بناء المعرفة والحضارة » وموضوعُ المؤتمر الثامن « مشاركة الشعوب الإسلامية في بناء الحضارة الإسلامية » واختيار اللغات الإسلامية لتكون مدخلاً للموضوع ، مثلينِ آخرينِ على ما يحاوله هؤلاء العلماء من تلمّس الجوانب الفكرية والثقافية والحضارية في الإسلام ، والغوصِ في أعماقها ، لرؤية ما فيها من عوامل القوة ، وعناصر الحركة والتقدّم ، لإعادة توضيح المفهوم الحقيقي للإسلام ، القادر على المشاركةِ في بناءِ أنظمةٍ ومؤسساتٍ حضاريةٍ عالمية جديدة .

ومن أجل استكمال هذه الجوانب ، نظَّم المجمعُ أربعَ ندواتٍ اقتصادية ، كان آخرَها تلك التي عُقِدت في أعقاب المؤتمر العام السابع عن « التنمية من منظور إسلامي » . وتعاون المجمع في عقد هذه الندوات الاقتصادية مع مؤسسات علمية إسلامية ، مثل : البنك الإسلامي للتنمية ومعهده للبحوث والتدريب في جُدّة ، وكلية الإدارة العليا في لاهور بالباكستان ، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة في الرِّباط .

وكان مما قام به المجمع ، منذ المؤتمر السابق ، تنظيمُ ندوتين للحوار بين علماء المدارس والمذاهب الفكرية والفقهية الإسلامية عن موضوع « الحقوق في الإسلام » تحقيقاً لرغبةِ صاحب الجلالة الملك الحسين في إشاعة روح التفاهم والحوار بين المسلمين كافة ، على أساس أن الإسلامَ الذي يدينون به جميعهم هو إسلام واحد ، لا يجوز أن يتفرقوا فيه شيعاً ، وأنهم جميعاً متفقون على الأصول ، أما اختلاف آرائهم في الفروع ، فأمر طبيعي

تقتضيه عوامل متعددة ، منها : اختلاف الاجتهادات الفقهية بسبب اختلاف طرق الاستنباط والاستدلال ، أو بسبب اختلاف التفسيرات المرتبطة بفهم الأحداث وتحليلها ، أو بسبب اختلاف الزمان والمكان . وقد رأس سموُّكم هاتين الندوتين ، وحَرَصتّم على إلقاء كلمتين في افتتاحهما ، وعلى حضور جميع جلساتهما ، والاشتراك في مناقشاتهما وفي تكريم علمائهما . وقد تفضل صاحب الجلالة الملك الحسين فالتقى بأعضاء الندوة الثانية ، واستمع منهم وتحدَّث إليهم .

ونهض المجمع كذلك بتبعات الامتداد الإسلامي في حوار الثقافات والأديان ، فنظَّم الندوةَ الثالثة للحوار الإسلامي المسيحي مع المجلس البابوي للحوار بين الأديان بالفاتيكان ، ضمن سلسلة اللقاءات الإسلامية المسيحية . أما الندوة الخامسة مع المركز الأرثوذكسي في سويسرا ، فقد تقرَّر أن تجتمع بعد أسبوعين في عمَّان بمشيئة الله . وكان المجمع قد عقد ندوتين مع اللجنة المستقلة للعلاقات الإسلامية المسيحية في بريطانيا، فيكون بذلك مجموع هذه اللقاءات عشرَ ندواتٍ مع الطوائف المسيحية الثلاث .

سيدي صاحبَ السموّ ،

الأعضاء الكرام ،

السيدات والسادة ،

ولا يتمّ للمجامع ومراكز البحوث عملُها إلا بإصدار منشورات ببحوثها ودراساتِها ، ولذلك أصدر المجمع منذ المؤتمر السابق : الفصْلَةَ التجريبية الثانيةَ من موسوعة الحضارة الإسلامية ، وطبعاتٍ جديدةً منقحّةً من الفهارس الشاملة للمصاحف المخطوطة ، ومخطوطات رسم المصحف ، ومخطوطات التفسير وعلومه ، في جزئين ، والطبعةَ الأولى لمخطوطات الحديث النبوي الشريف وعلومه ورجاله ، في ثلاثة أجزاء ، وتعدّ الآن طبعات جديدة مزيدة ومنقحة من علوم القراءات وعلوم التجويد . وكذلك أصدر المجمع منذ المؤتمر السابق ثلاثة مجلدات من الفهارس التحليلية للاقتصاد الإسلامي (مكتبة صالح كامل) تتضمن فَهْرسةً لثمانمئة وخمسة وأربعين عنواناً بآلاف أجزائها من المصادر العربية ، استخرج منها ما ورد فيها من إشارات ومعلومات تتناول جوانب الاقتصاد الإسلامـــي ، رتبتْ ترتيباً موضوعياً فـــي ثمانيةَ عشرَ مجلــداً ، وأصبحت

مراجع لا يستغني عنها الباحثون والعلماء وطلبةُ الدراسات العليـــا . وقد تعاون المجمـــع - خلال مسيرته العلمية - لنشر المطبوعات والترجمات مع مؤسسات متعددة ، مثلِ : مكتبةجامعة كمبردج بالمملكة المتحدة في إصدار الفهرس الإسلامي باللغات الأوروبية المختلفة (Index Islamicus) ، ومع الأكاديمية الإسلامية للعلـوم في إصدار النسخة العربية من مجلة « الفكر الإسلامي والإبداع العلمي » التي تصدر باللغة الإنجليزية عن اللجنة الدائمة للتعاون العلمي والتكنولوجي في إسلام أباد بالباكستان ، وهي تابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي ، ومثل منظمة المدن العربية في الكويت ، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في تونس ، ومكتب التربية العربي لدول الخليج في الرياض .

أمّا زملاؤنا أعضاءُ المجمع فقد انتقل اثنان منهم الى رحمةِ الله تعالى ، وهما : الدكتور عبدالعزيز كامل من مصر ، والأستاذ محمد الفاسي من المغرب ، ويعقِدُ المجمع جلسة خاصة لتأبينهما مساء غدِ الأربعاء .

وقد عيّن المجمع عشرةَ أعضاءٍ جُدُدٍ من الجمهورية العراقية ، والمملكة المغربية ، والمملكة العربية السعودية ، وجمهورية مصر العربية ، والجمهورية الإيرانية الإسلامية ، والجمهورية التركية ، والمملكة المتّحدة ، والاتحاد الروسي ، والمملكة الإسبانية ، وستُعقد جلسةٌ عامة علنية لاستقبال الأعضاءِ العاملين الجُدُدِ ، بَعقِبِ هذا الافتتاح في هذا المكان .

سيدي صاحب السموّ الملكي ،

السادة العلماء ،

السيدات والسادة ،

بحسبي وبحسبكم هذا العرضُ الموجَزُ لأعمال المجمع ، وخاصة لما بين دورتي المؤتمر العام السابقة والحالية . واستأذن صاحبَ السموُّ الملكي الأميرَ الحسن أن يتفضّل بإلقاء كلمته التي يفتتح بها المؤتمر نيابةً عن صاحب الجلالةِ الملك الحسين ، أعاده الله إلينا سالماً موفّقاً .

كلمة الدكتور شيخ الإسلام الله شكور بن همت باشا زاده

عضو المجمع (من أذربيجان)

في افتتاح المؤتمر العام التاسع نيابة عن الأعضاء

٢٣ من المحرم ١٤١٤هـ الموافق ١٣ تموز (يوليو) ١٩٩٣م



بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد للهِ ربِ العالمين ، والصلاةُ والسلامُ على سيِّدِنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

صاحب السمو الملكي الأمير الحسن نائب جلالة الملك ولي العهد ،

أصحاب المعالي والفضيلة ،

أيها السيدات والسادة ،

إنني لسعيد جداً لحضوري بينكم ، ولاعطائكم إياي هذه الفرصة الطيبة لإلقاء كلمة أمام هذا الحضور الشامخ . إنها لحظات السعادة التي تترك في قلبي أثراً لا يمحى . وقلبي مليء بإحساس الشكر والحب إلى الله سبحانه وتعالى ، الذي شملنا بنعمته وجمعنا اليوم لكي ننفذ أحكامه الحكيمة . فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ (١) .

إنه لطبيعي جداً أنّ مثل هذه الدعوة إلى تحمّل المسؤولية إزاء مصير البشرية والحضارة تعلو اليوم من أرض الأردن المباركة ، إذ كان صاحب الجلالة الملك الهاشمي الحسين بن طلال بارك الله في عمره في بداية الأعمال الخيرة كلها في هذا البلد السعيد ، وهو رجل عظيم وشخصية عالمية ، أصبح موضع الفخر ليس للعالم الإسلامي فقط بل للبشرية بأسرها .

إن ما قدّمه هـذا الزعيم البارز لعهدنا الحديث بفضل مقدوراته الفائقة أكسبه سمعة عالمية طيبة ، وحباً واحتراماً في جميع أنحاء العالم ، ولا سيما في الجمهوريات الإسلامية التي استقلت حديثاً . وقد شملها جلالته باهتمامه عندما أوفد وفداً رفيع المستوى لزيارتها بغية توثيق علاقاتها بالأردن الشقيق .

---

(١) آل عمران : ١٠٤ .

صاحب السمو وأخي في الإسلام الأمير الحسن المعظم ،

اسمحو لي ، تنفيذاً لإرادة المشاركين في هذا المؤتمر وملايين مسلمي القوقاز أن أنقل من خلالكم إلى جلالة الملك الحسين المعظم إعجابهم المخلص بجلالته ، باعتباره حافظاً للقيم الإسلامية السامية ، وزعيماً حكيماً ، ومناضلاً حازماً من أجل إحلال السلام بين شعوب العالم جميعها . فإن السمعة الحقيقية للزعيم السياسي لا تحدّدها أهمية أفكاره من الناحية النظرية فقط ، بل عزمه وشجاعته أثناء تطبيقها الفعلي ، مع رؤية مسبقة لثمراتها في المستقبل .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعمّ جلالته بنعمته ، ويهديه عمراً طويلاً وسعيداً .

إنه لشرف كبير لي ، أن أحيي صاحب السمو الملكي ، الأمير الحسن وليّ العهد المعظم . إن الشعب الأذربيجاني المسلم يقدّر تقديراً بالغاً جهودكم الرامية إلى تسوية سلمية لنزاع قره باغ ، آملاً بأن نفوذ شخصيتكم العالمي ، ورعايتكم الدائمة، سيساندان، إن شاء الله ، إحلال السلام الشامل في أرض أذربيجان المسلمة . وإن جهود سموكم في مجال حقوق الإنسان على المستوى العالمي ، واهتمامكم الدائم بتشجيع العلم والعلماء من أجل نهضة المسلمين لهو مصدر اعتزاز كبير لإخوانكم في أذربيجان .

ويسرّني أن أشكر لمعالي الدكتور ناصر الدين الأسد ، رئيس المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ، ما قدّمه من المساعي ، من أجل نهوض هذا المجمع ، الذي أصبح الآن مؤسسة إسلامية عالمية نعتز بها جميعاً . إن مستوى الأعمال التمهيدية للمؤتمر، ومشاركة الشخصيات البارزة من العالم الإسلامي في أعماله ، تدل على أنه سيصبح حدثاً تاريخياً هاماً ، مثله مثل ضروب النشاط الأخرى التي قام بها المجمع وأطلعنا عليها في زياراتنا له سابقاً .

إن اذربيجان التي تحمل رموز الإسلام على رايتها ، تولي اهتماماً بالغاً بهذا المؤتمر الاسلامي العالمي . ومن دواعي سروري أن أنقل لكم تحيات زعيم جمهورية أذربيجان ، حيدر علي يوف ، الذي يتمنى النجاح لمؤتمرنا هذا ، معبراً عن أمله العميق بأن يكون هذا المؤتمر خطوة طيبة على طريق تعزيز التفاهم والتضامن بين الشعوب المسلمة .

صاحب السمو الملكي ،

أيها السيدات والسادة ،

إن العهد المتغير الحديث ، يتطلب منا أن نختار أحسن ما حصل عليه أجدادنا استناداً إلى أركان القرآن الكريم ، وسنة رسولنا الشريف ، صلى الله عليه وسلم ، لنقود المسلمين بطريق مستقيم ، عبر متاهات هذا العالم المعقد .

وقال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾(١) .

ولا بد من الإشارة إلى ضرورة وقوف المسلمين ، في جميع أقطارهم، صفاً واحداً أمام التحديات وقضايا الحق والعدل حيثما كانت ، وخاصة في منطقتنا القوقازية ، التي تعاني من مشكلات متعددة ، ونزاعات مختلفة ، منها الحرب غير المعلنة التي شنتها أرمينيا ضد أذربيجان ، والتي قد تؤدي إلى عواقب وخيمة ، إذا لم يتم احتواؤها ، واحقاق العدل والسلام .

إن المؤتمر العلمي ليس من شأنه أن يَخرج بوصفات جاهزة لحل جميع مشاكلنا ، ولكني واثق جداً بأن كلمات المشاركين المحترمين ستأتي بقسط مهمّ من تطوير الفكر الإسلامي ، وتثبيت إخلاصنا للمثل والقيم الإسلامية السامية .

وفي الختام أرجو أن تسمحوا لي ، يا صاحب السمو ، أن أكرر باسم الأعضاء الشكر لسموكم على افتتاح المؤتمر ورعايته ، وعلى هذه الضيافة الكريمة التي نحظى بها في بلدكم المسلم الشقيـــق .

أسأل الله العلي العظيـــم أن يذكّرنا ما نسيناه ، ويعلمنا ما لا نعلم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

---

(١) الرعـد : ١١ .



وثائق المؤتمر وبرنامجه وجـدول أعماله



فهرس الوثائق المقدمة للمؤتمر

أولاً : تقرير عن أعمال المجمع بين دورتي المؤتمر العام الثامنة والتاسعة ١٤١١ ـ ١٤١٤هـ (١٩٩١ - ١٩٩٣م) .

ثانياً : المنشورات التي أنجزها المجمع بين دورتي المؤتمر العام الثامنة والتاسعة .

ثالثاً : دراسات الموضوع العلمي للمؤتمر عن : « الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية » :

١ ـ الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية / الدكتور أحمد صدقي الدجاني .

٢ ـ وكيف نصير خير أمة ؟ / الدكتور علي عثمان .

٣ ـ الإسلام والمستقبل / الدكتور فهمي جدعان .

٤ ـ تأملات حول الإنسان ومستقبل الحضارة / الدكتور سيد حسين نصر .

٥ ـ أفكار وخواطر حول الإسهامات التي يمكن أن يقدمها العالم الإسلامي ونحن على أعتاب نظام عالمي جديد / الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي .

٦ ـ الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية / الدكتور جاويد إقبال .

٧ ـ تأملات في الحضارة الإسلامية ، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً / السيد عبدالله باه .

٨ ـ أدوات التنمية في ظل التحدي التكنولوجي / الدكتور جلال شوقي .

٩ ـ هل للإسلام دور في النظام العالمي الجديد / الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .

١٠ـ مستقبل الإسلام / الدكتور روجيه جارودي .

١١ـ الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية / الدكتور إحسان دوغرمجي .

١٢ـ الإسلام حضارة الغد / الدكتور يوسف القرضاوي .

١٣ـ الحضارة والأخلاق / الأستاذ عبدالوهاب بن منصور .

١٤ـ نحو حضارة إسلامية / الشيخ محمد الغزالي .

١٥ـ البعد الأخلاقي العالمي وتحديات العصر / الدكتور إسماعيل باليتش .

١٦ـ نحو خطة موحدة لمستقبل العالم الإسلامي / الدكتور محمد فاروق النبهان .

١٧ـ الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية / حكيم (حاج حافظ) محمد سعيد والدكتور أنصار زاهد خان .

١٨ـ عالمنا ؛ حضارة واحدة ؟ أم تعددية في الحضارات ؟ / الدكتور محمد عمارة .

١٩ـ الإنسان ومستقبل الحضارة ؛ وجهة نظر إسلامية / الدكتور سيّد مقبول أحمد .

٢٠ـ المسلمون في البوسنة والهرسك / الدكتور إسماعيل باليتش .

٢١ـ الإنسان ومستقبل الحضارة الانسانية ، وجهة نظر إسلامية / الدكتور علي أوزال .

برنامج اجتماعات المؤتمر

اليوم الأول : الثلاثاء ٢٣ من المحرّم ١٤١٤هـ = ١٣/٧/١٩٩٣م

١٠٫٣٠ صباحاً : تجمع الأعضاء في بهو الفندق للتوجه إلى المركز الثقافي الملكي .

١١٫٠٠ صباحاً : افتتاح المؤتمر برعاية حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الملك الحسين المعظم (قاعة المؤتمرات / المركز الثقافي الملكي) .

١٢٫٠٠ صباحاً : استراحة .

١٢٫٣٠ ظهراً : الجلسة الأولى للمؤتمر (قاعة المؤتمرات / المركز الثقافي الملكي) :

ـ استقبال الأعضاء العاملين الجدد ، وهم السادة :

* الدكتور أحمد مطلوب (العراق) .
* الدكتورعبداللطيف بربيش (المملكة المغربية) .
* الأستاذ عبدالوهاب بن منصور (المملكة المغربية) .
* الدكتورسيد حسين نصر (جمهورية إيران الإسلامية) .

٠٠٠٫٠٠٠ ظهراً : صلاة الظهر والغداء في الفندق .

٤٫٤٥ بعد الظهر : الجلسة الثانية للمؤتمر (قاعة بترا / فندق ريجنسي بالاس) :

ـ الدراسة الأولى : « الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية » .

الباحث : الدكتور أحمد صدقي الدجاني .

ـ الدراسة الثانية : « وكيف نصير خير أمة » .

الباحث : الخبير الدكتور علي عثمان .

ـ الدراسة الثالثة : « الإسلام والمستقبل » .

الباحث : الخبير الدكتور فهمي جدعان .

ـ الدراسة الرابعة : « تأملات حول الإنسان ومستقبل الحضارة » .

الباحث : الدكتور سيد حسين نصر .

- الدراسة الخامسة : « أفكار وخواطر حول الإسهامات التي يمكن أن يقدّمها العالم الإسلامي ونحن على أعتاب نظام عالمي جديد » .

الباحث : الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي .

٦,٣٠ بعد الظهر : استراحة وتناول الشاي .

٧,٠٠ مساء : تكملة الجلسة الثانية للمؤتمر (قاعة بترا / فندق ريجنسي بالاس) :

- الدراسة السادسة : « الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية » .

الباحث : الدكتورجاويد اقبال .

- الدراسة السابعة : « تأملات في الحضارة الإسلامية : ماضياً وحاضراً ومستقبلاً » .

الباحث : الأستاذ عبدالله باه .

- مناقشة عامة .

٨,٣٠ مساء : عشاء بدعوة من الدكتور ناصر الدين الأسد رئيس المجمع (قرية كان زمان) .

اليوم الثاني : الأربعاء ٢٤ من المحرّم ١٤١٤هـ = ١٤/٧/١٩٩٣م

٩,٣٠ صباحاً : الجلسة الثالثة للمؤتمر (قاعة بترا / فندق ريجنسي بالاس) :

- الدراسة الثامنة : « أدوات التنمية في ظل التحدي التكنولوجي » .

الباحث : الدكتور جلال شوقي .

المعلّق : الدكتور أبو الحسن محمد صادق .

- الدراسة التاسعة : « هل للإسلام دور في النظام العالمي الجديد ؟ » .

الباحث : الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .

- الدراسة العاشرة : « مستقبل الإسلام » .

الباحث : الدكتور روجيه جارودي .

- الدراسة الحادية عشرة : « الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية » .

الباحث : الدكتور إحسان دوغرمجي .

- الدراسة الثانية عشرة : « الإسلام حضارة الغد » .

الباحث : الدكتور يوسف القرضاوي .

- مناقشة عامة .

١١٫٣٠ صباحاً : استراحة وتناول الشاي .

١٢٫٠٠ صباحاً : تكملة الجلسة الثالثة للمؤتمر (قاعة بترا / فندق ريجنسي بالاس) :

- الدراسة الثالثة عشرة : « الحضارة والأخلاق » .

الباحث : الأستاذ عبدالوهاب بن منصور .

- الدراسة الرابعة عشرة : « نحو حضارة إسلامية » .

الباحث : الشيخ محمد الغزالي .

- الدراسة الخامسة عشرة : «البعد الأخلاقي العالمي وتحديات العصر».

الباحث : الدكتور إسماعيل باليتش .

- مناقشة عامة .

٠٠٫٠٠ ظهراً : صلاة الظهر والغداء في الفندق .

٥٫٠٠ بعد الظهر : الجلسة الرابعة للمؤتمر (قاعة بترا / فندق ريجنسي بالاس) :

- الدراسة السادسة عشرة : « نحو خطة موحّدة لمستقبل العالم الإسلامي » .

الباحث : الدكتور محمد فاروق النبهان .

- الدراسة السابعة عشرة : « الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية » .

الباحث : حكيم (حاج حافظ) محمد سعيد والدكتور أنصار زاهد خان.

ـ الدراسة الثامنة عشرة : « عالمنا حضارة واحدة أم تعددية في الحضارات » .

الباحث : الدكتور محمد عمارة .

ـ الدراسة التاسعة عشرة : « الإنسان ومستقبل الحضارة الإنسانية ، وجهة نظر إسلامية » .

الباحث : الدكتور علي أوزال .

ـ كلمة في رثاء الدكتور عبدالعزيز كامل ، ألقاها الدكتور أحمد كمال أبو المجد .

ـ كلمة في رثاء الأستاذ محمد الفاسي ، ألقاها الدكتور عبدالهادي التازي .

٨ر٣٠ مساء : عشاء بدعوة من حضرة صاحب السموّ الملكي الأمير الحسن ولي العهد المعظم (قصر بسمان العامر) .

اليوم الثالث : الخميس ٢٥ من المحرَّم ١٤١٤هـ = ١٩٩٣/٧/١٥م

٩ر٣٠ صباحاً : الجلسة الخامسة للمؤتمر (قاعة بترا / فندق ريجنسي بالاس) :

ـ « اقتراح مبدئي بتدوين دائرة معارف خاصة بتاريخ الطب في الإسلام » مقدّم من الدكتور مهدي محقّق .

ـ كلمة الدكتور شمس الدين خان ، عن : « الإنسان ومستقبل الحضارة الإسلامية في ضوء أحداث دول آسيا المركزية » .

ـ كلمة الدكتور إسماعيل باليتش ، عن : « المسلمون في البوسنة والهرسك » .

ـ كلمة الدكتور سيّد مقبول أحمد ، عن : « الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية » .

٣٠ر١٠ صباحاً : استراحة وتناول الشاي .

٠٠ر١١ صباحاً : تكملة الجلسة الخامسة للمؤتمر (قاعة بترا / فندق ريجنسي بالاس).

ـ تلاوة مشروع « تقرير عن المؤتمر العام التاسع للمجمع » ومناقشته .

١٥ر١٢ ظهراً : الجلسة الختامية للمؤتمر (قصر بسمان العامر) .

٠٠ر٠٠ ظهراً : صلاة الظهر والغداء في الفندق .

جـــدول الأعمـــال

١ ـ الاطلاع على « تقرير عن أعمال المجمع بين دورتي المؤتمر العام الثامنة والتاسعة ١٤١١ ـ ١٤١٤هـ (١٩٩١ ـ ١٩٩٣م) » .

٢ ـ الاطلاع على المنشورات التي أنجزها المجمع بين دورتي المؤتمر العام الثامنة والتاسعة .

٣ ـ عرض دراسات الموضوع العلمي للمؤتمر عن : « الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية » .

٤ ـ النظر في اقتراح موعد المؤتمر العام العاشر وموضوعات بحثه .

٥ ـ ما يجدّ من أعمال .

جلسة العمل الأولى للمؤتمر

الثلاثاء ٢٣ من المحرَّم ١٤١٤هـ الموافق ١٣/٧/١٩٩٣م

* كلمة الدكتور بشار عواد معروف في استقبال الدكتور أحمد مطلوب .

* رد الدكتور أحمد مطلوب .

* كلمة الدكتور عباس الجراري في استقبال الدكتور عبداللطيف بربيش .

* رد الدكتور عبداللطيف بربيش .

* كلمة الدكتور محمد فاروق النبهان في استقبال الأستاذ عبدالوهاب بن منصور .

* ردّ الأستاذ عبدالوهاب بن منصور .

* كلمة الدكتور عبدالعزيز الخياط في استقبال الدكتور سيّد حسين نصر .

* ردّ الدكتور سيّد حسين نصر .



عقدت جلسة العمل الأولى للمؤتمر العام التاسع للمجمع في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهر يوم الثلاثاء ٢٣ من المحرَّم ١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٣/٧/١٣م في قاعة المؤتمرات بالمركز الثقافي الملكي ، برئاسة الدكتور ناصر الدين الأسد رئيس المجمع .

وقد خصّصت هذه الجلسة لاستقبال الأعضاء العاملين الجدد في المجمع ، وهم السادة :

ـ الدكتور أحمد مطلوب ، وقد استقبله الدكتور بشار عواد معروف .

ـ الدكتور عبداللطيف بربيش ، وقد استقبله الدكتور عباس الجراري .

ـ الأستاذ عبدالوهاب بن منصور ، وقد استقبله الدكتور محمد فاروق النبهان .

ـ الدكتور سيّد حسين نصر ، وقد استقبله الدكتور عبدالعزيز الخياط .

وفيما يلي نصوص كلمات الاستقبال وردود السادة الأعضاء العاملين الجدد عليها :

كلمة عضو المجمع الدكتور بشار عواد معروف في استقبال العضو الجديد الدكتور أحمد مطلوب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي كرّم العلماء بقوله في محكم كتابه العزيز : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾[1] ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آل بيته الطاهرين الميامين النجباء ، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وعلى صحابته الأكرمين الأتقياء أجمعين .

سيدي معالي الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد رئيس المجمع الملكي حفظه الله ورعاه ،

أيها الإخوة العلماء الأجلاء ،

سيداتي وسادتي ،

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ،

يستقبل مجمعنا الموقّر في كل دورة عدداً من العلماء الأجلاء الكفاة ، الذين ترشحهم كفايتهم العلمية والخلقية للانضمام إلى صفوف إخوانهم المجاهدين في رحاب آل البيت ، لخدمة حضارة الإسلام العظيم .

وقد شرّفني المجمع بأن أنوب عنه في عمل يسعدني أن أقوم به أعظم السعادة ، أن استقبل باسمه زميلاً كريماً جديداً سعدت بمعاصرته منذ ثلاثين عاماً ونيّف ، ورضيت به صاحباً ، ولطالما استرفدته في أيام الشبيبة فأرفدني ، واسترفقته فأرفقني ، ونعمت برؤيته يسابق زمانه في سبيل العلم والخدمة الصادقة لحضارة الإسلام ، والغيرة على لغته والارتفاع بها إلى المستوى النقي النظيف ، ذلكم هو صديقي الحبيب الأريب الأستاذ الدكتور أحمد مطلوب .

---

(١) المجادلة : ١١ .

ولد الأستاذ الدكتور أحمد مطلوب في تكريت ، بلد السلطان العظيم الناصر صلاح الدين الأيوبي ، من عنصر كريم سنة ١٩٣٦م ، ودرس الابتدائية والمتوسطة فيها ، ثم الثانوية في كربلاء مثوى سيد الشهداء الحسين بن علي - عليهما السلام - فبغداد موئل العلماء ومهوى أفئدة الطلبة . ودخل كلية الآداب والعلوم ببغداد سنة ١٩٥٢م على عهد عميدها ومؤسسها أستاذنا العلامة الدكتور عبدالعزيز الدوري ، ليتخرّج فيها ظافراً بدرجة البكالوريوس في اللغة العربية بمرتبة الامتياز الخاصة سنة ١٩٥٦م . وحين استوى شبابه على عممه واصل دراساته العليا بجامعة القاهرة متجهاً إلى البلاغة والنقد ، لينال مرتبة الماجستير سنة ١٩٦١م فمرتبة الدكتوراه بدرجة الشرف الأولى سنة ١٩٦٣م .

وقد بدأت مسيرة عطائه منذ سنة ١٩٥٧م ، وهو يمشي على طريق سديد رشيد ، حيث عمل في التعليم الثانوي ، ثم انتقل إلى كلية الآداب سنة ١٩٥٨م معيداً فيها ، فمدرساً ، فأستاذاً مساعداً ، فأستاذاً مشاركاً ، فأستاذاً . وفي أثناء ذلك عمل أستاذاً منتدباً في جامعة الكويت للسنوات ١٩٧١ - ١٩٧٨م ، وأستاذاً زائراً في معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة وجامعة مارتن لوثر بألمانيا وجامعة وهران بالجزائر ، ليخدم لغة القرآن وحضارة الإسلام .

وجاءت حياته العلمية مليئة بالانتاج العلمي الأصيل بما ألّف من كتب قاربت الأربعين كتاباً في البلاغة ، والنقد ، والمعاجم ، والتعريب ، وبما حقّقه من النصوص التراثية التي بلغت خمسة عشر كتاباً ، وما حبّره من الأبحاث العلمية المنشورة في أمهات المجلات العلمية ، وقد زاد عددها على الستين بحثاً ، إلى غير ذلك من تأليف الكتب المدرسية وكتابة المقالات والأحاديث والقصائد .

وإن الإنسان ليأخذه الاستعجاب من هذا الانتاج الثر الغزير الأصيل ، مع ما شغل به الصديق العزيز الدكتور أحمد مطلوب من المهام الوظيفية في حياته الحافلة ، فقد عمل مديراً عاماً للصحافة والإرشاد ، ومديراً عاماً للثقافة والإرشاد سنة ١٩٦٤م ، ثم ولي وزارة الثقافة والإرشاد في الجمهورية العراقية سنة ١٩٦٧م . وتولى رئاسة قسم الإعلام بكلية الآداب أربع سنوات منذ سنة ١٩٦٦م ، ثم ولي عمادة كلية الآداب من سنة ١٩٨٤ - ١٩٨٦م لينتقل منها إلى مهمة - في الغاية من الأهمية والخطورة - تتعلق

بالحفاظ على لغة القرآن وسلامتها ، حين عهد إليه بالأمانة العامة للهيئة العليا للعناية باللغة العربية ، المرتبطة بمجلس قيادة الثورة مباشرة ، وما يزال يتولاها إلى يومنا هذا ، يقدّم فيها خبرته العميقة وتجربته الواسعة وإخلاصه وحبه لها وحرصه عليها .

وامتازت كتابات الأستاذ الدكتور أحمد مطلوب بتنوّعها وشمولها ميادين شتى من حقول المعرفة بحضارة المسلمين ، فكتب في البلاغة قديمها وحديثها ، وأرّخ للنقد الأدبي قديمه وحديثه ، وعنّى بالمعاجم وتطورها ، وأصدر فيها مؤلّفات نافعة ، وقدّم الأبحاث الثرة لإغناء العربية بالمصطلح الأصيل ، فضلاً عما له في الحضارة الاسلامية من أعمال أرصنها وأتقنها .

وقد عرفته ـ في هذه الميادين كلّها ـ غوّاصاً على حقائق العلم ، ووجدت طبعه وطبيعته على استعداد فطري دائم للامتزاج بالفكرة التي يعالجها ، لا تعوقه كثرة مسؤولياته وجسامتها عن بلوغ العمل المبدع المعجب ، مع أسلوب سلس متين ، يأتيه من غير تكلفة .

هذه الحياة العلمية الثرة المضيئة وصل إشعاعها إلى كثير من المؤسسات العلمية التي سعدت بضمّها إليه وسعد هو بها ، فقدم لها عصارة خبرته ودأب على خدمتها بكل طاقته ، فانتخب عضواً عاملاً في المجمع العلمي العراقي ، وعضواً في مجمع اللغة العربية الأردني ، وعضواً عاملاً في مجمعنا العتيد الذي نسعد اليوم باستقباله فيه .

وبادرت الهيئات المعنية بالعلم والثقافة العربية الإسلامية إلى تكريمه بما استحق من المنزلة الرفيعة ، فنال جائزة صدام للآداب سنة ١٩٨٧م ، ونوط الامتياز من الطبقة الأولى من جمهورية مصر العربية سنة ١٩٩٠م .

وبعـــد ،

فقد عرفت لهذا العالم القدير مجموعة خصال أرى من أهم الواجب عليّ ذكرها والتنويه بها : في مقدمتها حبّه المنقطع النظير للغة القرآن ونضاله عنها من تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وهو يعد ذلك أمانة في عنقه وديانة يلقى الله عليها .

ومنها تأبهه عن الشهرة ، فكانت ـ بحمد الله ومنّه ـ تسعى إليه ولا يسعى إليها .

ومنها وفاؤه لأساتذته وأصدقائه ، وعنايته بتلاميذه ومتابعة شؤونهم وتيسير عسيرها وتذليل صعبها ، فكان كثير الفوائد لهم والعوائد عليهم ، مما جعل له محبة دائمة في قلوبهم .

فمرحباً بالعالم الجليل والصديق الوفي أبي الأثير في « مؤسسة آل البيت » في رحاب عاصمة آل البيت ، ليستمر معنا عطاؤه الفيّاض ، فيسهم في مشروعات مجمعنا بما يخدم أهدافه النبيلة العظمى ، في تجلية الحضارة الإسلامية وفق منظور عصري مستنير.

والحمد لله أولاً وآخراً ، منه الرّهباء وإليه الرغباء ، وبيده النعماء سبحانه وتعالى علواً كبيراً .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ردّ الدكتور أحمد مطلوب على كلمة الاستقبال

« تحيــــة »

﴿ ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ ﴾[1] .

إن وجودي بينكم اليوم حلم عذب وأمنية عزيزة ، وكيف لا أحلم ولا أتمنى وما بلغتُ ما بلغتموه من علم غزير وجاه خطير وتأثير كبير في الفكر العربي الإسلامي ؟

ولن يُنسى جهدُكم العظيم وفضلكم العميم وقد أوقدتم مشاعل الهداية ، ووضعتم معالم في الطريق ليهتدي بها خلق ظمئوا إلى النور ، واشتاقوا إلى العلم والعرفان ، وتطلعوا إلى حياة هانئة رغيدة لن يقيمها إلا ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾[2] وكنتم أولئك الرجال الذين صدقوا وآمنوا بالله وما أنزل على نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من كتاب فَرّق بين الحق والباطل ورسم سبيل الحياة للإنسانية التي عذبها الظلم ، وأضلها الجهل ، وشلّ خطواتها ظلام دامس رهيب .

ما أسعد الإنسان حينما يكون في جنبات المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية حيث الوقار يلفّ كل شيء ، وحيث العلم يشع نوراً ، وحيث القيم تبني الحياة الفضلى .

وما أعظم هذا الوجود بين رجال لهم في كل محفل جولة ، وفي كل موقف صولة بما أوتوا من علم مبين وخلق عظيم ، ولولا العلماء ما كان للإنسان أن يسعد ، ويتحضّر ، ويصل إلى القمر ، ويستشرف آفاق الكون الرحيب ليبلغ مالم يبلغه مَنْ قعدوا وغطّوا في سبات عميق .

فأنتم أيها العلماء الأجلاء ركن الأمة الركين ، وحصنها الحصين ، بكم تسعد ، وبكم تتقدم ، وبكم تبلغ الذرى وتعانق السماء .

وكيف لا أحمد الله وقد صرت لكم زميلاً ولم أبلغ من العلم ما بلغتموه ، ولم أقم بما قمتم به في سبيل الأمة ، ولم أخطّ إلاّ ما يخطّه الشادي على استحياء .

---

(١) النمل : ١٩ .

(٢) الاحزاب : ٢٣ .

فالحمد لله على ما نلته ، وما نلته ليس بالقليل ﴿ **وما يلقاها إلاّ الذين صبروا ، وما يلقاها إلاّ ذو حظ عظيم** ﴾(١) .

لقد وضعني تلميذي الأستاذ الدكتور بشار عواد في موقف صعب ، وأخجلني بكلماته النابعة من قلب مخلص . فوالله ما عرفته إلا إنساناً وفياً ، ونابهاً ذكياً ، وها أنا أشهده اليوم يقدّمني إليكم فيزداد إيماني بما كنت أتوسّمه فيه ، فله الشكر على ما قدّم وإن كنت لا استحق هذا الثناء والاطراء ، ولكنها التلمذة كالبنوة حبها عميم ووفاؤها صميم ، ولولا هذا الحب الدافق والوفاء الصادق لهُدّمت قيم وذَلّت رجال ، ولكن الله - جلّ وعلا - قد فضّل العلماء لأنهم نور الحياة ، ولأنهم يخشونه خَشيتهم أنفسهم ، وما الدكتور بشار إلا واحد من هؤلاء العلماء الذين كرّمهم الله كما كرّمكم وجعلكم نور هداية ومشكاة يقين .

لقد جئت إلى المجمع الملكي لألتقي علماء الأمة ، ولأجلس بين أيديهم جلسة التلميذ ، وفي قلبي حب عظيم غرسه فضلهم وسقته الأيام رحيقهم فإذا به يسع الكون كلّه ، وإذا به يخفق بالخير في هذا المجمع المؤمن الذي عرفته قبل أن أراه ، ونهلت من علمه ما شاء الله أن أنهل ، وترسمت خطاه وفي نفسي أن أظل معه ما دام فيّ عرق ينبض ، وقد حقق الله حلمي فاذا أنا بين العلماء أزهو لا غروراً ، واتطلع إلى يوم أبلغ فيه بعض ما بلغوه من علم غزير وفضل وفير .

فهل أنا بالغ ذلك ؟

لا أدري ، ولكنه الأمل يحدو ، والرغبة تبدو ، وما خاب مَنْ سعى واتخذ منكم أيها العلماء الأجلاء قدوة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **فبهداهم اقتده** ﴾(٢) .

أفأنتم آخذون بيده وهو يمدّ إليكم يدَ العرفان ؟

أفأنتم معلّموه وهو يهفو إلى علمكم ؟

إنه يعلم علم اليقين أنكم آخذون بيده ، وأنكم معلّموه ، ولولا ذلك ما قطع البلاد وجاء يسعى بلقب منيب .

---

(١) فصلت : ٣٥ .

(٢) الانعام : ٩٠ .

إنها لفرصة فريدة أن أكون بينكم ، وإنه لحظ عظيم أن أصبح عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ، وكلي أمل أن أكون نافعاً أخدم الأمة ، وأقدّم ما عندي من علم يسير جزاء ما أعطتني من زاد ، وما بثّت في روحي من إيمان ، وما غرست في قلبي من يقين ، فهي دمي الذي يسري في عروقي ، وهي نبض قلبي ، ولولاها ما كنت إنساناً سوياً أسعى في الحياة وأنعم بما ينعم الخيرون في الأرض ، وأرى ثمرة ذلك السعي ، وأمامي قوله تعالى : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى . وأنّ سعيه سوف يرى** ﴾[1] ، فما أعظم قدرة الله ، وما أوسع رحمته ، وما أحسن عطاءه .

فحمداً لله الذي وهبني عطاء غير مجذوذ .

وشكراً لكم على ما أوليتموني من ثقة كبيرة وحب كبير .

وتحية إكبار وإجلال لأستاذي الدكتور ناصر الدين الأسد الذي وضع ثقته بي ، وعرض اسمي عليكم وزكّاني . ولولاه ما كنت بينكم أتفيأ ظل مجمعكم وأقبس منه نور العلم والعرفان .

وشكراً لتلميذي الدكتور بشار الذي أبى وفاؤه إلاّ أن يقدّمني بهذه الكلمات .

جزاكم الله وجزاه ثواباً ، وأبقاكم ذخـــراً للعلم ، وحصناً للأمـــة ، وسراجاً وهّاجاً ﴿ **يهدي للتي هي أقوم** ﴾[2] .

والله أسأل أن يسدّد خطانا ، ويمدنا بروح من عنده ، وأن يجمعنا على الهدى والخير ، ويوفّقنا لما فيه عزة الأمة ، وأن يظل هذا المجمع العتيد نوراً يهدي ، وسبيلاً تفضي إلى ما فيه كرامة الإنسان الذي شرّفه الله تعالى وجعله خليفته في الأرض ليشيع الأمن والرخاء ، ويحقق العدل والسلام .

---

(١) النجم : ٣٩ ـ ٤٠ .

(٢) الاسراء : ٩ .

كلمة عضو المجمع الدكتور عباس الجراري في استقبال العضو الجديد الدكتور عبداللطيف بربيش

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالميـــن

والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

معالي الأخ الأعز رئيس المجمع الملكي الموقّر ،

زملائي الكرام ،

حضرات السيدات والسادة ،

من بين دياجي مغالبة قاسية وحوالك مكابدة عاتية ، ومن نطاف رحم كليلة أرادتها الأقدار محملة بأحزان آسرة وأشجان مكبلة ، انبثق خيط نور رفيع دقيق يشعّ الإشراق ويشيع الضياء ، مبشراً بميلاد فجر جديد يلقي أحرف صحائف كتابه وحكمته، محبرة عبر ما ينفحه آل البيت الأطهار في مشرق الأمة ومغربها ، ينثرون ريحان أفانينهم يانعة بهية ، وينشرون روح أزاهيرهم طيبة ندية ، فواحاً عبيرها بما يبعث الكوامن والأمنيات ويقوي الهمم والعزمات .

في رحاب المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن الكريم العريق ، ومن أبهاء أكاديمية المملكة المغربية وطنكم الحبيب الشقيق ، ومنذ ما ينيف على عقد من السنين ، انبلج هذا الشعاع بصيص أمل يراود المتطلعين إلى غدٍ باسم رفيه . وهو اليوم يتسع ويعلو قوي الأسباب متين الأوصال ممدود الأفياء مبسوط الظلال .

فما أعظم سعادتنا جميعاً في لحظات هذا الحفل البهيج ، والعرى التي شدت القطبين النيرين يزيد اليوم إصرها باستقبال اثنين من علماء المغرب الأماثل الأفذاذ أحظاهما جلالة الحسين المعظم بعضوية المؤسسة الشريفة التي يرعاها ـ حفظه الله ـ بكريم عنايته وسديد توجيهاته .

وإني لأشعر ببَهَج غامر وقد عُهد إلي أن أكون مقدّم الرصيف الجديد السيد عبداللطيف بربيش إلى أخلاّء المجمع الموقّر والمرحّب به في هذه الجلسة الحفية الحافلة .

زميلي الكريم وصديقي الحميم ،

إلى أرومة عرب بني حسان ينتمي عزيز محتدك وعميق منبتك ، اولئك المعاقلة الذين وفدوا إلى المغرب من شبه الجزيرة العربية في القرن السادس الهجري ، ليستقروا في جنوبه وينطلقوا من بلاد شنقيط إلى ما بعدها من الأقطار الإفريقية حتى نهر النيجر ، ساعين إلى نشر الدين الحنيف . وما تزال منهم في هذه البقاع أسر تحافظ على اسمها حتى اليوم .

وقد كان قدومهم مبكــــراً إلـى مدينة الرّباط حيث اشتهـــروا بالفضـــل والخير والصلاح ، ونبغ فيهم علماء أعلام أمثال محمد بن عبدالله بربيش المتوفّى عام ١٣١٦هـ = ١٨٩٨م ، وكان إلى جانب مشاركته المعرفية الواسعة مبرزاً في النحو إلى حدّ تلقيبه بـ « سيبويه عصره وشيخ نحاة مصره » ، والمكي بن أحمد بربيش المتوفّى سنة ١٣٧٣هـ = ١٩٥٣م ، ويعدّ طليعة في الأساتيذ المقرئين وحجة فـي قراءات الكتاب المبين ، وعنه أخذ الوالد بعضها مُجازاً منه ، وحظني السعد فتلقيت في طفولتي جملة من الأحزاب تبركت فيها منه بالتلقين .

في كنف هذا البيت الكريم كان مولدك يوم ثاني صفر سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف الموافق سابع عشر ماي من عام أربعة وثلاثين وتسعمائة وألف ، وفي أحضانه نشأت وترعرعت ، متابعاً تعليمك في شتى مراحله ، بدءاً من مدرسة أبناء الأعيان الى ثانوية مولاي يوسف وليسي كورو ، لتلتحق بعد ذلك بصفوف طلاب الطب في جامعات فرنسا ، فتحرز الدكتوراه من مونبوليي سنة إحدى وستين ، وشهادة التخصص في أمراض الكلية والإنعاش الطبي من باريز عام أربعة وستين .

ولا بدع وقد غدوت كامل الأهلية لحمل رسالة نبيلة سامية أن تتألق طبيباً باطنياً في مستشفيات المغرب ، وأن تسند إليك رئاسة مصلحة هذا التخصص والإنعاش الطبي في مستشفى ابن سينا بالرّباط ، ثم أن تكمل عالي تكوينك بنيل شهادة التبريز في الطب الباطني عام سبعة وستين ، لتتبوأ بعد ذلك كرسي الأستاذية في كلية الطب بالرباط ومنصب عمادتها .

وفي جميع هذه المجالات كنت بحرص دؤوب تصرف عنايتك وتجد استطاعتك ، تلتمس الوعر فينقاد لك ويأتيك ، وتراهن على المنيع البعيد فيمكنك ويواتيك ، وينتظم لك من صعب أمره ما تراود وتروم ، فيتسق لك سهلاً يسيراً ويستقيم .

وإذ كنت لا أستطيع أن أعدد مكارمك ومفاخرك ومعاليك ومأثرك - وأنّى لي ذلك - فلا أقل من أن أشير إلى مفيد تدريسك وسديد توجيهك بروح عربي ونفس إسلامي كنت بهما سباقاً إلى تقديم أطاريح بلسان الضاد تشرف عليها وتناقشها ، إحياءً للبحث العلمي في لغتنا بعد أن ران عليها الإهمال وتوالى الاتهام ، وأن أشير كذلك إلى ما أغنيت به هذا البحث من دراسات رصينة ، كأطروحتك عن « أسباب تضخم الطحال بالمغرب » وموضوعات مختلفة نشرتها في مجلات محلية وعالمية حلّلت فيها أمراض الطحال في شمال إفريقيا ، وأدواء التسمم وقضايا الصحة العمومية ، وداء السرطان والأمراض الدورية وإصابات الكلية ؛ وكنت قد أشرفت على أول عملية لزرعها في المغرب سنة ثمان وستين ، وأنشأت أول مركز فيه للكلى الاصطناعية عام ستة وسبعين .

بهذا وغيره مما لا يتسع المجال لتتبعه من أعمالك الرائعة النافعة ، حظيت بما أنت به جدير حقيق وبه قمين خليق ، فحلي صدرك بأعلى الأوسمة وأرفعها وطنية وأجنبية ، وانتظم اسمك درّة في عقد مجامع علمية وجمعيات متخصصة مغربية واوروبية وإفريقية ودولية .

وحظيت قبل هذا وبعده بمكان حللته في كل قلب ، اذ تفردت وأنت خل وفاء وخِدْن صفاء ، لا يَطوع أي لسان عنك إلا بطيّب الذكر وجميل الخبر ، فلمع نجمك الساطع وعلا بدرك الطالع ، وكنت غرة الأقران وزهرة الإخوان .

طلبت المراتب العلية وتطلعت إلى المراقي السنية ، فأدركت العلى وتسنّمت الذرى ، ونلت من النباهة والجاه ما رقيت به وبلغت الغاية . وأية غاية أسمى من الوصول إلى أجلّ موقع وأشرف موضع حيث تسعد بالقرب من مولانا أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني يُزلفك عنده ويدنيك ، ويَحظيك لديه ويجزيك ، فيعينك في زمرة أطبائه الخواص ، ويؤمنك على سر أكاديمية المملكة المغربية ، ويعهد إليك بجليل المهمات ، يقيناً منه - نصره الله - بما تتميز به من نقاء سريرة ونفاذ بصيرة ، وما تتحلّى به من مَضاء عزم ونهوض حزم . وما إيفاده إياك سفيراً لجلالته في الجزائر عامي ثمانية وثمانين وتسعة وثمانين إلا أحد الدلائل على ما أنت به حريٌّ أثير .

أيها الرصيف العزيز ،

هل تراني - على تقصيري في تقديمك - أغفلت شيئاً مما يجب ذكره والإشادة به والتنويه ؟ لقد حزت الصدارة بين زملائك من طلائع الأطباء الأولين الرواد ، واشتهرت بدماثة خلقك ولين طبعك ، وبرجاحة عقلك وسماحة شيمك ، مع إباء نفس وعلو همّة وتواضع جم قلّ مثيله بين ذوي العلم والجاه . وعُرفت بين الناس برقة شعورك ودقة حذقك ، وبسداد تشخيصك للأمراض والأدواء فأشاروا إلى نبوغك في تعليلها واكتشاف خباياها بحس خفي وفراسة موحية . وذاع بين المرضى حنوك عليهم والرفق بالفقراء منهم والإحسان إليهم والسعي الدائم لإسعافهم وإسعادهم . واعترف لك تلاميذك من الأطباء الشبان إذ تبلغهم كوامن المعرفة وتلقنهم أسرار السلوك وتبث فيهم صدق اللهجة وتنير لهم سبل الممارسة . وشهد لك العارفون أنك لم تتخذ الطب مهنة فقط ، ولكنك طلبته علماً تعمّق البحث في خباياه ، وتسبر أغوار شائك قضاياه ، وتتوسّل لذلك بألوان من المعارف الإنسانية تراها - كما رأها النطُس الأقدمون - أس إدراك الحكمة وعلومها التي لا حدود لها ولا فواصل بينها .

وإن شغفك بهذه الحكمة وعلومها وما أتاح الإسلام لها في ظل حضارة راقية وثقافة سامية لفي مقدمة الأسباب التي قربت خطاك إلى هذا البلد المعروف بحسن الإلطاف والإدناء ، وجميل الترحيب والاحتفاء ، وأحظتك بالانتماء إلى مجمعه الملكي المؤسس في رحاب آل البيت الأصفياء ؛ أنت الذي بهم كان دائماً تعلق قلبك ، وإليهم هفو نفسك ، فياضة منهما مشاعرحب صادق وتفانٍ خالص تغمرك وتنديك .

وإن تشريف جلالة الحسين المعظم لك بهذا الانتماء لأكبر دليل على تقديره - أيده الله وأعز أمره - لنبيل شخصك ومميّز علمك وعالي مكانتك . فهنيئاً لك أخي ما نلت من إكرام وإنعام ، وهنيئاً لنا جميعاً إذ التحقت بنا في انضمام والتئام .

وشكراً لحضراتكم ما تفضلتم به من إصغاء وإنصات .

وسلام الله عليكم ورحمة منه تعالى وبركات .

ردّ الدكتور عبداللطيف بربيش على كلمة الاستقبال

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب المعالي الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد رئيس المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) ،

أصحاب السماحة والفضيلة العلماء أعضاء المؤتمر العام التاسع ،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تحيّة من المغرب وعلماء المغرب ، أقدّمها إليكم وإلى المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية الموقّر ، وأنا أخطو فيه الخُطُوات الأولى ، متهيباً جلال الموقف ، معتزاً بجميل التكريم الذي حَظِيت به ، والذي أجدني معه ، قلباً ولساناً ، عاجزاً عن أداء بعض ما تحمله النفس ، لهذا البلد العربي « الأردن » الشقيق ، من محبّة واعتبار .

ويقضي الواجب ، في هذه اللحظات التاريخية ، التي أسعَدُ فيها بالانتساب إلى هذا الصرح الحضاري الماجد ، أن أُقدِّم بين يَدَيْ دخولي فيه ، عباراتِ التقدير والامتنان والعرفان ، لعاهل هذا البلد العربي المسلم ، جلالةِ الملك الحسين المعظم ملك المملكة الأردنية الهاشمية ، مؤسِسِ هذه المعلمة الحضاريّةِ الكبرى ، في هذا القرن الخامِسِ عشَرَ الهجري .

ويقضي الوفاء أيضاً أن أتقدّم بالشكر الجزيل والثّناء الجميل ، والذِّكر الحسن ، لصاحب السموّ الملكي الأمير الحسن بن طلال وليّ العهدِ المعظم ، على ما يفتأ يقدّمه للعلم والعلماء ، من تشجيع ورعاية للأعضاء المنتسبين إلى هذا المجمع الموقر .

حضرات السادة ،

إن وجود مؤسسة علمية ، مِثْلِ مؤسسة آل البيت ، تستقطب الكفاءاتِ العلمية ، في مؤتمرات دورية ، يَتفرغُ أعضاؤها للبحث والدرس والعطاء ، لَيُعَدّ بحقٍّ فرصة نادرة وثمينَة ، لبث الإشعاع الحضاري والتفتّح الفِكري ، وتحْرِيك عجلاتِ التنمية والتقدم في أرجاء الوطن العربي ، في وقت تتنازع فيه الأمة العربية والإسلامية عواملُ التخلف ، وتتجاذبُها الأهواء ، وتتقاذفها العواصف من كلِّ جانب .

ومن المعتقد ، أن المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ، بما يخطط من مشروعات علمية هادفة ، وبما يمهد من سُبُلٍ لاتصال العلماء بعضهم ببعض ، إنّما يرسُم بعمله الموضوعي طريق الخلاص المبين لأمتنا العربية والإسلامية .

لقد صحَّ عزم طائفَة من هذه الأمة ، على حَمْل مشعل الحضارة بحقه ، ورفع لواء التقدّم من أساسه ، يقيناً منها بأن أمل الإنقاذ المؤكد ممّا نحن فيه ، إنّما هو البحث العلميّ المعمق ، وأن أساس التقدم التكنولوجي إنّما هو كامن في صلة القول بالفعل ، وربْط العلم بالعمل ، وصلة ماضينا العلمي بحاضرنا التقني صلة ذكية ، تستفيد من حديث المخترعات ، ولا تتنكر لما هو معروف في حضارتنا من بديع المكتسبات .

حضرات السادة ،

إنني ألتحق بالمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية معجباً بما يُحقّقه العلماء المشاركون فيه من إنجازات مشهودة لصالح العرب والمسلمين والإنسانية جمعاء ، وكلي أمل في أن أستطيع أداء حقّ حملنيه حسنُ ظنكم فيما أملك من بضاعة علمية وما أحمل من خبرة مهنية متواضعة .

إنني ألتحق بكم مزوداً بمعلوماتٍ ومعارفَ في ميدان الطب الباطني وأمراض الكلية ، إضافة إلى تجربة خاصة في مجال التعليم الجامعي والتكوين المهني ، وفي ميدان الممارسة الطبية الخاصة .

فماذا عساني أستطيع الاسهام به إلى جانبكم إخواني وزملائي أساطينَ العلم ومعلمات الحضارة الناطقة ، أعضاءَ هذا المجمع الملكي الموقر .؟

لقد تعلّمت في الجامعة أنه لا حدَّ للعلم ، ولا نهاية للبحث ، وتعلّمت في بيت آبائي تلك الحكمة العربية الأصيلة التي تحُث الإنسان على طلب العلم من المهد إلى اللحد، فحفظتها حكمة بالغة ، وذكرتها مثلاً سائراً ، ولا أزال أتعلّم منها وأعلّمها للأجيال الصاعدة .

وعلمتني الحياة المهنية أن الله عزّوجلَ قد كرمَ الإنسان ، وفضّله على كثير ممن خلقه تفضيلاً . من أجله خلَق العِلم ، ومن أجله كان الطب ، بل لعل من أجله كانت الحياة !

إذاً لا معنى للعلم إذا لم يكن العلم في خدمة الناس . ولا طعم للحضارة إذا لم يكن هدفُها الأسمى هو الإنسان .

وإذا كانت العلوم البحتة ، وكانت المبالغة في التخصصات العلمية تنظر إلى الإنسان نظرة تفصيلية ، وتوجه كامل عنايتها لدقائق أعضائه الحيوية ، في أنسجتها وخلاياها وذرّاتها المختلفة ومكوناتها الكيميائية ، فإنه تنقصها ، ولا شك ، تلكم النظرة المتكاملة إلى الإنسان كآدمي ميّزه الله بنور العقل ، وخصه بالحكمة والرأي ، ووهبه القدرة على المشاركة في صنع أحداث التاريخ ، وعلى إبداع الآداب والفنون الجميلة .

إن العلوم الإنسانية تمكننا حضرات السادة ، من إطلالة وافية على هذه المجالات . ولعل علم الطب من بين هاتيك العلوم التي تسمح بالجمع بين مزايا هذه القيم والمزاوجة بين ما هو منها إنساني صرف وما هو منها خلقي صرف ، وما هو منها مادي صرف في نظرة إنسانية جامعة تحفظ على الانسان عقله وبدنه وفكره جميعاً .

وكم يسعدني أن أرى جماع هذه القيم متمثلة في إنجازات هذا المجمع الملكي العظيم .

سيدي الرئيس ،

أصحاب الفضيلة ،

لا يسعني في ختام كلمة الالتحاق والدخول هذه ، إلا أن أشكر أخي وزميلي الدكتور عباس الجراري على ما أثنى به عليّ من كلام هو به حقيق ، وما زكاني به من صفات ومؤهلات هو بها جدير ، فهي في الحق منه وإليه ، وقليل مما عندكم جميعاً ، أيها العلماء المحترمون .

أشكر لكم حسن إصغائكم ، أيها الإخوة الأعضاء الزملاء ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كلمة عضو المجمع الدكتور محمد فاروق النبهان في استقبال العضو الجديد الأستاذ عبدالوهاب بن منصور

بسم الله الرحمن الرحيم

معالي رئيس المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ،

أيها الزملاء الأعزاء ،

جرت الأعراف في المجامع العلمية أن يستقبل الأعضاء الجدد بخطاب تعريف وترحيب ، وهذه سنة حميدة جديرة بأن تكون من سُنَن المجامع العلمية ومن تقاليدها الأصيلة .

ومجمعنا هذا من المجامع التي حَظِيت بمكانةٍ رفيعة بين المجامع العلمية ذاتِ الشهرة والرسوخ ، وهو حريص على أن تكون له تقاليدُه المتميزة وخصوصياتُه التي تكفل له أن يكون مجمعاً يضمّ أفضلَ الكفاءات العلمية التي أسهمت في إثراء الثقافة الإسلامية بما أضافته من أفكار وما اشتهرتْ به من مواقف وآراء .

ولما كلفني معالي رئيس المجمع أن أقدّم إلى مجمعكم الموقّر الأستاذ العلامة عبدالوهاب بن منصور أسعدني هذا التكليف ، فلقد عرفت أخي وصديقي الأستاذ ابن منصور منذ عشرين عاماً ، ورأيت فيه أنبلَ الخصال ، صدقاً ووفاء ، ويتميز بالرأي السديد والفكر الأصيل ، وله منهجٌ فكريٌ يجمع فيه بين منهج الأولين أصالةً وعمقاً ومنهجِ المُحدَثِين إشراقةَ اسلوبٍ ووحدةَ موضوع .

نشأ الأستاذ عبدالوهاب بن منصور في مدينة المولى إدريس التي سميت بمدينة فاس ، وكانت فاس خلال تاريخ المغرب مدينةَ العلمِ والحضارة والجهاد ، ويتوسط جامعُ القرويين هذه المدينة الإسلامية العريقة ، وكانت أحياءُ فاس الضيقة المتصلة المتكاتفة الحصونَ المنيعةَ التي انطلقت منها مواكبُ الجهاد ، رافعةً رايةَ الإسلام في الغرب الإسلامي ، بانيةً دولاً عريقةً في المجد ، غيورةً على الإسلام معلنةً الجهاد المتواصل ضد الجيوش الصليبية المتربصة .

وكانت تلك الأحياءُ هي المدرسةَ الوطنيةَ التي يتعلّم فيها الأطفال قيمَ التضحية ومعانيَ الجهاد ، وانضم الأستاذ عبدالوهاب بن منصور منذ طفولته المبكّرة إلى مواكب الوطنيين الذين واجهوا بشجاعة جنودَ الحمايةِ الفرنسية ، ودخل السجن وهو طفل ، وسجونُ المستعمرين اوسمة ذهبية تعلّق بفخر واعتزاز على صدور الأحرار ، تنير تاريخَهم بضياء الفجر ، وتعبد طريقَهم إلى مجدٍ يليق بمقام المجاهدين .

ولما عاد المغفور له محمدُ الخامس طيّب الله ثراه من منفاه السحيق حاملاً بيده وثيقةَ الاستقلال ، أكرمَ الوطنيين المجاهدين أجملَ إكرام ، وخصّ الأستاذ عبدالوهاب بن منصور برعايته ، وعينّه عضواً في ديوانه ، وكلّفه بمهمات سياسية وثقافية جليلة .

وعكف الأستاذ ابن منصور على إصدار أهم موسوعاته ، وهي انبعاث أمة، وهذه الموسوعةُ الوثائقية ـ التي تسجّل بدقة وموضوعية النشاط اليومي لملك المغرب ، منذ الاستقلال حتى اليوم ، من استقبالات رسمية ومراسيمَ ملكية وخطبٍ سياسية ومقابلات صحفية ، مرتبة بحسب الأيام من اليوم الأول من السنة إلى اليوم الأخير منها ـ تعتبر أهمَّ وثيقةٍ مسجلةٍ بدقة لتاريخ المغرب الحديث ، وستكون ـ هذه الموسوعة ـ في المستقبل من أهم الوثائق الرسمية لتاريخ المغرب بعد الاستقلال .

ونظراً لما اشتهر به الأستاذ ابن منصور من معرفةٍ بالتاريخ ودرايةٍ بروايته وقدرةٍ على تمييز الصحيح من السقيم من الروايات التاريخية ، معتمداً في ذلك على حسٍ نقديٍ دقيق يميز منهجه التاريخي ، ودقةٍ بالغةٍ في معرفة الوقائع والأحداث ، فقد سماه جلالةُ الملك الحسنُ الثاني مؤرخ المملكة المغربية ، وعينّه مديراً للوثائق الملكية ومحافظاً لضريح المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه ، واستطاع أن يجمع الكثير من أهم الوثائق المغربية ، وأصدر موسوعته الثانية بعنوان « الوثائق » وصدر منها عدةُ أجزاء ، اشتملت على أهم الوثائق في تاريخ المغرب .

ومنذ سنوات عكف الأستاذ ابن منصور على إعداد موسوعته التاريخية الثالثة بعنوان « أعلام المغرب العربي » وستكون هذه الموسوعة من أهم الموسوعات التاريخية التي تُعرّف بأعلام المغرب العربي منذ الفتح الإسلامي حتى اليوم ، ومن المتوقع أن تتجاوز عشرين جزءاً .

وبالإضافة إلى هذه الجهود العلمية التي تجعل الأستاذ ابن منصور من أبرزِ المؤرخين المعاصرين في تاريخ الغرب الإسلامي وأكثرِهم عطاءً وتصنيفاً، فقد أصدر كتاباً هاماً عن تاريخ القبائل المغربية ، وهو كتابٌ دقيق في مادته التاريخية ويتميز بمنهجيةٍ علمية رصينة.

وتوجد عَشَراتُ الكتب الوثائقية التي أعدّها الأستاذ ابن منصور وخاصة فيما يتعلق بالرحلات الملكية والحياة الشخصية لجلالة الملك الحسن الثاني ، وله نشاط متميز في إطار الأكاديمية المغربية التي يعتبر الأستاذ ابن منصور من أبرز أعضائِها نشاطاً ، ومن أكثرِهم اهتماماً بالدراسات التاريخية ، وهو حجةٌ فيما يكتب ويعتمِدُ فيما يقوله ويدوّنه على وثائق مكتوبةٍ عُنِيَ بجمعها وتصنيفها ، وكشفَ النقابَ عن مواطنها وخزائنها .

ومن أهم ما يميز فكرَ الأستاذ عبدالوهاب بن منصور أنه كان شديد الاعتزاز بالتاريخ الاسلامي ، شديدَ الغيرة على اللغة العربية ، ومن اليسير علينا أن نكتشف هذه التوجهات الفكرية من خلال ما يكتبه ويدوّنه ، وهو مؤرخ جاد وكاتبٌ ملتزم وأديبٌ مشرق العبارة .

ويعود إليه الفضل في تأسيس مديرية الوثائق الملكية التي تضمّ أهمَ الوثائق السياسية التي تكشف النقاب عن تاريخ المغرب وتاريخ ملوكه ودوله منذ قرون حتى لآن ، والتي اكتشفت بفضلِ جهود الأستاذ ابن منصور بعد أن ظلت لمدة قرون في ـائن القصور السلطانية المغلقة .

أخي الأعز الأستاذ عبدالوهاب بن منصور ،

يشرفني باسم المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية أن أرحّب بك زميلاً في هذا ـع الموقّر ، الذي يضم قادَة فكر وجهاد ، من شرقٍ وغرب ، وما أظنني قادراً على أن أوفيك حقك من التقدير الذي يليق بجهادك في سبيل كرامة هذه الأمة ، مصححاً ما تراكم في تاريخها من أخطاء ، مدافعاً من خلال فكرِك وقلمك عن حضارة الإسلام ، ولقد رأيتك في محافلَ علمية تقف باعتزاز وفخار تدافع عن حضارة المغرب ، وتردّ على ما كتبه المستشرقون من تزييف لتاريخ أمتنا ، مصحّحاً ما ردّدوه من أقوال ، معتزاً أجملَ اعتزاز بتاريخ الإسلام وحضارته ، وأنت تمثل في هذا المجمع شعباً عريقاً في المجد ، وتنتمي لأرض الجهاد ، فالمغرب دارُ إسلام ودارُ علم ودارُ حديث، وتاريخُه مليء بمواقف الصمود والتضحيات ،

وبفضل هذه الخصوصية ظلت دولةُ المغرب عصيةً على أعداء الإسلام ، لا تساوم ولا ترضخ، فلم تضق بمواكب الشهداء المتلاحقة، وظلت حصنَ الإسلام المنيع ودرعَه المتين.

أخي الأعز الاستاذ عبدالوهاب بن منصور ،

إننا سنسعد بانضمامك إلى أسرة هذا المجمع العلمي الموقّر ، أخاً عزيزاً وزميلاً كريماً ، فمرحباً بك ، وأدعو الله أن يوفقَك ويرعاكَ ويسددَ خطاك .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ردّ الأستاذ عبدالوهاب بن منصور على كلمة الاستقبال

بسم الله الرحمن الرحيم

حضراتِ السادة الأفاضل ،

أشعرُ بسعادة غامرة وأنا أنتسبُ إلى المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية وأُنظَمُ في سلك أعضائه الأماثل ، ويشرفني باديَ ذي بدءٍ أنّ أتوجَّهَ بعظيم الشكر وجزيل الثناء إلى صاحب الجلالة الملك الحسين بن طلال عاهل المملكة الأردنية الهاشمية وراعي هذا المجمع العظيم على أن حباني شرفَ الانتساب إليه ووافقَ على أن أُسهِمَ بحظ في العمل مع أعضائه لتحقيق أغراضه النبيلة وتبليغ رسالته القَيمة .

كما أُزجي الشكرَ الوافرَ والثناءَ العاطرَ للعلماء الأكارم ، وفي طليعتِهم الأستاذُ الجليل ، والعلاّمة الكبير ، ذائعُ الصيت شرقاً وغرباً ، الدكتور ناصر الدين الأسد ، على أن رشّحوني لأكونَ عضواً في أُسرتهم ، وفرعاً من أيْكتِهم . حسنَ ظنٍ منهم وجميل اعتقادٍ عقدتُ العزمَ على أن يصدقَ ولا يَخيب .

وأُعربُ عن جميل التقدير للكلمات الطيّبة التي قدَّمني بها - إلى مجمعكم - صديقي الحميم الدكتور محمد فاروق النبهان ، الذي يضطلعُ بحكمةٍ وجدارة بإدارة إحدى كلياتنا العلمية الكبيرة : دار الحديث الحسنية ، ويسهرُ فيها على تكوين شباب مؤمن ، وإعداده لحفظ السنة النبوية ، وشرح ما للحضارة الإسلامية من فضل على المجتمع الإنساني .

إن ترشيحي ثم قبولي عضواً في مجْمعِكم هوَ في الحقيقةِ تكريمٌ لبلدي أكثر مما هو تكريمٌ لشخصي ، بلدي الذي يسعى جاهداً - تحت القيادة الرشيدة لعاهله العظيم جلالة الملك الحسن الثاني - لمحو آثار التخلُّف ورفع مستوى الشعب المغربي وضمان العيْش الهنيّ الرغيد لأبنائه ، لقد استطاعَ بلدي أن يقطعَ أشواطاً كبيرة نحو النماء معتمداً على سواعد رجاله ونسائه وخيرات أرضه ما ظهرَ منها وما بطن ، حتى أصبحَ يتقلّبُ على بساط نهضة زراعية وصناعية واعدة في ظل الهدوء والاستقرار ، واتّضحت

أمامَه الآفاق لإقرار نظم دستورية تتسمُ بالحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية للمواطنين كافة ، ومع أن الطريقَ طويلٌ والتكاليفَ مُرهقة ، فإن المغاربة مُصَمِّمُون على مواصلة السيْر والتحمُّل إدراكاً منهم أنه لا بدَّ دون الشهْد من إبَر النحْل .

وعلى ذلك فإن الذي يشغلُ أفكارَ المُخلصين الغُيُرِ في المغرب ويثيرُ اهتمامَهم هوَ الغزوُ الثقافي الأجنبي الذي يُساعدُ عليه الجوارُ والانفتاح ، وإرثٌ بغيضٌ خلَّفتْه إدارةُ الحكم الأجنبي البائد ، إنه غزوٌ خطيرٌ يهدفُ إلى مسخ شخصيّتنا وإذابة هُويتنا ، وصهرنا في بوتقة أعجمية ، وهو مسلطٌ علينْا من فوق وتحت ومن خلف وأمام ، سلاحُه الإذاعةُ والتلفزةُ والأفلامُ والموسيقَى والجرائد والمجلات والمراكزُ الثقافية التي تستعملُ من وسائل الإغراء والاغواء ما لا يقلُّ مكراً ودهاءً عن الوسائل التي كانتْ تستعملُها إرسالياتُ التنصير في الماضي ، ومع أن جهوداً محمودةً بذلتْ وتبذلُ باستمرار لدعم جانب اللغة العربية ، لا سيما في ميدان التعليم الذي عُربت موادُه في طوريْه الابتدائي والثانوي ، فقد صرنا نحسُّ بسريان لَوْثَةِ الأعاجم على الألسُن وبدوّ مظاهر الاستلاب والاستغراب في الشوارع بقوة ، واظنُّ أن هذا الغزوّ الثقافي ليس موجّهاً إلى المغرب وحده ، بل يمتدُّ خطرُه إلى العديد من الأقطار العربية والإسلامية ، لأننا نشعرُ ـ مما نقرأ ونسمعُ مما يردُ علينا منها ـ أن الداءَ قد استشرى فيها أيضاً .

لذا يجبُ أن تتضافرَ الجهودُ وتتآزرَ القوى في العالم العربي والمحيط الإسلامي للتصدي لهذا الغزو الكاسح وصدِه ، حفظاً لنقاء اللغة وضماناً لسلامة العقيدة .

ودونَ شك ، فإن خيرَ من يضطلعُ بهذا الأمر الجلل ، وينبري للتصدي والصدّ ضدَّ الغزو الثقافي الأجنبي همُ قادةُ الفكر وموجّهو الرأي العام من علماءَ وأُدباءَ وأساتذة المعاهد والكليات ، خاصة من ينتسب منهم إلى الأكاديميات العلمية والمجامع اللغوية والأندية الثقافية الذين يحسُنُ بهم أن يُكثروا من التزاور والتشاور والائتمار بينهم لوضع السياسات القويمة ورسم الخطط الناجعة لصد الغاراتِ المشنونة على العقيدة الإسلامية واللغة العربية من طرفِ خصوم ألداء .

ونحنُ في المغرب نرحّبُ بكل تعاون يتم بين علمائنا ومفكرينا وبين العلماء والمفكرين من إخواننا بالبلاد المشرقية لنبلغ الغاياتِ ونُصيبَ الأهداف ، فالنصرُ في المعتركات لا يتمُّ إلا بخلوص النيات وائتلاف القلوب وتوحيد الصفوف ، ومؤسساتُنا الدينيةُ والعلميةُ والثقافية ، سواء منها الحكوميةُ والحرة ، تضعُ في طليعة اهتماماتِها تحقيق هذا التعاون ، بإشراك أعلام من المشرق فيها ، أو باشتراك أعلام المغرب في اشغال مثيلات لها في الأقطار المشرقية ، وآية ذلك أكاديميةُ المملكة المغربية التي يشاركُ في عضويتها علماءُ أجلة أعلام ينتمون إلى جل الأقطار العربية والإسلامية .

حضراتِ السادة الأفاضل ،

أُجددُ الإعرابَ عن سعادتي بارتياد واديكم والسمَربناديكم ، والشكرَ للذين أحسنوا الظنَّ بي ورشّحوني لنيل هذه الحظوة ، وأَعِدُ بالعمل مع العاملين في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية على تبليغ الرسالة السامية التي أُنشىءَ لتبليغِها .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلمة نائب رئيس المجمع الدكتور عبدالعزيز الخياط في استقبال العضو الجديد الدكتور سيد حسين نصر

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد :

فقد زرت في أوائل السبعينات طهران ، وكان من جملة البرنامج أن أزور رئيس جامعة طهران ، واستقبلني بوجه سمح وتحدث بلسان طلق حول القضايا الإسلامية المعاصرة ، وضرورة التعريف بالدين الإسلامي وكنوزه الفكرية ، بلغة العصر بأمانة وإخلاص مع الالتزام بالسلفية الصالحة .

وتابعت بعد ذلك أخبار الأستاذ الدكتور حسين نصر وأفكارَهُ التي كان ينشرها في كتبه ومحاضراته ، وكلها كانت تتناولُ جوانبَ الإسلام الأساسية ، وإظهارَ حقيقته على أنه قوةٌ فعالةٌ حيةٌ ، عاملةٌ ، نشطةٌ ، متصلةَ بالحياة ، ومناقشةَ الجدليين من المثقفين الذين انخدعوا بالتفكير الجدلي ، كما أنه كان يهتم بشرح الفروقات بين الفرق الإسلامية ، وأن أهل السنة والشيعة هما وجه متكامل لعقيدة واحدة ، وهو لا يمضي مع الشيعة في الغلو ولكنه يبيّن الفروق الجوهرية ويتلمس منها أوجه الشبه والالتقاء بين أهل السنة والشيعة ، يقول في كتابه « الإسلام أهدافه وحقائقه » : « واتفاق السنة والشيعة على المبادىء الأساسية في المعتقد والدين هو ما يجعل الفريقين ضمن إطار الإسلام الصحيح ويؤكد استمرار الحفاظ على المبادىء الدينية الجوهرية لدى الطرفين ، كما يؤكد على أن السنة والشيعة هما روحا الإسلام الصحيح في جميع مفاهيمه وأبعاده ، بعناية الله وفضله الذي جمع الطائفتين ضمن إطار الإسلام الرحب الذي يتسع لمختلف الأذهان والأمزجة الروحانية المتباينة ، حيث يمكن أن تنصهر في وحدة متماسكة متراصة لتكون عوناً على تقويةِ دعائمِ الإسلام ورصٍّ صفوفه » .

ولد الدكتور حسين سنة ١٩٣٣م في طهران في عائلة علم وأدب ، ودَرَس في بُكور حياته التعليم الديني ، ثم درس الفيزياء وعلم الرياضيات ، وحصل على الشهادة الأولى سنة ١٩٥٤م ، وأتم دراسة الماجستير والدكتوراه في الفلسفة وتاريخ العلوم في جامعة هارفرد ، حيث حصل على الماجستير سنة ١٩٥٦م والدكتوراه سنة ١٩٥٨م ، وكان له خصوصية اهتمام بتاريخ العلوم الإسلامية .

اشتغل في أثناء ذلك مساعداً للتدريس في جامعة هارفرد من سنة ١٩٥٨م ، ثم أستاذاً في تاريخ العلوم والفلسفة في جامعة طهران . وفي عام ١٩٦٢م عمل أستاذاً زائراً في جامعة هارفرد ، وعيّن أستاذاً في جامعة طهران وانتدب سنة ١٩٦٤م ليكون أول أستاذ لكرسي الدراسات الإسلامية في الجامعة الأمريكية في بيروت الذي أسسه الأمير الاغا خان وعيّن رئيساً لجامعة اريا مهر في إيران سنة ١٩٧٢م مع احتفاظه بكرسي تاريخ العلوم والفلسفة في جامعة طهران ، وتنقل أستاذاً زائراً ومتميزاً في جامعات برنستون واوتا وتمبل . ثم بعد الثورة الإسلامية الإيرانية عيّن أستاذاً للدراسات الإسلامية في جامعة جورج واشنطن ، وما زال فيها حتى الآن .

تنّقل في مناصب متعدّدة ، فقد كان عميداً لكلية الآداب ومستشاراً لجامعة طهران ورئيساً لجامعة اريا مهر وأول رئيس لأكاديمية الفلسفة في إيران ، وأول رئيس لمعهد المحافظين المشترك بين تركيا وإيران وباكستان ، ونال الدكتوراه الفخرية وشهادات التقدير من الجامعات والأكاديميات المختلفة .

ولقد حاضر في معظم أنحاء العالم الإسلامي وأمريكا والهند واليابان واستراليا ، واشترك في العديد من الندوات العلمية واحتفالات ذكرى العظماء وله من الأبحاث والمترجمات في الفلسفة والدراسات الإسلامية حوالي مائتين .

كما أن له أكثر من عشرين مؤلّفاً باللغة الفارسية والإنجليزية والفرنسية . وترجم العديد منها إلى اللغة العربية والتركية وغيرهما .

ومن أهم كتبه :

١ ـ الإسلام : أهدافه وحقائقه .

٢ ـ العلوم والمدنية في الإسلام .

٣ ـ جلال الدين الرومي ـ الشاعر الفارسي المتميز .

٤ ـ أبحاث في الصوفية .

٥ ـ الفهارس التحليلية للعلوم الإسلامية ، جزءان .

٦ ـ الإنسان والطبيعة .

٧ ـ الإسلام وصورة الإنسان الحديث .

٨ ـ العلوم الإسلامية ، موضحة بالرسوم .

٩ ـ الفن المقدس في الثقافة الفارسية .

١٠ـ العلوم الغربية والثقافية الآسيوية .

١١ـ المعرفة الفلسفية عند صدر الدين الشيرازي .

١٢ـ الحياة والفكر الإسلاميان .

١٣ـ تاريخ الفلسفة الإسلامية .

١٤ـ المعرفة والدين .

١٥ـ الفن الإسلامي والروحانية .

١٦ـ محمد رسول الله .

١٧ـ الإسلام التقليدي والعالم الحديث .

وله حوالي (٢٥٠) مقالة بلغات متعددة كتبت في صحف بلدان كثيرة .

ويتضح من خلال ذلك مكانة الأُستاذ الدكتور حسين نصر العلمية التي يسعدني أن أقدمه عضواً عاملاً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) مجمع العلماء في الحضارة الإسلامية متعددة الجوانب ، والذي أرجو أن تكون عضويته فيه، عضوية فعّالة مؤثرة مثمرة في العطاء العلمي الإسلامي الإنساني .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ردّ الدكتور سيّد حسين نصر على كلمة الاستقبال

بسم الله الرحمن الرحيم

إنني أشعر بالتشريف العظيم إزاء اختيار هذا المجمع الموقّر لي بأن أكون أحد أعضائه ، وأن أشارك في نشاطه لأول مرة . فليس من الخفيّ أن الهدف الذي وضعه هذا المجمع أمام عيونه هو في غاية الأهمية لكافة أرجاء العالم الإسلامي ، والذي نحتاج ، جميعاً ، إلى إخلاص الدعاء لله تعالى في سبيل تحقيقه .

فالحاجة اليوم ملحّة ، غاية الإلحاح ، لأن نحافظ على التراث الفكري والفني للحضارة الإسلامية . فالأغلبية العظمى من الأعمال الإسلامية ، من الفقه إلى علم الأفلاك ، التي كتبت في مدى يتجاوز ألف سنة ، على أيدي علماء الإسلام ، باللغات العربية والفارسية والتركية ، ما تزال على صورة مخطوطات لم تدرس بعد . بل إنها ، فوق هذا كله ، معرّضةٌ بصورة مستمرة إلى خطر الضياع ، إما على أيدي الطبيعة ، أو بسبب الحروب ، أو عدم المحافظة . ففي السنوات القليلة الماضية ، ضاع جزء أو كلّ من بعض المخطوطات الثمينة في البوسنة ، والعراق ، وكشمير ، والصين ، ومناطق أخرى .

وإلى جانب هذا النزيف ، يرى المرء ضياع كثير من التراث الفني للعالم الإسلامي، الذي ، دون شك ، له علاقة عميقة ببعض ذلك النزيف الفكري ، كما يرى الفرد في حالة فن الخط ، في الفن المعماري ، أو في المخطوطات القرآنية ، أو فن الكتاب . إن مجرد مرور الوقت يحمل معه خطر ضياع شيء ثمين ضياعاً كاملاً حتى دون المعرفة به . ومرة أخرى تظهر مأساة البوسنة كأوضح مثال .

وبالاضافة إلى ذلك ، تظهر الحاجة الملحة ، ليس للدراسة فقط ، بل لعرض هذه الثروة الضخمة للتراث الإسلامي الفكري ، التي تمتد من العلوم الدينية والتاريخ إلى التصوف والفلسفة ، ومن الآداب إلى الرياضيات ، في صورة عصرية في شكلها وقالبها، وفي لغتها أيضاً .

إن هذه الغاية ليست مهمة لمجرد عرض الأبعاد المختلفة للفكر الإسلامي على العالم الخارجي ، بل أيضاً للتعريف بها بين الأجيال الجديدة في العالم الإسلامي .

وتوجد كذلك مسألة تفسير الإسلام ، تاريخاً وحضارة ، على أيدٍ غير مسلمة وفي الأغلب غربية ، من وجهة نظرهم ، وبطريقتهم ولأهدافهم التي لا تمت للإسلام بصلة . إننا في حاجة لأن نقدم رداً إسلامياً يعتمد على أسس ثقافية صلبة وفكر سليم ، وليس مجرد ردّ فعل مؤسس على المشاعر البسيطة ، لمواجهة كثير من هذه التفاسير للمستشرقين ودارسي الإسلام ، التي تشمل وجهة نظرهم في القرآن والسنة ، في مراحل التاريخ الإسلامي كلّها ، منذ أيام السيرة النبوية الشريفة إلى يومنا هذا .

هذه كلها أهداف كريمة ، يبدو لي أنها قد امتصت كل اهتمام وجهد من هذا المجمع منذ إنشائه ، وهي أيضاً أهداف قد خصّصت لها حياتي الفكرية ، راجياً وداعياً أن أستطيع المشاركة في تحقيقها بجهدي المتواضع . وإني لذلك أشعر بانسجام عميق مع جهود المجمع ، وسأحاول بإذن الله تعالى المشاركة بجهدي كله في التعاون معها .

وإني مع شكري لرئيس هـذا المجمـع الكريم ونائب الرئيس العزيز وأعضائـه المحترمين ، أتشرف بالقبول أن أكون جزءاً من هذا المجمع الموقّر ، متواضعاً وداعياً الله عزّوجل أن يوفقّني ، وأن أشارك ، ولو بالقليل ، في تحقيق هذه الأهداف النبيلة التي يصبو إليها هذا المجمع .



جلسة العمل الثانية للمؤتمر

الثلاثاء ٢٣ من المحرَّم ١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٣/٧/١٣م

* دراسة الدكتور أحمد صدقي الدّجاني .
* دراسة الدكتور علي عثمان .
* دراسة الدكتور فهمي جدعان .
* دراسة الدكتور سيد حسين نصر .
* دراسة الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي .
* دراسة الدكتور جاويد إقبال .
* دراسة الأستاذ عبدالله باه .



عقد القسم الأول من جلسة العمل الثانية للمؤتمر العام التاسع للمجمع في الساعة الرابعة وخمس وأربعين دقيقة من بعد ظهر يوم الثلاثاء ٢٣ من المحرّم ١٤١٤هـ الموافق ١٣/٧/١٩٩٣م في قاعة بترا بفندق ريجنسي بالاس ، برئاسة الدكتـور أحمد كمال أبو المجد .

وألقى كل من السادة التالية أسماؤهم ملخصاً عن الدراسة التي أعدّها :

١ ـ الدكتور أحمد صدقي الدّجاني ، عن : « الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية » .

٢ ـ الدكتور علي عثمان ، عن : « وكيف نصير خير أمّة ؟! » .

٣ ـ الدكتور فهمي جدعان ، عن : « الإسلام والمستقبل » .

٤ ـ الدكتور سيّد حسين نصر ، عن : « تأملات حول الإنسان ومستقبل الحضارة » .

٥ ـ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي ، عن : « أفكار وخواطر حول الإسهامات التي يمكن أن يقدّمها العالم الإسلامي ونحن على أعتاب نظام عالمي جديد » .

وعقد القسم الثاني من جلسة العمل الثانية للمؤتمر العام التاسع للمجمع في الساعة السابعة مساءً ، وألقى كل من السادة التالية أسماؤهم ملخصاً عن الدراسة التي أعدها :

١ ـ الدكتور جاويد إقبال ، عن : « الإنسان ومستقبل الحضارة من منظور إسلامي » .

٢ ـ الأستاذ عبدالله باه ، عن : « تأملات في الحضارة الإسلامية : ماضياً وحاضراً ومستقبلاً » .

ونثبت فيما يلي نصوص هذه الدراسات :

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان ومستقبل الحضارة
وجهة نظر إسلامية

الدكتور أحمد صدقي الدجاني*

يزداد إلحاح موضوع « مستقبل الحضارة في عالمنا » على الإنسان أينما كان ، بينما تعيش البشرية في عقد التسعين من القرن الميلادي العشرين . ويجد أبناء الحضارة العربية الإسلامية أنفسهم مدعوين للإسهام في معالجة هذا الموضوع مع أبناء الحضارات الأخرى وهم يعيشون في العقد الثاني من القرن الخامس عشر الهجري .

لقد ألحّ هذا الموضوع مرات خلال العقود الثمانية الماضية التي شهدت نشوب حربين طاحنتين بين دول الغرب وحرباً باردة على مدى أربعة عقود بين أكبر دولتين فيهم وعشرات الحروب المحلية الإقليمية في عدة أنحاء من عالمنا ، وكان من بين أسباب إلحاحه - فضلاً عن ما سببته هذه الحروب من تدمير لم تعرف البشرية له مثيلاً من قبل - هذه الثورة العلمية « التقنية » التي حدثت في الغرب وشهدت « تفجيراً » وما واكبها من تغيرات متسارعة في الهياكل والأنظمة السياسية والاقتصادية والفكرية وفي معادلة التوازن الدولي وفي المناخ السائد في عالمنا .

الجديد في إلحاح الموضوع هذه المرة هو أن الإنسان يواجه ، لأول مرّة في تاريخ البشرية ، خطر أن يصبح كوكبه الأرضي غير صالح لعيش أي شكل من أشكال الحياة .

في تناول هذا الموضوع من وجهة نظر إسلامية ستحاول هذه الدراسة التعرف إلى « الواقع الحضاري » في عالمنا بما فيه من نجاحات وإيجابيات وسلبيات ، وتقف بخاصة أمام الأخطار التي تتهدد العمران الحضاري ، ونبحث في كيفية مواجهتها ودفعها في ضوء عِبَر « التاريخ الحضاري » ، ونتشوّف رؤيةً لدورِ الإنسان المسلم في الإسهام في « تعمير » عالمنا .

---

* العضو العامل في المجمع الملكي - القاهرة - جمهورية مصر العربية .

الواقع الحضاري في عالمنا :

أ ـ هذه الأرض والمحيط الحيوي :

النظر في واقعنا الحضاري يقتضي منا بداية أن نستحضر مكانه ومسرح الأحداث الجارية فيه . وهذا المكان هو كوكب « الأرض » التي منها خلقنا الله وفيها يعيدنا ومنها يخرجنا تارة أخرى . وما أكثر ما يتردد الحديث في عالمنا عن « المحيط الحيوي » الذي يعيش فيه الإنسان . وهو يتكون من طبقة من الأرض اليابسة والماء والهواء تغلّف الكرة الأرضية . وقد وضع هذا التعبير « تيار دوشاردان » آخذاً في الاعتبار القوة المادية التي أصبح الإنسان مالكاً لها والمرحلة الجديدة في مسيرة الاكتشافات العلمية . وخصص أرنولد توينبي فصلاً من كتابه « الإنسان وأمه الأرض »(١) للحديث عن هذا المحيط الحيوي بلغة العلوم الطبيعية . « إن هذا المحيط الحيوي هو الموطن الوحيد لجميع أنواع الكائنات الحية المعروفة بما في ذلك الإنسان .. وهو محدود الحجم بشكل ثابت ، ويحتوي ، من ثم ، على قدر محدود من الموارد التي تعتمد عليها مختلف أنواع هذه الكائنات في الحفاظ على كيانها .. وبعض هذه الموارد متجدّد ، وبعضها الآخر لا يمكن تعويضه . وأي نوع من الأحياء يفرط في استهلاك الموارد المتجدّدة أو يستنزف ما لا يمكن تعويضه من الموارد يقضي على نفسه بالإنقراض . والصفة البارزة للمحيط الحيوي هي صغر حجمه نسبياً وضآلة الموارد التي يحتوي عليها .. وإن هذا المحيط الحيوي سيظل صالحاً للعيش إلى أن يفقد هذه الخاصية في نهاية المطاف بسبب قوى كونية خارجة عن السيطرة البشرية .. وقد أصبح واضحاً أن القوة المادية التي تستمتع بها البشرية قد ازدادت إلى درجة قد تجعل المحيط الحيوي غير صالح للسكن ، وفي الواقع فإنها ستؤدي إلى هذه النتيجة الانتحارية في فترة من الزمن ، هذا مالم يقم سكان العالم بعمل مشترك فوري حازم لوقف التلوث والنهب الذي يفرضهما على المحيط الحيوي الطبع البشري القصير النظر .. إن معين المحيط الحيوي من الطاقة الطبيعية ـ وهو في الوقت نفسه مصدر الحياة ومصدر القوة الكائنة في الطبيعة الجامدة التي سخّرها الإنسان الآن ـ لا ينشأ فيه . فهذه الطاقة الطبيعية كانت تشع إلى المحيط الحيوي من شمسنا ومن غيرها من المصادر

---

(١) صدرت ترجمة عربية لهذا الكتاب بعنوان « تاريخ البشرية » لأرنولد توينبي ، ترجمة نقولا زيادة ، الدار الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٨م .

الكونية ولا تزال تفعل ذلك باستمرار . ودور المحيط الحيوي في تقبل هذا الإشعاع الذي يأتيه من خارج حدوده لا يعدو أن يكون انتقائياً .. لكنّ هذا الدور الخيّر سيستمر ما دامت المصفاة في المحيط الجوي لا تعطل عن القيام بعملها ، وما دامت مصادر الإشعاع تبقى ثابتة .. » وتوجد ثلاثة أجزاء يتركّب منها المحيط الحيوي « أولها مادة لم تصبها الحياة بعد وليس فيها تركيب عضوي ، وثانيها مادة عضوية حية ، وثالثها مادة جامدة كانت حية وعضوية في وقت من الأوقات ولا تزال تحتفظ ببعض الصفات والقوى العضوية . وهذا الجزء الأخير ضخم إلى درجة مدهشة وقد زوّد البشرية ببعض أهم الموارد التي صانت حياتها (مثل المرجان والفحم الحجري) » .

لقد عني توينبي في حديثه عن المحيط الحيوي بتأمل المادة العضوية الحية سابقاً ، فلاحظ حجمها المذهل ، وتباين الحياة فيها إلى أجناس وأنواع وأن كل نوع يتمثل في عدد من النماذج ، والتنافس والصراع الذي قام بينها ، بما في ذلك الصراع بين البشر أنفسهم ، ووقف أمام حقيقة أن الإنسان كان أبعد الأنواع نجاحاً في التحكم في أجزاء يط الحيوي الأخرى ، الحية منها والجامدة على السواء ، « ففي فجر وعيه وجد الإنسان نفسه تحت رحمة الطبيعة غير البشرية، فصمم على أن يجعل من نفسه سيداً لها، وتقدم بتؤدة نحو بلوغ هذا الهدف ، ففي غضون العشرة آلاف السنة الماضية تحدى الإنسان الانتخاب الطبيعي واستعاض عنه بالانتخاب البشري ، بقدر ما كان ذلك في مقدوره .. وبقدر ما نجح الإنسان في الاستعاضة بالانتخاب البشري عن الانتخاب الطبيعي فقد انقص عدد الأنواع الباقية » .

حدث جديد للمحيط الحيوي في القرن الأخير من تاريخه الطويل ، هو تزايد قدرة بني البشر على التأثير فيه . وقد نتج هذا التزايد « عن تحولين جديدين : أولهما متابعة البحث العلمي المنظم الهادف وتطبيقه في التكنولوجيا ، وثانيهما تسخير الطاقة الطبيعية الظاهرة أو المستترة ، الموجودة في المحيط الحيوي في خدمة الأغراض البشرية » . وهكذا أصبحت القوة المائية مثلاً منذ بدء الثورة الصناعية في بريطانيا قبل قرنين تسخّر لإدارة الآلات التي تقوم بصنع أصناف عدة من السلع المادية ، ثم تمّ تصعيد هذه القوة المائية إلى قوة بخارية وقوة كهربائية. وجرى استعمال الوقود من فحم يمكن تعويضه إلى

فحم حجري وزيت معدني وأورانيوم لا يمكن أن يعوض . وأمكن من خلال استغلال الأورانيوم تفجير طاقة ذرّية منذ سنة ١٩٤٥م لها إشعاع ذرّي يسبب خطراً ساماً . وهكذا أصبح المحيط الحيوي مهدداً بعدم صلاحية العيش فيه ، وهذه نقطة حاسمة في تاريخه . وواضح أن الإنسان هو أول نوع من الكائن الحيّ في هذا المحيط الحيوي يكتسب قوة تمكنه من تحطيمه ، ومن ثم يكون القضاء على النوع الانساني نفسه .

إن هذه الأرض برؤية مؤمنة وبلسان الوحي هي من خلق الله سبحانه ، خلقها والسموات بالحق ، وجعل الظلمات والنور ، وأنزل عليها من السماء ماء ، وجعلها قراراً وجعل خلالها أنهاراً ، وصرّف الرياح والسحاب المسخّر بينها وبين السماء ، وأمسكها والسموات أن تزولا ، وجعلها مهداً ، ووضعها للأنام ، وجعلها ذلولاً لبني الإنسان ، وسخّر لهم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبحر ، وأنبت لهم الزرع ، وخلق لهم الأنعام ، وأحسن كل شيء خلقه فـ ﴿ **الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان** ﴾[١] .

لقد حكمت هذه الرؤية المؤمنة حديث العلماء المسلمين عن كوكبنا الأرضي ونظرهم فيه . وتجلّى ذلك في فواتح كتبهم ومتونها على السواء . يقول محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي - (المتوفى سنة ٧٢٧هـ = ١٣٢٧م) - في فاتحة كتابه « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر »[٢] : « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وأوحى في كل سماء أمرها ، وأدار الفلك الدوار ، وفرش الأرض مهاداً ، وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشي الليل النهار ، وبثّ فيها من كل دابة ، وبارك فيها ، وقدّر فيها أقواتها رزقاً للإنسان ، ومتاعاً للحيوان ، وجعل فيها قطعاً متجاورات ونباتاً وأعناباً وزرعاً ونخيلاً . وصنواناً وغير صنوان . وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث إلى كافة البرية ، أحمرها وأسودها وأعرابها ، والذي بلغ ملك امته ما زوى (ضمّ وجمع) له من مشارق الأرض ومغاربها، واطلع ليلة الإسراء على ملكوت السموات والأرض وأملاكها وعجائبها .. » .

---

(١) الرحمن : ٥ - ٧ .
(٢) شيخ الربوة محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي ، من كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، إعداد عبدالرزاق الأصفر ، سلسلة « المختار من التراث العربي » ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ١٩٨٣م .

واضح في هذه الرؤية المؤمنة للأرض وحدة لخلق الله ، والميزان الذي وضعه سبحانه لمخلوقاته ومنها الإنسان .

ب ـ هذا الإنسان وعمرانه البشري :

والنظر في واقعنا الحضاري يقتضي أيضاً أن نستحضر الحقائق المتصلة بهذا الإنسان وعمرانه البشري ، فيما يخص علاقته بمحيطه الحيوي . فهذا الإنسان بلغة العلوم الطبيعية كما يراه علماؤها اليوم ، ومنهم «كارلتون كوون» في كتابه «قصة الإنسان»(١) هو « مخلوق ذو قدمين لا نظير له بين الثدييات ، وهو مجهز بيدين ممسكتين قادرتين على إنجاز أدقّ الأعمال ، وبعينين تركزان الصور تركيزاً دقيقاً وتجسمانها ، وبدماغ فذ في سعة حجمه ، وبأعضاء صوتية قادرة على إخراج أدقّ الأصوات الضرورية للكلام . كان هذا الإنسان قد طوّر خصائصه الجوهرية قبل نصف مليون نسمة . وقد طرأت عليه منذ ذلك الحين بعض تغيرات فسيولوجية (جسمية وطبيعية) نتيجة لتكيفه للدرجات القصوى من الحرارة والضوء في أثناء تنقله بين مختلف المناخات على سطح الأرض . وقد رافقت تعديلات أخرى ، وخاصة نحو الدماغ وقابلياته الناهضة بالعمل والتعبير وتنظيم نفسه اجتماعياً » . ويتحدث « كوون » عن « قهر الإنسان التدريجي للطبيعة » الذي اضطره إلى العيش في جماعات ما فتئت تزداد حجماً وتعقيداً وكدّاً حتى اقترب عالم الإنسان اليوم من وحدة معقدة . وقد استهلك هذا الإنسان عدداً كبيراً مما على سطح الأرض من المواد حتى أصبحت أجزاء منها قفراً . ويلاحظ « كوون » أن النوع الإنساني دائب على تخريب سطح الأرض بسرعة متزايدة ، بل وجوّها أيضاً ، ولكن هذا الإنسان مخلوق واع ، وقد توقف توينبي أمام هذه الحقيقة ولاحظ أن « الضمير مستقر في الإنسان » « وثورة الضمير البشري ضد الشرّ دليل على أن الإنسان قادر على أن يكون خيراً » . وإذا وجد شرّ في المحيط الحيوي ، فإن فيه أيضاً ضميراً يدين ماهو شر ويكرهه . وبإمكان الكائنات البشرية أن تتصرف بعيداً عن الأنانية والمنفعة الذاتية ، وأن تضحّي بنفسها في سبيل الآخرين . وأنتهي إلى أن ما عند الإنسان من مقاييس وأفكار خلقية هي ذاتية وملازمة للمحيط الحيوي ، ومن ثم فهي كذلك للحقيقة الكلّية التي

---

(١) كارلتون كوون ، « قصة الانسان » ، ترجمة محمد توفيق حسين وعبدالمطلب الأمين ، المكتبة الأهلية ، بغداد ١٩٧٥م .

يكون المحيط الحيوي جزءاً منها . وهكذا « فالحياة والوعي والخير والشر إذن ليس أقل في حقيقتها من المادة المقترنة بها بشكل غامض في إطار المحيط الحيوي . وإذا كنا نخمّن أن المادة عنصر فطري من الحقيقة ، فليس هناك سبب للقول بأن هذه المظاهر غير المادية للحقيقة هي ليست عنصراً فطرياً كذلك » .

إن هذا الإنسان برؤية مؤمنة وبلسان الوحي هو من خلائق الله ، خلقه وعلّمه وجعله خليفة في الأرض ، وهداه النجدين ، وسخّر له ما شاء من إبداع خلقه . وهو حامل الأمانة المكرّم . وقد انطلق علماء المسلمين من هذه الرؤية للحديث عن خصائص النوع الإنساني ، فقال شيخ الربوة في الفصل الذي خصّصه لذلك في آخر كتابه « إن الإنسان لما كان صفوة العالم وزبدة الكون ومركز أشعة المحيطات والإحاطات والجامع لمفترق ما في الأرض والسموات ، وكان سلالة الوجود وخلاصته ونخبته وثمرته والغاية منه ، تعيّن أن نختم الكتاب بذكر ما ظهر من خصائصه وعجائب خلقه وأخلاقه ، إذ ذكرنا فيه من وصف المتولدات الثلاثة والأقاليم السبعة والبحار وما فيها ، وخصائصها وخصائص البلاد ، ولم يبق إلا الإنسان الذي هو المطلوب في ذلك كله .... وهو الخليفة الممكن في الأرض والمكلف لأداء الغرض » . ويلفت النظر في هذا الحديث الربط بين الإنسان وكوكبه الأرضي ، والتأكيد على أنه مخلوق مكلّف وممكّن . ويمضي شيخ الربوة في ذكر خصائصه فيقول « وكان من خصائصه أن الله تعالى جمع فيه قوى العالمين وأهله سكنى الدارين ، فهو كالحيوان في الشهوة والغذاء لعمارة الأرض ، وهو كالملائكة في العلم والعبادة والاهتداء ، فرشحه الله بعبادته وعمارة أرضه لخلافته ، وهيأه لمجاورته في جنته ودار كرامته » . وهذا الإنسان « من ضدّين متقابلين وجوهرين متباعدين أحدهما لطيف روح سماوي علوي نوريّ محيط حي مدرك ، والآخر كثيف جسد أرضي سفلي ظلماني ميت غير حساس . ولذلك سمي إنساناً ، تثنية إنس . كما يقال فعل وفعلان، إنس إنسان ». وقد « ركّب الله بدن الإنسان من المني والدم .. وجعله منتصباً في الهواء ، وسائر الحيوان معارض ، أو مائلاً عن الانتصابية أو لاصقاً بالأرض أو غائصاً فيها أو متغلغلاً تحتها . وجعله الله سبحانه حياً مالكاً أي هو ذو روح ونفس وعقل يتدبّر به، لا حياً مملوكاً ولا حياً فقط .. وملكه الأرض بما فيها فقسّم له الحيوان ثلاثة أقسام :

قسم يأكله ، وقسم يستعمله ، وقسم يقتله .. ثم سخّر الأرض وأجرى الأنهار وغرس الأشجار وبنى القصور والدور .. واتخذ من الآلات منها ما أعانه على أفعاله فيها .. ومن تخصيص صورة الإنسان أن الله خلقه في أحسن تقويم .. فهو حي ناطق ضاحك دون غيره .. جعلت الحلاوة في عينيه والجمال في أنفه والصباحة في وجهه والوضاءة في بشرته والملاحة في فمه والظرف في لسانه والحسن في شعره والرشاقة في قدّه واللباقة في شمائله .. وجعل له في يده من المنافع .. ومن خصائص الإنسان تمييزه بالعقل للنظر في الأمور .. » .

لقد تميّز الإنسان ، أنه مع كونه شخصاً واحداً ـ على حدّ قول شيخ الربوة ـ « يصدق عليه أنه ملكاني نوراني بالفضائل ، وأنه شيطاني ظلماني بالرذائل .

فإن تزكى فيا بشراه من بشر   وإن تدسى فقل يا زلة القدم

(البوصيري) » ، ويلفت النظر في حديث أصحاب الرؤية المؤمنة عن الإنسان أنه حديث مفعم بالأمل يؤكد على تكريم الله لبني آدم . وقد استخرج محمد إقبال من هذا التكريم في كتابه « أسرار الذات » أن الله هو ذات فريدة ، أنه الذات الخلاقة ، وعملية خلقه للكون ما تزال مستمرة ، ويشترك الإنسان معه في الخلق بتحملّه مسؤولية إحلال النظام محل الفوضى ، مستدلاً بآيات الخلق في سورة « المؤمنون » التي فيها ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾[1] . وهذا الإنسان المتشبه بالله في قدرته الخلاقة « هو الإنسان المتطور تطوراً مطّرداً في معراج المثل الأعلى الإلهي والمتحول تحولاً دائماً كائناً فريداً » ، كما يقول حسن صعب في شرحه لنظرية محمد إقبال[2] .

جـ ـ تأملات في واقع عالمنا الحضاري :

نتابع النظر في الواقع الحضاري لعالمنا المعاصر ، عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فنجد بداية مناخاً من نوع خاص مخيماً عليه فيه ما يبعث على التفاؤل والكثير مما يبعث على التشاؤم . وقد أشارت السيدة « غروهارلم بروتلاند » ـ رئيسة اللجنة العالمية للبيئة والتنمية ـ إلى هذا المناخ في مقدّمتها لتقرير اللجنة الذي صدر مؤخراً باسم « مستقبلنا المشترك »[3] ،

---

(١) الآية : ١٤ .

(٢) حسن صعب ، « الإسلام والإنسان » ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨١م .

(٣) اللجنة العالمية للبيئة والتنمية ، « مستقبلنا المشترك » ، ترجمة محمد كامل عارف ، عالم المعرفة ، عدد : ١٤٢ ، الكويت .

فذكرت كيف وقعت مآسٍ عدة خلال إعداد التقرير « مثل المجاعات الإفريقية ، وتسرب الغاز في مصنع المبيدات في بوبال بالهند ، والكارثة النووية في تشيرنوبيل في الاتحاد السوڤييتي » ، وبينما كانت أزمة الديون تفعل فعلها في الدول النامية مع هبوط الأسعار للسلع الأولية وهبوط الدخول الفردية ، كان مجال العلاقات الاقتصادية الدولية يثير القلق في العالم أجمع . وأشارت إلى أن أعــوام الستين شهدت أوقاتاً للتفاؤل والتقـدم « حين كان هناك أمل في عالم أكثر شجاعة وفي أفكار دولية تقدمية بعد أن غدت المستعمرات التي تحظى بالموارد الطبيعية دولاً مستقلة وبدا أن هناك سعياً جاداً نحو مثل التعاون المشترك : ولكن أعوام السبعين شهدت مفارقة تمثّلت في الانزلاق البطيء إلى حالات ردود فعل وعزلة في وقت كانت فيه سلسلة مؤتمرات للأمم المتحدة تقدّم الأمل بتعاون أعظم في معالجة القضايا الرئيسية . وتميّز عقد الثمانين بالتراجع عن الاهتمامات الاجتماعية ، والتفات العلماء إلى الخطر الذي يتهدّد البيئة ، بعد أن أصبح التردّي البيئي مسألة حياة أو موت بالنسبة للأمم النامية بعد أن كان في بادىء الأمر مشكلة تخص الأمم الغنية مقترنة بالثورة الصناعية » .

لقد سلّط تقرير « مستقبلنا المشترك » أضواء على واقع عالمنا الحضاري ، شأن كثير من التقارير الأممية والدراسات التي صدرت حديثاً . وتوجد إيجابيات في هذا الواقع يوقف أمامها ، « فنحن نستطيع أن ننقل المعلومات والبضائع عبر كوكبنا بأسرع مما كان في أي وقت مضى ، ونستطيع أن ننتج غذاء أكثر وسلعاً أكثر باستثمار موارد أقل ، وتقدم لنا تكنولوجيتنا وعلومنا ، على الأقل ، القدرة على النظر بصورة أعمق في أنظمة الطبيعة وفهمها بشكل أفضل . ومن الفضاء نستطيع أن نرى وندرس الأرض كنظام تتوقف صحته على صحة جميع أجزائه . ونحن نملك القدرة على المواءمة ما بين الجهود البشرية وقوانين الطبيعة ، ونؤمن الازدهار خلال ذلك وفي هذا يستطيع تراثنا الثقافي والروحي أن يعزز مصالحنا الاقتصادية ويدعم ضرورات بقائنا » . وهناك في هذا الواقع نجاحات منها « انخفاض معدلات الوفيات بين الأطفال ، والزيادة في طول أعمار الناس ، وارتفاع نسب البالغين القادرين على القراءة والكتابة في العالم ، ونسبة الأطفال الذين يدخلــون المدرسة ، وزيادة الانتاج العلمي للغذاء بأسرع مـن نمـو السكان » .

لكن هذه العمليات نفسها التي أدّت إلى هذه المكتسبات هي التي أوصلت إلى اخفاق التنمية من منظور عالمي تجسده هذه الفجوة ما بين أمم غنية وأخرى فقيرة تتسع بدل أن تضيق ، تدل عليه أرقام عدد الناس الجائعين في العالم وعدد الأميين منهم وعدد المحرومين من المياه النقية أو المساكن الصالحة . كما أوصلت هذه العمليات إلى إخفاق في إدارة بيئتنا البشرية بفعل اتجاهات بيئية تهدّد بتغيير كوكبنا وتهدد بالخطر حياة العديد من الكائنات الحية التي تقطنه . ففي كل سنة تتحول ستة ملايين هكتار من الأرض الجافة المنتجة إلى صحاري . ويوجد أكثر من أحد عشر مليون هكتار من الغابات تدمر سنوياً . وتقتل الأمطار الحامضية غابات وبحيرات وتخرب التربة . ويؤدي حرق الوقود الاحفوري إلى نشر ثاني أكسيد الكربون في الجو مما يتسبب في الزيادة التدريجية للحرارة في العالم ، وهو ما يسمى « تأثير البيت الزجاجي » ، الأمر الذي يسبب رفع مستويات البحار . وتهدد غازات صناعية أخرى باستنزاف غلاف الأوزون الذي يحمي الكرة الأرضية إلى الحدّ الذي يمكن أن يرتفع معه بشكل حادّ عدد إصابات الناس والحيوانات بالسرطان ، وتتعرض للاختلال دورة الغذاء في المحيطات . وتطرح الصناعة والزراعة مواداً سامة في مكونات الدورة الغذائية للإنسان وفي طبقات المياه الباطنية إلى حدّ يتجاوز إمكانية التطهير .

إن من أهم ما يخرج به المتأمل لواقعنا الحضاري العالمي هو أن التغيرات التي حدثت بفعل الثورة التقنية في العالم ، أدّت إلى تشابك الاقتصاد العالمي والبيئة العالمية بطرائق جديدة . ففي الماضي كنا ـ كما يقول تقرير مستقبلنا المشترك ـ « ننشغل بتأثيرات النموّ الاقتصادي في البيئة . أما الآن فنحن مضطرون إلى الاهتمام بتأثيرات الاجهاد البيئي من تدهور للتربة وأنظمة المياه والجو والغابات على مستقبل اقتصادنا . وكنا في الماضي القريب مضطرين إلى مواجهة الزيادة الحادة في الاعتماد الاقتصادي المتبادل بين الشعوب . أما الآن فنحن مضطرون إلى أن نعتاد على التبعية البيئية بين الشعوب . فالبيئة والاقتصاد أخذا يصبحان ـ أكثر من أي وقت مضى ـ أشد التصاقاً محلياً وإقليمياً وقومياً وعلى المستوى الشامل في شبكة واحدة ملتحمة من الأسباب والنتائج » . وهكذا نجد أن إفقار قاعدة الموارد المحلية يمكن أن يؤدي إلى إفقار مناطق أوسع ، فقيام مزارعي الأراضي

المرتفعة بإزالة الأحراج يسبب الفيضان في مزارع الأراضي المنخفضة ، وحدوث التلوث الصناعي يحرم صيادي السمك المحليين من صيدهم ، وتدهور الأراضي الجافة يؤدي إلى هجرة الملايين من الناس من أوطانهم . وهذا يعني أنه يوجد تشابك بين الأزمات التي يشهدها عالمنا يبرز حقيقة الاعتماد المتبادل القائم بين أنحائه المختلفة .

يخرج المتأمل في الواقع الحضاري في عالمنا أيضاً بأن الأواصر بين البيئة والتنمية والصراع أواصر معقدة . وهي في حالات كثيرة لا تفهم على الوجه المطلوب . لكن النظرة الشاملة للأمن الدولي والقومي يجب أن تتجاوز التركيز التقليدي على القوة العسكرية وسباق التسلح . فالمصادر الحقيقية لانعدام الأمن تشمل أيضاً التنمية غير المستديمة . وقد تحدّث تقرير « مستقبلنا المشترك » ـ وهو ينبه إلى هذا الأمن ـ عن « الاجهاد البيئي كمصدر للنزاع » وعن « النزاع كسبب للتنمية غير المستديمة » . فالتفاعل بين الفقر والظلم وتدهور البيئة والنزاع جار على قدم وساق وبطرائق معقدة وفعالة . ومن مظاهره ظاهرة من يسمون « لاجئي البيئة » التي تشتمل أسبابها الكامنة على تردي قاعدة الموارد الطبيعية وقدرتها على إعالة السكان ، ومثل عليها أحداث القرن الإفريقي منذ السبعينات التي شهدت هرب زهاء عشرة ملايين إفريقي في عامي ٨٤و٨٥ من ديارهم بسبب الحروب التي نشبت إثر حدوث الجفاف وكان من أسبابها سوء استخدام الأرض المستمر على فترة طويلة . وواضح أن سوء الاستخدام هذا مرتبط بالاستغلال الذي هو التعبير الصارخ عن الظلم . وقد أوضح مشروع الهيئة للسلفادور ـ الذي أعدته الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية إثر الأحداث التي جرت هناك مؤخراً ـ « أن الأسباب الأساسية للصراع الدائر ليست أسباباً بيئية بقدر ما هي أسباب سياسية ، نابعة من معضلات تتعلق بتوزيع الموارد في أرض مكتظة » . وأحد الأمثلة على هذا الاستغلال سياسة الفصل العنصري في جنوب إفريقيا ، فمن الطرائق التي تعتمدها هذه السياسة ما يعرف باسم « نطاق أراضي الوطن » الذي يخصّص ١٤٪ من أراضي البلاد إلى ٧٢٪ من السكان ، وينجم عن ذلك هرب الشباب السود ممن هم في سن العمل من هذه الأراضي التي أنهكتها الزراعة والرعي بحثاً عن العمل في المدن ـ وهناك يُوَاجهون « ظلماً اجتماعياً ـ اقتصادياً قاهراً وتمييزاً عنصرياً غاشماً ، فيناضلون في مواجهة ذلك »

ويعمد النظام « إلى قمعهم فيبحث ضحاياه عن ملجأ عبر الحدود ، فيعتمد نظام جنوب إفريقيا إلى توسيع رقعة الصراع لتشمل الدول المجاورة وتقع المنطقة بأسرها أسيرة صراع أوسع » . ويذكرنا هذا الحديث عن النظام العنصري في جنوب إفريقيا بما يقوم به النظام العنصري الصهيوني في فلسطين ، وتتداعى إلى الخاطر السياسات التي تمارسها القاعدة الاستعمارية الاستيطانية الإسرائيلية في منطقة الوطن العربي .

لقد شهد الواقع الحضاري في عالمنا في مرحلة الحرب الباردة نشوب صراعات كثيرة . وفي خضم هذه الصراعات وهذه الحرب بلغ الإنفاق العسكري في عالمنا ترليون دولار سنوياً ، مستهلكاً في بلاد كثيرة نسبة عالية من إجمالي انتاجها الوطني ، وخيّم شبح الحرب النووية مهدداً العمران البشري ، وامتلأت مخازن السلاح بأسلحة الدمار الجماعي الأخرى ، وانتشرت « ثقافة السلاح » التي استخدم فيها نصف مليون عالم في أبحاث التسلّح على الصعيد العالمي ، ودأبت دول كثيرة على التمسك بهذه الثقافة ونشرها وبخاصة الدول المنتجة للسلاح ، وقد قدر تصدير السلاح بأكثر من ٣٥ مليون دولار سنوياً التهمت فيها تجارة السلاح ما يربو على ٣٠٠ مليار دولار خلال العقدين الماضيين ثلاثة أرباعها على شكل مبيعات لما يعرف بالبلدان النامية . وهكذا يتجلّى الصراع سبباً لحدوث ما يسميه تقرير مستقبلنا المشترك « التنمية غير المستديمة » .

إن هذا الواقع الحضاري في عالمنا يؤثر على حياة الإنسان أينما كان على سطح كوكبنا . ويقف كثيرون اليوم في مختلف الأنحاء وهم يتأملونه أمام « حروب محلية إقليمية وصراعات دموية وفقر وسوء تغذية وأمراض وديون وتدخل صندوق النقد الدولي وإنهيار أسعار وكوارث بيئية » تفعل فعلها في العديد من بني البشر ، وبخاصة في الجنوب من عالمنا الذي تزداد فجوة الثورة القائمة بينه وبين الشمال اتساعاً . وإذا كان الشعور بالتفاؤل قد عمّ بعض الأوساط في أعقاب انتهاء الحرب الباردة بشأن هذا الواقع الحضاري حيث بدا لها « أن الأزمة الاقتصادية العالمية انتهت ، وقامت الديمقراطية في أماكن لم تكن متوقعة ، ولم يعد بالإمكان التعرف على الخريطة الأيدولوجية والاجتماعية في القارة الأوروبية ، وأصبحت المؤشرات في البلاد المتطورة تبشر بمرحلة جديدة من النمو تستمر عدة عقود » ، إلا أن هذا التفاؤل سرعان ما اصطدم بحقيقة أن

المشاكل التي تنجم عن النظام العالمي السائد ستستمر من مشكلة عدم التوازن بين البلدان إلى مشكلة الانتقال العسير لنظام السوق إلى مشكلة المظالم بين المجموعات الاقتصادية فضلاً عن مشاكل البطالة والمجاعات وفوضى الأسواق المالية والمواد الأولية . ويتطلّع البعض إلى التحديث التقني كحلّ يكفل سير الأمور نحو الأحسن وبأقل ما يمكن من الشرور ، ولكن البعض الآخر ينسبه إلى أنه « لا يمكن تأمين النمو المستمر فعلاً إلا إذا توقفت سياسات الدول الكبرى الاقتصادية عن السير في الاتجاه المعاكس ، إذ لا يمكن للمضاربات الأمريكية المفرطة في الولايات المتحدة والعجز بالوفر الحقيقي وعودة التضخم وزيادة معدلات الفائدة وديون الشركات أن تسلم من الهزّات الخطيرة في أسواق البورصة ، كما أن النمو بشكل عام حتى في أكثر البلاد ثراء لا يمس إلا فئة محدودة من السكان ، والبنى التحتية لا تزال متخلّفة في عدد من البلدان الغنية نفسها سواء أكان ذلك بالنسبة للجسور أو شبكات الطرق أو منشآت التعليم في وقت لا ينعكس فيه تطور النفقات العامة على هذه البنى ، هذا فضلاً عن أن العزلة أصبحت مهيمنة في المدن الكبرى فالعديد من الناس غارقون تحت كتلة من المعلومات ويتجه بعض هؤلاء في المجتمعات الغنية بالدرجة الأولى إلى الاكتفاء بالتمتع بمشهد القوة وملذات الأقلية وتعاطي المكيفات »[(١)] . وتؤكد دراسات غربية « أن السياسات الاقتصادية في الغرب لا تزال تتبنى مفهوماً للتنمية يجعلها تنمية لصالح الأغنياء والموسرين ، ولا تزال غافلة عن متطلبات حماية البيئة في تتابع الحديث التقليدي عن التكاليف والعائد غير المادي متجاهلة الحاجة إلى نطاق اقتصادي جديد يسلك مسلكاً مخالفاً للتكاليف والعائد غير المادي . وقد أدّت هذه السياسات إلى زيادة أعباء العالم في الجنوب وإلى استقطاب الثروة والدخل في الشمال . وحدث هذا الاستقطاب أيضاً داخل مجتمعات الرخاء نفسها فارتفع مؤشر البطالة فيها ليصل في الجماعة الأوروبية مثلاً إلى ١٥٪ من القوى العاملة ، واكتسبت الممارسات الاقتصادية المشبوهة أو السوداء التي يتم بعضها عن طريق العنف أهمية كبيرة » . وتبدو العواقب النهائية لهذه السياسات في رأي أصحاب تلك الدراسات « غامضة ومشكوكاً فيها »[(٢)] .

---

(١) انظر جاك آتالي ، « ملامح المستقبل ؛ خطوط الأفق » ، ترجمة أحمد عبدالكريم ، دار طلاس ، دمشق .

(٢) برنار هام ، « أوروبا تمثل تحدياً للعلوم الاجتماعية » ، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، عدد : ١٣١، اليونسكو .

لقد دأبت التقاريرالأممية التي تناولت هذا الواقع الحضاري في عالمنا خلال العقدين الماضيين على التحدث في المشكلات التي تتحدّى البشرية جمعاء . فتقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال مثلاً الذي صدر عن اليونسكو عام ١٩٨١م بعنوان « أصوات متعدّدة وعالم واحد » ، أوضح أن تحديات مشكلات البيئة والاستخدام الرشيد للموارد الطبيعية لا سيما غير المتجدّدة منها ، وأزمة الطاقة ، والعمالة ، والتضخم ، والكفاح ضد الآفات الاجتماعية التي تنشر داخل الأمم وتسود فيما بينها ، والدفاع عن حقوق الإنسان ، والكفاح ضد مخلّفات الاستعمار ، وحماية السلام ، ونزع السلاح ، هي تحديات يرتبط بعضها ببعض ولا يمكن مواجهتها إلا بتضافر القوى والإرادة المشتركة ، وهناك حاجة ملحّة لإيجاد حلول عالمية لهذه المشكلات . واوضح أن ثورة الاتصال التي نعيش في كنفها جعلت عالمنا أكثر ترابطاً ، وأصبح مفهوم العالم عند إنسان العصر بفعلها أشمل وأعمق . وكان إعلان الأمم المتحدة الخاص بإقامة نظام دولي جديد الذي صدر في أيار - مايو ١٩٧٤م ، قد لاحظ وجود فجوة كبيرة آخذة في الاتساع بين دول غنية وأخرى فقيرة وأن « مكاسب التقدم التقني ليست مقسمة بالتساوي بين أعضاء المجتمع الدولي ، وقد ثبت أنه من المستحيل تحقيق تنمية عادلة ومتوازنة للمجتمع الدولي في ظل النظام الاقتصادي الحالي ، ذلك أن الفجوة بين « البلدان المتقدمة » « والبلدان النامية » مستمرة في ظل نظام أقيم في وقت لم يكن فيه للبلدان نامية وجود كبلدان مستقلة ، وهو نظام يديم عدم المساواة » . ويتجلّى إنعدام المساواة في هذا النظام على مختلف الصعد .. استغلال موارد المحيطات بصورة سيئة أو بصورة بالغة الكثافة من جانب قلة من الدول تنتهك الحق المتكافىء لجميع الدول الأخرى في التمتع بنصيبها مما هو هبة الطبيعة للبشرية جمعاء ، .. وما يتم على صعيد انتاج الغذاء وتوزيعه .. وعلى صعيد التقنية والصناعات .. وعلى صعيد تأثير الإنسان على البيئة .. وعلى صعيد بنى التجارة وشروط التبادل التجاري .. وعلى صعيد استخدام المواد الخام .. وعلى صعيد العمل والعمالة . وما يصدق على هذا النظام الاقتصادي يصدق على نظام الاتصال الدولي ، وعلى النظام السياسي الدولي ، أي على النطاق العالمي بجوانبه المختلفة(١) .

---

(١) اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال ، تقرير ماكبرايد ، « أصوات متعددة وعالم واحد » ، ١٩٨١م . ويوجد حديث عن هذه التقارير الأممية في كتاب أحمد صدقي الدجاني ، وحدة التنوع وحضارة عربية إسلامية في عالم مترابط » ، دار المستقبل العربي ، القاهرة .

الأخطار التي تهدّد العمران الحضاري في عالمنا :

أ ـ خطــــران :

نستطيع من خلال تعرفنا إلى هذا الواقع أن نرى خطرين مترابطين ماثلين يتهدّدان العمران الحضاري في عالمنا المعاصر بفعل هذا النظام العالمي الذي يحكمه .

الخطر الأول يواجه محيطنا الحيوي ويهدد كوكبنا الأرضي وجميع المخلوقات فيه ومنها الإنسان . ويتمثّل في طغيان بعض بني البشر على البيئة وامتهانهم لها والتعدي عليها بحجـــة « قهر الطبيعة ». كما يتمثّل في « التدخل » في « ناموس الخلق » دون ضابط « تغير خلق الله » . وقد رأينا ـ فيما سبق من الحديث ـ أمثلة على هذا الطغيان على البيئة . أما التدخّل في ناموس الخلــق دون ضابط فإن أمامنا أمثلة عليه في بعض تطبيقات « الهندسة الوراثية » ، بعــد أن توصل المشتغلون بعلــم الحياة إلى شطر وحــدة الوراثة ـ الجين ـ وبنائه من جديد ، فأحدثوا ثورة على صعيد الصناعة العلمية قوامها هندسة عملية الحياة للأغراض التجارية « بيوتكنولوجي ـ التقنية الحيوية » . والواقع القائم اليوم على هــذا الصعيد يشير إلــى أن قــدرات المشتغلين بالطب التقني من أطبـــاء وباحثين « تجاوزت العرف التراثي والأخلاقي للبشر » على حد تعبير المحرّر العلمي لمجلة نيوزويك. والموضوع مطروح على الكافة ومتداول على صعيد المشتغلين بالطب التقني الذين لا يقفون في بحوثهم عند خطوط حمر ، وعلى صعيد الحكومات التي لها اهتمام قانوني في تأمين انتقال الحياة من جيل إلى آخر بشكل منتظم ، وعلى صعيد المجتمعات التي تحكمها اعتبارات دينية وخلقية ، وعلى صعيد رجال الأعمال الذين يريدون توظيف هذا الجديد واستثماره(١) .

الخطر الآخر يواجه الإنسان بخاصة ويتمثّل في طغيان بعض البشر على إخوة لهم في الإنسانية وبغيهم عليهم بغير حقّ في صورة « قارونية » معاصرة . ومن مظاهر القهر السياسي بصوره المختلفة واتساع الفجوة بين قلة غنية وكثرة فقيرة وتفجر الصراعات بين الأقوام والملل والطبقات .

---

(١) يراجع في هذا الموضوع كتاب أكاديمية المملكة المغربية عن « تقنيات الإنجاب » (ندوة نوفمبر) تشرين الثاني ١٩٨٦م ، ونيوزويك انترناشيونال بتاريخ ١٩٨٥/٣/١٨م ، وكتاب إدوارد يوكين « صناعة الحياة » ، ترجمة أحمد مستجير مصطفى ، مكتبة غريب ، القاهرة .

ب ـ أزمة السلام الحادّة وسياسة التوتر :

إن من أعظم نعم الله على الإنسان أن يؤمنه من خوف . وواضح أن السلام في عالمنا يعاني أزمة حادّة بسبب طغيان بعض بني البشر وبغيهم بغير حق على محيطهم الحيوي وعلى إخوة لهم في الإنسانية . وتتجلّى هذه الأزمة الحادّة أمامنا حين نستحضر الحروب الضروس التي نشبت هنا وهناك في العقود الأربعة الماضية ، ونتأمل في شبح الكارثة النووية الذي لا يفتأ يلحّ على مخيلة الإنسان منذ تدمير هيروشيما ونجازاكي ، ونتابع سباق التسلّح الجاري على سطح كوكبنا . وتساعدنا الإحصاءات على تصوّر هذه الأزمة ، فعالمنا المعاصر شهد في أعقاب الحرب العالمية ـ إبان ما اصطلح على تسميته بالحرب الباردة ـ نشوب أكثر من مئة وخمسين حرباً بالأسلحة التقليدية . وتقدّر دراسة أجرتها الأمم المتحدة أن عدد قتلى هذه الحروب تجاوز العشرين مليوناً من بني البشر . وقد سبق أن أشرنا إلى الإنفاق العسكري وثقافة التسليح . ويتضمن المخزون العالمي من السلاح أرقاماً هائلة من الأسلحة التقليدية وغير التقليدية . ويحدث هذا الإنفاق على السلاح بينما يعاني ثمانمئة مليون إنسان من فقر وحرمان مطلق في بعض مناطق عالمنا ، ويعاني خمسمئة مليون من سوء التغذية . وتوجد عدة ملايين لا يتاح لهم الماء الصالح للشرب . وتبدو المفارقة حادّة حين نجد أن خُمس نفقات التسليح تكفي للقضاء على الجوع في العالم . وقد أوردت مجلة « رسالة اليونسكو » إحصاءات أخرى في عددها الخاص بالسنة الدولية للسلام عام ١٩٨٦م وأوجزت القول وهي تقدّم هذا النوع : « إن الحاجة ملحّة إلى فلسفة للسلام وطريقة لممارسته »(١) .

تبدو في هذه الأزمة الحادّة التي يعاني منها السلام في عالمنا المعاصر أن هناك عدة مسببات للتوتر في المجتمعات والدول تؤدّي إلى نشوب الحرب . ويمكن أن نجمل هذه المسببات في الاستعمار والاستعمار الاستيطاني العنصري بخاصة ، والاستعلاء القومي ، والاستغلال الطبقي ، والتعصب المذهبي ، والصراع العقيدي ، والإرهاب الرسمي وغير الرسمي ، وواضح أن هذه الأسباب تؤدّي ـ منفردة أو مجتمعة ـ إلى نشوب الحروب العدوانية التي تعاني منها البشرية أشد معاناة . وقد أدان الإنسان هذه الحروب العداونية

(١) تفصيل الحديث في هـذا الموضوع في الباب الأول من كتاب أحمد صدقي الدّجاني ، « وحدة التنوع » وفيه إشارة إلى مصادر البحث جميعها .

التي تجسّد البغي بغير حقّ ، ومجّد التصدي لها بالمقاومة أو بالثورة الاجتماعية أو بالنضال من أجل التحرير ، أو بإشاعة الثقة ، واعتبر ذلك كله محملاً من أجل استتباب السلام وعودة الأمور إلى طبيعتها .

إن تأمل مسببات التوتر جميعها التي تتفاعل في صنع أزمة السلام في عالمنا يصل بنا إلى أنها تولد وتترعرع وتتفاقم حين يغيب العدل « ويسود نظام قيم نسبي يسيطر فيه مبدأ الأسود والأبيض ، ويجري إنكار الغير وعدم التسليم باختلافهم فيختل التوازن ويصبح من المحتّم أن يخيّم شبح الحـــرب » . حين يغيب العـــدل يجري التعامـل وفق معيارين ، وتتفجّر الصراعات . ومن هنا برز السلام مقترناً بالعدل منذ أن كان الاجتماع الإنساني . وربط الإنسان بينهما باعتبارهما هدفين يسعى إلى تحقيقهما ، وبحث الفكر الإنساني في كيفية تحقيق ذلك .

جـ - خلل النظام العالمي :

لا بديل للبشرية إذا أرادت مواجهة الخطرين المترابطين اللذين يتهدّدانها ومحيطها الحيوي من أن تضع اليد على الخلل الذي يعاني منه النظام والذي يحكم عالمنا ويديم عدم المساواة وتعالجه .

إن هذا النظام كما وصفه أنور عبدالملك في كتابه « تغيير العالم » هو « شكل سياسي واقتصادي واستراتيجي وإعلامي تنظم في إطاره وحدات وأنماط من العلاقات ، تنطوي على مولدات ومواجهات وعمليات تنمية وتطور اجتماعي وتحديث ، وهي تقفز أحياناً بسرعة هائلة ثم تتوقّف أو ترتّد وتصاب بضربات مضادة تكسر شوكتها » . ويعود هذا النظام في أصوله إلى النظام الأوروبي الذي بدأ يتكون في أوروبا منذ القرن السادس عشر الميلادي . وقد حكم هذا النظام الأوروبي العلاقات بين الدول الأوروبية في أوروبا ثم في خارجها في القارات الأخرى إبان عصر الاستعمار الأوروبي الذي بلغ ذروته في القرن التاسع عشر الميلادي . ولنا أن نستحضر هنا كيف رسم هذا النظام خريطة أوروبا في مؤتمر ڤينا عام ١٨١٥م ، ثم كيف تطور ورسم خريطة العالم في مؤتمر فرساي عام ١٩١٩م ، ثم كيف حمـل صفة العالمية عند إنشاء منظمة الأمم المتحـــدة

عام ١٩٤٥م ، ثم كيف دخل مرحلـــة جديدة بعد انتهاء الحـــرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفييتي وحدوث زلزالي أوروبا الشرقية والخليج ، تردد الحديث فيها على لسان الإدارة الأمريكية عن إقامة نظامي عالمي جديد . ولقد أكدت ممارسات طارحي هذا الشعار المتتالية في العامين الماضيين أن لا جديد في هذا النظام وقواعده ، وكل ما هناك هو سعي دولة واحدة إلى الإنفراد بقيادته واستخدام الأمم المتحدة مظلة لممارستها التي تخدم مصالحها ، الأمر الذي جعل المتحكمين في هذا النظام العالمي أكثر جرأة على ممارسة التدخل واعتماد معيارين[1] . وقد حذرت عدة دراسات مستقبلية لهذا النظام من احتمال حدوث مشهد الإنفراد هذا ، ونبهت إلى خطورة « الثقافة الحسية » التي يحتمل أن تسيطر على المجتمعات المترفة وهي « ثقافة دنيوية إنسانية تجريبية تقوم على الطبيعة والواقعية والرؤية والوهم وذات طبيعة يومية مسلية بشكل عام ومحركة للشهوة بشكل خاص وسطحية انتقائية تظهر في شكل موضات وتعتمد على التكتيك المعقد والتأثير التجاري المادي » . وتوقعت هــــذه الدراسات أن يتزايد بفعل هـــــذه الثقافة الحسيـــــة « الاغتراب والفردية وانهيار الأسرة كمؤسسة اجتماعية » ، وأن يصبح الإنسان في مواجهة عالم التقنية . كما توقعت أن تسود قيم هذه الثقافة الحسية في دائرة الحضارة الغربية ، وأن يحاول « الانغماسيون » في المجتمعات الأخرى تبنّيها دون أصالة لأنها لن تكون نابعة من علاقة أصلية عضوية مع قوى الانتاج والتقنية ، الأمر الذي يؤدي إلى ردود أفعال قوية لدى الجماهير الشعبية في شكل عقائد ترفض هذه الثقافة وتراها ملازمة للتبعية ، وفق تشوّفات كاهن وراينر ومايلز وكول وجيرشني وكوهن وغيرهم من دارسي المستقبل في الغرب[2] .

لقد رأينا حدوث بعض هذه التوقعات في أنحاء عدة من دائرة الحضارة الغربية ، وكانت أحداث لوس انجلوس في ربيع عام ١٩٩٢م مثلاً من بين أمثلة . وتضمنت قراءة دارس المستقبل ألفين توفلر لهذه الأحداث تفسيراً اقتصادياً ، وجاء فيها « أن هذه الانتفاضة أكبر من مجـــرد احتجاج على وحشية رجال الشرطـــة أو أن تكـــون عرضاً

(١) أنور عبدالملك ، « تغيير العالم » ، عالم المعرفة ، الكويت .

(٢) عرض عبدالمنعم سعيد هذه التشوفات في كتاب «مستقبل النظام العالمي » مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

لأمراض قديمة . فالعنصرية والبطالة التي تجلّت فيها أفرزهما نظام جديد لتكوين الثروة يجتاح المجتمعات الصناعية ، تشهد فيه الموجة الثالثة التقنية صناعات أقل ضخامة وتقسيم الأسواق الكبيرة إلى أسواق صغيرة ويحدث هذا التفتيت أيضاً لوسائل الإعلام . وتظهر أنواع جديدة من الأسر هي « عائلات السندوتش » التي يقوم فيها زوجان برعاية الأبناء والآباء . وبحلول هذه الموجة تغيرت حاجيات الاقتصاد المتقدّمة .. وتم استبدال مبدأ بوتقة الانصهار بين الأجناس بمبدأ طبق السلطة الذي يسمح للجماعات المختلفة الاحتفاظ بهويتها الثقافية مع المطالبة بالعدالة والكرامة والفرص الاقتصادية المتساوية في الوقت نفسه . ويبرز اقتصاد جديد يعتمد على القدرات العالية والإبداع والمهارات المكتسبة وغير المكتسبة والعلوم التحويلية والاتصال الفوري وبنية أساسية الكترونية . وقد أصبحت البطالة في ظل هذا النظام مسألة كيفية ونوعية لا يكفي في حلها توفير فرص العمل بل لا بد من توفير المهارة » . ونبّه توفلرالى أن ألسِنةَ اللهب التي امتدت من لوس انجلوس إلى اتلانتا تحمل دروساً غير ملحوظة لأوروبا بما يجري فيها من تصاعد روح قومية ونزعات عرقية وحركات حليقي الرؤوس[1] . وما يلفت النظر أن تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٢م الصادر عن البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة خصّص فصلاً خاصاً تحدّث فيه عن اتساع الفجوة في الفرص العالمية ، وفصلاً آخر عن الأسواق العالمية والدول الفقيرة والفقـــراء . كما أن تقرير مستقبلنا المشترك أكـــد شدة التحدي الحضري الذي يواجه عالمنا من خلال تضخم المدن وانتشار أحياء الفقر فيها . ودعا التقريران إلى عمل مشترك لإصلاح الخلل في النظام العالمي القائم وقدّما أفكاراً على هذا الصعيد .

د ـ أزمــة القيــــم :

إن الخلل في النظام العالمي القائم كامن في « قيمه » التي تنطلق من رؤية مادية دهرية ملحدة غلبت على حضارة الغرب . فهذا النظام الذي يديم عدم المساواة ويغيب فيه العدل ويعاني فيه السلام من أزمة حادّة هو نظام يعاني « أزمة قيم » تفعل فعلها في

(١) نشرت جريدة الأهرام ترجمة لمقال توفلر في شهر أيار ١٩٩٢م .

مختلف جوانب حياتنا . وتتجلّى أزمة القيم هذه فيما نراه من اعتماد الدول المتحكمة فيه « نظام قيم نسبي يكيل بكيلين ويقيس بمقياسين » ، تحلّ لنفسها به ما تحرّمه على الآخرين ، تأمرهم بالبرّ وتنسى نفسها ، لا تحبّ لهم ما تحبه لنفسها . وتقع هذه الدول التي تعتمد نظام قيم نسبي في شرك التمييز العنصري الذي تعرفه الاتفاقات الدولية بأنه كل تمييز أو استثناء أو تقييد أو تفضيل يقوم على أساس العرق أو اللون أو النسب أو الأصل القومي أو الجنسي ، ويستهدف أو يتبع تعطيل أو عرقلة الاعتراف بحقوق الإنسان والحرّيات الأساسية أو التمتع بها أو ممارستها على قدم المساواة في مختلف الميادين . كما تتجلّى أزمة القيم هذه في تسلط فكرة « القوة الغاشمة والمصلحة المستأثرة » على بعض الدول المتحكمة في النظام العالمي بدلاً من فكرة الحق والعدل ، وتسلط فكرة « الصراع للبقاء » بدلاً من فكرة المحبة والتعارف والتعاون في نطاق العلاقات بين الناس ، كما تتجلّى على صعيد علاقة الإنسان بالطبيعة باعتبارها عدواً يصارعه ويقهره ، الأمر الذي أدّى إلى الإخلال بالتوازن الطبيعي على سطح كوكبنا وفي الفضاء ، وأدّى إلى تلويث البيئة وتبديد الموارد ، والتجرؤ على « تغيير خلق الله » في مجال الموروثات في علم الحياة .

وتكثر الأمثلة التي نراها في حياتنا المعاصرة على أزمة القيم هذه . فلا يزال هناك من يمارس التمييز العنصري ويشجع على ممارسته ، ومن يحتل أوطان الآخرين بالقوة الغاشمة أو يساعد عملياً على ذلك ، ومن يجاهر بالاستعمار الاستيطاني العنصري أو من لا يراه « ليس غير شرعي » . ولا يزال هناك من ينادي بتطبيق مبادىء حقوق الإنسان واحترام حقوق الشعوب في قضية معينة تخصّه وينكر ذلك في قضية أخرى . وهناك من يحاول تجريد الآخرين من هوياتهم وفرض ثقافته والمساس بصورة عامة بحقّ الإنسان وحقّ أمة الأرض . ولعل من الأمثلة الصارخة على أزمة القيم هذه ما يسمى « بالمعونات» التي تقدّمها دول كبرى «فرضاً» للدول المستضعفة وترهن بها إرادة هذه الدول لديها وتستعيدها مضاعفة . وقد أوضح روبرت والرز في تحقيق المقارنة للمعونات الأمريكية والسوفيتية في مطلع السبعينات حقيقة سياسة المعونات هذه وما تجنيه الدول المتحكمة من فوائد ، وما تنطوي عليه من إفساد . وما أكثر الأمثلة على أزمة القيم في عالم الاقتصاد وعالم التطبيقات العلمية في الهندسة الوراثية(١).

---

(١) شرح مالك بن نبي أزمة القيم هذه في كتابه « الإفريقية الآسيوية » ، ويوجد حديث عنها في كتب أحمد صدقي الدّجاني « ماذا بعد حرب رمضان » و « وحدة التنوع » « وعن المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة » دار البشير ، عمّان ١٩٩٢م .

هـ ـ الرؤية المادية والأزمة الروحية :

نتأمل في هذه « الرؤية المادية الدهرية الملحدة » التي غلبت على حضارة الغرب وأدّت إلى سيادة نظام القيم النسبي هذا وانتشرت في الدوائر الحضارية الأخرى في عالمنا، فنجد أنها تؤكد أن لا وجود إلا للمادة ، وأن الأشياء جميعها قابلة للتفسير بلغة المادة فحسب ، وهي تنكر وجود الله الخالق البارئ المصوّر . والدين عند أصحاب هذه الرؤية ليس سوى انعكاس لعجز البشر الطبيعي كما يقول ماكس موللر ، وهو عند كارل ماركس « أفيون الشعوب » وعند فرويد « عصاب وسواسي يصيب البشر » . وتقدّم هذه الرؤية المادية مفاهيم للمادة والمكان والزمان والعقل والجمال خاصة بها تترتّب عليها مواقف من الإنسان والمجتمع والعالم والماضي والحاضر والمستقبل أدّت إلى أزمات مستحكمة وهي تهدّد مصير الإنسان وتصطنع هذه الرؤية تناقضاً بين الدين والعلم ، وهي تنتهي إلى أنه « ما دامت المادة غير قادرة على التصرف الحرّ فإنه يتحتّم أن تكون حرية الاختيار وهماً من الأوهام ، تماماً كما أنه لا سبيل إلى العثور على حكمة وراء الأشياء الطبيعية لأن المادة عاجزة عن أن تخطط أو تهدف إلى أي شيء . والعقل ذاته يعتبر نتاجاً ثانوياً لنشاط الدماغ » . أما مكانة الإنسان فهي تتحدّد وفق تصوير برتراند رسل أحد أصحاب هـــذه الرؤية في كتابه « لماذا أنا غير مسيحي » وهو يقـول : « لأن يكون الإنسان نتاج أسباب لا تملك العدة اللازمة لما تحقّقه من غايات ، ولأن يكون منشؤه ونموّه وآماله ومخاوفه وصبواته ومعتقداته مجرّد حصيلة ارتصاف ذرات عرضي ، ولأن تعجز أية حماسة مشبوبة أو بطولة أو أي حدّة في التفكير أو الشعور عن الإبقاء على حياة فرد واحد فيما وراء القبر ، ولأن يكون الاندثار هو تألق الشمس في رابعة النهار . كل هذه الأمور إن لم تكن حقاً غير قابلة للجدل فإنها مع ذلك تقترب من اليقين إلى حدّ يستحيل معه على أية فلسفة ترفضه أن يكتب لها البقاء . وعلى ذلك لا يمكن بناء موطن الروح بأمان إلا في إطار هذه الحقائق ، وعلى أساس راسخ من القنوط المقيم » . وإنا نجد التعبير عن هذه الرؤية المادية الدهرية الملحدة في كثير من الأعمال الأدبية الغربية(١) .

---

(١) يوجد تفصيل لحديث هذه الرؤية المادية في كتاب أحمد صدقي الدجاني « عن المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة » ، وكتاب اغروس وستانسيو « العلم في منظوره الجديد » ، عالم المعرفة .

لقد عبّرت هذه الرؤية عن « أزمة روحية » يعاني منها كثيرون في عالمنا المعاصر ، والحضارة التي يعيشون في ظلها . وتتجسد هذه الأزمة في إنكار البعد الروحي في الشخصية الإنسانية أو إهماله ، وهو الذي بان منذ أن وجد الإنسان على هذا الكوكب ، ونظر فيما حوله وسأل الأسئلة الخالدة ، وأحس بنفسه أنه مستقطب لنظام الكون ، وأعمل عقله لفهم القوانين الكونية وخشع قلبه وهو يفكر في خالقه فاستشعر إنسانيته . والبعد الروحي في الإنسان تعبير عن العلاقة التي ينظمها قانون الاستقطاب بين قطب ومستقطب . وهو قانون كوني عام نعرفه في الجماد والنبات والحيوان .

والإنسان مخلوق « غائي » يريد أن يبلغ بعمله « غاية » ، وهو نزاع إلى التطهر ، له نفس تهديه إلى الحق والباطل ، وعقل يفرّق به بين الوهم والصواب ، ومنير يعرف به ما يحلّ له وما يحرم عليه ، حباه ربه بنفس ألهمها الفجور والتقوى ودعاه إلى تزكيتها وسخّر له الطبيعة ودعاه إلى المشي في مناكب الأرض والكدح واقتحام العقبة . وحين تحدث الأزمة الروحية يفتقد الإنسان الإيمان فيصاب بالحرمان ويعاني من الغربة مع نفسه ومع الآخرين وتلتبس أمامه القيم وتميل نفسه مع الهوى ، ويفتقد الاجتماع الإنساني المثل الأعلى الذي يجمع بين أفراده ، فتختل القيم فيه وتحل الغربة محل التعارف في العلاقات بين الأفراد ، والتنافر محل التعاون ، وتتحكم الأهواء ، ويعم « الشرك » فيصبح الإنسان نهباً .

لقد بانت مظاهر هذه الأزمة الروحية ، في مختلف مجالات الحياة على حضارة العصر ، سواء على صعيد الفرد أو صعيد العلاقات بين الدول أو صعيد العائلة أو صعيد العلاقات بين المجتمعات ، وانطلقت وسط المعاناة منها ومن أزمـة القيم صيحات تقول : « إن مستقبلاً جديراً بالتطلع إليه لا يمكن تحقيقه من خلال التقدّم المادي التقني فقط ولا بمجرد الكفاح في الجانب الآخر من القمر ، لأنه لا يوجد في الفضاء . وهو لن يتحقق أبداً ، إلا داخل قلوب الأفراد . هذا هو موضوع الاختيار الذي يعرض على الإنسان بصفته عاقلاً حراً ، يستطيع أن يتطلع إلى خلف وإلى أمام » . وواضح أن الإحساس بالأخطار الناجمة عن هذه الأزمة الروحية وأزمة القيم المتصلة بها قوى اليوم في عالمنا المعاصر ، لأنها تهدّد الجميع وتنذر بفتن لا تصيبن الذين ظلموا خاصة . وهناك دعـوة

إلى « مراجعة » من أجل القيام بعمل مشترك لإصلاح الخلل وإنقاذ العمران الحضاري في عالمنا . وما يلفت النظر أن هذا العالم يشهد في مختلف أنحائه ظاهرة إحياء روحي وصحوة الفكر الفلسفي الذي عاد إلى طرح التساؤلات الفلسفية الأولى(١) .

معالجة الخلل ومواجهة الأخطار :

أ ـ إمكانية المعالجـــة :

يبدو مستقبل الحضارة ، في ضوء ما سبق ، محل تساؤل الإنسان في عصرنا ، ويشتدّ القلق على مصير الإنسانية والمحيط الحيوي بعامة . ويسود في بعض أوساط أصحاب الرؤية الملحدة الدهرية المادية يأس من إمكانية الإنقاذ « فالوقت فات ، والساعة هي الخامسة والعشرون ، وقد اتسع الخرق على الراتق .. » ، ولكن أصحاب الرؤية المؤمنة ليسوا يائسين ، ﴿ **إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾(٢) ، بل إنهم أمضى عزيمة لمواجهة الأخطار التي تهدّد الإنسان والكائنات الحية والأرض والاستجابة لتحدّياتها . وهم ينطلقون من رؤيتهم المؤمنة في تأملهم لهذه اللحظة التاريخية التي تعيشها الحضارة اليوم ، وفي إعمالهم الفكر لتحديد ما ينبغي عمله في ضوء « سنة الأولين » .

لقد وقف أرنولد توينبي طويلاً أمام هذه اللحظة التاريخية في شيخوخته وهو يكتب « الإنسان وأمه الأرض » ، فرأى « أن البشرية تأخذ بخناقها أزمة خانقة ، وهي لا تقلّ في شرّها عن الحربين العالميتين ، والمستقبل مزعج » . وعرض احتمال حدوث نكبة من صنع الإنسان تدمّر المجال الحيوي وتقضي على البشرية جمعاء مع أشكال الحياة الأخرى ، ثم قال « هذا احتمال لكنه ليس الخيار الوحيد » . ولاحظ « أن الإنسان زاد في قوته المادية بحيث إنه أصبح خطراً حتى على بقاء المجال الحيوي لكنه لم يزد إمكاناته الروحية » ، وقرر « أن التغيير الوحيد المعقول في تركيب المجال الحيوي الذي يمكن أن ينقذ هذا المجال هو زيادة القدرة الروحيـــة للإنسان » . وأكـــد « أن الإنسان يظـــل

(١) تراجع أعمال ندوة أكاديمية المملكة المغربية عن « الأزمات الروحية في عالمنا » .

(٢) يوسف : ٨٧ .

بالإضافة إلى أنه طبيعة وجسم يتمتع بروح . وهذه الروح تملك الوعي ، ومن ثم فالإنسان يمكنه أن يختار إما الخير وإما الشر » . وأعرب عن اعتقاده « أن مرض المجتمع الحديث لا يمكن شفاؤه إلا بثورة روحية في قلوب بني البشر وعقولهم . فالعلل الاجتماعية لا تعالج بالتغيرات المؤسسية . فالعلاج الناجع هو روحي لأن كل مؤسسة اجتماعية تقوم على فلسفة أو دين وهي بحسب القاعدة الروحية التي أقيمت عليها تكون حسنة أو سيئة .. وأنا أوافق على أن الإنسانية بحاجة إلى أساس روحي جديد » . وكثرت الأصوات التي انطلقت من مختلف أنحاء عالمنا مؤكدة الحاجة الملحة في عصرنا إلى الإيمان .

إن الرؤية المؤمنة المسلمة لهذه اللحظة الحضارية التاريخية تكشف عن وجود إمكانية كبيرة لاختيار الخير وانتصاره على الشر . وهي على يقين من إمكانية النجاة على الصعيدين الفردي والجماعي بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر. وهي تستحضر « قصص الأولين » فتجد أمثلة كثيرة على ذلك ، انهزم فيها الطغيان والبغي بغير حق وانتصر فيها المؤمنون بفضل الله . وهكذا انتهت الفرعونية الطاغية والقارونية الباغية ، وأمثالهما من المفسدين في الأرض . وتتأمل هذه الرؤية المؤمنة المسلمة تاريخ الحضارات الإنسانية فتلاحظ « السنن » التي تحكم هذا الصراع بين الخير والشر .

إحدى هذه السنن هي قدرة الدين على النفاذ برسالته وقيمه وتعاليمه في أوساط الحضارة التي تعاني أزمة روحية . ومثل على هذه « السنة » وقف أمامه أرنولد توينبي متأملاً ما حدث في الإمبراطورية الرومانية التي فتحت بلدان الشرق عسكرياً ، فوقع هجوم معاكس من قبل الشرق هو اجتياح الأديان الشرقية بلدان الغرب على حدّ قوله . وقد توقع « أن يرتد الغرب والعالم عن عبادة العقائد الحديثة مثل الشيوعية والفردية العلمانية » وعبّر عن أمله أن تنتصر فكرة المحبة من خلال الإيمان بالله . وأوضح في كتابه « العالم والغرب » أن « المثال الأعلى للإخاء الإنساني الذي خرج منتصراً من تمازج الحضارات هو أول تفسير لنجاح هذه الأديان التي تخاطب كل الكائنات البشرية دون تمييز في العنصر أو الطبقة أو الجنس ، والتي انقذت أعضاءها بالاتحاد مع كائن أعلى ،

وذلك لأنها تعلّمت أن الطبيعة البشرية دون النعمة الإلهية لا تكفي . لقد كان الشرقيون قد جربوا نوعين من المتألهين وخيبّا الآمال . فالعسكرية المتألهة المتمثلة في الإسكندر كانت فضيحة رنانة والإسكندر هو قاطع طريق أكثر منه إله . وماذا نقول عن « البوليس المتأله » اغسطس قيصر ! ويمكننا القول إن ما سبق وحصل مرة في الماضي ما زال أحد الأمور الممكنة في المستقبل » . والمثل الآخر ، الذي نستحضره ، على هذه « السنة » هو انتشار الإسلام في أصقاع الأرض ، رسالة رحمة للعالمين(١) .

ب ـ أفكار بشأن معالجة الخلل :

إن إنقاذ العمران الحضاري في عالمنا يبدأ بالدعوة إلى الإيمان بالله سبحانه خالق الموت والحياة الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم ..، وباعتماد الرؤية المؤمنة المسلمة في النظر إلى الأمور كلها ، وهذه الرؤية تقدّم نظرة كونية تقول بمبدأ وحدة الأصل البشري ومبدأ كرامة الإنسان ومبدأ التنوع ومبدأ التعارف وصولاً إلى التعاون ومبدأ لا إكراه في الدين . وهي تتضمن مفاهيم تتعلق بالإنسان والمكان والزمان تؤكد استخلاف الإنسان في الأرض وحريّته في الاختيار وقدرته على الفعل .

أصبحت الحاجة ملحّة في عصرنا الى إيجاد مفهوم للحضارة يؤكد « التعمير » ويقاوم « التخريب » الذي نرى أمثلة كثيرة عليه وهو يتمّ باسم الحضارة ويستهدف البيئة والإنسان على السواء. وآفاق التعمير رحبة للارتفاع بصرح «العمران». وقد رأى محمد إقبال في كتابه « تجديد التفكير الديني في الإسلام » أن العالم كما صوره القرآن لم يخلق عبثاً ، وهو مرتب على نحو يجعله قابلاً للزيادة والامتداد ﴿ **يزيد في الخلق ما يشاء** ﴾(٢) . والإنسان في صميم كيانه قوة مبدعة وروح متصاعدة ، تسمو قدماً من حالة وجودية إلى حالة أخرى . ولقد قدر عليه أن يشارك في أعمق رغبات العالم الذي يحيط به ، وأن يكيف نفسه ومصير العالم كذلك ، تارة بتهيئة نفسه لقوى الكون ، وتارة أخرى ببذل ما في وسعه لتسخير هذه القوى لأغراضه ومراميه . وفي منهج التغير التقدمي يكون الله في عون المرء شريطة أن يبدأ هو بتغيير نفسه ،

---

(١) أرنولد توينبي ، « العالم والغرب » ، المكتب التجاري ، بيروت .

(٢) فاطر : ١ .

﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[1] . والرؤية المؤمنة المسلمة تحث على التعمير وهي توفّر النظرة الشاملة لمفهوم العمران الحضاري التي تحيط بجوانب الحياة جميعها ، وتحقّق التكامل بين مختلف الأبعاد في النفس الإنسانية وفي الاجتماع الإنساني على السواء ، وتحدّد بدّقة « مكان الإنسان في الطبيعة » . وقد أشار ماكس شيلر في كتابه الذي يحمل هذا الاسم إلى حالة الاضطراب التي آلت إليها الدراسات النفسية عن الإنسان في الغرب ، إذ لا تتوافر من خلالها فكرة موحدة عن الإنسان . ومفهوم العمران الحضاري هذا يأخذ في الاعتبار وحدة العالم من خلال تنوّعه حتى يدرس جزءاً منه ، وترابط أبعاد الحياة الإنسانية بحيث تكون المشكلة هي التنمية مثلاً ، ولذلك يكون علينا كما يقول « البرتودي رأينا » « أن نوضح ما هو أساسي وجوهري .. الإنسان ، العدل ، الحب ، الحرية ، الكرامة ، الشعر ، الجمال ، القيم الروحية والإيمان نظرياً وعملياً » ، لأن النموذج الاقتصادي الذي يغفل ذلك « يهبط بالظن إلى منزلة البضاعة ، يهوي بالعلم إلى أن يصبح أداة ، وينحط بشأن الأفكار لتصبح محسوبة بمصطلحات الربح والخسارة ، وهناك طرق كثيرة نتصوّر بها العالم لا تعتمد على قانون العرض والطلب أو على القيود التي تفرضها اعتبارات الربح والكفاءة أو على قدرة شيطان الجشع الوقحة »[2] .

الحاجة ملحّة أيضاً على أن يكون التعامل مع البيئة والمحيط الحيوي انطلاقاً من الرؤية المؤمنة المسلمة التي رأينا كيف تنظر إلى الأرض وإلى السماء وإلى جميع المخلوقات في إطار وحدة خلق الله ، والميزان الذي وضعه الله سبحانه لمخلوقاته جميعاً ومنها الإنسان . وبقدر ما تحث هذه الرؤية على التعمير والإفادة مما سخّره الله للإنسان بقدر ما ترفض فكرة الصراع مع الطبيعة وقهرها ، وتأبى « التغيير في خلق الله » . وقد حذّر القرآن الكريم من اتخاذ الشيطان ولياً من دون الله حين يَعِد عباد الله ويمنّيهم ، ويأمرهم بتغيير خلق الله ، فقد جاء على لسان الشيطان في سورة النساء

---

(١) الرعد : ١١ .

(٢) انظر مجلة ديوجين ، اليونسكو .

﴿ وقال لأتخذنّ من عبادك نصيباً مفروضاً ، ولأضلّنّهم ولأمنّينّهم ولآمرنّهم فليُبتكنّ (فليقطعن أو فليشقن) آذان الأنعام ، ولآمرنّهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليّاً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ، يعدُهُم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾[١] . وهكذا تحدّد هذه الرؤية المؤمنة الضوابط في التعامل مع البيئة .

توفّر الرؤية المؤمنة المسلمة إمكانية النجاح في إزالة مسببات التوتّر في عالمنا وإخراج السلام من أزمته الحادّة وإقامة نظام عالمي يحقّق العدل . فهي تعترف بمبدأ الاختلاف بين الناس باعتباره صفة الله في الكون ، وبمبدأ الحق في الاختيار ، وبمبدأ كرامة الإنسان ، وبمبدأ وحدة أصل البشرية ، وبمبدأ التعارف وصولاً إلى التعاون على البرّ والتقوى . فلا طغيان ، ولا عنصرية ولا استلاب هوية ، ولا إكراه في الدين .

إن هذه الرؤية المؤمنة المسلمة كفيلة بتحقيق التكامل بين العقيدة والأخلاق والقانون . فمصدر الأخلاق فيها هو الدين الذي جاء به الوحي الإلهي ، وهي من ثم ليست نسبية . وتطبيق القانون وفق معيار واحد بمساندة الضمير الذي تحييه العقيدة[٢] .

جـ ـ مستويات المعالجة :

واضح أن العمل المطلوب لإنقاذ العمران الحضاري يتطلب جهوداً كبيرة تبذل على عدة مستويات .

أولاً : المستوى المؤسسي العالمي . فعالمنا المعاصر يشهد نمواً مستمراً في المؤسسات العالمية بحكم ثورة الاتصال التي يعيشها . والاقتناع أصبح راسخاً فيه بأن قضايا العالم ومشكلاته مترابطة ومتداخلة ، وأن معالجتها تتطلب فترة زمنية طويلة نسبياً ، وأن أية تصورات أو نماذج مستقبلية شاملة لمستقبل الجنس البشري على كوكب الأرض لا بد أن تأخذ في اعتبارها العدل والانصاف بين الناس ، وهذه الأمور الثلاثة ضمّنها «نادي روما» رسالته . والدعوة تتردد على الصعيد العالمي لعمل مشترك يتضمن مقترحات للتغيير في

---

(١) النساء : ١١٨ ـ ١٢٠ .

(٢) يوجد تفصيل في شرح هذا التكامل في كتاب « الإنسان » بالإنجليزية الصادر عن دار Aluan عام ١٩٩١م ، وقد حرره شاندرا مظفر ، وبخاصة بحث شاد سليم فاروقي « التقاليد الروحية والقانون » .

المؤسسات والقوانين . وقد خصص تقرير مستقبلنا المشترك آخر فصوله لهذه الدعوة . ولا بد أن تتعاون الدول على إحداث هذا التغيير والقيام بهذا العمل المشترك . وتوفر الرؤية المؤمنة المسلمة أفضل مناخ لهذا التعاون بما تؤكده من وحدة البشر وأخوتهم وعالمية رسالتها ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[1] .

ثانياً : مستوى العمل المجتمعي الأهلي الذي يحقّق التعاون بين الجماعات في عمل طوعي أساسه الإحسان . وقد برز في حضارتنا العربية الإسلامية في صور كثيرة وكان لنظام الوقف دور فيه ، كما برز في حضارات أخرى وهو يعرف في حضارة الغرب اليوم باسم المجتمع المدني . ويمكن للعمل في هذا المستوى أن يحقّق الكثير حين تحكمه الرؤية المؤمنة المسلمة التي تحث على التعاون على البر والتقوى ، وعلى التكافل ، وعلى الإنفاق والتراحم .

ثالثاً : مستوى عمل الفرد . والعمل فيه يستطيع أن يحقّق الكثير مما لا يمكن للمستويين السابقين النهوض به . وفيه يبرز أثر الضمير وأثر الأخلاق في الإيمان إلى جانب أثر القانون . والرؤية المؤمنة المسلمة ترتفع بهذا العمل إلى أعلى ذروة من خلال العلاقة التي تقوم بين العبد وربّه في صورة « الإحسان » الذي عــرّفه الحديث القدسي « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . وهي تؤكد على أن النجاة يوم القيامة تعتمد اعتماداً كلياً على « العمل الصالح » الذي يقوم به الفرد المؤمن ، ﴿ **وكلّهم آتيه يوم القيامة فرداً** ﴾[2] . والرؤية المؤمنة المسلمــة ترى هذا العمل في إطار العمــل الكلي « فالواحد منا يقف على ثغرة من ثغور البناء الشامل فلا يؤتين من قبله . والمرء منا لا يحقرن من المعروف شيئا » . ويتضمن هذا العمل الدعوة إلى الله بالكلمة والموعظة الحسنة والنصيحة والمشورة والجهر بالحق[3] .

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

(٢) مريــم : ٩٥ .

(٣) يوجد شرح للرؤية المؤمنة المسلمة في كتاب أحمد صدقي الدجاني عن « المستقبل » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د ـ رؤية لدور الإنسان المسلم في الإسهام في تعمير عالمنا :

واضح أن مسؤولية إنقاذ العمران الحضاري في عالمنا تقع على كاهل المؤمنين جميعهم فيه ولا بدّ لهم من أن يتكاتفوا معاً لعمل الصالحات وأن لهم من أجل تحقيق هذا التكافل أن يتحاوروا ويتعارفوا بهدف الوصول إلى اللقاء والتعاون على البر والتقوى . وأن لهم أن يأتوا إلى كلمة سواء ، وأن يستبقوا الخيرات . ويشهد العالم اليوم حركة واسعة على هذا الصعيد تشمل المؤمنين من مختلف الأديان ، وهي تستحق أن تشجع .

إن للإنسان المسلم أن يستشعر مسؤولية خاصة في إطار هذه المسؤولية الجماعية ، انطلاقاً من اعتقاده بأن الإسلام هو خاتمة الرسالات السماوية وأن الدين عند الله الإسلام وأن الله سبحانه نزل الذكر وقال ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[١] ، وأنه تعالى أرسل نبيه الأمين ﴿ **رحمة للعالمين** ﴾[٢] . ويستطيع الإنسان المسلم أن ينهض بهذه المسؤولية ويقوم بدوره على أكمل وجه من خلال القيام بقراءته المعاصرة لتعاليم دينه ، وقرن الفكر بالفعل ، وطرح رؤيته المؤمنة المسلمة للأمور على العالم أجمع . إن مما يلفت النظر أن حركة فكرية قوية يشهدها العالم الإسلامي اليوم تسعى للقيام بهذا الدور بروح الاجتهاد والتجديد .

إن دائرة الحضارة العربية الإسلامية حافلة بالإمكانات التي يمكن أن يوظّفها الإنسان المسلم للقيام بدوره . وقد تناولت كتابات كثيرة بالدراسة هذه الإمكانات ، وبحثت في إمكانية قيام نظام إقليمي لهذه الدائرة ، وفي مكان هذا النظام الإقليمي من نظام عالمي سليم نعمل لإقامته ، في ظل الصحوة التي وضحت معالمها في عالمنا الإسلامي[٣] .

إن عالمنا يشهد ظهور علامات مبشرة في الأفق ـ كما يقول شاندرا مظفر في بحثه القيم « نحو رؤية روحية للإنسان » ـ منها قيام جماعات محلية كثيرة هنا وهناك تتعاون على معالجة مشكلاتها ، وجماعات البيئة « الخضر » التي تتعاون لحماية المحيط

---

(١) الحجر : ٩ .
(٢) الأنبياء : ١٠٧ .
(٣) يوجد تفصيل لشرح هذا النظام الإقليمي في كتاب أحمد صدقي الدجاني « عن المستقبل .. » ولحديث الصحوة في كتاب أحمد صدقي الدجاني « مستقبل الصراع العربي الصهيوني » ، دار المستقبل العربي .

الحيوي ، والناشطين من أجل السلام القائم على العدل ، والمدافعين عن حقوق الإنسان، والمصلحين الدينيين ، والداعين إلى رفع الظلم عن المرأة والطفل[1] . إن الإنسان المسلم قادر على الإسهام في إغناء عمل هذه الجماعات وتحقيق التعاون بينها لإنقاذ العمران الحضاري في عالمنا .

إن لنا أن نثق بقدرة الإنسان المؤمن في عالمنا على مواجهة التحديات التي تهدّد مستقبل العمران الحضاري ، وهـو متّجه إلى ﴿ **رب العالمين الرحمن الرحيم** ﴾[2] مقـراً وداعياً ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين** ﴾[3] . آمين ، ومقبل على عمل الصالحات والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

---

(١) شاندرا مظفر ، مصدر سبق ذكره .

(٢) الفاتحة : ٢ ـ ٣ .

(٣) الفاتحة : ٥ ـ ٧ .

وكيف نصير خير أمّة ؟

الدكتور علي عثمان*

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين محمد بن عبدالله .

تقديم هذه الدراسة :

هذه دراسة في استكشاف الأصول التي يقوم عليها نظام الدين في الإسلام ، بغرض التوصل إلى تعريف ما هو الإسلام بوصفه نظاماً كلياً شاملاً ، وفي ما تحمله هذه الأصول من طاقات حضارية، إنسانية وأخلاقية واجتماعية، ومن طاقات علمية وتقدّمية. وفي النظر في توظيف هذه الأصول في تغيير واقع الأمة المتوارث ، وفي بناء حضارة تتوجّه بهذا الإسلام إلى حضارة إنسانية علمية ، يتحمل المسلمون فيها مسؤولياتهم نحو الإنسان ونحو أمة المسلمين ونحو العالم .

وفي سبيل هذه الأغراض رأينا أن نقسم هذه الدراسة خمسة أقسام هي :

١ ـ القسم الأول :

نستهل هذه الدراسة بالدعوة إلى الاهتمام بالفترة المكية من نزول القرآن من جديد بوصفها تجربة إنسانية لم يكن لها مثيل في مسيرة الحضارة على مدى تاريخها في انشغال الإنسان بأمهات القضايا التي تتعلق بحياة الإنسان على هذه الأرض ، والتي صارت الأصول الثابتة في بناء وتطور حضارة إنسانية عالمية . ولأنها هي الفترة التي نزلت فيها الأصول الأساسية التي قام عليها نظام الدين في الإسلام في نظرته إلى الإنسان وفي نظرته إلى العلم وإلى التوحيد .

* باحث ، استكتب في موضوع المؤتمر كخبير .

وسنشيرفي هذا القسم إلى تلك الصفات العقلية والأخلاقية التي طالب بها القرآن المكي في دعوته إلى التحرر من الباطل والأساطير ، وإلى التوجه بنظام جديد في الحياة يقوم على عالمية الإنسان وعلى عالمية العلم وعلى عالمية التوحيد التي تميز بها الإسلام وانفرد بالدعوة إليها .

٢ ـ القسم الثاني :

وهو القسم الأهم في هذه الدراسة الذي سنحاول أن نبيّن فيه لماذا كانت نظرة القرآن إلى الإنسان ونظرته إلى العلم ونظرته إلى التوحيد هي الأصول الثلاثة الكبرى الثابتة التي قام عليها نظام الدين في الإسلام ، وهي التي يتم تعريف « ما هو الإسلام » بها. ولأهمية المنهج في طلب هذه الأصول ، رأينا أن نقدم هذا القسم بالنظر في المنهج الذي يكشف عن الأصول الكبرى التي يقوم عليها الإسلام بوصفه نظاماً كلياً .

وسنرى عند التقاط هذه الأصول من القرآن لماذا وصل كل أصل منها إلى منتهى ما يمكن أن يصل إليه من الكمال ؛ ولماذا كانت هذه الأصول الثلاثة خير ما يمكن أن يتوجّه به الإنسان في حياته الخاصة ، وخير ما يمكن أن تتوجّه به الأمة في تطوير مستقبلها ، وخير ما يمكن أن تتوجّه به مسيرة الحضارة البشرية .

٣ ـ القسم الثالـث :

ومن منظور الإسلام الكلي ، ولأهمية علاقاتنا الدينية والفكرية والسياسية بالعالم الغربي ، سنحاول أن نبيّن الأسس التي ننظر بها إلى الحضارة الغربية في أبعادها الدينية والفكرية والعلمية لنرى كيف صحّح الإسلام مسيرة الحضارة البشرية من مجراها الكهنوتي الى مجراها الإنساني العلمي ، ولنرى أيضاً أن ما كشفت عنه العلوم الحديثة هو مصدر أساسي لتعميق معرفتنا بالإسلام ، ومصدر أساسي لتجسيد الإسلام في حياتنا الخاصة والعامة .

وسنشير في هذا القسم إلى جذور اتجاهات الغربيين العدائية نحو الإسلام ونحو المسلمين ، وإلى ما فعله الاستعمار الغربي في تغيير مجرى نهضتنا الحديثة من مجراها الإسلامي إلى مجرى « لا إسلامي » برزت فيه الدولة القطرية بديلاً عن وحدة الأمة ، والمواطنة بديلاً عن أخوة المسلمين ووحدتهم .

٤ ـ القسم الرابـــع :

ومن أجل تغيير الواقع العربي المتوارث لنتوجّه بالإسلام إلى حضارة إنسانية علمية، رأينا أن نشير في هذا القسم إلى الحضارات المتناقضة التي امتزجت ببعضها وتفاعلت تفاعلاً عضوياً في تكوين هذا الواقع التاريخي . ورأينا أن نشير إلى صدارة الفقه في تراثنا الفكري ، وإلى ما تولّد من تلك الصدارة في تعطيل ما تحمله نظرة الإسلام إلى الإنسان وإلى العلم وإلى التوحيد من طاقات في التقدّم والرقي ، تمهيداً للنظر في النظم التربوية والسياسية التي تتواءم في مقاصدها وفعاليتها مع مقاصد الإسلام وغاياته .

٥ ـ القسم الخامس :

وأخيراً وبالعودة إلى نظرة الإسلام إلى الإنسان خاصة ، وإلى العلم وإلى التوحيد، سننظر في الأصول التي ينبغي أن يقوم عليها نظام في التربية ليكون نظاماً إسلامياً ، وفي الأصول التي ينبغي أن يقوم عليها نظام في السياسة ليكون نظاماً إسلامياً . وسنشير في القسمين الأخيرين إلى أهمية التجربة الأردنية في بناء المؤسسات الديمقراطية ، وإلى أن الأردن ـ لاتصاله بتراث العرب العتيق ، ولاتصاله بالحضارة الحديثة ـ مرشح ليكون القدوة في التحرر من الواقع المتوارث وفي التوجه بالإسلام إلى بناء حضارة إنسانية علمية .

٦ ـ القسم السادس :

ويرى القارىء أن نطاق هذه الدراسة نطاق واسع ، وأنها تعتمد في ما توصلت إليه من بصائر ونتائج على مختلف العلوم والمعارف وعلى مناهجها في طلب الحقّ والحقيقة .

ومع إدراكنا أنّ القيام بمثل هذه الدراسة ضرب من المغامرة الفكرية ، إلا أننا تعمّدنا أن تكون دراسة كلية تحيط بهذا الموضوع في جميع أبعاده النظرية والعملية والتاريخية لعلنا بهذه الرؤية الكلية للإسلام وللواقع العربي نقوم بنصيبنا في توضيح هذه الرؤية ، ولعلنا نثير همم المهتمين بالإسلام وبمسيرة الحضارة البشرية وبمصير الأمة العربية والإسلامية للقيام بالاجتهادات المطلوبة إما في تصويب هذه الرؤية وإما في زيادة وضوحها أو وضوح بعض جوانبها . وبالله التوفيق .

(١) الاستعـــداد العربـــي للإسلام :

١ ـ لا أعتقد مجتمعاً من المجتمعات البشرية ، القديمة أو الحديثة ، انشغل أهله بأمهات القضايا التي تتعلق بوجود الإنسان على هذه الأرض بمثل ما انشغل به أهل مكة في الفترة المكية من نزول القرآن .

ولم يطالب الإنسان العادي من عامة الناس في أيّ من المجتمعات البشرية ، القديمة أو الحديثة ، بالانشغال بتلك القضايا كلها ، وبتوظيف قدراته الفطرية (العقلية والوجدانية والإدارية) للفصل فيها بمفرده بمثل ما طالبه به القرآن في تلك الفترة .

لم تنحصر تلك القضايا التي انشغل بها أهل مكة في تلك الفترة بالظروف السياسية والاقتصادية في ذلك المجتمع ، ولا بأوضاع طبقة أو فئة من الناس فيه ، ولا حتى بقضايا ذلك الجيل الذي نزل عليه القرآن . بل كانت تلك القضايا في أساسياتها وعمومها قضايا الإنسان أينما كان وفي أي عصر عاش . جمعت بين التحديات العلمية الفكرية ، والتحديات الأخلاقية والاجتماعية التي يمكن أن تفرزها حياة الإنسان على هذه الأرض . واجتمعت فيها مختلف البدائل الدينية والحضارية التي برزت في تاريخ الإنسان في تعامله مع هذه التحديات .

٢ ـ وكانت الغاية من القرآن المكي استدراج الإنسان إلى وقفة حاسمة يطالب فيها في النهاية بأن يتوجّه في حياته إما إلى الباطل وإما إلى الحق ، وقفة عليه أن يفصل فيها ما وجد عليه آباءه من نظام في الحياة ، ونظام جديد يكون فيه هو وسيلة نفسه في استكشافه وفي الالتزام به عن قناعة عقلية . وقفة عليه أن يفصل فيها في النهاية بين الشرك والتوحيد ، ويترتب عليها تغيير كليّ في نظرته إلى الكون وإلى كل ما فيه من أشياء وما يحدث فيه من أحداث . وتغيير كلّي في نظرته إلى نفسه وإلى حقيقة هويته الإنسانية وإلى ما تحمله تلك الحقيقة من قيم جديدة ومسؤوليات . وتغيّر كلي في المرجع العلمي الذي يحتكم إليه في عمليات النظر والفصل في ذلك الاستدراج من « علم » الجماعة المتوارث في عقيدتها وتراثها إلى علم الحقيقة في حقيقة الإنسان وحقيقة كل شيء في العالم .

والقرآن شديد الحرص في عمليات ذلك الاستدراج أن يكون الإنسان نفسه على وعي كامل بما يطالبه به في تلك الوقفة وبما يترتب عليها من تغيرات ، تأكيداً من القرآن (وكما سنرى) لأصل من الأصول الثلاثة التي أقام عليها نظام الدين الكلي ، أي تأكيداً لثقته بكفاية قدرات الإنسان العقلية والإرادية في عمليات مراجعة ما وجد عليه آباءه ، وفي استكشاف البديل الذي يتواءم مع توظيف تلك القدرات توظيفاً يلتصق بالحقّ والحقيقة .

٣ ـ ولم تكن تلك القضايا في عمليات الاستدراج من النوع الذي يستوفي فيه الإنسان عمليات النظر والفصل والاختيار في يوم وليلة ، فلم يطالب ذلك الإنسان بأقل من أن ينبذ عقيدة الأهل ومقدّساتهم وما اقترن بها من قيم اجتماعية ، وأن يستأصل من نفسه عصبية الولاء للعشيرة والقبيلة . والأهم من ذلك كلّه أن يصير هو نفسه وسيلة نفسه في تغيير ما نشأ عليه وألفه وتشكّلت به عقليته وقيمه عن وعي ومعرفة وإرادة . فكان لا مفرّ من أن يحدث الانشغال بتلك القضايا صراعاً شديداً مع النفس ، وصراعاً شديداً داخل الأسرة وداخل العشيرة وفي المجتمع كله ، صراعاً يقتضي التأمل الطويل والحوار المتواصل بين الناس ، وقد يعرّض من لم تكن لهم حماية قبلية إلى الأذى الشديد والقتل .

من أجل ذلك نزل القرآن منجّماً : ﴿ **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث، ونزلناه تنزيلا** ﴾[1] .

والدليل على جدّية انشغال أهل مكة بتلك القضايا شدة الصراع الذي أحدثته بينهم في داخل الأسرة ، بين الولد ووالديه : ﴿ **وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما** ﴾[2] ، وبين الوالدين وولدهما : ﴿ **والذي قال لوالديه أفّ لكما ، أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي ، وهما يستغيثان الله ويلك آمن ، إنّ وعد الله حق ، فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين** ﴾[3] .

والآيات التي تدل على شدة الصراع داخل العشيرة وفي المجتمع كثيرة .

---

(١) الإسراء : ١٠٦ .
(٢) العنكبوت : ٨ .
(٣) الأحقاف : ١٧ .

والرسول صلى الله عليه وسلم ، صاحب الدعوة ، لم يملك من أسباب القوة ما يجعل اتّباع الناس له خشية من سلطان له عليهم ، ولا من أسباب الثراء ما يدفعهم إليه طمعاً في ما عنده ، بل لم يعط ما أعطي الرسل من قبله من معجزات تنفع الناس وتدل على مصداقية صلته بالوحي وبالله تعالى .

وتأكيداً لتكليف الفرد نفسه بالنظر في ما دعاه إليه القرآن وبالفصل فيه والاختيار، يؤكد القرآن المكي أن ما على الرسول إلا البلاغ ، وأنه ليس على الناس بحفيظ ولا هو عليهم بوكيل . والناس من جانبهم يكذبونه ويستهزؤون به ويؤذونه ، فكان بحاجة إلى تثبيت الفؤاد في تلك الفترة وإلى الصبر : ﴿ **فاصبر كما صبر أُولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ...** ﴾[1] .

٤ ـ انشغل الناس كلّهم بما نزل به القرآن المكي ، المشركون والذين أسلموا منهم ، والسادة والموالي والعبيد ، والرجال والنساء ، والكبار والصغار والعرب وغير العرب ... انشغلوا به على اختلاف شخصياتهم واختلاف أهوائهم ومصالحهم ، وعلى اختلاف مكانتهم في المجتمع . منهم من اهتدى ومنهم من لم يهتد ، وسجّل لنا القرآن تلك المواقف التي كشفت عن حقيقة ما كان يحدث في نفوس الناس ، وعما كان يحدث في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم .

كانت الفترة المكية تجربة إنسانية شاملة جمعت بين القضايا والتحديات جميعها التي يمكن أن يواجهها الإنسان على مدى وجوده على هذه الأرض ، وشملت أنواع الناس جميعهم وهم في أقصى حالات الاجتهاد والنظر ، وفي أقصى حالات المسؤولية في الفصل وفي الاختيار .

تجربة لم يكن لها مثيل في عظمة القضايا التي انشغل الناس بها أو في الجدية التي انشغلوا بها ، وبالمقابلة مع التجربة اليونانية في أثينا ، لم تكن التجربة المكية مقصورة على قلة قليلة في المجتمع ، بل شملت الناس جميعاً . ولم يكن النظر المطلوب فيها مقصوراً على فئة خاصة يدعي أهلها أنهم هم وحدهم من يملك القدرة على التفكر والفهم ،

(١) الأحقاف : ٣٥ .

بل شملت كل انسان في المجتمع ، العادي وغير العادي . فكانت أعظم تكريم للإنسان العادي من عامة الناس . وأهملت التجربة اليونانية جمهور الناس احتقاراً للإنسان العادي ولقدراته الفطرية ، أهملت النساء وأهملت الفلاحين والعمال والعبيد والموالي ، وبخلاف التجربة المكية أخضعت هؤلاء جميعاً لما تراه الصفوة وتستحسنه . وقسّم أرسطو الناس إلى فئتين لاختلاف نَوْعِي في فطرة كل منهما : فئة الخاصة الذين ترشحهم فطرتهم للسيادة ، وفئة الآخـرين الذين عليهم طاعة الفئة الخاصة لنقص نوعي في فطرتهم .

لم ندرس ما حدث في الناس وبين الناس في التجربة المكية لأسباب متعدّدة ، وأعتقد أن من أهمها أننا تعوّدنا على رؤيتها بمنظار العصبية القبلية ، عصبية المسلمين في مواجهة المشركين . وتعوّدنا على أن نراها أنها فترة انتهت بالانتصار على الشرك . مع أنها هي الفترة (وكما سنرى في القسم الثاني) التي نزلت فيها الأصول التي قام عليها نظام الدين الكلي في الإسلام . وهي الفترة التي التقت فيها الأصول الثابتة في الإسلام وتفاعلت بالواقع ، وهي الفترة التي تكشف عن أحوال الإنسان في استجاباته لدعوة الحق ، وتكشف عن أحوال مختلف الناس في حساباتهم واعتباراتهم في الاستجابة لتلك الدعوة .

ولم ندرس ذلك الحدث العظيم الذي حدث في مكة ونقدّره حقّ قدره في تجارب البشرية وفي تطور الحضارة الإنسانية . لأننا تعوّدنا في هذا العصر على قبول الرؤية الغربية للتاريخ وعلى رؤية الغربيين للأحداث العظيمة في التاريخ ، ولا يتوقّع علماؤنا أن يروا في ذلك الحدث ما يراه الغربي في التجربة اليونانية .

٥ ـ لم يكن ما حدث في مكة في الفترة المكّية من نزول القرآن خاصاً بأهل مكة . ولم تكن مكة سوى المختبر الأول لما دعا إليه القرآن من تغيير في نظام حياة الإنسان .

فالقضايا التي انشغل بها أهل مكة في تلك الفترة قضايا الإنسان في كل زمان ومكان . ونشير هنا إلى هذه القضايا (لنعود إليها بشيء من التفصيل في القسم التالي) ليرى القارىء لماذا كانت هذه القضايا قضايا كل إنسان إن كان ذلك الإنسان من مكة في تلك الفترة ، أو كان من البلاد العربية والإسلامية في هذا العصر ، أو كان من أوروبا أو أمريكا أو آسيا أو افريقيا أو غيرها .

أولاً : هذا الإنسان الذي يخاطبه القرآن ، ما هو ؟ وهل يختلف في حقيقته عن غيره من البشر بسبب الزمان والمكان الذي يعيش فيه ؟ أو بسبب الاختلاف في الجنس أو العرق أو اللون أو اللسان (رمزاً للحضارة الخاصة به) ؟ أو بسبب نسبه أو علاقته مع المجتمع ؟

وإذا كان الإنسان في حقيقة فطرته واحداً في الجماعات البشرية كلّها ، القديمة والحديثة ، فهل هنالك نظام واحد كلي في الحياة يستجيب لحاجاته الفطرية والعقلية والوجدانية والأخلاقية والاجتماعية ، أكثر من غيره من النظم التي عرفها الإنسان ؟ وما هو هذا النظام ؟ ولماذا كانت رسالة الهدى إلى البشر رسالة واحدة؟ ولكل زمان ومكان؟ وما هو الثابت في تلك الرسالة ؟ وما هو النسبي المتغير ؟ وهل هي مفتوحة للرقي وللتقدم ؟ وكيف ؟

ثانياً : والتوحيد الذي دعا إليه القرآن المكي ، ما الذي يجعله خير البدائل التي عرفها الإنسان للتوجّه إليه في بناء الإنسان وفي تربيته ؟ وفي بناء المجتمع ونظمه ومؤسساته ؟ وفي بناء العلوم وتسخيرها لصالح الإنسان ومنافعه ؟

ثالثاً : والعلم الذي يحتكم إليه الإنسان في الفصل بين الحقّ والباطل ، وللحكم على مختلف الأديان والحضارات التي عرفها الإنسان ، لماذا جعله القرآن المكي في حقيقة كل شيء ، في حقيقة الإنسان نفسه ، وفي حقيقة العالم وحقيقة كل شيء فيه ؟ ولماذا جعله خارج تراث الجماعة وخارج عقائدها ؟ ثم لماذا جعل القرآن المكي طلب هذا العلم سبيل الإنسان إلى معرفة الخالق تعالى ؟ وسبيله إلى معرفة نفسه ؟ وإلى معرفة كل شيء وكل حدث في العالم ؟

هذه المجموعات من الأسئلة تمثل أمهات القضايا التي انشغل بها أهل مكة ، والتي جعلت من مكة المختبر الأول في عمليات استكشاف ذلك النظام الذي يتواءم فيه مقاصده وفي غاياته مع ما في فطرة الإنسان من طاقات وقدرات . ولأن هذه هي القضايا التي تمثل أمهات القضايا لكل إنسان أينما كان وفي أي عصر عاش ، يؤكد ا القرآن أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أرسل ﴿ **كافة للناس** .. ﴾[1] .

---

(١) سبأ : ٢٨ .

ولعالمية هذه القضايا ، انفرد الإسلام بأن امتدّ تاريخياً إلى الإنسان الأول وشمل العهود التاريخية جميعها ، وبأن امتدّ جغرافياً فشمل الأقوام البشرية كلّها إلى أن نزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم .

سنرى في القسم الأخير من هذه الدراسة أن نظرة الإسلام إلى هذه القضايا هي ما يقوم عليه نظام إسلامي في التربية ونظام إسلامي في السياسة .

٦ ـ ومن خلال هذه الدراسة نرجو أن نبيّن أن تأسيّ أمة المسلمين بالرسول صلى الله عليه وسلم وبأصحابه رضي الله عنهم هو التأسّي بالصفات العقلية والوجدانية والأخلاقية التي تميزوا بها . وأن نبيّن أن الإنسان العادي هو من يتجدّد فيه الإسلام وهو على وعي كامل بهذا التجدّد ، وأنه يتجدّد فيه عن علم ومعرفة وإرادة ، هذا إذا أراد ألاّ يكون إسلامية تقليداً . وأن هذا الإنسان هو الذي يخاطبه القرآن وتخاطبه السنّة . وكما قال أبو حامد الغزالي : « أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن » ، هو المقصود إذا سمع أمراً أو نهياً أو وعداً أو وعيداً أو قرأ عن الأولين والأنبياء ، أو دُعي إلى التفكر في نفسه أو في آيات الله في خلقه ، أو قرأ حجج القرآن في الفصل بين الشرك والتوحيد . « وكيف لا يقدر (القارىء) هذا ، والقرآن ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ، بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين ... ﴿ **هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** ﴾[1] . وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد . فهذا القارىء الواحد مقصود ... قال تعالى : ﴿ **وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾[2] »[3] .

(١) آل عمران : ١٣٨ .

(٢) الأنعام : ١٩ .

(٣) الغزالي ، إحياء علوم الدين : ٥١٧ ـ ٥١٨ .

(٢) نظام الديــن في القــرآن
أو
ما هــو الإسلام ؟

الحاجة إلى رؤية مشتركة :

١ ـ ما هو الإسلام الذي نزل به القرآن ؟ وما هو المنهج الذي يجيب عن هذا السؤال ؟ وكيف يطلب هذا المنهج ؟

ثم كيف يمكن تجسيد هذا الإسلام في واقع نظام كلي يشتمل على نُظم معرفية وعلمية وتكنولوجية ؟ وعلى نظم أخلاقية ووجدانية وفنية ؟ وعلى نظم اجتماعية ، تربوية وسياسية واقتصادية تحقّق مقاصد الإسلام ؟

لا شك أن هذه المجموعات من الأسئلة تمثل مجموعة التحديات الكبرى التي تواجهها أمة المسلمين في جهودها للتوجّه بالإسلام الى بناء المستقبل . ووصول الأمة إلى رؤية مشتركة لما هو الإسلام ، ولترجمة هذه الرؤية في واقع إسلامي متكامل ليس مطلباً أساسياً لتوحيد الأمة ولتوحيد جهودها في تعبئة ثرواتها البشرية والطبيعية لتحقيق مقاصد الإسلام في حياة الناس فيها ، وللتصدي لما يحيط بها من مخاطر وعدوان فقط ، ولكنها أيضاً شرط ضروري لتوظيف الإسلام توظيفاً كلياً في حياتها ، وشرط ضروري لمشاركتها في تطوير حياة أفضل للإنسان على هذه الأرض ، وفي تطوير نظام سياسي عالمي يقوم على ما انفرد به الإسلام في نظرته العالمية إلى الإنسان .

وفي هذا القسم من هذه الدراسة سنحاول أن نلتقط ما هو نظام الدين الكلي الذي نزل به القرآن كمجهود للتوصل إلى رؤية مشتركة لما هو الإسلام . مع العلم بأن هذه الرؤية لا تستكمل إلا بما بيّنته السنّة، وتجسّد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، في أفعاله وأقواله ، ولكن اقتصاداً للجهد في محاولة مثل هذه المحاولة ، ولأن القرآن هو المرجع الأول والرئيسي لطلب ما هو الإسلام ، ولأنه هو النص الذي ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾[1] ، والذي لا تختلف فيه الأمة ، رأينا أن نكتفي هنا بطلب نظام الدين الكلي من القرآن .

(١) فصلت : ٤٢ .

٢ ـ ونقطة البداية في طلب هذا النظام الكلي هي في طلب المنهج الذي يصلح لالتقاطه من القرآن ، ويكشف عنه وعن الأصول التي يقوم عليها ويتكوّن منها .

والتوصل إلى هذا المنهج المطلوب مليء بالمزالق الفكرية والفلسفية ، وببعض العقد النفسية . وأول شرط في طلب هذا المنهج أن يكون الباحث عنه قد تحرّر مما ولدته الهيمنة الغربية على أمة المسلمين وولدته تبعية المسلمين للغرب في نفسه في العلوم وفي التكنولوجيا ، وأن يكون قد تجاوز هذه الحال بمعرفة الإسلام كما هو في حقيقته وبمعرفة تراث الحضارة الغربية كما هو في حقيقته ، وأن يكون قد تحرّر أيضاً من الوهم بأن ما توارثه من الفكر الإسلامي يكفي وحده لفهم الإسلام في كليته وشموليته ، ولم يعد بحاجة إلى معرفة ما تطور من علوم ومن تسخير لهذه العلوم في بناء وتطوير الحضارة الحديثة ، وإلى معرفة تجارب الأمم الأخرى في فنون تجسيد أصول نظرتهم إلى الحياة في نظم ومؤسسات تربوية وعلمية ، وفي نظم سياسية واقتصادية وعمرانية .

بالاضافة إلى كون الباحث عن المنهج الذي يكشف عن نظام الدين الذي نزل به القرآن قد تبصر بمسيرة الفكر البشري على مداها التاريخي ، وتبصر بالأديان والحضارات التي عرفها الإنسان ، وتبصر بمناهج المشهود لهم من أهل الفكر في مختلف الحضارات في دراسة النظم الفكرية والدينية والحضارية ، وبمناهج المشهود لهم من علماء العلوم الاجتماعية والإنسانية . كل ذلك ليكتسب الدراية اللازمة في التعامل مع القضايا الفكرية والفلسفية في عمليات طلبه للمنهج المطلوب . وأخيراً ، عليه أن يكون قد أحاط بموضوع دراسته ليدرك البنية الفكرية الكلية التي تجمع بين عناصر ذلك الموضوع في طلب المنهج الذي يكشف عن نظام الدين الموجود في القرآن ، وأن يكون قد تبصر بلقاء الثابت الخالد في ما نزل به القرآن بواقع معين ، وبمنهج القرآن في استدراج الناس من ذلك الواقع إلى ما دعاهم إليه .

٣ ـ ثم هنالك صعوبة خاصة بالقرآن كما ورد في المصحف . فالآيات التي تتعلق بموضوع واحد ، أو بأصل من الأصول التي يقوم عليها نظام الدين في القرآن متباعد بعضها عن بعض ومتناثرة في سور كثيرة ونزلت في مناسبات مختلفة . والجمع بين هذه الآيات كلها في وعي واحد وفي مرة واحدة خطوة ضرورية

لطلب المنهج المطلوب ، هذه قضية . أما القضية الأخرى في طلب هذا المنهج فهي في التمييز بين الأهم والمهم في تلك المنظومات من الآيات . فهل تتساوى كلها في الأهمية في النظام الكلي ؟ وكيف نحكم على الأهم من المهم منها وهي كلها من عند الله تعالى ؟

نظام الدين عند الغزالي :

١ ـ كان الإمام أبو حامد الغزالي أول من تنبّه إلى أهمية التعرف إلى النظام الكلي الذي تنتظم فيه آيات القرآن كلها في نظام واحد متكامل ، ليبيّن للمسلمين مقاصد الإسلام وغاياته التي يدعو إليها القرآن ، وليبيسّر لهم التوجّه إليها والسعي إلى الأهم من المهم في تلك المقاصد .

ففي كتابه « **جواهر القرآن** » ، وهو وإن كان كتاباً صغيراً نسبياً ، فقد يكون من أهم ما تركه الغزالي في تعريف ما هو الإسلام الموجود في القرآن للأمة . وفيما يلي النظام الكلي الذي رأى أن آيات القرآن كلها تنتظم فيه . نقتبسه هنا لأهميته ولأنه كان المحاولة الأولى في التقاط ذلك النظام ، يقول الغزالي :

سرّ القرآن ولبابه الأصفى ومقصده الأقصى، دعوة العباد إلى الجبار الأعلى ، رب الآخرة والأولى ، خالق السموات العلى والأرضين السفلى ، وما بينهما وما تحت الثرى .

فلذلك انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع :

ـ ثلاثة منها هي السوابق والأصول المهمة ،

ـ وثلاثة الروادف والتوابع المغنية المتمة .

أما الثلاثة المهمة فهي :

ـ تعريف المدعو إليه

ـ وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه

ـ وتعريف الحال عند الوصول .

أما الثلاثة المغنية المتمة :

فأحدها : تعريف أحوال المجيبين للدعوة ، ولطائف صنع الله فيهم ، ومقصوده التشويق والترغيب ،

- وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة ، وكيفية قمع الله لهم وتنكيله بهم ، وسرّه ومقصوده الاعتبار والترهيب .

وثانيها : حكاية أحوال الجاحدين وكشف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجة على الحق ، وسرّه ومقصوده :

- في جنب الباطل الافضاح والتنفير ،

- وفي جنب الحق الإيضاح والتثبيت والتقهير .

وثالثها : تعريف عمارة منازل الطريق وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد[1] .

٢ - انتظمت آيات القرآن كلها في هذا النظام . وهذا النظام الكلي مرآة لنظرية الغزالي في المعرفة . ومعرفة الله تعالى هي غاية المعرفة في تلك النظرية . والعلوم والمعارف والعبادات والرياضات الأخلاقية / النفسية كلّها تراد لتلك الغاية . ومعرفة الله تعالى في ذاته خارج متناول القدرة البشرية ، إلاّ أن معرفة الإنسان لنفسه وهي في أقصى حالات كمالها أقرب السبل إلى تلك المعرفة .

وأما ما هو في متناول القدرة البشرية فهو معرفة « أفعال » الله . ولذلك تقتضي نظرية الغزالي في المعرفة معرفة الإنسان كما هو في حقيقته بوصفه آية أخرى من آيات الله في خلقه ، ومعرفة الكون وكل ما فيه من آيات . أي تقتضي معرفة الحقيقة في كل شكل من الأشكال التي تظهر فيها ، في الإنسان نفسه وفي كل شيء في العالم .

وتقتضي هذه النظرية في المعرفة من الإنسان تشغيل قدراته الحسية والعقلية والوجدانية إلى أقصى ما فيها من طاقات ، وتشغيل إراداته الأخلاقية في ترويض شهواته وأهوائه بالعبادات وبالعـــزم ليصير سلوكه في النهايـــة كما يريده الله منه وبلا جهد

---

(١) الغزالي ، جواهر القرآن : ٩ .

أو كلفة . ولا تتم للإنسان معرفة الحقيقة كما هي في الإنسان وفي العالم إلا اذا تلازم تشغيل قدراته العقلية وقدراته الإرادية تلازماً عضوياً في نموّ متكامل وعلى مدى حياته .

ويتدرّج الإنسان في سعيه إلى معرفة الله والإيمان به تعالى على مدى مراحل العمر في عمليات يتلازم فيها طلب العلم والمعرفة مع ترويض النفس ، فيترقى من حال إلى حال تمثل كل منها درجة صلته بالحقيقة ، واستعداده للترقي إلى درجة أعلى إلى أن تصير معرفته لذاته ومعرفته آيات الله في خلقه معرفة « بالذوق » لا تصلح اللغة للتعبير عنها ، فيقترب بهذه المعرفة إلى معرفة الله وبدرجة اليقين التي لا يتسرّب إليها الشكّ .

٣ ـ هذه السبيل سبيل من أراد أن يتفرغ تفرغاً كلياً وكاملاً لطلب معرفة الله . أما عامة الناس من المسلمين ، فكل منهم يأخذ من هذا النظام الذي توصل إليه الغزالي في «جواهر القرآن » ما يحتمله استعداده هو وإرادته في طلب العلم وفي ترويض النفس .

ويختلف الناس بمقاييس هذا النظام باختلاف أشخاصهم وباختلاف ما نشأوا عليه من عقيدة وحضارة ، وباختلاف طموحاتهم في الحياة . فهذا النظام لا يمثل انتظام آيات القرآن في كل واحد ومتكامل فقط ، وإنما يمثل ـ بصورة ضمنية ـ أنواع الناس الذين ذكرهم القرآن في درجات الإيمان وفي درجات الكفر .

٤ ـ كان الغزالي قد حذر أمة المسلمين من صدارة الفقه على العلوم الأخرى ، ومن صدارة الفقهاء على غيرهم من العلماء ، بل أسقط الفقه من العلوم التي تطلب بها معرفة الله وجمعه بالعلوم الدنيوية التي يقتضيها اجتماع الناس في المجتمع البشري ، مثله مثل الطب في ذلك وإن كان أشرف منه مكانة[١] .

فالإسلام عنده لا تعرف ما فيه من طاقات علمية أو معرفية ، ولا تعرف ما فيه من طاقات أخلاقية ووجدانية ، بما يكشف عنه الفقه من أحكام (أو بما يكشف عنه علم الكلام أيضاً) . ولكنه يعرف بتلك العلوم والمعارف التي تكشف عن « أفعال » الله في آيات الله في خلقه ، في معرفة حقيقة الإنسان وفي معرفة حقيقة العالم وما فيه من أشياء وأحداث . ويعرف بما يطالب به الإنسان من علم وأعمال تجعل الإنسان فعلاً خليفة الله

---

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين : كتاب العلم .

في أرضه . فالفقه (الأحكام الشرعية) وإن كان ضرورياً في حياة الناس في المجتمع ، إلا أن مكانته في تحقيق مقاصد الإسلام ثانوية بالمقابلة مع العلوم التي تكشف عن الحقيقة وعن تربية النفس وترويضها .

٥ ـ لكن الغزالي كغيره من علماء المسلمين ، الفقهاء منهم وغيرهم ، انصبّ اهتمامه على بيان تحسين إسلام المسلمين وعلى تعميق إيمانهم بالإسلام . كان إسلام المسلمين عنده وعند غيره من المعطيات المسلّم بها . وأهمل هؤلاء العلماء دعوة الإنسان إلى الإسلام بوصفه الإنسان ، فأهملوا الأصول التي أقام عليها القرآن تلك الدعوة . ما هو هذا الإنسان الذي يدعوه القرآن إلى الإسلام ؟ وما الذي يجعله يستجيب لهذه الدعوة ؟ وكيف يستجيب لها إذا رغب في ذلك ؟ ولماذا كان الإسلام خيراً له من البدائل الأخرى ؟ وما هو نظام الأمة التي تَجْمَعُ بين الذين أسلموا ؟ وغايتها ؟ وموقع الإنسان فيها ؟ هذه الأسئلة وأمثالها تطلب من دعوة الإنسان بوصفه الإنسان إلى الإسلام . وبهذا النوع من الأسئلة سيختلف المنهج الذي يطلب به نظام الدين الكلي الذي نزل به القرآن ، كما سيختلف هذا النظام عن النظام الذي رآه الغزالي .

نظام الدين في قول الشهادة :

١ ـ الذي يستوقفنا في القرآن بالمقابلة مع الكتب الدينية حرصه الشديد على تعريف ما هو الإنسان ، وحرصه الشديد على الاحتكام إلى الحقيقة كما تظهر في حقيقة الانسان وفي حقيقة كل شيء في العالم في مطالبة الإنسان بالنظر فيما وجد عليه آباءه وبالنظر من جهة أخرى فيما يدعوه إليه ، وفي مطالبته بالفصل بين الشرك والتوحيد ، وبالسعي لمعرفة الخالق تعالى .

وعندئذ نقف عند قول الشهادة ، قول (أشهد ألاّ إله إلاّ الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله) . لماذا جعله الإسلام القول الذي يعلن به الإنسان إسلامه ؟ وهل صيغ بهذه الصيغة وبهذه اللغة ليكون للإعلان فقط ؟ وبعد تحليل هذا القول وجدت أنه آية في الإعجاز الفلسفي ، جمع في هذا القول القصير بين المنهج الذي يطلب به الإنسان استكشاف الحق وبين الأصول التي يقوم عليها نظام الحق .

٢ ـ فعبارة « أشهد » في هذا القول تشير إلى توصل الإنسان إلى حال عقلية لم تكن هي حاله قبل أن يشهد . وتشير إلى ما قبل الشهادة وإلى مرحلة حاسمة بعدها ، هي مرحلة الشهادة تسبقها عمليات طويلة في النظر ، وفي مراجعة ما وجد الإنسان آباءه عليه ، وفي الفصل بينه وبين التوحيد ، لينتهي بالاختيار والقرار ، فيكون إسلامه عن وعي في تدرّجه نحو هذه الغاية ، وعن علم ومعرفة ، وعن إرادة .

ولقد صيغت عبارة « أشهد » بصيغة المتكلم المفرد للدلالة على أن العمليات المطلوبة للشهادة عمليات شخصية يقوم بها الفرد بمفرده وبوسائله الذاتية . ومعنى « الشهود » و « الشهادة » : « الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو البصيرة » ، وكلمة «أشهد» : « قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة »[١] .

وتختلف عن غيرها من المترادفات مثل « أعلم أو أقول » لأن « أشهد » تتضمن القسم والالتزام أما شرط الحضور مع المشاهدة فيدل على أن الشاهد منصرف بعقله وبقلبه إلى ما يشاهده أو يسمعه ومنشغل بمعرفته وبدلالاته .

هذا ، ويقتضي فعل « أشهد » من صاحبه وجود الآلة الادراكية العقلية اللازمة للنظر في ما يطالب به قول الشهادة ، وثقته بهذه الآلة في القدرة على التمييز بين الباطل والحق وعلى الفصل بين الشرك والتوحيد ، كما يقتضي منه أيضاً وجود الرغبة في النظر فيما يطالبه به قول الشهادة ، ووجود الإرادة للنظر المطلوب ، والجرأة والشجاعة في مخالفة الجماعة والتراث إذا تبين له أن الآلهة التي يتعبدون لها باطلة ، والصبر على ما قد يترتّب على هذه المخالفة من أذى .

أما بالنسبة لمراحل النمو فيقتضي فعل « أشهد » نضج الآلة العقلية والارادية اللازمة وسلامتها . ولذلك جعل الإسلام البلوغ (مرحلة نضج هذه القدرات) وسلامة العقل شرطين ضروريين لتكليف الإنسان بطلب معرفة الله والإيمان به .

٣ ـ ولا تتم هذه الشهادة المطلوبة في قول الشهادة إلا بوجود شواهد وبيّنات هي ما تحمل الأدلة اللازمة لعمليات الفصل بين الشرك والتوحيد ، ولتصديق محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته ، وهي بالتالي ما يحتكم إليه الإنسان في هذه العمليات وهذا

---

(١) الأصفهاني ، المفردات ، والفيروز أبادي ، البصائر .

التصديق . وهذه الشواهد بالنسبة للتوحيد موجودة كلها في آيات الله في خلقه أي في ما سماه القرآن « بعالم الشهادة » .

وهكذا جعل الإسلام معرفة حقيقة الكون وحقيقة ما فيه من أشياء وأحداث (بما فيها حقيقة الإنسان) سبيل الإنسان إلى التحرّر من الأباطيل والأساطير المتوارثة ، وسبيله أيضاً إلى معرفة الحقّ .

وبهذا التصق نظام الدين في الإسلام التصاقاً كلياً وكاملاً بالحقيقة وبمعرفتها ، وصار الكشف عن هذه الحقيقة مطلباً أساسياً للتعرف إلى الحق وللتعمق بمعرفة الله تعالى . وصار العلم خادماً أساسياً للدين بدلاً من أن يكون متناقضاً معه كما كان قبل الإسلام .

وعندما يذكر القرآن عبارة « شهد الله » فمعنى ذلك أن الله تعالى أوجد هذا العالم وما فيه من آيات ليشهد على وحدانيته وعلى صفاته وأفعاله .

٤ ـ لم يكن وجود الله أو عدم وجوده قضية في القرآن . فالإحساس بوجود الله موجود أصلاً في فطرة الإنسان التي فطر عليها . ﴿ **ولئن سألتهم** (أي المشركين) **من خلقهم ؟ ليقولنّ : الله** ﴾(١) . وكذلك كان جوابهم عمّن خلق السموات والأرض وسخّر الشمس والقمر (إشارة إلى أنها كانت آلهة يتعبد لها الناس فاستخدم عبارة « سخر » تأكيداً على أنها مخلوقات تخضع كما يخضع غيرها من المخلوقات لله) . وهذا ما سمّاه علماؤنا « بالتوحيد الفطري » ، أي الموجود أصلاً في فطرة الإنسان . وتدل الدراسات الحديثة في مختلف الحضارات على أنه حتى أهل الحضارات البدائية لديهم إحساس ، ولو مبهم ، بوجود الله .

وكانت القضية بالنسبة للايمان بالله ، إيمان الناس بوجود آلهة أخرى مع الله ، شركاء معه في الإلهية، آلهة أخرى يعتقدون أنها مسؤولة عما يصيبهم في حياتهم من نعم ومصائب، وعن الخصوبة في النساء والحيوان والزرع ، وعن المرض والعافية والموت والحياة . فيتعبدون لها طمعاً في رضاها عنهم وخوفاً من نقمتها منهم .

---

(١) الزخرف : ٨٧ .

ولذلك لم تكن قضية الفصل بين الشرك والتوحيد مجرد قضية في تمييز الآلهة الباطلة ، بل كانت قضية في تفسير الأحداث تفسيراً يطابق حقيقتها . فما دام الناس يعتقدون أن الإله الفلاني هو المسؤول عمّا يصيبهم ، وإله آخر مسؤول عن الخصوبة ، وغيره عن المرض ، سيتعذّر عليهم تفسير أي من هذه الأحداث تفسيراً يربطها بسنن واحدة في نظام واحد من خلق إله واحد . ولذلك كان التوحيد هو الشرط الأول للكشف عن حقيقة الأشياء ولمعرفتها ، والشرط الأول بالتالي لبناء العلم . فكان نفي الإلهية عن شركاء لله وحصرها في الله وحده الأساس المتين لتفسير الكون تفسيراً يطابق حقيقته ، والمنطلق لبناء المنهج العلمي في طلب الحقيقة .

٥ ـ وجانب المنهج في قول الشهادة أن يتدرّج الإنسان من موقع ما ينشأ عليه ويجد عليه آباءه من عقيدة ، وبالشواهد التي تخطىء في دلالاتها ينفي الإلهية عما لا تصدق عليه الإلهية ، ويستثنى بتلك الشواهد أيضاً الإله الواحد صاحب الخلق والأمر .

أما المضمون في قول الشهادة فهو الوجه الآخر لهذا المنهج . فالمنهج والمضمون يتلازمان عندما يكون المنهج سليماً .

والمضمون في هذا القول هو ما يمثل الأصول الكبرى التي يقوم عليها نظام الدين في الإسلام :

أولها : وجود كائن يملك القدرة على الشهادة وعلى ما تقتضيه من عمليات في النظر وفي التمييز بين الباطل والحق والفصل بينهما ، ويملك الإرادة لتحرير عقله ونفسه من الباطل ، ولتوجيه عقله ونفسه نحو الحقّ .

وثانيها : وجود عالم الشهادة (وكل ما فيه من آيات) الذي يتضمن الأدلة والشواهد على وحدانية الله تعالى .

وثالثها : وجود إله واحد لا شريك له . هو الخالق وهو غاية هذه الشهادة .

٦ ـ سنرى عند النظر في الأصول التي يقوم عليها نظام الدين في القرآن أن هذه الأصول الثلاثة التي تضمنها قول الشهادة هي أيضاً أصول ذلك النظام . وسنرى أن المنهج الذي يتدرّج به الإنسان في قول الشهادة هو المنهج الذي يستدرج به القرآن الإنسان إلى نفي الباطل من جهة وإلى الالتصاق بالحقّ من جهة أخرى .

ولذلك وجدت أن النظر في منهج قول الشهادة وفي مضمونه كان خير مدخل لالتقاط نظام الدين الذي نزل به القرآن ، وواضح أن هذا المنهج في التقاط نظام الدين في الإسلام يختلف عن منهج الغزالي ، ويشتمل بالمقابل على دعوة الإنسان إلى الإسلام بوصفه الإنسان ، ولا ينحصر في بيان مقاصد الإسلام للذين كانوا قد أسلموا فقط .

وسنرى أن المنهج الذي اخترناه لالتقاط نظام الدين في الإسلام هو الذي يصلح للنظر في بناء النظم الاجتماعية الإسلامية ، التربوية والسياسية ، والعلميــة والتسخيرية (التكنولوجية) في عمليات تجسيد الإسلام في حياة الأمة وفي حياة الإنسان .

٧ - ولقد اختلفت هذه الأصول الثلاثة التي تضمّنها قول الشهادة (والتي نزل بها القرآن كما سنرى) عن الأصول التي قام عليها نظام الدين في الأديان التي سبقت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . واختلف كل أصل منها عن الأصل الذي يقابله في تلك الأديان اختلافاً كلياً . وبهذا الاختلاف تغيّر معنى الدين وتغيّرت وظائفه في حياة الإنسان وفي المجتمع .

فبعد أن كانت تلك الأديان تنكر على الإنسان أنه يملك القدرات الذاتية للنظر المطلوب في عمليات استكشاف نظام الحياة الذي يصلح له ، صار الاعتراف بهذه القدرات والثقة بها في القيام بهذه العمليات هو البديل الذي قذف به الإسلام في بناء نظام جديد في الدين يقوم على توظيف هذه القدرات وعلى تنميتها .

وبعد أن كان « العلم » الذي يهتدى به الإنسان الى الإيمان بالله حكراً على مؤسسة دينية ، ولا يتم الإيمان للإنسان إلا بفعل تلك المؤسسة وتدخلها في تلك الأديان، نقل الإسلام موضوع هذا العلم من تراث تلك المؤسسة إلى علم الحقيقة في عالم الشهادة وفي آيات الله في خلقه ، بل وجعل علم الجماعة المتوارث موضع شك ومراجعة على ضوء ما يكشف عنه علم الحقيقة .

وكذلك بعد أن كان الإله في تلك الأديان إلهاً خاصاً لشعب معين كما كان الأمر في العقيدة اليهودية ، أو لجماعة دينية معينة ، صحّح الإسلام تلك النظرة إلى الإله بتأكيده أن الله إله كل شيء وإله الناس جميعاً المؤمنين منهم وغير المؤمنين .

وبتصويب كل أصل من هذه الأصول الثلاثة صحّح الإسلام مسيرة الدين كله ومسيرة الفكر الديني ، واستكمل النظام الديني (أو نظام الحياة) فأقامه على أصول جديدة ثابتة وخالدة لأن كل واحد منها يلتصق التصاقاً كلياً وتاماً بالحقيقة .

٨ ـ هذا ، وموضوع العلم الذي يحتكم إليه الإنسان في عمليات استكشاف نظام الحياة الذي يصلح له ويستجيب لحاجاته الفطرية ، العقلية والوجدانية والارادية ، له وجوده الموضوعي والذاتي . وهو خارج كل تراث بشري موجود في عالم الشهادة وفي ما فيه من آيات . وهو موجود دائماً وأبداً أمام كل إنسان أينما كان وفي أي عصر عاش. وهو بالتالي في متناول كل إنسان . ولا يحتاج هذا الإنسان لتصديق حَدَث حدث في الماضي السحيق ليتم له إيمانه بالله كما كان الأمر في الأديان الأخرى .

وصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ليست كما يتوهم بعض الفقهاء في صلاحية الأحكام الشرعية وشموليتها ، بل هي في صلاحية الأصول الثلاثة وفي التصاق كل منها بالحقيقة ، ولأن كل أصل منها يلتصق بالحقيقة سيظل الإسلام سابقاً لجميع العلوم ليس لأن نصوصاً معينة في القرآن تشير إلى هذا السبق ، ولكن لأن معرفة أسرار آيات الله في خلقه هي ما يقتضيه نظام الدين في الإسلام . وكل ما يمكن أن يكشف عنه العلم كشف لتلك الأسرار وإضافات جديدة لتعميق معرفة الإنسان بالله تعالى وبالإسلام .

نظام الدين في القرآن :

١ ـ نزل القرآن على جماعة من المشركين ، فلم تكن وحدانية الله من المعطيات عندهم كما كانت في رسالة موسى أو في رسالة عيسى عليهما السلام . بل كانت هي القضية الأم ، وهي موضوع النظر وغاية الاستكشاف . من هو الإله ؟ وما الذي يميزه عن من يشرك الناس به من « الآلهة »؟ كانت هذه القضية المحور الرئيسي في مخاطبة المشركين . ومن هو المطالب بالنظر في هذه القضية ؟ ولماذا يستجيب لهذه المطالبة ؟ وهل يملك القدرة على فهم الخطاب في ذلك الحوار ؟ وعلى التعامل معه بوعي وثقة ؟

ثم ما الذي يحتكم إليه القرآن في دعـوة الإنسان إلـى الفصل بين الشرك والتوحيد ؟

٢ ـ بهـــذه القضية الأم اتسع نطاق الدين . فلـم ينحصر في مجموعـــــة من الوصايا والأحكام ، أو في مجموعة من القيم الأخلاقية والاجتماعية . واتسع ليشتمل على المنهج في استدراج الإنسان في الحكم على الباطل وفي استكشاف الحقّ ، والإنسان في هذه العمليات على وعي كامل بما يطالب به . واتسع ليشتمل على تثبيت ثقة الإنسان بقدراته العقلية والارادية في انشغاله بهذه العمليات . وليشتمل في النهاية على نظرة جديدة إلى الإنسان ، وعلى نظرة جديدة إلى العلم وإلى التوحيد . وبهذا الاتساع صارت كلية الدين كلية كاملة تستجيب لحاجات الإنسان كلها ، الفلسفية والفكرية ، والعلمية والمعرفية ، والأخلاقية والاجتماعية .

هذا من جهة . ومن جهة أخرى صارت هذه الكلية تحيط بكلية الحقيقة كما تظهر هذه الحقيقة في حقيقة الإنسان وفي حقيقة العالم وكل شيء فيه ، وفي حقيقة التوحيد. وهذه الاستجابة الكلية لحاجات الإنسان ، وهذه الإحاطة بالحقيقة هي ما نعنيها بالقول بأن الإسلام كلّ شامل ومتكامل .

نظرة القرآن إلى الإنسان :

١ ـ ولأهمية دور الإنسان في عمليات إسلامه كان القرآن شديد الحـــرص على تعريف « ما هو الإنسان » ؟

هذا الإنسان الذي يريد منه القرآن أن يقف وقفة فلسفية حاسمة خارج ما وجد عليه آباءه ونشأ عليه وألفه وتعوّد عليه ، بل تشكّلت به مداركه ونظرته إلى نفسه وإلى الحياة ، والذي يريد منه أن يقف وقفة فلسفية يتدرّج بها إلى استكشاف نظام جديد تتغير به نظرته إلى نفسه وإلى كل إنسان ، ونظرته إلى العالم وإلى ما فيه من أشياء وأحداث، وإلى الإلهية ، ما هو هذا الإنسان ؟ وما هو دوره في هذه العملية الضخمة ؟ فهل يملك القدرة على المشاركة في الحوار ؟ وعلى مراجعة ما وجد عليه آباءه وهو نفسه من صنعه؟ وعلى استئصال ذلك من نفسه ؟ وعلى تغييره بالنظرة الجديدة ؟

عندما ندرك ضخامة ما طالب به القرآن من الجيل الأول من العرب الذين أسلموا، ندرك بعضاً من قوة الإعجاز في القرآن ، وندرك صفات محمد صلى الله عليه وسلم القيادية في ذلك التحول وصفات الذين اتبعوه .

وكما وجدنا أن قول الشهادة يتضمن المنهج في استدراج الإنسان إلى التوحيد ، ويتضمن الأصول الكبرى التي قام عليها نظام الدين في الإسلام ، كذلك سنجد أن ذلك المنهج هو أيضاً منهج القرآن ، وأن تلك الأصول هي أيضاً الأصول التي قام عليها نظام الدين في القرآن . فتبين لنا أن قول الشهادة كان خير مدخل لطلب النظام الذي نزل به القرآن .

٢ ـ آيات كثيرة اختصّت بتعريف « ما هو الإنسان » ؟ بلغة صريحة ، كان الغرض منها أن تبين للإنسان ما في حقيقته من طاقات فطرية ، وأن تبين له أن تلك الطاقات هي ما يخاطبه القرآن فيه ، وأنها هي ما ينشغل في الاستجابة إلى ما يدعوه إليه ، وأنها هي ما يرشحه للإسلام . وهذه الآيات كثيرة ، نختار منها الآيات التالية من سورة السجدة التي اجتمعت فيها أهم الخصائص التي يعرف بها الإنسان :

﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة، من ماء مهين . ثم سوّاه ، ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ما تشكرون ﴾[1] .

٣ ـ وتبرز في هذه الآيات الخصائص التالية في تعريف « ما هو الانسان » ؟

أولاً : أن أصل البشر واحد . يؤكد ذلك آيات أخرى ، منها :

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ... ﴾[2] . وعبارة « الزوج تشمل الذكر والأنثى لغة ». وعلى أساس أن الزوجية في كل شيء سنّة من سنن الله في خلقه . (أما أن المرأة خلقت من ضلع آدم فهذه الفكرة من الإسرائيليات السخيفة التي سرّبها المغرورون من الرجال في الفكر الإسلامي) .

(١) السجدة : ٧ ـ ٩ .
(٢) النساء : ١ .

ثانياً : تسوية الإنسان ، أو صورته وما في بدنه من نظم بيولوجية ! وهي صورة يريد الله من الإنسان أن يذكرها دائماً :

﴿ يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم ، الذي خلقك فسوّاك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركّبك ﴾(١) !! .

وتقدير الجمال في هذه الصورة مطلب قرآني لمن يريد أن يفقه .

ثالثاً : النفخة الإلهية في نفس الإنسان ، وهي مصدر الشوق إلى معرفة الله تعالى والرغبة فيها .

رابعاً : أدوات العلم والمعرفة (السمع والابصار والأفئدة) .

فهذا الشوق إلى معرفة الله يقتضي أن يتجسد بالعلم والمعرفة وتشمل هذه الأدوات المعرفية الأدوات الحسّية والعقلية والقلبية اللازمة لهذا التجسيد . و « الفؤاد » هو موطن العقل والقلب معاً .

ومعرفة الله تعالى بالعلم والمعرفة مهمة الإنسان في هذه الحياة . **﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾**(٢) . والفكرة في هذه الآية هي ما نقله جون لوك عن المسلمين في مرحلة تلمذة الغربيين على الفكر الإسلامي . ولكنهم صوروها كفكرة أصيلة بكر من لوك وصارت عندهم نقطة البداية في تاريخ التربية الحديثة) .

خامساً : وجود الإرادة في الاختيار والقرار .

فوجود الرغبة في معرفة الله تعالى ، ووجود أدوات المعرفة لتجسيد هذه الرغبة بالعلم والمعرفة ، قد لا يترتب عليهما إسلام الشخص . فقد يهتدي ويصير من « الشاكرين » (أي المسلمين) وقد لا يهتدي ويكون من الكافرين الذين ينكرون نعم الله عليهم .

٤ ـ والذي يستوقفنا في تعريف القرآن ما هو الإنسان أنه :

أولاً : تعريف مجرد من الجنس (الذكورة والأنوثة) ومن العرق واللون ، ومن اللسان (إشارة إلى اختلاف اللغات والحضارات) ، ومجرد أيضاً من المكان والزمان الذي يعيش الإنسان فيه .

---

(١) الانفطار : ٦ ـ ٨ .

(٢) النحل : ٧٨ .

ثانياً : أن هوية الإنسان وحقيقته تعرف بتلك الخصائص المشتركة التي ذكرناها أعلاه . فالإنسان المقصود في خطاب القرآن هو كل إنسان . وتنفرد اللغة العربية بعبارة تدل على هذه الهوية هي عبارة « الإنسان » . وبهذا التجريد ، وبتحديد خصائص الهوية المشتركة ، بيّن القرآن ما هي عالمية الإنسان ، كما بيّن ما الذي يجعل الإنسان يستجيب لدعوة الإسلام والقدرات اللازمة لذلك .

٥ ـ ولا تستوفى نظرة القرآن إلى الانسان الا بالتعرف إلى التوافق التام بين هذا التعريف وسائر القرآن ، ويبرز هذا التوافق فيما يلي :

أولاً : في صورة المخاطب (بالفتح) الذي يخاطبه القرآن . هذا المخاطب هو الذي يتوقع منه أن يفقه الخطاب ويفهمه لما فيه من قدرات إدراكية وعقلية ووجدانية في عبارة مثل عبارة « لعلهم يفقهون » ، وأن يتفكّر فيما يدعوه إلى التفكير به في « لعلهم يتفكرون » ، وأن يعلم حقيقة ما يدعوه إلى علمه في « لعلهم يعلمون » ، وهكذا في « لعلهم يعقلون » وفي « لعلهم يؤمنون » وغيرها . فهذه الصورة للمخاطب تفترض وجود القدرات اللازمة لهذه العمليات المطلوبة .

وكذلك يتوقع القرآن من المخاطب توظيف إرادته في الاختيار بين الحق والباطل في عبارات مثل « لعلهم يشكرون » .

وهذه العمليات كلها ، العقلية والارادية ، عمليات شخصية تحدث بالنفس وللنفس ، ولا تحدث بوساطة وسيط آخر . ولذلك كان طلب الإيمان بالله في الإسلام عملية شخصية فردية ، ويقوم بها الفرد عن وعي وعلم وإرادة .

ثانياً : ولأن هذه العمليات بطبيعتها عمليات فردية ذاتية ، ألحّ القرآن على استقلال الفرد في القيام بها . فلا أحد غير الفرد نفسه يملك القدرة على إحداثها فيه . وحتى الرسول صلى الله عليه وسلم لم يملك مثل هذه القدرة : ﴿ **إنك لا تهدي مَنْ أحببت ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾[1] . ومن هنا كانت عبارة « أشهد » في

(١) القصص : ٥٦ .

قول الشهادة مصاغة بصيغة المتكلم المفرد تأكيداً لهذه الحقيقة . وهذه الحقيقة هي الأصل في مبدأ ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ... ﴾[1] .

ويؤكد هذا المبدأ ثقة الإسلام بقدرات الإنسان العقلية والارادية كما يؤكد أن الإسلام في كليته نزل ليكون توظيفاً لهذه القدرات بمنهج يربطها بطلب الحقيقة .

ثالثاً : وتوافقاً مع تعريف القرآن ما هو الإنسان ، ألحّ القرآن على بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم . فالرسول لا بدّ أن يكون من جنس البشر ليفهموه وليفهمهم . ولا يختلف عنهم في هويته الإنسانية . وليروا أن ما هو في استطاعته بوصفه إنساناً مثل كل إنسان منهم هو ما يتأسون به ، وليس غريباً عما يستطيعون .

وتساءل المشركون من أهل مكة كيف يكون رسول من عند الله بشراً مثلهم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ وكانوا في بعض الحضارات القديمة يعتقدون أن من كانت له صلة بالله كان « مقدساً » ومن عالم الآلهة « المقدس » . ومن المرجّح أن هذه الفكرة وصلت العرب ، فطالبوا الرسول صلى الله عليه وسلم بالمعجزات ، وتساءلوا لماذا لم ينزل الله ملكاً ؟ وإذا كان لا بدّ أن يكون من البشر، فلماذا لم يكن رجلاً من القريتين عظيـم ؟

رابعاً : وكذلك توافقاً مع تعريف القرآن الإنسان ، يؤكد القرآن في آيات كثيرة مبدأ مسؤولية الفرد ليس عن توصله إلى الإيمان فقط ، ولكن عن أفعاله وعن سلوكه في حياته مسؤولية كاملة ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾[2] . فالفرد هو الذي يحاسب في النهاية على ما فعل « بالأمانة » التي يحملها في نفسه .

٦ ـ ولاستكمال نظرة القرآن إلى الإنسان لا بدّ من ذكر سرّ اللغة الذي جعله الله من خصائص الإنسان ، ولا بدّ من ذكر الغايات التي وجد الإنسان من أجلها .

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .

(٢) الانعام : ١٦٤ .

ففي أول إعلان عن خلـق الإنسان ذكر القـرآن أن الله ﴿ **وعلّم آدم الأسماء كلها** ﴾[1] . وذكر في آيات أخرى أهمية قدرة الإنسان على البيان وعلى الكتابة في بناء الحضارة . فقال تعالى : ﴿ **الرحمن ، علّم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان** ﴾[2]. وقال : ﴿ **نَ والقلم وما يسطرون** ﴾[3] . و ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علّم بالقلم** ﴾[4] .

أما الغايات التي وجد الإنسان من أجلها فاستخلصها الراغب الأصفهاني من القرآن في ثلاثة في كتابه « **الذريعة إلى مكارم الشريعة** » ، وهي :

أولاً : عمارة الأرض في مثل قوله تعالى : ﴿ **واستعمركم فيها** ﴾[5] .

ثانياً : عبادة الله المذكورة في : ﴿ **وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون** ﴾[6] .

ثالثاً : خلافة الله في الأرض المذكورة في : ﴿ **ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾[7] .

٧ ـ ولكن مع هذه الخصائص والصفات التي تدفع الإنسان إلى معرفة الله ، جعل الله في الإنسان حاجات أخرى قد تجره إلى غير هذه الغاية . جعل فيه « الهوى » ، وهو ميل النفس إلى ما يستهويها من رغبات وطموح ومحبته لها وتمسكه بها إلى درجة العبادة : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾[8] ؟ . وزين له الشهوات ، وجعل فيه حب الاستكبار .

---

(١) البقرة : ٣١ ، وفيه : « وعَلَّم » .

(٢) الرحمن : ١ ـ ٤ .

(٣) القلم : ١ .

(٤) العلق : ١ ـ ٤ .

(٥) هـود ٦١ .

(٦) الذاريات : ٥٦ .

(٧) الاعراف : ١٢٩ .

(٨) الجاثية : ٢٣ .

ولم تخلق هذه كلّها في الإنسان عبثاً ، بل خلقت لخدمة غايات الإنسان إذا هو أحسن توظيفها في سعيه لغاياته العليا .

فالإسلام بخلاف غيره من الأديان لا يطالب الإنسان باستئصال هذه النزعات من نفسه ، ولكنه يطالبه بترويضها ، ولتصير خبرته بالتعامل معها في عمليات هذا الترويض مصدراً آخر من مصادر معرفته بنفسه في كليتها . وحرية الإنسان في النهاية هي بقدر نجاحه في توحيد قدراته العقلية والإرادية وشهواته هذه في كل واحد متناغم ومتكامل . ولقد ترك المتصوفون من علماء الإسلام تراثاً عظيماً وبصائر عميقة في معرفة النفس وفي تربيتها ، ومرجعاً هو الأفضل والأحسن مما صار سائداً بعد فرويد .

نظرة القرآن إلى العلم :

١ - وقبل أن نستخلص ما في نظرة القرآن إلى الإنسان من طاقات في بناء حضارة إنسانية عالمية ، سننظر في نظرة القرآن إلى العلم وفي نظرته إلى التوحيد لنستكمل النظر في الأصول الثلاثة التي يقوم عليها نظام الدين في القرآن .

وأما المنهج « النصوصي » الذي هو منهج الفقهاء في طلب موقف الإسلام من أمر من أمور الحياة أو من قضية من قضاياها (والذي ما زال هو المنهج السائد بين العلماء المسلمين حتى هذا اليوم) ، فلا يصلح لمعرفة نظرة الإسلام إلى العلم ، ولا تطلب هذه النظرة كما يطلبها الفقهاء من مجموعة من النصوص من الآيات والأحاديث التي تذكر العلم وتحض على طلبه وتجعله فريضة على كل مسلم . فهذه النصوص ليست أكثر من تأكيد لأصل أكبر وأوسع منها في النظام الكلي .

وكما رأينا في قول الشهادة أن « عالم الشهادة » وما فيه من آيات هو موضوع العلم والمعرفة الذي يلتقط منه الإنسان الشواهد والبينات التي يحتكم إليها في عمليات الفصل بين الشرك والتوحيد وبين الباطل والحق ، وهو موضوع العلم والمعرفة الذي تتكشف فيه أفعال الله في الكون وفي حقيقة الإنسان ، فكذلك نرى أن القرآن أيضاً جعل عالم الشهادة وكل ما فيه من آيات مرجع الإنسان في عمليات الفصل ، ومرجعه أيضاً في عمليات السعي لمعرفة الله تعالى . وكما أن القرآن شديد الحرص على تعريف

ما هو الإنسان ، فكذلك هـو شديد الحـرص علـى دعوة الإنسان إلـى معرفة الكون (السموات والأرض) ومعرفة ما فيه من آيات . الإنسان بوصفه العارف وعالم الشهادة بوصفه موضوع العلم والمعرفة لهذا العارف هما الأصلان الأساسيان لطلب الأصل الثالث غاية العارف وغاية المعرفة ، أي معرفة الله تعالى .

٢ ـ والآيات القرآنية التي تطالب الإنسان بعلم ما تدعو إليه وبمعرفته والتفكر فيه أكثر من أن تحصى في هذه المناسبة . فالذي تدعو إلى معرفته يشمل الكون كله (السموات والأرض) ، ويشمل العظيم والكبير والصغير من الأشياء حتى البعوضة ، كما يشمل مختلف الظواهر والأحداث في العالم مثل اختلاف الليل والنهار ، والمطر والنبات والزرع ، والدواب والطيور .. الخ . كما يشمل أحوال الأمم على مدى تاريخ الإنسان وأسباب عدم استجابة أهلها لرسالات الرسل (مثل سورة الأعراف والشعراء وغيرهما) . ويشمل أيضاً الإنسان نفسه بوصفه آية أخرى من آيات الله في كونه، وبالتالي موضوعاً آخر للعلم والمعرفة من بدايات كونه من سلالة طينية، إلى كونه نطفة وإلى مراحل تكوينه في بطن أمه وإلى مراحل نموه في حياته.

وهذه الآيات التي تدعو إلى العلم والمعرفة والتفكر تكاد تكون على كل صفحة من صفحات القرآن ، ولا حاجة لاقتباس بعضها هنا .

٣ ـ المهم أن ندرك أن نظام الدين في القرآن التصق التصاقاً كلياً وكاملاً بمعرفة الحقيقة ، بمعرفة حقيقة الكون وكل ما فيه من أشياء ، وخاصة بحقيقة الإنسان في مراحل تكوينه ونموه وفي مختلف أحواله في هذه الحياة .

وهذا الالتصاق بمعرفة الحقيقة جعل المحاسبي (أحد الشيوخ الذين قرأهم الغزالي) يرى أن القرآن قرآنان : قرآن في لغة المصحف ، وقرآن في حقيقة الكون وحقيقة كل شيء فيه ، وبقراءة كل منهما يتقرّب المؤمن إلى معرفة الله . ولذلك كان علم الحقيقة فرضاً على كل مسلم ، وكان ما تكشف عنه العلوم مطلباً للمسلمين سواء أكان الذي يكشف عن الحقيقة من المسلمين أم من غيرهم ، وكان على عالم الدين في الإسلام أن يكون ملمّاً بهذه العلوم . ولا تتم له ثقافته بالاكتفاء بطلب ما يسمى « بالعلوم الدينية » .

٤ ـ تغيّر معنى عبارة « الآية » ومفهومها في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكانت هذه العبارة تشير إلى أحداث كانت خرقاً لسنن الله في كونه في الرسالات التي سبقت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . أما في هذه الرسالة فصارت تدل على الحقيقة وكما تحدث بفعل تلك السنن . وهذا التغيّر في معنى عبارة « الآية » اقتضاه التغيّر الذي أحدثه الإسلام في نظام الدين وفي الأصول التي يقوم عليها .

فبينما كانت مصداقية الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم تقوم على الإذن لهم بعمل « المعجزات » ، صارت مصداقية محمد تقوم على معرفة أسرار الحقيقة في الكون وفي الإنسان . وتحدّاه المشركون أن يأتي بآيات (معجزات) كالتي أتى بها الأولون . وفي روايات أنه تمنّى عليه الصلاة والسلام أن يؤذن له بمثل تلك المعجزات ليقبل الناس على ما يدعوهم إليه . ولكن لم يؤذن له تأكيداً لأهمية معرفة الحقيقة في النظام الجديد الذي نزل عليه . وكانت رسالته للناس كافة أينما كانوا وفي أي عصر عاشوا لأن علم الحقيقة سيظل دائماً وأبداً في متناول الناس كافة ، بخلاف المعجزات التي هي بطبيعتها لا تتكرر ، ولا يشاهدها سوى قلة من الناس ولمرة واحدة فقط .

نظرة القرآن إلى الإلهية :

١ ـ برزت هذه النظرة في الحوار مع المشركين . فكانت القضية التوصل إلى نظرة تمثل حقيقة هذا الكون وحقيقة كل شيء فيه . وكما ذكرنا لم تكن قضية الفصل بين الشرك والتوحيد مجرد قضية في بيان الباطل من الآلهة ، ولكنها كانت ضمناً قضية تفسير لهذا الكون ولما فيه يطابق حقيقته وحقيقة ما فيه من أشياء وأحداث . وقلنا إنه لا علم دون الفصل في هذه القضية .

٢ ـ ولكن لم تنحصر قضية التوحيد في الحوار مع المشركين ، بل شملت أيضاً الحوار مع « الموحدين » أهل الكتاب .

كان اليهود قد صادروا عقيدة التوحيد واحتكروها لشعبهم . جعلوا الإله « إله إسرائيل » والإيمان به متعذراً على غير اليهود . وجعلوا الهدى من الله حكراً على شعب اليهود ، فلا رسل ولا أنبياء من غير ذلك الشعب ، ولا هدى لغير ذلك الشعب .

ورفضوا رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ليس لأنها تخالف موازين الحقّ بل لأن صاحبها لم يكن من شعب اليهود . وعرّفوا أنفسهم بأنهم « شعب الله المختار » ، و ﴿ أبناءُ الله وأحباؤه ﴾[1] . ورد عليهم القرآن ﴿ ... بل أنتم بشر ممن خلق ﴾[1] تكذيباً لتلك العقيدة وتصديقاً لعالمية الاسلام .

٣ ـ فكان ينبغي تصحيح هذه العقيدة التي افتراها اليهود على الله . وكانت هذه مهمة أخرى من مهمات رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . فأكدّ القرآن على أن الهدى نزل على كل قوم من الأمم البشرية ، ونزل عليهم بلسانهم ، وأن رسالته واحدة هي « لا إله إلاّ الله » ، وأكّد على أن الإنسان واحد في كل هــذه الأمم ، وأن اليهــود ﴿ بشر ممن خلق ﴾[1] لا يختلفون في الفطرة الإنسانية عن غيرهم من البشر . فرفض العنصرية اليهودية بهذه البشرية المشتركة بين الناس . وفتح أبواب الرحمة والإيمان لكل إنسان أيّاً كان جنسه أو عرقه أو لونه أو لسانه .

وأعاد القرآن بهذا التصحيح إلى الدين عالميته ، وإلى الإنسان مساواته بكل إنسان آخر في الفطرة .

والعنصرية اليهودية تختلف عن التمييز بسبب اللون أو الجنس . فلقد تبين اليوم أن التمييز ضد اللون والجنس يمكن التغلب عليه بالكفاح وبالتربية وبالقانون وبتغيير النظام السياسي . أما عندما تكون العنصرية عقيدة دينية فلا يمكن التغلب عليها أو تجاوزها إلا بالتحرر من تلك العقيدة بعقيدة تقوم على عالمية الإنسان . ونجح اليهود في تسكيت الغربيين بتسليط تهمة « اللاسامية » على من يخالفهم أو ينتقدهم ، مع أنهم هم أصحاب عقيدة « اللاإنسانية » . وأعمالهم ضد غير اليهود في فلسطين شاهد على ذلك .

٤ ـ وكانت المسيحية أول دعوة عالمية إلى عالمية الإنسان . ترى أن كل إنسان مرشح ليكون من المؤمنين ، لا فرق في ذلك بين كونه ذكراً أو أنثى ، أو كونه من هذا الشعب أو من هذا اللون أو ذاك بخلاف العقيدة اليهودية .

---

(١) المائدة : ١٨ .

اختلف القرآن معهم في عقيدة تأليه المسيح عليه السلام . وهذه العقيدة لم تصبح عقيدة رسمية إلا في القرن الرابع بعد الميلاد . وحتى بعد ذلك التاريخ كانت رؤية الكنيسة الشرقية رؤية أقرب إلى الإسلام من الرؤية الغربية . وكان آباء الكنيسة الشرقية - أمثال البطريرك باسيل ، بطريرك قيساريا (٣٣٩ - ٣٧٩) وأخيه جريجوري (٣٣٥ - ٣٩٥) وغيرهما - يرون أن الله تعالى في ذاته خارج قدرات الإنسان في المعرفة، تماماً مثلما وصفه القرآن بأن ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[١] ، وكانوا يرون أن المسيح « وجه » من الوجوه الثلاثة التي يتقرب الإنسان بمعرفتها إلى الإيمان بالله . وهؤلاء هم النصارى الذين وصفهم القرآن بأنهم ﴿ **أقربهم مودة للذين آمنوا** ﴾[٢] .

أما بعد الإصلاح الديني في أوروبا وقبول البروتستانت التوراة التي بين أيدي اليهود كجزء لا يتجزأ من « الكتاب المقدس » ، فلقد التحمت العقيدة البروتستنتية بالعقيدة اليهودية . وبذلك الالتحام التحمت سياسات الدول الغربية بالصهيونية . والتحالف بين أميركا واليهود ليس مجرد تحالف حول مصالح مشتركة ، بل هو تحالف في العقيدة ، وبالتالي تحالف في معاداة من يعادي اليهود في فلسطين .

٥ - والإله في القرآن ليس كالاله في أي من الأديان الأخرى . هو خالق كل شيء ، صاحب الخلق والأمر ، وإله الناس جميعاً ، المؤمنين منهم وغير المؤمنين ، ولا يميز بين إنسان وآخر بسبب الجنس أو العرق أو اللون أو اللسان .

﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[٣] ، و ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾[٤] .

وهذا الإله لا يمكن تمثيل مشيئته في مؤسسة بشرية كما تدعي المؤسسات الكهنوتية ، وكما كان يدعي ملوك أوروبا . وكل نظام مجتمعي نظام بشري في الإسلام وليس له أن يدعي أنه ينطق باسم المشيئة الإلهية أو يمثلها إن كان ذلك نظاماً دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً ، أو حتى تشريعياً . فهذه النظم كلها وعلى تعدّدها

---

(١) الشورى : ١١ .
(٢) المائدة : ٨٢ .
(٣) الشورى : ١١ .
(٤) الأنعام : ١٠٣ .

واختلافها نظم بشرية ولا تمثل سوى ثمرات الاجتهاد البشري في فهم الإسلام وفي ترجمته في الواقع . وتظل دائماً وأبداً موضع الاجتهاد البشري وموضع التعديل والتغيير والتبديل .

فالدولة في الإسلام نظام بشري ، أي موضوع آخر للاجتهاد البشري . وقضية الفصل بين الدين والدولة في الحضارة الغربية قضية أفرزها ادعاء المؤسسة الدينية بأنها تمثل مشيئة الله بين الناس وادعاء الدولة بأنها هي أيضاً تمثل تلك المشيئة . وكان الفصل في الحضارة الغربية تحرراً من سلطان تمثيل تلك المشيئة .

ولم يكن الفصل عندهم مقصوراً على الفصل بين الدين والدولة ، بل ترتب عليه الفصل بين العلم والدين ، والفصل بين الفكر الكهنوتي (اللاهوتي) والفكر العقلي الفلسفي ، وبين رجال العلم والفلسفة ورجال الدين . وخلفية ذلك الفصل في جوانبه المختلفة عقيدة تنكر وظائف العقل في عمليات التوصل إلى الإيمان ، وتقوم على « أسرار » وطقوس لا يفقهها الإنسان .

فكان الفصل ثورة من أجل العقل ومن أجل توظيفه في حياة الإنسان ، ثورة اختمرت مبادؤها في الفكر الأوروبي بعد قرون طويلة من الاتصال بالمسلمين والتتلمذ عليهم . وبعد أن تعلموا أن الإنسان يملك القدرة على كشف الحقيقة ، وأن هذه الحقيقة هي موضوع العلم والمعرفة وأنها موجودة فيما صاروا يسمونه « بالطبيعة » ، أي في عالم الشهادة .

والعرب الذين يدعون إلى نظام « علماني » كبديل للنظام الديني لا يعرفون ما هو الدين في الإسلام ، ويساوونه بالدين في التراث الغربي ، ولا يعرفون ما الذي دعا إلى العلمانية في الغرب . فكل النظم الإسلامية « علمانية » بمعنى أنها لا تمثل مشيئة الله وهي من الاجتهاد البشري ، وبمعنى أنها عقلانية لالتصاق نظام الدين في الإسلام بالحقيقة ، وبما تكشف عنه الحقيقة . فالمسلمون يتوجّهون إلى الإسلام عندما يطورون نظاماً في التربية يقوم على حقيقة الإنسان ، أو نظاماً في السياسة . وسنعود إلى هذا الموضوع في القسم الأخير من هذه الدراسة .

النظام العلمي في القرآن :

١ ـ وبعد بيان أن ما في قول الشهادة من منهج ومضمون هو خير مدخل لالتقاط نظام الدين في القرآن ، وبعد أن استعرضنا نظرة القرآن إلى كل أصل من الأصول الثلاثة التي يقوم عليها نظام الدين الكلي ، من المستحسن ولو على حساب بعض التكرار أن نركز تركيزاً خاصاً على « النظام العلمي المعرفي » الذي جاء به القرآن لأهمية هذا النظام في بناء النظم العلمية والتربوية والسياسية الإسلامية ، وفي بناء الحضارة الإنسانية التي يدعو إليها القرآن .

٢ ـ ذكرنا أن التوحيد هو الأصل الأول والأصل الأم لجميع الأصول التي يقوم عليها بناء نِظام كلي في تفسير هذا الكون تفسيراً يطابق حقيقته .

وأن الإنسان بما يملكه في الفطرة التي فطر عليها من قدرات إدراكية وعقلية ووجدانية هو المخلوق الذي يملك القدرة على معرفة حقيقة هذا الكون وحقيقة كل شيء فيه بقدرته على التمييز بين الحق والباطل وبقدرته على كشف هذه الحقيقة .

وأن عالم الشهادة بما فيه من آيات هو ما يتضمّن الشواهد على ما هو الحق ، وهو المرجع في الفصل بين الشرك والتوحيد والباطل والحقّ ، كما أنه هو المرجع أيضاً لمعرفة « أفعال » الله في هذا الكون .

فهذه وإن كانت هي الأصول الثلاثة التي قلنا إن نظام الدين الكلي الذي نزل به القرآن يقوم عليها ويتكون منها إلاّ أنها من جانب آخر هي أيضاً الشروط الفلسفية الثلاثة لبناء نظام كلي متكامل في بناء العلم والمعرفة ، ولو غاب أي من هذه الشروط لتعذّر على الإنسان معرفة الأشياء كما هي في حقيقتها ، ولتعذّر عليه بالتالي بناء العلم وتطويره . وأشرنا أيضاً إلى أهمية اللغة وقدرة الإنسان على البيان وإلى قدرته على الكتابة لبناء صرح العلم والمعرفة جيلاً بعد جيل .

٣ ـ وأضاف القرآن إلى هذه الأصول الفلسفية في طلب العلم والمعرفة ، أصولاً أخرى هي الأصول العملية لبناء المنهج العلمي في الكشف عن حقيقة الشيء موضوع العلم ، وهذه الأصول العملية اللازمة لبناء المنهج العلمي هي :

أولاً : التقدير :

﴿ ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدّره تقديراً ﴾(1) .

﴿ والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾(2) .

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾(3) .

أي أن كل شيء في الكون مركب تركيباً خاصاً به وهو ما يجعله ميسّراً للعلم والمعرفة.

« والتقدير » يشمل أيضاً إيجاد القدرات اللازمة في ذلك الشيء ليؤدي ما خلق من أجله . وتسخير الإنسان لذلك الشيء يتم له بمعرفة تركيبه وبمعرفة ما فيه من قدرات. وهذا المعنى موجود أيضاً في مفهوم الفطرة. فالله بوصفه ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾(4) جعل في فطرة كل شيء ما يمكنه من تأدية ما خلق من أجله .

ثانياً : الزوجية :

﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾(5) .

﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ﴾(6) .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ... ﴾(7) .

فالزوجية في كل شيء مفتاح آخر بالإضافة إلى التقدير تيسر للإنسان الكشف عن حقيقة ذلك الشيء وعن كيفية تسخيره .

---

(1) الفرقان : ٢ .
(2) الأنعام : ٩٦ .
(3) القمر : ٤٩ .
(4) الأنعام : ١٤ .
(5) الذاريات : ٤٩ .
(6) يس : ٣٦ .
(7) النساء : ١ .

ثالثاً : ثبات السنن الكونية :

﴿ **فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً** ﴾(١) .

هذه الآية وأمثالها تدل على أن سنن الله ثابتة ليس فيما يحكم الأشياء وسلوكها فقط ، ولكن فيما يحكم التاريخ أيضاً(٢) .

وواضح أنه لو لم تكن هذه السنن ثابتة لتعذر بناء العلم .

٤ ـ ومعرفة الأشياء معرفة علمية فقط ، أي معرفتها بالعلم كما نفهمه اليوم ، لا تكفي وحدها للإحاطة بحقيقتها كلها . ولذلك عبّر القرآن عن حقيقة الشيء الكلية بأنها آية . أي أنها حقيقة تدعو إلى الدهشة والإعجاب ، وتدعو بالتالي إلى حبّ معرفتها. وتدعو بعد معرفتها إلى تذوق ما فيها من صنع وجمال ، كما تدعو إلى النظر في دلالات وجودها والغاية منه . فالمعرفة العلمية شرط للكشف عن حقيقة الشيء ولكنها جزء من المعرفة الكلية لها .

وهذا المعنى الكلي للمعرفة أشار إليه القرآن في معنى « التسبيح » ومعنى « السجود » ومعنى « الإسلام » . ﴿ **وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾(٣) .

﴿ **يسبّح لله ما في السموات وما في الأرض ...** ﴾(٤) .

﴿ **ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً** ﴾(٥) .

﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض** ﴾(٦) .

---

(١) فاطر : ٤٣ .
(٢) كما ورد في الأحزاب : ٦٢ .
(٣) الإسراء : ٤٤ .
(٤) الجمعة : ١ .
(٥) الرعد : ١٥ .
(٦) آل عمران : ٨٣ .

والتسبيح والسجود والإسلام في هذه الآيات وأمثالها عبارة عن حقيقة الأشياء . فلأنها هي ماهي تسبّح لله وتسجد له وتسلم له تعبيراً عن حقيقة وجودها . ومعرفة الإنسان بها يجب أن تشمل هذه المعاني الجمالية والوجودية بقدر ما هو في استطاعة الإنسان ، لكي لا يطغى العلم البحت على الإحاطة المعرفية ، ولكي لا يطغى تسخيره على القيم الجمالية والأخلاقية .

الخلاصـــــة :

١ - رأينا أن النظام الكلي الذي نزل به القرآن ، والذي تضمنه قول الشهادة ، يقوم على أصول ثلاثة كبرى هي في نظرة القرآن إلى الإنسان ، وفي نظرته إلى العلم ، وفي نظرته إلى التوحيد .

ووصل كل أصل من هذه الأصول الثلاثة إلى أقصى ما يمكن أن يحمله من عالمية وشمولية وكمال .

٢ - فبتجريد تعريف الإنسان من الجنس والعرق واللون واللسان ، ومن المكان والزمان من جهة ، وببيان الخصائص التي يتميز بها الإنسان (الأصل الواحد والتسوية والنفخ في روحه وأدوات الإدراك والمعرفة والإرادة) وصل الإسلام في نظرته إلى الإنسان إلى منتهى ما تمثله هويته الإنسانية من عالمية ومن شمولية تشمل كل إنسان ومن كمال . وبهذا التعريف بيّن القرآن أن الذي يخاطبه في الإنسان ويطالبه بما يدعوه إليه هو هذه الخصائص التي يشترك فيها كل إنسان .

وبتجريد العلم من الأساطير والأباطيل التي تتوارثها الجماعة ، وبجعل عالم الشهادة وما فيه من آيات موضوع العلم الذي يحتكم إليه الإنسان في عمليات الفصل بين الحق والباطل ، وفي عمليات التوجّه نحو معرفة الحق ، وصل الإسلام في نظرته إلى العلم إلى منتهى ما تحمله الحقيقة من عالمية وشمولية وكمال .

وكذلك بتجريد الإلهية من العنصرية العرقية ومن الصفات البشرية ، وبتأكيد أن الله تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[1] وأن السبيل إلى معرفته هي في معرفة أفعاله في الكون وفي كل شيء فيه ، وصل الإسلام في نظرته إلى الإله إلى منتهى ما يمثله الحق من عالمية وشمولية وكمال .

(١) الشورى : ١١ .

٣ ـ هذا المنهج الذي جرّد به الإسلام كل أصل من هذه الأصول الثلاثة ممّا « ليس منه » من جهة ، وبيّن « ما هو » مضمون ذلك الأصل من جهة أخرى ، هو المنهج الذي تمت به تصفية الدين من الأساطير والأباطيل التي دخلت فيه من قبل ، وتم به تعريف ما هو الدين ببيان ما هي الأصول التي يقوم عليها نظامه الكلي . وبهذا المنهج في نفي الباطل وفي بيان ما هو الحقّ وضع الإسلام المقاييس العامة للحكم على قرب أو بعد دين معين من الحق .

وتغيّرت بهذا التغيير الذي أحدثه الإسلام في نظرة الدين إلى الإنسان وإلى العلم وإلى التوحيد مهمات الدين ووظائفه ومقاصده في حياة الانسان .

أولاً : صار تشغيل قدرات الفرد الفطرية (الإدراكية والعقلية والإرادية) وتنميتها إلى أقصى ما تحمله من طاقات بطلب العلم وبطلب القيم الإنسانية العليا وبالعبادة ، مهمة الدين بالنسبة لهذا الفرد .

ثانياً : وصار الكشف عن حقيقة آيات الله في عالم الشهادة ، أي عن حقيقة الإنسان وعن حقيقة الكون وحقيقة كل شيء فيه ، طلباً في معرفة خالق هذه الآيات مهمة الدين في بناء العلم وتطويره .

ثالثاً : وصارت معرفة الله تعالى هي الغاية التي تقتضي هذا النوع من تربية طاقات الإنسان الفطرية ، وهذا النوع من بناء العلم وتطويره .

وصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان تقوم على عالمية وعلى كمال كل أصل من هذه الأصول الثلاثة ، وعلى النظام الكلي الذي تتكامل فيه .

٤ ـ أشار القرآن في سور كثيرة (مثل الأعراف والشعراء وهود وغيرها) إلى أسباب إعراض الناس في مختلف المجتمعات البشرية عن الاستجابة لرسل الله لهم . وكان من أهم تلك الأسباب ما يلي :

أولاً : قوة فعل ما وجدوا عليه آباءهم في أنفسهم ، والصعوبة في ترك ما نشأوا عليه وألفوه من عقيدة وتراث في سبيل عقيدة جديدة .

ثانياً : سلطان الملأ (أي السادة أصحاب القرار) في المجتمع ووقوفهم معارضين لما دعا إليه رسل الله في تلك المجتمعات .

ثالثاً : الاستكبار وصعوبة اتباع رجل مثلهم .

رابعاً : الغفلة عن أمهات القضايا في الحياة بالانشغال الكلي بالقضايا والطموحات الآنية.

٥ ـ ومن خصائص الدين في الإسلام أن الفرد لا يرثه عن آبائه كما يرثه اليهودي مثلاً ، ولكن يجب أن يتجدّد فيه شخصياً وهو على وعي كامل بتشغيل قدراته الذاتية ، العقلية والارادية . ولذلك جعل البلوغ وسلامة العقل الشروط الضرورية لتكليف الفرد بما يدعو إليه الدين وبما يقتضيه منه .

فكيف يتجدّد الإسلام في كل فرد من أفراد الأمة ؟ وما هي الصفات العقلية والأخلاقية الملازمة لهذا التجدّد ؟ وكيف يتجدّد الإسلام في كل جيل من أجيال المسلمين ؟ هذا هو ما سنعود إليه في القسم الأخير من هذه الدراسة بعد النظر في ما يحكم علاقاتنا بالعالم الغربي لأهمية ذلك في استقلال إرادة الأمة عن التحكم اليهودي/ الأميركي بها ، وبعد النظر أيضاً في واقع الأمة المتوارث لأهمية التحرّر منه في بناء مجتمع إسلامي حرّ .

(٣) نحـــن والغـــرب :

منظور الإسلام والحضارة :

١ ـ ما هو موقف الإسلام من حضارة ما من الحضارات البشرية ؟ أو من واقع مجتمع معين؟ أو من التاريخ ؟ أو من أي أمر من أمور الحياة ؟

ولماذا لا يطلب الجواب عن هذا السؤال من موقع حكم معين من الأحكام الشرعية ، ويجب أن يطلب من منظور الإسلام الكلي ؟

ونعني بمنظور الإسلام الكلي تلك الرؤية التي تجتمع فيها جميع الأصول الثلاثة التي يقوم عليها نظام الدين في الإسلام . فتجتمع فيها نظرة الإسلام إلى الإنسان وكل ما في هذه النظرة من قيم معرفية علمية ووجدانية ، وكل ما فيها من قيم إنسانية أخلاقية واجتماعية . وتجتمع فيها نظرة الإسلام إلى العلم وكل ما في هذه النظرة من تقدير للحقيقة وللالتصاق بها في التمييز بين الحق والباطل ، وفي طلب المعرفة والحق . وتجتمع فيها نظرة الإسلام إلى التوحيد وكل ما في هذه النظرة من عالمية وشمولية تحيط بعالمية الإنسان وتحيط بعالمية العلم والمعرفة ، وبعالمية القيم الأخلاقية والاجتماعية .

٢ ـ هذا هو المنظور الذي يجب أن يقف عليه المسلمون عندما يريدون دراسة دين من الأديان أو حضارة من الحضارات . ومن هذا المنظور تبرز أسئلة كبيرة وبعدد القضايا الفكرية والإنسانية والعلمية والاجتماعية والسياسية وغيرها من المجالات التي تفرزها الحياة . ومن الأخطاء الشائعة في مقابلة الإسلام مع غيره من الأديان والحضارات مقابلة مسألة فرعية بما يبدو أنه يقابلها في دين آخر أو حضارة أخرى . فيدعي الغربي مثلاً أن عقيدته تقوم على المحبة بدليل أن الإله الأب أرسل « ولده » لخلاص البشر محبة بهم . ولأن المحبة قيمة أعلى من القيم الإنسانية الأخرى كانت العقيدة التي تقوم عليها عقيدتهم أسمى من العقائد الأخرى . ولكن يسقط هذا الادعاء إذا نظرنا إليه من منظور الإسلام الكلي . ودليل محبة الله تعالى للإنسان تبرز من هذا المنظور في أن الله تعالى خلق الإنسان وجعل فيه فطرة خاصة به هي ما يحرّره من سلطان المؤسسات الكهنوتية ، وهي ما يمكنه من معرفة الله بمعرفة ما

خلق الله . هذه الفطرة هي الدليل على تكريم الإنسان وعلى محبة الله له . وبوجودها في الإنسان تسقط الحاجة إلى إرسال « ولد » للبرهان على محبة الله للإنسان .

٣ ـ ولا تتسع هذه المناسبة لمحاكمة الأديان الأخرى والحضارات الأخرى من منظور الإسلام الكلي محاكمة كلية .

ونشير إلى بعض القضايا لضرب الأمثال فقط .

من منظور نظرة الإسلام إلى الإنسان :

ـ هل يختلف الدين أو الحضارة موضوع الدراسة عن الإسلام في التمييز بين البشر بسبب اختلافهم في الجنس أو في العرق أو في اللون أو في اللسان ؟

وعند وجود هذا التمييز بسبب واحدة أو أكثر من هذه الصفات ، فما هي الاتجاهات والقيم التي تتولّد في أتباع ذلك الدين أو تلك الحضارة نحو غيرهم ؟ وكيف تتجسّد هذه الاتجاهات في علاقاتهم مع الغير ؟

فمثلاً ، اليهودية تميز بين اليهود وسائر البشر ، وتنكر على غير اليهود أن يكونوا من المؤمنين قط . بل تحرص على عزل اليهود عن غيرهم . وترى الغير مصدر تلويث بشري لحياة اليهود .

فهل يمكن فهم سلوك اليهود نحو أنفسهم ونحو غيرهم بدون فعل هذه العقيدة في ذلك السلوك ؟

وقس على ذلك سلوك الغربيين في الأندلس بعد أن انتقلت الهيمنة عليها إليهم . ،سلوك الصرب حديثاً في البوسنا ، وسلوك المهاجرين الأوروبيين إلى ما صار يسمى اميركا ، كيف وصفوا السكان الأصليين « بالوحوش » ورخصوا صيدهم وإبادتهم كما يصطادون الوحوش . وغير ذلك من الأمثلة التي يمتلىء تاريخ اليهود وتاريخ الغرب بها . وتبرز بشاعة هذا السلوك عندما ننظر إليه بمنظور الإسلام إلى الإنسان .

- ثم هل يعترف ذلك الدين موضوع الدراسة للإنسان بأنه يملك القدرة العقلية على التمييز بمفرده بين الحق والباطل ، وعلى السعي وراء العلم والمعرفة كما يعترف له الإسلام ؟

وما هو موقع الإنسان في نظام ديني لا يعترف للإنسان بهذه القدرة ؟ وما هي قيمته في نظام يعطل فيه قواه العقلية والواجدانية والارادية ؟ وما هي حقوقه في مثل ذلك النظام الذي ينكر عليه استخدام قواه العقلية ؟ أليس الأصل في حقوق الإنسان كلها الاعتراف للإنسان بأن هذه القوى هي وسيلته للنجاة وللحرية ؟

وفي الحضارة الغربية لا بد أن يتساءل المسلم أمام هذه العقيدة التي لا تعترف للإنسان بقواه العقلية في معرفة الحقيقة وفي معرفة الحق ، متى بدأ هذا الاعتراف ؟ وكيف بدأ ؟ وهل كان من ابتكار عقولهم كما يدعون ؟

كتبوا تاريخهم بإنكار فعل الإسلام وفعل المسلمين في تشكيل حضارتهم الحديثة. بل كتبوا تاريخ العالم وكأنهم هم وحدهم الغاية من التاريخ وصانعوه . ولا تزال هذه الرؤية الغربية للتاريخ هي السائدة في العالم . وستظل كذلك إلى أن يكتبه المسلمون من منظور عالمية الإنسان في الإسلام .

منظور الإسلام إلى العلم :

٤ - هل تقوم من منظور الإسلام إلى العلم ومن التصاق الدين بالحقيقة عقيدة الدين موضوع الدراسة على مجموعة من الأساطير والأباطيل التي لا يرتاح إليها العقل ، بل التي قد ينكرها ؟ وما هو فعل هذه الأساطير والأباطيل في تشكيل عقول من يتبعون ذلك الدين ؟ وفي تشكيل اتجاهاتهم نحو العلم والحقيقة ؟

وكيف يصالح أتباع ذلك الدين بين تلك الأساطير (مثل أسطورة الشعب المختار) وبين ما كشف عنه العلم حديثاً بأن الفطرة البشرية واحدة في جميع الشعوب البشرية ؟

ولماذا يتمسك أتباع ذلك الدين بتلك الأساطير بعد أن كشف العلم عنها أنها باطلة ؟

وهل يمكن أن يصالح أتباع ذلك الدين بين العلم والدين ما دامت الأصول التي يقوم عليها ذلك الدين هي تلك الأساطير ؟

منظور الإسلام إلى التوحيد :

٥ ـ ما هو تصور الدين موضوع الدراسة للإله ؟ هل هو إله كل شيء في الكون ؟ وإله الناس جميعاً ، المؤمنين منهم وغير المؤمنين ؟

أو أنه إله خاص بعقيدة أهل ذلك الدين ؟ (كما هو الأمر في اليهودية) وما الذي يتولّد في أتباع ذلك الدين من اتجاهات وقيم نحو أنفسهم ونحو غيرهم بفعل ذلك التصور الخاص للإله ؟ في اليهود مثلاً وفي الغربيين ؟

وهل يمكن أن تصير عالمية الإنسان التي تدل عليها حقيقة الإنسان والتي جاء بها الإسلام قيمة فعالة في نظرة أتباع ذلك الدين نحو غيرهم من الشعوب والأمم ، وبديلاً لنظرتهم العنصرية ما دام الإله الذي يتعبدون له ليس إله الناس جميعاً ؟ وبالتالي هل يصلح اليهود وهل يصلح الأميركيون والأوروبيون لبناء نظام عالمي من العدل والمساواة بين البشر ما دامت هذه العنصرية الدينية هي التي تطغى على رؤيتهم لأنفسهم بأنهم هم « الشعب المختار » ، وما دام إلههم إلهاً خاصاً بهم ؟

ثم ، هل كان يمكن أن تتطور العلوم إلى ما تطورت إليه في الغرب ، وأن يتطور فهم الإنسان للكون لو لم يأخذوا من الإسلام وعن المسلمين نظـرة الإسلام إلى التوحيد؟

٦ ـ هذه أسئلة من مجموعات كثيرة يوحي بها منظور الإسلام الكلي إلى الحضارة . وهذا النوع من الأسئلة هو المرجع في إدراك حقيقة الأديان والحضارات الأخرى ، وفي محاكمتها والحكم عليها .

وهذا النوع من الأسئلة التي يوحي بها منظور الإسلام الكلي هي أيضاً نقاط البداية لبناء علوم إنسانية وعلوم اجتماعية إسلامية جديدة تجعل الإنسان كما يراه الإسلام وتجعل العلم والتوحيد كما يراهما الإسلام المرجع في ذلك البناء والموجه له ولتطويره . وستختلف هذه العلوم بقدر ما يختلف منظور الإسلام الكلي عن المنظور الغربي الديني / العلماني .

ومن هذا المنظور الكلي الذي يمثل نظام الدين في الإسلام يصير المسلمون ﴿ **شهداء على الناس** ﴾[1] كما يطالبهم القرآن .

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

الإسلام وفلسفة التطور في التقدم :

٧ ـ تساءل الكثيرون من المثقفين العرب (بفعل فلسفة التاريخ الغربية فيهم في تكوين رؤيتهم للتقدم والرقي) : كيف يمكن أن يكون نظام قديم جاء قبل أربعة عشر قرناً هو الأصلح للتوجّه به مما تطور بعده تاريخياً ؟ وكيف يمكن أن يكون ذلك النظام هو الأصلح من الحضارة الحديثة ، ومنجزات هذه الحضارة ظاهرة وملموسة في التقدم الهائل في العلوم وفي التكنولوجيا ؟ ومنجزاتها ظاهرة وملموسة في تحسين مستويات المعيشة لأكبر عدد من الناس ؟

ولماذا كان علينا أن نتمسك بالقديم وأمامنا النموذج الملموس في التقدم وفي تحسين حياة الإنسان ؟ أليس ذلك التمسك ضرباً من التعصب لما وجدنا آباءنا عليه ؟ أليس ما ظهر في الحضارة الحديثة هو سنّة التطور في تقدم المجتمع البشري ؟

شغل الكثيرون من المثقفين العرب بهذا النوع من الأسئلة في هذا العصر في مواجهة التحديات التي أفرزها التخلف في المجتمع العربي وكشف عن ضعف الأمة العربية في التصدي للعدوان عليها . ولكن هؤلاء المثقفين شغلوا بهذا النوع من الأسئلة بعد أن كانوا قد اغتربوا عن الإسلام كما سنبين قريباً ، ولم يكن منظور الإسلام الكلي كما بيّناه مرجعاً لهم في تعاملهم مع هذه التساؤلات . ومن أجل تصويب تفكير هؤلاء في هذه المسألة نقول لهم :

أولاً : إن ما أنجزته الحضارة الحديثة (الغربية) في ميادين العلوم والتكنولوجيا وفي تطبيقاتها يعود في جذوره إلى فكرتين أساسيتين أخذتهما أوروبا عن الإسلام والمسلمين هما :

ـ الاعتراف للإنسان بأنه قادر على كشف الحقيقة وعلى معرفتها لما يملكه من قدرات فطرية ، عقلية وإدراكية .

ـ وأن موضوع العلم والمعرفة موجود كله في حقيقة الطبيعة (عالم الشهادة) وليس في التراث الكهنوتي .

وتغير مجرى الحضارة الغربية من مجراه الكهنوتي إلى مجرى جديد قام على علم الحقيقة وعلى تسخيره بعد أن اختمرت هذه الأفكار في عقولهم ، وبعد أن كانوا قد نقلوا علوم المسلمين في العلوم الطبيعية وفي الرياضيات والطب والفلك والبصريات وفي غيرها .

فما ظهر من تقدم علمي وتكنولوجي في الحضارة الحديثة لا يَصُبّ في ترجمة أصول الإسلام الثلاثة (نظرته إلى الإنسان وإلى العلم وإلى التوحيـــد) فقط ولكنه تجسيد لها .

ثانياً : إن الحضارة الغربية وبكل منجزاتها ما زالت حتى هذا اليوم سجينة نظام كهنوتي في الدين وسجينة عقدة « الشعب المختار » . ولم تنجح في المصالحة بين نظام كهنوتي ينكر على الإنسان استقلاله في توظيف قدراته العقلية وبين نظام علماني يقوم على الثقة بتلك القدرات ولم تنجح بعد في استئصال العنصرية التي تتولّد في النفوس بفعل عقدة « الشعب المختار » .

ونرى أن لها في الإسلام المثل الأعلى في نظرته إلى الإنسان . وكان القرآن قد ذكرهم بذلك عندما قال لهم ﴿ **بل أنتم بشر ممن خلق** ﴾[1] .

ثالثاً : والأهم من ذلك كله أن نذكر أن الإسلام وصل في كل أصل من الأصول الثلاثة التي أقام عليها نظام الدين إلى منتهى ما يمكن أن يصل إليه من العالمية والكمال . وصل إلى غاية الكمال في نظرته إلى الإنسان وفي نظرته إلى العلم وإلى التوحيد .

وبهذا الكمال (كما رأينا في القسم السابق) صار الإسلام بوصفه نظاماً كلياً فوق الواقع والتاريخ ، وهو ما ينبغي أن يتوجّه به الواقع والتاريخ . ولا يحكم عليه أو على صلاحيته للتقدّم والرقي بالحكم على حال العرب والمسلمين . نزله تعالى ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾[2] ، أي على كل نظم الحياة التي عرفها الإنسان .

ونزّل القرآن ﴿ **تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾[3] .

---

(١) المائدة : ١٨ .

(٢) التوبة : ٣٣ ، الفتح : ٢٨ ، الصف : ٩ .

(٣) النحل : ٨٩ .

رابعاً : أخذت الحضارة الحديثة منهجها في طلب العلم والمعرفة من منهج الإسلام في طلبها . ذكرنا من قبل أن التوحيد كما يراه الإسلام هو الشرط الضروري والأساسي لمعرفة الكون ومعرفة ما فيه معرفة تطابق حقيقته . وذكرنا شروط المنهج العملي في الكشف عن حقيقة شيء معين (في تقديره وفي الزوجية وفي أن لا تبديل لسنن الله) .

٨ ـ وأمام هذه الحقائق يجب أن نقف ونتساءل عن المصادر التي يمكن أن تعمّق فهمنا للإسلام ؟ هل تنحصر هذه المصادر في تراث المسلمين وحدهم أو أنها تشمل كل مصدر آخر يكشف عن حقيقة آيات الله في كونه ؟ وتشمل كل مصدر آخر يبين مناهج العلوم المختلفة في الكشف عن هذه الحقيقة ؟ وفي تسخيرها تكنولوجياً ؟

وعندئذ نتساءل عن مؤهلات عالم الدين في الإسلام ؟ وهل يستوفي المؤهلات اللازمة له إذا هو أهمل هذه المصادر ؟ وهل تستكمل تربيته وثقافته إذا لم تتضمن هذه المصادر ؟

عداوة اليهود والغرب للإسلام :

٩ ـ الأصل في هذه العداوة العقيدة اليهودية بأن لا نبوة إلاَّ في شعب اليهود . بدأت بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً من عند الله . وأنكره اليهود ليس لما تضمنته رسالته ، ولكن لأنه لم يكن من شعب اليهود .

لم تبرز قضية هوية الرسول بمجيء المسيحية لأن عيسى ابن مريم عليه السلام كان من شعب اليهود . والاختلاف بين اليهودية والمسيحية ليست في هوية الرسول . فلا خلاف بينهما في أن النبوة في شعب اليهود دون غيرهم من الشعوب والخلاف بينهما هو هل كان عيسى ابن مريم هو المسيح المنتظر أو لم يكن . وأنكر كل منهما محمداً صلى الله عليه وسلم لأنه لم يكن من شعب اليهود .

١٠ـ وبإنكارهم لمحمد صلى الله عليه وسلم أنكروا من اتبعه . وامتدّت عداوتهم للمسلمين جميعهم لأنهم اتبعوا من لم يكن من شعب اليهود . هذا هو الأصل في عداوتهم للإسلام وللمسلمين .

وبعد ذلك انصبت اهتماماتهم على اختراع صورة لمحمد صلى الله عليه وسلم وصورة للإسلام تنفر الناس من الإسلام ولا علاقة لها بالرسول أو بالإسلام . فتغلغلت تلك الصورة في فكرهم وفي آدابهم وفي تراثهم الشعبي . وتولدت منها اتجاهات عدائية نحو العرب والمسلمين . فعداوتهم للعرب وللمسلمين لم تكن لأفعال من قِبَلِ العرب والمسلمين ، ولكنها كانت متأصلة في حضارتهم ينشأون عليها ويتوارثونها جيلاً بعد جيل . ولا تفهم مواقف الغربيين من فلسطين وغيرها من القضايا العربية فهماً كلياً إلاّ باعتبار هذه الخلفية في نفوسهم .

١١ - والإعلام اليهودي والغربي يقوم نجاحه على استخدام هذه الصورة القديمة عن الإسلام ، وعلى تعزيز معالم هذه الصورة في تفسير الأحداث الجارية والاخبار عنها. ومعالم هذه الصورة من المعطيات المسلّم بها في ذهنية الغربيين .

ولقد وصلت بصائر الغربيين بالنفس البشرية وبأحوالها وحاجاتها ما يستطيعون به أن يحدثوا في تلك النفس الاستجابات المطلوبة . وإعلامهم إن كان دعاية لبيع سلعة من السلع ، أو كان لبيع فكرة أو رأي ، يقوم على هذه البصائر . وإعلامهم ليس لبيان الحقّ بقدر ما هو لإيجاد التقبل المطلوب بين الناس لما يريدون .

وأدركوا أن اللغة هي ما يبقى في أذهان الناس في فهمهم للأحداث وتفسيرها . فاخترعوا مجموعات من العبارات صارت بتكرارها تحمل إيجاد التقبل المطلوب لما يريدونه . « العالم الثالث » و « العالم النامي » وغيرها ليس لتأكيد علوهم في التقدم العلمي والتكنولوجي فقط ، ولكن تأكيداً لرقيهم على الآخرين ولرقي حضارتهم على الحضارات الأخرى . « الإرهاب » بدلاً من « التحرير » ليبرّروا عنفهم ضدّ حركات الشعوب التحررية . وفي حرب الخليج استخدموا عبارة « إدارة الأخبار » بديلاً للرقابة ، وعبارة « الأضرار المصاحبة » بديلاً لقتل المدنيين من الناس لتمريق بشاعة حربهم ضدّ أهل العراق ، وهكذا . وقديماً على عادتهم الحضارية في الافتراء وضعوا عبارة « اكتشاف » لوصولهم إلى أميركا وإلى إفريقيا وكأن لم يكن في تلك البلاد بشر وصلوا إليها قبلهم ليبرّروا اغتصابهم لها .

١٢- أدرك اليهود قوة الإعلام في الحضارة الغربية الحديثة فكانوا حريصين على أن يملكوا وسائط الإعلام من الصحف والمجلات ومحطات الإذاعة الصوتية والتلفزيونية والسينما ... واكتسبوا بذلك قوة ليس في تكوين الرأي الغربي الذي يتوافق مع مطامعهم فقط ، ولكن في تكوين صورة كل من يطمع في منصب سياسي في أميركا وفي غيرها من الدول الغربية وفي ابتزاز ما يريدون منه بعد انتخابه . وأدركوا أيضاً قوة حبّ الشهوات في الطبيعة البشرية فملؤوا السوق بالمجلات « المكشوفة » وبالفيديو . وتحت غطاء الحرية في التعبير تبثّ هذه الأفلام « المكشوفة » علناً من محطات أوروبا التلفزيونية .

ولا حاجة لليهود أن يكونوا متآمرين على سائر البشر في ترويج هذه الوسائط « المكشوفة » ، ذلك أن دينهم يرى أن غير اليهود قد حرموا أصلاً من نعمة الإيمان بالله ومما يقترن به من فضائل . فلا يجدون في أنفسهم حرجاً أو رادعاً دينياً يردعهم عن الفساد في الأرض كما يجد المسيحيون والمسلمون .

والحرية في التعبير تنحصر في البلاد الغربية في الفئة التي تملك وسائط الإعلام ، ولا تفتح منابر هذه الوسائط إلا للذين يسخّرون عقولهم وأقلامهم لما تريده تلك الفئة. وادعاء البلاد الغربية بأنها هي بلاد الحرية في التعبير بمعنى أن وسائط التعبير مفتوحة بالتساوي للناس جميعهم ادعاء كاذب .

ولأن مصالح اليهود تقتضي تعميق العداوة بين الدول الغربية والعرب سيظل الإعلام الغربي مجنداً لتحقيق هذا الهدف اليهودي ولا مخرج للأمة العربية من فعل هذا الإعلام في علاقاتها مع الغرب ، ومن فعل ما قد يترتب عليه من عدوان سياسي ودبلوماسي وعسكري واقتصادي إلا بوعي الأمة لحقيقة الادعاءات الغربية ، وبوحدة إرادتها .

إحكام التحكم اليهودي / الأميركي بالأمة العربية :

١٣- كان الاستعمار الغربي قد نجح بعد الحرب العالمية الأولى في تغيير مجرى نهضة العرب الحديثة من مجراها الإسلامي إلى مجرى « لا إسلامي » لقناعة الغربيين بأن الإسلام هو ما يجمع بين العرب وهو ما يوحّدهم ، وذلك ببعض الإجراءات الجذرية التي أحدثها في البنية السياسية في البلاد العربية وفي البنية التعليمية والثقافية ، وكان من أهمها :

أولاً : تفتيت البلاد العربية إلى أجزاء مستقل بعضها عن بعض ، وقد تحولت فيما بعد إلى الدول القطرية .

ثانياً : إنشاء دولة لليهود في فلسطين ، وتشجيع الأقليات على الوصول إلى السلطة في بعض البلاد الأخرى . وإحياء القيادات الاقطاعية في مختلف البلاد .

ثالثاً : بناء نظام في التعليم أبعد خريجيه عن الإسلام ووجههم نحو المدنية الغربية .

رابعاً : استغلال الثروات العربية والبترولية خاصة واستثمار عوائدها .

وصارت الأمة العربية رهينة الإرادة الغربية بهذه الإجراءات ، بل صارت هي الأداة في نجاح السياسة الغربية في التحكم بالعرب .

١٤- ستظل الدولة القطرية خير أداة للتحكم الغربي بالعرب وأكبر المعوقات في تحقيق وحدة الأمة .

تجزأت سيادة العرب على بلادهم إلى سيادات متعدّدة على قطع معروفة من البلاد العربية . عزلت الشعوب العربية بعضها عن بعض . وأخضعت كل شعب من هذه الشعوب لحكم خاص به . وارتبط مصير الأمة العربية بمصالح وبأهواء الذين يسيطرون على الحكم في مختلف هذه الدول القطرية .

ولأن من يسيطرون على الدول البترولية لا يستطيعون بحكم حجم دولتهم وحجم سكانها حماية بقائهم في الحكم ، صارت حماية الغرب لهم وحماية أميركا خاصة ضرورة حتمية ومصلحة مشتركة بينهم وبين الغرب .

وباسم السيادة تميز هذه الدول بين المسلم والآخر والعربي والآخر ، بالتمييز بين «المواطن » والأجنبي . والمسلم « الأجنبي » في هذه الدول ليس له ما للمسلمين المواطنين فيها وليس عليه ما عليهم فيها .

تخرج الدولة القطرية عن الاسلام بخروجها عن وحدة الأمة التي يقتضيها الاسلام ، وبخروجها عن المساواة بين المسلمين وعن أخوة المؤمنين بتقسيم المسلمين الى « مواطن » والى غير مواطن .

١٥ـ لم نتبصر بعد آثار الحرب ضد العراق من منظور مستقبل الأمة البعيد المدى . ولكن ما ظهر حتى الآن من تلك الآثار يدل دلالة واضحة على أن السياسة الأميركية / اليهودية الثابتة تجاه الأمة العربية هي الحرص على تحطيم القوة العسكرية والتصنيعية لأي دولة عربية تهدّد باستقلال الإرادة العربية عن التحكم اليهودي / الأميركي والغربي بالعرب . ومن بعد تحطيم قوة العراق العسكرية والصناعية ، والحرص على حرمان أي دولة عربية من تطوير قدراتها العسكرية والتكنولوجية . وتدل المؤشرات على أن السياسة اليهودية / الأميركية في التحكم بمصير الأمة العربية ستزداد فعاليتها بتسخير قدرات الدول البترولية التي تخضع طوعاً للإرادة الأميركية ، بإغلاق أسواق العمل والتجارة فيها أمام البلاد العربية التي تريد استقلال الإرادة العربية في معالجة القضايا العربية ، وبحرمان هذه البلاد من معوناتها المالية ، وبالسيطرة على الإعلام العربي ، وبغيرها من الوسائل التي تستهدف إجهاض كل جهد عربي يسعى أهله لتكوين إرادة عربية واحدة ولاستقلالها .

ولا مخرج للأمة العربية من هذا السجن إلاّ بالإسلام . ولكن أي إسلام هو هذا الإسلام ؟

سننظر الآن في سجن من نوع آخر هو سجن الواقع المتوارث في البيئة العربية تمهيداً للإجابة عن هذا السؤال على ضوء نظام الإسلام الكلي الذي بيّناه في القسم الثاني من هذه الدراسة .

(٤) الإسلام وتغيير الواقع العربي :

الإسلام والواقع المتوارث :

١ ـ لم ينجح المسلمون حتى الآن في ترجمة نظام الدين الذي نزل به القرآن وخاصة في ترجمة نظرة الإسلام إلى الإنسان في نظام اجتماعي كلي مجسد في نظام تربوي إسلامي خالص وفي نظام سياسي / اقتصادي إسلامي خالص . وباستثناء الجيل الأول من المسلمين كان الواقع الاجتماعي الإسلامي (التربوي والسياسي الاقتصادي) بعد الفتوحات الإسلامية دائماً خليطاً مركباً تركيباً عضوياً من مجموعات متناقضة من القيم التي تتعلق بالإنسان وبموقعه في المجتمع ، منها ما هو من فعل نظام الاستبداد القديم الذي خضعت له شعوب العالم الإسلامي قبل الإسلام ، ومنها ما هو من فعل العصبيات القبلية وامتداداتها الشعوبية والطائفية والإقليمية التي نشأ فيها الناس قبل الإسلام .

استمرت هذه القيم المتناقضة قوية فعالة في تشكيل اتجاهات الناس الأساسية نحو الحكم ونحو بعضهم بعضا في الجماعات الأخرى ، ولبس الإسلام بعد الفتوحات بفعلها في الناس لباساً آخر غير اللباس الذي نزل به القرآن وبيّنته السنّة . وصار واقع المجتمع العربي الإسلامي واقعاً مركباً من هذه الصبغة ومن هذه التناقضات . وهذا هو الواقع الذي توارثناه وما زلنا نتوارثه ، وهو الواقع الذي ننشأ فيه وتتشكل به « عقليتنا » الحضارية وقيمنا واتجاهاتنا نحو الإنسان ونحو المجتمع .

٢ ـ وسيظل الإسلام بقوة فاعلية هذا المركب الحضاري غريباً عن المسلمين إلى أن ننجح في استئصال الاستبداد وفي تحرير أنفسنا مما تركه فيها من آثار ، وإلى أن ننجح في استئصال القبلية وامتداداتها العنصرية والطائفية والإقليمية وفي تحرير أنفسنا مما تركته العصبيات المتولّدة منها من آثار في انتماءاتنا وولاءاتنا . وهذا هو ما أشار إليه القرآن في دعوته إلى تغيير « ما بأنفسنا » ليغير الله ما بنا .

وهذا - بدوره - لا يتم إلا بمعرفة ما تقتضيه نظرة الإسلام إلى الإنسان من نظم تربوية وسياسية / اقتصادية ، وبمعرفة كيفية بناء هذه النظم وتطويرها في الواقع . والمسلمون وإن فشلوا حتى الآن في تحقيق هذا البديل للواقع المتوارث ، فلا عذر لهم بعد اليوم بعد أن توافرت لديهم تجارب الأمم الأخرى في فنون التنظير التربوي والتنظير السياسي والاقتصادي ، وتوافرت لديهم تجارب تلك الأمم في فنون ترجمة ذلك التنظير في مؤسسات تربوية وسياسية واقتصادية .

ما هو النظام التربوي وما هو النظام السياسي / الاقتصادي الذي يستوعب مقاصد الإسلام الذي نزل به القرآن وبيّنته السنّة في نظرة هذا الإسلام إلى الإنسان وإلى العلم وإلى التوحيد ؟ وكيف يمكن أن يتم تجسيد هذه النظم في مؤسسات تربوية وفي مؤسسات سياسية / اقتصادية ؟ وفي الجواب عن هذه الأسئلة فقط يمكن تغيير الواقع العربي المتوارث وبناء واقع إسلامي خالص بديلاً عنه . وعندئذ فقط يمكن توظيف الإسلام توظيفاً كلياً وخالصاً في جياة الإنسان وفي حياة الأمة .

التراث الفكري في ترجمة الإسلام :

٣ - تزامن مع هذا الواقع الاستبدادي القبلي واقع فكري اكتسب فيه الفقه موقع الصدارة من بين سائر العلوم والمعارف في ترجمة الإسلام في حياة الأمة . وأشرنا من قبل إلى تحذير الإمام أبي حامد الغزالي من خطورة هذه الصدارة على فهم الإسلام في كليته وعلى تعطيل العلوم والمعارف الأخرى في توظيف مثل هذا الفهم . ولكن مع ذلك التحذير بقي الفقه هو المرجع في التعرف إلى موقف الإسلام من كل أمر من أمور الحياة، بل صار الفقيه هو المنظّر السياسي ، وتوهم بسبب شمولية علمه في استنباط الأحكام الشرعية أنه هو المؤهل أيضاً في بيان نظام الحكم الذي يقتضيه الإسلام ، وفي بيان النظام التربوي .

والفقه على أهميته في بيان أحكام الإسلام في حياة المسلمين ، إلا أنه لا يصلح سواء في منهجه أو في أغراضه لبيان ما هو النظام التربوي الذي يستوعب ما في نظرة الإسلام إلى الإنسان من فلسفة في الإنسان ومن قيم عقلية ووجدانية وأخلاقية واجتماعية . ولا يصلح لبناء النظام السياسي الذي يترجم مقاصد الإسلام في حياة الأمة،

ويبين موقع الإنسان فيها والغايات من وجودها . قام الفقهاء بمهمات التنظير السياسي . فكانت الأحكام السلطانية للماوردي ولأبي يعلا ولغيرهما . وكانت رؤيتهم لنظام الحكم في الإسلام رؤية عكست النظام الاداري الذي ساد في عصرهم . وصارت الخلافة في تلك الرؤية بعد توافر الشروط الشرعية في الخليفة نظاماً إدارياً على رأسه خليفة يحكم الأمة بشبكة من الوزراء والولاة وغيرهم من أصحاب السلطة في ذلك النظام . ولأن القضاء مكلف بتطبيق الأحكام الشرعية بقي مستقلاً عن ذلك النظام (مع أن تعيين القضاة من قبل الدولة حدّ من استقلالهم في بعض الحالات) .

٤ ـ المهم في ما تركه لنا المنظّرون السياسيون أمثال الماوردي وغيره ، أنهم لم يلتقطوا في رؤيتهم للخلافة أهم ما تميز به نظام الخلافة الذي تبناه الجيل الأول من الخلفاء وطبقوه . أهملوا حق الأفراد في الأمة في استجواب الخليفة وأعوانه ومحاسبتهم . وأهملوا مبدأ سيادة الأمة على نفسها وبأنها هي وحدها التي « لا تجتمع على خطأ»، وأنها هي مصدر السلطات السياسية والتنفيذية .

ظن الفقهاء أنهم باستكمال الأحكام الشرعية بيّنوا موقف الإسلام من كل أمر من الأمور في حياة الأمة . ولم يبق على الأمة بالتالي سوى الحرص على تطبيق تلك الأحكام في حياتها ، ولم تدع الحاجة بعد ذلك إلى مشاركة الأمة ومشاركة الأفراد ما دام موقف الإسلام معروفاً مسبقاً ، وإن لم يكن معروفاً في موقف من المواقف فيمكن استنباطه بالقياس على المعروف من الأحكام أو حتى بالاستحسان . وفي الحالتين كانت مهمة معرفة الجديد مما تفرزه الحياة مهمة الفقهاء .

٥ ـ وبهذه النظرة إلى الفقه في ترجمة الإسلام في حياة الأمة الاجتماعية صادر الفقهاء مؤسسات الإسلام المعرفية التي كانت تحمل المفاتيح السياسية والعلمية في التبصر في ما تقتضيه أصول الإسلام الثلاثة (نظرته إلى الإنسان وإلى العلم وإلى التوحيد) من تجسيد وتطوير .

فصادروا الاجماع الذي كان أصلاً اجماع البالغين العاقلين في الأمة ، وحصروه في المجتهدين من الفقهاء ظنّاً منهم أن ما تريده الأمة موجود كله في بطون الأحكام الشرعية ، المعروف منها والذي ينتظر المعرفة ، وأنهم هم المؤهلون لاستنباط هذه الأحكام وإعلانها على الأمة .

وبهذه النظرة في حصر ترجمة الإسلام ترجمة عملية بالفقه ، صادر الفقهاء أيضاً المفاتيح العلمية اللازمة لتجسيد أصول الإسلام عملياً . فصادروا مفهوم « العلم » وحصروه في ما صار يسمى « بالعلوم الدينية » ، أي العلوم اللازمة لتأهيل الفقيه في فهم نصوص القرآن والسنة ، وفي القدرة على استنباط الأحكام من مجموعات النصوص التي ترتبط بأمر من أمور الحياة .

فبينما كان معنى « العلم »في لغة القرآن « معرفة الأشياء كما هي في حقيقتها »(١) انحصرمعناه عملياً في « العلوم الدينية » اللازمة للفقيه .

وعلى أساس الوهم بأن الفقه هو ما يكشف عن طاقات الإسلام وطاقات أصوله الثلاثة ، صادر الفقهاء أيضاً المفتاح العلمي الآخر اللازم لهذا الكشف . فصادروا « الاجتهاد » وحصروه في اجتهاد الفقهاء في عمليات استنباط الأحكام الشرعية . وبهذا الحصر خرج من الاجتهاد اجتهاد العلماء الذين يكشفون عن حقيقة آيات الله في خلقه ، فخرجت منه العلوم الطبيعية وعلم الأحياء والرياضيات والفلك وغيرها من العلوم التي تعمق معرفة الإنسان بأفعال الله تعالى .

٦ ـ ومع أن ما أنجزه الفقهاء كان من أعظم المنجزات التشريعية في مسيرة الحضارة البشرية، إلا أن الافتراض بأن الفقه هو العلم الذي يبيّن ما هو الإسلام في حياة الأمة، في كليته وشموليته ، وبأن الأحكام الشرعية تستنفد مقاصد الإسلام في حياة الإنسان وفي حياة الأمة ، فقد كان من أكبر الأسباب التي عطلت ما كانت تحمله أصول الإسلام الثلاثة الكبرى من طاقات . وبالتالي ـ من أكبر الأسباب ـ في اختزال الإسلام إلى نظام في السلوك ومن أكبرها في تخلف الأمة الفكري والعلمي .

٧ ـ وهكذا نرى أن واقع الأمة المتوارث هو في معالمه الكبرى :

أولاً : واقع مركب من خليط من القيم المتناقضة امتزجت فيه حضارة الاستبداد القديمة وحضارة القبلية القديمة بالإسلام امتزاجاً عضوياً . وصار هذا الواقع المركب هو البيئة التي ننشأ فيها وتتشكل بها قيمنا واتجاهاتنا نحو المجتمع ونحو الدولة ونحو موقعنا فيها .

(١) الأصفهاني ، المفردات .

ثانياً : وهو واقع طغى فيه الفقه على سائر العلوم والمعارف ، وطمس بهذا لطغيان التصاق نظام الدين في الإسلام بالحقيقة ، وتعطّلت به ما تحمله الحقيقة (في حقيقة الإنسان وفي حقيقة العالم وحقيقة التوحيد) من طاقات لا حدود لها في ترجمة الإسلام في واقع كلي ومتكامل .

ثالثاً : وهو واقع من صنع الاستعمار الغربي أيضاً تجزأت به الأمة إلى دول قطرية وتغرّب به المثقف العربي عن الإسلام . وانفصلت البلاد العربية به بعضها عن بعض بزرع دولة لليهود في فلسطين .

والدولة القطرية دولة ذات سيادة ومن يحكم فيها هو من يقرر علاقاتها مع الأمة ومع غيرها من الدول العربية ، وهي دولة تميز بين مسلم وآخر باسم المواطنة . والمسلم فيها غريب أجنبي إن لم يكن من المواطنين ، وليس له ما للمسلمين ولا عليه ما عليهم فيها . والمثقف العربي غريب عن الإسلام ومتوجه توجهاً كلياً في مجال اختصاصه إلى ما تطور من علم ومعرفة في ذلك المجال في الغرب . مع أنه هو معلم الأجيال الآتية من الجامعيين ، وهو من يحل في المواقع القيادية في أجهزة الدولة .

والآن هل من الممكن التحرر من هذا الواقع المتوارث المعقّد ؟ وكيف ؟ وهل من المستحسن أن نتوجّه بالإسلام في عمليات هذا التحرر ؟ ولماذا ؟

٨ ـ نرجو أن نكون قد بيّنا أن واقع الأمة المتوارث في أبعاده التي ذكرناها في الفقرة الأخيرة واقع « لا إسلامي » ، وأنه من منظور الإسلام الكلي واقع يتناقض مع مقاصد الإسلام في استدراج الإنسان إلى تحقيق ما يأتي به من طاقات فطرية .

فالاستبدد بالإنسان وفي جميع أشكاله التسلطية (في الأسرة وفي المجتمع وفي المدرسة وفي الدولة ..) هو النقيض لنظرة الإسلام إلى الإنسان في استقلاله فرداً في عمليات النظر وفي عمليات اكتساب العلم والمعرفة وفي عمليات ترويض النفس وفي عمليات المشاركة في حياة الأمة والسعي لتحقيق غاياتها .

والقبلية وامتداداتها الشعوبية والطائفية وغيرها هي النقيض لعالمية الإنسان التي صحّح بها الإسلام ما افتراه اليهود وغيرهم على الله . وغير بها مجرى مسيرة الحضارة البشرية من مجراها العرقي الكهنوتي إلى مجراها الإنساني العالمي .

وصدارة الفقه في فهم ما هو الإسلام وفي ترجمته في واقع حياة الأمة عطلت أهم ما جاء به الإسلام من أصول ، وعطلت ما تحمله نظرته إلى الإنسان وإلى العلم وإلى التوحيد من طاقات لا حدود لها ، وتنذر بدورة جديدة من العقم الفكري والجمود الحضاري ، وبدورة جديدة من التسلط بالإنسان .

٩ ـ وهنا علينا أن نقف عند تجربة الأردن في السعي لترسيخ دعائم الديمقراطية . فهي تجربة تبشر بولادة واقع جديد يعيد للأمة سيادتها على نفسها ، ويعيد للإنسان في هذه الأمة كرامته التي أرادها له الإسلام .

ولقد تصدى الأردن بهذه التجربة لأكبر التحديات التي تواجهها أمة العرب وأمة المسلمين بعزمه على استئصال تراث التسلط بالإنسان وعلى استئصال العصبيات القبلية من نفوس الناس لإطلاق طاقات الإنسان التي جاء الإسلام من أجلها . والأردن مرشح ليكون هو النموذج القدوة لمواجهة هذه التحديات لأنه بطبيعة موقعه متصل بتراث العرب العتيق من جهة ، ومتصل بالتجارب العالمية في بناء النظم والمؤسسات الديمقراطية والعلمية والتكنولوجية من جهة أخرى .

ولأن التجربة الأردنية تبشر بتحرر الأمة من تراث الماضي والحاضر ، سيقف أعداء الأمة بالمرصاد بهدف إجهاضها . وقد يكون خير مدخل لهؤلاء الأعداء تنشيط الفتن بين فئات المجتمع واستغلالها .

فمن ظن من هذه الفئات الحزبية أنه يحمل أجوبة جاهزة لتغيير الواقع المتوارث ولبناء نظام اجتماعي جديد يستوعب نظام الإسلام في كليته وشموليته ، يكون قد ظلم بغروره هذه التجربة العظيمة وقد ظلم الإسلام ، وكان عن غير وعي منه المدخل الجاهز لمكر أعداء هذه الأمة . فما هو مثلاً نظام التربية الذي يتواءم في مقاصده مع مقاصد الإسلام في نظرته إلى الإنسان ؟ وما هو النظام السياسي ؟ والاقتصادي ؟

فمن ظن أن الأجوبة عن هذه الأسئلة جاهزة ، كان جاهلاً بما هي التربية وبما هو الإسلام ، وبما هي السياسة وبما هو الاقتصاد من منظور الإسلام .

ومن أهم شروط النجاح للتجربة الأردنية في ترسيخ الديمقراطية إدراك كل منا أنها تجربة أكبر وأوسع مما يحمله أيٌّ منا من رؤية للمستقبل ، وأننا جميعاً بحاجة دائمة إلى تبادل البصائر والرأي في توضيح رؤية مشتركة .

(٥) وكيف نصير خير أمة ؟

صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان :

١ ـ بيّنا في القسم الثاني من هذه الدراسة :

أولاً : أن الإسلام يتميز عن غيره من الأديان والحضارات الكلية . بما تتميز به نظرته إلى الإنسان ، وبما تتميز به نظرته إلى العلم وإلى التوحيد .

ثانياً : وأنه يعرف في كليته وشموليته بهذه الأصول الثلاثة التي يتميز بها .

وكذلك بيّنا أن الإسلام قد وصل في تصوره لهذه الأصول إلى منتهى ما يمكن أن يصل إليه من الكمال في عالمية كل منها وفي التصاق كل منها بالحقيقة .

خلا كل أصل من هذه الأصول الثلاثة من الأساطير والأباطيل التي قامت عليها أصول الأديان التي سبقت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام من جهة ، والتصق كل أصل من هذه الأصول الثلاثة بالحقيقة . فخلت نظرة الإسلام إلى الإنسان من أسطورة « الشعب المختار » مثلاً ، وخلت من التمييز بين البشر بسبب اختلافهم في الجنس والعرق واللون واللسان . والتصقت من جهة أخرى بحقيقة الإنسان التي يأتي بها عند الولادة . وكذلك خلت نظرة الإسلام إلى الكون من أساطير الشرك ومن أساطير الأنظمة الكهنوتية التي كانت ترى العالم عالمين : العالم « المقدس » والعالم « غير المقدس » ، والتصقت بحقيقة عالم الشهادة وبحقيقة ما فيه من آيات لا تحصى . وخلت نظرة الإسلام إلى الإله من أساطير تخصيص الإله بشعب دون غيره من الشعوب ، ومن أساطير تمثيل المشيئة الإلهية في شخص أو في مؤسسة دينية ، والتصقت هذه النظرة بحقيقة التوحيد ، وبأن الله تعالى خالق كل شيء وإله الناس جميعاً المؤمنين منهم وغير المؤمنين .

٢ ـ ولو اتسع بنا المقام لبيّنا أيضاً أن أول تجسيد لهذا الإسلام كان في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، في أفعاله وفي أقواله . فهو الذي تجسدت فيه نظرة الإسلام إلى الإنسان في جميع أبعادها المعرفية والوجدانية والأخلاقية والاجتماعية ، وهو

الذي تجسدت فيه نظرة الإسلام إلى العلم وإلى التوحيد . ولذلك جعله القرآن الأسوة لكل إنسان وللمؤمنين خاصة والمثل الأعلى لكل من أراد أن تتحقق فيه طاقات الإنسان ، وأراد أن يتخلق بالصفات التي يريدها الإسلام .

ما خلا منه لكل أصل من الأصول الثلاثة التي يعرف بها الإسلام في كليته وشموليته ، وما تضمّنه كل منها من خصائص هو ما يتوجّه به المسلم في حياته الخاصة ، وهو ما تتوجه به الأمة في حياتها العامة .

٣ ـ وصلاحية كل أصل من هذه الأصول الثلاثة للتوجه به في كل مكان وفي كل زمان في الحاضر وفي المستقبل هي بسبب التصاق ذلك الأصل بالحقيقة وخلوه من الأباطيل والأساطير . فالإنسان وما هو في حقيقته يبقى دائماً وأبداً موضوعاً للمعرفة ، وكل ما يكشف عنه العلم من هذه الحقيقة يضاف ثروة معرفية جديدة في معرفة الإنسان ، ويضاف بالتالي إلى ثروة الإسلام العلمية . وكذلك كل ما يكشف عنه العلم من حقيقة العالم وحقيقة ما فيه من آيات يضاف إلى ثروة الإسلام العلمية . والتوحيد الذي خلا من الأساطير والأباطيل يظل دائماً وأبداً يمثل النظام الكوني الذي تنتظم فيه آيات الله كلها في خلقه ، ويظل دائماً وأبداً هو الذي تتوجه به وإليه مختلف العلوم والمعارف ، وكل ما يكشف عنه العلم من هذا النظام الكلي يضاف أيضاً إلى ثروة الإسلام العلمية والمعرفية .

خلو الإسلام من الأساطير والأباطيل ، والتصاقه بالحقيقة هو الذي يجعل الإسلام الأكثر صلاحية من أي دين آخر ومن أي فلسفة كلية لحياة الإنسان على هذه الأرض ، وهو الذي يجعله خير ما يمكن أن تتوجه إليه الحضارة البشرية في الحاضر وفي المستقبل وفي كل زمان ومكان .

نظام التربية في الإسلام :

٤ ـ الذي يتدبر ما يريده الإسلام للإنسان يدرك في النهاية أن هذا الذي يريده له موجود أصلاً بالطاقة في الفطرة التي فطر عليها الإنسان . بمعنى أن ما يأتي به الإنسان من طاقات إدراكية وعقلية ووجدانية ، ومن استعدادات أخلاقية واجتماعية هي (هذه الطاقات) نفسها موضوع الدين .

وجود هذه الطاقات في فطرة الإنسان هو :

أولاً : ما يرشح الإنسان للتفاعل مع ما يطالبه به الإسلام ، وللاستجابة له عن فهم ووعي وقناعة .

ثانياً : وهي نفسها موضوع التشكل والنمو الذي يريده الإسلام للإنسان .

ونظام الدين في حقيقته نظام في التفاعل الهادف بين هذه الطاقات الفطرية وبين التصاق الدين بالحقيقة . يؤكد ذلك قول الله تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، لعلكم تشكرون** ﴾[1] .

فالإنسان يأتي إلى هذا العالم بالطاقات المعرفية التي يكتسب بها علم الحقيقة . يخرج من بطن أمه بلا علم ، ولكنه يخرج منه بالقدرة على اكتساب العلم . وبما يكتسبه من علم يصير إما من الشاكرين (أي المسلمين لله) وإما من الكافرين (أي الذين ينكرون نعم الله عليهم) .

٥ ـ كان هذا هو المبدأ الذي أخذه الغربيون عن الإسلام وعن المسلمين في بناء نظامهم التربوي الحديث . يبدأ تاريخ التربية الحديثة عندهم بنسبة هذا المبدأ إلى جون لوك في نظريته المشهورة « بالصفحة البيضاء » . وكعادتهم لا يعترفون بفضل الإسلام عليهم في تبني هذه النظرية ، ويدعون أنها نظرية بكر من ابتكار جون لوك .

المهم أن ما قاله جون لوك عن فطرة الإنسان كان ثورة فكرية كبرى على العقيدة المتوارثة في الغرب في نظرتها إلى الإنسان . خالف فيها عقيدة « الشعب المختار » ، وخالف فيها عقيدة « الخطيئة الأولى » ، أي خالف فيها أهم أصول نظرة ذلك التراث إلى الإنسان . ولم تنطلق التربية بمعناها الحديث ، أي بالتصاقها بفطرة الإنسان وبما في تلك الفطرة من طاقات ، إلا بعد تلك الثورة .

---

(١) النحل : ٧٨ .

فالتربية الحديثة (أي التربية الملتصقة بحقيقة الإنسان وبما تحمله تلك الحقيقة من طاقات) تعود في جذورها الأولى إلى نظرة الإسلام إلى الإنسان . وكذلك يعود العلم الحديث في جذوره إلى نظرة الإسلام إلى عالم الشهادة (الطبيعة في لغتهم) .

٦ ـ والإنسان لا تكون قدراته العقلية صالحة للاستقلال الشخصي في توظيفها في حياته إلا بعد البلوغ . وتكون طاقاته الفطرية قبل البلوغ ، أي في مراحل الطفولة ، مرنة وعلى استعداد للتشكل بما في البيئة التي ينشأ فيها من عقائد وقيم . فينشأ الطفل كما يريده له أبواه ومجتمعه . وهذا هو المبدأ الذي تضمنه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم حول ما يحدث للفطرة الإنسانية بفعل النشأة في بيئة معينة .

٧ ـ إذن هنالك مبدآن أساسيان في تربية الإنسان من منظور الإسلام :

الأول : أن الطاقات الفطرية (العقلية والوجدانية والأخلاقية ...) التي يأتي بها الإنسان عند الولادة هي التي ترشحه لاكتساب العلم وهي التي ترشحه بالتالي للإسلام .

الثاني : أن مرونة هذه الطاقات في التشكل قبل البلوغ هي التي تجعل الإنسان نسخة أخرى لما كان عليه آباؤه ومجتمعه في العقيدة وفي القيم نحو النفس ونحو الغير ونحو الحياة .

ولذلك كان تحرّر الإنسان من آثار البيئة التي ينشأ فيها بمثل تلك الوقفة الحاسمة التي تحرّر بها الجيل الأول من المسلمين من أهم مهمات الدين ومن أهم مهمات التربية . تفترض تلك الوقفة أنه تبقى في الإنسان بقية من فطرته الأولى حتى بعد فعل البيئة التي ينشأ فيها ، وأن نجاته في النهاية هي بوعيه بتلك البقية ، وأن وعيه هذا يزداد فيه بالعلم ، بمعرفة نفسه وبمعرفة آيات الله في خلقه ، وبالتوجه نحو الله خالق الحقيقة .

٨ ـ ولأهمية مرحلة الطفولة في تشكّل نظرة الإنسان إلى الحياة وفي تشكل قيمه الأخلاقية واتجاهاته الإنسانية والاجتماعية ، كان نوع التربية الخاص بهذه المرحلة من أهم مهمات الأمة . لا تظهر قوى الطفل الفطرية جميعها في مرحلة واحدة من حياة الطفل ، ويتم نضوج بعضها قبل نضوج بعضها الآخر ، وتتكامل كلها في النضج في مرحلة البلوغ .

ومهمة التربية تشغيل هذه القوى في المرحلة المناسبة لها ، وينشغل الطفل أول ما ينشغل به بالحواس ، وبتعامله مع ما حوله من الأشياء باللمس وبالنظر وبالسمع تنشغل مداركه هذه ، وبانشغالها تتكشف له هذه القدرات الحسّية ويبدأ تشكلها فيه .

ونملك اليوم مكتبة ضخمة مما كشفت عنه البحوث والتجارب المتعلقة بنمو قوى الطفل الحسّية والإدراكية والعقلية ، وصارت وظيفة التربية الأساسية في مراحل الطفولة تنظيم تلك المواقف التعليمية التي تناسب مرحلة نمو معينة غايتها تشغيل القوى الخاصة بتلك المرحلة إذ بهذا التشغيل يعي الطفل هذه القوى في نفسه كما ينمو تشكّلها فيه . ويتسع عالم انشغاله بقدر ما تنمو فيه هذه القوى .

ومهمة التربية في مراحل الطفولة الأولى ليست في تلقين ما توارثه الكبار من معارف وعلم بقدر ما هي في تنمية قوى الطفل الإدراكية .

٩ ـ ما هي الصفات العقلية وما هي الصفات الأخلاقية التي تهيىء الطفل ليصير عند مرحلة البلوغ أكثر استعداداً للإسلام ؟ أي أكثر استعداداً لحب معرفة الحقيقة في حقيقة الإنسان وفي حقيقة العالم وما فيه من أشياء وأحداث ، وأكثر استعداداً للتعوّد على ممارسة القيم التي يدعو إليها الإسلام ؟ هذه هي الأسئلة التي يمكن أن نستطلع على أساسها نظاماً إسلامياً في التربية في مرحلة الطفولة .

١٠ـ والقرآن يركز تركيزاً خاصاً على عالم المرئيات والمحسوسات في دعوة الإنسان إلى التمييز بين الحق والباطل ، وفي دعوته إلى السعي إلى معرفة الله تعالى . وهو عالم يتناسب مع تدرج اكتساب العلم من المحسوس إلى المعقول .

لذلك يجب أن يرتبط تعليم القرآن في المراحل المدرسية بتعليم عالم الطبيعة والأحياء والأشياء فنختار من القرآن تلك الآيات التي تتعلّق بموضوع من مواضيع هذا العالم ليقترن القرآن في ذهن الطالب بحقيقة هذا العالم وبما يحدث فيه من أحداث . وليقترن بالعمليات العقلية في التفكر والفقه والعلم وغيرها التي يستدعيها تعلّم العلوم المختلفة .

والدين في الإسلام ليس مجرد موضوع مدرسي آخر يضاف إلى مجموعة من المواضيع المدرسية كما هي الحال في نظام التعليم السائد في البلاد العربية ، فيفصل عن العلوم الطبيعية وعلوم الأحياء والأشياء . فهذه العلوم هي التي تكشف عن الحقيقة في آيات الله في خلقه وهي التي يتعمق بها فهم القرآن وتتعمق بها معرفة خالق هذا الكون وما فيه من آيات . وبقدر ما يتعمق طالب العلم بهذه العلوم بقدر ما تتعمق بصائره بالقرآن .

١١- ولأهمية العلم في حياة الإنسان وفي حياة الأمة كانت الحضارة الإسلامية أول حضارة طالبت الإنسان بطلب العلم من المهد إلى اللحد . فالمجتمع الإسلامي ليكون صادقاً مع هذا المبدأ هو « مجتمع التعلم » ، أي المجتمع الذي يهيىء للناس فرص التعلم على مدى الحياة . وليقوم كل منا بالأدوار المتوقعة منه بوصفه أباً أو أماً، أو عاملاً أو صاحب عمل ، أو مواطناً أو عضواً في جماعة ، وبمسؤولياته المتوقعة منه نحو نفسه ونحو غيره ، فقيامه بهذه الأدوار والمسؤوليات يتوقف على ما يكتسبه من معارف ومهارات تتعلق بهذه الأدوار والمسؤوليات .

ولأهمية الاتصال بما وصل إليه العلم في مختلف ميادين المعرفة لا بدّ أن تتضمّن مناهج التعليم تحصيل لغة أجنبية ولتكن الإنكليزية لسعة انتشارها ولأنها هي اللغة السائدة في نشر العلوم . أشرنا إلى أن ما تكشف عنه العلوم وما تكشف عنه التكنولوجيا مصدر أساسي من مصادر التعمّق في فهم الإسلام وفي مجالات تطبيق مقاصده ، ولا غنى للأمة عن هذه المصادر في تحمل أمانتها نحو الإسلام .

ولكن ليتحرر شبابنا من الإحساس بالتبعية نحو الغربيين ، من المهم أن يقترن طلب العلوم المختلفة بمنجزات علماء المسلمين في مختلف ميادين العلوم والمعرفة ، (لقد قال لي صديق يقوم بدراسة آثار العلوم الإسلامية في بناء الحضارة الغربية الحديثة إن كتابات « جاليليو » كانت كلها نقلاً عن العلماء المسلمين . وقال إن « نيوتن » اعترف بأنه ما كان ليكتشف ما اكتشفه لو لم يعتمد على « العمالقة » المسلمين من قبله) .

ولأن الإسلام نظام كلي في الحياة ويحيط بحاجات الإنسان جميعها الفكرية والعلمية والأخلاقية والاجتماعية والفنية ، فمن يريد أن يكون « عالماً في الدين » عليه ألاّ يكتفي بما يسمى « بالعلوم الدينية » التقليدية ، وأن يتبصر بالمعارف والعلوم جميعها وبمناهجها في طلب الحقيقة ، وبالأديان والحضارات جميعها وبمناهج دراستها . وإلا كان كما وصفه الإمام الغزالي مجرد « واعظ » يذكر الناس بما قاله الله تعالى وما قاله رسوله عليه الصلاة والسلام .

التربيـــة الأخلاقيـــة :

١٢- تبدأ هذه التربية في مراحل الطفولة المبكرة ، وتدل الأبحاث الحديثة على أن ما يكتسبه الطفل من عادات في السلوك ومن قيم واتجاهات نحو نفسه ونحو غيره في هذه المراحل يبقى معه على مدى حياته .

ولا يكتسب الطفل ما يكتسبه من عادات وقيم بالوعظ والتلقين بقدر ما يكتسبه من خلال عمليات التفاعل بينه وبين الكبار المقربين له ، وبينه وبين غيره من الأطفال ، ومن خلال مشاهداته لسلوك الكبار .

ونملك اليوم مكتبة ضخمة في أساليب التعامل مع الأطفال وفي تنمية القيم والعادات المستحسنة فيهم . ولأن الأم أكثر الناس فعالية في هذه التنمية ، ولأن الأسرة هي العالم الذي يكتسب منه الطفل قيمه وعاداته السلوكية ، ويكتسب منه ثقته بنفسه وإحساسه بالمسؤولية نحو نفسه ونحو الغير ، كانت ثقافة الأم وثقافة الأب وثقافة غيرهما من الكبار المقربين للطفل في أساليب التعامل مع الطفل من أهم الشروط في تربية القيم والعادات التي يريدها الإسلام للإنسان .

وتأتي المدرسة بعد الأسرة في الفعالية في التربية الأخلاقية . ولا يزال تسلط الكبار على الصغار في الأسرة وفي المدرسة هـو السائد في التعامـل مع أطفالنا . وهذا التسلط هو ما يقمع الثقة بالنفس ويولـد في الإنسان قيماً واتجاهات تتناقض مع ما يريده له الإسلام .

١٣ـ الإسلام لا يرثه الإنسان بالولادة لأبوين مسلمين ، وإنما يكتشفه لنفسه وبنفسه عند نضج قدراته الإدراكية والعقلية بالبلوغ . فيتجدّد فيه كما يتجدّد في كل مسلم آخر وهو على وعي كامل بهذا التجدّد .

ولكن ليكون الفرد على استعداد لهذا التجدّد في نفسه ، فلا بدّ أن يكون قد تهيأ لهذا الاستعداد عقلياً وأخلاقياً ، أي أنه اكتشف بنفسه ولنفسه ما فيه من قدرات عقلية واكتسب الثقة بها في تعامله بما يطرأ عليه من مسائل ومشاكل ، وتعود من جهة أخرى على الصدق ، والصدق مع نفسه خاصة وعلى الشجاعة التي تقترن بالصدق في حواره مع نفسه ومع غيره . ولا يعني ذلك أنه استقل عن الحاجة إلى غيره في توظيف قدراته العقلية ، بل يعني أن تكون العلاقة بينه وبين غيره علاقة الحوار وعلاقة القدرة على محاكمة ما يأتي من غيره ، إن كان ذلك من الأشخاص أو من الكتب وأمثالها . ويدرك هذا المسلم أن مرحلة البلوغ ما هي إلا نقطة البداية في اكتساب العلم وفي ترويض النفس .

النظام السياسي في الإسلام :

١ ـ ولكن مهما كانت درجة نجاحنا في بناء نظام إسلامي في التربية على مستوى الأسرة، وعلى مستوى المدرسة والجامعة ، وعلى مستوى « مجتمع التعلم المستمر»، فلن ننجح في تحقيق مقاصد هذا النظام ما لم يدعمه نظام سياسي / اقتصادي يضمن للمسلم التعبير عن هـذه المقاصد ، ويضمن له الحماية من تسلط الدولة ومن تسلط غيرها عليه . فاذا اضطر هذا المسلم إلى التزلف للآخرين سعياً وراء حاجاته ، وإلى النفاق والكذب ، أو إلى التهرب من المشاركة في شؤون مجتمعه المحلي ، وفي شؤون أمته، سيكون الواقع السياسي الذي يعيش فيه ويخضع له واقعاً « لا إسلامياً » ويتناقض في ما يفعله بالإنسان مع مقاصد الإسلام .

ولذلك كان بناء نظام إسلامي في التربية وبناء نظام إسلامي في السياسة والاقتصاد توأمين لا ينفصلان .

٢ ـ أبو بكر رضي الله عنه قال عندما كلفته الأمة بالخلافة : « وليت عليكم ولست بخيركم » ، واعترف للأمة بأنه قد يخطيء وقد يصيب ، واعترف لهم أيضاً بأن الأمة هي المرجع في تصويب الخطأ وهي المرجع في دعم الصواب .

ذلك الموقف هو الموقف الذي يؤكد سيادة الأمة ويؤكد أنها هي مصدر السلطة ، وهي المرجع في مراقبة سلوك المسؤول وقراراته ، والمرجع في تصويب أعماله كما يؤكد ذلك الموقف أن من يتولّى أمور الأمة يخضع لإرادة الأمة ويتوجّه إلى ما تراه الأمة .

وأمة المسلمين أمة ملتزمة بالإسلام ، وملتزمة بتحقيق مقاصده وغاياته في حياتها وفي حياة الإنسان ، ولكن إذا وقع خلاف بين الأمة وبين ولي أمورها (أي بينها وبين الدولة) في تفسير مقاصد الإسلام ، تكون هي المرجع وهي الحكم في أي التفسيرين هو ما يجب أن يؤخذ به ، وطاعة أولي الأمر التي يأمر بها القرآن هي الطاعة المطلوبة في حدود مقاصد الإسلام لكي يتم إنجاز ما هو في صالح الأمة .

٣ ـ كانت العلاقة بين الدولة والناس في فترة الخلافات الأولى علاقة الوجه للوجه ، ولذلك كان تبادل الرأي والشورى من الأمور الطبيعية في تلك الخلافات . كل مسلم يعلم بأن من حقّه استجواب الخليفة ، والخليفة نفسه يعلم أن ذلك من حقوق كل مسلم ، فلا يرى حرجاً في ذلك الاستجواب ، ولا تهديداً له أو لوظيفته في حياة الأمة .

ولكن بعد الفتوحات واتساع العالم الإسلامي ، وانتقال مركز الدولة إلى عواصم غير المدينة ، تعذّر على جمهور الناس في الأمة الاتصال بأولي الأمر ، وتعذر على أولي الأمر الاتصال بجمهور الناس ، ومع أن المبايعة للخليفة الجديد استمرت كواحد من التقاليد في تنصيبه ، إلا أنها انتهت إلى شكليات تؤخذ إما بالإرهاب وإما بالإغراء .

وفي النهاية انفرد أولوا الأمر بإدارة أمور الأمة ، وانعكس سكوت الأمة عن ذلك الانفراد في أدبيات « الأحكام السلطانية » للماوردي ولغيره ، وانعكس في آداب المديح والتزلّف لمن كان في السلطة .

٤ ـ المسلم مطالب بالأمر بالمعروف وبالنهي عن المنكر ، ولكنه في قيامه بهذا الواجب معرض لنقمة صاحب السلطة ولعقابه . ومع ذلك سجّل لنا التاريخ مواقف في مخالفة أولي الأمر ومعارضتهم في بعض قراراتهم وأعمالهم . ولكن تلك المواقف كانت مواقف بطولية تختلف عن المواقف الطبيعية التي سادت بين الناس والخليفة في الخلافات الأولى ، وتعرض صاحبها للبطش به ولعقابه . وذلك التغير في العلاقة بين المسلم وأولي الأمر كان تغيراً في صالح الاستبداد بالأمة وفي صالح ترسيخ نظام الاستبداد في حياتها .

نسيت الأمة أنها هي مصدر السيادة والمرجع في ما يتوافق مع مقاصد الإسلام ، ونسي أولوا الأمر أن الأمة هي مصدر سلطانهم والمرجع في صواب أو خطأ قراراتهم وأعمالهم . وهذا هو التراث السياسي الذي ما زالت أكثر البلاد العربية تخضع له .

فلم يكن من المستهجن أن يقف أحد رؤساء الدول العربية في هذا العصر ويخاطب الأمة بعبارة « أبنائي » يرفع بها نفسه إلى أبوة الناس ، ويحط بها شعبه إلى منزلة الأطفال . وغيره لا يغيب رسمه عن أعين الناس أينما كانوا ، فيعيد للأمة عبادة الأصنام . وآخر يدعي بتحكمه بوسائل الإعلام أن ما من شيء حسن يحدث في المجتمع إلا كان من إلهامه وابتكاره ، وهكذا .

٥ ـ ولنقدّر التجربة الأردنية في بناء النظام الديمقراطي في هذا البلد حقّ قدرها ، علينا أن نذكر هذا التراث الطويل في الاستبداد ، وأن نذكر ما تولّد منه من تخلّف وضعف في حياة الأمة .

والدول العربية التي تدعي أنها تلتزم بالإسلام وبمقاصده بالتزامها بتطبيق الأحكام الشرعية ، أو بالتزامها بمبدأ الشورى ادعاؤها ادعاء كاذب .

فالأحكام الشرعية وحدها لا يمكن أن تستنفد مقاصد الإسلام كلها في حياة الأمة أو في حياة الإنسان فيها .

ومبدأ الشورى إذا لم يكن تمثيلاً صادقاً لإرادة الأمة ، فما هو إلا غطاء لاستبداد أولي الأمر في تلك الدول .

وتلك الدول التي تميز بين مسلم وآخر باسم المواطنة خرجت عن أخوّة المؤمنين التي يقرّها الإسلام ، وعن وحدة الأمة التي يقوم عليها الإسلام .

لذلك علينا جميعاً في هـذا البلد أن نحرص كل الحرص علـى إنجاح التجربة الديمقراطية فهي التجربة التي لا يمكـن بوسيلة غيرها أن تعود للأمـة سيادتها علـى نفسها ، أو أن تعود لها العلاقة الطبيعية في التعامـل بين الناس وأولي الأمر كما كانت في الخلافات الأولـى . ولا خطر علـى هذه التجربة أشد من خطـر من يدعي أنه يملك الأجوبة الجاهزة لما هـو الإسلام ولما هي مقاصده ، ولا شك أن تمسك هـذه الفئة بالإسلام فـي جوّ ما حدث من غزو ثقافي في حياة هذه الأمة يدعو إلى الإعجاب ، بل إلى الدعم . ولكن هل الإسلام الذي يريدون « تطبيقه » يمثل كل الإسلام الذي نزل به القرآن وبيّنته السّنة ؟ هذا هو ما نختلف به معهم راجين أن يكون الحوار بالتي هي أحسن هو ما نشارك به جميعاً في سبيل وضوح الرؤية ، وفي سبيل نجاح هذا البلد ، وبالتالي في سبيل نجاح هذه الأمة .

٦ ـ وأخيراً لا بدّ من التمييز في سبيل بناء نظام إسلامي في السياسة بين :

ـ خلافة الإسلام بوصفه نظاماً كلياً في الحياة .

ـ وبين خلافة دولة المسلمين .

فالأمة بكل بالغ عاقل فيها هي خليفة الإسلام ، وهي المكلفة بالسعي إلى تجسيده في الواقع وإلى تحقيق مقاصده وغاياته . تقوم بذلك ببناء المؤسسات السياسية الديمقراطية وببناء نظام إسلامي في التربية ، وبترسيخ الحريات اللازمة لمشاركة الناس فيها في التصدي للتحديات وللمخاطر التي تحيط بالأمة ، وفي الدعوة إلى أصول الإسلام في نظرته إلى الإنسان وإلى العلم وإلى التوحيد .

أما الدولة وخلافتها فهذه هي الوسيلة التي تمكّن الأمة من القيام بما وُجِدَتْ من أجله وهي الوسيلة للأمن ولإقامة العدل بين الناس .

الإسلام والمستقبل

الدكتور فهمي جدعان*

لقد كذّبت وقائع العقود الأخيرة من قرننا الحالي جميعَ توقعاتنا الكبرى، وأصبح أيُّ قول في شأن المستقبل، مستقبل الإنسان وحضارته، ضرباً من الرجم في الغيب، وكلاماً يتعذّر إخضاعه لأية أداةٍ من أدوات التحقيق. وكانت فلسفة التاريخ هي الضحية الكبرى لهذه الأحوال الجديدة. فلا قانون الحالات الثلاث جرى أمره، ولا عصر الأنوار آتى أكلَه، ولا التقدم أفضى إلى مزيد من الإنسانية، ولا الاشتراكية أدركت مراحلها النهائية، ولا العلم بدّد الدين، ولا المادية رفعت أعلام الظفر، ولا الرأسمالية حققت للبشر السعادة. فهل نعدل عن أي قول يدور على المصير وعلى المستقبل؟ الحقيقة أن القصد هو أن نحذر الإفراط في الثقة في ملكاتنا المعرفية المشرعة على بوابات المستقبل، وأن نربط كل تفكر أو تأمل أو قول يخص الإنسان وحضارته القابلة بالمدى المنظور فحسب، وبحدود تقريبية وافتراضية في أحسن الأحوال.

وهكذا يلوح أن مستقبل الإسلام مرهون بحدّين رئيسيين: حدّ (الذات)، وحدّ (الآخر)، وبتعبيرٍ شارح: الإسلام في ذاته ولذاته - أي بما هو ظاهرة واقعية لها أحوالها المشخصة التي تهمّ الذات وأصحابها - والإسلام لغيره أي بما هو مشروع (لآخر) له عنده رجع خاص من وجه أول، ويهم الإنسان وحضارته ومستقبله بإطلاق من وجهٍ ثانٍ. والقول التالي يدور في جملته على هذين الحدين.

والكلام على الذات يطال ثلاثة حدود: الماضي والحاضر والمستقبل، لها ثلاثة تجليات جذرية: في التراث، وفي الواقع، وفي المصير.

١ : ١ ولقد كان هاجس [التراث] هو الهاجس الأعظم للفكر الإسلامي خلال النصف الثاني من قرننا الذي يوشك أن ينصرم. والحقّ أنه مثّل أحد الهواجس الرئيسية للفكر الإسلامي أيضاً، سواء أفهمنا هذا الفكر الأخير بمعنى النفي والإنكار أم بمعنى الحياد وعدم الاكتراث. وعند هذا الوجه ليس يتعذر على الباحث المتفكر أن يتبين في المسألة تيارات عميقة ثلاثة تجد لها التمثيل نفسه في جل الثقافات الأخرى:

* عميد كلية الآداب - جامعة البنات الأردنية - عمّان - الأردن. وباحث استكتب في موضوع المؤتمر بصفته خبيراً.

أولها : يتعلق بالأصل ، أو بالسلف ، أو بالتراث الناجز في « خير القرون » أو في عصر التدوين والاكتمال . وتتمثل حاله في عملية « رد » جوهرية إلى الأصول النقلية ، أي إلى « النص » ، ودفع جذري لكل جديد مستحدث ، على نحو لا يدع مجالاً لأي قول بشري اجتهادي . فالتجربة النصية والتاريخية قد اكتملت ، ولا وجه لقبول أي تغيير في أحوال الأشياء وفي طرائقنا في النظر أو في الفعل . إنه التيار « التراثي » الذي يتعلل أهله بأنه أنجز أفضل التجارب وجسّد الصورة - الأنموذج أو المثال - للإسلام في التاريخ . وهذا التيار قائم مستمر ، يجد آذاناً صاغية كثيرة ، ويعبر عن نفسه في أشكالٍ متفاوتة من الاعتدال أو الحدة : السلفية التقليدية حيناً ، والسلفية الجديدة حيناً آخر ، والأصولية الإسلامية في مصطلح « الآخر » حيناً ثالثاً ، والرؤية الحضارية حيناً رابعاً .. وحين يسحب هذا التمثل إلى دائرة الحضارة ، يصبحُ لسانُ حاله القول « إن حضارة متكاملة قد تشكلت وآتت ثمارها ، هي الحضارة العربية الإسلامية ، وإن هذه الحضارة ، بمضمونها التراثي ، ليست مجرد إنجازات عادية عارضة - برغم ما فيها من عارض - وإنما هي في صميمها « روح » ونمط في التفكير والفعل والعيش ، قد أثبتت بلا نزاع جدارتها، وأنها خير حضارة أبدعها الإنسان ، وأن أي قصد لاستبدال حضارة أخرى بهذه الحضارة لا يمكن أن يعبر إلا عن إرادة بتراء . وقد تضيف ، لتعزيز هذه النظرة ، القول إن الإنسان في الحضارات الأخرى - وحتى في الحديثة المتقدّمة منها - لم يلق إلا الشقاء والبؤس والطرق التي لا تؤدي إلى شيء ، أما في تلك الحضارة فقد بلغ من السعادة حظاً لا مزيد عليه في هذه الحياة الدنيا(١) .

ثانيها : يفرض « قطيعة » مع الماضي وتراثه ، ويتمثل التراث (في أحسن الأحوال) تراثاً تاريخياً أدى وظيفة ورحل ، أما في أكثر التقديرات جحوداً باعتبار ، وتحرراً متفائلاً باعتبار ، فيذهب إلى القول « إن طاقات الإنسان الخلاقة قد عطلت في التراث السالف وفي (التقليد) ، وإن الإنسان لم ينته أمره عند الحدود التي انتهى إليها في العصور التي مضت والحقب التي درست ، وإن من الضروري ، ومن الممكن ، تفجير هذه الطاقات بعملية تجاوز كامل للماضي وبناء جديد للإنسان

---

(١) فهمي جدعان ، نظرية التراث : ٢٣ .

بتحريره من قيود القديم والتقليد وإطلاق طاقاته المبدعة كي يتسنى له تحقيق ما ينتظر منه مما لم يخطر في بال القدماء ولا في بال أحد »[1] . إنه المذهبُ الليبرالي أو الحرّ بأشكاله المختلفة : اللاأدرية ، الشكلية ، العلمانية ، الابتداعية .. وحين يسحب هذا التمثل إلى دائرة الحضارة ، يصبح لسان حاله القول : إن الغرب هو الذي حقّق هذا المثال للنظر وللفعل على أتم وجه ، وهو الذي تجاوز بمبدعاته العظمى وعبقريته ، التي لم يشهد التاريخ لها مثيلاً ، كل الحضارات الأخرى ، وأنه هو الأحق بأن يحتذى ويتبع ، وبأن يوضع في المكان الذي وضع هو نفسه فيه ، أي في « المركز » ، ثابت فيه ثبات الأرض في النظام الكوني القديم ، والحضارات أو الثقافات الأخرى « أطراف » تابعة ، ليس عليها إلا أن تظل دائرة حوله تحتذيه على الدوام .

ولم يكن ثمة مفر من قدوم « اللحظة » الجدلية الثالثة التي تنهض لعملية «تركيب» بين النقيضين السالفين : الاتباعية والابتداعية ، وهذه اللحظة التركيبية الثالثة هي التي عبّر عنها أولئك الذين نسبوا أنفسهم إلى ما أُطلق عليه اسم تيار « الأصالة والمعاصرة » ، وهو مذهبٌ تَشَدَّ الجَمْعَ - على نحو يتعذر تحديدُه تحديداً كافياً في الحقيقة - بيْن ما هو « أصيل » جوهري في التراث وبين ما هو جديد مبدع ذو جدوى ، جوهري في (الحداثة) . وقد عبّر هؤلاء عن أنفسهم في الدعوة إلى إحياء التراث ، أو إلى إعادة قراءة التراث ، أو إلى توظيف التراث ، أو إلى استلهام التراث . وكان جلياً في مبادراتهم أنها ذات طابع « انتقائي » ، مذهبياً ومنهجياً ، يجري ذلك على ما يختاره محيو التراث من نصوص ، أو على المنهج الذي يستخدم للقراءة (البنوية ، الوظيفية ، اللسانية ، الفينومينولوجيا ، التفكيكية ..) أو على القضايا الزمنية التي تعرض وتطلب تدخلاً وظيفياً من جانب التراث ، أو على ما يتم استلهامه وفقاً للأحوال والشروط والأمزجة والعقول . وحين تُسْحَبُ هذه الضروب من النظر على دائرة الحضارة ، يصبح شعارُ أهلها مسايرةَ الحضارة والتوافق معها . وتعني الحضارة في هذه الحالة « الحداثة » التي يتصدر الغرب الظافر اليوم لانتاجها في كل يوم وساعة ، ويوشك أن يعبر منها إلى « ما بعد الحداثة » .

---

(١) فهمي جدعان ،نظرية التراث : ٢٣ .

والحقيقة أنني ، عند هذه النقطة من المراجعة ، أجد لزاماً عليّ أن أذكّر في أمر التراث ، بعدد من الأفكار الرئيسية التي عبّرت عنها قبل سنوات وما زلت أتعلق بها :

الفكرة الأولى أن علينا ، عند تحليل مادة التراث ، أن نقرر ، من زاوية نظر إسلامية خالصة ، أن (النص) ـ أي الوحي (القرآن والحديث) ليس جزءاً من التراث ، وإنما هو عالٍ على التراث مفارق له وأصل له ، فالتراث عمل أو إنجاز إنساني خالص ، أي أنه حالة للإنسان بطبعه ، أي من جهة ما هو عالم فاعل صانع مبدع ، وليس هذا حال الوحي .

الفكرة الثانية : أن التراث ، بما هو أفكار وعلوم وطرائق نظر ومصنوعات ومبدعات قيمية ، تاريخي ، أي أنه منوط بالشروط العمرانية الوضعية أو المشخصة . وتاريخية التراث تجعل منه جملاً من العناصر التي ينسحب بعضها من الحياة ، ويتبقى بعضُها الآخرُ حياً في التاريخ الصائر والمجتمع المتغير ، تدخله الحاجة العملية أو الضرورة في لُحْمة الحاضر على وجه قوة الاستمرار فيه ، أو على وجه الدمج المادي أو الاستقلاب المعنوي .

الفكرة الثالثة : ـ أن مرجعيـــات الإسلام الجوهرية : الوحـــي ، والاستخلاف والتراث الحي ، ومعطيات الواقع المباشر ـ تفرض ، وفقاً لتاريخية التراث ، أن يكون مبدأ « إبداع التراث » ـ أي مبدأ الديمومة الحية لتراث يمتد في الزمان ويتقدم باستمرار ، مبدأ مرجعياً أصيلاً من مبادىء الحراك والتدافع الإسلاميين في التاريخ .

والذي نخلص إليه من هذا كله ؛ هو أن البعد التراثي للذات الإسلامية لا يمكن أن يؤدي دوره في أي مشروع جديد للنهضة إلا إذا (هو) استند إلى القطاع الحي من هذا التراث ، وأن السمة البشرية لهذا الأصل تجعل كتلة التراث كتلة متحركة مرنة تتشكل ويعاد تشكلها في المكان والزمان ، وأن تجاوز التراث غير الحيّ في عملية الإبداع المستمرة التي يتم فيها التفاعل بين الوحي وبين الواقع ، أو بين الإنسان وبين الواقع ، هو أمر لا مفر من التسليم به ، إن أردنا الحيلولة دون وقوع قطيعة آلية مع التراث ، إن لم يكن ثمة دعوة للقطيعة لدواع أيديولوجية أو مذهبية . ومن المؤكد أن قيام حضارة إسلامية جديدة مرهون بالامتثال لجملة هذه الوقائع الصلبة، أما التعويل على عملية إحياء الماضي، وعلى إخراج « نسخة » جديدة من الحضارة السالفة ، فأمرٌ يتعذر تصوره وفق شروط الفعل البشرية التي نعرفها .

١ : ٢ ـ وللواقع أحكامٌ لا تحتمل الجحود أو الإنكار . وواقع الإسلام عند نهاية القرن العشرين واقع « مشكل » ، وليس من الحكمة السكون إلى حالة « استعلاء الإيمان » أو إلى أن « هذا الدين حق » أو إلى أن هذه الأمة « خير أمة أخرجت للناس » ، لإنكار « المشكل » ، وليكون الواقع بخير . فكل ذلك مرهون بأسبابه وشروطه ، وليس يقال بإطلاق ومن غير قيد . إن الإسلام في « أزمة » وهي أزمة حقيقية . وينبغي أن يكون واضحاً تماماً أنني حين أقول « الإسلام في أزمة » فإنني لا ألجأ إلى عملية تجريد للإسلام بما هو وحـي مطلق ، أو بما هـو « كتاب » تولى الله حفظه ، فذلك أمر لا موضع للكلام عليه هنا ، إذ إن الوحي في ذاته ، وبطابعه المفارق للزمن التاريخي ، لا يمكن أن يكون موضع أزمة ، وإنما المقصود هو أن « الإسلام المشخص » الذي يتحرك في الزمان وعلى الأرض وبين الناس ـ وهو الإسلام الوحيد الممكن تاريخياً وبشرياً ـ يجتاز اليوم أحوالاً دقيقة وظروفاً معقدة ، تلقي عليه بظلال قاتمة وتهدد مستقبله ، على المدى المنظور والبعيد ، بمخاطر حقيقية جسيمة . ما هي أعراض هذه الأزمة ؟ وما هي المشكلات الكبرى التي تقومُ في وجه الإسلام ، وتحولُ دون إدراكه حالة « الصحة » ، ودون أدائه للرسالة الحضارية المنوطة به؟

علينا أن نوجه أبصارنا أولاً إلى المشكل الابستيمولوجي أو المعرفي . ما هي أدواتنا في الاعتقاد اليوم ، وما هي دواعينا في الإيمان ؟ إن الاجابة المدققة عن هذا السؤال تكشف عن واقعة صلبة وبسيطة في الآن نفسه ، وهي أن دروب الإيمان القديمة ليست هي الأصل في اعتقادنا الديني . فليست مقدمات علم الكلام القديم وأصوله هي التي تؤسس إيماننا . فهذه المقدمات والأصول لا تساق إلا في المعاهد والكليات والأقسام المخصصة للتوحيد وأصول الدين والعقيدة . كذلك ليست الأدلة العقلية والبراهين الفلسفية المنظمة هي التي تسند معتقداتنا . والعلم الذي كان في فترة من فترات العصر الحديث أداة من أدوات الدعوة إلى الإيمان ـ أو إلى الإنكار ـ لا يحتج به اليوم في موضوعات الإيمان . إن إيماننا آتٍ من رسوخ العادة والتربية ، أي من « التقليد » الذي تكلم عليه الغزالي منذ زمن بعيد ، وهو التقليد الذي شكل « خطاباً » دينياً خاصاً ، يجمع ما بين الأفكار الإيمانية البسيطة وبين التعلق بجملة من القيم الشخصية

والاجتماعية ذاتِ الرجع الشخصيّ الطيب ، أو الذي يبعث على الراحة ، وبين التجربة التاريخية التي تستنفر مشاعر العزة والكرامة والمجد والسؤدد لأمة ضربت مثلاً عالياً في التاريخ ووجدت في هذه القيم ، بعد الأفول والإخفاق والهزيمة ، أسباباً تدعو إلى التعلق بالإيمان لأغراض « علمية » . إن الأُسس والدواعي « العملية » هي التي تؤسس اليوم الإيمان . لكن هل يمكن القولُ إن هذه الدواعي كافية في هذا التأسيس ؟ لا شك أن للإيمان منطقَه الخاص ، وأن للقلب أحكاماً لا يفهمها العقل ، وأن المشكل « العلمي » يتقدّم في الظروف الراهنة على التأسيس النظري ، لا بل إن أحكام الواقع ومنطقه الآمر لا تأبه في عصر (العمل) و (الفعل) بفهوم النظار والكلاميين والفلاسفة وبتحليلاتهم التي تندّ عن الواقع المباشر المشخص . ليس ثمةَ شكٌ في أن التأسيس النظري للإيمان لا يمثل اليوم في ذاته مشكلاً حاداً أوّل الحل ، وأنه يقع في مرتبة ثانية ، بالإضافة إلى أنماط المشكلات الأخرى الثائرة الآن . لكن ذلك لن يغني عن الحاجة إلى نظر جديد في طبيعة الإيمان الإسلامي وأسسه ، مباين بكل تأكيد للأنماط التي نعرفها عند متكلمي الإسلام وفلاسفته القدامى الذين لم تعد لغتهم القديمة ـ لغة القرنين الثالث والرابع للهجرة ـ قادرة على التصدي للمشكلات المعرفية التي تثيرها علوم الإنسان وعلوم الطبيعة الحديثة . علينا ألا نستهين بهذا المطلب . وأستطيع أن أقرر (بيقين لا يحتمل الشك) أن الشبيبةَ التي نتصل بها يومياً من الأجيال الجديدة ، تشعر بالارتباك الشديد في كل مرة تتجاوز الدائرة الصماء وتثير أسئلة تتصل بموضوعات الإيمان الدقيقة. ولديّ شواهدُ ـ لا يمكن دحضها ـ على أن **لغةَ العقيدة القديمة ـ سواء أكان أصلُها منهجَ النقل أم منهجَ الرأي ـ لم تعد لغة مسموعة** ، وأن المطلوب شيءٌ غيرُ ذلك تماماً .

وعلينا أن نتنبه ههنا إلى مشكلين حادين يلقيان بظلالهما القائمة على الأساس النظري للإيمان . أولهما ذاك الذي يثيره افتراق عالم الإسلام الافتراق المذهبي الذي نعرف : شطرٌ منه يتعلق بما يسمى بالإسلام السنيّ ، وشطر آخر يتعلق بما يسمى بالإسلام الشيعي . لقد قَرَّبَ الهاجس السياسي الثوري في فترة من فترات النصف الثاني من هذا القرن بين المذهبين ، وبدا أن الشقاق القديم قد انسحب من الحلبة . لكن ذلك لم يدم طويلاً ، فما لبث الإرث التاريخي الدفين، معززاً بآليات التفتيت الزمنية القطرية والدولية، أن فعل فعله لتعود الأمور إلى « نصابها » التاريخي الذي يبعث علـــى الألم . ومع أن

الخلاف الأساسي هو خلاف « سياسي » لا عقيدي - برغم ما يذهب إليه الشيعة من جعل مسألة الإمامة أصلاً من أصول الدين ، خلافاً لما يذهب إليه أهل السنة - فإن ملابساتِ الأمرِ تحملُ على الاعتقادِ بأن من الضروري أن يطال الحوارُ الذي لم يحدث ، جملةَ مبادىء الاعتقاد الإسلامي ، وجملةَ الأسس المعرفية التي ينبغي أن تشكل المرجعية العقدية الإسلامية العامة . وإذا لم يتم اختراع حل مناسب لهذه المسألة ، فإن واقع الحال سيستمرعلى ما هو عليه من انشقاق لا يختلف كثيراً ، في تشكيلاته الزمنية المشخصة ، عن الانشقاق الذي حدث في العالم المسيحي . والمرجح أن يواجه عالمُ الإسلام مصيرَهُ وهو في حالة انشقاق حاد سيكون بكل تأكيد ، مثلما كان في السابق ، علة رئيسية في ضعفه وفي سهولة النيل منه .

أما الثاني فيكمن في الأخطار التي يمكن أن تعرض للأساس الاعتقادي تحت ضغط التأثيرات العملية للإرسال السمعي البصري المتمثل في تطور أجهزة البث الإعلامي ، حيث ستخترق هذه التأثيرات الجدران التقليدية كلها التي كانت تحمي العقيدة فيما مضى : جدران البيت ، والمدرسة والأماكن العامة وجملة التظاهرات الاجتماعية . إن هذه الجدران ستتداعى وستضرب قوى الثقافة الجمالية والأخلاقية المضادة في عمق الإنسان المسلم وتعرضه لاهتزازات عنيفة . ومن الثابت أن تأثير هذه القوى العملي لن يقتصر على الشخصية الأخلاقية للفرد وإنما سيتجاوز ذلك إلى الأسس العميقة التي يستند إليها الاعتقاد الديني . وهذا مشكل يتطلب البحث عن استراتيجيات معرفية وعملية في المقاومة وفي التجاوز معاً .

وينبغي ثانياً أن يكون منا على بال أن مشكل التنمية والعلم والتقنية يضع الذات الإسلامية في دائرة الخطر الحقيقي . وهذا المشكل ذو وجهين وجه يخص عالم الإسلام ذاته ، ووجه يخص عالم (الآخر) الخارجي . والكلام في هذا المقام على الأول . إذ من الجليّ تماماً أن عالم الإسلام يعاني من أزمة عميقة في هذا المجال ، وأن طبيعة هذه الأزمة تتبدى في العجز عن احتياز أدوات العلم والتقنية من وجه ، وفي إخفاق مشاريع التنمية الكبرى من وجه ثانٍ ، وفي التفريط في الثروات الطبيعية وغير الطبيعية أو هدرها من وجه ثالث . ويكفي أن نتأمل أحوال الفقر والمديونية والتبعية وضحالة الانتاجية في جملة

القطاعات الاقتصادية ، وانسداد آفاق البحث العلمي والإخفاق في نقل التكنولوجيا والعجز المروّع عن اللحاق بعالم التقنية الذي دخل في « عصر ما بعد الحداثة » بينما ظل عالم الإسلام في طريق النمو المتباطىء بل المتراجع ، لكي ندرك مبلغ الأزمة وحدودها . إن عالم الإسلام يتحول إلى « عالة » على (الآخر) ، يقتات مما يلقيه إليه بمقدار وبحساب ، ويتجه نحو « الفاقة » بسوء تدبيره وفساد إدارته واستغلال موارده وطاقاته حيناً، وبعقم سياساته وحمقها حيناً آخر، وبتخطيط خارجي « عن سابق عمد وإصرار » حيناً ثالثاً . إن الخسائر المروّعة التي حلت ببعض أجزاء هذا العالم في السنوات القريبة الماضية بسبب حرب الخليج بين « إخوة الإيمان » أولاً ثم بسبب عملية الكويت النكدة ثانياً ، وما ترتب على ذلك من نكبات ـ اقتصادية وقومية ـ تمثل أحد الشواهد البارزة على أزمة تتفاقم بفساد البشر الضالعين في تصميم السياسات العلمية والفنية والمهنية والإدارية والسياسية وفي انعدام الكفاية الضرورية لديهم من أجل إنجاح المشاريع والمؤسسات التي يوكل إليهم أمر تدبيرها . إن الخلل هنا غير يسير وإن العجز حقيقي وإن كل أساليب التسويغ لا تصلح للتهوين من شأنه أو التقليل من خطورته . وإذا كانت اللغة الدرامية وحدها هي القادرة على التعبير عن واقع الحال فإن علينا ألا نكف عن استخدامها للإشارة إلى فداحة الأمر وجديته المطلقة .

وليس ثمة شك ، ثالثاً ، في أن فوضى القيم قد جعلت من إنسان عالم الإسلام إنساناً معطوباً في بنيته الأخلاقية مثلوماً في وجوده الاجتماعي . فهذا الإنسان الذي أراده الإسلام للخير والصلاح ومحبة الاخرين والصالح العام وقع فريسة دنياه القريبة وخيره الخاص المباشر . وليس مرجع ذلك إلى ضعف في قيم الإسلام ذاتها وإنما إلى ضعف مؤسسات الدولة والمجتمع وعجزها عن أداء دورها العام وعن توفير شروط الحياة التي تسمح للقيم الرفيعة بالتفتح والازدهار والنماء . إن الخير الخاص هو الذي يحكم عالم الإسلام . وإن أحداثاً جساماً تنجم في العالم ولا تحرك في الوعي والوجدان الإسلامي أية ساكنة . ووقائع البوسنة والهرسك تشهد بذلك للحاضر ولكل التاريخ الآتي . أما تقديم العرضي على الجوهري والفرع على الأصل فلم يكن في يوم من الأيام مثلما هو عليه في نهاية هذا القرن . لقد اضطرب سلم القيم وغاضت ملامح القوة الأخلاقية المركزية في إنسان « التوحيد الغائب » والأمور تحتاج إلى أن ترد إلى نصابها .

لكن ذلك كله لن يتأتى خارج دائرة « السياسي » ، والمشكل الرئيسي يكمن في هذه الدائرة التي هي بيت الداء والدواء . فقد وجد العالم الإسلامي الحديث نفسه بعد سقوط الدولة العثمانية ، بين براثن الدولة الحديثة التي تم زرعها قسراً فخرجت في أسوأ تقويم . وهذه الدولة الحديثة هي ابتداء الدولة المدنية في الغرب التي تحرّرت من سلطة الكنيسة وأقامت سلطتها وبناءها ومؤسساتها وقوانينها لأغراض تتمثل في رعاية المصالح الإنسانية الدنيوية وحمل المسؤولية العمومية والعمل في إطار تنظيم الحياة بتوخي الخير العام . والمعوّل فيها على مبادىء العقل الطبيعي والخبرة البشرية المقودة بمبادىء العلم والعقل والعدالة والمساواة والحرية والتعددية والخير العام والديموقراطية والحق والقانون والتضامن الاجتماعي والمواطنة . لقد نحت الدولة العربية والإسلامية « المدنية » قيم الإسلام جانباً ونسبت نفسها إلى « الدولة الحديثة » لكنها في حقيقة الأمر ظلت متجذرة في القطاعات اللاشعورية والمرجعيات الخفية التي توجه مجتمعات ذات قيم مضادة تماماً إلى قيم الدولة المدنية ، وبقدر كبير إلى قيم الإسلام نفسه ، فجاءت دولة « حديثة » مشوّهة تعتورها النقائص من الجوانب كلها . وههنا ينبغي أيضاً إعادة تشكيل الدولة ومؤسساتها وتحديد العلاقة بين الدولة المدنية الحديثة وبين الإسلام نفسه ، وذلك كي يتأتى قيام دولة صحيحة الجسم والروح قادرة على إعادة بناء المجتمع ومؤسساته وقيمه .

والحقيقة أننا نخطىء كثيراً إن نحن توهمنا أن المجتمع يمكن أن يصلح خارج نطاق الدولة ، أو أن من الميسور إرساء قواعد تشكيل حضاري جديد لا تكون الدولة هي محوره الأساسي ومركزه الحيوي ومحركه الفاعل . وكذلك نحن نخطىء إن اعتقدنا أن الدولة التي تقوم على أمة أو جماعة يمثل الإسلام عندها مرجعية أولى يمكن أن تؤدي وظيفتها في حدود « الطبيعة » وحدها، أي في حدود اجتهادات البشر الدنيوية الخالصة. إنها إن فعلت ذلك ستولد القطيعة بينها وبين رعيتها من ناحية وبينها وبين الله من ناحية ثانية . وليس معنى هذا بالضرورة التعلق بمفهوم أيديولوجي راديكالي للدولة يجعل منها « الدولة الإسلامية » المتفردة بالأساس الذي دعا إليه المودودي والحركات الإسلامية السياسية ، أعني أساس « الحاكمية الإلهية » المطلق ، وهو مفهوم مثير للجدل والخلاف والافتراق ويتعذر جمع الناس عليه إن هو أخذ المأخذ السياسي الذي وصل إليه الحراك السياسي الاسلامي . ولعل مبدأ الأخذ بدين ميسور في دولة حديثة ، والتزام الدولة

بحفظ الشريعة ورعاية قواعد الحلال والحرام وإحلال الدين في مكانة الشاهد والمبشر والنذير تكون مبادىء صالحة لتوجيه العلاقة بين الدين والدولة توجيهاً أعدل وأجدى مما جرت عليه الأمور حتى الآن . ومع ذلك فإننا نظل ههنا ، في دائرة المشكل السياسي ، أمام أزمة حقيقة ، تلقي بظلالها القوية على جميع مشاريع النظر والعمل التي يتطلع أصحابها إلى إعادة تشكيل عالم الإسلام وإعداده من جديد لأداء دور حضاري فاعل هو جدير به كل الجدارة . وإذا لم يتم التوصل إلى صيغة سلام دائم ووفاق حقيقي بين الدين والدولة فإنه لن يتسنى أبداً لعالم الإسلام أن يخرج من عنق الزجاجة ويوفر لنفسه شروط الحياة والنماء والتقدم .

وفي الأحوال كلها ، وفي غياب صيغة وفاقية تامة بين الدولة الحديثة وبين الدين ، ولكي لا ينتهي حال الجماعة والدولة كليهما إلى تعاظم الأزمة واشتدادها وإلى فشل ريح الجميع ، يتعيّن ، على المدى المنظور ، مراعاة الشروط التالية :

فأولاً تقضي الحكمة بألا تقوم العلاقة بين الطرفين على أساس وجود قوة موازية لسلطة الدولة هي قوة الدين تنازع الدولة سلطتها ، فمن الثابت أن علاقة من هذا النمط لن تؤدي إلاّ إلى الصدام النكد إن لم تفضِ إلى الكارثة .

وثانياً على الدولة المدنية الحديثة في عالم الإسلام أن تمتثل لقواعد السلطة الحديثة أي أن تنصاع للقانون وتلتزم بمبادىء العدالة الكاملة وبأصول العمل من أجل الصالح العام وكرامة المواطن وحريته وحلّ مشكلاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تفسد عيشه وتحرمه من الحياة الطبيعية ومن الرفاهية .

وثالثاً على الطرفين أن يمتثلا لمبدأ تداول السلطة تداولاً كاملاً بحيث يعطى للأغلبية الحقّ في أن تختار شكل الدولة التي تريد ومحتواها ، وفي أن تكون مسؤولة عن نجاح أو إخفاق برامجها ومشاريعها وتجربتها في تدبير أمور الدولة والمجتمع .

ولكي يتيسر ذلك كله على الدولة أن تأخذ زمام المبادرة في توجيه العلاقة وجهة الخير العام أو المصلحة ، وفي أن « تطهّر » نفسها من النقائص التي اعتورتها ومن التجاوزات اللاعقلية التي أقدمت عليها ومن التقصير الذي تلبسها والتطرف الذي

أوقعها فيه طابع السلطة القسري وإغراء السلطة الذي لا يعرف حدوداً . وبخلاف ذلك فإن حججها في التصدي لما أطلق عليه اسم التطرف الديني أو الإرهاب الديني ستكون حججاً واهية . والمستقبل مرهون إلى حد بعيد بما سيؤول إليه الحال في شأن هذه العلاقة الجوهرية .

١ : ٣ - هل يبين عالم الإسلام في ذاته عن محددات مصيره الخاص في هذه المرحلة من مراحل تطوره التاريخي ؟ في الحقيقة أن هذا العالم يتردّد اليوم بين قطبي اليأس والرجاء ، وبين هذين القطبين أحوال هي أقرب إلى الخوف والترقب والجزع والتحفز والشعور بالخطر أو بالكارثة أو بالعجز . ومع أن حال المؤمنين هو أن الشدة امتحان وأن الفوز هو في النهاية للإيمان وأهله ، إلا أن الحوادث والنوازل التي تقع في عقر دار الإسلام لا تبدو مما يبعث على الطمأنينة . فالتناحر بين أهل الإسلام أنفسهم قد بلغ أوجه ، والتقاتل بين فئاتهم حقيقة لا تكذبها العين ، وظلم بعضهم لبعضهم الآخر وعدوانهم عليهم أمران يبعثان على اليأس ، وتهاونهم في خطوب كبرى تعرض لبعضهم أمر يدعو إلى الحيرة ، والقطيعة التي تفصح عن نفسها في باطن المجتمعات الإسلامية نفسها ، وفي علاقة هذه المجتمعات فيما بينها، تبعث على القنوط ، والعجز الذاتي والخارجي يدعوان إلى الغيظ والحنق .

لا شك في أن هذه الظواهر جميعاً هي أعراض وتناذرات لأزمة عميقة في وجود عالم يجتاز أحوالاً جِدّ معقدة وأوضاعاً تكشف صراحة عن أن ما نسميه بعالم الإسلام ليس إلا عوالم متناثرة مفتتة تعاني من آفات التخلف جميعها ، وأن أي كلام على مصير واحد مشترك لهذه العوالم هو كلام في غير محلّه . لقد أصبح مفهوم (الأمة) خالياً من كل قوة دفع ذاتية أو توحيد معنوية . أما مفهوم الجماعات الإسلامية فلا يحيل إلا إلى دول وجماعات ذات مرجعيات خاصة متجذرة في تشكلاتها الثقافية التاريخية ، تند عن كل جهد تنظيمي موحّد ولا تتجاوز الأقوال في ذلك التراقي والحناجر .

هل ينبغي علينا أن نعيد إلى الأذهان الكلام على « خير القرون » وعلى أننا أصبحنا بعيدين بعداً كبيراً عنه غارقين في الشر متجهين إلى ما هو أفدح منه ؟ هل نردّد قول مالك بن نبي في أننا نمثل « إنسان ما بعد الموحدين » الذي فقد الكفاية التحضيرية وأصبح عاجزاً عن إنجاز أي عمل أو أية مهمة تحضيرية ؟ هل هي نهاية التاريخ ، لا بالمعنى

الذي ذهب إليه فوكوياما وإنما بالمعنى الذي روّجت له « مناكير » الفتن والملاحم ؟ هل نذهب إلى أبعد من ذلك لنقول إن الإسلام مهدّد من جديد بأن يفقد فرصته التاريخية وبأن الفعل الثوري اليائس هو السبيل الوحيد للإمساك بهذه الفرصة ولبدء دورة جديدة للمستقبل أياً ما كانت التضحيات التي تبذل والمخاطر التي تنجم والمصائب التي تحل ؟ الحقيقة التي ينبغي أن نقر بها - بمرارة لا حدود لها - هي أن الإسلام بما هو قوة تحمله أمة موحدة وعالم واحد وإمكانات مشخصة فاعلة قد فقد المبادرة التاريخية منذ زمن بعيد ، وأنه اليوم - وإلى أمد غير معروف - عاجز عن إدراك الحالة التي تمكنه من اتخاذ مبادرات تاريخية حقيقية . ومن الطبيعي أن نعترف ، في مثل هذا الوضع ، بأن أية دورة تحضيرية جديدة شاملة تحتاج على المدى المنظور إلى جهود خارقة . فالحضارة الآتية في عالم الإسلام ليست حضارة إسلامية شاملة وإنما هي ثقافات إسلامية وطنية أو إقليمية . والمصير الآتي لن يكون مصيراً واحداً . إن النزعة الذرية ، نزعة التجزؤ والتفرد ، هي التي ستوجه عالم الإسلام في المرحلة القابلة . ولكي يكون مستقبل هذه « المصائر » باعثاً على التفاؤل مبشراً بالخير سيكون كل مصير مدعوّاً إلى الارتداد إلى الذات قاصداً إلى إعادة بناء هذه الذات ، غايته حفظها وصيانتها من الانقراض بفعل العوامل البنيوية الخاصة أو بفعل ضغط « الآخر » وسياساته الكونية في الهيمنة والتحجيم والإفناء . هل نقابل هذا الوجه من واقع الحال بما يكذّب ذلك من أمر ما أطلق عليه اسم (حركات الصحوة الإسلامية) وأسماء أخرى مما ينهض عند كثير من المسلمين دليلاً على أن « المستقبل للإسلام » وأن ما يشهده العالم الإسلامي من حراك سياسي واسع ومن ثورات عميقة ومن يقظة شاملة يحمل وعوداً جديدة لمصير الإسلام ليست هي تلك التي تعبّر عنها أحاديث الفتن والملاحم أو « خيبة » المفكرين العامة أو أوهام نهاية التاريخ وغير ذلك مما يولّد اليأس ويبعث على القنوط ؟ وهل يجوز لنا وفقاً لمنطق هذه الحركات ودعواها الاعتقادية الأساسية أن نقلّل من شأن وعد الله المؤمنين بالنصر والفلاح ؟ لا شك أنه ليس للمؤمن أن يقنط من روح الله ، لكنه لا بدّ له أيضاً من أن يعي وعياً تاماً ما يحدث في التاريخ .

والتاريخ لا يجري وفقاً للرغبة والهوى والأماني ، كما أن الله حين يفعل في التاريخ لا يفعل خارج دائرة الأسباب والقوانين التي يخضع لها عالم الإنسان والطبيعة .

وفضلاً عن ذلك فإن مسائل الوجود والمصير ليست رهينة الشروط الذاتية لأصحاب هذا الوجود والمصير فحسب ، وإنما هي أيضاً - وفي بعض مراحل التاريخ بقدر أكبر وأعظم حسماً - مرتبطة بشروط الرغبة والفعل التي توجه (الآخر) ، هذا الآخر الذي أدرك نقطة « المبادرة التاريخية » وأصبح هو المحرك الأول للتاريخ وللحضارة . وهكذا فإن المشكل الكبير الذي يثور عند نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين ، أي حين نغذّ السير في القرن الخامس عشر للهجرة ، هو المشكل الذي يثيره السؤال التالي : كيف يتأتى للإسلام - أي لعالم الإسلام - أن ينجو بنفسه من المخاطر الجاثمة وأن يخط لنفسه مصيراً طيباً في ظروف أزمته الذاتية العميقة وهو فاقد لزمام المبادرة التاريخية قد وضعه (الآخر) تحت المراقبة ، في حالة حصار ، خارج دائرة المبادرة التاريخية ؟

٢ : ١ - تلك هي الحقيقة الكبرى التي لا يملك الإسلام إلا أن يتمثلها ويعيها وعياً تاماً . لقد أصبحت « المبادرة التاريخية » بيد هذا (الآخر) ، الظافر ، الغرب الذي نجح في تجاوز الحدّ الذي انتهت عنده حضارة الإسلام الكلاسيكية في عصر ابن خلدون ، حين دمّرت القوى السحرية قلاع العلم والعقل واستقرت في قلب المحرّك الدافع لتوجه مسيرته نحو بوابات الظلام وتفتح الطريق من الناحية الأخرى أمام آلة مدنيّة جديدة خارجة من أعماق مدنية الإسلام ومن توثبات العصور اللاتينية المتأخرة ومن أضواء عصر النهضة المتوهجة ، رافعة ألوية عالم جديد قوامه العلم والنظام والطبيعة والقانون والفاعلية والعقل والتقنية وآفاق الأنسنة الأرضية . لقد نجحت قوة الآلة الجديدة في أن تعيد تشكيل وجه العالم وفي أن تفرض هيمنة جديدة ومركزية جديدة هي المركزية الأوروبية أو الغربية. ولم ينجح عالم الإسلام ، برغم أهمية المشروع العثماني وخطورته ، في أن يرسي دعائم مركزية إسلامية مستأنفة تصلح لأن تكون بديلاً لتلك التي درست . وانتهى الصراع بين المشروع العثماني - الإسلامي برغم كل شيء - وبين المشروع الغربي ، إلى أفول الأول وسقوطه وإلى ظفر الثاني ظفراً ماحقاً . وهكذا تراجع عالم الإسلام لكي لا يكون إلا دولاً مدنية وطنية تحتذي نموذج الغالب وتقلده حين لا تأتمر بأمره وتتبعه مرغمة كارهة . وصدر الهجوم من الجهات كلها لتدك ضرباته القواعد والجدران كلها :

فأولاً : وضع الغزو العسكري ـ السياسي حداً لصورة عالم الإسلام الواحدة ، ومنذ مطلع القرن التاسع عشر تحوّل هذا العالم إلى خارطة فسيفسائية أخذت ألوانها الذاتية تغمّق مع الزمن لتنتهي إلى دول قطرية تمتلك كل أدوات الدول « المستقلة » ـ التابعة في الآن نفسه ـ وأسبابها ومقوماتها ، حتى إنها لم تعد تحتاج إلى قوة الآخر الدخيلة من أجل تدعيم هذا « الاستقلال » فقد أصبح دماً يجري في عروقها . أما صرخات الجامعة الإسلامية والوحدة الإسلامية والأمة الإسلامية الواحدة فلم تعد تتجاوز الحناجر كثيراً . وفي كثير من مواطن الإسلام باتت « وحدة الوطن » المهدّدة بيقظة الاقليات العرقية أو الدينية أو الطائفية أو الاجتماعية هي المطلب السياسي الأسمى للحفاظ على وحدة الدولة وديمومتها .

وثانياً : اتجهت الدول المستقلة أو وجهت إلى تعميق ثقافات شعوبها الوطنية ، باسم الخصوصية ، أو الهوية الوطنية أو التنوّع الثقافي أو وعي الوجود والبقاء ، معلنة مع ذلك ، على نحو من أنحاء النفاق ، عن انتسابها إلى الأمة العربية أو إلى أمة الإسلام ورضي (الآخر) عن هذا الاتجاه وتركه يأخذ مجراه .

وثالثاً : أحكم الغرب تدخله الاقتصادي في عالم الإسلام وأفاد إفادة عظمى من سوء إدارة هذا العالم لمقدراته . وفي الوقت الذي أفاد من ثرواته الطبيعية الاستراتيجية ، وفتح له باب القروض على مصراعيه فانزلقت كل أقطاره وغرقت فيها ، ولم يبذل جهوداً حقيقية في توجيهه إلى طرق الخير العام التي كان عليه أن يتبعها ... وما كان له أن يفعل ذلك ، فليس ذلك واجباً عليه وإنما هو واجب أهله قبل غيرهم .

ورابعاً : أغرق الغرب المخيلة الجماعية الإسلامية بمنتجاته الثقافية والفنية التي تبثها الأجهزة السمعية ـ البصرية بما تحمل من أنماط الفكر والسلوك والتذوق الجمالي التي تقلب كل معطى سابق ، وتجرد المتلقي من كل خصوصية وأصالة ... وتجلّى الظفر الغربي ههنا في تمثل المجتمعات الإسلامية هذه الأنماط وفي صدور أبنائها المبدعين عنها مباشرة دون وسيط .

وتبنّى الغرب في علاقاته مع النظم السياسية في عالم العرب والإسلام سياسة نفاق صريحة ، هدفها النهائي إبقاء هذا العالم رهين التخلف السياسي الذي يعلم جيداً أن كل وجوه التقدم مرهونة به . لقد قامت نهضة الغرب على « التحرّر » من السلطات القديمة جميعها وعلى غرس مؤسسات الحرية والقانون والخير العام والمواطنة والعقل ...... وهي قيم يعلم الغرب أن التقدم لن يتحقّق في غيابها . ومع ذلك فانه يغذّي ويدعم ويعزز نظم عالم الإسلام السياسية التي تستند إلى القيم المناقضة تماماً للقيم التي يؤمن بها ويؤسس وجوده عليها ويبشر بها . ومن الطبيعي أن تكون حصيلة ذلك التجذر في التخلف ، واتساع الهوة بين الغرب وبين هذا العالم ، وسهولة التحكم في أجزائه وتوجيهها .

كل ذلك يوجهنا إلى مشهد عالم يتقلب بين يدي عالم آخر ، يحركه كيف يشاء ويعبث به وفقاً لما يشتهي . ومع ذلك فإن المسألة ليست مسألة شهوة وعبث ولعب وإنما هي أبعد وأخطر من ذلك بكثير . إن الغرب قد قرر قراراً لا رجعة عنه وهو أن يضع عالم الإسلام « تحت اليد » بحيث لا يتاح للقوى الكامنة في هذه « الجثة الهامدة » ، وفقاً لتعبير بعض الكتّاب الغربيين المعاصرين ، أية فرصة للحياة المستقلة الفاعلة القوية . تقول غالبية المسلمين في عصرنا - وفي أوساط الحركات الإسلامية الثقافية والسياسية على وجه الخصوص - إننا بإزاء « مؤامرة » على الإسلام والمسلمين وإن القصد هو اجتثاث « هذا الدين » واقتلاعه من جذوره بحيث لا تقوم له قائمة في القرون القابلة . ولا يكاد أصحاب هذا التفكير يَدَعُون شاردة أو واردة إلا ساقوها إشارة إلى هذه « المؤامرة » . ومنذ انهيار النظام الشيوعي في الاتحاد السوفييتي والبلدان التي كانت تدور في فلكه ، أصبحت الفكرة القارة في أذهان كثير من الناس هي أن « الغرب الرأسمالي الاستعماري النصراني » يبحث عن « بديل » للعدو التقليدي ، وأنه قد عثر على هذا البديل في عدو قديم هو الإسلام . ويساق لتعزيز هذا المذهب عدد من « الإشارات » العربية الصريحة حيناً الضمنية حيناً آخر ، مما يمثل مواقف من قضايا العرب والمسلمين والإسلام الدقيقة ، ويقال إن هذه المواقف لا تفسر إلاّ بهذا العداء الذي يمدّ جذوره في التاريخ بعيداً ، وإن الخطة المدبّرة الآن - أي المؤامرة التي تم الشروع في تطبيقها - هي تنفيذ حكم الإعدام في الإسلام وأهله . ومن الطبيعي في ضوء هذا الفهم ، أن توجه آليات الدعوة والعمل الإسلامي وفقاً لاستراتيجية الآخر المفترضة هذه . وهكذا تنتهي

« المسألة الإسلامية » المعاصرة إلى حالة تنشد تحقيق أمرين عظيمين : الأول التصدي للمؤامرة ، والثاني تجاوز التصدي إلى وضع المشروع الإسلامي بديلاً للغرب ومشروعه الحضاري وحلاً لتطلعات الإنسان وقضاياه جميعها .

٢ : ٢ - والحقيقة أن واقع الأمور يقتضي النظر في مسألتين جوهريتين :

الأولى : هل ثمة مؤامرة حقيقة وفعلاً ؟

الثانية : هل يستطيع الإسلام حقاً أن يقدم لـ (الآخر) - الغرب وسواه - بديلاً حضارياً يحل المشكلات التي يعاني منها إنسان اليوم وإنسان الغد ؟

ليكن بيناً لنا أن الكلام الحديث على « المؤامرة » لم يرتفع عالياً إلا في العقدين الأخيرين ، أي منذ أوائل السبعينات من هذا القرن . لقد كتب كثيرون منذ زمن بعيد عن المؤامرة الكبرى على الإسلام ، وأقر كثير من الباحثين والمهتمين والنظار بأن الاجهاز على الدولة العثمانية لم يكن إلا وجهاً من وجوه هذه المؤامرة ، وكذلك كان أمر تقطيع أوصال العالم العربي والإسلامي وإخضاعه لسلطات الهيمنة الغربية وجهاً لهذه المؤامرة ، وزرع دولة إسرائيل في قلب العالم العربي كان كذلك أيضاً ... ويمكن سوق أمثلة أخرى . بيد أن كل ذلك لم يكن في واقع الأمر إلا مظاهر لعملية « ثأر تاريخية » آتت أكلها تماماً . ولم يكن ثمة بالإمكان في عين الغرب أبدع مما كان . فقد انتهت الأحوال بعالم الإسلام إلى أن يصبح فعلاً جثة هامدة مقطعة الأوصال قد غرقت غرقاً تاماً في مشكلاتها النوعية ووصلت الأمور إلى حالة « تصعب » على الذات فضلاً عن الآخر نفسه . لكن هذه الجثة الهامدة تحولت فجأة، وعلى غير توقع، إلى « الإسلام السياسي »، أو إلى ما اسمته الآلة الإعلامية الغربية بـ « الأصولية » الإسلامية ، التي تحمل كل معالم العداء والكراهية للغرب . هكذا على الأقل تم تصويرها . ومنــذ أن تفجرت قوى هذه « الأصولية » لم تخرج الآلة الإعلامية الغربية عن ديدنها في تصوير هذه القوى بما هي أولاً وآخراً عدو الغرب وخصم لا يرحم لمصالحه الحالية والقابلة . وحفز الغرب الأنظمة السياسية العربية والإسلامية التي عبّرت فيها هذه القوى عن مطالبها على نحو متشدد متصلب على اقتلاعها دون رحمة . ولم ينظر أحد إلى مسألة سداد أوضاع هذه الأنظمة أو إلى فسادها في عملية « العلاج » واعتبر بعض المفكرين العرب أنفسهم أن انهيار بعض

النظم السياسية الفاسدة - ممن يكافح هذه القوى - يمثل كارثة عظمى . وتجاهل الجميع : الغرب ، والأنظمة السياسية المعطوبة ، وممثلو المشروع الغربي من المفكرين العرب والمسلمين ، مسألة الآفاق المسدودة في عالم الإسلام ، وأن هذه القوى ليست إلا الرد الطبيعي لحل هذه المسألة التي لا يقتضي حلها عمليات اجتثاث واستئصال تزيد من تأزم الأوضاع وتفاقهما بقدر ما يقتضي جهوداً في الإصلاح وفي الحوار فحسب .

والحقيقة أن ما يسمى بالإسلام السياسي - الذي هو وليد الأزمة الداخلية والخارجية ، والذي يمثل الغرب نفسه أحد بواعثه الأساسية - قد خرج من رحم الواقع وهو يحمل العداء لكل الذين تسببوا في قدومه إلى العالم . ولأن الأزمة شاملة لم ينج منها أي شبر من عالم الإسلام ، فإن هذا العالم قد استجاب بشكل تام استجابة مواتية لدعاوى القوى التي جسدت هذا « الإسلام » . وتشاء حركة التاريخ أن تحدث هذه الاستفاقة مع انهيار العالم الشيوعي ، فبدت الحياة التي راحت تدبّ في الجثة الهامدة منبهاً على نجوم قـــوة جديـــدة يمكن أن تنذر بالخطر ، فلم يكن حينذاك بدّ من هـــذه « المؤامرة » التي هي في حقيقة الأمر « استشعار بالخطر » يتطلب إجراءات احتياطية وتدابير وقائية تحول دون تحوّل هذه القوة المتحركة في الجسد الهامد إلى مارد جبار يعصف بكل ما أحرزه الغرب من انتصارات في القرون الأخيرة ويهدد مشروع الهيمنة الشاملة الذي استأنف وضع أسسه وقواعده ، فكان هذا القرار - « المؤامرة » الذي يعني في نهاية التحليل وضع عالم الإسلام تحت مزيد من المراقبة والضغط والحصار ، والحيلولة دون نجاح أي مشروع سياسي يهدف إلى خلق قوة كونية مناوئة أو مناهضة . ثمة حقيقة لا شك فيها وهي أن أي مشروع يلوح في ثناياه ما يشي بالقرابة لصيغة الإسلام التقابلي مع الغرب سيخضع في أي مكان في العالم لعمليات منظمة من التصفية الشاملة. ومن واجب أهل الإسلام أن يعوا وعياً تاماً هذه الحقيقة وأن يعيدوا النظر في طرائقهم في التفكير والعمل في الحقب القابلة من مستقبل الإسلام ، ومعنى ذلك أن عليهم إعادة صياغة مشروعهم الحضاري خارج آفاق التقابل الجذري المتصلب الذي لن يترتب عليه إلا تعاظم العداء الغربي لأية جهود إسلامية من أجل إعادة بناء عالم الإسلام وتشكيل مستقبله على نحو أفضل ، ومن أجل توجيه مستقبل الإنسان وحضارته توجيهاً أمثل .

٢ : ٣ ـ لكن هل يستطيع الإسلام اليوم وفي المستقبل المنظور أن يكون فعلاً بديلاً للمشروع الغربي ؟ وبتعبير آخـر هل يستطيع الإسلام أن يكـــون مقوّماً لحياة « الإنسان » وأساساً للحضارة الآتية في قابل الأيام ؟ إن جواب أي مسلم عن مثل هذا السؤال لا يمكن أن يداخله الشك ، ذلك أمر لا ريب فيه . ومع ذلك فإن الإجابة عنه على هذا النحو من شأنها أن تبسط الأمور تبسيطاً عظيماً .

فالحقيقة التي لا ينبغي أن نغفل عنها هي أن وضع السؤال وتقرير الإجابة يقعان كلاهما في الدائرة الأيديولوجية من الخطاب ، أي أنهما لا يكتسبان دلالتهما إلا في عين « المؤمن » ، وعلى مستوى المثال المعياري . فبديهي أن الإسلام قد جاء للبشر كافة وأنه يوجّه إلى إنسان تتوافر فيه مقومات الإنسانية المستندة إلى الإيمان ، المؤسسة على الخير الطامحة إلى السعادة ، في حضارة شاملة تقيم التوازن بين عمران الدنيا وخيرها وبين عمران الآخرة وخيرها . لكن ذلك كله بعناصره التفصيلية مرهون بالجماعة وبالمدينة الإسلاميتين غير المتحققتين واقعاً من وجه وغير المسلّم بهما ، من جانب (الآخر) ، من وجه آخر .

إن المخيال الجماعي الإسلامي يتصور أن الإنسان في الحضارة المركزية في العالم اليوم ، أعني الحضارة الغربية ، إنسان معطوب خاسر قد أفلتت منه السعادة ، يلفه الشقاء من كل جانب ويتلبسه اليأس ليل نهار ، وأن السبب في ذلك راجع إلى أنه انحرف بحضارته وغرق في المادية وأن طلب الدنيا أعمى بصره وبصيرته وأفسد روحه ووجوده، فلم يبق له من طريق في الخلاص إلا أن يتوجه إلى دين الإسلام .

لا شك أن ثمة وجهاً من الحق في مثل هذا المذهب . لكن بينه وبين بلوغ غاية القصد عقبات . فأولاً يقرّ الغرب بأن لحضارته مشكلات وأن إنسانه يعاني من أمور كثيرة تُقِضُّ مضجعه وتفسد عيشه ، لكن علماءه ومصلحيه ومفكريه وسياسييه يتنافسون في حلّ هذه المشكلات وإصلاح ذلك الفساد ، وهم لا يرون ، تمشياً مع منطق فكرهم وعيشهم ، أن الحل ينبغي أن يأتي من الخارج ، أي من ثقافات واعتقادات أخرى وبخاصة ثقافات « المغلوبين » واعتقاداتهم . وثانياً ترى المسيحية في الغرب أنها أحق من غيرها بأن تكون « وجهة » أبناء الغرب في إصلاح الإنسان والحضارة ، وهي تعتقد

أنها الأقدر على ذلك طالما أن الغرب هو بشكل من الأشكال « مسيحي » أو وليد المسيحية . وثالثاً لا بدّ للمثال الذي يمكن أن يُقتَدى به أن يكون في عين المقتدِي متحقّقاً في الواقع المشخص المباشر على نحو يدعو إلى الإعجاب والانبهار ويبعث فعلياً على الاقتداء وفق مبادىء التأثير والتأثر والتمثل والاستيعاب وغير ذلك من آليات التثاقف والتلقي العملية ، لا النظرية . وإذا كان « الأنموذج » الإسلامي الأصلي قد بهر فعلاً أرواحاً وعقولاً غربية كثيرة فإن علينا أن نقرّ بأن الأمر لم يرق إلى مرتبة « الظاهرة » الاجتماعيةأو الجماعية التي تؤذن بارتسام معالم تيار حقيقي يجري هذا المجرى . إن ما حدث في العقود الأخيرة من هذا القرن هو نقيض ذلك تماماً . فبعد أن كان الإسلام يمثل قوة جذب روحية هائلة أصبح مبعث نفور وإنكار عند قطاعات واسعة من أهل الغرب . وذلك لثلاثة أسباب على الأقل : أولها أن نموذج « الفرد » المشخص في بلدان الإسلام لا يثير في قيمه وأخلاقه وأنماط فكره وفعله الإعجاب كثيراً أو قليلاً . ثانيها يتمثل في اقتران الإسلام العملي بنظم اجتماعية وسياسية ودول « مدنية » حديثة تقوم أمثلة ساطعة لأسوأ ما يمكن أن تكون عليه النظم في عدائها للإنسان وقهرها له وإضرارها به . ثالثها تقدّم « الإسلام السياسي » وإطلاقه الدعوى بأنه التجسيد الحقيقي الواقعي لدين الإسلام في الحياة وتبنيه استراتيجية « تقابل » صريحة مع الغرب . وبإزاء هذه الوقائع الكبرى علينا ألا نتوقع أن تلقى دعوى المسلمين أنهم جديرون بتقديم حلول مناسبة لمشكلات الإنسان والحضارة نجاحاً كبيراً عند الغربيين على المدى المنظور . بكل تأكيد علينا أن نضع حدوداً بارزة قوية بين الإسلام وبين واقع المسلمين ـ والوقائع السابقة تحيل إلى الواقع لا إلى الأصل ـ لكن ليس علينا أن ننتظر من عقلية العصور الحديثة الغربية ، عقلية الدقة والصرامة والفاعلية والنجوع والتشخص ، أن تقوم بعمليات تسويغ لصالح المسلمين ودينهم فتبحث لهم عن الأعذار التي تفسر أو تسوغ الطلاق بين النظر والعمل في حياتهم ، أو أن تعترف بأن كثيراً من مصائب الإسلام والمسلمين في العصور الحديثة هي من انتاج الغرب وذنوبه ، فذلك كله أمر بعيد . ومن الطبيعي بعد ذلك أن يظل الغرب متعلقاً بدورته أو بمساره التاريخي الخاص به . ومساره الخاص به يفرض الاستمرار في طريق المعرفة والتقنية والسلطة والهيمنة ، لا يلتفت إلا إلى مقولاته وثقافاته الخاصة ومشاريعه الحضارية التي يطورها على الدوام . وفي مثل هذه الأحوال يبدو أي سؤال

عن دور الإسلام في إعادة بناء « الإنسان » والحضارة سؤالاً سابقاً لأوانه إن لم نقل انه سؤال في غير موضعه . فليس للإسلام حضور حقيقي اليوم خارج دوائر عالم الإسلام نفسه ، ولن يكون له بالتالي دور حقيقي على المدى المنظور خارج هذه الدوائر . إن المغلوب المقهور لا يستطيع أن يقدّم مشروعاً للغالب المسيطر . وواجبه الأول هو أن يحفظ نفسه من جور الغالب وغلبته . وفيما يتعلق بالإسلام والمسلمين لا بدّ من الإقرار بأنهم في وضع « الدفاع » الكامل ، وبأن أي دعوى يدعونها لأنفسهم بأن لديهم حلولاً شاملة حاسمة لآلام الإنسان وأمراض الحضارة ، هذا اليوم وفي الغد المنظور ، هي دعوى « مجانية » لا يمكن أن يصغي إليها أحد بجد واهتمام ولا معنى لها إلا في دائرتهم الحضارية الخاصة بهم . لقد تجاوز الغرب كل العوالم الأخرى وتفوقت حضارته على جميع الحضارات علوماً وفنوناً وآداباً وتقنيات وقوة . وبرغم عيوب هذه الحضارة وبرغم ما تولّده من عذابات للبشر فإنها تجهد في أن تحل هي نفسها مشكلاتها ومشكلات إنسانها . وهي لن تطلب من غيرها أن يقوم بإصلاحها أو تعديل مسارها . كما أنها لن تتخطى فيما يمكن أن تنشده عند الآخرين حدود الاستلهام الفولكلوري لبعض الوجوه الغريبة أو الطريفة الثقافية في هذه الحضارات ، إنها ستتابع السير في طريقها الخاص بها حتى النهاية ولا أحد يستطيع تحديد هذه النهاية . أما عالم الإسلام فليس عليه إلا أن يعود إلى (ذاته) ويعاود النظر فيها وفي القضايا والمشكلات جميعها التي تقع في حدود هذه الذات ، مما ألمعت إلى وجوهه الرئيسية هنا ، وذلك من أجل أن يعيد بناء قواه الذاتية ويحفظ نفسه من عوادي الأزمنة الحديثة ، ويوفر لنفسه جميع مقومات البقاء والاستمرار في الوجود ، وفق منطق الواقع المشخص وأحكامه ، لا وفق منطق المثال ودعاواه . واذا لم يفعل ذلك حقاً فإن أصواتاً كثيرة سترتفع لتقول إن نهاية تاريخه تلوح في الأفق ، أو أن مشيئة الله تتجه إلى أن تستبدل بأهله قوماً آخرين .

تأملات حول الإنسان ومستقبل الحضارة

الدكتور سيّد حسين نصر*

من أجل مناقشة أمور الإنسان ومستقبل الحضارة ، لا بدّ ، قبل كل شيء ، من طرح السؤال عن ماهية الإنسان وعما هو المقصود بالحضارة . وفي العالم المعاصر الآن ، وهو العالم الذي ظهر في الغرب وامتدّ بدرجات متفاوتة في أرجاء المعمورة كافة ، يُنظر إلى الإنسان على أنه كائن أرضي مستقل بذاته جاء نتيجة أحداث عارضة لعملية انتقاء طبيعي . ومن المفارقات أنه سيد مصيره ، على الأقل كما يراه أولئك الذين يعتقدون بحرية الإرادة ، كما أنه سيد الأرض والبيئة الطبيعية بأسرها غير المنازع . أما بالنسبة لكلمة حضارة Civilization فتستعمل في اللغة الإنجليزية بصيغة المفرد عادة لتعني الحضارة الغربية الحديثة التي أخذ يُنْظر إليها في الغرب منذ الفترة بين القرنين الثاني عشر والثامن عشر على أنها الحضارة الحقّة ، وهي الحضارة التي شرعت في التدمير والمحو المنظم للحضارات الأخرى جميعها بما فيها الحضارة الإسلامية . أما فيما يتعلق بالإنسان الحديث والحضارة الحديثة ، فلا حاجة بالمرء لأن يكون نبياً من أجل أن يتنبأ بأن لا مستقبل لأيٍّ منهما إذا استمرت الاتجاهات تسير وفق الخطوط التي نلاحظها في هذه الأيام . والواقع أنه ما لم يطرأ تغيّر جذري في تصوّر الإنسان الحديث لماهيته ولما تنطوي عليه الحضارة الحقيقية من مضامين ، فإن الحديث عن المستقبل بمعنى إيجابي لا يعدو كونه محض عواطف . ويَغُذُّ العالم الحديث الخُطى نحو هوّة خطرة قاتلة حتى وإن أطلق المؤيدون لذلك صفة التقدّم على هذه الحركة .

بيد أن التصوّر العصري للإنسان ليس بالتصور الوحيد الموجود ، كما لم تنجح الحضارة الحديثة ، رغم ادعاءاتها ، في أن تصبح عالمية وقادرة على إلحاق التدمير التام بالحضارات الأخرى . إذ ما زالت بعض البقايا التي تعود إلى الحضارات التقليدية الأخرى موجـــودة ولا سيما الحضارة الإسلامية التي تمثّل ـ لهذا السبب ـ أعظم تحد ، بمجـــرد وجودها ، لمزاعـــم الحضارة الحديثـــة أنها ممسكة بزمام السّيادة في العالـــم .

* العضو العامل في المجمع الملكي / أستاذ الدراسات الإسلامية ـ جامعة جورج واشنطن ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

ولم يطو النسيانُ الكاملُ المفهومَ الإسلامي للإنسان رغم تجاوزات مختلف ضروب العصرانية والعلمانية ودخولها إلى العالم الإسلامي بالذات . ولهذا السبب تحديداً ، فإن لمسألة الإنسان ومستقبل الحضارة بُعْداً إسلامياً منفصلاً ، الأمر الذي يجب أن يحمل على محمل الجد في أي تفكير عالمي حول المستقبل .

ومن نافلة القول ، من وجهة نظر إسلامية ، أن دراسة المستقبل نفسه تقوم على اعتبارات مختلفة جداً عما يجده المرء في توقعات علماء المستقبليات في العالم الحديث . وقد استبعدت غالبية هؤلاء العلماء أيّ أثر لله في التاريخ الإنساني . إنهم يدرسون المستقبل على أساس استقراءات للاتجاهات الحديثة سكانية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو بيئية . وهذا الأمر على العكس من ذلك بالنسبة للإسلام ، إذ إن دراسة المستقبل مشروطة دائماً بالوعي بوجود المشيئة الإلهية في كل لحظة من لحظات الحياة البشرية والعصور التاريخية . ولا بدّ أن ترافق عبارة « إن شاء الله » كل قالة عن المستقبل وهي عبارة تتخلل أوجه نشاط الحياة اليومية جميعها لأتقياء المسلمين جميعهم من المهد إلى اللحد . كذلك فإنه في وسع المسلمين جميعهم النظر بابتسامة إلى المشاهد (السيناريوهات) المتعلقة بالمستقبل وهي التي تتسم هذه الأيام بإشارة إلى سجل مشاهد كهذه قدمها علماء الاجتماع والجماعات الأخرى من المفكرين والعلماء أثناء القرن الماضي . وما أشدّ اختلاف عالم اليوم عما توقعه علماء المستقبل لأية حقبة سابقة حاولوا التنبؤ بها ! ومن المؤكد أن في وسع الموقف أو الاتجاه الإسلامي إزاء المستقبل ، وهو الموقف والاتجاه القائم على الاستعانة بالحضور بالغ الأهمية للمشيئة الإلهية وظهور عناصر لا يمكن التنبؤ بها على مسرح التاريخ ، أن يقوم على قاعدته الخاصة دون الحاجة إلى الشعور بالتهديد من جانب أية دراسة مستقبلية لا أدرية ترى في الإنسان وفي قوى الطبيعة العمياء الممثلين الوحيدين على مسرح التاريخ العالمي .

ولننتقل بإيجاز إلى المفهوم الإسلامي للإنسان والحضارة قبل مناقشة مستقبلها من وجهتي نظر إسلامية وعصرية . ويأتي تلخيص النظرية أو العقيدة الإسلامية حول الإنسان الذي يعني الذكور والإناث على حد سواء ، وذلك في الوصف القرآني للإنسان بصفته عبدالله وخليفته . ومن طبيعة الإنسان بحكم فطرته أن يكون سلبياً

أو منفصلاً أي واقعاً تحت تأثير الفعل بالمقارنة مع الله ، وأن يكون متلقّياً لبركاته تعالى ونعمه ، وأن يكون مسرحاً لتجلّي أسماء الله وصفاته جميعها ، نشطاً في مواجهته للعالم بوصفه ممثل الله لدى مخلوقاته . وهكذا فالإنسان هو المحور الذي يربط السماء بالأرض ويستطيع ممارسة القوة على المخلوقات ، إلاّ أن عليه أيضاً العناية بالمخلوقات جميعها التي هي في النهاية مخلوقات الله لا مخلوقات الإنسان . وهكذا تنشأ مسؤولية إزاء الله والخلق تتقدم على الحقوق التي يستطيع الإنسان التمتع بها بحكم كونه إنساناً .

ولكن استناداً إلى كونه إنساناً فإن لهذا المخلوق الفريد حرية الانتقاض على الله بل المطالبة بممارسة خلافة الله بينما ينسى حالته التي هي حالة عبوديّة . وهذا هو السبب في أنه بينما خُلِق ﴿ **في أحسن تقويم** ﴾ يُرَدّ إلى وضع يكون فيه ﴿ **أسفل سافلين** ﴾ كما جاء في القرآن الكريم(١) . وكما يقول بعض الصوفية مشيرين بصورة رمزية إلى أصل كلمة « إنسان » في اللغة العربية ، فإنه عندما خلق الله الإنسان سمّاه بهذا الاسم بسبب أنسه بهذا المخلوق الجديد الذي نفخ فيه من روحه . ولكن بعد سقوط آدم من حالة الكمال في الجنة تعرضت فطرة الإنسان الأولى للنسيان التدريجي من خلال الغفلة لكنه ظل يسمى إنساناً ، غير أن سبب اسمه هذا يعود إلى ما أصيب به من آفة النسيان وليس بسبب أنس الله به . تلك هي الناحية الموجودة في الإنسان التي أخذت تسبب الفساد في الأرض وتتطلب وجود الدين لممارسة الضبط والسيطرة .

وفي المنظور الإسلامي ، فإن الحضارة الحقّة هي التي تطلب إلى الإنسان في مظاهر الحياة كافة أن يتذكر الله ويتذكر فطرته هو بحيث يستطيع أداء دور خليفة الله ، وهو الدور الذي وجد فيه على هذه الأرض . ويتم الحكم على عظمة أيّة حضارة بل على أصالتها بالدرجة التي تستطيع معها توفير جوّ للبشر ذكوراً وإناثاً من أجل إدراك الهدف من الحياة الإنسانية ألا وهو عبادة الله والقيام بدور خليفته بين مخلوقاته ، وليس بناء على ما استطاعت وسائل النقل أو الأدوات البارعة التي تمكنت الحضارة من خلقها أو المدة التي استطاعت إضافتها لإطالة أعمار أبنائها في الحياة الدنيا . والقرآن حافل بأمثلة على شعوب وحضارات أصابها الدمار بسبب مجافاتها للعدالة والأخلاق وما اعترى أديانها من فساد ، لا بسبب عجزها عن بناء السدود والطرق . ويجب أن

(١) التين : ٤ - ٥ .

تستند قيمة أية حضارة من وجهة نظر إسلامية إلى مقدار تحقيق الهدف النهائي من وجود الإنسان على الأرض وليس إلى أي مقياس آخر . أما أي خير تنطوي عليه حضارة تقوم على نسيان مَنْ هو الإنسان حقيقة ولأي غرض خلق ، فهو خير عارض بينما الشر عنصر جوهري في هذه الحضارة . وعلى العكس من ذلك فإن الشرّ الملاحظ في حضارة تستند إلى الهدف الرئيسي للمهمة الروحية والكونية للإنسان شرّ عابر بينما لا يمكن أن يكون جوهر تلك الحضارة إلا منطوياً على الخير .

وخلال القرنين الماضيين أدّى هجوم الغرب الحديث إلى تدمير الكثير من الحضارة الإسلامية وإن لم يدمّرها بكاملها . لكن الدين الإسلامي الذي أوجد هذه الحضارة ، وهي واحدة من أعظم ما عرفه التاريخ البشري برمّته ، بقي لحسن الحظ قوياً ويسعى الآن إلى تأكيد تفوقه ولو إلى حدّ ما على الأقل في ميدان الثقافة والمدنية حيث جرى تهميشه بعض الشيء خلال الحقبة الأخيرة من التاريخ الإسلامي . غير أنه نتيجة للتحدّيات التي فرضها الغرب ظهرت ردود فعل متنوعة داخل العالم الإسلامي ليس فقط تجاه الحضارة الغربية بطابعها المسيطر والسائد ، بل تجاه الحضارة الإسلامية ذاتها . ولا بد من تحليل بعض ردود الفعل هـذه ولو بإيجاز قبل الحديث عن مستقبـل الحضارة إسلامية كانت أو حديثة .

عندما أدرك بعض المسلمين التفوق المادي للغرب وسيطرته العسكرية السياسية المستمرة في تعاظمها على العالم الإسلامي ابتداءً من نهاية القرن الثاني عشر مروراً بالقرن الثامن عشر وما بعده ، أخذ هؤلاء المسلمون يفقدون الثقة في مؤسساتهم وحضارتهم . ومع أنهم لا يزالون يعدّون أنفسهم مسلمين في العادة ، فإن مزاج الغرب الحديث وروحه هما المسيطران على نظرتهم للأمور في الواقع . وقد حاول بعض هؤلاء العصرانيين المسلمين تبنّي الطرائق العصرية ، الأمر الذي يعني التغرّب ، في مظاهر الحضارة جميعها من التعليم وحتى الموسيقى مع الاحتفاظ بالعقيدة والطقوس الإسلامية، بينما حاولت فئة أخرى من العصرانيين تحديث الدين نفسه وإن كان ذلك دون نجاح يذكر . بيد أن الفئتين اتفقتا في تنديدهما بما تبقّى من الحضارة الإسلامية . فأخذتا تقلدان الغرب في اللباس وفن العمارة والتخطيط الحضري والأدب والموسيقى والتربية والتعليم ومعظم الأمور الأخرى من مكوّنات الحضارة . أما على الصعيد الفكري والعقلي البحت

الذي يُعدّ أيضاً عنصراً أساسياً في أية حضارة فقد سار هؤلاء على المنوال نفسه مسارعين إلى محاكاة الفكر الغربي . بل تبنّوا ما ظهر من أفكار غربية بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر كالتقدمية إلى حدّ أنهم حتى في يومنا هذا لا يزالون أكبر أنصار هذه التقدمية إلى جانب الشرقيين العصرانيين الآخرين وذلك رغم أن فكرة التقدمية فقدت أنصارها المخلصين جميعهم في الدوائر الفكرية الغربية نفسها .

وكفئة معارضة للعصرانيين هؤلاء ، ظهرت جماعة من المصلحين العقلانيين المتزمتين الذين رفعوا لواء المعارضة للغرب لكنهم وقفوا أيضاً موقف عدم المبالاة أو موقف المعارضة لكثير من عناصر الحضارة الإسلامية . ومع أنهم تحلّوا بفضيلة دعم نشر الشريعة ، فإنهم عارضوا الكثير من المكونات الفكرية والروحية الإسلامية التي ظهرت إلى الوجود عبر القرون ، وبذلك أوجدوا فراغاً سهّل تغلغل أفكار شديدة المناوأة للإسلام إلى قلب العالم الإسلامي . كذلك فقد اتخذوا موقف المعارضة أو ربما الرفض القاطع للفنون الإسلامية والنظم والمؤسسات التي أضفى عليها الإسلام طابع قِيمه واتخذ منها وسائل لخلق حضارته .

وقد تمخضت هذه العملية عن اتفاق القوتين المتعارضتين العصرانية والمتزمتة في رفضهما أو انتقادهما لكثير من مظاهر الحضارة الإسلامية ، الأمر الذي عاد على تلك الحضارة بالويلات ، ولذا فقد تعرض الكثير من تلك الحضارة للدمار أو لأن تُستَبْدَلَ به عمليات مضاهاة للحضارة الغربية الحديثة بعيدة عن الأصالة . وأخذ المثقفون المسلمون المحدّثون يتوحدون مع حضارة الغرب في ذاتها سائرين بذلك على الخطوات الحمقى للموسوعيين الفرنسيين . وأصبحت أكثر مظاهر الحياة الإسلامية خصوصية ابتداءً من اللباس وانتهاء بزخرفة البيوت غربيّة السِمات كما حدث لكثير من عناصر فن البناء بل للمناطق السكنية في كثير من المدن الإسلامية أو أحيائها الجديدة على الأقل . وحتى أوزان الشعر العربي والفارسي اصابها التحول على أيدي بعض الشعراء الحديثين لتتواءم مع الأساليب السائدة في الغرب الحديث ناهيك عن محتوى أدبيات كهذه التي يعد قسط كبير منها غريباً كل الغربة عن جماهير المسلمين التي حافظت إلى يوم الناس هذا على إحساساتها الإسلامية التقليدية . وينطبق القول ذاته على الفنون الأخرى كالرسم والموسيقى التي يبدو الطابع الغربي بوضوح في الكثير من نواحيها .

أما من الناحية الفكرية فقد أُنشئت النظم التربوية وفق نماذج غربية متنوعة في مختلف الأقطار الإسلامية وذلك حسب أحداث التاريخ الاستعماري أو حتى ما بعد الاستعماري . وقد نجحت هذه النظم القائمة على فلسفة وأهداف تختلف كثيراً عن الفلسفة والأهداف الإسلامية ، في تدريب بعض المسلمين على العلوم والتكنولوجيا الحديثة، لكنها خلقت شرخاً عميقاً في غالبية المجتمعات الإسلامية التي أصبحت تواجه الآن نتاج نظامين تربويين شديدي الاختلاف . وكان العديد من النظم التربوية الحديثة في العالم الإسلامي ولا يزال معاقل ، إمّا للمسيحية بعد أن أصبحت متأثرة بالعصرانية والعلمانية ، أو للدين الزائف دين الفلسفة الإنسانية والعلمانية بالذات . وبناء على ذلك فقد ضربت ، رغم دورها الإيجابي في مجالات معيّنة ، بسهم وافر في إضعاف الحضارة الإسلامية ولا سيما في غياب رد فعل إسلامي قويّ إزاء انقاض الأفكار والعلوم والتكنولوجيا الحديثة حتى وقت قريب ، وذلك نتيجة للاضمحلال الفكري الذي اعترى العالم الإسلامي أثناء القرنين الماضيين . والواقع أن ردّة الفعل (الإسلامي) هذه لم تحدث في النهاية إلا في العقود القليلة المنصرمة بينما حاولت السلطات الإسلامية في مختلف أصقاع العالم الإسلامي « إصلاح » نظمها التربوية القائمة وذلك بأسلوب إسلامي أصيل .

وفي الوقت الذي كانت تسود فيه - ولا تزال - هذه القوى جميعها التي تحرّض على إضعاف الحضارة الإسلامية ، فقد واصل الإسلام من جانبه مقاومة هجمة الحضارة الحديثة من ناحية ، ودعم الحضارة الإسلامية التقليدية (أو السَّلَفيّة) على الصعد جميعها فكرية كانت أو مادّية من ناحية أخرى . والواقع ، أنه لولا أن الإسلام التقليدي أو السَّلَفي كما وجد عبر القرون ظل موجوداً خلال القرنين الماضيين ، لما بقي من الحضارة الإسلامية ما يمكن الاحتفاظ به أو إحياؤه في الوقت الحاضر . أما ما تبقّى من الحضارة الإسلامية أثناء القرنين الماضيين ابتداءً من فن الخط وانتهاء بحياكة السجّاد ، وابتداء من الشعر ومروراً بالعلوم الدينية والفلسفة والعلوم التقليدية الأخرى ، فيرجع الفضل فيه إلى أولئك الرجال والنسوة الذين واصلوا العيش وسط الجوّ الإسلامي التقليدي وقاوموا محاولات تدميره سواء جاءت على أيدي العصرانيين الذين أرادوا استبدال الحضارة الحديثة به أو على أيدي المصلحين المتزمتين الذين أرادوا أن يحصروا اهتمامات الإسلام في ميدان الشريعة الإلهية غير مكترثين بالكثير من الحضارة الإسلامية التقليدية أومحاولين معارضتها معارضة صريحة نشطة .

وفي معرض الحديث عن الإنسان ومستقبل الحضارة في العالم الإسلامي ، لا مندوحة لنا عن وضع هذه الحقيقة التاريخية مدوّنة باختصار نصب أعيننا . وخلال العقود القليلة الأخيرة أخذت أعداد متزايدة من المسلمين ، بمن فيهم كثيرون مِمّن تلقوا تعليمهم في الغرب ، تناصر الحضارة الإسلامية بمختلف مظاهرها وتزداد إدراكاً باستمرار إفلاس الحضارة العصرية . وعلاوة على ذلك فقد بدأت تعاليم الدين الإسلامي نفسه ، لا سيما فيما يتعلق بمعنى كون الإنسان إنساناً ، تنتعش في أوساط عديدة . وفي ضوء الحالة الراهنة للحضارة العصرية والوضع القائم في العالم الإسلامي ، يجب أن تتم أية مناقشة لمستقبل الحضارة .

أما من ناحية الحضارة الحديثة أو العصرية التي بلغ الأمر ببعض الناس أن يسموّها ما بعد العصرية ، فلا معدى لنا عن إدراك أن هذه الحضارة تقوم على الإنسان الدنيوي المحض الذي لن يتعدّى « مستقبله » فترة هذه الحياة الدنيا ولن يتجاوز « غَدُهُ » حدودَ الزمن التاريخي . وأما هذه الحضارة التي حصرت الدين المسيحي وهمّشته من ناحية عملية ، وهو الدين المرتكز على مفهوم الإنسان ككائن مخلّد مخلوق ومسؤول أمام الله، فقد وقعت ونشطت بين ثلاث عمليات مختلفة لكنها مترابطة : الأولى هي التدمير النهائي للحضارات الأخرى جميعها بما فيها الحضارة الإسلامية ، باسم النظام العالمي القائم بصورة كاملة على الفكر أو المزاج الغربي الحديث ، والثانية تدمير البيئة الطبيعية من خلال تطبيق تكنولوجيا مقترنة بجشع غير محدود لمجتمع بشري بعيد عن المثل العليا جميعها للزهد ومجانبة الشهوات ، والثالثة هي انحلال هذه الحضارة نفسها من الداخل وكتابة الفصل الأخير في قصة دمار ما تبقى من الأخلاقيات المسيحية التي قدمت النسيج الخلقي للمجتمع الغربي حتى وقت قريب رغم تهميش المسيحية وإبعادها عن الكثير من مجالات الحياة الحديثة . ولا حاجة بالمرء لقدر وفير من عمق الإدراك ليلاحظ بوضوح نتائج هذه العمليات الثلاث جميعها وهي تسير متزامنة . أما الأمر الأكثر صعوبة فهو التنبّوء من وجهة النظر الإنسانية بالعملية التي ستنتهي قبل غيرها ، وكل ما يملك المرء أن يقوله كمسلم إن الكلمة الأخيرة لله ، والله أعلم .

وفي الوقت ذاته ، فإن الإسلام كدين وكحضارة ما يزال حيّاً ولا سيما فيما يتعلق بتعاليمه الدينية . ولذا فإن المفهوم أو التصوّر الإسلامي التقليدي القائم على أن الإنسان عبد الله وخليفة الله في آن واحد ما يزال إلى حدّ بعيد جداً حقيقة حيّة عند المسلمين ، وعلى الأقل بين تلك القطاعات من المجتمع الغربي التي تفرز وتديم المنظومة التي تسيطر على الحضارة الحديثة . وهذه ميزة بالغة الأهمية لأنها توفّر القوى الدينية والروحية اللازمة لخلق وإدامة أية حضارة جديرة بهذا الاسم ، وهي القوى التي دونها تتحول الحضارة إلى بربرية أشد خطورة بكثير من البربريات القديمة التي لم تستطع أو - على الأقل - لم ترغب في تدمير البيئة والمحيطات .

أما بالنسبة للمسلمين فلا بدّ قبل كل شيء من أن تتوافر الإرادة للحفاظ ليس على دينهم فقط بل كذلك على الحضارة الإسلامية التي ورثوها والتي يجب أن يضيفوا إليها فصلاً جديداً كما فعل أجدادهم في الماضي ، وهو فصل يأخذ في الحسبان جميع ما يواجهه العالم الإسلامي من تحدّيات . وعلى أي حال يجب أن لا ينخدعوا فتستهويهم فكرة حضارة عالمية مشوشة لا يمكن أن تكون في أفضل الأحوال سوى مجرد عامل مشترك بين مختلف الحضارات ، وفي أسوأ الأحوال المرحلة الأخيرة في دمار الحضارات جميعها عدا الغربية بعد خمسة قرون من التوسع الأوروبي في أرجاء هذا العالم . وواقع الأمر أن صون حضارة إسلامية حيّة واستمرارها لا يمكن إلاّ أن يُثري الإنسانية جمعاء ويقدّم يد العون المباشر إلى أولئك الغربيين الذين يدركون أن حضارتهم القائمة ومنظومتها المسيطرة مصابتان بمرض الموت ، وأن لا مناص من اتخاذ نظرة جديدة تجاه العالم إذا أُريد أن تتاح للبشرية ولو فرصة البقاء الجسدي .

وبعد هذه المهمة الأوّلية ، على المسلمين أن يدركوا خطورة الأزمة البيئية التي تسببت فيها الحضارة الحديثة ، وهي أزمة لا يتمثل إشهارها في انها مجرّد حيلة غربية لبسط مزيد من السيطرة على الأمم الأخرى بل على أنها أزمة حقيقية إلى درجة مفزعة . وإذا ما أريد أن يكون ثمة أي مستقبل للحضارة ، فلا مندوحة للبشر عن التعايش بانسجام مع مخلوقات الله وليس استلاب الطبيعة في محاولة إرضاء قصيرة النظر لرغبات دنيوية لا حدّ لها . لقد انتج الإسلام حضارة عظيمة عاشت في وئام مع الطبيعة.

ولا مفرّ من إعادة تنشيط العلوم والتكنولوجيا الإسلامية والفلسفة المتعلّقة بالطبيعة وغرسها في أنظمتنا التربوية كضرورة لا غنى عنها للحضارة الإسلامية في المستقبل ، هذه العلوم والفلسفة الطبيعية الإسلامية التي ينساها الكثيرون ممن يُسمّون بأنصار الفكر الإسلامي الحديث . ومن دونها فإن التقليد الأعمى للعلوم والتكنولوجيا الغربية وتبنّيها دون رويّة لا يمكن إلا أن يساعد في عملية تدمير البيئة الطبيعية ، الأمر الذي أشغل الحضارة الغربية قروناً عديدة ولا يمكن أن يؤدي إلى أيّ مستقبل (مشرق) مهما كان نوعه .

وقصارى القول ، فإنه إذا أراد المسلمون الحديث عن أي مستقبل للحضارة ، لا بدّ لهم من أن يتفهموا بعمق ويقيّموا بدقة الحضارة الحديثة بناء على المبادىء الإسلامية . ومن دون اتخاذ هذا الموقف والاتجاه الناقد لن يكون في وسع المسلمين الحفاظ على حضارتهم والتفاعل بصورة إيجابية وخلاقة مع الحضارة الحديثة بدلاً من اقتصارهم على دور المتلقّي الخانع أو إن شئت فقل : الخادم المطيع .

لقد زُوِّد المسلمون بالإمكانات الروحيّة من خلال التنزيل القرآني للمحافظة - إلى آخر الزمان - على رسالة وحدانية الله والنظر إلى الطبيعة الإنسانية على أساس عقيدة التوحيد. وفي هذه اللحظة العصيبة الحاسمة في التاريخ الإسلامي بل في التاريخ العالمي تجب المجاهرة بصوت عال وواضح بالنظرية وبالعقيدة الإسلامية من حيث علاقتها بالإنسان وصون تلك الحضارة واستمراريتها بناء على ذلك ، وهي الحضارة التي قامت دائماً على تمجيد جلال الله الأوحد وروعته ، ودور الإنسان كخادم وخليفة له على الأرض .

وإذا ما قدّر للحضارة أيّ مستقبل فلا مفرّ من أن يرتكز ذلك على هذا التصوّر للإنسان ، وهو التصور الذي لا يعرف ماضياً ولا حاضراً بحكم ديمومته . وأنه يصدق على كل زمان ومكان . ودون الفهم الصحيح للإنسان لا يمكن أن يكون ثمة مستقبل لأية حضارة كما يوضح ذلك بجلاء ما تعانيه الحضارة الحديثة من تفسخ . ومن واجب كل مسلم أن يجاهد للحفاظ على الإسلام وعلى الحضارة العظيمة التي أوجدها هذا الدين ، الحضارة التي عكست وردّدت أصداء رسالة الله ونبيّه عبر العصور وفي أصقاع تمتد من شرق المعمورة إلى غربها ، أما واجب حمل لواء هذا الجهاد في ظروف عصيبة كهذه فيقع على عاتقنا . وأما نتائجه فهي بيد الله الذي يعلم دون غيره المستقبل وما اتخذه - سبحانه - من قرار حول مصيرنا ومصير الحضارة الإسلامية والإنسانية جمعاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

افكار وخواطر حول الإسهامات التي يمكن أن يقدمها العالم الإسلامي ونحن على اعتاب نظام عالمي جديد

الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو*

لقد أصبح القرن العشرون مسرحاً لابتكارات وتطورات عديدة في مجال العلم والتكنولوجيا تعدل ما أنجزته البشرية في تاريخها من قبل . كما تميز القرن العشرون بميزة أخرى غير ذلك ، وهي ما نلحظه في الأيديولوجيات والتغيرات السريعة التي نشهدها عند تطبيقها على الحياة اليومية . ولعل أكثر ما يلفت النظر بين هذه التغيرات ولم نشهد مثله في التاريخ هو أن التطورات الأيديولوجية والسياسية والاقتصادية الضخمة التي ظهرت في القرن التاسع عشر قد وجدت فرصتها للتطبيق في مجالات الحياة من خلال أنماط الحكم المختلفة في القرن الذي نعيشه الآن ، ثم لم تلبث أن انهارت في القرن ذاته وبعد فترة وجيزة تكاد تكون قدر « طرفة عين » في مجرى التاريخ . والنظام العالمي الذي ظهر من خلال دخول هذه الايديولوجيات ونظم الحكم في تركيبات الدول قد استمر ما يربو على نصف قرن ثم لم يلبث أن انهار مع انهيار الأيديولوجيات نفسها ، وشرع يترك مكانه لنظام آخر جديد . وهذا يعني أنه في الوقت الذي بُذلت فيه الجهود للوصول إلى نقطة توازن في العلاقات القائمة بين الدول من خلال نظام عالمي، أو للعمل على صيانة ذلك التوازن ، انهار كل شيء مع انهيار العناصر التي أقامت هذا النظام، وبدأت عملية البحث عن نظام جديد وتوازن جديد ينبثق عنه . وليس من المستبعد إزاء تغير سريع على هذا النحو واقامة نظم حكم قومية ودولية ثم انهيارها أن يمهد ذلك كله السبيل لنزاعات وأزمات عالمية لن تقتصر على المناطق والمجموعات القومية التي شملتها تلك التغيرات وحدها ، بل سوف تتعدى ذلك لتصيب العالم بأسره وتهدد البشرية بأجمعها . والواقع أن ذلك قد حدث بالفعل في هذا العصر . وأمل كل أنسان يفكر في الإنسانية ومستقبلها ويشعر بالقلق تجاهها أن تكون الأزمة التي يعيشها العالم إرهاصات

* العضو العامل في المجمع الملكي / المدير العام لمركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية - استنبول - تركيا .

لمرحلة انتقال نحو نظام عالمي أفضل ينعم فيه الناس بالسلم والاستقرار . وسوف نحاول هنا أن نتعرض للتدابير والجهود التي يمكن القيام بها على هدي من الفكر الإسلامي حتى يمكننا أن نفهم تلك الأزمة ونخفف من حدة هذه الإرهاصات ونواجه المستقبل آمنين مطمئنين .

المشكلات التي تواجهنا ونحن على أعتاب نظام عالمي جديد :

يجب علينا قبل كل شيء أن نعي جيداً حجم الأزمة التي تواجهها الحضارة ، ويمكننا أن نتناول الأزمة الحالية على مستويين أساسيين حتى يتضح لنا ذلك الأمر ، الأول يأتي من خلال العلاقات القائمة بين الناس ، أما الثاني فهو من خلال العلاقة القائمة بين الناس والكون ، وهما أيضاً يرتبطان أحدهم بالآخر .

لقد رأينا الإنسان منذ ظهوره على وجه الأرض وهو يعمل على تشييد الحضارات ثم لا يلبث بعد ذلك أن يسعى إلى خرابها ، فالإنسان في كثير من الأحوال هو الذي هدم نظم الحياة في المجتمعات التي أقامها هو بنفسه بسبب أنانيته وطمعه . ونعلم جميعاً أن الأيديولوجيات السياسية والفلسفات الاجتماعية التي قامت عليها حضارات التاريخ وشكلت نظم الإدارة في المجتمعات هي نفسها التي كانت سبباً في هدم تلك الحضارات وتقويض تلك النظم ؛ إذ نعلم على سبيل المثال أن نظام الرق هو الذي قامت عليه الأسس الإدارية والاقتصادية في الإمبراطورية الرومانية ، وأن هذه الحضارة قد انهارت بسبب نظام الرق نفسه ، كما نعلم أن الحضارة المصرية القديمة لم تضعف في أواخر عهودها إلا لأنها استخفت بالعمل اليدوي المنتج وهَوّنت من شأنه . وهذه الأمثلة يمكن لنا أن نتذكر منها الكثير . ويوجد عامل آخر كان سبباً في إضعاف الحضارات، ألا وهو عامل الدين. فإذا نظرنا من هذه الزاوية فإننا نرى أن مثل هذه العناصر الهدّامة ما زالت تعمل عملها حتى اليوم مثلما عملت على امتداد التاريخ . ويمكننا أن نلخص هذه العناصر من خلال أربعة أصعدة ، دينية وسياسية واقتصادية وثقافية .

أ - **فعلى صعيد الاعتقاد الديني** ، نرى في العديد من الأمثلة ، في الماضي وفي الحاضر ، أن فهم الدين وتطبيقه بطريقة صارمة كان سبباً في تحقيق بعض الفوائد ، كما جلب - إلى جانب ذلك - بعض الأضرار والمشكلات . وقد كان فهم الدين على ذلك النحو هو الأمر الذي حال دون أن تتفهم المجتمعات الأديان الأخرى وتتدارسها بشكل موضوعي حتى يمكنها أن تعي دينها بشكل أفضل وتدرك مكانته بين الأديان

الأخرى . وحتى عندما حدث ذلك إنما كان اعتماداً على أفكار وأحكام مسبقة . وهو أمر ينسحب على الأديان كافة ، إذ نشهد اليوم ـ كما شهدنا على امتداد التاريخ ـ أن أهل الديانات الأخرى نظروا إلى الإسلام هذه النظرة ، وشهدنا الانطباعات الخاطئة التي أسفرت عنها والعداوات التي جاءت معها ، ويوجد عامل آخر كان وراء ضعف الحضارات وانهيارها ، ألا وهو استغلال الدين لتحقيق مآرب سياسية ، واستخدامه لحماية مصالح زمرة أو فئة معينة . كذلك فإن التفسير المغرض لمبادىء الدين قد ساعد على استشراء السحر والشعوذة ، وحال دون تقدم العلم ، بل جعل المجتمعات تنقسم على نفسها ، مما أسفر عن مشكلات اجتماعية وفكرية . ولم ينج العالم الإسلامي هو الآخر من ذلك كله . فإن قلة العلم والفروق الواضحة في فهم وتفسير الدين من شتى معتنقيه داخل العالم الإسلامي وخارجه فضلاً عن فهمهم غير الصحيح للأديان الأخرى من الأمور التي ما زالت تخلق العديد من المشكلات .

ب ـ وعلى الصعيد السياسي والإداري فالمعـــــروف أن أوروبا وأمريكا بـدأت بنظامها الرأسمالي تسيطر على النظام الاقتصادي العالمي تدريجياً نتيجة للانقلاب الصناعي الذي بدأ في أواسط القرن التاسع عشر حتى تحوّلت تلك الدول إلى مراكز لانتاج العلم والتكنولوجيا . كما رأينا كذلك أن الفكر الشيوعي الذي ظهر مع الانقلاب الصناعي بدأ تطبيقه في بداية هذا القرن كشكل للحكم ونظام للدولة ، واستمر يواصل وجوده على المستوى الفكري أيضاً لما يقرب من قرن ونصف . وهذان النظامان المتناقضان اللذان ظهرا في أواسط القرن الماضي وتطورا متوازيين قد مهّدا السبيل لإقامة نظام عالمي ذي قطبين يعتمد على عملية التوازن في تهديد القوى . وكان لكل قطب منهما مراكزه التي تقود حركة تقدمه في مجال العلم والتكنولوجيا . حتى لقد صغر حجم العالم أمام التطورات التي حدثت في وسائل الاتصالات ، وهذا الامر هو الذي زاد من إمكانات الدول المسيطرة على تقنيات الاتصال في التحكم في العالم والتأثير فيه . أما الدول التي أقيمت حديثاً بعد تحررها من الاستعمار الطويل ومن بينها الدول الإسلامية فقد وجدت نفسها خارجة عن نطاق ذلك النظام ، تسعى جاهدة للنهوض والبحث عن مكان لها داخل النظام الاقتصادي والسياسي العالمي تحت اسم « دول نامية » أو « دول العالم الثالث » .

غير أن انهيار النظم الشيوعية ابتداء من عام ١٩٩٠م قد فتح الباب لظهور تحولات ضخمة وسريعة . فبدأت تتغير خريطة العالم السياسية ، ودخل البناء الاجتماعي الاقتصادي كله في مرحلة من البحث والتغيير . فكما رأينا كيف غيّر الانقلاب الصناعي وجه العالم في القرن الماضي ، نرى اليوم أيضاً عصر المعلومات وهو يعمل عمله لتغيير العالم بالقدر نفسه . والتغيير يشمل المراكز السياسية الاقتصادية نفسها كما يشمل التركيبة العالمية أيضاً بتأثير من تلك المراكز . وعندما ننظر الى الاختلاطات والاضطرابات والازمات التي خلّفتها التطورات الواقعة بعد عام ١٩٩٠م نرى أن البحث عن نظام جديد لا يزال مستمراً . كما أن هناك في مختلف بقاع العالم عمليات ولادة وتشكُّل لا تزال مستمرة . وقد رأينا مع انهيار المعسكر الشيوعي أن دول البلطيق ودول شرق اوروبا والبلقان قد غيرت نظمها السياسية ، وانهارت يوغسلافيا ، وظهرت دول اسلامية جديدة على انقاض الاتحاد السوفيتي القديم . غير أننا لم نشهد دولة واحدة من كل هذه الدول استطاعت أن تستقر وتضع لنفسها نظاماً ثابتاً حتى الآن . فالحرب في البوسنة والهرسك ، والاحداث الجارية في اذربيجان إنما هي أمثلة حية على عملية البحث عن الذات ومحاولة لتجاوز المرحلة الانتقالية .

وعندما ننظر الى العالم الإسلامي في إطاره العام نرى أن التغيرات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية قد أثرت أكثر على الشعوب المسلمة في الشرق الأوسط وافريقيا ومهدت السبيل لحصولها على استقلالها ، أما التغيرات التي جاءت بعد عام ١٩٩٠م فقد وقع تأثيرها على الدول الموجودة جغرافياً في الشمال ، أي على الدول المسلمة التي كانت تسير من خلال النظام العالمي السابق في فلك المعسكر الشرقي . وهذا كله يضع أيدينا على واحد من الأسباب الرئيسية للأزمة التي تواجهها البشرية في الظروف الراهنة، حيث نعيش مرحلة انتقال إلى نظام عالمي جديد . وفي الاسس الايديولوجية للنظام العالمي الذي قام في الربع الاول من القرن العشرين وبلغ بعد الحــــرب العالمية الثانية نقطة من التوازن عُرفت بالحرب الباردة لم تكن العناصر الدينية والثقافية هي العوامل المؤثرة . وسواء في الرأسمالية أو في الشيوعية فان النظم السياسية إنما وُضعت إعتماداً على النظم الاقتصادية في الاساس . وفي النظام الذي جاءت به هذه الاشكال بقيت العناصر التي تشكل الهوية الحضارية ـ مثل الدين والثقافة ـ بالدرجة الثانية . فالعناصر

الدينية والقومية التي تلعب دوراً أساسياً في إدارة الدولة والاقتصاد في الرأسمالية الليبرالية قد أعدمت فاعليتها أيضاً في النظم الشيوعية ، إذ كان ذلك من احدى خصائص الفكر في المعسكر الشرقي وضرورةً لتطبيق نظمه . أما الآن ، ومع انهيار تلك النظم فقد طفت على السطح عناصر مثل الاختلافات في الدين والعرق والثقافة كانت قبل ذلك محجوراً عليها بالقوة . فأصبح لكل ذلك نتائجه الهامة على المستوى الايديولوجي وبالتالي على مجرى الحياة .

وتتمثل التغيرات التي طبعت بطابعها أوائل العقد الحالي في انهيار الفكر الشيوعي واتجاه العالم باجمعه نحو الرأسمالية الليبرالية ونظام السوق الحرة . والعامل الذي يسر انتشار هذا النظام هو أن الذين ينتجون تكنولوجيا الاتصال والنقل ويوجهونها هم انفسهم الذين يمثلون المراكز نفسها . وكما ذكرنا ان لهذا النظام فلسفة عملية ، إلاّ أنه يفتقر نظرياً إلى الاسس الفكرية أو الدينية .

وهناك ـ في الوقت ذاته ـ مجتمعات كانت جزءاً من نظام المعسكر الشرقي قبل عام ١٩٩٠م ثم لم تلبث أن نالت استقلالها وتسعى الآن للانضمام لنظام السوق الحرة . ولا شك أن التحرر المفاجىء من الناحية الايديولوجية وظهور الفوضى ـ الى حدٍ ما ـ هي من الامور التي خلقت مناخاً لدى الشعوب التي لم تكن تملك هوية دينية ثقافية واضحة ومؤثرة لظهور حركة من البحث عن فكر جديد واتجاهات جديدة . وكان من نتيجة ذلك ـ مع الآسف ـ أن بدأت تطفو على السطح تلك الفروق بين الاديان والثقافات التي كانت موجودة قبل ذلك ولكنها مكبوتة ضمنياً . وفجأة ظهرت خلال المدة القصيرة التي انقضت بعد عام ١٩٩٠م خصومات وعداوات أساسها الاختلاف في الدين والعرق . وهذه الخصومات كانت السبب وراء الافكار العنصرية ونزاعات السيطرة وتضارب المصالح في العديد من مناطق العالم وعلى رأسها الحرب التي نشبت أساساً من جراء التعصب الارثوذكسي في وسط أوروبا . حيث نشهد الآن نزاعات بين التجمعات البشرية المتجاورة من حيث المكان ، المختلفة من حيث الدين . ودخلت آمال الناس مرحلة الخطر وزاد عدم اطمئنانهم بعد أن كانوا يتطلعون إلى عالم يسوده الامن والرخاء . والنتيجة أن الاخطار التي تهدد أمن اليوم في العديد من مناطق العالم هي الاخطار الناجمة عن الفروق بين الاديان والفروق بين الاجناس والفروق بين الثقافات المختلفة .

ج ـ **وعلى الصعيد الاقتصادي** ، فان هناك وجهاً آخر لتلك التطورات ؛ إذ كان من شأنها أن وَسّعت الهوة بين الاغنياء ، والفقراء ، وارتفع معدل الظلم . لأن النظام الاقتصادي الذي شاع في العالم إنما هو نظام يعتمد على التنافس الذي فرضته فلسفته وعلى عدم المساواة الناجمة عن تطبيقه . وعندما ينعدم التكافل الاجتماعي القادم من الافراد والمؤسسات ـ رغم أنه مبدأ اقرته الاديان كافة ـ يكون من المحتم في هذا النظام أن يرتفع معدل الفرق بين الاغنياء والفقراء ويعظم الخلل في توازنهم الاقتصادي . واليوم فان تمويل السلع والخدمات وعمليات الاستثمار والانتاج والتوزيع قد أصبحت عالمية ، تسير على مستوى يتجاوز حدود الدولة . والذي يقوم على إدارة هذه الشبكة الاقتصادية وتوجيهها هو أيضاً الغرب الصناعي الذي يسيطر على الاقتصاد العالمي . وهو الامر الذي ييسر عملية السيطرة على مبادىء نظام السوق الحرة كاخلاق المهنة وانماط السلوك .

د ـ **وعلى الصعيد الثقافي** ، فقد ظهرت مشكلة كبرى في وجه البشرية تتعلق بالتطورات التي اسلفناها ، ففي الوقت الذي ينتشر فيه نظام الاقتصاد الحر في العالم ويستقر ، بدأت أيضاً تشيع معه بعض القيم وتغزو المجتمعات كافة ، أو بمعنى آخر ، فان الغرب وهو يعمل على إشاعة نظمه الاقتصادية يقوم في الوقت ذاته بنشر قيمه التي اجمع عليها كجزء من ثقافته . وهذه القيم تختلط لا شك بكيان الثقافات المحلية . فكيف يظهر هذا الخليط ، لا شك ان هناك بعض المبادىء القانونية التي وافق الكل عليها على المستوى الدولي وفي اطار التنظيمات والهيئات المعروفة ، وهي تحمل الصفة الدولية ـ كمبدأ حقوق الانسان الاساسية مثلاً . كما ان هناك أيضاً بعض التقاليد والتصرفات ومبادىء العمل المرتبطة بفلسفة النظام الذي انتشر ، وهي الامور التي استقرت لدى الغرب واصبحت جزءاً من ثقافته ونمط معيشته ، ثم لم تلبث ان انعكست بالتالي على سياسته ونظم تعليمه وفنونه وغير ذلك ، كالتفكير العقلاني والمادية . فأي شيء مشترك بين هذه الامور في الاديان والثقافات المختلفة ؟ وايهما يمكن التسامح فيه ؟ وايهما يمكن ان يكون ضاراً وسبيلاً للاضطرابات إذا دخل الحياة الاجتماعية ولم يدرك احد تعارضه مع كيان المجتمع ؟ انها امور تفرض علينا أن نناقشها ونتبادل الرأي فيها . وإن نظاماً يشكل كلا

لا يتجزأ بفلسفته وطريقة عمله وقيمه يكون من العسير الفصل بين عناصره المختلفة ، فكيف يمكن ذلك مع الحيلولة دون دخول العناصر غير المطلوبة . ومن هذه الناحية فان المسؤولين الذين تقع على عاتقهم مهمة اختيار الأولويات السياسية والاقتصادية وكذلك العلماء والمثقفين والكتاب والفنانين الذين يغذون ثقافة المجتمع بانتاجهم في ايامنا الراهنة تنتظرهم في الافق مرحلة عصيبة . ومن ناحية اخرى ، فان هذا النظام وتلك الثقافة وهما ينتشران وضعت الجماعات - كما أسلفنا - هوياتها نفسها في المقام الاول ، فكانت النتيجة ان ظهر ذلك في بعض الاماكن على شكل تيارات قومية متشددة . وفي هذه الحالة تكون الكثرة ويكون التعدد موضوعاً للحديث ، وهنا تنطوي الأمور على مخاطر ومزالق يصعب الخيار فيها ؛ فتظهر علينا اتجاهات متباينة تريد فرض هويتها القومية والدينية وفرض سيطرتها على المناطق التي تعيش فيها من خلال نظام اقتصادي ينتشر مع عناصره الثقافية . وحتى المستقبل القريب نفسه ينطوي على الكثير من الامور المجهولة للشعوب التي تريد ان تنهض محافظة على هوياتها في غمار هذه الفرضى .

وكل هذه الحوادث تهم - عن كثب - الدول الاسلامية التي تواصل خطها العلمي الاقتصادي مع العالم الغربي منذ قرون طويلة ، واختلطت به شعوبها في بعض الفترات من التاريخ وتملك اليوم أيضاً موقعاً متميزاً في تجارة العالم . والمؤسف في عصرنا الحاضر ان العالم الاسلامي يعيش تابعاً للدول الصناعية في مجال العلم والتكنولوجيا ، وهو الامر الذي يترك تأثيراً واضحاً على الحياة الثقافية ، لا سيما من ناحية الحفاظ على الهوية الثقافية للاجيال القادمة ، وأول ما يرد على الخاطر من تلك المسائل هو التأثير الناتج عن هجرة العقول والعمالة ووسائل الاعلام .

ان الانسان على قدر ما بذل من جهد في تشييد الحضارات كان يحمل بين جوانبه طبائع الهدم والتخريب . فالى جانب الاضرار التي ألحقها الانسان بأخيه الانسان ألحق الضرر أيضاً بالارض التي يعيش عليها وبالموجودات حيّها وجامدها بعلمٍ أو بغير علم . ومنذ ظهوره على وجه الخليقة وهو يسعى للقضاء على أنواع الحيوانات والنباتات في البيئة التي يحياها ، وكلما تقدم في مجال العلم والتكنولوجيا جرى في فساد التوازن الطبيعي علماً منه أو جهلاً . واليوم قد بلغت تلك الاضرار حداً بعيداً ، وكادت تصل

الى مستوى يصعب اصلاحه كالثقب الذي حدث في طبقة الاوزون والتلوث الذي أصاب البحار .. ناهيك عن التكنولوجيا العسكرية والاسلحة الكيماوية والقنابل وغير ذلك مما يمثل ذروة التخريب الذي ألحقه الانسان بالطبيعة . أما عن حجم الاضرار والتلوث الذي سيحدث في عالم الفضاء خلال السنوات القادمة فمن الصعب التنبوء به من الآن . ولا شك أن هذه التخريبات تؤثر بشكل خطير على الانسان وعلى الطبيعة وعلى الآثار التي خلفتها لنا الحضارات والثقافات المختلفة .

السبيل الذي يمكن أن يسلكه العالم الاسلامي في مواجهة الازمة الحالية :

لا شك أن هذه الامور تبعث القلق والمخاوف في العالم كله ، سواء في المستقبل القريب أو البعيد . ولكن على العالم الاسلامي ألاّ يخضع لليأس إزاء ذلك ويؤدي ما عليه من واجب حتى يمكن أن نتدبر تلك المخاوف بعقل سليم ونتخذ التدابير التي تحول دون اضطراب أو فوضى. والواجب هو تحريك الفكر الاسلامي وتدعيمه على ضوء التطورات الحادثة . وهنا علينا أن نفكر أن على العالم الاسلامي - إزاء المشكلات المختلطة التي تواجهها الحضارة وهو يحاول أن يأخذ مكانه داخل النظام العالمي ويشارك في إدارة عجلته - ان يتخذ التدابير اللازمة لحماية هويته الثقافية ووحدته العضوية من ناحية ، ويأخذ بزمام المبادرة لتعبئة المجتمعات العالمية كلها من ناحية أخرى . وهذا هو ما يلزم الشعوب الاسلامية أن تفعله . كما نرى على الجانب الآخر ان العالم الاسلامي مع التطورات السياسية الاخيرة قد اتسعت رقعته وامتدت حدوده . وهو الأمر الذي يلقي علينا بواجب ومسئوليات هامة أخرى ، لا سيما تجاه الدول المسلمة التي حصلت على استقلالها حديثاً وتجاه الجماعات الاسلامية في الدول الأخرى . فنحن مطالبون بتدعيم علاقتنا مع تلك الدول والجماعات في المجالات كافة وعلى مختلف الاصعدة والمستويات .

ونرى من الفائدة هنا ان نذكر دائماً الاسس التي يقوم عليها هذا الواجب :

أ - ان الانسان خليفة الله في ارضه ، وحامل الأمانة(١) . ولهذا فهو مسئول امام الله سبحانه وتعالى ، مسئول عما حوله من كائنات ، عن الارض التي يطؤها وعن الطيور في السماء ، وعن المخلوقات كافة حيةً او جامدة .

---

(١) البقرة : ٣٠ والانعام : ١٦٥ وصَ : ٢٦ .

وعلى ذلك فالانسان مسئول :

١ ـ عن علاقته بالآخرين في مجتمعه وفي المجتمعات الاخرى .

٢ ـ وعن البيئة والكون .

ب ـ لقد سخّر الله للانسان العديد من الكائنات والامكانيات(١) ، كما جعله اشرف المخلوقات ، وكرمه وفضّله على كثير من الخلق(٢) . والنقطة التي تشترك فيها الاديان السماوية هي كون الانسان مخلوقاً قادراً على تلقي العلم ؛ اذ علمه الله ما لم يكن يعلم ، وانه لا يستوي العالم مع غير العالم(٣) . وهو يتلقى العلم من مصادر ثلاثة اساسية : من نفسه ، ومن الطبيعة ، ومن التاريخ . والعلوم التي يأخذها عن تلك المصادر هامة ، إلا أنه يجب عليه أن يتعلم هذه العلوم من خلال احساس بالمسئولية المعنوية (التقوى) . فان لم يصل بعلمه الى حياة أفضل ويستخدمه في فهم حالته وبيئته وقدرته على التقدير الذي يحصل عليه بفضل هذا العلم فان علمه لا يجدي في شيء . وان لم يأخذ العبرة من تاريخ الشعوب البائدة ومن احوال الامم التي انقرضت بسبب مساوئها فان النشاط العقلي للانسان يعيش فراغاً كاملاً ، فإن عصى الانسان واتبع هواه ضل وباء بالخسران . والعقل البشري قادر بطبيعته على التفريق بين الصواب والخطأ ، ولهذا فهو مسئول عن تصرفاته . ويمكن له ان يسمو ليصبح « اشرف المخلوقات » ، ويتهاوى ليقع في شراك الغفلة . وعلى ذلك فالانسان يمتلك القدرة على التمييز بين هذا وذاك ، وبهذه القدرة يمكن للانسان أن يحاسب نفسه بنفسه ، ويقدم لحياته ما يسعدها ، وعلى ضوء هذه الصفات في الانسان تظهر مسئوليته الاجتماعية . وتفسير وظائفه كانسان هو « خليفة الله في أرضه » و « حامل أمانته » في حياة المجتمع يصل بنا الى فلسفة اجتماعية تقوم على المساواة والعدالة . والانسان يستخدم طاقاته التي وهبه الله اياها في خدمة المجتمع . وعليه ـ لكي ليكون قادراً قدرة تامة على فهم المغزى من وجوده ـ ان يقيم علاقة فعالة مع بيئته الاجتماعية والطبيعية ، وعندئذ تكتسب جميع المصطلحات الاخلاقية معناها في الحياة الاجتماعية ، كالكرم والشجاعة والصدق والاخلاص ....

---

(١) البقرة : ٢٩ ولقمان : ٢٠ .

(٢) الاسراء : ٧٠ .

(٣) العلق : ٣ ـ ٥ والزمر : ٩ .

ويبدأ التطور الخلقي عند الانسان باحترامه لذاته ، ثم لا يفتأ يتقدم من خلال نظرته للآخرين ، ليس باعتبارهم وسائل ، ولكن باعتبارهم غايات . ويرى نفسه فرداً في مجتمع يرتبط مصيره بمصائر افراده ارتباطاً وثيقاً . وعلى ذلك فلا يكفي للانسان ان يكون خيّراً مع نفسه ، بل عليه ان يسعى أيضاً لتحسين مواقف الآخرين . فالانسان قادر، ليس فقط على فهم بيئته الطبيعية والاجتماعية ، بل على تغييرها أيضاً . ومن ثم فعليه ان يبطل الفساد في الارض وينشر الخير فيها ، فتسير حياته الى الافضل . ولا شك ان المسلمين افراداً وجماعات قادرون على المشاركة في وضع نظام ينتهج الخلق الحسن والمساواة ، وقادرون على مناهضة النشاطات التي تعرّض سعادة البشرية للخطر ، كالضعف المعنوي والاستعمار الاقتصادي والعنصري . والعالم الاسلامي مهد لأديان سماوية ثلاثة ، ومهد لحضارات متعددة . وكان له تأثيره الواضح على قسم كبير من العالم . إذ كان مصدراً للفلسفة والعلم ، وحمل الاسلام مبادىء التسامح والتفاهم والسلام الى التجمعات الدينية والقومية المختلفة في الاماكن التي دخلها . ويمكن للعالم الاسلامي بنظرته من خلال هذه المبادىء أن يقوم بدور فعال مبني على تلك الاسس في المستقبل أيضاً .

ويمكن القيام بالمهام التالية في اطار ذلك الواجب : اذ يلزم علينا ـ لكي نقوى على تحمل المصاعب التي تتعرض لها الحضارة الانسانية ونبحث عن الحلول اللازمة لها ـ ان نقوم بوضع جهاز للتعاون والتضامن والتشاور داخل العالم الاسلامي وعلى المستوى الدولي . وهذا المجال من الحركة يقوم على المبادىء السابقة نفسها ، إلاّ أنه قد يعمل باشكال وأساليب مختلفة ، لان شكل التفاهم في المجتمع الاسلامي يختلف عن نظيره لدى أصحاب الديانات الاخرى .

ففي العالم الاسلامي : يعيش المسلمون جميعهم تحت نظم حكم مختلفة على الرغم من انهم يشكلون امة واحدة ، ويحتلون مكاناً في النظام السياسي والاقتصادي العالمي يختلف في اشكاله وتتباين مستوياته . ومع ذلك فان لديهم جميعاً مشكلات في التنمية يشبه بعضها بعضاً ، وامامهم مصاعب مشتركة متعددة حول التغيرات التي طرأت على العالم سياسياً واقتصادياً . وقد اقاموا لانفسهم اجهزة للتشاور والتفاهم يمكنهم من خلالها أن يتدارسوا مشكلاتهم داخل العالم الاسلامي والمشكلات الاخرى

المتعلقة بالتطورات الحادثة في دول العالم الاخرى ، فهناك المنظمات التي تضم الدول الاسلامية وحدها أو المنظمات التي تضم دولاً اخرى الى جانبها مثل : جامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية ومنظمة شعوب جنوب شرق آسيا ؛ كما توجد إلى جانب ذلك منظمة المؤتمر الاسلامي التي اصبحت جهازاً ينتظم المسلمين كافة في أنحاء العالم . وتعمل هذه المنظمات على إتاحة فرص التعاون بينهم للتغلب على المشكلات التي تواجههم في المجال الاجتماعي والسياسي والثقافي والاقتصادي . وهي - لا شك - صيغ مناسبة لتدارس التغيرات الطارئة على العالم ، ومناقشة المشكلات التي تواجهها الحضارة والبحث عن حلول لها . وإذا كان لنا أن نُذكّر ببعض الاهداف الاساسية التي أقيمت من أجلها منظمة المؤتمر الاسلامي نرى ان الامور التي أسلفناها تحتل مكانها في الاساس بين هذه الاهداف ، مثل :

- العمل على محو التفرقة العنصرية ، والقضاء على الاستعمار بجميع أشكاله .
- إتخاذ التدابير اللازمة لدعم السلام والأمن الدوليين القائمين على العدل .
- دعم كفاح جميع الشعوب الاسلامية في سبيل المحافظة على كرامتها واستقلالها وحقوقها الوطنية .
- ايجاد المناخ المناسب لتعزيز التعاون والتفاهم بين الدول الأعضاء والدول الأخرى .

وتوافقاً مع ذلك فقد تضمنت برامج اجتماعات القمة واجتماعات وزراء خارجية منظمة المؤتمر الاسلامي العديد من المواد المتلاحقة التي تتعلق بموقف الدول الاسلامية تجاه التطورات العالمية في السياسة والاقتصاد ومشكلاتها في هذين المجالين على امتداد تاريخها الذي تجاوز خمسة وعشرين عاماً . ومن أجل هذا فانها تشكل صيغة ممتازة لرسم استراتيجية للحركة من خلال التشاور والتعاون لازاحة مخاوف العالم الاسلامي تجاه الازمة الحالية واستشراف آفاق المستقبل . ونعتقد ان فكرة اجتماعنا هذا يمكن تطويرها وصياغتها على شكل مادة جديد ومناقشتها في تلك المنظمات ثم تطبيقها من خلال اجهزتها الفرعية حتى يمكننا - بوجه خاص - أن نحافظ على الهوية الثقافية للعالم الاسلامي ، ونحمي تراثه داخل النظام العالمي الجديد ، ونكشف عن صورة أقوى لعالم المستقبل .

وهناك أمر جديد يلزمنا القيام به على المستوى الفكري والاكاديمي ، اذ المعروف أن عالم الغرب اتجه منذ قرون طويلة للتعرف إلى الشرق ، واهتمت جامعاته ومراكزه العلمية بدراسة أديانه وآدابه وطبائع شعوبه فيما عرف بحركة « الاستشراق » . وهذه الحركة يلزم علينا نحن أيضاً أن نقوم بها في الاتجاه المقابل ، أي بحركة « استغراب » تستهدف التعرف بشكل أعمق إلى حضارة الغـــرب ودياناته . فقد حاول العالـــم الاسلامي حتى اليوم ان ينقل ما يحتاجه من الغرب في بعض المعارف والفنون البارزة ، ويأخذ عنه في مجال العلم والتكنولوجيا ما يحتاجه من منتجات ، بينما لم يقم بدراسات متعمقة لفهم الغرب والتعرف على تاريخه وتقدمه الفكري والثقافي . ونحن مطالبون اليوم بهذا العمل ، بل وعلينا أيضاً ان نتعرف على حضارات شرق آسيا والهند والصين وغيرها من حضارات وثقافات الدول الأخرى التي يمكن ان تتوثق علاقتنا معها من خلال النظام العالمي الجديد . ولأجل هذا يجب علينا إعداد الجامعات والمعاهد العلمية ومراكز البحوث لدراسة العالم الغربي وسائر الحضارات الاخرى من جميع جوانبها .

لعل العالم الاسلامي لم يمر بعصر نهضة « رونسانس » أو انقلاب صناعي ، ولكنه عبر مرحلة واضحة لم تبلغها الديانات الاخرى ؛ فقد قام المسلمون بجهود حاولوا من خلالها شرح مبادىء الاسلام والتعريف بها لأهله وأهل الديانات الأخرى ، وعبّروا بأفضل الوسائل عن أنه دين تسامح وتفاهم ، لا يفرق بين عربي وأعجمي . كما انتهج العالم الاسلامي هذه المبادىء في علاقاته مع أصحاب الديانات الاخرى ، وقدّم على ذلك أروع الامثلة في التاريخ .

وهذه الأمثلة إنما تنطوي على مبادىء التسامح والتعايش . ونرى ونحن نقلب صفحات التاريخ ان المسلمين عندما كانوا في قمة اقتدارهم وألمع أدوارهم ، بل وعندما بدأت قوتهم تضعف في العهد الاخير وانحسر دورهم في سياسة العالم كانوا يعملون على حماية أصحاب الديانات الأخرى الذين يعيشون تحت حكمهم فمنحوهم حقوقاً متساوية مع المسلمين ، وسمحوا لهم بأداء شعائرهم الدينية وممارسة نشاطاتهم الثقافية . بينما رأينا في البلدان التي انتهى فيها حكم المسلمين مثل الأندلس وصقلية في الأزمنة التي انتقل فيها الحكم من المسلمين إلى غيرهم أن هؤلاء لم يعترفوا للمسلمين بحق ، حتى أجبروهم بشتى أنواع الضغوط على ترك ديارهم .

ونعيش هذه الأيام ونحن نشرف على أواخر القرن العشرين آخر تلك الأمثلة في البوسنة والهرسك . والمؤلم في الأمر أن الصرب الارثوذكس والكروات الكاثوليك والمسلمين واليهود الذين عاشوا سوياً أيام الحكم العثماني تحولوا اليوم إلى أعداء بعضهم بعضاً ، ويتعرض المسلمون هناك لمجازر وحشية لم يشهد التاريخ لها مثيلاً . فأين نحن من تلك المجتمعات التي تعايشت في ظل تسامح الاسلام ونعمت بالسلام في كنفه ، وأين نحن مما يجري الآن ؟!.

إن مبادىء التسامح والتعايش التي كشف عنها الاسلام قروناً طويلة نراها اليوم تتراجع لا سيما ونحن نعيش مرحلة يتحدثون فيها عن نظام عالمي جديد يود الجميع لو جرى تطبيقه على أوسع نطاق . واليوم تخرج علينا تلك الخصومات والاحقاد بشكل يفوق بربرية العصور المظلمة. فهل تقدمت الحضارة ؟ أم تراها عادت القهقرى ؟ أمور تبعث على الحيرة ... وهنا نرى من الأهمية بمكان أن نتذكر - ونحن أمام الأزمة العالمية التي تواجهها الحضارة الانسانية - مبادىء التسامح والتعايش ، وأن نؤكد عليها ونبذل قصارى الجهد لنشرها ، لا سيما وأننا على أعتاب القرن الحادي والعشرين .

ويمكن في الظروف الراهنة أيضاً أن يلعب العالم الاسلامي دوراً ريادياً لشرح هذه المبادىء في الاوساط العالمية عن طريق التعاون أيضاً . ويستطيع ان يرسم استراتيجية واضحة عن طريق الحوار الاكاديمي مع أصحاب الديانات الاخرى ضمن اطار المؤسسات الدولية مستهدفاً من ورائها التأكيد على أن أصل الانسان واحد ، وإبراز المبادىء المشتركة في الاديان كافة كالعدالة والسلام، ومستهدفاً كذلك مساعدة أصحاب الديانات الثلاث الكبرى - بوجه خاص - في التعرف إلى اديان بعضهم البعض والسعي لفهمها . ولا شك أن الاجتماعات التي تنعقد هنا منذ سنين بمبادرة طيبة من مؤسسة آل البيت حول حوار الاديان الكبرى إنما تشكل قاعدة متينة لمخطط عمل كهذا .

وتحقيقاً لهذا الهدف أيضاً يكون من الفائدة أن نقوم بتشغيل الاوقاف وندفع تلك المؤسسات الاسلامية للعمل ، سواء عن طريق المبادرة الفردية أو الهيئات المختلفة . ومن ذلك يمكننا تجهيز الاوقاف الموجودة المزمع اقامتها بالشكل الذي يساعدها على خدمة الاهداف المذكورة . وتنهض الآن في دول العالم الاسلامي وخارجها - وخاصة دول الغرب - محاولات للدعوة للسلام والمحافظة على البيئة ويمكننا التعاون وإقامة الحوار معها لنشر الافكار نفسها .

وعلى هذا فان اجتماعنا هذا يمكن أن يشكّل بدايةً طيبة لوضع جهازٍ فعال للتشاور الدائم وتبادل الرأي حول الفكرة الاساسية التي عقد من أجلها .

الانسان ومستقبل الحضارة من منظور اسلامي

الدكتور جاويد اقبال*

من الضروري تحديد السياق الذي سنستعمل فيه كلمتي أو اصطلاحي « الانسان» و « الحضارة » لغرض مناقشتنا هذا الموضوع .

وعندما أستعمل تعبير « الانسان » أعني به الانسان الحالي أو الحديث . فما معنى عبارة « الانسان الحديث أو العصري »؟ لقد حدثت تغييرات معينة في عقلية الانسان الغربي وأسلوب حياته نتيجة لانتشار المادّية وتحول أوروبا من مجتمع نامٍ الى مجتمع متقدم ، وأدت هذه العوامل الى ظهور الانسان العصري أو الحديث . وهكذا فان الانسان الحديث هو في الأساس الانسان الأوروبي الذي يوجد في الأقطار المزدهرة مادياً أو المتطورة صناعياً وذلك بالمقارنة مع البلدان الفقيرة المتخلّفة .

ويؤمن الانسان العصري بسيادة العلم والتكنولوجيا التي هو نفسه نتاج لها . ويعتمد على المنطق والنشاط المحموم . وهو علماني متكبر أناني يفتقر الى الحس الأخلاقي . كما أنه منغمس في المصادر الحسيّة الراهنة المرئية ويسعى وراء السعادة من خلال مضاعفة وسائل الراحة المادية والثروة ليس إلا . كما أنه مغمور بنتائج إنجازاته الفكرية لدرجة أنه انقطع عن الحياة الروحية أو النابعة من داخله .

أما فيما يتعلق بالانسان الشرقي في العالم المتخلّف ، فقد تمكن في الماضي من تطوير أسلوب صوفيّ في العصور الوسطى ، ووفّر عزاء للانسانية المعذبة في كل مكان من خلال تجلّيات الحياة الدينية في أسمى صورها . الا أنه فشل الآن من ناحية عملية في تحريك الآخرين . وبدلاً من إعداد الانسان العادي في الأقطار المتخلّفة للمشاركة في مسيرة التاريخ ، فانه يعلّمه الاشاحة بوجهه عن التغيّر والتقدم والعودة الى ماضي العصور الوسطى الرومانسي الطابع مما يجعله راضياً بجهله وعبوديته الروحية .

---

* العضو العامل في المجمع الملكي / عضو المحكمة العليا ـ لاهور ـ باكستان .

وما الذي يجب أن تعنيه كلمة « حضارة » في السياق الحالي ؟ إنها بنيان ثقافي متعدد الأبعاد أنشيء في الأقطار المتطـــورة صناعياً علـــى أسس التنميـــة أو التطوير (Development) . وتعني التنمية أو التطوير « الزيادة المستمرة في الدخل الفردي للدولة القومية » . وهذا مفهوم ماديّ بحت للتنمية كما أنه يعد بدعة غربيّة .

فما الذي حدث في اوروبا وأدى في نهاية الأمر الى تكوين حضارة مادية بحتة والى ظهور الانسان العصري ؟ لقد كانت بعض الأحداث أو الحركات في التاريخ الاوروبي مسؤولة عن هذا التغيّر المثير . وتمثّلت هذه على العموم في : الاصلاح الديني الذي اعتق إيمان الانسان من قيود الكنيسة الجامدة الراكدة . وهناك النهضة التي حرّرت عقل الانسان من الأفكار الثابتة حيث تعلم الانسان تدريجياً في سعيه وراء المعرفة الاعتماد على المنطق والادراك عن طريق الحواس والتفكير العلمي . ثم جاءت نظرية داروين التي تقول بتطوّر الانسان بيولوجياً من الحيوانات . وجعلت هذه الأحداث مجتمعة الانسان يشعر أنّ عليه الاعتماد على نفسه فقط في هذه الحياة ، وأدى هذا بدوره الى ما سمي بحركة « يقظة الانسان » في أوروبا .

واكتسب الانسان الثقة من خلال فلسفاته في النقد والمذهب الطبيعي . وشعر أن مستقبله يكمن حصراً في سيطرته على قوى الطبيعة . وبعدئذٍ أخذت الثورة الصناعية تغيّر وجه اوروبا ، ورافق الثورة الفرنسية ظهور مفاهيم الحرية والاخاء والمساواة .

وتعلّم الانسان توليد الطاقة من الفحم والبخار واستخدمت الطاقة والعمل الرخيصان في إدارة المصانع والمعامل . وصنعت أوروبا من السلع ما لم يسبق له مثيل في التاريخ البشري . واحتاج الأمر الى أسواق لبيع هذه البضائع . وأدّى البحث عن الأسواق والمزيد من المواد الخام الى الاستعمار والامبريالية . وهكذا وجدت في أوروبا حضارة جديدة تقوم على مجتمع جديد يقوم على مفهوم التسويق . وتم تقييد سلطات الملوك المطلقة وذلك عن طريق التوكيد على حرية التجارة ، ونشأت الديموقراطية الرأسمالية على أساس القومية الاقليمية . وقسمت الحضارة الجديدة البشرية على عديد من الدول القومية . وتولّت هذه الدول القومية الحرّة المفتقرة الى أي نوع من الضوابط الأخلاقية الشاملة دور الحماة المدافعين عن حقـــوق الانسان ، ولكن يبدو أنها كانت

متخصصة في الالتزام بالمعايير المزدوجة ، تدوس دون رحمة حقوق الآخرين حيثما تلاءم ذلك مع مصالحها الاستراتيجية .

وأدى التنافس والتناحر والتحاسد بين الدول القومية النهّابة الاستغلالية في أوروبا في نهاية المطاف الى الحرب العالمية الأولى من ناحية والى إقامة اشتراكية أو شيوعية ملحدة في روسيا من ناحية اخرى . بيد أن الصراع من أجل السيطرة على الآخرين تواصل وتمخض عنه الحرب العالمية الثانية . إلا أن الدول القومية المتحضرة لم تتّعظ من هاتين الحربين اللتين تسببتا في دمار واسع النطاق للحياة والممتلكات الانسانية . وحتى يومنا هذا ، فان الدول الاعضاء في النادي النووي تمتلك أكثر من خمسين ألف سلاح نووي ذات طاقة تفجيرية تفوق قنبلة هيروشيما ألف مرة . وبعبارة أخرى ، هناك أكثر من أربعة أطنان من مادة « تي ان تي » المتفجرة متوافرة اليوم للقضاء على كل إنسان حي في هذا العالم .

كيف تحافظ الحضارة الغربية الحديثة على وضعها المزدهر أو ما هو سرّ القوة المادية للبلدان المتقدمة صناعياً ؟ إنه انتاج الطاقة واستخدامها . والواقع أن سكان البلدان المتقدمة صناعياً يبلغ ٢٧٪ من سكان الكرة الأرضية كلها ولكنهم يستهلكون ٨٠٪ من الطاقة المنتجة في العالم . ويبلغ عدد سكان الولايات المتحدة ٦٪ فقط من سكان العالم ، يستهلكون ٣٦٪ من الطاقة . أما بالنسبة للاقطار المتخلّفة فانها تشكل ٧٣٪ من سكان كرتنا الأرضية بينما لا تتعدى الطاقة التي تستهلكها ٢٠٪ من الطاقة المُستْخدمة في العالم .

وعلى العموم ، فان البلدان المتخلّفة تطمح الى أن تُصبح متحضرة كالأقطار المتقدمة صناعياً والنموذج الذي تريد البلدان المتخلّفة اتباعه هو الانسان الغربي . الا أن الأقطار المتقدمة صناعياً تحتفظ بهيمنتها الاقتصادية والتكنولوجية على تلك البلدان عن طريق فرض نظام اقتصادي يقوم على القروض . وإذا ما زادت البلدان المتخلفة أسعار المواد الخام ، تواصل الأقطار المتقدمة رفع اسعار التكنولوجيا والمواد المصنعة . ويؤدي ذلك الى التضخم النقدي العالمي المدمر ولا سيما للدول المتخلفة . وهكذا فإن الازدهار المادي للانسان العصري يقوم ويتواصل مستنداً الى هذا التمييز بين الانسان والانسان .

ومن جهة أخرى ، هناك صور قاتمة للمستقبل تقدمها تقارير نادي روما . وطبقاً لهذه التقارير فان موارد العالم من الغذاء قد تستنزف مع أواسط القرن الحادي والعشرين. كما تبين التقارير أيضاً أنّ الوسائل التقليدية في الحصول على الطاقة أو مصادر الطاقة العالمية قد تنضب قبل نهاية القرن الحادي والعشرين . وفي ضوء هذه التقارير يوصي بعض المفكرين الليبراليين في الغرب بأن تقوم القيادة في الدول المتقدمة صناعياً بإعادة النظر في تعريفها لكلمة « التنمية » . ويجادل بعضهم بالقول ان الفلسفات الطوباوية (المثالية) في أوائل القرن العشرين وهي الرأسمالية والشيوعية كأنظمة اقتصادية قد أخفقت في التخلص من التخلف على نطاق عالمي ، وأنه لا يوجد في الوقت الحاضر لدى أيّ كان نظام اقتصادي دولي يمكن أن يولد في الانسان الارادة والشجاعة من أجل تحسين أوضاعه المعيشية في المستقبل .

ويعتقد هؤلاء المفكرون الليبراليون أنّ الدنيا اليوم تقف على حافة أزمة اقتصادية عالمية يمكن أن تقود الى الدمار الكامل للبشرية . وهم مقتنعون أيضاً بأن حالات التمييز المصطنع بين السود والبيض ، والرأسماليين والشيوعيين ، والمتطوّرين والمتخلفين ، الخ .. كانت ضارة بالتقدم الطبيعي لبني الانسان .

ويقترح توفلر أن تقيم الأمم المتحدة هيئة دولية مؤلفة من خبراء اقتصاديين ينتمون الى الاقطار المتقدمة والمتخلفة للسيطرة على الأزمة الاقتصادية العالمية التي تهدد العالم أو لمراقبة الاتجاهات السلبية في الاقتصاد العالمي . ويرى أنه من أجل انقاذ الانسانية من جميع الأزمات الاقتصادية المستقبلية ، لا بدّ من التفكير القائم على أساس وحدة البشر بدلاً من وحدة الأمم . ووفقاً لما يقوله ، فان من الواجب تنظيم عدد سكان العالم طبقاً لمجموع موارده وأنه لا مندوحة عن استغلال هذه الموارد بصورة كاملة . وجميع الناس متخلفون بمعنى أنه لا بد لهم من الاعتماد بعضهم على بعض من أجل بقائهم الاقتصادي. ولذلك فان بقاء الانسان في المستقبل مرهون بنضج الانسان واتعاظه بتجارب الماضي المريرة واحترام الناس بعضهم لبعض .

ومؤخراً انهار الاتحاد السوفياتي الجبار اقتصادياً أمام عيوننا مخلفاً وراءه الولايات المتحدة كقوة عظمى في عالـــم أحادي الاقطاب . والذي بقى للانسانية هو الانتظار

لترى هل ستقيم الولايات المتحدة الامريكية نظاماً عالمياً جديداً تقتصر مهمته على حماية مصالحها الخاصة مقابل الدول القومية الأخرى أو هل ستنظّم هذا العالم حسب توصيات المفكرين الليبراليين الغربيين من أجل بقاء الانسان في المستقبل .

ومن اللافت للنظر أن الآراء التي يطرحها المفكرون الليبراليون اليوم حول مستقبل الانسانية هي الأفكار نفسها التي تكوّن العنصر الأساسي في التعاليم الاسلامية . وسوف يكتشف أي شخص يدرس تاريخ تطور الاديان أن الدين كان قومي الطابع في العصور القديمة . فاليهودية تنادي بأن الدين عرقي أو خاص بعنصر انساني معين . أما المسيحية فتقول إنّ الدين أمر شخصي . لكن الاسلام هو الذي أكد أن الدين ليس قومياً أو عرقياً أو شخصياً ، بل هو انساني محض . وهكذا فان الاسلام في جوهره موقف عقلي أو بالاحرى احتجاج ضد نظرة العالم القديم برمتها لأنه في الواقع اكتشاف للانسان .

ويرفض الاسلام القومية الاقليمية لانها تؤدي الى استبعاد الأخلاقيات الشاملة من خلال تشجيعها للتعددية في الانظمة القومية مما يؤدي الى نظم اخلاقية أضيق أفقاً . كما يمقت الاسلام القومية الاقليمية لانها تفتت الانسانية الواحدة الى دول قومية متنابذة ومن ثم محكومة بمصالح وطنية لا انسانية . وينادي بوحدة واحدة لا غير ، جديرة بالاعتماد عليها ، وهي أُخوّة البشر التي تتسامى عن العرق والقومية واللون واللغة . وهكذا يتضح أنه ما لم تزل الفروق القائمة على العرق واللون والقوميات الجغرافية فانه لن يكون في مقدور الانسان أن يحيا حياة سعيدة راضية .

وفي احدى قصائده التي عنوانها « مكة وجنيف » يطرح الشاعر المسلم اقبال هذا المثل الأعلى الاسلامي الرائع بقوله : « يبدو أن الأمم في عصرنا هذا تختلط مع بعضها بحرية رغم أنّ مبدأ الوحدة الانسانية يستمر خافياً عن العين المتبصرة . ومردّ ذلك الى أنّ الدبلوماسية الغربية تهدف الى تقسيم الانسانية الى أمم ، بينما تهدف رسالة الاسلام الى توحيد بني الانسان ضمن أُخوّة واحدة . وبالنظر لهذا الامر فقد بعثت مكة برسالة الى مدينة جنيف تقول فيها : « هل أنت راضية عن كونك مقر عصبة الأمم أو هل تفضلين أن تكوني مركز الانسانية الموحدة ؟؟ » .

ومن الملامح الأخرى البالغة الأهمية للتعاليم الاسلامية لرفع مستوى البشر الاخلاقي ، دمج البعد الروحي للانسان بالبعد الزمني أو المادي . ولذلك فان مناقشة المنظور الاسلامي لموضوعنا لن تكتمل دون الأخذ في الحسبان مستقبل حياة الانسان الدينية .

والانسان الحديث أو العصري علماني بمعنى اما أنه لا يكترث بالدين أو هو مُعادٍ للدين . والسبب الرئيسي في ذلك حسب تقييمه للدين هو أن الدين متضارب مع العلم، ولما كان بالامكان اثبات ما يتوصل اليه العلم اثباتاً عقلانياً ، فقد هبط بالدين الى مجرد خرافات تقدم السلوى للانسان في مراحل جهله ، لكنها ليست ذات علاقة أصيلة بالحاضر أو المستقبل . ولكن طبقاً لما يقوله الاسلام فإن للحقيقة أبعاداً خارجية كما أن لها أبعاداً داخلية . صحيح أن العلم معنيّ بالسلوك الخارجي للحقيقة بينما يختص الدين باكتشاف معاني الحقيقة بالاشارة الى طبيعتها الداخلية ، وهكذا فإنه بالنسبة للمسلم لا تناقض بين الدين والعلم .

لقد عالجت الحضارة الحديثة مشكلة الدين عن طريق تشجيع تطوّر نوعين من العلمانية : أحدهما مبني على عدم الاكتراث بالدين وهذا هو الموقف الذي اتخذه الانسان العصري في المجتمعات الرأسمالية . أما النوع الآخر فيستند الى الكبت المقصود للدين ، وقد قامت الدول الاشتراكية باتباع هذه السياسة مدة من الزمن . لكن التجارب تقول لنا إن عدم الاكتراث بالدين يؤدي تلقائياً الى المطالبة بذلك النوع من الحرية الذي يسميه البير كامو « بالطغيان « أو « التمرد الخلقي » . ومن ناحية أخرى فان التطورات في روسيا وأقطار أوروبا الشرقية الأخرى بعد انهيار الاتحاد السوفياتي تدل على استحالة فرض الالحاد على الناس من الخارج ، وأنه عندما نبذل محاولة كهذه فلا مفر من فشلها. وهكذا يتضح أن اشكال العلمانية الموجودة عجزت عن حل المشكلة . بل إن بعض هذه الأشكال لا تعدو كونها ضرباً من النفاق . ولذا يصح التأكيد بأنّ جميع الوسائل كالقومية الاقليمية والعلمانية والرأسمالية والاشتراكية الملحدة ، بل والافراط في المحافظة الدينية أو التعصب مستمدة حتماً من قوى الكراهية والريبة والحقد التي تنحو نحو إفقار الروح في الانسان وذلك بكبت مصادر طاقته الروحية الكامنة .

ويظهر من التحليل أعلاه أن حـــل المشكلة يكمن في تبنّي سياسة لا تقوم على عـــدم الاكتراث بالدين أو قهره ، بل علـــى احترام الأديان كافة . وبالمعنى الضيق للكلمة فإن كل دين يتكون من عقيـــدة أو مبـــدأ وطقوس ونوع من الرهبانية . وينحصر هـــذا المظهر للدين أو يرتبط بالناس الذين يؤمـــنون به ، وفي هـــذا السياق فقط يكون المجتمـــع العالمي متعدد الاديان . بيد أن كل دين فـــي مستوياته العليا يشتمل علـــى حقيقة مطلقة . ولذا لا بـــدّ لكل طائفة دينية مـــن اكتشاف المستوى الأعلى لدينها وتسليط الضوء عليـــه . وهـــذا المبدأ موجـــود بوضوح في الآية ٤٨ من سورة المائـــدة فـــي القـــرآن الكـــريم عندمـــا يخاطب الله الانسان قائـــلاً : **﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾**[١] .

ولعله بناء على هذه الخلفية يعتقد بعض المفكرين المسلمين المحدثين أن مفهوم التوحيد كفكرة فاعلة يعني المساواة والتضامن وحرية الانسان . وأن الدولة في الاسلام محاولة لتحويل هذه المبادىء المثالية الى قوى زمانية مكانية . وفي جعل تفكيرهم يستند الى آيات قرآنية من هذا القبيل وكذلك الى ميثاق المدينة وهو أول دستور مكتوب وضع في العالم على يد نبي الاسلام الكريم في دولة يثرب المدينية ، فإنهم يصرون على أن هدف الاسلام هو اقامة « ديموقراطية روحية » .

وهكـــذا فمن وجهة نظر إسلامية ، لا بـــد لبقاء البشرية في المستقبل من أن يتعلـــم الانسان احتـــرام إخوانه في الانسانية . وبالمثل فإنه لا معـــدى له عن أن يتعلم احـــترام المعتقدات الروحـــية أو الدينية للآخـــرين والتسامح معها . ولـــن يتاح للانسان أن يرقى نحو مستقبله بنظرة جديدة إلا عن طريق اتباع هذا المنحى ، يقول إقبال بصدق ما يلي :

---

(١) المائدة : ٤٨ .

« إنّ اللحظات الراهنة لحظات أزمة عظمى في تاريخ الثقافة الحديثة . والعالم الحديث بحاجة الى تجديد بيولوجي . والدين الذي في أسمى مظاهره ليس تعاليم ولا رهبانية ولا طقوساً هو وحده القادر على إعداد الانسان العصري لعبء المسؤولية الضخمة التي ينطـوي عليها بالضرورة تقدم العلم الحـديث . ولن يستطيع الانسان الانتصار في النهاية على مجتمع يحركه تنافس لا إنساني وحضارة فقدت وحدتها الروحية نتيجة التضارب الداخلي لقيمها الدينية والسياسية ، إلا بالارتقاء الى رؤية جديدة لمنبته ومستقبله ولبدايته ومآله »[1] .

(١) محمد إقبال ، إعادة البناء : ١٤٩ .

تأملات في الحضارة الاسلامية
(ماضياً وحاضراً ومستقبلاً)

الاستاذ عبدالله باه*

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، محمد بن عبدالله، منقذ البشرية من متاهات الضلال ، ومهاوي الطغيان ، وبعد :

إن من توفيق الله لمجمعنا الملكي (مؤسسة آل البيت) أن يختار هذا الموضوع العلمي الحي « الانسان ومستقبل الحضارة : وجهة نظر إسلامية » في نهاية المؤتمر الثامن عام ١٩٩١ كمحور أساسي لنشاطات هذا المؤتمر التاسع ، ويكون ذلك في وقت تشتد فيه النزاعات الانسانية ، وتحتدم الصراعات الدولية ، وتصل الى ذروة غليانها ، مع سقوط الامبراطورية الروسية ـ غير مأسوف عليها ـ وما ترتب على ذلك من ظهور دول جديدة في المنطقة ذات سيادة ، وانتماء ديني معين ، وتلاشي القوة العسكرية والسياسية المنافسة للولايات المتحدة وحلفائها من الوجود ، وضرورة إعادة تخطيط خارطة العالم ، وصياغة السياسة الدولية ـ من جديد ـ على ضوء المتغيرات العالمية المتلاحقة ، ومع تصدع الاتحاد الفيدرالي اليوغسلافي ونتائجه المأساوية ، من تعذيب المسلمين في البوسنة والهرسك ، وفكرة إبادتهم واستئصالهم عن بكرة أبيهم ، ومع حرب الخليج والصورة المؤلمة التي انتهت اليها ، من نكسة الأمة الاسلامية ، واستنزاف خيراتها ، وتفكيك وحدتها ، وإراقة دماء أبنائها ، وخلق ظروف ملائمة للتدخل الأجنبي في شؤونها الداخلية ، وإحكام حصار تجاري وسياسي واقتصادي على بعض دولها ، لغرض اضعاف قدراتها الاقتصادية ، لتركع أمام القوة العالمية المناوئة للاسلام ، هذا كله بقطع النظر عن المقدمات والمؤشرات في توجيه مسار الأحداث ، وتفجير الموقف ، أو بعبارة أخرى ـ بقطع النظر عن تحديد المسؤوليات في اندلاع الموقف الرهيب ، واشعال فتيلة الفتنة . فهذه الصراعات كلها ـ وإن بدت في أشكالها وألوانها ذات صبغة قومية أو وطنية ـ هي في جذورها وحجم نتائجها صراعات حضارية عقائدية ، تنم عن فكرة صليبية حاقدة ، ما برحت أبداً ـ وإن ظننا غير ذلك تغافلاً منا ـ حلبة مزاحمة الاسلام ، وميدان محاربة

---

* العضو المراسل في المجمع الملكي / رئيس اتحاد المتطوعين للتربية والثقافة الاسلامية / دكار ـ السنغال .

حضارته ، وقد يتغير أسلوبها المرحلي حسب معطيات الزمان والمكان ، أما هدفها الأساسي ، فلم يتغير ولن يتغير تجاه الاسلام ، فصدى هذه الاحداث ينبىء بأن الوقت قد حان للأمة الاسلامية أن تعيد النظر في وضعها الحضاري ، على ضوء أحداث العالم ، وتغير الفلسفات السياسية والاقتصادية ... فموضوع الحضارة الذي نحن بصدده ، موضوع واسع جداً وشائك ومتداخل ، لا يحاول باحث الالمام به ، وتتبع شوارده ، واستقصاء جوانبه المختلفة في مثل هذا البحث المتواضع ، مهما استعملت فيه الحنكة العلمية ، وفراسة البحث الموضوعي ، ومرونة التخصص . أعتذر اليكم ان لم تلمسوا فيّ جـــرأة في تجسم المخاطر للخوض في خضم تعريفاتها ، التي قد تصل الى ما يربو على مائة تعريف ، ومناقشة آراء الكتاب الاوروبيين والعرب فيها ، وفي وضع فروق دقيقة بين مفاهيم كلمات ذات صلة قوية بالموضوع ، وهي : الحضارة والثقافة والمدنية ، لأن النتائج التي قد أصل اليها ، لا تكون حاسمة في الموضوع ، فالاختلاف في هذه المسائل اختلاف قائم وقديم ، نجم عن اختلاف الرؤية لما نسميه حضارة من كاتب الى آخر . اذن سأفسح المجال للمتخصصين ، وأكتفي بالقول : إن الحضارة وتراثها أشياء نرثها عن الآباء والأجداد ، ولا فضل لنا في تحصيلها ، بل تنقل الى عقولنا ووجداننا بطريقة لا شعورية في أغلب الاحيان ، كاللغة والقيم الأخلاقية ، والجمالية والدينية ، أما الثقافة فليست عملاً جماعياً ، أو أشياء يرثها الأبناء عن الآباء والاجداد ، بل هي مجموعة الأفكار والخبرات والمعارف النظرية ، يتحصل عليها الانسان بجهده الخاص ، ووعيه الشخصي، وقد تكون ثقافة عامة أو ثقافة خاصة ، أما المدنية فهي الجانب المادي أو التكنولوجي (Technologic) أو التقني للحضارة العامة ، وقد تكون تقنية أساسية ، وهي التي تختص بتحكم الانسان بالظواهر الطبيعية ، وتمثل عالم الهندسة والصناعة ، وممارسة قوانين الكيمياء والفيزياء والأحياء ، لغرض إسعاد حياة الانسان الدنيوية ، ومن ثمار هذه التقنية: تخطيط المدن العصرية بشوارعها الواسعة ، وحدائقها الجميلة ، والسيارات الفخمة والطائرات الجبارة وإقامة الجسور ...

أو قد تكون تقنية اجتماعية ، وتختص بالعلاقات المباشرة بين الافراد لتحقيق غايات اقتصادية أو غيرها .

فالحضارة ليست ملكاً لأمّة دون أخرى ، بل هي خلاصة عمل إنساني دؤوب ومشترك بين الشعوب في آسيا وأوروبا وإفريقيا ، وإن كان التاريخ القديم ، يؤكد أن فجر الحضارة كان في المشرق العربي وما حوله كبلاد الرافدين ، ثم جاء الاسلام في أوائل القرن السابع الميلادي ، وهو دين عقيدة وعبادة ، يدعو الى توحيد الله ، والانقياد والخضوع وإخلاص الضمير له ، والايمان بالأصول الدينية التي جاءت من عند الله ، وتحرير الانسان من عبودية نفسه ، يجعل العقيدة رابطة التجمع الأساسية ، ويعتبرها الجنسية التي تجمع بين الأسود والأبيض ، والأحمر والأصفر ، والعربي والفارسي ، وسائر أجناس الأرض في أمة ربها الله ، وعبوديتها له وحده ، والأكرم فيه هو الاتقى : ﴿ **يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم** ﴾[1] . وهو دين الأخلاق ، ينمّي في الانسان الخصائص الانسانية ، التي يتفرد بها دون الحيوان ، ويضعف الجوانب المشتركة بينه وبين الحيوان ، وهو الذي يحدد هذه الأخلاق بموازين ثابتة ولا تختلف باختلاف البيئات والأزمنة ، ولا تكون هناك أخلاقيات خاصة ببيئة زراعية وأخرى صناعية ، ولا بلون أبيض وآخر أسود، ولا بقطر شرقي وآخر غربي ، وهو دين نظام شامل لحياة الانسان ، مترابط في مبادئه وفي تطبيقه ، لا يقبل التجزئة بحال من الأحوال ، وقصر التطبيق على جانب دون آخر . فقد تكلم في السياسة والاقتصاد ، والعلاقات العامة والخاصة ، وفي السلم والحرب ، والتجارة والأحوال الشخصية ، ووضع كل ذلك في إطار ضوابط ، تحقق للانسان أسباب سعادته الدنيوية ، الى جانب سعادته الأخروية ، وانضوى تحت لوائه - لسهولة مأخذه ويسره ، وتكريمه للانسان وعدالته - أجناس مختلفة ، حملت اليه حضاراتها المتباينة ، فقبل منها ما ناسب روحه ، ورفض ما جافاها ، ثم صهر هذه العناصر الحضارية غير الاسلامية ، في بوتقة حضارة إسلامية أصيلة ، قوامها الوحي الآلهي ، والسنة النبوية، وأعطاها طابعاً إسلامياً واحداً ، نجده في كل البلاد الاسلامية ، في ميدان الفكر الخالص : كالفلسفة ، أو في ميدان العلوم : كالطب والنباتات ، والفيزياء والكيمياء ، أو في ميدان الرياضيات : كالحساب والجبر والهندسة ، ولم ينظر الى المادية ، نظرة الاحتقار ، لا في صورها النظرية ولا في صورها الانتاجيـــــة ، إنما رفض فقط أن تعتبر

---

(١) الحجرات : ١٣ .

قيمة عليا ، تهدر في سبيلها خصائص الانسان ومقوماته ، وتهمل من أجلها حرية الفرد وكرامته ، وقاعدة الاسرة ومقوماتها ، وأخلاق المجتمع وفضائله وحرياته ، فجعل بينها وبين الروحية ، توازناً ثابتاً ، بقوله تعالى : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنسَ نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك** ﴾[1] ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا »، ولم ينفر من العلم ، بل رغّب فيه ، وحثّ علـى طلبه في مظانه ، بقوله تعالى : ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾[2] وقوله : ﴿ **أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت** ﴾[3] وقول الرسول عليه الصلاة والسلام : «اطلبوا العلم ولو في الصين» و « أطلبوا العلم من المهد الى اللحد » .

ومن هذا المنطلق الرباني والايحاء النبوي الى أهمية العلم ، ومعارف الشعوب الاخرى ، قام المسلمون ابتداء من أواخر العصر الأموي بترجمة كتب الفلسفة والعلوم اليونانية الى العربية ، وكانت أمهات كتب العلم الأجنبية تصل الى أيديهم من المراكز الآتية :

أولاً : جنديسابور : في إقليم خوزستان (الأهواز في فارس) أنشأته طائفة من علماء اليونان للوثنية والوثنيين وعلومهم ، وكانوا قد فروا من اضطهاد الامبراطور البيزنطي .

ثانياً : حرّان في شمال العراق ، أنشأته جماعة دينية من عبدة النجوم ، ويسمون الصابئة، وكانوا أهل دراسة وعلم ، وأهل دراية باللغة اليونانية ، فنقلوا الكتب اليونانية الى لغتهم السريانية ، فلما أظلهم الاسلام برحابته وسماحته ، تعلموا العربية وترجموا اليها معارفهم وعلومهم .

---

(١) القصص : ٧٧ .

(٢) الزمر : ٩ .

(٣) الغاشية : ١٧ - ٢٠ .

ثالثاً : أنطاكية في شمال الشام ، وكان أهلها عرباً مسيحيين ، فلما دخلت بلادهم في حوزة الدولة الاسلامية ، عرّبوا علومهم ومعارفهم ، وبذا أصبحت أنطاكية مركزاً عظيماً من مراكز الاشعاع العلمي في الدولة الاسلامية .

رابعاً : الاسكندرية في مصر : وكانت أعظم مراكز العلوم طوال العصر الهلينستي ، وإن كان علماؤها قد وجدوا تعنتاً وشقاء على أيدي البيزنطيين لتعصبهم المذهبي في المسيحية ، وعندما فتح العرب المسلمون بلادهم (٦٤٢ و ٦٤٥هـ) عاد بعضهم الى اليونان ، وبقي منهم كثيرون ، منهم من بقي على دينه ، ومنهم من اعتنق الاسلام بمحض ارادته ، فتعلموا العربية ، ونقلوا اليها علومهم .

وبلغت عملية الترجمة أوجها ، في عهد العباسيين ، وخاصة منهم المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣ - ٨٣٣م) ، فقد أنشأ هذا الخليفة معهداً أسماه (دار الحكمة) لترجمة الكتب الاجنبية وشرحها والتعليق عليها ، وجمع فيه عدداً كبيراً من المترجمين والمشتغلين بالعلوم ، كما كان يرسل البعثات العلمية الى امبراطورية الدولة البيزنطية ، للبحث عن عيون كتب الطب ، والكيمياء ، والجغرافيا ، والرياضيات ، فقام هؤلاء العلماء - الذين نذكر منهم على سبيل المثال : حنين بن اسحاق (٨٠٨ - ٨٧٣م) ، مترجم كتب جالينوس ، وكتاب اقليدس (القرن الثالث ق م) في الهندسة ، ويعقوب الكندي الفيلسوف العربي الأصل (٧٩٦ - ٨٧٣م) ، وثابت بن قرة الحرّاني (٨٣٦ - ٩٠١م) - بتعريب هذه العناصر الحضارية اليونانية ، ولم يكتفوا بما خلفه اليونان ، بل زادوا ذلك التراث الحضاري قيمة ونفاسة ، بفضل تجاربهم واطلاعهم على علوم الفرس ، فقد ترجم عبدالله بن المقفع (ت ٧٥٩م) كتاب كليلة ودمنة من الفارسية الى العربية ، لأبي جعفر المنصور ، ثاني خلفاء بني العباس (١٣٦ - ١٥٧هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥م) . واستقوا كذلك - لإثراء معارفهم - من العلوم الهندية ، ودونوا كل تلك المعارف في مؤلفات عربية ضخمة ، سجلوا فيها شروحاتهم وتعليقاتهم ، وطبعوها بطابع الروح الاسلامي الذي نجده بارزاً في كل الميادين الفكرية والعلمية والرياضية وغيرها ، وهذا الطابع يعتبر أصدق تصوير لحقيقة الوحدة الحضارية بين الشعوب الاسلامية .

كانت الحضارة الاسلامية على هذه الدرجة من الرقيّ والازدهار الأصيل ، والسير الجاد في سبيل الاثراء الحضاري ، بالاستقاء من معارف الشعوب الأخرى غير الاسلامية، حين كانت أوروبا تعيش في دياجير الظلام من الجهل والتخلف الاجتماعي ، حتى نهاية القرون الوسطى (من القرن الحادي عشر الى القرن الثالث عشر) وكانت الكنيسة الغربية تتحكم في حياة الناس ، وتحارب العلم ، جادة في إطفاء أي بصيص من نور العلم يلمع خلال هذا الظلام الدامس من الجهل ، تتبع العلماء بالتشريد والقتل ، وتمنع الناس من مطالعة كتب بعض فلاسفة اليونان ، خوفاً منها أن تكون أفكارهم مناقضة للعقيدة المسيحية ، ومفسدة للدين ، ولهذا السبب أغفلت أوروبا المسيحية كل الاغفال فلسفة الطبيعة التي دافع عنها أرسطو (٣٢٢ - ٣٨٤ ق.م) والتي تتسم بطابع مادي ، وبموقف معارض لفكرة خلق الوجود بيد خالق ، وأدى هذا الاغفال والاهمال الى انسياب ثروة كبيرة من المخطوطات اليونانية من بين أصابعها ، بل الى إتلاف بعضها تعمداً ، وحاربت الكنيسة الرومانية في جميع المناطق الواقعة تحت نفوذها السياسي ، استعمال اللغة اليونانية التي كانت لغة الفلسفة المدرسية وعلوم الطبيعة في العصور القديمة، وأصبح العلم يرسف في قيود عقيدة متعصبة ، ولا يخدم الا بعض غايات روحية، لا تتجاوز القشور ، ويجهل الواقع والحقيقة ، ويستنكف عن التجارب ، حتى غدا يسير في طريق الانكماش والجمود ، بل التلاشي .

ولم يكن لاسبانيا (إيبيريا) أي دور حضاري أصيل ، متميز بطابع محلي أو سمات قومية في العالم القديم ، رغم أنها كانت ملتقى حضارات إنسانية قديمة ، فقد غزاها الفينيقيون في القرن العاشر ق.م ، وأنشأوا فيها مالقة على البحر الابيض المتوسط ، وقادس على المحيط الأطلسي ، ونشروا فيهما حضارتهم ، ثم اليونان في القرن الخامس ق.م ، وأسسوا فيها مدينة برشلونة الشهيرة ، على البحر الابيض المتوسط ، وسموها (إيبيريا) ونشروا فيها حضارتهم ، ثم القرطاجنيون الذين استعان بهم ابناء عمومتهم الفينيقيون في حروبهم مع الاسبان ، وأسسوا فيها مدينة ، سموها باسم مدينتهم في تونس : قرطاجنة (Carthage) ، ثم الرومان في القرن الثاني ق.م ، ونشروا فيها حضارتهم الرومانية والدين المسيحي ، ثم غزتها قبائل جرمانية بربرية متوحشة في القرن الخامس الميلادي ، فوضعوا نهاية للدولة الرومانية فيها ، وقضوا على ما كان فيها من آثار

حضارية ممزوجة ، فظل الجهـــل والتخلــف الحضاري يطويها بين طياته كبقيــة أجـــزاء أوروبا، فلم تعرف بالعلـــم ، ولا كان فيها من عـــرف بحبه للعلـــم ، الى أن فتحها العرب المسلمون في نهاية القرن الاول الهجري ، أو بداية القرن الثامن الميلادي (٩٢ - ٨٩٧هـ / ٧١١ - ١٤٩٢م) ، وتسلموها من أيدي القبائل الجرمانية ، فجلبوا اليها معارفهم ، والعلوم الأجنبية المترجمة الى العربية من اليونانية والفارسية وغيرهما : كالفلسفة والرياضيات ، والفلك والتنجيم ، والكيمياء والجغرافيا ، والطب والصيدلة ، وقامت فيها حركة حضارية إسلامية ، مصطبغة بالصبغة المحلية ، وحاملة بصماتها الواضحة ، ووثبت في أحضانها نهضة علمية بالتعرّف الدقيق إلى علوم الاوائل ، مع رعاية الدولة الاسلامية لها وعنايتها بها ، ثم ترجمت هذه العلوم كلها في مدارس الترجمة بطليطلة وغيرها الى اللاتينية ، ابتداء من القرن الحادي عشر والثاني عشر وما بعدهما ، فانطلقت هذه العلوم مع ما فيها من الأفكار الاسلامية ، من المناطق المتاخمة للعالم الاسلامي ، في اسبانيا وصقلية والشرق العربي الاسلامي أثناء الحـــروب الصليبية (١٠٩٥ - ١٢٩١م) وطغت على أوروبا رغـــم معارضة الكنيسة لها ، ومحاربتها العلماء ، وأثرت في الفكر الغربي ، وفي تصوره للانسان والكون والحياة ، وخلقت ظروفاً ملائمة ، للرجوع الى التراث الحضاري الشرقي ، وللتعمق في معانيه ، وكان ذلك بمثابة البذرة الأولى التي نبتت منها النهضة الحضارية الأوروبية الحقيقية ، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر وما بعدهما ، بعد أن جردوها من كل أثر ديني ، لأنهم تلقوا الدرس من المسلمين ، لكنهم لم يتقنوه كما ينبغي ، فلم يفهموا أن الحضارة يجب أن تختلط بالقلوب ، قبل أن تلامس الأشياء ، وأن الايمان بالله هو قوام كل حضارة خالدة ، وغذاؤها الذي تسدّ به رمقها ، لأنه يوفر للنفس الانسانية الاطمئنان والسعادة ، ويقضي فيها على أسباب الخوف والقلق ، بربطها بخالق الوجود ووصلها بالمجتمع بوشائج لا انفصام لها ، ويحدد علاقاتها بالمحيط ، بضوابط لا يعتريها تصدع ولا انهيار.

بعد هذا العرض السريع ، يظهر بوضوح ، أن قول من يقول : إن الكنيسة الرومانية هي التي حافظت على تراث العصور القديمة الحضاري ، وصانته من التلف والضياع ، قول مناقض للحقائق التاريخية ، وتهجم علـــى الاسلام ، ونكران جميـــل للمسلمين ، الذين - مع كل الأسف - لم يبق لهم ما يفخرون على الغرب ويعتزون به

اليوم ، إلا هذا الماضي الحضاري الزاهر ، الذي طوى الزمن صفحاته المشرقة ، وأصبح في ذمة التاريخ ، أو في حكم خبر كان ، يقفون في محافلهم على أطلاله ، ويبكون على دمنه ، كما بكى امرؤ القيس واستبكى على أطلال معشوقته بسقط اللوى .

أما حاضرنا الحضاري ، فما هو الا صور هزيلة ، وظلال وأشباح نحيلة ، لا ترفع للمسلمين هامة ولا تقيم لهم وزناً ، أمام الحضارة الغربية التي تتربع اليوم على الذروة والغارب .

ولهذا التقهقر والانقلاب في الموازين الحضارية ، والتخلي عن الدور الريادي العالمي ، والانحدار من القمة الحضارية الى حضيضها ، سبب واحد فقط ، وهو الاستعمار ، وما تولد عنه من الرواسب الآتية :

أولاً : الانفصام الذاتي في الأمة الاسلامية ، وضعف شعورها بانتمائها الاسلامي ، وخضوعها خضوعاً تاماً للتبعية ، وتقليد المستعمر - في كل شيء - تقليداً أعمى ، نتيجة شعورها بمركب النقص . يقول ابن خلدون في مقدمته (٧٣٢ - ٨٠٨ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦) ، تحت عنوان : « فصل في أن المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب ... » ، : « والسبب في أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها، وانقادت اليه ، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب ... » الى أن قال : « ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب ، في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها ، بل في سائر أحواله ، وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم »(١) . فكلام ابن خلدون هذا ، كلام منطقي لا يتنازع عليه متنازعان ، فهو من إفراز فكري لفيلسوف خبير ، سبر الأمور ، وأدرك بعد غورها وضحالته ، ولكن السؤال الكبير الآن هو : متى سيزول هذا الاعتقاد الفاسد ، بعد أن مَنّ الله علينا ، وخلص أوطاننا من براثن الاستعمار ، وأصبحت دولاً ذات سيادة تقف على قدم المساواة مع الدول المستعمرة ، في منظمة الامم المتحدة ، بل تشكل غالبية أعضائها ؟!

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة : ١ / ١١٦ .

متى تفيق الامة الاسلامية من سباتها ، وتنفض عن نفسها غبار قرون طويلة ، من الاذلال والتسخير واستغلال خيراتها ؟! متى تزيل الغطاء عن عيونها ، وترى الأمور بشيء من الوضوح ، وتزنها بمقاييسها الصحيحة ، وتعود الى نفسها ، والى الأصالة الذاتية ؟! ، يقول المولى جلت قدرته : ﴿ **إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم** ﴾[1] .

ثانياً : العلمانية (Laïcité) : وهي دعوة الى فصل الدين عن الدولة في الحياة ورفض كل صورة من صور الايمان الديني والعبادات الدينية ، وقد نشأت هذه الفكرة في أوروبا ، حوالي القرن السابع عشر الميلادي ، ردّ فعل على موقف الكنيسة المعادي للعلوم في القرون الوسطى (٤٧٦ - ١٤٥٣م) وحلاً عادلاً لمشكلة التنافس الشديد على السلطة بين الدولة والكنيسة ، وتقسيمها بينهما ، تختص الدولة بالشؤون السياسية والاقتصادية والتعليمية والتشريعية ، في حين تستقل الكنيسة بشؤون الأسرة في مراسيم الزواج ، ونظام الطلاق ، وطقوس الجنازة ، والعبادات ، وهذا الفصل بالذات بين السلطتين ، هو الذي أطلق عليه فيما بعد ، لفظ (العلمانية) وقد مر في التفكير الاوروبي بمرحلتين :

أ ـ المرحلة الاولى في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، اتسمت بالاعتدال في المادية ، واعتبرت الدين أمراً شخصياً ، لا شأن للدولة فيه ، وأن من حق الكنيسة حماية الدولة لها ، واعترفت بوجود الله أصلاً للعالم ، ولكنها أنكرت الوحي والنبوة ، ومن فلاسفة هذه المرحلة فولتير (Voltaire ١٦٩٤ - ١٧٧٨م) ، الشاعر والفيلسوف الفرنسي .

ب ـ المرحلة الثانية في القرن التاسع عشر ، واتسمت بالتطرف في المادية ، ودعت الى إلغاء الدين وهدمه ، وقد تبلورت الفكرة عند لينين في تطبيق الماركسية ، حيث دعى الى الغاء المسيحية كدين ، ووضع البلشفية ـ وهي الماركسية اللينينية ـ مكانها كدين جديد ، يخدم الواقع ، وهو (أي الواقع) في نظره (الحزب) ، ورمى الدين بأنه (أفيون الأمة) .

---

(١) الرعد : ١١ .

من هذا العرض الموجز عن العلمانية ، يتضح لنا بجلاء أنها فكرة معادية للاسلام ، تدعو الانسان المسلم الى الاعتماد على الأنظمة الوضعية ،والابتعاد في حياته اليومية عن مصادر التشريع الآلهي ، مصدر عزه وسعادته ، وحصر الاسلام في الحياة المسجدية ، واعتباره واجبات فردية ، من صلاة وصوم وزكاة وحج تؤدى رجاءً فيما عند الله من نعيم الجنة ، ولا ينهض ، ولا يقدر أن ينهض ، لتنظيم حياة الانسان الدنيوية بحال من الأحوال . وتطبيق هذه الفكرة في حياة الانسان المسلم ، إلحاد ، لأن فيه ايماناً ببعض الكتاب وكفراً ببعضه الآخر ، ومع ذلك انتشرت في الوطن الاسلامي . وقلما تجد دولة إسلامية اليوم تطبق في شؤون حياتها اليومية ، الشريعة الاسلامية ، بصورة جادة وصارمة ، بل انقسمت دوله بين الرأسمالية والشيوعية ، في الاقتصاد والسياسة ، والتعليم والتشريع ، وانصب عليها مفهوم قوله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾(١) ، وقد أكدت لنا الشيوعية المنهارة امس فقط ، أن أية نظرية أو فلسفة حول الحياة أو الكون أو الانسان لا تؤمن بوجود الله تعالى ، ولا ترى وجوده الأزلي أصلاً لوجود هذا الكون الشاسع ، وتفسيراً منطقياً للظواهر الطبيعية المختلفة والمعقدة ، هي نظرية هشّة وواهية ، وان بدتْ في الوهلة الاولى سليمة من آفات التفكير ، وعلل النظر . ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾(٢) .

وإذا كان المجتمع الاوروبي قد اختار العلمانية منهجاً للحياة ، وبنى عليه حضارته، فقد يكون له في ذلك عذر ، أما نحن المسلمين ، فلم يحدث ـ في تاريخ الاسلام ـ صدام دموي مع المسجد ، ولم يتحكم أحد في حياة الناس ، بدعوى النيابة عن الله ، وبيع صكوك الغفران للدخول في ملكوت السماء ، مهما أثقل الظهر بالذنوب . لم يحارب الاسلام العلم ، بل رغّب فيه وحثّ عليه ، ولم يخَفْ أن يكتشف ما يتعارض ومعتقداته الدينية ، بل ان كل الاكتشافات العلمية الى الآن ـ مع ضآلتها بالمقارنة الى أسرار الكون

---

(١) النحل : ١١٢ .

(٢) الرعد : ١٧ .

اللامتناهية ـ جاءت تأكيداً وتفصيلاً للأسس العلمية التي تضمنها القرآن الكريم ، كوحدة الكون وسر الحياة ونشأة الكون ، وتمدد الكون وسعته، وتحرك الشمس والقمر والارض، والسحب الركامية وخصائصها ، ونقص الاوكسجين في الارتفاعات وتقسيم الذرة ، والزوجية في كل شيء ، واهتزاز الارض بسبب المطر ، وتوازن العناصر الكونية ، ومراحل نمو الجنين الخ ... فهذه العوامل التي دعت الى المساومة لتقسيم السلطة بين الكنيسة والدولة في عصر النهضة الأوروبية معدومة تماماً في تاريخ الاسلام .

إذن حان الوقت لنؤكد للآخرين تطبيقاً ، أن الاسلام دين ودنيا ، عقيدة وشريعة ، روح ومادة ، وهو نظام الله الذي خلق الانسان ، ويعلم ما توسوس به نفسه ، وهو أقرب اليه من حبل الوريد ، وبحكم هذا الخلق ، فهو أدرى من الانسان نفسه ـ واضع النظام العلماني ـ بما يصلح لحياته الدنيوية ، وما لا يصلح لها ، ونعود الى أنفسنا والى كتاب الله الركيزة الأولى لحضارتنا الاسلامية ، والى تراث السنة النبوية ، الشارح والموضح للكتاب ، وأن يتم ذلك كله في إطار التسامح الديني ، والعدالة الاجتماعية ، والتفاهم التام ، بين القمة والقاعدة ، أو بين النظام القائم في الدولة وبين المؤسسات الدينية فيها ، لا بالقهر والاستبداد والارهاب ، وتهديد حياة الناس الآمنة ، تحاشياً لاراقة الدماء ، وتفتيت الوحدة الوطنية ، واستنزاف خيرات الامة ، بحروب ضروس تفتح الباب على مصراعيه للتدخل الأجنبي ، الذي سيكون في نهاية المطاف المستفيد الوحيد .

لست أدعو الى الحياة الانعزالية ، ولا الى سدّ الأرتاج أمام الحضارة الغربية ، وما فيها من أحدث تقنيات عصرية ، فان النظام العالمي السائد ، لا يسمح بهذا النوع من الحياة لأمة تريد أن تحيا حياة يسودها الأمن والرخاء ، والاستقرار السياسي والاقتصادي، بل أدعو الى تلقيح حضاري ، يحافظ على العناصر الأساسية من مكونات شخصية الامة، والى فتح القنوات بين الشمال والجنوب والاهتمام بصيانتها ، لتنقل الينا ما يستجد في ميدان العلوم الطبيعية والتكنولوجية ، ولكن ـ في الوقت نفسه ـ يجب أن نحسن الاختيار منها ، بما يتناسب وطبيعة عقيدتنا ، فان العقيدة من أهم العناصر الحضارية ، وأقوى مقومات وجود الأمة . وهناك عوامل أخرى ـ من رواسب الاستعمار ـ تهدف

الى محو شخصية الامة الاسلامية ، وإذابتها حضارياً ، وإعادة تشكيلها في القوالب الحضارية الأوروبية ، ولها ارتباط خاص بالدول الافريقية جنوب الصحراء ، وخاصة منها الجزء الغربي ، نذكر منها نماذج على سبيل المثال لا الحصر .

ثالثاً : محاربة اللغة العربية ، التي هي في الاسلام ، بمثابة اللحمة من السدى . فمن المعلوم - تاريخياً - أن الاسلام قد انتشر في هذه المنطقة بطرق سلمية ، عن طريق التجار العرب الذين كانوا ينطلقون بالقوافل من المراكز التجارية على الطرف الشمالي من الصحراء الكبرى ، محملة بالمنسوجات والخرز ، ويقايضونها بالذهب والعاج والعبيد ، وأهم هذه المراكز بالنسبة لهذا الجزء من القارة الافريقية السوداء ، هي : المغرب وتلمسان بالجزائر ، وكان لها ارتباط تاريخي وجغرافي بامبراطوريتي غانا ومالي ، فضلاً عن حركة عبدالله بن ياسين ، التي انطلقت من المغرب ، على امتداد ساحل المحيط الأطلسي ، ورابطت فترة من الزمن ، في شبه جزيرة سنغالية تسمى (اندر) أو سان لويس (Saint Louis) . فقبل الأفارقة الاسلام دينا ، وارتشفته شفاههم دون أدنى تكلف ، لأنه دين الشفقة والرحمة الانسانية ، يدعو الى المساواة ، وإلغاء النظام الطبقي في المجتمع ، والقضاء على كل مظاهر التفرقة العنصرية ، « الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى » ، ولأن الوثنية التي كانت سائدة آنذاك ، لم تكن راسخة في النفوس ، ولم تكن لها طقوس ومراسيم جماعية ، تمتاز بالأبهة والجمال ، ولم ترتبط بمصالح اقتصادية أو أدبية كما كانت الحال عند قريش في الجاهلية ، علاوة على جهود الافريقيين الأوائل في اعتناقهم للاسلام ، وتصديهم للدعوة اليه ، وعلى حسن تعامل التجار المغاربة ، وصدقهم في المعاملات التجارية، وأمانتهم التي غرسها الاسلام في نفوسهم ، وقد تحول بعضهم عن مهنة التجارة الى وظيفة التعليم ، يعلمون الأفارقة القرآن واللغة العربية ، حتى أصبحوا يكتبون رسائلهم ومعاهداتهم إما بالعربية ، وإما بلهجاتهم المحلية لكن بالحرف العربي ، وأخذت الحضارة الاسلامية تترجم عن نفسها في سلوكهم وعاداتهم وتقاليدهم ، خاصة منها أنظمة الزواج والطلاق ، والعقيقة والجنازة ، والملبس والمشرب ، ونظام العمران الخ ... فلما وطأت أرض افريقيا سنابك الاستعمار

الغربي في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، وتطاير سنا برقه في كل مكان ، حارب مدارس تعليم اللغة العربية ، وكتاتيب تحفيظ القرآ ن ، بكل وسائل الارهاب ، وسلك في ذلك منهج التدرج من قتل وضرب وحبس ، حسب ما يمليه عليه مستوى ردود فعل المواطنين ، الى اصدار قرارات ومراسيم ، بدعوى تنظيم التعليم العربي الحر ، وهو في الواقع عرقلة له ، وربط لسيره بقيود يستحيل على الانسان تحقيقها ، ونشر التعليم الفرنسي الاجباري العلماني في البلاد ، وركز - في الدرجة الاولى - على العناصر غير الاسلامية ، لتكوين أطر تضمن لهم استمرارية مكايدهم ودسائسهم ، ورعاية مصالحهم حتى بعد الخروج ، وكان من المفروض أن تنتهي هذه الحالة مع خروج الاستعمار من بلادنا ، لتعود الأمور الى مجراها الطبيعي ، إلا أن آثاراً منها ضئيلة ولكنها خطيرة ، ظلت قابعة وراء الكواليس ، تحت تأثير المساعدات المادية التي تتلقاها هذه الدول من الغرب ، وبتعاون مع الجيوب الخلفية الاستعمارية ، نحتاج الى عمل جماعي منظم للقضاء عليها ، واستئصال شأفتها ، وقد تستغربون عندما أقول : إن ما تقدمه فرنسا وحدها من هذه المساعدات ، لدولة إفريقية واحدة من مستعمراتها القديمة ، لتدعيم اللغة الفرنسية ، وترسيخ أقدامها ، أكثر بكثير ، مما يقدمه العالم العربي بأجمعه ، الى أفريقيا كلها ، لمساعدة اللغة العربية !! وهذا يدل دلالة واضحة ، على إصرار الغرب على مواجهة المد الاسلامي وانتشار الحضارة الاسلامية ، ومحاولته تحقيق مكاسب على حساب اللغة العربية في إفريقيا السوداء .

حارب الغرب الاسلام وحضارته في إفريقيا علناً ، أثناء وجوده الاستعماري فيها، ولكن كلما أفرط في تعذيب المسلمين ، وأمعن في تعنته وعناده ، اشتدت شكيمتهم ، وعزيمتهم في المضي قدماً ، وازداد نور الاسلام انبلاجا ، ﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون** ﴾[1] . وعندما أخذ نجم الغرب في الأفول ، أمام الثورات الوطنية العارمة ، مهد الطريق لأسلوب جديد ، ظهر فيما بعد ، وتمثل في الدعوات الآتية :

---

(١) الصف : ٨ .

رابعاً : الدعوة الى الاسلام الأسود ، وجنّد لها بعض الأفارقة الذين تربوا علـــى النمط الثقافي العلماني ، ليكون إسلاماً خاصاً بالأفارقة غير اسلام العرب ، وتركزت هذه الدعوة في السنغال لموقعه الاستراتيجي كمنفذ الى بقية الدول الافريقية ، وما له من تأثير ثقافي وسياسي على غرب افريقيا خاصة ، وعلى سائر إفريقيا السوداء عامة ، وقالوا كذباً وافتراء : إن ثوب الاسلام ، أياً كانت بساطته وليقانه ، لم يفصّل للسود ، فهؤلاء (السود) يفصلونه من جديد لمقاييسهم ، ويزينونها حسب ذوقهم ، إن الاسلام الأسود بحكم اختلاف البيئة والمحيط الاجتماعي مغاير لاسلام العرب .

خامساً : الدعوة الى الاقليمية التي تحاول تسوية النصرانية بالاسلام ، واعتبار كل منهما ديناً طارئاً على إفريقيا ، دون أن يأخذوا بعين الاعتبار ، سبق الاسلام الى القارة، وملاءمته مع طبيعة الافارقة ، وأن المسيحية ارتبطت في أذهانهم بالفكرة الاستعمارية ، التي اغتصبت بلادهم ، ونهبت خيراتها ، وبالتفرقة العنصرية ، وتأييد الفكرة الطبقية في المجتمع التي تعتمد على اللون .

سادساً : الدعوة الى العودة بالافارقة الى ديانتهم القديمة الوثنية ، بعدما مَنّ الله عليهم بنور الاسلام ، وهذه الدعوة تعتمد في الدرجة الأولى على إحياء التعصب اللوني والجنسي وإيقاظ الحمية الجاهلية في النفوس ، والايحاء بأن تقدم إفريقيا يكمن في عودتها الى عاداتها وتقاليدها ونظمها البالية قبل الاسلام ، وأن الاسلام منفذ جديد لسقوط إفريقيا في هوّة استعمار الانسان الأبيض ، وأي فرق أن يكون هذا الأبيض شرقياً أو غربياً ؟!.

ومما يدل على خطورة هذه الدعوات الهدامة . وجدية أصحابها وإصرارهم في الوصول الى الغاية المنشودة ، وهي فصل إفريقيا السوداء عن ركب الاسلام وحضارته ، ومحاولة احتوائه في الدول الناطقة بالعربية ، أنها لم تكن دعوات مرتجلة ، بل اعتمدت على خطط وبرامج مدروسة بكل عناية ، ومزودة بأحدث دراسات وبحوث ـ قام باعدادها رجال ، تم تدريبهم على أحدث الطرق البيداغوجية ـ عن البيئة والمناخ والسكان ، وطبعائهم وعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم القديمة ، وتاريخم ولهجاتهم المحليــة ، وما يثير

رضاهم وسخطهم ، يُرسَلون لهذا الغرض ، ـ وبتعاون مع العناصر المحلية ـ الى القرى النائية في الأدغال ، تحت ستار تقديم خدمات فنية مجانية ، في مجال الزراعة أو الطب للأهالي ، وينفرد كل مبعوث أو مبعوثة ، بمعايشة قبيلة والحياة معها والانتساب اليها ، والتسمّي باسم مركب من الاسم العائلي للقبيلة ، واسم اسلامي جديد ، ويتمرن على الحديث بلهجة القبيلة ، بكل طلاقة ، وكأنه فرد من أفرادها ، وفي ظل هذه الالفة الأسرية ، يختلس النظر من حين لآخر ، حتى لا يفطن اليه ، ويسجل كل شيء على طبيعته ، ودون إبداء أي اهتمام ملحوظ ، حتى لا يثير الانتباه . ولا يصرفه ذلك عن رصد حال من الأحوال ، ومن ثمة يكون قادراً على أداء رسالته التي جاء من أجلها أحسن ما يكون الاداء ، فهذه الدراسات قد تناهت في الدقة والواقعية ، حتى أصبحت المدخل الصحيح والوحيد ، لكل من يريد دراسة أحوال الشعوب الأفريقية .

ومن المفارقات العجيبة ، أن هذه المؤامرات تُحاك خيوطها بكل الامكانيات العلمية والمادية والفنية ، ضد الاسلام وحضارته ، في دول فقيرة لا تتمتع بثقافة اسلامية واسعة ، الا في طبقات معينة ، ومع ذلك فنسبة المسلمين تزداد فيها يوماً بعد يوم ، حتى وصلت في بعضها الى ٩٥٪ وصدق المولى في قوله تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون** ﴾(١) .

فهذه الدعوات لم يكتب لها نجاح يذكر ، بل كانت صرخة في وادي الضياع ، أوعاصفة عاتية ما لبثت أن انقشعت عن أشلاء متناثرة في ميدان المعترك الفكري ، وظل المد الاسلامي يشق طريقه ، ويحقق ـ في القبائل الوثنية والتجمعات المسيحية ـ مكاسب جديدة حضارية ، بفضل جهود الدعاة المحليين ، وتشجيع حكومات المنطقة ، وإطلاقها حرية العمل الاسلامي ، احتراماً لشعور الأغلبية الساحقة ، ونتيجة طبيعية للعلاقات السياسية الطيبة التي تربطها ـ منذ الاستقلال ـ بالعالم العربي ، منبع الحضارة ، ومسقط رأس الدعوة الاسلامية ، وإن كانت استراتيجية (فنية) الصراع الفكري ، تفرض علينا شيئاً من الحذر والحيطة ، لما يمكن أن تخلفها في العقول المريضة من آثار سلبية ، تحتوي على أسباب اشتعال الفتيلة من جديد ، إذا تهيأت لذلك الظروف المناسبة.

---

(١) الحجر : ٩ .

ومن غريب الأمور ، بل من سخرية القدر بإفريقيا اسوداء ، أن تتم هذه المحاولات الجادة لبتر إفريقيا المسلمة عن جسم الأمة الاسلامية ، بوسائل الاغراء المادي ، وتضليل الافكار في غياب تام لمؤسسات الدعوة الاسلامية العالمية عن الميدان !!! فليس لهذه المؤسسات وجود قوي في المنطقة ، يعتمد على مراكز اسلامية كبيرة ونشطة ، تهتم باعداد برامج ثقافية تربوية دينية ، وتنظم دورات تدريبية على ممارسة أساليب الدعوة ، ورحلات داخلية في أقاليم البلاد النائية ، وتبادل الزيارات بين دولة المقر والدول المضيفة ، وتحتوي على مكتبات متخصصة وغنية ، تفتح أبوابها للجمهور المسلم ، وتشرف على الندوات والمحاضرات الدينية ، بالتعاون مع الشباب النشطين المخلصين ، والمهتمين بالدعوة ، وتنسق أعمالها مع الجمعيات الاسلامية ، وتحاول التوحيد أو التقريب - على الأقل - بين أساليبها المختلفة في الدعوة . بل ان وجودها في المنطقة شكلي ، مرتبط بجمعية اسلامية معينة لخدمة فكرة دينية متطرفة ، أو أغراض مذهبية لا تتجاوز أرنبة أنفها ، وتنفق في ذلك أموالاً طائلة ، لا ترى منها الدعوة إلا ظلها - فالدعوة الاسلامية يجب أن ترتكز - إذا قدر الله لها نجاحاً - على المحور الاساسي للاسلام وهو القرآن والسنة ، وتبتعد عن المذاهب والطرق الصوفية والتوجهات السياسية ، التي تعتبر من شكليات الأمور ، وقد زاد الطين بلة ، والأمر ضغثا على إبالة ، وجود دعاة ، لا تعدو الدعوة في نظرهم عملية تجارة ، وجمع المال والعيش في البذخ ، لا يعرفون عنها الا اسمها فقط ، ويجهلون المنهج الرباني الذي رسمه الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والمتمثل في قوله تعالى : ﴿ **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾(١) ، يوزعون الناس بين نصارى وكفار ، معتمدين على أفكار دينية متطرفة ، هي الى القشور والفروع ، أقرب منها الى الالباب والأصول ، يفتنون الناس في دينهم ، ويزرعون بذور الشقاق بين الاشقاء ، وبوادر الكراهية والبغضاء بين الابن وأبيه ، ويفرقون بين الزوج وزوجته ، يستمدون في ذلك التأثير من الأموال التي يغدقها عليهم بعض الدول العربية بحسن نية منه .

سامحوني لأخاطبكم بلسان الدعوة المكلومة في القارة السوداء ، بقول الخليفة الثالث عثمان بن عفان (ت ٣٥هـ / ٦٥٦م) :

إذا كنت مأكولاً فكن خير آكل   والا فأدركني ولـمّـا أمزق

---

(١) النحل : ١٢٥ .

أما مستقبل الأمة الحضاري ، فليس مستقبلاً ميؤوساً منه ، بل يطوي في تضاعيفه براعم تحتوي على أسباب رقيه الحضاري وازدهاره ، وعوامل تقدمه الاجتماعي والتكنولوجي، لو أننا :

- أحسنا رعايتها والعناية بها ، وتعهدناها بالسقي ، لتمتد جذورها ضاربة في عمق الأرض ، وتستمد الحياة من منابع كتاب الله ، وينابيع السنة النبوية الطاهرة .

- وأعدنا النظر في برامج التعليم ، من الابتدائي الى الجامعي ، لتطهيرها من الرواسب الأجنبية الضارة ، والعناصر الالحادية المخربة .

- وهيأنا الفرص لتوطيد الصلات بين الشباب وقادة الفكر الاسلامي ، وروّاد المؤسسات السياسية في وطننا العزيز ، فان شباب اليوم هم - بلا شك - قادة الحركة الانسانية غدا، وحاملو راية قيمها الوطنية ، وبناة مستقبلها الحضاري ، إذن فلا بد من صياغة الشباب ، في قوالب الهمم الأخلاقية ، وإعدادهم نفسياً وجسمياً - بأيد مُحَنّكة ومخلصة للوطن والاسلام - لتحمل مسؤولية المستقبل الحضاري المشرق ،

على قدر أهل العزم ، تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

- الاهتمام بمحو الأمية ، فان الدّ عدوّ للانسان وحضارته ، هو : الجهل ، ولا غرابة في أن كان التعلم نقطة الاتصال الأول بين السماء والأرض ، بقوله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق** ... ﴾[1] ، وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم تعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، فداء لأسرى بدر الكبرى . وشرّف العلماء وجعلهم ورثة الانبياء ومجّد مهنة التعليم ، وقد أدرك الغرب قيمة اللغة كعنصر حضاري ، ففرض لغته علينا ، في ظل سيطرة الاستعمار ، حتى أصبحت اللغة الرسمية في دول المنطقة ، وها هو ذا الآن ، يستغـل ظروف الأفارقة اللغوية ، ويفرض عليهم - بوسيلة أو بأخرى - الحرف اللاتيني ، كأداة لمحاربة الأمية ، بتنسيق دقيق بين منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو L'unesco) وبين مكاتبها الاقليمية في المنطقة ، وينفق في ذلك أموالاً طائلة ، لاغلاق الأبواب أمام الحرف العربي ، رغم أنه أكثر مناسبة منه بهذا العمل لأمرين :

(١) العلق : ١ - ٢ .

أولاً : أن الذين يكتبون ويقرأون بالحرف العربي في المنطقة ـ بقطع النظر عن المستوى الثقافي أو التمكن اللغوي ـ أكثر بكثير من الذين يستعملون الحرف اللاتيني ، لأن التعليم الفرنسي الاختياري في بداية الأمر ، كان قاصراً ـ تقريباً ـ على غير المسلمين والطبقات الدنيا ، أما النبلاء والأسر الدينية ـ الذين يرسلون أبناءهم الى الكتاتيب لتعلم القرآن واللغة العربية ـ فقد كانوا يرونه كفراً في الدين وإلحادا .

ثانياً : طبيعة نطقنا أقرب الى الأصوات العربية منها الى اللاتينية ، التي كلفت الفنيين كثيراً من الجهد ، لتطويع النطق لها ، إما بزيادة حرف أو تغيير صورته ، في حين لو أن العملية تمت بالحرف العربي ، لوجدنا أنفسنا في غنى تام عن هذا الجهد ـ أو على الأقل عن كثير منه ـ وتضييع الوقت .

وقبل الختام اسمحوا لي أن أنوه ببادرة المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو Isesco) الطيبة في هذا الميدان ، فقد قامت بتجربة فريدة ، عامي ١٩٨٩ و ١٩٩٠ في أربع دول أفريقية : هي السنغال ومالي ونيجر وبركينا فاسو ، أسفرت عن نتائج إيجابية ، وأكدت كفاءة الحرف العربي في كتابة لهجاتنا المحلية ، وأرجو من الله أن يتوافر الجهد في هذا المجال من المنظمات الاسلامية والعربية ذات الطابع الاختصاصي .

وفقنا الله جميعاً الى ما فيه خير الأمة الاسلامية وسعادتها ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .



جلسة العمل الثالثة للمؤتمر

الأربعاء ٢٤ من المحرَّم ١٤١٤هـ الموافق ١٤/٧/١٩٩٣م

* بحث الدكتور جلال شوقي .
* بحث الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .
* بحث الأستاذ روجيه جارودي .
* بحث الدكتور احسان دوغرمجي .
* بحث الدكتور يوسف القرضاوي .
* بحث الأستاذ عبدالوهاب بن منصور .
* بحث الشيخ محمد الغزالي .
* بحث الدكتور اسماعيل بالتيش .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عقد القسم الأول من جلسة العمل الثالثة للمؤتمر العام التاسع للمجمع في الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الأربعاء ٢٤ من المحرم ١٤١٤هـ الموافق ١٤/٧/١٩٩٣م في قاعة بترا بفندق ريجنسي بالاس ، برئاسة الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة .

وقد ألقى كل من السادة التاليــة أسماؤهم ملخصاً عن البحث الـذي كان قد قدّمـــه :

١ ـ الدكتور جلال شوقي ، بعنوان : « أدوات التنمية في ظل التحدي التكنولوجي » .

٢ ـ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، بعنوان : « هل للاسلام دور في النظام العالمي الجديد » .

٣ ـ الأستاذ روجيه جارودي ، بعنوان : « مستقبل الاسلام » .

٤ ـ الدكتور احسان دوغرمجي ، بعنوان : « الانسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر اسلامية » .

٥ ـ الدكتور يوسف القرضاوي ، بعنوان : « الاسلام حضارة الغد » .

وعقد القسم الثاني من جلسة العمل الثالثة للمؤتمر العام التاسع في الساعة الثانية عشرة من صباح اليوم نفسه ، حيث ألقى كل من السادة التالية أسماؤهم ملخصاً عن البحث الذي كان قد قدّمه :

١ ـ الأستاذ عبدالوهاب بن منصور ، بعنوان : « الحضارة والاخلاق » .

٢ ـ الشيخ محمد الغزالي ، بعنوان : « نحو حضارة اسلامية » .

٣ ـ الدكتور اسماعيل بالتيش ، بعنوان : « البعد الأخلاقي العالمي وتحديات العصر » .

ونثبت فيما يلي نصوص هذه البحوث .

- أدوات التنمية في ظل التحدي التكنولوجي -

الدكتور جلال شوقي*

مقدمـــة :

إنه إن جازَ لنا أن نَسِم العصر الذي نعيش فيه بسمةٍ معبِّرة محددة وصفة بارزة مميزة ، فلا أدق ولا أشمل من أن نُسمي هذا العصر : « عصر التكنولوجيا » ، حيث إن التقدم التقني الذي شهدته الحقبة الزمنية الممتدة من حوالي منتصف القرن الثامن عشر إلى يومنا هذا ، له من الإتساع والشمول والضخامة وعظم الأثر على فكر الإنسان وحضارته ، ما يدعو ويدفع إلى مزيد من البحث والتطلع لكشف أسرار الكون من حوله ، ووسيلته في هذا السعي هي بلا شك « التكنولوجيا » أو إن شئت « التقنية » ، وهي الجانب المعرفي الذي يدور حول ترجمة العِلم إلى واقع ملموس ، ويؤثر بشكل عميق على حياة البشر ومستقبلهم على هذا الكوكب الذي يسبح مع ملايين أخرى في هذا الملكوت الفسيح الذي ما يزال يتسع ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ **والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون** ﴾[١] .

إن التكنولوجيا - إن حَسُن استخدامها وتطويعها - يمكن لها أن تكـــون أداة خيِّرة تزيد من الراحة الماديـــة للإنسان ، كما أن العكس صحيـــح تماماً ، ولا أدل علـــى ذلك - علـــى سبيـــل المثال لا الحصر - من تكنولوجيا « الطاقة النووية » بوجهيها المُعمِّر والمُدمِّر ، وتكنولوجيا « الأقمار الصناعية » ذات العيون المُبصِرة واللواحظ المُتلصِّصة .

ليس صحيحاً أن التقدم التكنولوجي يؤدي دوماً إلى حضارة أرفع ، إلا أن تلازمه ممارسةُ القيم الحضارية الأصيلة ، أما ارتباط التقدم التكنولوجي بازدهار المدنية ، فهذا أمر واضح في غير حاجة لبيان .

---

* العضو العامل في المجمع الملكي / عميد كلية الهندسة - جامعة قطر / الدوحة - قطر .

(١) الذاريات : ٤٧ .

إن التكنولوجيا باتت تلعب دوراً رئيسياً ومؤثراً في حياة الشعوب ومصائر الأمم ، وصارت - مع الاعتبارات الاقتصادية (وبالتالي السياسية) - سلاحاً خطيراً مُسلَّطاً على أمن البشر ورفاهه .

إن من يملك أسباب التكنولوجيا اليوم كأنما يملك مقومات الرِفعة والغَلَبة ، ومن ثمّ يدينُ له من هو دون ذلك في مضمار التكنولوجيا . من هنا ؛ كان التسابق الرهيب في تطوير وابتداع الوسائل التكنولوجية ، وانعكاس ذلك على منازِل الشعوب ورُتب الأمم ، وما يواكب ذلك كلّه من تحدّ تكنولوجي .

١ ـ الانفتاح التكنولوجـــي

١ر١ ـ تصنيف التكنولوجيات

إن الحديث عن التكنولوجيا يقتضي منا أن نحدد بادئ ذي بدء أي نوع من التكنولوجيات نقصد ، ومن ثم أن نقسم التكنولوجيات ذات الأثر الفعال في التقدم الصناعي إلى أقسام ثلاثة هي :

١ ـ **تكنولوجيات متقدمة** : تحتاج إلى بحوث وتطوير وجهود مكثفة وفترات زمنية ممتدة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : تكنولوجيا المعدات الإلكترونية[١] والأجهزة العلمية ، ومعدات الإتصالات والتحكم ، والحاسبات ، ومعدات غزو الفضاء، والمعدات التي تعمل في مجال الطاقة النووية، وغير ذلك من التكنولوجيات المتقدمـــة .

٢ ـ **تكنولوجيات متوسطة** : تحتاج إلى بحوث وتطوير وجهود راتبة ، مثل المعـــدات الصناعية المختلفة : الميكانيكية والكهربائية والكيميائية ، ومعدات توليد القدرة ، ووسائل النقل ومستلزمات الصناعة عموماً .

٣ ـ **تكنولوجيات منخفضة أو محدودة** : وتحتاج إلى درجة منخفضة نسبياً من البحث والتطوير ، مثل الصناعات المعدنية والخشبية والجلدية والمطاطية واللدائنية والورقية ، وكذلك الصناعات البترولية ، وصناعات الغزل والنسيج .

٢ر١ ـ التقدم التكنولوجي خلال قرنين ونصف

لعله من المناسب أن نشير فيما يأتي بإيجاز إلى التكنولوجيات الهامة التي شهدها العالم منذ منتصف القرن الثامن عشر وحتى نهاية القرن الحالي ، ويتضح من هذا العرض تسارع الخطى نحو فتح آفاق عريضة في العلم والتكنولوجيا ، وذلك منذ أن تحول الإنسان عن استخدام عضلاته وعضلات دوابه المُسخرة إلى توجيه البخار لتوليد الطاقة الحركية اللازمة لإدارة الآلات والمعدات بأنواعها ، ومن ثمّ عُرف القرن الثامن عشر بعصر البخار ، وبه أُرّخت « الثورة الصناعية (أو التكنولوجية) الأولى » .

(١) تُعتبر صناعة الإلكترونيات إحدى أكبر ثلاث صناعات في العالم ، حيث يبلغ حجم الإنتاج العالمي منها اليوم حوالي ٧٥٠ مليار دولار ، وهي بذلك تتفوق على الصناعات الكبرى الأخرى كوسائل النقل والحديد والصلب والبترول والكيماويات والأغذية والمشروبات .

أهم الإنجازات التكنولوجية في الفترة : ١٧٥٠ ـ ١٩٩٠م

١٧٥٠ ـ ١٨٠٠م

١٧٦٩ : عصر البخار : الآلة البخاريـــة ذات المكثف المنفصل (جيمس وات) ـ تأريخ الثورة الصناعية (التكنولوجية) الأولى .

١٧٧٥ : تطوير ماكينات التشغيل (ماكينات الورش) .

١٨٠٠ ـ ١٨٥٠م

١٨٠٣ : أول قاطرة تعمل بالبخار .

١٨٢٥ : أول قاطرة تعمل للخدمة العامة (جورج ستيفنسون) .

١٨٢٧ : التربينة المائية .

١٨٣١ : المولد الكهربائي (الدينامو) ـ المحول الكهربائي .

١٨٣٤ : أول حاسب رقمي (شارلز بابيج) .

١٨٥٠ ـ ١٩٠٠م

١٨٥٦ : الإنتاج الكمي للصلب .

١٨٦٢ : ظهور اللدائن .

١٨٧٦ : الهاتف أو التليفون (ألكسندر جراهام بل) .

١٨٧٦ : صناعة الصلب المصبوب (بسمر) .

١٨٧٩ ـ ١٨٩٧ : المحرك الكهربائي .

١٨٨٥ : أول سيارة تعمل بالبنزين (جوتليب ديلمر ، وكارل بنز) .

١٨٩٢ : محرك ديزل (رودلف ديزل) .

١٨٩٥ : الاتصالات اللاسلكية (ماركوني) .

١٩٠٠ ـ ١٩٥٠م

١٩٠٣ : أول محاولة ناجحة للطيران (الأخوان رايت) .

١٩٠٧ : الصمام الثلاثي الإلكتروني : الترّايود (الجيل الأول من الإلكترونيات) .

١٩٢٥ : التلفزيون .

١٩٣٠ : المحرك النفّاث (سير فرانك هويتل) .

١٩٣٤ : الرادار (رودلف كوهنولد) .

١٩٤٢ : أول مفاعل نووي (إنريكو فيومي) ـ عصر الطاقة النووية .

١٩٤٥ : أول إلقاء للقنابل الذرية .

١٩٤٦ : العمليات التلقائية أو ذاتية الحركة أو التشغيل ـ التحكم .

١٩٤٧ : إختراع الترانزستور ـ ثورة الإلكترونيات (الجيل الثاني) .

١٩٥٠ ـ ١٩٧٠م

١٩٥٢ : القنبلة الايدروجينية .

شرائط الفيديو .

١٩٥٤ : أول محطة توليد قدرة تعمل بالطاقة الذرية .

١٩٥٧ : إطلاق أول قمر صناعي (غزو الفضاء) .

١٩٦٠ : أشعة الليزر .

١٩٦١ : أول إنسان يسبح في الفضاء (يوري جاجارين) .

١٩٦٢ : الإنسان الآلي أو الإنسان المسخر (روبوت) .

١٩٦٩ : أول نزول على سطح القمر (إدوين ألدرين) .

١٩٧٠ : الإتصالات بواسطة الألياف الضوئية .

١٩٧٠ : تشغيل الطائرات العملاقة .

١٩٧٠ - ١٩٩٠م

١٩٧١ : أول حاسوب دقيق (ميكروبروسسور) ، ويُعدُّ ظهور رقيقة أو قُلامة السليكون ثورة تكنولوجية في مجال الإلكترونيات الدقيقة .

١٩٧٦ : تشغيل الطائرات الأسرع من الصوت (طائرات الكونكورد) .

١٩٧٦ : التحكم في محرك الإحتراق الداخلي بواسطة الحاسوب (كريزلر) .

١٩٨٠ : بداية التطبيق العملي للهندسة الوراثية (ثورة الجينات) .

١٩٨٠ : ثورة الحاسبات الدقيقة .

١٩٨١ : إطلاق وإستعادة مكوك الفضاء كولومبيا .

٣ر١ الثورات التكنولوجية

إن الإنجازات التكنولوجية وتسارعها كما يبين من العرض التالي ومن شكل (١) يقدم دليلاً يقينياً على أهمية الدور الذي تقوم به التكنولوجيا وعلى بالغ قسوة التحدي التكنولوجي الذي واجه الدول النامية عامة والدول الإسلامية خاصة ، تلك الدول التي قادت العالم - في شتى المجالات - على امتداد ثمانية قرون أو يزيد .

م			
١٧٥٠ – ١٨٠٠	الثورة الصناعية الأولى (١٧٦٩)		
١٨٠٠ – ١٨٥٠	الثورة الثانية: كهرباء/كيمياء		
١٨٥٠ – ١٩٠٠	ثورة الاتصالات -١٨٧٦	ثورة النقل (المواصلات) -١٨٨٥	
١٩٠٠ – ١٩٥٠	الطاقة النووية -١٩٤٢	التحكم والتلقائية -١٩٤٦	ثورة الالكترونيات -١٩٤٧
١٩٥٠ – ٢٠٠٠	غزو الفضاء ١٩٥٧	ثورة المعلومات ١٩٨٠	الهندسة الوراثية ١٩٨٠

شكل (١) تعاقب الثورات التكنولوجية من منتصف القرن الثامن عشر

٤ر١ الدورات الاقتصادية

يبين شكل (٢) الأمواج والقمم الإقتصادية المترتبة على الإنجازات التكنولوجية منذ بدء عصر البخار وحتى أواخر القرن الحالي ، ويتضح من الشكل أن العالم السوفيتي الاقتصادي كُندراتيف (Kondratiev) قد تعرف في كتابه المنشور سنة ١٩٣٩(١) على ثلاث موجات على النحو الآتي :

١ - **موجة إقتصادية أولى :** ١٨١٠ - ١٨١٧م ، وقد جاءت في أعقاب إدخال القوة المحركة للبخار (١٧٦٩م) .

٢ - **موجة إقتصادية ثانية :** ١٨٧٠ - ١٨٧٥م ، وقد نشأت عن تطوير السكك الحديدية وصناعة الصلب ومواد الإنشاء الأخرى .

٣ - **موجة إقتصادية ثالثة :** ١٩١٤ - ١٩٢٠م ، وقد نتجت عن تطوير المعدات الكهربائية والاتصالات اللاسلكية .

هذا ما أتى به كندراتيف حتى صدور كتابه سنة ١٩٣٩م .

وباستكمال المسيرة يمكننا أن نتعرف على :

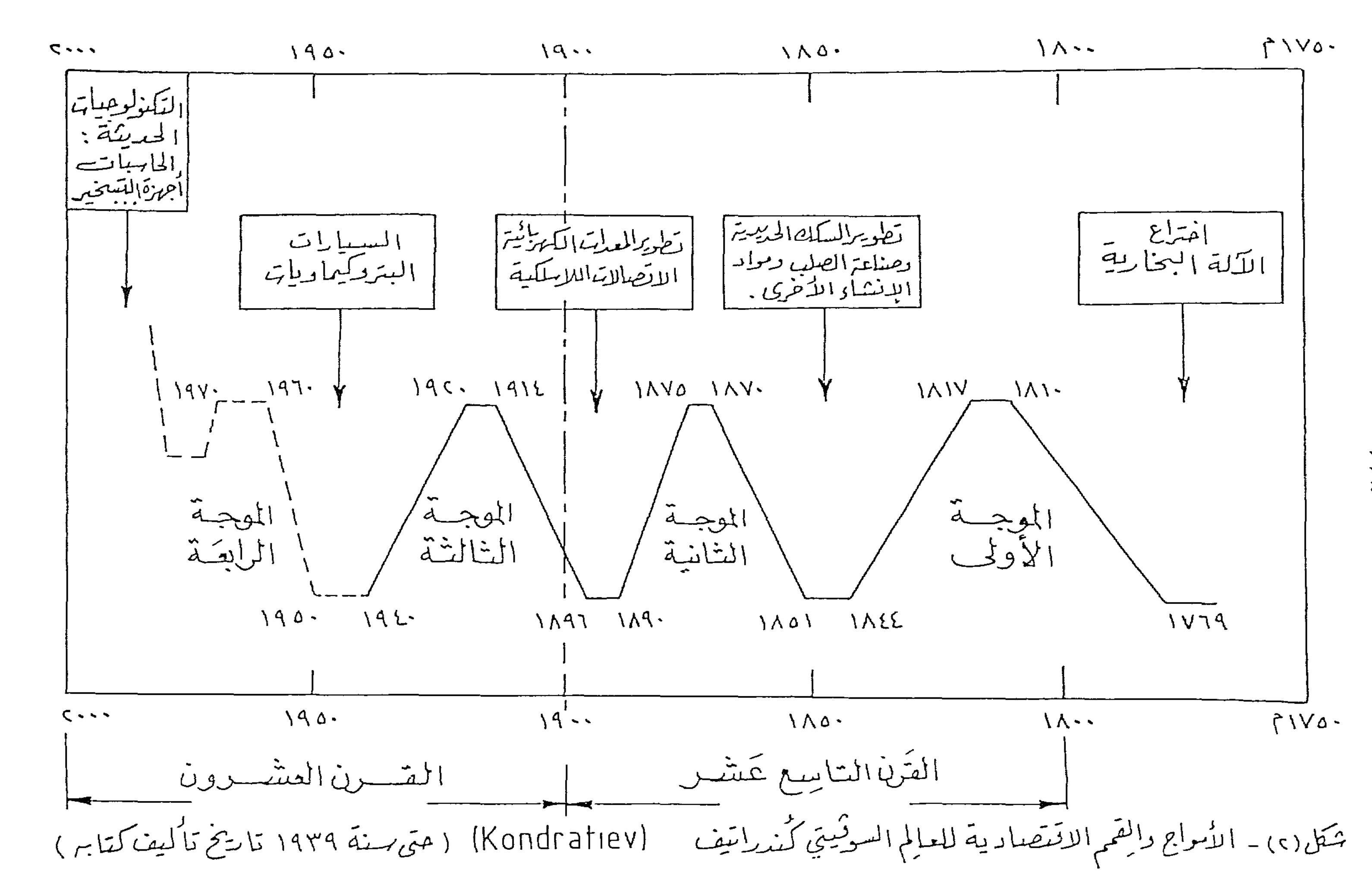
٤ - **موجة إقتصاية رابعة :** ١٩٦٠ - ١٩٧٠م ، ناجمة عن تطوير صناعة السيارات والصناعات البتروكيماوية .

٥ - **موجة إقتصادية خامسة :** ١٩٨٠ - ، وتجيء في إثر التقدم الهائل في الصناعات الإلكترونية . وأجهزة التسخير (Robots) .

ويلاحظ أن فترات القمم تتراوح بين خمس وعشر سنوات ، كما أن فترات وديان الموجات تتراوح بين ست وعشر سنوات ، الأمر الذي يوحي بانتظام الأمواج الإقتصادية ، كذا الإنجازات التكنولوجية .

---

(١) عن المرجع الإنجليزي رقم (٨) .



شكل (٢) - الأمواج والقمم الاقتصادية للعالم السوفيتي كندراتيف (Kondratiev) (حتى سنة ١٩٣٩ تاريخ تأليف كتابه)

٥ر١ مُعدَّلات النموّ المَعْرفي

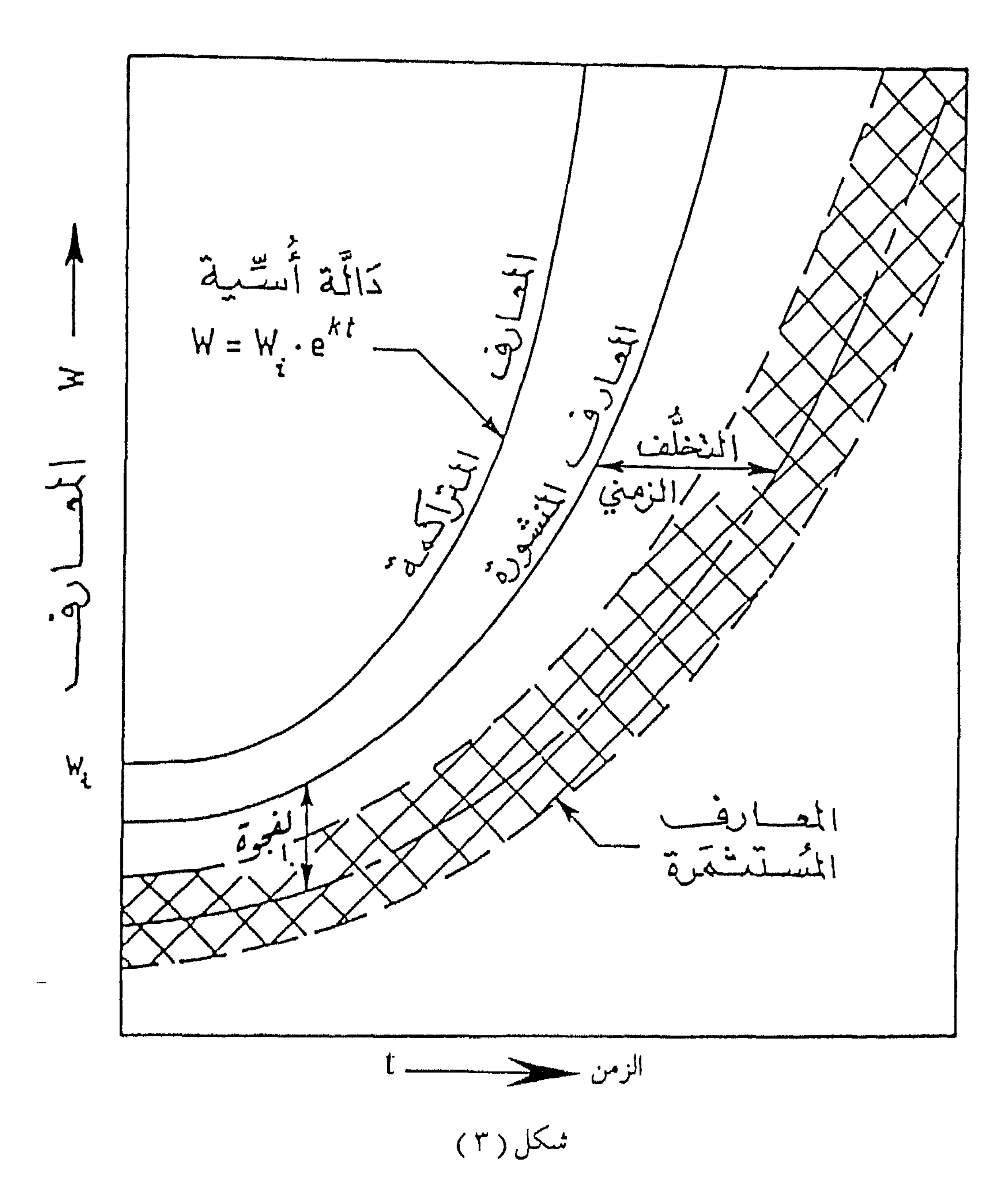
إن القرن الحالي يشهد معدلاً غير مسبوق لتراكم المعارف الإنسانية بالنسبة للزمن، إذ إن هذا المعدل يمكن أن يعبرَّ عنه بدالة أسية (شكل ٣) ، ويصبح التمييز بين مراحل توافر المعارف مع الزمن على الوجه الآتي :

١ ـ **المعارف الإنسانية الكلية** ، بمعنى كل ما وقف عليه الجنس البشري من العلوم والفنون وفروع المعرفة كافة .

٢ ـ **المعارف المنشورة** ، وهي ذلك القسط من المعارف مما جرى نشره وأمكن الإطلاع عليه أو الحصول عليه ، مثال ذلك المنشورات العلمية ونتائج الأبحاث وبراءات الإختراع ، ومما لا شك فيه أن القَدْر المنشور من جوانب المعرفة يقل كثيراً عن حجم المعارف الكلية المتراكمة عبر المزمن .

٣ ـ **القَدْر المستثمَر أو المطبَّق** أو المُستفاد منه مما يجري نشره ، ومن المألوف في حالة توظيف الاختراعات مثلاً ، أن نجد هناك فارقاً زمنياً بين المستثمر والمنشور ، ويتراوح بين خمس وعشر سنوات ، هذا وقد بلغ ثابت معادلة النمو المعرفي في النصف الثاني من القرن الحالي K (في المعادلة المبينة في شكل ٢) حوالي ٠٧ر٠ ، ومعنى ذلك أن حجم المعارف العلمية تتضاعف كل ٨ إلى ١٠ سنوات ، وقد ثبت في بعض التكنولوجيات كالإلكترونيات والحاسبات وأنصاف الموصلات ، وأجهزة التحكم والتسخير (كالروبوت) والتلقانية ، أن حجم المعرفة فيها يتضاعف كل ٤ إلى ٦ سنوات .

إن هذا المُعدَّل الكبير لنمو المعارف البشرية يُلقي بثقل جسيم على أية دولة لا تسعى جادة مجدة للّحاق بركب المعرفة الذي تتسارع خطاه يوماً بعد يوم ، ليقدم تحدياً رهيباً للدول النامية وللدول الفقيرة ، ولن تجد شعوب هذه الدول مكاناً بين عمالقة التكنولوجيا إلا أن تدرك أهمية بناء البشر ، الذي من دونه لا يقوم كيان ولا يستقر بناء ، ولا يتحقق تقدم ، ولا غَرْو فإن الإنسان ـ بفكره وعمله ـ هو خليفة الله في أرضه ، وعليه أن يعمرها ويطوعها ، ويجابه التحديات بصورها وألوانها كافة .



شكل (٣)

نُموُّ المعارِف الإنسانية مع الزمن ، ويتبع دالَّةَ أُسيَّةَ .

(الفَجْوة : نقْص المعارف عند زمن محدد ـ التخلُّف الزمني : الفترة الزمنية اللازمة للوصول إلى قَدْرٍ مَعرفيّ مُعين) .

٢ ـ قَسَمات التحدّي التكنولوجي

قد يُعيننا على رسم الملامح العامة للتحدي التكنولوجي الذي تواجهه الأمة ، أن نسوق بعض البيانات والمؤشرات ذات العلاقة وتشمل :

١ ـ معدلات النمو الحقيقي في دول العالم .

٢ ـ معدلات التضخم في دول العالم .

٣ ـ معدلات نمو الإنتاج الصناعي .

٤ ـ أغنى الدول وأفقرها .

١ر٢ ـ مُعدّلات النموّ في دول العالم

يبين جدول (١) معدلات النمو الحقيقي في دول العالم ، أي الدول الصناعية والدول النامية ، وذلك عن الفترة الممتدة من عام ١٩٨٢ إلى عام ١٩٨٨ ، وتتعدى النسبة المئوية ـ في المتوسط ـ أربعة في المائة ، وإنه إن قبلت هذه القيمة بالنسبة للدول الصناعية ، فهي بعيدة تماماً عن القبول بالنسبة للدول الراغبة في تقليص التخلف التكنولوجي وتقليل الفجوة الإقتصادية .

٢ر٢ ـ مُعدلات التضخم في دول العالم

يُفصّل جدول (٢) معدلات التضخم في مجموعة من دول العالم خلال الفترة من عام ١٩٨٢ إلى عام ١٩٨٨ ، ومنه يتضح أن معدل التضخم للدول النامية وصل إلى ٦٧٪ في نهاية هذه الفترة .

٣ر٢ ـ معدلات نمو الإنتاج الصناعي

يشير جدول (٣) بوضوح إلى الفرق الكبير في معدلات التنمية التكنولوجية بين دول العالم ، حيث تتراوح قيم هذه المعدلات بين أقل من ١٪ (في المملكة المتحدة واستراليا وفرنسا وكندا) ، وأعلى من ١٥٪ (في كوريا الجنوبية) .

جـــــدول (٣)

معدلات نمو الإنتاج الصناعي لمجموعة من الدول منها المتقدم ومنها النامي[1]

(١٩٧٤ - ١٩٨٣)

	الدولـــــــة	معـــدل النمـــو الصناعي	
١	كوريا الجنوبية	١ر١٥٪	أعلى من ١٥٪
٢	إندونيسيـــا	٥ر١٠٪	أعلى من ١٠٪
٣	سوريـــا	٢ر١٠٪	« «
٤	قبـــرص	٦ر٧٪	
٥	إيـــران	٢ر٧٪	أعلى من ٧٪
٦	ماليزيـــا	١ر٧٪	
٧	سنغافـــورة	١ر٧٪	
٨	تونـــس	٥ر٦٪	أعلى من ٦٪
٩	الإتحاد السوفيتي (سابقا)	٧ر٤٪	أعلى من ٢٪
١٠	إسرائيـــل	٦ر٣٪	« «
١١	اليـــابان	٩ر٢٪	
١٢	اليونـــان	٦ر٢٪	أعلى من ٢٪
١٣	الولايات المتحدة الامريكية	١ر٢٪	
١٤	كنـــدا	٥ر٠٪	
١٥	فرنســا	٢ر٠٪	أقل من ١٪
١٦	استراليـــا	١ر٠	
١٧	المملكة المتحدة	−٨ر١٪	

(1) " The Daily Telegraph Atlas of The World Today ", (1987) : Manufacturing Production Growth Rates, pp. 98 & 99.

جـــــدول (١)

مُعدَّلات النموّ الحقيقي في دول العالـــم

(١٩٨٢ - ١٩٨٨)

(نِسَبٌ مئوية)

	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤	١٩٨٥	١٩٨٦	١٩٨٧	١٩٨٨
العالـــم	٠ر٧	٢ر٨	٤ر٥	٣ر٤	٣ر٢	٣ر٢	٤ر١
الدول الصناعيـــة	-٠ر٣	٢ر٨	٤ر٩	٣ر٤	٢ر٦	٣ر٤	٤ر١
الدول الناميـــة	٢ر٢	٢ر٢	٤ر١	٣ر٦	٤ر٢	٣ر٣	٤ر٣

جـــــدول (٢)

مُعدَّلات التضخم في دول العالـــم*

(١٩٨٢ - ١٩٨٨)

(تَغيُّر مِئوي)

	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤	١٩٨٥	١٩٨٦	١٩٨٧	١٩٨٨
الدول الصناعيـــة	٧ر٢	٥ر٠	٤ر٤	٣ر٥	٣ر٤	٢ر٩	٣ر١
الولايات المتحدة الأمريكية	٦ر٤	٣ر٨	٣ر٧	٣ر٠	٢ر٧	٣ر٣	٣ر٤
اليابـــان	١ر٨	٠ر٨	١ر٢	١ر٤	١ر٨	-٠ر٢	٠ر٥
المانيـا الإتحاديـــة	٤ر٤	٣ر٣	٢ر٠	٢ر٢	٣ر١	٢ر٠	١ر٥
الدول الناميـــة	٢٥ر٢	٣٢ر٤	٣٨ر٢	٣٩ر٧	٣١ر١	٤٠ر٥	٦٧ر١
افريقيــــــــا	١٣ر١	١٧ر٩	٢٠ر٨	١٣ر٣	١٤ر٤	١٥ر٠	١٨ر٨
آسيــــــــا	٦ر٤	٦ر٧	٧ر٣	٧ر١	٩ر١	٩ر٨	١٤ر٦
أوروبــــــــا	٣٣ر١	٢٢ر٨	٢٥ر٤	٢٥ر٥	٢٤ر٨	٣٠ر٣	٤٩ر٣
الشرق الأوســـط	١٢ر٩	١٢ر٠	١٤ر٤	١٧ر٠	١٨ر٢	١٩ر٣	١٨ر٨
نصف الكرة الغربي	٦٦ر٨	١٠٨ر٦	١٣٣ر٠	١٤٤ر٩	٨٧ر٨	١٣٠ر٠	٧٧ر٦

* معدلات التغير في مستوى الناتج المحلي الإجمالي للدول الصناعية ، وفي الرقم القياسي لأسعار المستهلك للدول النامية

المصدر : صندوق النقد الدولي ، إستشراف الإقتصاد الدولي ، أبريل ١٩٨٩ .

٤ر٢ ـ أغنى الدول وأفقرها

لكي تتضح الهوّة السحيقة بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، نشير هنا ـ من قبيل التمثيل لا الاستقصاء ـ إلى نصيب الفرد من إجمالي الناتج القومي لأغنى خمس دول وأفقر خمس دول في العالم (تقديرات عام ١٩٨٣) ، جدول (٤) ، ويتبين من هذه المقارنة أن نصيب الفرد في أغنى الدول قد يصل إلى مائتي ضعف نصيب الفرد في أفقر الدول .

جـــــدول (٤)

أغنى وأفقر دول العالم[١]

		نصيب الفرد من إجمالي[٢] النا تج القومي بالدولار	
(أ) أغنى خمس دول (عام ١٩٨٣)			
١ ـ الإمارات العربية المتحدة	:	٢٣ر٧٧٠	
٢ ـ سويســـــرا	:	١٦ر٢٥٠	أعلى من حوالي ١٤ ألف دولار في السنة
٣ ـ الكويـــــت	:	١٦ر٢٠٠	
٤ ـ الولايات المتحدة الأمريكية	:	١٤ر٠٨٠	
٥ ـ النرويـــــج	:	١٣ر٩٩٠	
ب ـ أفقر خمس دول (عام ١٩٨٣)			
١ ـ زائيـــــر	:	١٧٠	
٢ ـ نيبـــــال	:	١٦٠	أقل من ٢٠٠ دولار في السنة
٣ ـ مالـــــي	:	١٥٠	
٤ ـ بنجلاديـــش	:	١٣٠	
٥ ـ الحبشة (أثيوبيا)	:	١٢٠	

نسبة أعلى دخل إلى أقل دخل = حوالي ٢٠٠

(1) Daily Telegraph Atlas, (1987), p. 45.
(2) GNP (Gross National Product) per Capita.

٣ ـ مُعوِّقات التنمية التكنولوجية

إن التحول السريع الذي تشهده ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ عدة دول في جنوب شرقي آسيا ، ككوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وإندونيسيا وغيرها ، لتدعونا إلى مراجعة حساباتنا ، وإلى حُسن التخطيط والتنفيذ ، لتقليص الفجوة التكنولوجية القائمة بين أمة الإسلام ، التي تمتد من الصين شرقاً إلى المحيط الاطلسي غرباً ، من جهة ، وبين الدول التي تتصدر ركب التقدم التكنولوجي ، وذلك سعياً وراء الإنطلاق إلى آفاق معرفية أرحب ، وللإفلات من إسار تبعية تزداد حلقاتُها عدداً ، وتتنامى مُقوماتها شدّة وإحكاما .

إن مجابهة التحدي التكنولوجي تقوم على أساس تحديد معوقات التنمية التكنولوجية كخطوة أولى نحو السعي للتغلب عليها ، ولعل أهم هذه المعوقات هي :

١ ـ ضعف التعليم العام ومشكلة الأمية .

٢ ـ تقصير في الإنفاق على البحث والتطوير .

٣ ـ عدم تنمية القدرات الإبتكارية .

٤ ـ الانفجار السكانـي .

وسوف نتناول هذه المعوقات بشيء من التفصيل فيما يأتي .

١ر٣ ـ ضعف التعليم العام ومشكلة الأمية

إن بناء البشر هو ولا شك حجر الأساس في أي نوع من التنمية ، ومن ثم فإن ضعف التعليم العام وارتفاع نسبة الأمية يشكلان عقبة كؤود في مسيرة التنمية التكنولوجية ، فإذا ما أجزنا الأخذ بنسبة الإنفاق في التربية والتعليم كمعيار لموقف التعليم في الدولة عموماً ، وجدنا أن الدول النامية تنفق على التعليم بنسبة تقل عن ٤٪ من إجمالي الناتج القومي ، جدول (٥) .

جـــــدول (٥)

نسبة الإنفاق على التعليم إلى إجمالي النا تج القومي[1]

	الدولــــــــة	معـدل النمـــو الصناعي	
١	كنـــــدا	٨٪	أعلى من ٧٪
٢	الولايات المتحدة الامريكية	٩ر٦٪	أعلى من ٦٪
٣	الإتحاد السوفيتي (سابقا)	٦ر٦٪	» »
٤	اليـــابـان	٧ر٥٪	
٥	إيـــــران	٧ر٥٪	
٦	المملكة المتحدة	٥ر٥٪	أعلى من ٥٪
٧	كوريا الجنوبية	١ر٥٪	
٨	فرنســــا	١ر٥٪	
٩	المملكة العربية السعودية	٧ر٤٪	
١٠	ألمانيا الإتحادية (سابقاً)	٦ر٤٪	أعلى من ٤٪
١١	الجمهورية العراقية	٣ر٤٪	
١٢	جمهورية مصر العربية	١ر٤٪	

(1) " Education Expenditure as percentage of GNP (Gross National Product), (1983)".

جــــدول (٦)

إنخفاض نسبة الأمّية في البلاد العربية

(١٩٦٨ - ١٩٨٥)

الدولـــــة	نِسبة الأمية المُقـــــدَّرة ٪			
	١٩٦٨	١٩٧٣	١٩٧٨	١٩٨٥
الأردن	٤٥ر٦٠	٣٤ر٦٠	٢٤ر٩٠	٢١ر٢٠
الإمــــارات	٦٦ر٥٠	٤٨ر٧٥	٣١ر٠٣	٢٦ر٤٤
البحريـــــن	٦٥ر٠٠	٤٨ر١٦	٣٦ر٠٦	٣١ر٠٠
تونـــــس	٦٨ر٩٠	٥٨ر٩٠	٤٨ر٩٠	٤٠ر٥٠
الجزائـــــر	٧٨ر٣٠	٧٥ر٣٠	٦٨ر٣٠	٥٠ر١٠
السعوديـــة	٨١ر١٧	٦٩ر٧٧	٥٧ر٩٢	٤٧ر٩٠
السودان	٨٥ر٥٠	٦٢ر٠٠	٤٨ر٢٠	٤٢ر٠٠
سوريـــة	٥٥ر٨٠	٥٠ر٠٥	٤٤ر٣٠	٣٣ر٢٠
الصومـــال	٧٤ر٥٠	٥٧ر٠٠	٥٩ر٥٠	٣٣ر٢٠
العــــراق	٧٥ر٢٠	٦١ر٢٠	٤٧ر٢٠	٤١ر٥٠
الكويـــت	٧١ر٠٠	٥٢ر٦٤	٣٦ر٥٠	٣٢ر٠٠
ليبيــــا	٦٦ر٠٠	٥٢ر٠٠	٣٨ر٠٠	٣٩ر٢٠
مصـــــر	٦٥ر٧٠	٥٩ر١٠	٥٢ر٥٠	٤٣ر٠٠
اليمن الشمالي	٩٢ر٠٠	٨٤ر٠٠	٧٧ر٦٠	٥٨ر٠٠
اليمن الجنوبي	٨٠ر٢٠	٦٦ر٣٠	٥٢ر٨٠	٤٨ر٦٠
المتوسط	٧١ر٤٢	٥٨ر٦٥	٤٨ر٢٤	٣٩ر٨٥

المصدر : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

أما مشكلة الأمية ، فإنها تمثل نقطة ضعف كبرى ، فإنه وإن كان متوسط نسبة الأمية قد نقص في الوطن العربي من حوالي ٧١٪ إلـــى حوالـي ٣٩٪ خلال سبعة عشر عامـاً (جدول ٦) ، إلا أن نسبة الأمية في الوطن العربي تعد نسبة مرتفعة لا بد من العمل على خفضها إلى أبعد حد ممكن .

٢ر٣ ـ قصور الإنفاق على البحث والتطوير[1]

لعله من المناسب هنا أن نشير أولاً إلى المراحل التي يمر بها التطور التكنولوجي ، حيث نستطيع أن نتعرف على مراحل ستة نوجزها فيما يأتي :

١ ـ مرحلة النسخ / النقل / التقليد / المحاكاة (Copying)

وقد تتم هذه المرحلة بجهود ذاتية مثل اليابان : من لعب الأطفال إلى الساعات ، وقد يكون تحقيق ذلك بطريق التعاقد وشراء حق التصنيع (Know How) ، وهذا ما يعرف بنقل التكنولوجيا أو استزراع التكنولوجيا وتوطينها ، على أن يقتصر ذلك على التكنولوجيات المناسبة .

هذا ولا تكون مرحلة النسخ أو النقل مثمرة إلا إذا صاحبتها دراسة عميقة ، للوقوف على كيفية التوصل إليها ، ويكون من شأن هذه الدراسة إمكان تصميم وتنفيذ منتجات مماثلة ولكن باشتراطات ومواصفات متعددة .

٢ ـ مرحلة التحسين (Improvement)

٣ ـ مرحلة التعديل (Modification)

٤ ـ مرحلة التطويع / التوفيق (Adaptation)

٥ ـ مرحلة التطوير والاستفاضة والتوسع (Development / Elaboration)

٦ ـ مرحلة الابتكار والاختراع (Innovation / Creativity / Inventiveness)

(١) R & D = Research and Development

إن المهتمين بالتقـــدم التكنولوجي يضعون ضــــرورة الاهتمام بالبحث والتطوير في مرتبة البديهيات ، ولا شك أنهم محقون فيما ينحون إليه ، إذ أنه بدون البحث والتطوير لا يقوم صرح صناعي حقيقي ، ونسوق فيما يلي بعض ملاحظات هامة في هذا الشأن :

١ ـ لا بد من إنشاء وحدة للبحث والتطوير في كل مصنع من المصانع الهامة بالدولة .

٢ ـ يجب ألا يقل الاعتماد المخصص للبحوث العلمية عن ١٪ من الدخل القومي .

٣ ـ لا بد من مشاركة الجامعات ـ بإمكانياتها ـ في البحث عن حلول مناسبة للمشكلات الفنية القائمة ، ولا بد من تكامل الإمكانيات .

٤ ـ لا بد من الاشتراك في خدمات قواعد المعلومات وبراءات الاختراعات .

٥ ـ لا بد ـ في البداية ـ من الاكتفاء بأنماط محدودة يجري التركيز على تصميمها وصنعها ، الأمر الذي يحسّن بلا شك إقتصاديات الصناعة .

وليس مثال سيارة فولكس فاجن البيتل ببعيد .

٦ ـ لا بد من الاهتمام بالجودة والإتقان ، ولنضرب لذلك مثلاً اليابان التي بدأت بسمعة سيئة ، بيد أنها تمكنت من التغلب على ذلك والوصول إلى المقدمة خلال أقل من نصف قرن من الزمان . ولعل تقديس اليابانيين للعمل ، وتفانيهم في أدائه ، هو سر نهضتهم الكبرى ، وكأنما انطبقت عليهم الآية الكريمة : ﴿ **فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾[١] .

هذا ؛ ويبين الجدولان (٧) ، (٨) نسب الإنفاق على البحث العلمي وتوظيفه من أجل التنمية ، ومنهما تبدو بوضوح الفروق الجسيمة بين الدول المتقدمة صناعياً والدول النامية ، وذلك من حيث الإنفاق على البحث والتطوير ، وهو أمر لا نعجب معه من تزايد اتساع هوة التخلف التكنولوجي في الدول النامية .

---

(١) الفرقان : ٧٠ .

جـــــدول (٧)
نسبة الإنفاق على البحث العلمي وتوظيفه من أجل التنمية إلى إجمالي النا تج القومي

ـ الدول المتقدمة	:	٤ ـ ٢ ٪
ـ الكويت ـ حوالي	:	٢ ٪
ـ مصر	:	٧ر٠ ٪ (في أوائل السبعينات)
ـ السودان	:	٣ر٠ ٪
ـ بنجلاديش	:	٣ر٠ ٪
ـ إندونيسيا	:	٢ر٠ ٪
ـ إيـــران	:	٢ر٠ ٪
ـ باكستـان	:	٢ر٠ ٪

جـــــدول (٨)
نسبة الإنفاق على البحث العلمي وتوظيفه من أجل التنمية إلى مجموع إنفاق دول العالم

ـ دول المعسكر الغربي	:	٢ر٦٦ ٪
ـ دول المعسكر الشرقي	:	٢ر٣٢ ٪
ـ الدول الناميـــة	:	٦ر١ ٪

٣ر٣ - عدم تنمية القدرات الابتكارية

إن من أكثر العلل تأثيراً على التنمية التكنولوجية ، عدم الاهتمام - إهتماماً كافياً - بتشجيع ورعاية القدرات والمواهب الإبتكارية ، إذ إن ذلك سينعكس على التقدم التكنولوجي.

ومن المعروف أن نسبة المبتكرين - عموماً - تصل إلى حوالي إثنين لكل مليون مواطن ، فإن كانت الأمة الإسلامية يصل تعدادها إلى ما بين ١٠٠٠، ١٢٠٠ مليون مسلم ، فإن الأمة - في ظروف مناسبة - يمكن لها أن تفرز حوالي ٢٠٠٠ إلى ٢٤٠٠ من العقول الإبتكارية ، وإن وجود مثل هذا الرصيد الهائل من صفوة العقول ، لجدير بأن يؤدي - مع حسن تنشئته وكمال تربيته وتعليمه - إلى تواصل تقليل فجوة التخلف بمعدل عالٍ إلى الحد الذي يمكن معه اللحاق بركب التقدم التكنولوجي .

وجدير بالذكر أنه في مؤتمر عالمي عقد في ألمانيا الغربية في شهر مايو من عام ١٩٧٤، وضم ٢١ عالماً من الحائزين على جائزة نوبل ، فضلاً عن عدد من الفلاسفة في العلوم ، توصل الحاضرون إلى أن أكثر الطرق فاعليـة لتكوين العناصر المبتكرة هو طريق التلمذة (Apprenticeship) أو نظام المريدين ، أي أن يكون للعالم الإمام فريق من تلاميذه يصاحبونه في فكره ، ويترسمون خطاه ، ويأخذون عنه .

ولا شك أن للجامعة دوراً مؤثّراً وفعالاً في إعداد وتهيئة القدرات الإبتكارية والإبداعية الخلاقة .

ولا شك في أن الطريق ليس مفروشاً بالورود ، ولكن الإنجاز الحقيقي هو ذلك الإنجاز الذي يتم في حضور المعوقات ، ومن ثم في مواجهة التحديات .

٤ر٣ - الإنفجار السكاني

إن الزيادة في عدد السكان تؤدي - في دول العالم الثالث خاصة - إلى خفض نصيب الفرد من إجمالي الناتج القومي ، حيث إن مثل هذه الزيادة تؤدي - في أغلب الأحيان - إلى زيادة البطالة مع انحسار التنمية التكنولوجية .

ويشير جدول رقم (٩) إلى أن معدل النمو الطبيعي في سكان الوطن العربي تراوح بين حد أدنى مقداره ٠ر٢٪ في دولة الإمارات ، وحد أعلى وصل إلى ٨ر٥٪ في سورية ، وذلك في عام ١٩٨٩ .

جـــدول (٩)
بعض المؤشرات السكانية للدول العربية
(١٩٨٩)

(نسب مئوية)

الدولـــــة	معدل النمو الطبيعي الإجمالي (١٩٨٩)	معدل نمو السكان الحضر (١٩٨٩)	نسبة سكان الحضر (١٩٨٩)
الأردن	٤ر٠	٥ر١	٦٧ر٤
الإمارات	٢ر٠	٥ر٢	٧٥ر٥
البحرين	٤ر٥	٤ر٧	٨٢ر٧
تونس	٢ر٤	٣ر٧	٦٠ر٠
الجزائر	٣ر٢	٣ر٧	٤٤ر٥
جيبوتي	–	–	–
السعودية	٣ر٥	٦ر١	٧٥ر٨
السودان	٥ر٠	٣ر٧	٢١ر٧
سورية	٥ر٨	٤ر٤	٥١ر٣
الصومال	٢ر٥	٥ر٤	٣٧ر٣
العراق	٣ر٥	٤ر٨	٧٥ر٥
عُمان	٣ر٤	٨ر٤	١٠ر٢
فلسطين	–	–	–
قطـــر	٢ر٧	٧ر٥	٨٩ر٣
الكويــت	٣ر٠	٦ر٢	٩٥ر٣
لبنـــان	٢ر٢	١ر٤	٨٢ر٧
ليبيـــا	٣ر٦	٦ر٤	٦٩ر١
مصـــر	٢ر٧	٥ر٢	٤٨ر٣
المغرب	٢ر٧	٤ر١	٤٧ر٨
موريتانيا	٥ر٠	٨ر٠	٤٠ر٦
اليمن الشمالي	٥ر٣	٨ر٢	٢٤ر٠
اليمن الجنوبي	٣ر٣	٤ر٣	٤٢ر٦

٤ ـ إمكانات الوطن العربي

١ر٤ ـ مؤشرات عامة :

إن الصورة القاتمة التي ظهـــرت عليها قسمات التحدي التكنولوجي للدول النامية قد يخفف من قساوتها إمتلاك الأمة الإسلامية عامة والدول العربية خاصة لإمكانات يمكن الإفادة منها واستثمارها في التنمية التكنولوجية ، ولنبدأ ببيان موقف الصادرات والواردات في الوطن العربي ، حيث نجد في جدول (١٠) أنه بينما يمثل الوقود المعدني جلّ الصادرات العربية ، نجد أن حوالي ثلثي الواردات العربية من المصنوعات والآلات ومعدات النقل والسلع غير المصنعة ، فلو أن التنمية التكنولوجية أخذت نصيباً طيباً من الاهتمام والأولوية ، لأمكن تصحيح نسب الصادرات والواردات بدلاً من الاعتماد ـ بشكل مكثف ـ على تصدير الوقود المعدني فحسب .

٢ر٤ ـ النفط والغاز الطبيعي

إن النفط والغاز الطبيعي يمثلان دعامة أساسية لاقتصاد الوطن العربي ، ومن ثم سنبين فيما يأتي الملامح الرئيسية لهذا المصدر الهام من مصادر الدخل العربي .

أ ـ النفط العربي (١٩٨٨)

- إنتاج النفط الخام : ٦ر١٤ مليون برميل يومياً
- نسبة إنتاج النفط الخام العربي إلى العالمي : ٧ر٢٣٪
- نسبة إحتياطي النفط العربي المؤكد إلى الاحتياطي العالمي : ٤ر٦٠٪

جـــدول (١٠)

نِسَب الصادرات والواردات العربية في عام ١٩٨٦

السلــــع	الصادرات ٪	الواردات ٪
أغذية ومشروبــــات	٣ر٣	١٦ر٥
مواد خــــام	٣ر٣	٦ر٥
مواد كيميائيــــة	٣ر٧	٧ر١
مصنوعات وسلع غير مصنعــة	٨ر٣	٣٣ر٥
وقود معدنــــي	٨١ر٤	٥ر٤
آلات ومعــدات نقــل	–	٣١ر٩

- الصادرات السلعية العربية (١٩٨٧) : ٧٨ر١ مليار دولار
- الواردات السلعية العربيــــة : ٦٧ر٧ مليار دولار
- نسبة الصادرات العربية إلى الصادرات العالمية : ١ر٤٪
- نسبة الواردات العربية إلى الواردات العالميــة : ٨ر٣٪

ومما يثلج الصدر ، أن إنتاج النفط الخام العربي يصل إلى حوالي ربع الإنتاج العالمي (عام ١٩٨٨) ، وأن نسبــة احتياطي النفط يبلــغ حوالي ٦٠٪ من الاحتياطي العالمي (عام ١٩٨٨) ، ولقد آن الأوان لأن نترجم ثروة المصادر الطبيعية إلى ثراء تكنولوجي ، وإلا تحتــم علينا أن نسبح في فلك الدول والمجموعات المحتكرة للتكنولوجيا ، ولعل جدول (١١) ، الذي يشير إلى طاقة التكرير ، يشكل خير شاهد على ما نقول ، إذ إنه بينما يشكل الإنتاج العربي من النفط حوالي ربــع الإنتاج العالمي ، فإن طاقة التكرير العربية تقف عند حـــد ٧ر٥٪ تقريباً ، أي عند حوالــي ثلث ما يجب أن تكون عليه هذه الطاقة .

ب ـ الغاز الطبيعي (١٩٨٨)

إن موقف الوطن العربي من حيث إنتاج الغاز الطبيعي أقل شأناً من الدور الذي يقوم به النفط العربي ، حيث إنه بينما تصل نسبة إنتاج الغاز الطبيعي العربي إلى العالمي حوالي ١٠٪ ، تبلغ نسبة احتياطي الغاز الطبيعي العربي للعالمي حوالي ٢١٪ فحسب .

٣ر٤ ـ الخامات المعدنية

إنه فضلاً عن مَصْدَري النفط والغاز الطبيعي ، فإن الله قد منّ على الوطن العربي بمصادر أخرى من المصادر الطبيعية ، منها خامات الحديد ، والنحاس ، والرصاص ، والزنك ، جدول (١٢) .

جـــدول (١١)
طاقة التكرير واستهلاك الطاقة
في الوطن العربي (١٩٨٣ ـ ١٩٨٨)

(الوحدة لطاقة التكرير : ألف برميل يومياً)

	١٩٨٣	١٩٨٤	١٩٨٥	١٩٨٦	١٩٨٧	١٩٨٨
طاقة التكرير العالمية	٧٥٢٠٠	٧٥٢٠٠	٧٤٠٠٠	٧٣٧٠٠	٧٣٨٧٠	٧٤٩١٤
طاقة التكرير في الوطن العربي	٤٤١٧	٥٠٧٢	٥٣٢٢	٥٣٣٠	٥٣٧٠	٥٦٠٤
نسبة طاقة التكرير العربية إلى طاقة التكرير العالمية ٪	٥ر٩	٦ر٤	٧ر٤	٧ر٢	٧ر٣	٧ر٥
إجمالي إستهلاك الطاقة في الوطن العربي (الوحدة : ألف طن مكافىء نفط)		١٦٩٣٣٤	١٧٧١١٦	١٨٢٧٤٨	١٩٤٥٤٨	٢٠٥٣٩٠
معدل الزيادة السنوية في استهلاك الطاقة ٪			٤ر٥	٣ر١٨	٦ر٥	٥ر٦

المصادر : منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول : تقرير الأمين العام السنوي الخامس عشر ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م ، الكويت ١٩٨٩ .

جـــدول (١٢)

إنتاج خامات المعادن الرئيسية في الدول العربية

(١٩٨٢ - ١٩٨٧)

(ألف طن متري)

	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤	١٩٨٥	١٩٨٦	١٩٨٧
إجمالي الدول العربية						
- خام الحديد	١٣٠٧٩	١٣٧٩٨	١٥٥٦١	١٥٨٣١	١٦٦٢٣	١٧٠٠٠
- خام النحاس	٦٣	٧٤	٨٠	٧٤	٧٨	٧٩
- خام الرصاص	١٦٠	١٥٠	١٥٤	١٦٠	١٦٨	-
- خام الزنك	٦٠	٥٨	٦١	٦٧	٧٠	-
تونـــس						
- خام الحديد	٢٧٤	٣١٤	٣٠٩	٣٠٩	٣٢٤	-
- خام الرصاص	٩	٨	٧	٤	٤	-
- خام الزنك	١٥	١٤	١٢	١٠	١١	-
عمـــان						
- خام النحـــاس	-	٤	١٥	١٤	١٥	١٦
مصـــر						
- خام الحديـــد	٢١٣٩	٢٢٢٣	١٩٠١	١٩٥٠	٢٠٤٨	-
المغـــرب						
- خام الحديد	٢٢٤	١٧٣	١٦٣	١٨٠	١٨٩	-
- خام النحاس	٦٣	٧٠	٦٥	٦٠	٦٣	-
- خام الرصاص	١٤٨	١٥	٢٠	٢٨	٢٩	-
- خام الزنك	٢٢	١٥	٢٠	٢٨	٢٩	-

المصدر : المنظمة العربية للتنمية الصناعية ، الإحصاءات الصناعية ١٩٨٧ ، بغداد ١٩٨٨ .

٤ر٤ الثروة الزراعية

إنه فضلاً عن المصادر الطبيعية والقوى العاملة ، فإن الوطن العربي يمتلك ثروة زراعية لا يستهان بها ، ونبين فيما يأتي بعض مؤشرات عامة لهذه الثروة (١٩٨٨) .

أ ـ مساحات الأرض

- المساحة الكلية للدول العربية : ١٤ مليون كيلو متر مربع
- نسبة مساحة الدول العربية للعالم : ٢ر١٠٪
- مساحة الأراضي الصالحة للزراعة : ٣٢ر١ مليون كيلو متر مربع
- نسبة مساحة الأراضي الصالحة للزراعة إلى المساحة الكلية للوطن العربي : ٤٣ر٩٪
- نسبة مساحة الأراضي المزروعة (١٩٨٥) إلى مساحة الأراضي الصالحة للزراعة : ٣٠٪
- نسبة المساحة المزروعة إلى المساحة الكلية : ٨٣ر٢٪

ب ـ السكان والعمالة

- عدد سكان الوطن العربي حوالي : ٢٢٠ مليون نسمة
- نسبة سكان الوطن العربي للعالم حوالي : ٤٪
- العمالة العربية الكلية حوالي : ٦٠ مليون عامل
- العمالة العربية في مجال الزراعة حوالي : ٣٠ مليون عامل

الخُلاصة والتّوصيـــات

تعرِض هذه الدراسة لقضية التقدم المعاصر في التكنولوجيات ، ولانعكاس تسارع هذه التقنيات أو الفنّيات على الدول النامية ، حيث تبدأ هذه الدراسة ببيان سمات الانفتاح التكنولوجي ، وما صاحب ذلك من ازدياد هائل في معدلات النمو المعرفي بوجه عام ، والتنمية التكنولوجية بوجه خاص ، الأمر الذي يشكل تحدياً خطيراً للدول النامية التي تكاد تكون قد وقعت في إسار التبعية التكنولوجية ودارت في فلك الدول الغنية .

تُعرّج الدراسة ـ بعد ذلك ـ على أوجه التعويق في التنمية التكنولوجية ، حيث تستعين الدراسة ببعض بيانات عن قصور الإنفاق في مجالات التعليم ، والبحث والتطوير ، وتنمية القدرات الإبتكارية ، وتشير الدراسة إلى أنه ، برغم المعوقات التي تجابه مسيرة التنمية في الوطن العربي ، فإن الإمكانات الطيبة للبلدان العربية ، قد تقلل من قتامة التحدي التكنولوجي ، لو أمكن تحويل بعض العوائد من المصادر الطبيعية إلى مكاسب تكنولوجية .

هذا ؛ وتخلص الدراسة إلى مجموعة من التوصيات نوجزها فيما يأتي :

١ ـ ضرورة زيادة الإنفاق على التعليم بصوره كافة ، باعتباره مدخلاً أساسياً لإعداد البشر ، وهو أثمن ما تملكه أمة .

٢ ـ الاهتمام بنشر الخلق الكريم ، وتثبيت القيم الحضارية والسلوكية، من تقديس للعمل، والإجادة في أدائه ، واحترام القوانين ، وطاعة الرؤساء ، والتعاون الصادق مع الزملاء .

٣ ـ مضاعفة الاهتمام بالدراسات العليا في دور العلم ، والمشاركة في حل المشكلات التكنولوجية التي تعترض مسيرة التقدم .

٤ ـ الاهتمام بجلب التكنولوجيا المناسبة وتطويعها واستزراعها واستنباطها ونقلها .

٥ ـ دراسة التكنولوجيات الواردة في الإتفاقيات وعقود التصنيع دراسة واعية مستفيضة، إلى الحد الذي يمكن معه الإعتماد على النفس في التوسع الصناعي .

٦ ـ العمل على دعم وتنشيط التطوير والبحث العلمي والتكنولوجي .

٧ ـ المتابعة الواعية لكل المستجدات على ساحة التكنولوجيا .

٨ ـ تنمية القدرات الإبتكارية والإبداع التقني .

٩ ـ تنمية الريادة الإدارية التي تتجاوز مواصفات القيادة الإدارية بمقدرة أعلى من الإبداع والابتكار .

١٠ـ الاهتمام بتنظيم وتنسيق العمل في جماعات .

هـل للاسـلام دور
في النظام العالمي الجديد ؟!

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي*

١ ـ من المؤسف أن هذا التساؤل إنما يشغل بال المجتمعات الغربية وحدها . فهم الذين يتطارحون فيما بينهم هذا الأمر في اهتمام بالغ ، وفي افتراضات خيالية شتى للآثار والنتائج المتوقعة .

أما المجتمعات الاسلامية التي يفترض أن تكون هي المصدر الأول للاهتمام به ، لا بل أن تكون هي الساعية الى رسم الجواب المطلوب ، ثم الساعية الى وضعه موضع التنفيذ فهي في شغل شاغل عن هذا كله .

غير أنها ـ والحق يقال ـ تشترك مع ساسة المجتمعات الغربية والمفكرين فيها ، في الحديث عن طبيعة نظام عالمي جديد يتجه التفكير اليه ، بل يوشك أن يتكامل ميلاده . وتصغي باهتمام ربما الى ما قد يقال عن طبيعة هذا النظام وأهدافه . وربما ظهر في مجتمعاتنا هذه من قد يطرح بعض التعليقات أو التصورات أو التوقعات ، تظرفاً أو لفتاً للأنظار ، أو تهرباً ـ ولو في الشكل ـ من العزلة التي تُلاحقنا ، وتقترب دائرتها المحيطة بنا، تدريجياً من سائر الجهات والاطراف .

مهما يكن ، فإن هذا الاشتراك لا يتجاوز الحدود الكلامية ، بل الانشائية التقليدية. أما هذا الذي يهتم به الفكر الغربي من التساؤل عن مدى امكانية افتراض أن يلعب الإسلام دوراً ما في اختيار هذا النظام أو إرسائه أو الوقوف في وجهه ، فهو ما لا يعبأ به المجتمع الاسلامي لا على مستوى الساسة القياديين ، ولا على مستوى العلماء والمفكرين . ولا شك أن الوقائع الفردية في مثل هذا الأمر ، لا قيمة لها ، ولا يرصد لها أيّ حساب .

---

* العضو العامل في المجمع الملكي ، رئيس قسم علوم العقائد والاديان / كلية الشريعة جامعة دمشق / دمشق ـ سوريا .

٢ ـ ولكن فلنتساءل عن السبب الذي يكمن وراء اهتمام الغربيين بهذا الذي كان أحرى بالمسلمين أنفسهم أن يهتموا به .. ما الذي يحملهم على افتراض أن الاسلام يمكن أن يتسرب بعقائده أو أي من مبادئه الفكرية والحضارية الى بنيان النظام العالمي الجديد الذي يحلم به الغرب ولما يولد بعد ، ومن ثم فما الذي يخيفهم منه ، على احتمال أن يكون له في هذا النظام أي دور أو وجود ؟ .

ان السبب يتمثل في تحطم ذلك الصرح الذي حسب كثير من الناس ، الى أمد قريب انه يشكل ايديولوجية لحضارة انسانية كاملة ، بدءاً من الأساس الاعتقادي المتمثل في تفسير الكون والانسان والحياة ، وانتهاء بالانظمة الحياتية والسلوكية المختلفة التي تعدّ ثمرة طبيعية ، بل علمية لذلك الأساس .

واننا لنذكر جميعاً كيف أن محترفي الغزو الفكري ضد الاسلام ، على اختلاف نحلهم وانتماءاتهم السياسية ، كانوا يرون في ذلك الصرح الماركسي ، الصيغة العلمية الاولى ، بل الوحيدة ، التي يمكن أن يجابه بها المدّ الاسلامي كي يبقى حبيساً داخل حدوده التقليدية الضيقة ، بل كان الأمل قوياً أن يتحقق لهم من ذلك الصرح سلاح هجومي يقارعون به العقائد والمبادىء والأنظمة الاسلامية داخـــل أفكار المسلمين أنفسهم .

فلما تهاوى ذلك البنيان ، وتحول الى حطام من قمته الى أساسه ، افزع الأمر الأعداء التقليديين للاسلام والمسلمين في المعسكر الغربي ، بمقدار ما أسعدهم وأثلج صدورهم . ذلك لأنهم رأوا أن انهيار المعسكر الشرقي بكل أسسه ومقوماته ، يعني تحطم الترسانة الوحيدة التي كانت تحول دون تسرب مبادىء الاسلام وقيمه الى الفكر الغربي والمجتمعات الغربية . بل كانت تحاول أن تشلّ فاعليته الحية حتى داخل الوطن الاسلامي .

واذا كانت أمريكا ـ كما هو معلوم لنا جميعاً ـ تستعين فيما مضى ، لدرء خطر الاسلام عنها ، ولاضعاف فاعليته في بلاده ، بالفلسفة الماركسية ومروجيها وأنصارها ، بالدعم والتشجيع وتوطيد المناخات الملائمة لنموّ تلك الفلسفة وانتشارها ـ فبمن تستعين لدرء هذا الخطر اليوم ؟ ومن خـــلال أي صيغة الحادية أو لا دينية ، يمكنها أن تتقدم لمحاربته ؟ ومن أين لها أن تخلـــق البديل المناسب عما كان معـــروفاً فـــي بلادنا باسم « الشيوعية الأمريكية » ؟

لقد تهاوت الترسانة التي كانت خير أداة ، من وجهة نظر الغرب ، لتحطيم النشاط الاسلامي في ربوعه وخارج ربوعه ، وهو الأمر الذي جعل خطر هذا النشاط وشيكاً ، وجعل السبيل بين الاسلام وعقول الناس ميسرة معبدة . هذا الى جانب أن كتلاً إسلامية لا يستهان بها ظهرت تحت أنقاض ذلك المعسكر الذي تهاوى ، وهي أقوى ما تكون اعتزازاً بهذا الدين وقناعة به وادراكاً له ، دون أن يخنق أو يضعف شيئاً من ذلك كله ، القهر الذي تطاول أمده واستمرّ قرابة قرن من الزمن .

٣ ـ اذن ، كان لا بدّ أن تزداد مخاوف الغرب من الاسلام ، وأن يفترض كثيراً من النتائج التي لن تكون لصالحه ، في الوقت الذي لم يستطع أيضاً أن يخفي اغتباطه بانهيار المعسكر المنافس الذي استراح الغرب بزواله من أعباء الحرب الباردة بسائر ذيولها وتبعاتها .

ولعلّ أول تصريح يكشف عن الحجم الحقيقي لهذه المخاوف ، ويتم نشره وتصديره بطريقة لم نعهدها لدى الغرب من قبل ، تلك الكلمات التي نقلتها اذاعة لندن في بثها العربي عن لسان تاتشر ، مساء اليوم الثالث من شهر شباط عام ١٩٩٠م في برنامج الشؤون العربية في الصحف البريطانية . وهذا هو التصريح :

« كان » أمام الغرب عدوان اثنان : الشيوعية والإسلام . وقد تم القضاء على العدوّ الأول ، دون أن يقدم الغرب في سبيل ذلك خسائر تذكر . ويقف الغرب اليوم مع الشرق الأرثوذوكسي والكاثوليكي في خندق واحد ، لمجابهة العـــدو الباقي وهو الاسلام » .

ولا أدري هل كان لحرارة هذا التصريح ومظهره العدواني الواضح ، أثر ما في اقصاء تاتشر عن الحكم ، وقد جاء بعد تصريحها هذا ببضعة أشهر فقط . أياً كان الأمر، فان التصريحات المشابهة ، ظلت تصدر الى يومنا هذا تباعاً من مسؤولين غربيين في كل من أمريكا وفرنسا ، وان كانت تتسم بأساليب أقل اثارة ، وتبتعد في نقدها المباشر عن جوهر الاسلام ، لتتجه الى ما يصاحبه اليوم من أحوال كثير من المسلمين وأنشطتهم التي يمارسونها باسم الاسلام ، وفي مقدمة ذلك مظاهر العنف والتطرف التي غدت بالنسبة الى الغرب ذريعة هامة وباهظة الثمن ، قد لا يقوم مقامها أي بديل في ستر عدوانهم الحقيقي لجوهر الاسلام .

ان الانتقادات الشديدة التي توجه الى الاسلام اليوم ، من خلال استمرار لفت النظر الى ما يسمونه بالتطرف آنا والأصولية آنا آخر ، ومن خلال رسم صور كاريكاتورية وهمية سوداء ، لكثير من مبادئه وقيمه ، تتزايد يوماً بعد يوم ، غير أنها تبرز مشاعر الخوف منه ، أكثر من أن تعبّر عن مشاعر الازدراء والاشمئزاز تجاهه .

وقد يجدر في هذه المناسبة أن أنقل ـ مثالاً بارزاً يجسد ما أقول ـ صورة دقيقة عن حوار جرى بين السيد الرئيس حافظ الأسد ، رئيس الجمهورية العربية السورية ، ومعاون وزير الخارجية الأمريكية السابق ، السيد مورفي ، في لقاء تم بينهما في دمشق ، أنقلها طبقاً لما حدثني به السيد الرئيس مباشرة : قال السيد مورفي : ألا تلاحظون أن خطر المسلمين الأصوليين عاد يظهر في بلادكم من جديد ؟

أجابه السيد الرئيس : ليس بيننا وبين المسلمين الأصوليين أي مشكلة .. وإنما كانت مشكلتنا مع المسلمين غير الأصوليين .

ثم قال له : ان أصول الاسلام تتمثل في القرآن الذي هو كلام الله ، وفي السُنة التي هي تعاليم رسول الله ، ولا شك أن المتمسك بهذين الأصلين انسان مثالي الأخلاق والسلوك . ثم تابع الرئيس يقول : لقد أصبحت شخصياً على قناعة تامة بأن مشكلات الشرق ، ومشكلاتنا بالذات ، لا يمكن حلّها الاّ من خلال الاسلام الأصولي .

قلت للسيد الرئيس : كيف كانت انطباعات الرجل من كلامكم هذا ؟ أجاب قائلاً : لقد حاول جاهداً أن يخفي فزعه الذي اتسم واضحاً على قسمات وجهه ، وأن يبدّد حيرته التي تملكته في الاجابة عما لم يكن يتوقع أن يسمع !.

وقد حدثني قبل عامين وزير الشؤون الدينية الأسبق في الجزائر ، ان الرئيس الفرنسي أرسل الى الرئيس الشاذلي بن جديد ، بعد اعلان النظام الديمقراطي في الجزائر، ووضعه موضع التنفيذ ، يناشده إعادة النظر في هذا القرار ، لا سيما بالنسبة للحركات والانشطة الاسلامية، وأكد له أن فرنسا مستعدة مقابل ذلك لتحمل سائر الديون التي ترزح الجزائر تحت وطأتها .. ولكن الرئيس الشاذلي أجابه : ان أبواب الديمقراطية قد تم فتحها ولا مجال لاغلاقها ثانية . أما الديون فالله هو المستعان في سدادها .

اذن فالغرب في الوقت الذي أعلن عن اغتباطه بزوال المعسكر الشرقي المناوىء ، لم يستطع أن يخفي فزعه الشديد من مدّ اسلامي متوقع ، في اعقاب انهيار سدّ الالحاد الشيوعي .

على أن ميلاد هذا الفزع أو التخوف من المدّ الاسلامي المتوقع ، لم يكن مصاحباً لانهيار المعسكر الشيوعي وموت الأيديولوجية الماركسية . بل هو تخوف قديم ، ظلّ يساور قادة المجتمعات الغربية بدءاً من عصر النهضة الاوروبية الذي صاحب انهيار الخلافة العثمانية ، ولعلنا لم ننس بعد تقارير كبار المبشرين والمستشرقين من أمثال صموئيل زويمر ، ووليم بالكراد ، والمستشرق الانكليزي جب[1] ، وغيرهم . وهي جميعاً تلتقي على التنبيه الى خطورة الاسلام على الحضارة الغربية ، نظراً لما يتصف به من مقومات البقاء والعوامل الذاتية التي تدفع به الى النمو والانتشار خارج أقطاره .

غير أن هذا التخوف ازداد سلطانه ، في نفوس قادة تلك المجتمعات ، بانهيار هذا السدّ الذي كان يشكل - في تصورهم - أقوى حاجز ، يعوق الاسلام (باسم العلم والفلسفة المادية الحديثة) عن التقدم والانتشار .

٤ ـ والآن ، ما هي التدابير التي اتخذها الغربيون ، على اثر ظهور هذا الوضع العالمي الجديد الذي زاد من خطورة الاسلام على مصالحهم ، فيما يقدرون ويتصورون ؟

أعتقد أن هذه التدابير التي سأشير اليها باختصار شديد ، لم تتخذ عقب انهيار المعسكر الاشتراكي أو الشيوعي ، كما قد يتصور البعض . بل كانت مرسومة جنباً الى جنب مع التدابير المتخذة للقضاء على ذلك المعسكر والتخلص من عقابيله كلها .. فالخطط المرسومة والرامية الى زج المعسكر الاشتراكي الى الافلاس فالدمار ، كانت ـ في الحقيقة ـ جزءاً من الخطط الرامية الى تحجيم فاعلية الاسلام والمسلمين ، وتبديد سلطان الاسلام وقوته من خلال شغل العرب والمسلمين بمزيد من المشكلات وأسباب الفرقة والشتات .

---

(١) انظر التقرير المطول الذي كتبه المستشرق الانكليزي H.A.R.Gipp تحت عنوان : (Whither Islam) أين يتجه الاسلام . طبعة لندن عام ١٩٣٢م .

أي أن سلسلة التدابير التي اتخذت لانهاء الاتحاد السوفياتي وتفكيك عراه ، هي ذاتها التي تضمنت ، فيما تضمنت ، رسم الأسباب المباشرة لما قد جرى بعد ذلك من اجتياح العراق للكويت ، ثم الجاء دول المنطقة الى الترامي على أذيال الولايات المتحدة ، لكي يتاح لها أن تغزو المنطقة ، وهي متفضلة ومشكورة ! ..

أجل فسلسلة التدابير واحدة ، وحلقاتها متساندة ومتّسقة ، وليس في الأمر خطة مستقلة ألحقت بأختها بعد ظهور أحداث أو طروء مفاجآت(١) .

ولكن ما هي هذه التدابير التي كان الغرب ولا يزال يتخذها عموماً ، ثم الولايات المتحدة خاصة ، من أجل تبديد المخاوف المتفاقمة لديها ، من مدّ اسلامي ينتشر ويهيمن على أعقاب انفراد القوة الأمريكية ، تقريباً ، على مسرح الأحداث ؟

ان الحديث التفصيلي عن هذه التدابير يدخلنا في متاهات وعلاقات معقدة جداً وهي هدف مطلوب بحدّ ذاته ، بل هي جزء أساسي من سلسلة التدابير ذاتها . غير أن نظرة متفحصة الى الخطوط العريضة المستخلصة ، تضعنا أمام تبصر واضح للأهداف الفرعية التالية :

أولاً ـ اثارة مزيد من المشكلات التي تستعصي على الحلّ ، في العلاقات القائمة بين معظم الدول الاسلامية لا سيما العربية ، ابتغاء تبديد ما قد تتمتع به من استقرار وقوة، وزجها جميعاً في يمّ من القلق وفقدان الثقة ، ومن ثم اخضاعها لتيار التبعية السياسية والفكرية والاقتصادية للغرب .

ان حرب الاستنزاف التي اتقد سعيرها بين العراق وايران ، وانتهت الى ما عبروا عنه مجاملة : (لا غالب ولا مغلوب) وهي إنما انتهت في الحقيقة الى هلاك مرسوم حاق بكلا الطرفين ـ ان هذه الحرب ليست الا واحدة من هذه المشكلات المبرمجة ابتغاء الوصول الى آثارها المتطلّبة . ولعل الذين تابعوا ما سمي بفضيحة ايران غيت ، وصبروا

(١) كتب رياض الريس مقالاً في مجلة المستقبل العدد ١٢٧ الصادر في تموز لعام ١٩٧٩ ، بعنوان (الخليج العربي ، عودة الاستعمار) ذكر فيه أن دبلوماسياً بريطانياً سابقاً أطلعه على خطة استعمارية جديدة تهدف الى الاستيلاء على ينابيع البترول في الخليج ، وان الاتحاد السوفياتي لن يعارض .

على متابعة تعقيداتها المصطنعة بدقة الى النهاية ، أتيح لهم أن يضعو أيديهم على الخطط الخفية التي رسمت ابتغاء هدف واحد ، هو أن تدور من تلك الحرب رحى الدمار على سائر ما قد يوجد من قدرات مادية ومعنوية لدى كلا الطرفين ، بعد اثارة عوامل البغضاء العرقية بينهما الى أقصى الحدود الممكنة[1] .

وان مأساة الخليج التي بدأت بخطة اجتياح العراق للكويت ، ثم أدت الى انتشار الجيوش الأمريكية وحلفائها متمركزة حول ينابيع البترول ، ثم خلقت من ورائها عوامل التدابر والبغضاء ، وأحالت كثيراً من دول المنطقة ان لم نقل كلها الى محاور متشرذمة ، قد تقطعت مما بينها جسور التواصل والقربى ، لتترسخ في مكانها جسور من العاطفة المشبوبة نحو الغرب ! .. ـ أقول : ان هذه المأساة التي فرضت على المنطقة فرضاً ، حلقة فريدة في سلسلة هذه التدابير المبرمجة ، وهي مرتبطة ارتباطاً مباشراً بعمليات التعجيل بالقضاء على المعسكر الشرقي .

والثمرة المرجوة من جرّ هذه المأساة ، هي فرض السياسة الأمريكية الجديدة على المنطقة ، والدائرة على محور (سأنقذكم من الغرق بشرط أن تعطوني قلوبكم)[2] .

ثانياً ـ اثارة الخصومات المفتعلة والدائرة بين قادة كثير من دول المنطقة العربية ، وفئات من مواطنيها باسم السعي الى تحقيق اصلاحات اسلامية ، والتي تنتهي في أغلب الأحيان الى هياجات عدوانية واتهامات بالمروق والكفر ، وهي ليست في حقيقتها الا من دخان هذه التدابير . وقد تعوق كثافة الدخان عن رؤية السبل المتخذة لذلك . ولكنّ اختراق الدخان يسير على من يراقب الأمور ويتّبع سلسلة الأحداث .

ان هذا الهياج المتصادم يتم من خلال خطتين متقاطعتين ، تنتهيان الى غاية واحدة.. الأولى منهما تتمثل في استثارة العواطف الاسلامية المتأججة في صدور كثير من الشباب ، ثم السعي بهم الى مزاحمة الحكام على كراسي الحكم ، لفرض الاسلام

---

(١) اقرأ فصل « ايران غيت » من كتاب (أمراء الموساد) تأليف : يوسي ميلمان ودان رافيف .

(٢) الدكتور عبدالله أحمد الأهدل ، حوارات مع مسلمين أوروبيين : ١٣ (دار القلم) .

على الناس من هناك .. والثانية منهما تتمثل في لفت أنظار الحكام الى الخطر الحقيقي الكامن في تحركات هؤلاء الناس وتصرفاتهم ، بل ربما في لفت أنظارهم - في الوقت المناسب - الى صلات خفية ممتدة بين هؤلاء الاسلاميين وقوى أجنبية معادية .

ثالثاً - الثمرة المرجوة من التخطيط لهذا التصادم تحقيق غايتين اثنتين : أولاهما تفويت فرص الاستقرار في المنطقة كلها ما أمكن ، عن طريق شغل القادة والحكام بالعمل على درء هذه الأخطار الداخلية .. والثانية تسليط الجماعات الاسلامية وفئات الحكام بعضها على بعض ، كي يتم تمزيق الطاقات الاسلامية عن طريق التآكل الذاتي ، بعيداً عن أيّ يد أجنبية ظاهرة قد تتهم بالتدخل .

ولا شك أن سلسلة هذه العمليات التي تنفذ باتقان ، قد آنت ولا تزال ثمارها المرّة هذه . ونظرة سريعة الى أحداث المناطق الاسلامية القريبة منا والبعيدة ، تجسّد هذا الواقع كله ، بدءاً من التدابير الخفية التي لم تعد ، بحمد الله ، خفية ، وانتهاء بالثمار المرة التي عم أفواهنا جميعاً مذاقها .

٥ - والآن ، وعلى ضوء كل هذا الذي أوضحناه ، يحين لنا أن نتساءل : هل للاسلام دور في النظام العالمي الجديد ؟!

عندما ننظر الى الاسلام بحدّ ذاته ، بقطع النظر عن المسلمين ، فالجواب ماثل في الذهن رأساً ، وهو : نعم ، لا شك أن الاسلام له دور الريادة في قيادة العالم الجديد .

ذلك لأن المناخ العام في المجتمع الغربي ، بشطريه الأوروبي والأمريكي ، قد تهيأ لتفهم الاسلام وقبوله ، كما لم يتهيأ لذلك في أيّ عهد سابق من قبل . ان الانسان الغربي لم يعد يجد اليوم في نفسه شيئاً من الثقة التي كان يشعر بها تجاه الحضارة الغربية فضلاً عن الاعتزاز الذي كان يتمتع به .

فالمجتمع هناك لا يزال متجهاً الى مزيد من التفكك ، والأسرة ماضية الى الاضمحلال حتى غدت في كثير من المناطق وهماً لا يجسّده الا هيكل دار قائمة . والنظام الاقتصادي يثبت في كل يوم مزيداً من الأدلة على سوء نتائجه ، وخيبة آمال الناس فيه ، والكساد متفاقم ، والبطالة المستشرية ثقل خافق يتعاظم وقعه المخيف على

المجتمع كله .. وتتزايد ، تحت وطأة ذلك كله ، عوامل القلق النفسي ، وتتلاحق الأسئلة الملحة عن أسرار الانفصال العجيب بين السعادة النفسية وأسبابها المادية المتوافرة ، وتزداد الأسئلة في غمار ذلك عن أصل هذا الكون .. وقيمة الحياة .. ونهايتها .. وما قد يكون وراءها ، والسبيل الأمثل الى طمأنينة النفس وراحة الفؤاد(١) .

وما أن يتاح لك أن تبعث نظرة متأملة الى تلك المجتمعات التي هذه هي حالها ، حتى تلاحظ بوضوح أن السعي اللاهث هناك الى المتعة وأسبابها ، لم يعد كما كان من قبل ، استزادة من مقومات السعادة ورغد العيش ، وانما هو اليوم ، على الأغلب ، مجرد فرار من وطأة القلق والاضطراب وسبب لنسيان أو تناسي المجتمع وأوضاعه السائدة التي تظل سائرة بشكل متناقض مع فطرة الانسان وحاجاته الأصلية .

هذا هو المناخ العام الذي يسود المجتمع الغربي ، ولا شك أنه تعبير فطري صريح وقاطع عن حاجاته الماسّة ، بل الحتمية ، الى الاسلام .

ذلك لأنه ليس ثمة من علاج لسلسلة هذه المشكلات كلها الا الاسلام ، متمثلاً في عقائده القائمة على المنطق والعلم والمنفعة مع الفطرة الانسانية ، ثم في عباداته التي تبقي على حيوية تلك العقائد ، وتمنحها من القوة والفاعلية ما تهيمن به على سلوك الانسان ، ثم في أخلاقه وأحكامه السلوكية التي تضمن للمجتمع تماسكه ، وتحصن الأسرة وتحيطها باطار من الحماية والقداسة .

غير أن الاسلام لا يتحقق الا بمسلمين فهموا مظهره المتجسد ، وهم الحماة له ، وهم الأدلاء عليه ، وهم المعرفون ضرورته ووجه الحاجة اليه ، لا سيما عندما يتكاثر الأعداء والخصوم المتربصون به ، والذين يرون في المناخ الذي ذكرناه ما يجسّد خطورة الاسلام عليهم ، بدلاً من أن يبصروا فيه الدواء الشافي لهم . فأين هم هؤلاء المسلمون ؟

ان المسلمين اليوم، على كثرتهم ، لا قبل لهم برصد المخططات التي ترسم ضدهم، ثم تنفّذ تباعاً في حقهم ، فضلاً عن أن يواجهوها بخطط وتدابير مقابلة .. فضلاً عن أن يضعوا تدابيرهم هذه موضع التنفيذ !.

---

(١) الدكتور عبدالله أحمد الأهدل ، « حوارات مع مسلمين أوروبيين » : ١٥ و ٤ و ٧ .

والمسلمون اليوم منهمكون فيما قد زجّهم قادة الاستعمار الغربي فيه . انهم منهمكون في خصوماتهم ، منصرفون الى قضاياهم ومصالحهم الجزئية المتناقضة ، وقد أعرضوا عن جذور مصالحهم الواحدة والموحدة .

والاسلام الذي يتعامل معه كثير من قادة الشعوب العربية والاسلامية اسلام أطر ومظاهر وشعارات ، وتشدّ لمنجزاته الحضارية .. أما حقائقه وجذوره التي لا يمكن أن تستنبت وتزدهر الا في تربة الاصطباغ الحقيقي بعبودية الانسان لله ، فبعيدة عن الأذهان، مقصية عن الواقع التطبيقي المبرمج .

وأهم من هذا كله ، أو أساس هذا كلّه ، أن أصابع القيادات الغربية هي التي ترسم أطر العلاقات التعاونية وحدودها ، بين كثير من دول المنطقة وحكامها ، سواء على المستوى الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي العام . وواضح أن رسم ذلك كله انما يتم طبقاً لمصلحة الغرب ، وطبقاً لما تقتضيه خطة الهيمنة على قيم هذه المنطقة وثرواتها ، وطبقاً لما تقتضيه مقاومة سعي القائمين عليها ، الى تحقيق أيّ تضامن أو تعاون حقيقي فيما بينهم .

وعلى سبيل المثال ، ان مقومات التكامل الاقتصادي بين الدول العربية ، متوافرة على نحو لا تكاد القوى البشرية المخططة تملك القدرة على توفير مثلها . ولكن التدابير الأجنبية المفروضة عليها بطريقة ما ، تمنعها من أي اقبال اليها أو استفادة منها ، فضلاً عن أن تجني شيئاً من ثمارها . ولعل واقع السودان الشقيق وعلاقته المأساوية بكثير من جيرانه وأشقائه العرب المسلمين واحد من الأمثلة الواقعية على ما نقول .

ان كثيراً من الناس يتحدثون اليوم عما يسمونه التحديات التي تواجه الاسلام ، من حيث هو طاقة اصلاحية فريدة ، ويعدّ دونها في المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والتربوية المختلفة .

غير انني أقول : ان التحدي الحقيقي لا يكمن في شيء من ذلك كله ، وانما هو يكمن بل يتجلّى في هذا الذي أقول ، انه يكمن في التدابير لاقصاء المسلمين عن اسلامهم ثم لتقطيع جسور التواصل الممتدة فيما بينهم .

أجل ، فإن التحدي الذي يواجهه الاسلام من خلال المسلمين المتناثرين في أوطانهم المترامية اليوم ، انما يتمثل في تلك القوى الأجنبية التي تمنع الأشقاء من أن يمدّوا أيدي التعاون بعضهم الى بعض ، ومن أن يعملوا على نسج وحدة اقتصادية أو سياسية أو فكرية عامة فيما بينهم ، قد تهم الاسلام بأسسها ومقوماتها ، وأمرهم الله ، كما أمر الناس عامة ، أن يضعوها من حياتهم موضع التنفيذ .

فهذا لا غيره هو التحدي الخطير المعلن الذي يردده المسؤولون الأمريكيون أولاً ، ثم كثير من المسؤولين الأوروبيين ثانياً ، في كل مناسبة وبشتى الأساليب .

ذكر طبيب أمريكي ، في مقال نشرته مجلة ليفيغارو Le Figaro الفرنسية عن الاسلام في أمريكا ما نصه : ان الاسلام دين تسامح ، وان الحكومة الأمريكية تحارب الاسلام في كل مكان في العالم ، لأنها الديانة التي تقنع الفرد بسرعة ، كما تحارب توجه المسلمين نحو أي اتحاد فيما بينهم ، لأنه اذ ا اتحد المسلمون فلن تكون هناك ولايات متحدة أمريكية في العالم(١) .

والمفروض أنها تحديات مخفقة ، لا تملك أكثر من التعبير عن أحقاد أصحابها ، غير أن هذه التحديات الخائبة واجهت ، ويا للاسف ، نفوساً تأسرها عوامل الرغبة والرهبة تستمرىء المغانم وتفرّ من المغارم ، قد هانت على نفسها بمقدار ما تعاظمت ملاذ الدنيا وشهواتها في أعينها . فكان أن سبق أصحاب هذه النفوس من نقطة الضعف هذه، ثم كان أن نجحت التحديات التي أشرنا اليها وفعلت فعلها المميت في حياة هذه الأمة التي كانت يوماً ما أمة واحدة هي خير أمة أخرجت للناس ، فتدابر الاخوة بعد أن كانوا مجموعة جهود متضافرة ، ومنع كل منهم رفده عن صاحبه وامتنع عن مقايضته بمثله ، ليعود به الى العدو المشترك أو ليتقبله منه لا من أخيه ! ألم يقل لهم هذا العــدو من قبل : « أعطوني قلوبكم ، وسأنقذكم من الغرق »(٢) .

---

(١) من مقال بعنوان : الديانة الاسلامية في أمريكا ، نشرته مجلة ليفيغارو الفرنسية في عددها الصادر في ١٣ حزيران عام ١٩٩٢ .

(٢) الدكتور عبدالله أحمد الأهدل ، حوارات مع مسلمين أوروبيين ١٣ .

ونتأمل في هذا الواقع ، واذا هو في جملته وتفصيله ينطبق انطباقاً دقيقاً على الرؤية النبوية الشريفة لما سينتهي اليه حالنا ، وراء حواجز الدهور والقرون ، تلك الرؤية التي عبّر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث المتفق عليه : « أبشروا وأمّلوا ما يسرّكم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما اهلكتهم » .

أجل ، ان هذه الأسطر الثلاثة ليست الا تلخيصاً مكثفاً لقصة هذه الأمة العربية والاسلامية التي نشهد اليوم أخزى فصولها .

٦ - غير أن هناك عدة نقاط مضيئة ، ينبغي التنبه اليها والوقوف عندها قبل أن نستخلص من هذه الوقائع والأحداث أي جواب سلبي على سؤالنا المطروح والذي جعلنا منه عنواناً لهذا البحث :

أولاً : ان ما يسمى بالنظام العالمي الجديد الذي تتداوله ألسنة الناس واقلامهم ، على سبيل التنبؤ آنا ، وعلى سبيل الدعاية والاعلام آنا آخر ، هو أبعد ما يكون عن أن يعدّ في واقع الأمر وحقيقته نظاماً عالمياً ، أي معداً للعالم كله .

ان نظاماً عالمياً ينهمك في اعداده ووضعه ١١٪ من سكان هذا العالم هو بحق نظام عنصري استغلالي مميت .. ومهما قيل عن القدرات التي مكنت أمريكا من القضاء على خصمها اللدود ، من خلال حرب استنزاف باردة زجّته بين براثن الافلاس ، فان ذلك لن يعطيها أي امتياز بأن تنطق باسم العالم وتتولى عنه وضع النظام الذي يروق لها ، فضلاً عن أن يعطيها أي مبرر شرعي للتحكم بقدرات الأسرة الانسانية وخيراتها وحريتها .. والديمقراطية انما يستبين معناها الصادق أو الوهمي من خلال هوية هذا النظام، لا من خلال العلاقة السارية بين الكونغرس والبيت الأبيض حصراً .

لذا ، فانه لا يتوقع قط ولادة هذا النظام على يد هذه النسبة الضئيلة من سكان العالم ، أللهم الا أن تكون ولادة ميتة لا تعقبها حياة . والتوازن الذي انهار سريعاً لحساب أمريكا بين المعسكرين الشرقي والغربي ، سيعود وان لم يكن سريعاً ، بمقومات

أكثر أهمية ورسوخاً . وليس المهم أن يكون التوازن دائماً بين شرق وغرب ، انما المهم أن سُنة الله في خليقته هذه نافذة ولن يقع فيها أي تبديل . وقد عبر عنها البيان الالهي بقوله عزوجل : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين** ﴾[1] .

ثانياً ـ ان الوحدة الأوروبية غدت حقيقة ماثلة في الذهن ، وان لم تكن قد ولدت بعد على صعيد الواقع .. ان أعلامها ذات النجوم المتضامنة في استدارة كاملة ، تخفق في كل شارع وساحة من ربوع أوروبا وأصقاعها .

وعندما يرتسم المحور الأوروبي ، الى جانب المحور الأمريكي ، فسوف ينبثق من ذلك وضع جديد ، قـد يكون غاية في التعقيد ، ولكن الأهـم من هـذا أنه وضع يبعث على رفض تبعية العالم كله لهذين المحورين ، سواء عن طريق اتباعه لهما ، أو انشطاره بينهما .

أجل .. فانه لا الظروف والمصالح الاقتصادية المختلفة ، ولا الثقافات الانسانية المتنوعة ، ولا الموازين أو القيم الحضارية المتعددة ، تسمح لأصحابها بأي شكل من أشكال التضافر والاتحاد ، في سبيل أن يجتمعوا فيتلاقوا مستسلمين ، سعياً على طريق هذا الاتباع .

وهذا يعني أنه لا بدّ أن يتحقق عندئذ المناخ الملائم لظهور محاور حضارية وانسانية أخرى ، هي اليوم موجودة ، ولكن لعلّها تمرّ برحم التكامل والنضوج ، أو لعلّها تتخير لولادتها الظرف الملائم .

ان تعدد المحاور التي لا بدّ أن يتوالى ظهورها ويتنامى رسوخها في تربة التوازن العالمي الذي لا مفرّ منه ، هو الضمانة الوحيدة لظهور معنى الندية المتوازية أو المتكافئة فيما بينها . ومن ثم فهو الضمانة لقيام ديمقراطية عالمية ، ان جاز التعبير ، تؤدي بالضرورة الى تعارف أفضل بين الحضارات والثقافات المتنوعة ، حيث لا بدّ أن يؤدي ذلك أخيراً الى ما نسميه بحوار الحضارات .

---

(١) البقرة : ٢٥١ .

وعندما تكون حقيقة الندية المتكافئة هي السائدة في جو الحوار ، بدلاً مما هو سائد الآن من واقع التبعية الخفية أو الظاهرة والمفروضة بشكل ما ، فلا بدّ أن يصبح الحوار حينئذ حقيقياً ومثمراً .

وفي هذا الجوّ سيتجلّى دور الاسلام قوياً وراسخاً .

ان الاسلام الذي هو جذور اعتقادية راسخة ، وبنيان حضاري باسق ، لم يفرض نفسه ذات يوم الا من خلال الحوار . الحوار الذي يطابق ظاهره باطنه ، ويتجه الى العقول صافياً عن شوائب الأسبقيات أو الذرائع أو التحكم أو الاستغلال .

لقد كان ولا يزال سبيل انتشاره اتباع المنهج الرباني القائل : ﴿ **ادع الى سبيل ربك بالحكمــة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾[1] .

إن تحكـــم ١١٪ بـ ٨٩٪ من سكان العالم سيختفي !.

ولكنه لن يختفي تحت سلطان قهر الأغلبية أو بقوة السلاح أو في أعقاب حروب مدمرة . بل سيختفي تحت سلطان قوة أخرى ، هي أمضى وأشدّ فاعلية من ذلك كله .. انها قوة الحوار الذي لا بدّ أن يفرض ذاته من خلال السنة الربانية التي لا يقع فيها أي خلف أو تبديل .. سنة التوازن الذي لا يكاد يختفي بمظهره المتقادم حتى يعود فيتجلى بمظهر متطور جديد .

ان كل السبل التي تتخذ اليوم من قبل القوى المتحكمة الكبرى ، للتربص بالاسلام والكيد له ، انما هي سبل قهرية ، بل حرب مقنّعة آنا ومكشوفة آنا آخر .. ومثل هذه السبل قد تكف اليد عن البطش ، بل حتى اللسان عن الكلام ، ولكنها لا تكف الفكر عن التأمل ولا العقل عن البحث .. والقوة الكامنة في الاسلام هي تلك التي تسري منه الى العقول والألباب ، لا التي يخيل الى البعض انها تقهر النفوس أو تلاحق الحريات .

---

(١) النحل : ١٢٥ .

واذا كان القضاء على الباطل الذي هو باطل ، لا يمكن أن يتم عن طريق خنقه ، كما يتوهم عشاق العنف ودعاته ، فان القضاء على الحق لا يمكن ، من باب أولى ، أن يتم عن طريق السعي الى خنقه .

ان بين الحق والباطل تناقضاً لا يجهله أحد ، ومن ثم فان الرصاصة التي يتم ازهاق الباطل بها انما هي الصدع بكلمة الحق مستنيرة بضياء العلم والمعرفة ليس الا ، ومهما حاولت استعمال الوسائل القهرية الأخرى فلن تأتي جهودك بأي طائل . ومن ثم فان انبلاج الحق هو وحده الذي يؤذن بزوال الباطل .

وانظر الى هذه الحقيقة الكونية الكبرى ، كم هي واضحة الى درجة التألق في قول الله عزوجل ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون** ﴾[1] .

والجهاد الذي شرعه الله وجعله دعامة الوجود الاسلامي لا يتعارض مع شيء مما نقول. ذلك لأن مواجهة الباطل بمنطق الحق عن طريق البيان والحوار ، مع الصبر في سبيل ذلك على كل مكروه ، أول أنواع الجهاد وأقدسها .. ولأن القتال الذي يشرع بعد ذلك ، ليس من أجل اغتيال الباطل في مظهر رجاله المتشبثين به أو المدافعين عنه ، وانما هو مشروع لردّ غائلة الذين يقاومون مبدأ مواجهة الباطل بمنطق الحق .. فالقتال الجهادي في هذه الحالة انما هو لحماية الحوار، ولابعاد شبح الجبر والاكراه أياً كان الجانب الذي يقدم منه .. على أن هذا القتال لا يشرع الا فوق أرض يستوطنها المسلمون ، وفي ظل دولة ترعى سير هذا القتال وتقدّر نتائجه وتشرف على تنفيذه .

ثالثاً ـ مهما قلنا عن إعراض المسلمين التقليديين عن النهوض بواجب الصدع بكلمة الحق هذه ، ومهما كانت الأخطاء المتسربة الى المجتمعات الاسلامية كبيرة ، سواء منها المتمثلة في التصورات الخاطئة ، أو في السلوكات الجانحة ، ومهما كانت تعليقات القوى المعادية وتقاريرها تتسم بالشماتة والطمأنينة التامة الى أن الطاقات الاسلامية التي كانت توصف يوماً ما بأنها خارقة ، قد تمزقت اليوم بأيدي أصحابها[2] فان واقع الأمر يخالف ذلك مخالفة حادة .

---

(١) الأنبياء : ١٨ .

(٢) كتبت مجلة L'Evenement De Jeudi الفرنسية في عددها ٣٨٠ الصادر بتاريخ ١٣ فبراير عام ١٩٩٢ تقريراً وافياً عن مصير الاسلام والنشاطات الاسلامية في كل من تونس والجزائر والمغرب ومصر وسورية والسودان وتركيا والأردن . وينتهي التقرير الى الابتهاج بأن القوى الاسلامية قد تم القضاء عليها ، ولم يعد فيها ما يخيف ! ..

ذلك لأن الحق الكامن في طوايا الاسلام لا يتم القضاء عليه بتقاعس أهله وتخلّيهم عن رعايته والاهتمام بشأنه أو بأخطاء اجتهادية صادرة منهم ، أو حتى - مع أسوأ الافتراضات - بسبب بيعهم لدينهم الاسلامي الحق بعرض من الدنيا قليل .

ان الذي يتصور هذا أو شيئاً منه ، ربما كان ممن يتخيل أن المسلمين ، فيما مضى ، هم الذين أوجدوا الاسلام ووضعوا فيه مزاياه وسماته ، مع أن الواقع نقيض ذلك تماماً فالاسلام الذي هو وحي الله المتضمن جملة وصاياه وتعليماته ، هو الذي أوجد المسلمين ووضع فيهم مزاياهم وصفاتهم التي اختصوا بها من دون سائر الناس .

وعندما ينفضّ هؤلاء المسلمون عن اسلامهم الذي صاغهم هذه الصياغة ، ويخلعون كسوة المزايا والصفات التي ميزهم الله بها بفضل دينه ، فان قدرة الاسلام على صنع الأمم والرجال هي هي ، لأن الاسلام هو هو ، وكما لم يعجز بالأمس عن اصطفاء حفنة من سكان الصحراء لقيادة عالم بأسره وانشاء حضارة انسانية كاملة ، فلن يعجزه شيء اليوم عن اصطفاء فئة أخرى من الناس ، أياً كانوا وأينما كانوا ، فذلك شأنه، وتلك هي وظيفته . ألم يقل في بيان ذلك صاحب هذا الدين وقيومه : ﴿ **وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾[1] .

ومرة أخرى أقول مؤكداً : ان كل ما نراه من مظاهر اهمال المسلمين لاسلامهم ، أو من مظاهر انحرافاتهم وأخطائهم ، مضافاً اليه الكيد المتواصل له من أعدائه وأعدائهم، مع أضعاف ذلك كله لو أضيف اليه ، لا يقضي على الحق الذاتي الكامن في طوايا هذا الدين . ذلك لأن الحق بحد ذاته ، لا يعيش في باطن الأرض بل على ظاهرها ، ولا يحبس في أقفاص أو وراء قضبان بل يمتدّ وينتشر داخل الأدمغة والرؤوس .

رابعاً - وبناء على ما أوضحنا ، ليس مهماً أن يصحو أو لا يصحو المسلمون التقليديون عندنا الى هوياتهم الاسلامية ، انما المهم أن لا ننسى أن الحق الكامن في تضاعيف الاسلام كالشمس تماماً قد تغرب أشعتها عن رقعة من الأرض ، غير أنها في

(١) محمد : ٣٨ .

الوقت ذاته تبعث الأشعة ذاتها مشرقة في بقاع أخرى من الأرض ذاتها . وانها لسُنة ربانية لا يلحقها أي خلف . أو لم تقرؤوا قوله عزوجل : **﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾**[1] .

وان المصداق الدقيق لهذا الكلام الرباني ، يتمثل فيما تراه من واقع الحرب المعلنة على الاسلام اليوم على ألسنة أكثر قادة الغرب وحكامه !.

ان هذه الحرب المعلنة ، وما يتبعها من التقارير التي تتعقب واقع المسلمين بالحرب الكلامية هنا وهناك ، هي ذاتها التي تلفت نظر الشعوب الغربية الى الاسلام ، وتبعث فيها الاهتمام به والرغبة في الاقبال على معرفته ودراسة حقيقته !.. وعلى الرغم من أن هذه الظاهرة نتيجة طبيعية لمقارعة الحق ومحاولة القضاء عليه ، فان القوى الغربية المعادية للاسلام لا تدرك هذه النتيجة ، ومن ثم فهي لا تحسب لها أي حساب !.

كنت اتحدث في مدينة « ستراسبورغ » في فرنسا ، عن المكائد الكثيرة التي ترصد لمحاربة الاسلام هنا وهناك ـ وكان ذلك في أواخر عام ١٩٩٠ ـ فأقبل اليّ شاب فرنسي مسلم ، وكلمني بعربية لا تخلو من رطانة ولكنةٍ قائلاً : أين انت من صادق وعد الله عزوجل ؟ ألم يقل : **﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ... ﴾** .

ان مأساة إعراض كثير من المسلمين عن اسلامهم ، وتفرقهم بين متاهات الشهوات والأهواء ، لا تشكل خسارة تحيق بالاسلام ، وانما هي خسارة كبرى تحيق بهم أنفسهم . فالحصن الذي يتخلّى عنه أصحابه يظل حصناً في واقعه وطبيعته وأداء مهمته ، ولا بدّ أن يأوي اليه آخرون . وانما تحدق الأخطار بأولئك الذين تخلوا عنه وآثروا لأنفسهم الانتشار في العراء .

---

(١) المائدة : ٥٤ .

وربما قيل كثير عن سبب سوء حال المسلمين التقليديين اليوم ، في تعكير الرؤية الصافية الى حقيقة الاسلام ، أمام أبصار الشعوب الغربية التي تتطلع ، في ظمأ كبير ، الى معرفة الاسلام . ولا شك أنه قول يؤيده منطق الأحداث وطبيعة النفوس .

غير أن قوة الاسلام تكمن في الحق النابع من ذاته ، بقطع النظر عن حال المتلبسين أو المتجملين به ، ودلائل هذا الحق وبراهينه معروضة أمام سائر البصائر والأبصار . وما أيسر لمن أراد أن يتعرف على هذا الحق ودلائله من مصدره الذاتي ، أن يدرك لدى النظرة الأولى أن واقع المسلمين في منطقة كالخليج مثلاً لا يكاد يعبر عن شيء من هذا الحق ، مهما كانت أصوات الأذان فيها مجلجلة ومهما كانت الأحاديث فيها عن الاسلام منمقة ، ومهما كانت تلاوة القرآن فيها مجوّدة !..

ثم من يدري ! لعلّ المخطط الرباني الذي لا ترصده أعين الناس ، ولا تتبيّنه مدارك كثير منهم ، يقضي بأن يعود الاسلام فيشرق من مغرب هذا العالم ، أي من حيث تتجه السهام متلاحقة بالحرب اليه والكيد له !. ولقد سبق أن اختار الله لتربية كليمه موسى أحضان عدوّه فرعون .

وصدق الله القائل : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ..** ﴾[1] .

---

(١) فصلت : ٥٣ .

مستقبل الاسلام

الدكتور روجيه جارودي*

ان كلاً منّا مسؤول مسؤولية شخصية عن مُستقبل الاسلام . والقرآن الكريم يُذكّرنا باستمرار بمعنى مسؤوليتنا هذه . كَمَا في قوله تعالى : ﴿ **كل امرئ بما كسب رهين** ﴾[١] . ﴿ **كل نفسٍ بما كسبت رهينة** ﴾[٢] ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد** ﴾[٣] .

ان تعاليم القرآن الكريم والمِثال الذي ضربه لنا الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته يرفضان رفضاً قاطعاً القدرية والاستسلام ؛ يرفضان الفكرة القائلة بأنّه توجد صورة واحدة للمستقبل ستتحقق لا محالة مهما فعلنا وحتى ان لم نفعل شيئاً .

وتنبع رؤيا القرآن الديناميكية من الفعل الالهي المُستمر في الخلق : ﴿ **ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كُنّا عن الخلق غافلين** ﴾[٤] ، ﴿ **أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ...... فسبحان الذي بيده ملكوتُ كل شيء واليه تُرجعون** ﴾[٥] . وعلى عكس ما جاء في سفر التكوين (٢/٢) فالقرآن يُعلّمنا بأنّ الله لا يعرف الراحة : ﴿ **إنّه يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾[٦] ، ويشرك في خلقه هذا الانسان الذي قبل « الأمانة » التي أبت الجبال وسائر المخلوقات حملها ، ولذا فهوَ يقول ﴿ **انّ الله لا يُغير ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفُسهم** ﴾[٧] .

لقد اخضع الله للانسان ﴿ **ما في السموات وما والأرض** ﴾[٨] وجعل منه خليفته في الأرض ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾[٩] ، وتعني كلمة خليفة : القائمقام المسؤول . ولولا ذلك لكان الله جعل مثل الانسان مثل جميع المخلوقات في الطبيعة ، مثل جميع الأشياء التي تُظهِر ، بشكل محتوم من دون تفكير او عصيان ، قوانين الله مثل سقوط الحجر ونمو الغرس وغريزة الحيوان .

ولِذا فالانسان مُلزم بالمُشاركة في عملية الخلق الإلهية المستمرة هذه .

---

* العضو العامل في المجمع الملكي - باريس - فرنسا .

(١) الطور : ٢١ . (٢) المدثر : ٣٨ . (٣) الحشر : ١٨ .
(٤) المؤمنون : ١٧ . (٥) يس : ٨١ - ٨٣ . (٦) يونس : ٤ .
(٧) الرعد : ١١ . (٨) لقمان : ٢٠ . (٩) البقرة : ٣٠ .

فلنتحاشَ إذاً أي خلط بين مفهُوم « البدعة » التي تعني تحوير وانتهاك أسس الاسلام الروحية وبين التغيير بصفته عاملاً ديناميكياً في كل مجتمع حي والذي لا يمكن ان يتم من دون التجديد و « الابداع » .

كل مادة ان لم تتغير تموت : والأمر كذلك بالنسبة للكائن البشري والمجتمع . ان الذين يتخوفون من التغيير يفعلون ذلك ، لا لأسباب تتعلق بالعبادة بل لأسباب مُرتبطة بالنظام الاجتماعي حيث لديهم امتيازات يجب ان يُحافظوا عليها .

ويمكن ان ننسب تقهقر العالم الاسلامي إلى الوراء ، وجميع المصائب المُترّبة على هذا التقهقر ، الى التعصب الناجم عن مُقاومة التجديد التي تخنق الابداع والخيال والروح الخلاّقة منذ القرن العاشر والحادي عشر عندما اغلق بعض الفقهاء (الكاذبون) المزعومون باب الاجتهاد .

والسؤال : كيف العمل لتعويض هذا التأخر ؟

انّ دراسة تاريخ أسباب خصب الازدهار وخصب الانحطاط في الاسلام من شأنها ان تهدينا الى التفكير عن طريقة تعويض هذا التأخر .

ففي زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين (في القرن الأول للهجرة) كان انتشار الاسلام صاعقاً لأنه لم يكن فتحاً عسكرياً بل ثورة ثقافية .

يجب ان نمحي من اذهاننا الفرضية القائلة بانّ انتشار الاسلام حصل بفضل فتح عسكري فقط لأنّ الامبراطوريتين العظميين آنذاك ، امبراطورية بلاد فارس وامبراطورية بيزنطية كانتا تملكان تفوقاً عددياً وتقنياً كاسحاً بالنسبة للجيوش العربية .

ان الأسباب الحقيقية لهذا الاشعاع اسباب دينية واقتصادية .

أ ـ الأسباب دينية لأنّ الاسلام لـم يظهر بمظهر الديانة الجديدة التي نشأت بدعـوة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بل كتذكير بالديانة الأساسية الأولى مُنذ أن نفخ الله من روحه في الانسان[1] . فالاسلام هو الاستسلام لمشيئة الله الواحد الأحد والاعتراف بوحدة الكون الالهية .

---

(١) الحجر : ٢٩ .

ويُحدد القرآن الكريم الاسلام هذا بشكل واضح جداً . يأمر الله مُحمداً بالقول: ﴿ **قُل ما كُنتُ بدعا من الرسل** ﴾[1] ويُذكّره مراراً عديدة ، ﴿ **ولقد أرسلنا رُسُلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص** ﴾[2] .

قولوا كما أمر به القرآن الكريم : ﴿ **آمنا بالله وما أُنزل الينا وما أُنزل الى إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربّهم لا نُفرّق بين احد منهم ونحن له مُسلِمون** ﴾[3] .

ويذهب القرآن الكريم في تعليمه الى ابعد من هذا اذ يقول : ﴿ **ولكل امّة رسول** ﴾[4] ، ويُضيف ﴿ **ولقد أرسلنا رُسُلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص** ﴾[5] .

وتتعارض شُمولية القرآن هذه مع الروح الطائفية المُتعصبة ، ورفض الآخرين المتبادل خاصة في الامبراطورية البيزنطية الاقرب الى الجزيرة العربية حيث كانت كل مُعارضة سياسية منذ مجمع نيقية (٣٢٥م) تعتبر مرادفة لبدعة دينية .

بهذه الروح الشمولية الجامعة ظهر الاسلام وهكذا فهمته الشعوب في الخارج . **والبرهان في الواقع** ان الاسلام تغلغل بسرعة عند المسيحيين الرافضين لمقرّرات مجمع نيقية (٣٢٥م) الذي حدد أُلوهية عيسى وعقيدة الثالوث ؛ اي عند :

- النساطرة ، في بلاد فارس .
- اتباع الطبيعة الواحدة (مونوفيزيون) ، في مصر .
- الاريوسيين ، في اسبانيا .

---

(١) الاحقاف : ٩ .

(٢) غافر : ٧٨ والحجر : ١٠ والروم : ٤٧ .

(٣) البقرة : ١٣٦ .

(٤) يونس : ٤٧ .

(٥) غافر : ٧٨ .

اما البرهان العقائدي :

أ ـ فالقديس يوحنا الدمشقي يتكلم في كتابه « في البدع » عن الاسلام « بصفته ليس ديانة جديدة بل بدعة مسيحية » .

ب ـ وفي اسبانيا لغاية سنة ٨٥١ ، اي بعد مُرور قرن ونصف على مجيء الاسلام ، لم يكن هناك لاهوتي مسيحي واحد يناظر الاسلام بل فقط الاريوسية التي كانت في نظرهم تُشكل شيئاً واحداً مع الاسلام .

ومُوجز القول ان الاسلام لا يظهر ، في مواجهة الامبراطوريتين اللتين تمران في انحطاط اجتماعي وروحي ، بمظهر الديانة الجديدة التي تحل محل الايمان السابق .

ولذا فان الشعوب التي بات ايمانها القديم (المسيحية في الامبراطورية البيزنطية والمجوسية في الامبراطورية الفارسية) لا يعطي روحاً لحياتها ومُؤسساتها ، استقبلت الاسلام بالترحاب .

ويُشكّل الاسلام يقظة دينية تُعطي حياة جديدة لما هُو أسمى ، في روحانية جميع الشعوب .

تلك الاستمرارية تَظهَرُ في بلاد فارس ابتداء من الفِردَوسي ووصُولاً الى السُهرَوَري اللذين ادخلا الى الاسلام أفضل ما أعطته روحانية شعبهم . وفي اسبانيا أدخل ابن مسرَّة أفضل ما أعطته روحانية اليونان ما قبل سُقراط « امبدوكليس » وما أعطاهُ الرومان الإسكندريون « أفلوطين » . أمّا ابن عربي فقد أشعّ نور الاسلام في أبعاد الحب والتأمل الداخلي في المسيحية .

٢ ـ السبب الثاني لهذا (الانتشار) الاشعاع :

أن الرسالة الاجتماعية لجماعة المدينة المنورة المُؤتَمِرةِ بالشريعة الأساسية هي :

اللـــــــه وحـــــده الحاكـــــــم ؛

اللـــــــه وحـــــده المـــــــالك ؛

اللـــــــه وحـــــده العـــــــالم ؛

هُنا تكمُنُ الثورة الاجتماعية الحقيقية ؛ إذ إنه عندما نقول إنّ الله وحده هُو المالك، فهذا يُخالفُ تماماً التحديد الروماني للمِلكية الذي وَرَدَ في قانون « يوستينيانوس » ، سنة ٥٢٩م ، حيثُ أنّ « المِلكية هي حق الاستعمال والاستغلال » . أمّا في المفهوم القرآني ، فالمالكُ لَيّسَ سِوى القائم ، المسؤول عن الثروات التي هي مُلك الله الرزّاق وعطيّته . ويمكن اذاً استِعادتها من الانسان اذا تركها بلا عناية ولم يستثْمِرها في خدمة الجماعة .

ويترتّب على هذا المفهوم القرآني :

١ ـ أن المجتمع هو بشكل اساسي مُجتمع يرتكز على المساواة . وهكذا فان جميع التوجهات الاجتماعية الكبرى في القرآن ، أي : (فرض الزكاة ، تحريم الربا وإدانة الغلّ) تهدف الى منع ظاهرتي تكديس الثروات لدى فئة والفقر لدى فئة أخرى .

وفي البلدان التي دخـــل اليها الاسلام ، كانت الأرض تُعطـى للذين يعملون فيها (بينما كانت قبل ذلك مُستغلّة من قِبل اقطاعيين ومُلوك كسالى ورجال دين جشعين) مُقابل ضريبة رمزية (ولِذا لم تحصل سوى بعض معارك ضدّ مُلوك واقطاعيين معزُولين عن شُعوبهم، مثل معركة اليرموك والقادسية ونهاوند في الشرق وريوبَرباَتي في اسبانيا).

واستقبلت هذه الشعوب المُسلمينَ كَمُحرّرين وكرجال ايمان يحترمون عقيدة غيرهم ويبثون في هذا الإيمان روحاً جديداً على ضوء ما جاءَ به آخر الأنبياء . ويبدأ الانحطاط الأول في عهد الأمويين .

أ ـ على عكس ما كان عليه الخُلفاء الراشِدون من زُهد وبساطة في العيش ، مثل عُمر ، الذي كان يزدري كل الغِنى والمظاهِر ، نشأت ملكية غنية ومُترفة تتعارض تعارضاً كُلياً مع الروح التي كانت سائدة بين جماعة المدينة المُنوّرة ، مُقلِدة الحكم الاستبدادي والغِنى السائدين في الامبراطورية البيزنطية بالاضافة الى الفساد الناتج عن السلطة المُطلقة والغنى .

هذا النظام الاستبدادي بثرواته المُعلنة وفساده أصبح إحدى الآفات المُدمّرة للاسلام لأنه أفسد الروح في الداخل وشوّه وجه الاسلام في الخارج لدى غير المُسلمين .

ب ـ ويُؤدّي هذا الانحطاط الأخلاقي الى انحراف عقائدي . فمُنذُ عهد الأمويين ظهرت احدى أكبر مُحاولات اغتيال الاسلام إجراما ؛ أعني التوجه نحو استعمال الاسلام كعقيدة تبرير لسلطة المُلوك المُطلقة ومدرسَة رُضوخ للشعُوب .

والأمر المهم هو انه ليس من الصدفة ان تنتشر في عهد الأمويين « أحاديث » مزعومة حول « الجبرية » التي تدين أتباع « القَدَريّة » الذين كانوا يُحَاوِلون الحفاظ على رسالة القرآن المحرّرة . فالفقهاء الذين استطاعت السلطة تطويعهم ، كانوا يُجيبون على أسئِلة المُسلمين الأتقياء . الذين اثارت حفيظتهم لا أخلاقية الأمراء : إذا كان لديكم ملك كهذا فانّ الله أرادهُ ويجب ان تقدِموا له الطاعة .

هكذا نبتعد عن هدي الرسول (صلى الله عليه وسلم) القائل : « أفضل الجهاد كلمة حق أمام إمام جائر » .

وجاءت الحقبة الثانية من اوج الاسلام في أوائل عهد العبّاسيين . كانت تلك الحقبة حقبة ازدهار ثقافي . فالعبّاسيون الأوائل تخلوا عن التوسع العسكري واحتلال الأراضي . وحاولوا تطعيم الاسلام بتراثات جميع الثقافات الكبرى في الهند وايران وسورية واليونان ومصر ، مُتخلين عن سياسة التعصب الطائفي الفئوية ومُتعلّقين بروح القرآن الكريم الشمولية الجامعة ودعوة الرسول : « اطلبوا العلم ولو في الصين » .

وأنشأ المنصور مكتبات ضخمة تعمل فيها فرق كبيرة من المُترجمين . كما أنشأ مدارس طب (جنديسابور) ومراصد يعمل فيها علماء هُنود ويهود ومسيحيون ممّا اتاح المجال أمام المسلمين بخلق حصيلة جامعة فريدة من نوعها وضعته على رأس الثقافة العالمية.

ان روح الانفتاح والبحث عن الحقيقة افسح المجال ، ليس فقط في التوصل الى ازدهار عظيم للعلوم والفنون التي جعلت من الاسلام موقظ الثقافة في اوروبا وافريقيا والشرقين الأوسط والأدنى ، بل فسح المجال ايضاً لجعل الاسلام مِثال الفكر الناقد ومِثال الانفتاح حيث اعطت المعتزلة ، التي كان يدعمها المنصور ، الاساس الفلسفي لهذا التقدم على جميع اصعدة الثقافة .

وعندما حاول الخُلفاء الآخرون ، وقد ضعف لديهم التعلق بقدرة الايمان الاسلامي واشعاعه الحر ، اضفاء مركزية وتسلط اكبر على حُكمهم ، فقد قضى هؤلاء الخُلفاء على هذه الحرية الخلاقة . وأرادوا ، مثلهم مثل جميع الطغاة ، استعمال استقامة المؤمن ، المُتشدّدة والمُتعلِقة بالقُشور ، لِخدمة سلطتهم واضعين حداً لكل تجديد خوفاً من زعزعة النظام القائم .

وكان لهذا الانكفاء الرّهيب وقع على تاريخ الاسلام اللاحق حيثُ حكم على الاسلام بالتقيد بالاقدمين وبالانغلاق على النفس . هــذه الصورة عن الاسلام صقلتها ردّة فعــل « ابن حنبل » والقائمة الطويلــة مــن الأحاديث التــي استعملها حَرّفت السُّنة الخلاقة :

ـ « سُنّة الله » (اي استمرارية عطاءات الرسل) .

ـ « سُنّة الرسول » الذي بينَ كيف يُمكِن ادخال المبادىء الأبدية والمُطلقة في التاريخ .

ـ « سُنّة الفقهاء » الكِبار الخلاقين مثل « أبو حنيفة » .

فلقد بَيّنَ ابو حنيفة ، الذي تميَّزَ بروح التدقيق والجهد والاجتهاد الذي يدعو اليه القرآن في كل صفحة من صفحاته ، كيف يمكن أن يعيش المرء مُسلِماً وكيفَ يدعو الآخرين إليه ، في مُجتمعات تختلف تماماً عن المُجتمع الذي عاشت فيه جماعة المدينة المنوّرة . هذا الاسلام كان مُنفتِحاً على مُختلف ظروف المجتمعات التي سيطر عليها الاسلام وقد كاد أن يُصبح عالمياً .

وعندما تنكر « الأشعري » للمعتزلة اكمل عملية تضييق الاسلام التي كان ابن حنبل حقّقها . ومما يُميّز هذا التزمت الحنبلي في الاسلام :

١ـ التوجه نحو حصر مبادىء الاسلام في التطبيق الذي كان سائداً في القرون الأولى وفي مجتمع محصور بالشرق الأوسط . فرسالة القرآن الجامعة والشاملة أصبحت سنة إقليمية مُتزمِتة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ـ امّا الشّريعة ، « سنّة الله » ، فلم تعد مبدأ التطبيق الشامل (الله وحده الحاكم ، الله وحده المالك ، الله وحده العالم) ، المبني على قوانين عامة جداً وتنطبق على مجتمعات مختلفة ، يدين اي ادعاء بأن قوة النظام مصدرها الله ويدين اي سلطة مصدرها الثروة واي تعليم عقائدي متحجر يعتبر انه توصل الى العلم الكامل .

مُنذُ ذلك الحين انحصر مفهوم الشّريعة بتفسيرات حرفية لبعض الآيات التي تتحدث عن السرقة والميراث ومكانة المرأة . هذه التفسيرات كانت تتناول حالات خاصة لتطبيق المبادىء في مُجتمعات معيّنة معطية الأجوبة المُنافسة لها .

٣ ـ وعِندما يُفرض التعلق بحرفية العبارات بعد عزلها عن إطارها الكامل وعن المبادىء التي أوحت بها ، تفلّت من الزكاة مظاهر الغِني الجديدة ، خاصة مظاهر السرقة المشينة ومُمَارسة الربا (منذ القرن الثاني كانت هناك التجارة الدولية الكبرى واليوم هُناك المُضاربة في البورصة والاستثمارات الخارجية) ، كما تصبح اليد المقطوعة عُذراً فظيعاً لِمُعاقبة السّارقين الصغار وتغطية السّارقين الكبار وفرض حصانة حولهم. وهذا التفسير للزكاة يتعارض مع روح القرآن بكامله ولا يمس ثروات الكِبار المشينة ويفتح المجال أمام انتشار الفساد .

أهذِهِ هِيَ « الشريعـــة » ؟!

يستعمل القرآن الكريم كلمة « شريعة » مرة واحدة في الآية ١٨ من سورة الجاثية وتظهر في آياتٍ اخرى ثلاث كلمات من المصدر عينه . فعل « شرع » في الآية ١٣ من سورة الشورى والاسم « شِرعَةً » الآية ٤٨ من سورة المائدة .

نستطيعُ الآن ان نُعطي تحديداً دقيقاً .

يُذكِر القرآن الكريم في الآية ١٦ من سورة الجاثية ، ان الله اعطى بني اسرائيل الكتاب والوصايا لكي يتمكّنوا من فهم « الأمر » فما اختلفوا الاّ من بعدِ ما جاءهم العِلم. ويُضيفُ في الآية ١٧ : ﴿ **إنّ ربّكَ يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ...** ﴾ .

فماذا تعني هذه الشريعة (هذا الطريق) ؟

هذا ما تُوضحه الآية ١٣ من سورة الشورى حيثُ يقول تعالى : ﴿ **شرع لكم منَ الدّين ما وصّى بِهِ نوحاً والذي أوحينا اليكَ وَمَا وَصَّينا بِهِ إبراهيمَ وَمُوسى وَعيسى أن أقِيموا الدّينَ وَلاَ تَتفرّقُوا فِيهِ** ﴾ .

يتضح إذًا كُل الاتّضاح :

١ ـ انّ هذه الشّريعة (الطريق) هي شريعة الله .

٢ ـ أنها مُشتركة بين جميع الشعوب التي أرسل الله إليها رُسُلِه (اكرر : بين جميع الشعوب وبِلُغةِ كُلٍ منها) .

غير انّ الشرائع القانونية المُتعلِقة على سبيل المِثال بالسرقة وعقابها ،وبوضع المرأة القانوني وبالزواج والميراث ليست في التوراة اليهودية كما هي في أناجيل المسيحيين أو في القرآن .

ولِذا لا يمكن ان نشمل في مفهوم الشريعة (الطريق المُؤدي الى الله) الفقه الذي ، على خِلاف الشريعة المشتركة بين الأديان ، يختلف اختلافاً جذرياً مع كلٍ من هذه الديانات باختلاف الزمان والمكان الذي أرسل فيهما الله نبياً من أنبيائه .

ويقول الله في القرآن الكريم : ﴿ **لِكلِ أجلٍ كِتاب** ﴾[١] و ﴿ **وإن مِن أُمَّةٍ إلاّ خَلاَ فِيها نَذِير** ﴾[٢] .

وعِندما يقول في القرآن الكريم : ﴿ **يمحو الله ما يَشاء ...** ﴾[٣] . فهذا لا يعني ، بالطبع ، ان الله بدّل في رأيه ، بل انه انطلاقاً من المبادىء المُطلقة وبموجب تربية الهية حقيقية ، يُقدِم جواباً يتناسب مع الوضع التاريخي ومُستوى فهم الشعب الذي يُرسِل اليه رسولاً . كذلك ، فان القبلة ، التي تعني بشكلٍ واضح وشامل وثابت إظهار وحدة الأمّة

(١) الرعد : ٣٨ .

(٢) فاطر : ٢٤ .

(٣) الرعد : ٣٩ .

المُتوجّهة نحو المركز الواحد لاعلان وحدانية الله ، كانت تتجه لفترة من الزمن باتجاه مدينة القدس ومن ثمّ ، ولأسباب تاريخية مُرتبطة بالعلاقات مع الطائفة اليهودية ، تم توجيهها نحو مكة المُكرّمة . فمن خلال هذا التغيير ، يُذكرنا القرآن الكريم الحقيقة الصمدية التالية : أنّ الله في كُلِ مكان ، في الشرق كما في الغرب . كَمَا جَاء في قوله تعالى : ﴿ ولِلَّهِ المَشرِقُ وَالمَغرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾(١) .

لقد حرص المفسرون الأوائل للقرآن ، مثل الطبري ، على التذكير بالاطار التاريخي الذي نزلت فيه الآيات القرآنية .

هذه المرجعية التاريخية لا تحد من قيمة « الشريعة » الجامعة والأبدية . فان أي تدخل لله في الجماعة الدينية والسياسية في آنٍ واحد ، التي عاشت في المدينة المنورة ، حيث كان النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) رئيس دولة ، يحتوي على مبـدأ للعمل (الا وهو « الشريعة »)، الطريق الديني المُلائم لجميع الشعوب وفي كل الأزمان ، كما على سبيل المِثال :

- الله وحده المـالك ؛ وهذا المبدأ يضفي نسبية على مبدأ الملكية البشرية .
- الله وحده الحاكم ؛ وهذا المبدأ يضفي نسبية على مبدأ السلطة البشرية .
- الله وحده العالـم ؛ وهذا المبدأ يضفي نسبية على مبدأ العلم البشري .

هذه « الشريعة الالهية » مُشتركة بين جميع الديانات الموصى بها من الله وبين جميع الحِكَم .

وانطلاقاً من هذه الشريعة (الطريق) الثابتة ، يُعطي الله ، بواسطة أنبيائه ، أجوِبَة تاريخية تتناسب مع الوضع الخاص بكل شعب من الشعوب .

ومن المظاهر الأكثر وُضوحاً لِعظمة القرآن الكريم ذلك التداخل بين الصمدية وبين التاريخ ، بين الدين والسياسة . وبكلام مُوجـــز بين الشريعة (التي هي كلام الله) والفقه (مجموعة القوانين التي وضعها البشر) .

هُنا يكمن الفارق الجذري بين الاسلام واليهودية .

(١) البقرة : ١١٥ .

بينما تحتل الوصايا مكاناً كبيراً في رسالة موسى ، لا نَجِدُ في القرآن الكريم سوى مئتي آية تتكلم عن حلول لمشكلات قانونية من أصل ستة آلاف آية . فإننا إذا ما خلطنا ، في مفهوم « الشريعة » ، بين التوجه الديني والأخلاقي نحو قيمة مطلقة وبين مجموعة القوانين الخاصة بكل مجتمع في حقبة تاريخية مُعيّنة ، فهذا الأمر يُشكِل تَهويداً للاسلام ويوصلنا ، من خلال التفسير الحرفي للقرآن ، الى إعطاء صورة تَتَعارض كُلّياً مع التحديد الواضح للشريعة .

واذا لم يتم التمييز بين :

أولاً : المبادىء الأبدية في العلاقات مع الله .

ثانياً : القوانين الخاصة التي ينظم البشر بواسطتها ، علاقاتهم الاجتماعية إنطلاقاً من هذه المبادىء فإنه يُعطَى عن القرآن صورة كاريكاتورية (مشوهة) .

فعلى سبيل المِثال : إنْ القرآن الذي أُنزل في مُجتمع تسود فيه العبودية ، يُدخل الى هذا المجتمع قواعد مِن شأنها أن تُعطيه صبغة أكثر إنسانية .

فهل يُصبح هذا التعليم باطِلاً لأن العبودية انقرضت ؟ أم أنّه يجب إعادة فرض العبودية ؟ أم أنه يجب علينا التفكير ، في كل لحظة ، كما يُعلِمُنا القرآن الكريم ، بالأمثلة التي يُعطينا ؟ ﴿ **ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كُل مثل لعلّهم يتذكّرون** ﴾(١) .

إنّ آية : ﴿ **ولعبد مؤمن خير من مُشرك** .... ﴾(٢) تحتفظُ ، إن لم نلتزم بالمعنى الحرفي ، بمعناها الشمولي إذا اعتبرنا أنّ قيمة الإنسان تكمُن في إيمانه وتقواه وليس في منصبه أو ثروته .

إنّ ما يبرز هذا التمييز بينِ « الشريعة » ، أي التوجه الديني والأخلاقي نحو الله ، وبين « البرامج » أو « الوسائل » التي ترك الله للبشر مسؤولية تطبيقها في إطار الظروف الواقعية لمُجتمعهم وزمنهم ، وهو معنى كلمة « شريعة » أي السبيل المُؤدّي الى نبع المياه وبتعبير رائع : الطريق الى الله .

---

(١) الزمر : ٢٧ .

(٢) البقرة : ٢٢١ .

وبعد أن يذكر القرآن الكريم في الآيات ٤٤ و٤٦ من سورة المائدة بأنّ رسالة موسى والتوراة وعيسى والأناجيل فيهم هُدى ونور يُضيف قوله تعالى ﴿ **لِكُلٍ جَعَلْنَا مِنكُم شِرعَةً ومِنهَاجا** ... ﴾(١) .

على ضوء هاتين الآيتين ، يتضح بأنّ الطريق ، « الشريعة » ، لها قيمة شمولية لأنها مُشتركة ، بالأخص بين أهل الكتاب . وهي تُحدد لنا الأهداف الصمدية بينما المنهاج ، أو الطريقة ، وسائل تعين على إدخال القيم الصمدية الى كل حقبة من حقبات التاريخ .

وفي الواقع فإنّ « الشريعة » هي عينها في الكتب الثلاثة المنزلة .

فالقرآن يُعلن مِراراً عديدة بأن الله وحده هُوَ المالك ﴿ **بل لَهُ ما في السَّمَوات والأرض ، كُل لَهُ قانِتون** ﴾(٢) .

وكذلك يقول في سفر تثنية الاشراع(٣) « ان للرب إلهك السماوات وسماوات السماوات والأرض وكل ما فيها » .

وكذلك الإنجيل اذ يقول في رسالة بولس الرسول الى أهل كورنش : « فإنّ للرب الأرض وملأها »(٤) .

والأمر عينُه ينطبق في الكتب الثلاثة على مبدأي : الله وحده الحاكم ، والله وحده العالم .

تقع مسؤولية ايجاد الوسائل التاريخيةلتحقيق هذه الأهداف الصمدية على عاتقنا، ولنا في القرآن مثال على ذلك فيما يتعلق بجماعة المدينة المنورة .

ويستثني هذا التمييز القرآني الواضح أي حرفية في التفسير ويدعونا الى التفكير بالأمثلة وليس بتطبيق التعليمات التاريخية ، الواردة أيضاً في القرآن ، تطبيقاً أعمى في كل الأزمان .

---

(١) المائدة : ٤٨ .
(٢) البقرة : ١١٦ و ٢٨٤ وآل عمران : ١٠٩ .
(٣) سفر تثنية : ١٤/١٠ .
(٤) انجيل بولس : ٢٦/١٠ .

ان نزعم تطبيق اجراء قانوني حرفياً بحجة أنه جاء في القرآن الكريم يرجع الى خلط سُنة الله الأبدية ، أي الشريعة (التي تتبدل اطلاقاً والمشتركة بين جميع الأديان والحِكَم) بالقوانين الخاصة بالشرق الأوسط في القرن السابع ، عِلماً بأن هذه القوانين كانت تطبيقاً تاريخياً للشريعة الأبدية خاصاً بهذه البلدان في تلك الحقبة من الزمن . بالطبع ان الشريعة الإلهية والتطبيقات التاريخية موجودة في القرآن . ولكن الخلط بينها وتطبيقها بشكل اعمى والرافض لهذا « التفكير » الذي يدعونا إليه القرآن يجعلنا غير قادرين على الشهادة للرسالة الحية ، للقرآن الحي والمعاصر أبديا ، ولله الحي .

إن الشريعة الالهية تُوحِد جميع الناس المُؤمنين . فإذا فرضنا مجموعة قوانين من القرن السابع على الناس في القرن العشرين ، فذلك عمل شقاق يُعطي صورة خاطئة تُنَفِر من القرآن ؛ تلك جريمة تُرتكب ضد الاسلام .

فالرسول عندما كان يتكلم باسم الله ، كان يأخذ بعين الإعتبار الوضع الجغرافي والتاريخي للشعب الذي كان يُطبّق من أجله ، بشكل محدد ، المبادىء الأبدية .

وعندما أمر بالصوم من الفجر حتى المغرب (الخيط الأبيض من الخيط الأسود) ، كان من الواضح أنه خصّ بالكلام شعباً يتوازى عنده الليل بالنهار نوعاً ما . أمّا بالنسبة لشعب الإسكيمو ، حيث تدوم الفترة ما بين الفجر والمغرب ستّة أشهر : فيجب أن نفكر ملياً مثلما فعلنا بالنسبة للآية حول العبودية كي لا نُطبقها حرفياً وأن نتساءل عن الهدف الذي تتوخاه كي نطبقها في ظروفٍ مختلفة .

هذا يصلح لعدد كبير من الآيات . فالله ورسوله يأخذان بعين الإعتبار الظروف ومُستوى فهم الشعوب التي يتوجهان إليها كي تنغرس الرسالة من دون القضاء مرة واحدة على النظام القائم . فالله ورسوله يقبلان ببعض العادات برغم أنها لا تتجاوب كُلياً مع المُقتضيات المطلقة للشريعة .

إنه لواجِب علينا أن نتساءل ، بشأن كل فريضة قانونية ، ما كان الهدف من فرضها والظروف التاريخية التي أوجبت فرضها في عالم يستجد فيه كل يوم جديد حيث يقول تعالى ﴿ **كل يوم هو في شان** ﴾[1] .

---

(١) الرحمن : ٢٩ .

لا تستطيع « الشريعة » أن تتحجر ، فالحياة في تطور مستمر وعلى الشريعة ان تدربها على سلوك طريق الله . يجب تسليط هذا المنظار التاريخي على فرائض مثل قطع يد السارق والتمييز حيال المرأة وخضوعها للرجل ، وهي تقاليد كانت موجودة في الشرق الأوسط ويشير إليها القديس بولس في رسائله ، حيث يقول : « ولم يُخلق الرجل لأجل المرأة بل المرأة لأجل الرجل »(1) عدم المساواة هذه على المستوى العقائدي اللاهوتي تؤدي الى طريقة تصرف : أيها النساء اخضعن لرجالكن كما ينبغي في الرب(2) .

وأيضاً : لتصمت نساؤكم في الكنائس(3) .

وأيضاً لأن المرأة ان لم تتغطَّ فليقص شعرها(4) .

إنه من الأهمية ألاّ ننسى أبداً بأن القرآن الكريم يستعمل كلمة الشريعة بمعناها الأساسي في ٥٨٠٠ آية فيما يستعمل الكلمة نفسها ، بمعناها التطبيقي كمثال للتصرف في مرحلة معينة من التاريخ ، مثل المجتمع الذي تسوده العبودية ، في ٢٠٠ آية .

ان افدح الأخطاء المُميتة بالنسبة لمستقبل الاسلام يكمن في خلط الشريعة الالهية بفقه القرن السابع . وتطبيق الشريعة يقي من هـــذا الخلط . فانطلاقاً من المبادىء المطلقة (الله وحده المالك ؛ الله وحده الحاكم ؛ الله وحده العالم) يجب خلق فقه يتماشى مع القرن العشرين . تلك هي المسؤولية المشتركة التي تقع على عاتق جميع المؤمنين الذين تلقوا رسالة الأنبياء ، مُرسَلي الإله الواحد وليس فقط المسلمين .

في كل مرة طُبقت الشريعة بهذه الطريقة ، عرف الاسلام فترة تقدم وازدهار . وعندما وقع الخلط بين الشريعة والفقه ، دخل الاسلام في حقب انحطاط .

نستطيع التحقق من هذه الحقيقة التاريخية بشكل كبير إذا ما نظرنا الى نقطتي انتشار الاسلام في أقصى انحاء إنتشارهما أي في اسبانيا وفي الهند .

---

(1) كورنتس الأول : ٩/١١ .
(2) افس : ٢٢/٥ وكولوسي : ١٨/٣ .
(3) كورنتس الأول : ٣٤/١٤ وتيموثاوس : ١٢/٢ .
(4) كورنتس الأول : ٦/١١ .

في الأندلس الاسلاميـــة ، من القرن التاسع وحتى القـــرن الثالث عشر ، كانت « قرطبة » مركز إشعاع الثقافة في جميع أنحاء اوروبا . وقد اضعفت الروح الطائفية المُتعصبة والإنغلاق الفكـــري لدى الفقهاء المالكيين ، الذين كانوا يحرقون مؤلفات الغزالي ، ويضطهدون أكبر مفكّري الاسلام ، من أمثال ابن حزم وابن رشد وابن عربي، وعزلت اسبانيا في كِفاحها ضد « اعادة الفتح » التي قام بها مُلوك الشمال ودفع بها الى طلب النجدة من الجيوش الأجنبية . وادت هزيمة الموحدين ، في « لاس نافاس دي تولوسا » عام ١٢١٢م الى إنهاء اجل الاسلام في الغرب ، تبعها نزاع طويل مع الموت دام حتى سنة ١٤٩٢م .

أما في الهند ، فتقع فترة الإزدهار والتقدم الإسلامي في المُنتصف الثاني من القرن السادس عشر ، أي خلال فترة الإشعاع الروحي المُتمثِل بِمؤلفات الشاعر « كبير » وخلال حكم الامبراطور « أكبر » (١٥٤٢ - ١٦٠٥م) مُعاصر الشاعر « كبير » . في تلك الحقبة توحدت الهند بفضل الاسلام الذي كان آنذاك أميناً لدعوته الأولى القاضية بإحياء الايمان الديني لدى جميع الديانات . فقد جمـــع الامبراطور « أكبر » حوله ، في « بيت الدين » ، مُسلمين وبراهميين وهندوسيين وبوذيين وفرس ومسيحيين .

إنّ مستقبل الاسلام اليوم مُرتبط بِجهودنا لنعيد اليه جميع الأبعاد التي كانت سبب عظمته وإشعاعه في أيام غير أيّامنا هذه .

- **البعد الشمولي الجامع** وذلك من خلال عدم تقيدنا بهذا التقليد أو ذاك من تقاليد الشرق الأوسط وماضيه ، وانفتاحنا على جميع الثقافات مُجدّدين التكافل المُثمر بين الشرق والغرب وبين الديانات السماوية : اليهودية والمسيحية والاسلامية وبين الحِكم العريقة في بلاد فارس والهند والصين .

- **البعد الداخلي الروحاني** وبعد الحب الالهي الذي دافع عنه المُتصوفة الكبار في الأندلس مـــن ابن مسرّة وحتى ابن عربي مثلهم مثل « البيرونـــي » و « كبير » والسلطان « أكبر » خلال فترة ازدهار الإسلام في الهند ، ضد جميع التفسيرات الشكلية والطقوسية والحرفية الفارغة .

- **البعد الاجتماعي** الرافض لغابات المصالح المُتصارعة وتكديس الثروات لدى فئة من الناس والبؤس لدى فئة أخرى .

- **البعد الناقد** ضد جهود قانونيين مُتزمّتين قَدِمُوا من الخارج زاعِمين أنهم حُرَّاس العقيدة المُستقيمة ومُعتبِرين أنفسهم مُوَظّفي المُطلق . لقد استطاع المتصوفة ورجال الفكر الكِبار في الأندلس أن يُحافِظوا على الروح الناقدة ، مهما كانت توجهاتهم ؛ إن عقلانية عند ابن رشد أو اشراقية عند ابن عربي .

إلى عهد قريب منا ، أشاد الشاعر الهندي المُسلم محمد إقبال ، في اشعاره ، بمسجد قرطبة وعظمة الأندلس في كتابه « **إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام** » . وبيّنَ أن الروح الناقدة وحدها تستطيع أن تحفظ الاسلام من مَرَضه الأساسي ألا وهو **قراءة النصوص المُقدّسة بأعين أموات** .

هذه هي رسالة الهند والأندلس ليس فقط بالنسبة للإسلام بل أيضاً بالنسبة للغرب؛ ليس فقط بالنسبة لرجال الدين في جميع الأديان ، بل أيضاً بالنسبة لجميع الذين يحبون المستقبل ويريدون ان يكون للحياة معنى .

الانسان ومستقبل الحضارة : وجهة نظر اسلامية

الدكتور احسان دوغرمجي*

ان التاريخ مرشد للماضي ، نستقي منه الدروس من أجل التخطيط للمستقبل . وفي هذا التجمع الهام ، حيث ستتركز المناقشات بشكل رئيسي على المستقبل ، أود أن أبرز تأثير الفن والثقافة والعلوم الاسلامية على الحضارة في العالم عبر التاريخ .

تأثير الفنون والآداب والثقافة الاسلامية :

لقد كان العالم الاسلامي وأوروبا المسيحية على اتصال منذ توسع الاسلام نحو الغرب . وفي القرن الثامن ، اتجهت الجيوش الاسلامية من شمال افريقية نحو اسبانيا ، وتغلغلت حتى وصلت الى طولوز في فرنسا . وعبدالرحمن الداخل ، أحد أفراد العائلة الأموية ، نصب نفسه حاكماً مستقلاً في اسبانيا ، وتبع ذلك قيام دولة المرابطين والموحدين التي دامت نحو ثلاثمئة عام . وبزوال حكم الموحدين في اسبانيا ـ عند سقوط قرطبة واشبيلية ـ في منتصف القرن الثالث عشر ، أسس الناصريون سلطنة لهم في غرناطة استمرت حتى غزو فيرديناند وازابيلا عام ١٤٩٢م . وخلال هذه القرون السبعة نشأ الفن الاسلامي الاسباني وأثر في فن العمارة والزخرفة الاسباني والأوروبي . حيث نجد الجامع الكبير في قرطبة بمحرابه المصمم على شكل الحدوة وصفوف الأقواس المتحابكة المطلية .

لقد كان النموذج الاصلي للفن الاسلامي الاسباني مصدر الهام لفن العمارة الاسباني اللاحق . وقد طور الناصريون هذا الطراز الاسلامي في اسبانيا وركزوا على فن العمارة المنزلي ، وأوجدوا بذلك المصدر الرئيسي لفن العمارة المنزلي في اسبانيا والمستعمرات الاسبانية لعدة قرون ، وبتركيزهم على الناحية الزخرفية أكثر من المواصفات البنيوية لفن العمارة ، فقد أوجدوا طراز البنايات المنزلية المشرقة ، يصحبها برنامج زخرفي مكثف ، ذو طابع رقيق . وهذه المنازل المكونة من طابقين وفناء قد

---

* عضو المجمع الملكي العامل رئيس مجلس أمناء جامعة بكلنت ـ انقرة بتركيا .

تطورت خلال العصور ، شأنها في ذلك شأن البيت الأندلسي ذي الفناء ، لتصبح بيوتاً لها واجهات مزخرفة وغالباً شرفات خشبية داخلية . وهذا ما أثر على فن العمارة الاسباني اللاحق وعلى المستعمرات الاسبانية في امريكيا الجنوبية والوسطى . إن قصر الحمراء في غرناطة ، الذي بُني بين عامي ١٢٣٨ - ١٤٩٢م ، هو عبارة عن مجمع يتكون من قصر حصين وقصر ريفي مع حدائق ، يطور الفناء أو ساحة الدار الأندلسية ، حيث تتجلى فكرة الوحدة بوجود قنوات الماء .

ان القصر الريفي « جنة العريف » ، الذي شُيد على مصاطب مع مصارف للمياه وقنوات، ومرشات ونوافير ، أصبح مصدر الهام وإيماء للقصور الأوروبية في العصر الباروكي .

ان الفنون الزخرفية التي وجدت في اسبانيا الاسلامية قد لعبت دوراً هاماً في تطوير مختلف الأساليب والطرازات في أوروبا المسيحية . ففن الخزف ، الذي تطور في اسبانيا الاسلامية ، كان شديد التأثير في انتاج الخزف في أوروبا ، خاصة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين . فالأواني الفخارية والآجر التي يستخدم في صناعتها اسلوب الزخرفة فوق أرضية بيضاء مع طلاء ملون ، وخزف مع قاعدة من القصدير المطلي بالمينا ، استخدم فيها أيضاً طلاء ملون ، انتجت بشكل كبير في اسبانيا في القرن الثالث عشر الميلادي ، ونقلوها الى اوڤيتو في ايطاليا في القرن الرابع عشر .

وهناك اسلوب آخر يدعى التزجيج اللامع ، حيث يتم استخدام الفضة والنحاس أو الحديد لجعلها تتأكسد مع الطلاء على قاعدة من المينا . وهو اسلوب على درجة عالية من التقنية . وقد تطور في اسبانيا الاسلامية ، وتم تصديره الى توسكاني في ايطاليا .

وكذلك وجد في طليطلة واشبيلية حل لمشكلة الطلاء الذي يخلط بتسخينه على النار على يد الخزافين الذين اخترعوا خزف « Cuerd Seca » والذي أصبح النموذج الاصلي الرئيسي في صناعة الخزف في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين .

إن غرناطة التي كانت عاصمة لسلالة صغيرة مستقلة أسسها الناصريون ، هي أيضاً مركز للآداب كانت تجذب الرجال المثقفين والعلماء والفنانين من العالم الاسلامي وأوروبا المسيحية .

فالفنون الزخرفية التي أنتجت البلاط الناصري تركت بصمات ليس فقط في اسبانيا ومنطقة أوروبا الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، ولكن أيضاً امتد تأثيرها الى عالم المستعمرات الأسبانية . فالخزف الذي انتج بأسلوب الصقل تم تصديره ليس فقط الى بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط فحسب ، بل أيضاً الى اوروبا الشمالية وانجلترا. فالأواني الخزفية المطلية في ملقا كانت مصدر ايحاء لأواني مايولكا « Mailoica » في ايطاليا ، حيث تم تبني هذا التعبير نسبة الى مالوركا « Mallorca » وهي الجزيرة التي انتقل هذا الاسلوب من خلالها الى ايطاليا . لقد أطلق تعبير « Moiclica » بشكل عالمي بعد القرن الرابع عشر على الاسلوب الاصلي للخزف المزخرف ، وهو الاسلوب المزدوج (الصقل بالنار) ، لأن الكلمة الفرنسية « الخزف المزخرف » (Faience) مشتقة من فنيسيا في ايطاليا ، وهي مركز الخزف الذي تأثر بملوركا .

لقد ظلت الفنون والنحت في اسبانيا بأيدي المسلمين حتى بداية القرن السابع عشر ، وأوجدت ما يسمى بتاريخ الفن تعبير « الموريسكي » الذي طوره الموريسكيون ، وهم المسلمون الذين ظلوا يعيشون تابعين للملاك المسيحيين بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م . حيث ظهر خليط من الفن الاسباني الاسلامي مع فن الرومانيسك الأوروبي . وكذلك الطراز القوطي الذي انتج أكثر الأعمال أهمية في فن العمارة في عصر النهضة في اسبانيا وأجزاء من البرتغال ، واستمر في العهد الباروكي في عالم المستعمرات الاسبانية .

لقد ظهر الطراز الموريسكي في فن العمارة المستخدم في بناء الكنائس والأديرة في مناطق طليطلة ومدريد وقشتالة وسيجوما واشبيلية وكان يتكون من صف من القناطر الحاجبة من الأقواس المبنية على شكل الحذوة مع جرس للابراج ، يذكر بالمآذن الاسلامية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. ومن بين العينات البارزة للفن الموريسكي في اسبانيا دير « لاس هيلجاس » القشتالي المشهور في بورجو ، وبرج كاتدرائية اشبيلية. وقد استمر التأثير الاسلامي في عمارة المنازل ، لا سيما في مخططات بناء الأفنية ، وزخرفة الجص على طراز بنية البلاط الناصري في غرناطة .

إن الاسهام الموريسكي في الفنون الزخرفية كان كبيراً أيضاً . ويبدو هذا جلياً في فن الخزف الذي استخدم اشكال القرن الثالث عشر والرابع عشر في اسبانيا الاسلامية وأفكارها .

إن مراكز انتاج الخزف مثل « Manises » وطليطلة واشبيلية باستبدالها التنور الناصري المنحدر من ملقا ، أنتجت الأواني الخزفية المطلية التقليدية الحالية مع عنايتها بصنع الايقونات وسيطرة الافكار المسيحية . أما صناعة الأقمشة التي بدأت مباشرة بعد الفتح الاسلامي فقد انتشرت في ملقا واشبيلية وغرناطة ، حيث طورت طرازاً اسبانياً مثيراً ، يتمثل في الاسلوب الموريسكي الذي استمر حتى القرن السابع عشر ، في أقمشة مقصبة جميلة بخيوط مذهبة وتصميمات اسلامية أصلية ممزوجة بأفكار أوروبية ، لكنها كثيراً ما كانت تقدم بطريقة مبتكرة ، هي أيضاً معلم اسلامي .

لقد حدث أيضاً إحياء للفن الموريسكي في القرن التاسع عشر في اسبانيا وأوروبا، تزامن مع احياء طرز اخرى في البيئة الفنية الانتقائية لهذا القرن . ولقد اتخذ تفاعل الفن الأوروبي مع المجتمعات الاسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي مساراً مختلفاً. فقد أحدث قدوم الاتراك الى العالم الاسلامي نشاطاً مميزاً ، ومكّن المسلمين من مقاومة الصليبيين ، حيث أصبحوا أصحاب السياسة الأولى في العالم الاسلامي . وبظهورهم في الشرق الأدنى تغيرت جغرافية العالم الاسلامي . ففي القرنين الحادي عشر والثاني عشر تحولت معظم الأناضول الى أراضٍ تركية على يد السلاجقة العثمانيين، الذين جاءوا من بعدهم في نهاية القرن الثالث عشر . وعندما ازدهرت سلطنة السلاجقة ـ خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، وأصبح لهم مرافىء على السواحل الشمالية والجنوبية للأناضول ـ قادت التجارة مع المدن الايطالية . وأدخل السلاجقة السجادة التركية المزينة بعقدة ـ ذات التاريخ العريق في آسيا الوسطى البدوي ـ الى الشرق الأدنى وبلدان اخرى في حوض البحر الأبيض المتوسط وذلك من خلال الصليبيين والتجار الأوروبيين الذين استقروا في موانىء حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقية . ونتيجة للنمو السريع في التجارة والعلاقات الدبلوماسية خلال هذه الفترة ، انتقلت أيضاً الى اوروبا الأقمشة والادوات المعدنية بالاضافة الى أفكار فن العمارة .

لقد نشأت الدولة العثمانية في الجانب الغربي من الأناضول ، وفي نهاية القرن الثالث عشر والقرون اللاحقة امتد سلطانها الى البلقان وحوض البحر الأبيض المتوسط ، ونمت حتى أصبحت امبراطورية ، وصلت الى حدود فينا والبحرالادرياتيكي ، وأدى ذلك الى الاتصال المباشر مع المجتمعات الأوروبية . وقد حافظ العثمانيون على استمرار

التجارة التي بدأت في عهد الصليبيين ، وأعطوا في الوقت المناسب لأهالي جنوة والبندقية والفرنسيين والهولنديين والبريطانيين الحق في استمرار التجارة معهم . وأصبحت التجارة وسيلة لنقل الملابس والأقمشة والسجاد والخزف الذي انتج في الامبراطورية العثمانية التي تحكم معظم الشرق الأدنى الى اوروبا . الى جانب وسائل اخرى مثل نقل الحرفيين المهاجرين الى مدن مختلفة في ايطاليا وبخاصة عام ١٤٥٣م ، لا سيما الذين هاجروا من استنبول التي فتحها السلطان محمد الثاني وجعلها عاصمة الخلافة الاسلامية . وعملوا في مدن مختلفة في ايطاليا وخاصة في البندقية . وكانت التجارة مع البندقية دائماً واسعة . ولكن بازدياد عدد التجار والحرفيين الاتراك في القرن السادس عشر، خصص لهم في البندقية مركز خاص بهم سمي بـ " Fondacodci Tunchi " ، وفي غضـون وقت قصير ازداد انتاج السجاد والأدوات الجلدية والمعدنية ، تلبية لاحتياجات أهالي البندقية .

اما الاتراك الذين كانوا يعملون في دور النشر في فينيسيا ، فقد أنتجوا معظم أغلفة الكتب الجلدية الانيقة المزينة بأشكال هندسية تقليدية وكذلك الرسومات بالنسق العربي في الزخرفة والرسم النافر المزين بالذهب على الطراز العثماني . أما الطبع الرخامي - وهو اسلوب تركي لزخرفة الورق يدعى ايبرو "Ebru" - فقد بدأ استخدامه في الكتب الأوروبية في أسفل الاوراق . وكانت الاوراق ترسل في البداية الى تركيا لطباعتها . وقد أسس هذا الأسلوب أو التقنية في القرن السابع عشر في أوروبا ولا يزال الى يومنا هذا .

ان فن تطعيم الذهب والفضة مع النحاس ، الذي يسمى بـ « الدمشقية » كان أيضاً أسلوباً مأخوذاً من الامبراطورية العثمانية . وقد اتبع هذا الاسلوب الجديد فنان صائغ في فلورنسا في القرن السادس عشر يدعى بنفتوسليني .

ولعل صناعة الاقمشة والسجاد كانت من أكثر الفنون تأثيراً على الغرب ، فكانت أقمشة الشرق الأدنى معروفة لدى الاوروبيين منذ بداية العصور الوسطى ، لكن حجم صادراتهم لم يصل أبداً الى المستوى الذي وصل إليه في القرن الخامس عشر والسادس عشر . وتنبئنا السجلات العثمانية والفينسنية أن الأقمشة المقصبة والحرير والمخمل هي من أجود البضائع التـي كان يصدرها التجار الايطاليون ، وان بعض المـدن الإيطالية مثل

فلورنسة ولوكا وفينسيا أنشأت صناعات خاصة بها لنسج الحرير لتنتج أقمشة مشابهة . وكانت هناك طريقة اخرى لتقديم نماذج من الأقمشة التركية المنتقاة من خلال القفطان أو اللباس الرسمي الذي أعطاه السلاطين العثمانيون للدبلوماسيين الأوروبيين في زياراتهم الرسمية .

ان تصدير الخزف الذي كان ينتج في ازنك (Eznik) مركز صناعة الخزف والاجر العثماني كان بشكل كبير فالافكار العثمانية التقليدية كانت أعجبت الزبائن الأوروبيين كثيراً ، حيث تجد الاطباق العثمانية والاباريق المقلدة بدقة منتشرة في مراكز الخزف الأوروبية . ويتجسد مثل هذا التقليد في أواني (Maiolica) وأواني (Delft) الهولندية بشكل كبير . واستمر ذلك حتى القرن التاسع عشر الميلادي .

لقد كان السجاد من أكثر البضائع المصدرة ، وقد جسدت كثير من اللوحات الأوروبية هذا الاستيراد الواسع من السجاد التركي أو « سجاد تركيا » كما كان يدعى في أوروبا في ذلك الوقت ، حيث كان يستخدم للزينة . وان فنانين من اوروبا مثل : هانزهولبين وسباستيانو دي بيرمبو او بنيتوريكو قد القوا الضوء من خلال لوحاتهم على مختلف النماذج من السجاد التي عثر عليها . كما ان اكتشاف سجادة أناضولية "Manbyrug" يعود تاريخها الى القرن الخامس عشر الميلادي في كنيسة قرية في السويد يبرز أيضاً حجم هذه العادات . وكانت تتم تواصي الاوروبيين للسجاد من ورش اوساك في الاناضول الغربي . وأدت شعبية السجاد التركي الى أن يعمد بعض الاوروبيين في انجلترا أو بلجيكا الى تقليده .

ولم يرسم الفنانون الأوروبيون السجاد التركي فقط بل تعدوه الى الصور التركية. فقد دعا محمد الثاني الى بلاطه فنانين اوروبيين مثل جنتل بيليني وكوستاترودي فريرارا في عام ١٤٧٨ و ١٤٧٩م ، فرسموا له لوحات كما أجروا دراسات على أزياء ومشاهد من تركيا ، وعند عودة بيليني الى فينيسيا بدأ الطراز العثماني بالظهور مراراً في اللوحات الأوروبية خاصة في مشاهد الكتاب المقدس . ويبدو أن تأثير هذا النمط الذي استمر في فينيسيا على الأقل حتى نهاية القرن السادس عشر كان كبيراً . حتى ان تأثر دورير بدراسات بيليني كان واضحاً خلال زيارتيه الى فينسيا ، فقد ظهر الطابع العثماني في

كثير من أعماله التصويرية . فالصورة التركية كانت تلتقي في أعمال عدد من الفنانين الفينسيين في عصر النهضة ، مثل كاربا شيو وسيماداكو نجليانو الذي رسم بدقة بارعة الأزياء التركية المصنوعة من القماش المقصب بالخيوط الذهبية والفضية .

لقد جلبت العلاقات التجارية المتزايدة الى الامبراطورية العثمانية عدداً من الدبلوماسيين الأوروبيين والتجار والرحالة المهتمين الذين عادوا محملين بالتحف التذكارية ، والتقارير العلمية التي غالباً ما نشروها في كتب مصورة . وتطور في وقت قصير في اوروبا سوق للطباعة والكتب يصوّر الأراضي العثمانية وأهلها ، حيث رسم نيكولاوس دي نيكولاي ، وهو كوزموغرافي فرنسي صحب السفير الفرنسي الى العاصمة العثمانية عام ١٥٥٣م ، مشاهد للحياة العثمانية . أما بيتر كوكي ڤان الست فقد كان مصمم نسيج بلجيكي ، أُرسل الى تركيا عام ١٥٣٣م لاكتساب المعرفة عن السجاد التركي . وكلاهما نشر كتباً مصورة تروي رحلتيهما ، وتضع نموذجاً لعدة منشورات لاحقة من هذا النوع . وتوجد بعض أعمال الرسام الدنماركي مليكور لوربل التي فيها اكثر الاوصاف دقة وكان قد انضم الى سفارة امبراطورية روما المقدسة برئاسة اوجيرجيسلين دي بسبك التي أرسلت الى بلاط سليمان القانوني . فلوحة السلطان احدى رسومات لوربك الكثيرة عن تركيا تعد الصورة الاكثر دقة والاكثر جمالاً . ومن بين الفنانين الذين رسموا السلاطين العثمانيين والشخصيات العثمانية الهامة الفنان اجوستينوفينسيانو . ومن بين هذه الشخصيات التي رسمها السلطان سليمان والادميرال باربروسا . كذلك قام الرسام الفينيسي تيتميان برسم لوحة لسليمان القانوني . كما ظهرت الصور التركية أيضاً في أعمال فناني القرن السابع عشر ، فقد رسم رونبز سلسلة من الازياء التركية ورسم رمبرادت عدداً من السلاطين العثمانيين .

وفي القرن الثامن عشر حدث تغير في طبيعة الاتجاه الاوروبي نحو العثمانيين ، فكان هناك تبادل هام في التأثير لم يكن ليحدث مصادفة ، فقد كان القرن الثامن عشر فترة توازن في القوى في اوروبا أكثر من أي وقت مضى بالنسبة للعثمانيين حيث كان الانسحاب من فينا نقطة تحول في اعادة تأسيس علاقات قوية في أوروبا . ومنذ ذلك الحين تعامل الأوروبيون والعثمانيون بعضهم مع بعض على أسس متساوية ، وأبدوا الرغبة في اطلاع أنفسهم كل على ثقافة الآخر .

وقد أدت العلاقات السياسية والاقتصادية الجديدة بين الطرفين الى احداث تأثير كبير في المحيط الثقافي لكلا الطرفين . كذلك كان للسفارات العثمانية في العواصم الأوروبية تأثيرها أيضاً . فقد رسم عدة فنانين فرنسيين مثل مارتن او باكوسل زيارة محمد سليبي الى باريس عام ١٧٢١م وطبعوها . وكذلك زيارات السفراء العثمانيين فقد كانت مسجلة بشكل جيد في الأرشيف الفرنسي بما في ذلك القوائم المفصلة بالهدايا التي قدمت الى البلاط الفرنسي . وهذه الزيارات أوجدت تكلفاً في الآداب والفنون الفرنسية . فالموضة التركية امتدت من أزياء السيدات الى الموسيقى والأدب ، ومن فن العمارة الزخرفي الى الرسم . فجلست السيدات الاوروبيات لرسم لوحات لهن بالزي التركي . فقد كلفت السيدتان بومبادرو ودي باري الرسام ڤان لو برسم لوحتين لهما على هيئة السلطانة . وظهرت أشكال الزي التركي في فن العمارة الزخرفي والخزف الصيني . واقتبس فنانو اسلوب الركوك مثل بوشر وفراجو نارد وجوردي المواضيع والازياء التركية في أعمالهم . كذلك في مجال الأدب والموسيقى اللذين سبقتهما في ذلك الموضة . ولعبت - شخصيات تركية ادواراً في الروايات والمسرحيات مثل المسرحية الكوميدية « السلاطين الثلاثة » لـ « ڤافري » . وكذلك كتاب « دراسات في الاخـلاق » لـ « ڤولتير » الذي أصبح مألوفاً جداً بين النخبة من الناس . وفي عام ١٧٣٥م قدم رامو اوبرا بعنوان « الهنود الظروف » مع فصل باليه بعنوان « الكرم التركي» . أعقبهما فيما بعد - في القرن نفسه - موسيقى واوبرا موزارت التي تنشر الموضة التركية . ان الصورة التركية التي انعكست على فنون القرن السابع عشر كشفت عن رغبة متزايدة في تحري الموثوقية بدلاً من التصوير الدخيل والمبالغ فيه في القرون السابقة .

وفي القرن الثامن عشر استقرت مجموعة من الرسامين في استنبول ، وهم من الذين غالباً ما كانوا يعملون في دوائر السفارات التي تعنى باللوحات ورسم المناظر الطبيعية ، منهم ڤانمور من بلنسية ، الذي قضى معظم حياته في استنبول يرسم حفلات الاستقبال في البلاط العثماني والازياء العثمانية خلال فترة حكم أحمد الثالث . بينما قضى الرسام السويسري جان ايتين ليونارد أربع سنوات في استنبول ، وله عدد من اللوحات المشهورة للعثمانيين والأجانب ، وله أثر في نشر الموضة التركية في كثير من العواصم الأوروبية ، حيث رسم نساء ورجالاً اوروبيين بالزي التركي .

لقد تضاءل الولع بالاستشراق في فن الركوك في أواخر القرن الثامن عشر ، وحل محله ازدهار بالرومانيسية المتعلقة بالشرق . فالرحالة الذين أعجبوا سابقاً بسحر الشرق ، بدأوا يهتمون بجوهر الحضارة الذي طالما ظل بعيداً . وهناك عامل زاد من الاهتمام الغربي بالشرق في هذا الوقت ، وهو الانشغال المتزايد بعلم الآثار القديمة ، خاصة بالمواقع الكلاسيكية الواقعة تحت السيطرة العثمانية . وهذا يتمثل في موجة الاستشراق في الفن الاوروبي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ونشأ من جراء ذلك مجموعة من الرسامين - خاصة في فرنسا - يُدعون المستشرقين الذين بحثوا عن مواضيع للروايات في الامبراطورية العثمانية وشمال افريقية الاسلامية . ولا شك أن يوجين ديلاكرو هو أكثر المستشرقين شيوعاً ، رغم أن لوحاته على الأغلب ذات صور خيالية مستوحاة من قصائد اللورد بايرون . ورسم انجرس أيضاً مواضيع شرقية بعيدة عن الصور الشرقية الحقيقية ، لأنه لم يسافر الى الشرق أبداً ، لكن بعض المستشرقين سافروا الى الامبراطورية العثمانية وكانت لوحاتهم تعتمد أساساً على الواقع . وقد زار الرسام الفرنسي الكسندر جابريل ديكامبس أزمير واستنبول عام ١٨٢٨م ورسم الحياة والمشاهد التركية المعاصرة . كما أن جون فريدريك تجول في الشرق الأدنى وعرفت لوحاته بالدقة.

لقد كان جيروم - وهو أحد المستشرقين - أفضل من عرف بدقة صوره الفوتوغرافية ، وقد أثر على عدة فنانين أوروبيين اخرين . أما الاراضي العثمانية فكانت ذات تأثير على كل الرسامين المستشرقين في القرن التاسع عشر ، بمن فيهم الفنان الايطالي فوستو زونارو وكذلك على الفنانين الفرنسيين جيليميه وفيلكس زم . وبتأمل هؤلاء الفنانين في الشمس الساطعة وفن العمارة اللبق والازياء ، فقد انتجوا لوحات مليئة بالتفاصيل الدقيقة والالوان (Jewel - Like) .

لقد كان الاستشراق موضة للرسامين الاكاديميين في القرن التاسع عشر ، ولكن أحياناً كان بعض التعبيريين أمثال رينوا وسيجناك يعمد الى اتباع مذهب الرسم الذي يتخذ من الحياة اليومية موضوعاً له . حيث زار سيجناك استنبول ورسمها . وعلى الرغم من أن الشرق الأدنى لم يعد موضوعاً جوهرياً بالنسبة لخيال الفنان الأوروبي في القرن العشرين ، فقد دفع ذلك الفنانين البارزين الى البحث عن مادة ابداعية جديدة ، فاستخدم

الفنانون المعاصرون أمثال هاتس وكلي الأفكار الاسلامية للزخرفة واللوحات التجريبية . وكان هناك نداء في مجال فن العمارة أيضاً للاتجاه نحو الفن العثماني المجلوب . ولا بد أن الاسهام التركي في المعارض الدولية التي اقيمت في اوروبا قد لعب دوراً بارزاً في ازدياد الاهتمام بالافكار التركية . وتنبئنا التقارير أن الفنان المعماري بارڤيلي أقام ثلاث بنايات عثمانية تقليدية في منتزه بارك دوشامب دومار ، كجزء من معرض باريس عام ١٨٦٧م ، بالإضافة الى عدة تصاميم معمارية عرضت في صالات العرض . وقد أعد الفنانان المعماريان مونتاني وباربريني مجلدين من هذه الرسومات والتصاميم ، بناء على طلب السلطان عزيز من أجل معرض فينا الذي اقيم عام ١٨٧٣م . كما ظهرت مقصورات حدائق ونوافير طبق الأصل عن تلك التركية في المتنزهات النمساوية . وعلى مدى القرن التاسع عشر ، أصبح عدد من المعماريين الاوروبيين وحتى الامريكيين على دراية بالعناصر المعمارية والافكار التركية .

كانت الموضة أكثر وضوحاً في الزخرفة الداخلية ، وكانت الغرف غالباً ما تزين بطراز تركي في مباني القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في اوروبا . مثل قصر « هو نستوانجو » في بافاريا الذي بناه الامير كسميليان عام ١٨٣٣م ، ومبنى سلسنج في بيبي في السويد الذي بنته عائلة سلسنج وأرسلت رسولين الى البلاط العثماني في ذلك .

إن القرون الطويلة من العلاقات السياسية والاقتصادية بين اوروبا والدول الاسلامية تبين مدى تأثير العلاقات الثقافية في انتاج أعمال ثرية بتبادل العناصر من الثقافات الاجنبية التي تحكمها خلفيات وأديان مختلفة .

تأثير العلوم الاسلامية :

كان كثير من مؤرخي العلم والثقافة الأوروبيين ـ خلال القرنين الماضيين ـ غير مستعدين للاعتراف بالاسهام الاسلامي البارز في المجال العلمي ، وذلك لاعجابهم الشديد بالمعرفة اليونانية ، اللاتينية القديمة . وكانوا مقتنعين تماماً أنه حينما انتهى العهد اليوناني والهليني وظهرت المسيحية في الامبراطورية الرومانية كدين للدولة ، دخل العلم والمعرفة في مرحلة انحطاط . وفي عصر النهضة فقط بدأت صحوة جديدة .

وعلى أي حال ، وعلى ضوء النتائج التي تم التوصل اليها في الوقت الحاضر ، من خلال البحوث التي أجريت منذ العقود الأولى من القرن التاسع عشر ، فقد تقرر انه خلال ما يسمى « بالفترة » ، وهو تعبير يستعمل للاشارة الى العصور الوسطى ، لم ينحدر العلم والحضارة بل ازدهر، ولكن انحداره كان في العالم الاسلامي . ومن خلال الترجمة من اللغة العربية الى اللاتينية منذ القرن الحادي عشر فصاعداً ، عندما بدأت مرحلة الازدهار تنحسر في اوروبة الغربية . فقد أدى تطور العلوم بين المسلمين الى تأثير عظيم في نهوض الانسانية في القرن الخامس عشر في اوروبا .

وكما أشار فيليب حتي في كتابه « تاريخ الاسلام » فإن هناك خدمة اخرى أداها المسلمون الى الحضارة ، وهي أنهم لم يضعوا حداً للصراع بين الدين والعلم فحسب ، ولكنهم أيضاً أنشأوا انسجاماً وتآلفاً بين هاتين المؤسستين الرئيسيتين في الحضارة .

ومنذ القرن الثالث الميلادي فصاعداً أصبح الشرق مركز الجاذبية السياسي والثقافي للامبراطورية الرومانية . وعندئذ نشأ مفكرون ومؤلفون عظماء . وفي الوقت نفسه اتخذ قسطنطين العظيم القسطنطينية (استنبول) عاصمة له ، ونقل حكومته الى هناك . وكان الساسانيون يحكمون ايران في ذلك الوقت . وفي روما التي أصبحت فيها المسيحية هي الديانة السائدة ، بدأت الثقافة الوثنية بممثليها تتعرض للازدراء ، مما دفع بكثير من المعلمين فيها الى الهجرة الى ايران ليكونوا في خدمة أنوشروان ، ولا سيما بعد اغلاق مدرسة أثينا عام ٥٢٥م . ونشأت بعد ذلك مدرسة جند شابور لتصبح أحد مراكز الثقافة الهيلينية الهامة . وفي الوقت نفسه ترجمت الكلاسيكيات أو العلوم الدينية اليونانية والهندية الى اللغتين الفهلوية والآرامية . وكما أكد بارتولد ، كانت بيزنطة متقدمة ثقافياً ، بينما كانت ايران تعمل على تطوير نفسها . وبالاضافة الى ذلك استمرت المدارس المحلية في سوريا وبلاد ما بين النهرين تخدم المعرفة الكلاسيكية باعتبارها مدارس لها ، على الرغم من الضغط المسيحي الاكليركي عليها ، ومن أشهرها مدرسة حرّان التي يماثلها في عملها مدرسة في الهند تعد من أفضل المدارس الهيلينية .

نشأ الاسلام في الجزيرة العربية التي كانت محاطة بهذه البيئة الثقافية . وخلال العشر سنوات التي تلت وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) سيطر الاسلام على مراكز المعرفة الهيلينية في مصر وسوريا وايران . وفي أقل من مئة عام ، توسع حكمه ليشمل مناطق كبيرة تمتد من جبال البرانس غرباً الى قشعر شرقاً. وربط جميع ثقافات العالم القديم وحضاراته بما فيها الصينية والهندية . واولى العلوم اهمية كبيرة ، ومنذ عهد معاوية بن أبي سفيان (توفي سنة ٦٨٠م) فصاعداً عندما بدأت تظهر سماحة الاسلام الكبيرة مع غير المسلمين بدأ بالاستفادة بطرق مختلفة من الحضارات القديمة . ومنذ عهد عبدالملك بن مروان (توفي سنة ٧٠٥م) فصاعداً ، نشأت حركة الترجمة من اللغات اليونانية والسريانية والفهلوية ، التي كانت لغة المعرفة في ذلك الوقت الى اللغة العربية . وفي عهد الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور (توفي سنة ٧٧٥م) انتشرت كثيراً حركة الترجمة التي كانت تدعمها الدولة . وفي فترة حكم هارون الرشيد اسس بيت الحكمة مركزاً هاماً للمعرفة ، وفي زمن المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) وصل نشاط الترجمة الى ذروته . حتى ان المأمون نفسه ، الذي كان ايضاً عالماً ، ارسل وفوداً الى بيزنطة للحصول على كتب تتعلق بالعلوم اليونانية . وأدت التفككات السياسية التي حدثت في النصف الثاني من القرن التاسع في الدولة العباسية الى التأثير سلبياً على النشاطات العلمية . ومع ذلك ، فالفضل يعود الى بني موسى الذين تولوا برعايتهم اولئك الذين يقومون بدراسة الرياضيات ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ، كذلك استمرت حركة الترجمة لفترة من الزمن بالزخم نفسه . وقد ألّف مترجمون عظماء ، مثل حنين بن اسحاق (توفي ٨٧٣) ، وثابت بن قرة (توفي سنة ٩٠١م) ، وكوستا بن لوكا (توفي سنة ٩١٢م) ، عدداً كبيراً من الكتب في الرياضيات ، والطب ، والفلك ، والفلسفة ، كذلك صححوا الترجمات السابقة لمترجمين آخرين . وقد توقفت حركة الترجمة بعد الربع الاول من القرن العاشر .

وفي مسار كل هذه النشاطات في الترجمة ، التي استمرت اكثر من قرنين ، ترجمت اعمال هامة للأمم القديمة ، منها كتب ارسطو في المنطق والفيزياء ، واعمال ارخميدس وابولينوس في علم الهندسة ، والفلك، والفيزياء، وعلم الجبر لـ « ديوفانت »، وعدد من كتب بوتولمي ، والكتب الطبية لأبو قراط وجالينوس . ومن الاعمال الادبية المترجمة من اللغة الفهلوية كتاب « كليلة ودمنة » ، وكتاب « هزار انسانة » ، وكتاب « السندباد نامة » ، التي كانت مصادر حكايات « الف ليلة وليلة » .

وفي ذلك الوقت ، لم يحصر المسلمون انفسهم في اعمال الترجمة ، بل انشأوا مراكز ومعاهد علمية هامة درسوا فيها هذه العلوم الجديدة وطبقوها . ان ادخال علم الحساب والارقام ، بما فيها الصفر الى الغرب هو احد اسهامات الاسلام الرئيسية في العلوم الغربية . ففي زمن الوليد بن عبدالملك (توفي سنة ٧١٥م) اسس اول مشفى في دمشق . وفي العراق كان هناك مشفى جند شابور ، تبعها مستشفيات انشأها هارون الرشيد في العراق . والفتح بن خاقان (توفي ٨٦١م) في مصر على التوالي . وفي زمن المأمون انشئت ايضاً مراصد في بغداد في الشماسية ، وقرب دمشق . كما تم اعداد زيج المأمون* وفي الوقت نفسه نشر الخوارزمي كتابه المستقل الاول في علم الجبر ، وكتابه عن علم الحساب الهندي ، وكتابه عن الزيج بعنوان « سند هند » . وتبع ذلك نشر اعمال اصلية اخرى ، مثل كتابي حنين بن اسحاق في الطب وهما « المسائل في الطب » و « طب العيون » ، وكتاب ثابت بن قرة في علم الهندسة « كتاب المفردات » ، ورسائل الكندي عن علم الارصاد الجوية وكتاب « كيمياء العطر » الذي يبحث في العقاقير وكيمياء مستحضرات التجميل ، كذلك البتاني الذي انتهى من رصده حوالي عام ٩٠٠م ، وانشأ زيجه العظيم الذي صحح به كثيراً من الاخطاء الموجودة في زيج بطليموس ، وقد ترجم فيما بعد الى اللغة اللاتينية في عهد الفونسو العاشر (١٢٥٢-١٢٨٢) ، واضعاً بذلك اساس كثير من الزيجات التي اصبحت معروفة في اوروبا فيما بعد . ان قيمة العمل التطبيقي في المستشفيات الاسلامية لم تكن تقل اهمية عن قيمة العمل التطبيقي في المراصد . وكما اكد برانتل وايدمان ، كان للمنهج العلمي التطبيقي المتبع في مختلف ميادين المعرفة في العالم الاسلامي تأثيره على الرواد الاوروبيين في العلم الحديث مثل روجر بيكون (١٢١٠ - ١٢٩٠) . وذلك لأن العلماء المسلمين لم يعلنوا نتائج بحثهم فحسب ، بل حددوا ايضاً مناهجهم بوصف مراحل بحثهم التي تؤدي الى النتائج نفسها خطوة خطوة .

لقد توقفت نشاطات الترجمة نتيجة للتفكك والتجزّؤ السياسي الذي شهده العالم الاسلامي في بداية القرن العاشر ، وبسبب تضاؤل التفكير المنطقي . لكن ذلك لم يكن يعني توقف البحث العلمي ، فقد تمتعت العلوم الطبيعية والرياضيات ، من وقت لآخر

* الزيج عبارة عن جدول من الحسابات يدل على موقع الاجسام السماوية .

تحت ظروف جيـدة ، بفترات قصيرة من الازدهار . وبدعـم من الدين الاسلامي ، أولي الطب بشكل خاص عناية وتشجيعاً . وازدهرت النشاطات العلمية في اجزاء كثيرة من العالم الاسلامي بعد القرن العاشر لفترة قصيرة . وفي هذا الشأن ، لا بد للمرء ان يتذكر الانشطة العلمية في الاندلس إبان حكم عبدالرحمن الثالث ، وفي مصر ابان الحكم الفاطمي ، وفي خراسان ابان حكم السامانيين والغزنويين ، وزمن ملك شاه من السلاجقة، وفي دمشق ومصر زمن نور الدين وصلاح الدين ، وفي مراغة زمن الحزميين، واخيراً في سمرقند ابان حكم اولوغ بك .

وخلال هذه الفترات القصيرة من الازدهار العلمي ، احرزت العلوم الاسلامية بعض المكتشفات العلمية ، فعلى سبيل المثال ، نجح ابو جعفر الخازن (توفي سنة ١١٢١م) في حل معادلات للمجاهيل الثلاثة هندسياً . وفي زمن ملك شاه كرّس عمر الخيام فصلاً منفصلاً لحل هندسي لمعادلات من الدرجة الثالثة . وفي حوالـي عام ١٢٠٠ حـلّ شرف الدين الطوسي (توفي سنة ١٢٣٠م) ثلاثة متغيرات مجهولة بطريقة حسابية . واخيراً فقد احرز غياث الدين جمشيد الكاشي ، وهو صديق اولوغ بك ، اكتشافات عظيمة في ميادين علم الجبر والحساب، وقد سهّل الامر كثيراًبإجراء الحسابات بطريقة الكسر العشري ، وحدد قيمة الباي (Pi) الذي يمثل النسبة بين طول محيط الدائرة وقطرها بـ : ٣٠١٤١٥٩ .

وكان ثابت بن قرة قد اخترع مناهج جديدة في عمليات حساب المثلثات . وفي ابان حكم هولاكو انشأ مرصداً ومكتبة كبيرتين في مراغة ، وقصدهما الطلاب للدراسة فيهما من اماكن بعيدة مثل بيزنطة . وفي مركز الدراسة هذا ، تجمع العلماء حول ناصر الدين الطوسي (توفي سنة ١٢٧٤م) حيث اعاد ترجمة الكتب الرياضية والفلكية والتعليق عليها ، وهي الكتب التي تُرجمت في العصور الاولى للحكم العباسي . وقد طوروا حساب المثلثات وجعلوه فرعاً منفصلاً من فروع التعلم وصنفوا زيج الالخاني بعد ان صححوا الاخطاء الواردة في زيج البتاني وزيج ابن يونس على ضوء ملاحظاتهم . وقد تميز زيج اولوغ بك (توفي سنة ١٤٤٩م) على زيج الالخاني فقط . وفي القرن السادس عشر حاول تقي الدين الراشد (توفي سنة ١٥٨٥م) ان يحسّن زيج اولوغ بك، لكن عمله لم يلاق ابداً الاهتمام الكافي .

وفي زمن المأمون ، اكتشف طول منحنى خط العرض للدرجة الواحدة الذي هو ٥٦ ٢/٣ ميلاً ، وان محيط دائرة الارض عند خط الاستواء هو ٤٠ر٢٥٣ كليو متراً ، وان نقطة اوج الشمس تتغير . وقد قدر البيروني مقدار هذا التغير بـ ١٢ر٠٩ ثانية . وفي وقتنا الحاضر تم تقديره بـ ١١ر٤٦ ثانية . وقد اسس البيروني ايضاً بشكل صحيح قوانين الوزن الدقيق لكثير من المواد .

ومن ناحية أخرى ، اثار نظام المركز الارضي الفلكي الذي وضعه ارسطو وبطليموس الشك في بعض العلوم . فعلى سبيل المثال ، اثار الزركلي والبتروجي (توفي حوالي سنة ١٢٠٠م) نقاشاً حول الاخطاء الواردة في نظام بطليموس وبالتالي تأثر بذلك الفلكيون الغربيون في القرون اللاحقة . وفي الواقع ، شرح البتروجي آراءه حول هذه المسألة في رسالته « المرتعش » ، وقد ترجم هذا الكتاب الى اللاتينية بعد الانتهاء من تأليفه ببضع سنوات .

وبالاضافة الى هذه الكتابات العلمية ، الفّ ايضاً ابناء شاكر ، وابن الهيثم وابن الرزاز الجزاري (توفي سنة ١٢٠٠م) رسائل هامة تتعلق بصناعة الآلات ذاتية الحركة ، والبصريات وعلم الميكانيكا ، ومن هؤلاء العلماء ، الفّ ابن الرزاز كتابه حوالي عام ١٢٠٠م ، واهداه الى آرتوك حاكم ديار بكر . واستمر كتابه « كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع » ، الذي يتعلق بالآلات الاوتوماتيكية ، في اثارة اهتمام العلماء في وقتنا الحاضر ، وغالباً ما كان مؤكداً بأن اختراعات ليوناردو دفنشي سبقتها اختراعات الرزاز الاخرى المشابهة .

وفي مجال الطب ، وجد ابو بكر الرازي (توفي سنة ٩٢٥م) الطبيب الأكثر شهرة. وقد عاش اثناء فترة البويهيين واهتم اهتماماً خاصاً بدراسة بتأثير الظروف الجوية على صحة البشر . وبرهن ان من الخطأ اعطاء المريض عقاقير كيماوية قبل ان يجرب الطبيعية منها . وكتابه العظيم « الحاوي في الطب » الذي يتكون من عشرين مجلداً عبارة عن جامع لكل ما كتب في الطب قبله . وفي كتاب آخر له بعنوان « كتاب الشكوك » انتقد جالينوس في مسائل متعددة مع تقديره له . وهو الذي لاحظ بأن قوس قزح انما يكبر او يصغر حسب الضوء ، واشار أيضاً الى ان البصر يحدث حينما ينعكس الضوء من الاجسام على العين . كذلك شرح ابن الهيثم وكمال الدين الفارسي القوانين الفيزيائية للبصر بواسطة مبادىء البصريات . وشرح ابن سينا ايضاً أن العلاقة الموضعية للسرطان

هي دلالة على انتشار الداء ، وان الاصابة في الغشاء الدماغي هي مرض خطير جداً . وكتاب الزهراوي ، الفيزيائي الاندلسي في القرن العاشر ، « التصريف لمن عجز عن التأليف » ، يحتوي ايضاً على فصل هام يتعلق بالجراحة . حيث وصف في كتابه ادوات الجراحة والاساليب الجراحية التي طورها بنفسه . وكان للترجمة اللاتينية لهذه الكتب اثرها في تطوير الجراحة في العالم الغربي .

وكما اشرنا سابقاً ، انبثقت ، خلال زمن نور الدين وصلاح الدين ، في الشرق الاوسط طبقة متعلمة تميل بشدة الى تطوير العلم . وفي الوقت نفسه تكونت مدرسة جديدة في الطب ، بسبب تأثير ابن ميمون (توفي سنة ١٢٠٠م) من الاندلس ، وابن نقاش من بغداد ، ونتيجة لاسهام الفيزيائيين المحليين ، كما انشئت مستشفيات جديدة في دمشق ومصر .

لذلك برز في هذه البيئات المزدهرة كثير من الفيزيائيين المهرة ، والصيدليين النباتيين ، والكيميائيين . نذكر منهم مهذب الدين الدخوار (توفي سنة ١٢٣٠م) ، وعبداللطيف البغدادي (توفي سنة ١٢٣١م) وقد كانا معلمين لابن النفيس (توفي سنة ١٢٨٨) ، وابن أبي اصيبعة (توفي سنة ١٢٧٠م). وقد كان الدخوار شديد الاعجاب بأعمال جالينوس، وعندما كان يشرحها في الصف ، كان يقول لتلاميذه « هذا هو الطب الحقيقي » . وقد حوّل بيته ، في حياته ، الى مدرسة للطب واورثها كل ممتلكاته . وبالنسبة لعبداللطيف البغدادي ، فقد وضع رسالة تتعلق بداء البول السكري ، ووصف بدقة عظام الفك الاسفل على اساس دراسته المكثفة عن الهيكل العظمي . وكان ابن البيطار ، من ملقا في الاندلس ، اعظم عالم نبات في العصور الوسطى . وفي كتابه « مفردات ابن البيطار » درس خاصية اكثر من ١٣٠٠ نوع من النباتات الطبية ، ثم التعريف بثلاثمئة منها بناء على بحثه الخاص ، نتيجة تجواله الواسع في الاندلس ، وافريقية الشمالية ، وسوريا والاناضول . وكان ابن ابي اصيبعة ، تلميذ الدخوار ، هو مؤلف كتاب « عيون الأنباء في طبقات الاطباء » ، وهو اشهر عمل وصلنا في تاريخ الطب الاسلامي . اما تلميذه الآخر ابن النفيس ، فقد صنف رسائل كثيرة في مجال الطب،خاصة كتابه الهام « الشامل في الصناعة الطبية » الذي بدأ بجمعه على هيئة موسوعة

طبية، حيث اكمل وضع ثمانمئة كراسة في كتابه « الشامل »، ولكنه مات، لسوء الحظ ، قبل ان يكمل البقية . وقد صنف ، بشكل مبدئي ، تحفته الرائعة في ثلاثمئة كراسة . وكان لوصفه للدورة الدموية الصغرى تأثيره الكبير على الاكتشافات التي احرزها مايكل سيرفتو ووليم هارڤي (توفي سنة ١٦٥٧م) . ويعود الفضل الى لسان الدين الخطيب (توفي سنة ١٣٧٤م) الذي وضع نظريات لأقدم المواضيع في مجال الطب . وفي معرض رده على المتزمتين الذين ينكرون العدوى يقول لسان الدين :

« واذا اعترض معترض بأن عدوى المرض لا يمكن التسليم بها شرعاً اجبناه : العدوى ثابتة بالتجربة والعقل والحس والمعاينة واجماع الحكام ؛ وهذه جميعها بينات دامغة ، ومن يتفكر في المسألة ملياً يعرف ان المرء الذي لا يعاشر المريض لا تصيبه العدوى . وسواء انتقل المرض بالملابس او الآنية فإن العدوى واحدة ، بل إن القرط الصغير يكفي لأن يقتل المرء او الأسرة كلها » .

لقد كان لكل هذا التطور في العلم والمعرفة في العالم الاسلامي تأثيره بطرق مختلفة على البلدان المجاورة . وقد شهدت اوروبا بعد القرن الحادي عشر ابرز هذا التأثير. وفي الواقع ، كانت اوروبا في منتصف القرن الحادي عشر تمر بتغيرات عسكرية وسياسية . وبالتالي ، وقعت صقلية وانجلترة تحت الحكم النورماندي ما بين عام ١٠٦٠ ـ ١٠٨٠م ، وفي اسبانيا سقطت قرطبة ، وهي اهم مركز للثقافة والمعرفة ، بيد الفرنكيين . بالاضافة الى ذلك سيطرت دول المدينة الايطالية ، التي بدأت بالظهور في الفترة ذاتها ، على تجارة حوض البحر الابيض المتوسط ، وبالتالي احرزت تقدماً عسكرياً. وقد ساعد الطلبة الوافدون الى صقلية والاندلس من ايطاليا وفرنسا وانجلترة في انتشار العلم والمعرفة ، الموجودة في العالم الاسلامي ، الى اوروبا . وفي حوالي عام ١٠٠٠م عندما كان سيلفستر الثاني هو البابا ، تبنت اوروبا الحروف العربية وترجم شخص يدعى ليتوس كتاباً عن الاسطرلاب الى اللاتينية .

نتيجة لنشاطات الملاحة والتجارة في البلدان المحيطة بالبحر الابيض المتوسط ، في القرن الحادي عشر ، ازدادت الصلات والتفاعل بين اوروبا والشرق الأوسط . وعندما وصل الصليبيون ايضاً الى الشرق الاوسط في نهاية القرن الحادي عشر ، اتيحت لهم

الفرصة لرؤية معاهد اسلامية كثيرة عن قرب ، واخذوا الى اوروبا معهم بعض الاختراعات كالبوصلة والبارود والمنتجات الورقية . وكان منهم غليوم دي تر ، الذي تعلم العربية وكتب تاريخاً عن الاسلام . وقد انتهج بعض الملوك الاوروبيين نهجهم ، كما كان الحال في صقلية ، في دعوة العلماء المسلمين الى بلاطهم ليظلوا تحت رعايتهم. ففي صقلية ، على سبيل المثال ، جمع الملك النورماندي روجر الثاني حوله كثيراً من العلماء من جنسيات مختلفة . وقد اخرج هؤلاء العلماء ، تحت رقابة العالم الجغرافي المشهور الادريسي ، كتاباً بعنوان « كتاب روجر » او « نزهة المشتاق » ، جمعوا فيه كل المعلومات المتوافرة في ذلك الوقت عن الجغرافية . وصنعوا كرة كبيرة وضعوا عليها علامات كل المناطق المعروفة ، والبلدان ، والبحار ، والجبال ، والانهار . وانشئت المستشفيات في اوروبة في القرن الحادي عشر ، بينما انشئت الجامعات في القرن الثالث عشر ، على نسق المستشفيات والمدارس في العالم الاسلامي . وترجم كثير من الكتب الى اللاتينية . فعلى سبيل المثال ، انشىء مستشفى ساليرنو في شمالي ايطاليا في القرن الحادي عشر الذي سرعان ما نال شهرة عظيمة في اوروبا . وكان ذات المستشفى الذي لجأ اليه ويليام الفاتح من انجلترة لمعالجة جراحه . كذلك ارسل روبارت النورماندي ، احد قواد الحملات الصليبية الاولى ، الى مستشفى ساليرنو للمعالجة عندما أصيب أمام جدران القدس . وكان قسطنطين الافريقي احد اطباء هذا المستشفى ، ولد عام ١٠٢٠م في قرطاجة - تونس ، وكان قد تجول في معظم المناطق الاسلامية لغرض الدراسة والتجارة . وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، انضم الى فريق مستشفى ساليرنو ، وترجم حوالي سبعين كتاباً طبياً من اللغة العربية الى اللاتينية . وقد عزي بعض هذه الكتب الى جالينوس ، وروفس ، وارسطو بالخطأ ، ولكن عندما ترجمت كتب جديدة فيما بعد ، تبين ان علماء عرب هم الذين الفوها بالاصل . وهناك تلميذ قسطنطين، وهو يحيى بن افلح ، دخل في المسيحية وسمى نفسه جين افلاتوس . واصبح بعد موت استاذه طبيباً بارزاً في مستشفى ساليرنو .

ان اول عالـــم عظيم بالرياضيات تلقى العلـــم في اوروبا هو ليوناردو فيبوناشي (توفي سنة ١٢٤٠) ، ولد في بيزا عام ١١٧٠ . وقد سافر في شبابه الى الاراضي الاسلامية ودرس في دمشق وتونس ، وتعلم اللغة العربية . وعند عودته الى ايطاليا اخذ

معه عدداً من كتب الرياضيات التي ساعدته على احراز اكتشافات حديثة في هذا المضمار . وقد وجد كثير من الالفاظ العربية طريقها الى اللغات الاوروبية ، بسبب التأثر بهذه الترجمات من اللغة العربية الى اللاتينية مثل : الجبر ، الكيمياء ، السمت ، مصنع الأسلحة ، شراب سكر ، وادميرال . اضافة الى ذلك ، نشر كتاب ابن سينا « القانون » في عام ١٤٧٣م في ميلان واعيد طبعه بعد سنتين . وفي السنة نفسها ، نشر تعليقاً بالايطالية بعنوان : Anima Avrrcnnas ، وفي الوقت نفسه قل الاهتمام بكتابات جالينوس ، لأن كتاب ابن سينا « القانون » طبع ثلاث مرات بينما لم يطبع اي كتاب لجالينوس . وقد تبع نشر كتاب « القانون » ، كتابي « الطب المنصوري » و « الحاوي » لأبي بكر الرازي ، و « الكليات » لابن رشد ، « والمداخل » لحنين بن اسحاق . وقد طبع كتاب ابن سينا « القانون » ست عشرة مرة حتى عام ١٥٠٠م ، وبلغ عدد طبعاته عشرين طبعة في القرن السادس عشر . واستمر ازدياد عدد الطبعات في القرن السابع عشر ، فأصبح بذلك اكثر كتب تاريخ الطب عدداً في الطبعات . اما كتاب الرازي رسائل في الجدري والحصبة، فكان كتاباً آخر طبع ٤٠ مرة ما بين عام ١٨٦٦ - ١٩٤٧م .

ان كل هذه القرائن كافية لاثبات تأثير المسلمين في الفنون والعلوم والثقافة الغربية، وباختصار ، في الحضارة الغربية .

الاسلام .. حضارة الغد

الدكتور يوسف القرضاوي*

مقدمـــــة

ربنا لك الحمد ، كما ينبغي لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك . وصلاة وسلاماً على صفوة خلقك ، وخاتم أنبيائك ورسلك ، سيدنا وامامنا وأسوتنا محمد . وعلى آله وصحبه ، ومن سار على دربه .

أما بعد ، فقد شهد العالم حضارات متعددة ، في بقاع مختلفة المكان ، وفي عصور مختلفة الزمان ، ازدهرت حيناً ثم ذبلت ، وأشرقت ثم غربت ، وأقبلت ثم أدبرت ، بعضها كان في الشرق ، وبعضها كان في الغرب ، وبعضها شمل قطراً أو قطرين ، وبعضها شمل أقطاراً ، بعضها بقي قرناً أو قرنين ، وبعضها دام قروناً وأعصارا .

ولكن العالم لم يشهد حضارة مثل الحضارة السائدة اليوم ، فقد اتسع نطاقها حتى أثرت في أقطار الارض كلها ، شرقيها وغربيها ، باديها وحاضرها ، ولذا غدت توصف بـ (العالمية) وان كان الغرب أباً لها وصانعها .

كما أنها ملّكت الانسان من القدرات والوسائل ما لم تملكه حضارة من قبل ، وهيأت له من أسباب الرفاهية ومظاهر التنعم ، ما لم يتهيأ له في تاريخه الطويل ، بل وما لم يكن يحلم به أو يدور بخاطره .

ومع هذه المكنة والقدرة الهائلة ، لم تراع هذه الحضارة فطرة الله في الانسان ، ولم تحافظ على الخصائص الذاتية للانسان ، ولم تبال بمستقبل الانسان ، ومصير الانسان، حتى غدا علم الحضارة وتقدمها ذاته خطراً عليها . وكاد ينطبق على هذه الحضارة وأهلها ما ذكره القرآن ﴿ **حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس . كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** ﴾[1] .

---

* العضو العامل في المجمع الملكي / عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية / جامعة قطر . الدوحة ـ قطر .

(١) يونس : ٢٤ .

كان عيب هذه الحضارة أنها استغنت عن الله ، وعزلته عن الحكم في ملكه ، وتصرفت كأنها صاحبة الخلق والأمر في هذا العالم ، فضمرت روحها ، وإن كبر جسمها ، وانطفأ نورها، وإن بقيت نارها . فأصبحت دنيا بلا دين ، وعلماً بلا إيمان ، وتمثالاً بلا روح .

وهذا حكم على الغالب والسائد من غير شك ، فقد توجد بذور خير ، ومصابيح هداية، هنا وهناك ، سنة الله في خلقه . ولعلها هي التي تؤخر سقوط هذه الحضارة . ولكن العبرة بالغلبة ، وللأكثر حكم الكل ، كما قال فقهاؤنا من قديم .

وهذا هو الذي أقلق المخلصين من أهل العلم والفكر والأدب والسياسة : أن يصيب هذه الحضارة ما أصاب ما سبقها من الحضارات ، ويجرى عليها القانون الإلهي الذي لا يحابي ولا يحيف .

ونحن المسلمين نخاف على هذه الحضارة ما يخافه النقاد المخلصون من أهلها ، لأن ما فيها من خير ينتفع به الجميع ، وما فيها من شر خطر على الجميع . ويهمنا أن نستبقي خيرها ، وأن نتفادى شرها .

ولن يكون ذلك الا من خلال الرسالة الحضارية التي يحملها المسلمون للعالم ، وهي رسالة ربانية انسانية أخلاقية ، تتميز بالتوازن والتكامل ، وتهيىء الانسان ليقوم بعمارة الارض وخلافة الله ، وعبادته تعالى بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق والصبر .

اننا لا نريد أن نهدم الحضارة المعاصرة ، لانها ستنهدم علـى رؤوس الجميع ، وانما نريد ان نحميها من نفسها ، وأن نقدم لها طوق النجاة من غرق يهددها ، ويهدد البشرية معها .

إننا وحدنا نملك البديل ، وهو الاسلام ، الذي بعث الله به جميع رسله ، وأنزل به جميع كتبه ، وارتضاه الله منهاجاً لجميع خلقه ، على أن نحسن نحن الفهم له ، والعمل به، والدعوة اليه . وأن نقدمه للناس نموذجاً يرى ، لا كلاما يقال . وبذلك نكون الامة التي أرادها الله بقوله: ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس** ﴾[1] .

﴿ **ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيّء لنا من أمرنا رشدا** ﴾[2] .

(١) البقرة : ١٤٣ .
(٢) الكهف : ١٠ .

الفصل الأول

روح الحضارة المعاصرة وخصائص فكرها :

لكل حضارة جسم وروح ، كالانسان تماماً ، فجسم الحضارة يتمثل في منجزاتها المادية من العمارات والمصانع والآلات ، وكل ما ينبىء عن رفاهية العيش ومتاع الحياة الدنيا وزينتها .

أما روح الحضارة ، فهو مجموعة العقائد والمفاهيم والقيم والآداب والتقاليد التي تتجسد في سلوك الأفراد والجماعات وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، ونظرتهم الى الدين والحياة ، والكو ن والانسان ، والفرد والمجتمع .

والحضارات الكبرى التي عرفها تاريخ البشرية تتفاوت فيما بينها في موقفها من المادية والروحية ، فمنها ما يغلب عليه الجانب المادي ، ومنها ما يغلب عليه الجانب الروحي ، ومنها ما يسوده التوازن بينهما .

والحضارة التي تسود عالمنا اليوم هي (الحضارة الغربية) وهي حضارة لها مزاياها التي لا تنكر ، من ناحية احترام حرية الانسان وخاصة داخل وطنه ، واطلاق حوافزه وطاقاته ، حتى استطاع أن يطوع (الطبيعة) لخدمته ويفجر الذرة لمصلحته ، وأن يحلق في الهواء كالطير ، ويغوص في البحر كالسمك ، وينطلق في الأرض كالمارد . كما استطاع أن يصنع ذلك الجهاز العجيب الذي وفر للإنسان وقته وجهـده الذهني ، وهو (الحاسوب) أو الحاسب الآلي (الكومبيوتر) ، وانما فعل ذلك كله بفضل العلم الذي اكتشف قوانينه ، وبرع في استخدامه وتطبيقاته (التكنولوجية) مع حسن ادارة وروعة تنظيم ، واحكام رقابة وتوجيه .

وبهذا استطاع الفرد العادي أن يعيش في مستوى من الرفاهية يحسده عليه ملوك العصور السابقة ، الذين لم يكونوا يجدون ما يقاومون به شدة الحر ولا قسوة البرد ، ما يجده الانسان الآن من أجهزة التكييف ، وآلات التدفئة . وما تيسر له من الأدوات

الاتوماتيكية التي تدار أو توقف بمجرد الضغط على زر صغير ، فيضاء الظلام ، أو يطهى الطعام ، أو يسخن البارد ، أو يبرد الحار ، أو يقرب البعيد ، أو ينطق الحديد . بل من الآلات الآن ما يدار بغير أزرار ، مثل الابواب الالكترونية ، والصنابير الالكترونية وغيرها .

ورغم هذه الانجازات المادية الضخمة ، يقول الواقع : ان هذه الحضارة لم تهيء لأهلها السعادة المنشودة ، أو السكينة المرجوة ، انها جسم فيل له روح فأر !

أجل ان عيب الحضارة المعاصرة ما يتغلغل في أعماقها من (المادية النفعية) التي جعلتنا نقول : انها روح الحضارة الغربية ، وأساس فلسفتها والطابع العام لها ، وجوهر فكرها الذي يميزها . وهو ما ينبغي أن نلقي عليه شعاعاً من ضوء في هذه الصحائف التي نقدمها .

الجذور الفكرية للحضارة الغربية :

الحضارة الغربية المعاصرة تقوم على ركائز فكرية ممتدة الجذور ، الى عهد اليونان والرومان . ولا نستطيع فهم هذه الحضارة فهماً دقيقاً ، ما لم نعرف الفكر الغربي الذي استمدت منه ، وقامت عليه ، ونعرف مكونات هذا الفكر وخصائصه .

ونعني بالفكر الغربي : الفكر النظري الذي يسود الغرب الحديث في أوروبا وأمريكا . ولسنا نعني به « الفكر العلمي » القائم على الملاحظة والتجربة ، بل الفكر الفلسفي الذي يحدد نظرة الناس هناك الى الدين والحياة ، والى الكون والانسان والى المعرفة والقيم . فهو يشمل الفلسفة الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) اثباتاً أو إنكاراً .. والفلسفة الاخلاقية بشتى مدارسها .. والفلسفة الاجتماعية بمختلف مذاهبها وتياراتها وفروعها .

وسواء كان هذا الفكر ليبرالياً أم اشتراكياً ، رأسمالياً أم شيوعياً ، فهو فكر غربي واحد في الأساس والاصول ، والسمات والخصائص . وان اختلفت صوره وفروعه وتميز بعضها عن بعض .

سمات الفكر الغربي وخصائصه :

هذا الفكر الغربي فكر خاص له سماته وخصائصه التي ينفرد بها عن فكر الشرق عامة ، والشرق العربي والاسلامي خاصة . وهي خصائص عميقة الجذور ، لازمته منذ نشأته في بلاد الاغريق ، وانتقاله منها الى الرومان ، حتى انتقل الى أوروبا المعاصرة ، ومن ورائها امريكا ، وأثرت فيه عوامل تاريخية خلال صراعات القرون الوسطى تركت « بصماتها » عليه الى اليوم .

الغبش في معرفة الألوهية :

أول سمات الفكر الغربي : غبش رؤيته لحقيقة الألوهية ، فليست رؤية صافية تقدر الله حق قدره ، وانما هي رؤية غائمة مضطربة ، تحيط بها الأوهام والجهالات ، بل الحق أن الغرب ـ كما يظهر من تاريخه ـ لم يعرف الله جل شأنه معرفة صحيحة ، ولم يهتد الى الايمان الصحيح بخالق الكون ومدبره . لم يعرف حقيقة الألوهية الكاملة العالمة القادرة المريدة البارة الرحيمة . وذلك لأنه لم يعرف النبوة الهادية ، والوحي المعصوم ، معرفة مباشرة ، فيما علمنا من تاريخه . ومن ثم سار في الطريق وحده باحثاً عن « العلة الأولى » أو « المحرك الأول » أو « واجب الوجود » فتعثر وتخبط ، وغلبت عليه الأوهام والأهواء .

حتى الفلاسفة الذين يسميهم تاريخ الفلسفة « الالهيين » أي الذين اعترفوا بالألوهية في الجملة ، مثل العمالقة الكبار : سقراط وافلاطون وأرسطو ، الذين رفضوا الإنكار والإلحاد ، لم يكن تصورهم للألوهية تصوراً صحيحاً ، بل كان تصوراً قاصراً مضطرباً مشوباً بالكثير من الأوهام والتخليطات .

لنأخذ مثلاً « إله » ارسطو المعلم الاول لدى الاغريق ، لنرى أي إله هو ؟ أهو الإله الذي نعرفه نحن ، خالق كل شيء ، ورازق كل حي ، ومدبر كل أمر ، العالم بما كان وما هو كائن وما سيكون ، الفعال لما يريد ، والقادر على كل شيء ؟ أم هو إله آخر غير هذا الإله الذي نعرفه ؟

لنستمع في ذلك الى أحد مؤرخي الفلسفة المعاصرين :

يقول ول ديورانت في (مباهج الفلسفة)[1] :

« يتصور ارسطو « الله » بوصفه روحاً تعي ذاتها ، وهذه هي الأخرى روح غامضة خفية ، وذلك لأن إله ارسطو لا يقوم أبداً بأي عمل ، فليست له رغائب ولا ارادة ولا غرض ، وفاعليته نقية خالصة ، الى حد تجعله لا يفعل ابدا . وهو كامل كمالاً مطلقاً ، لذلك ليس بمقدوره ان يرغب في أي شيء ، ولذلك لا يعمل أي شيء ، ووظيفته الوحيدة هي التأمل في جوهر الأشياء ، ونظراً لأنه هو بالذات جوهر جميع الأشياء ، وشكل جميع الأشكال . لذلك فإن عمله الوحيد هو التأمل في ذاته . يا لإله أرسطو من إله مسكين ! انه ملك ، لا يحل ولا يربط « فالملك يملك ولكنه لا يحكم » !

« ولا غرو ان يحب الانجليز (ارسطو) فإلهه هو ـ بوضوح ـ صورة طبق الاصل عن ملكهم ، أو أن ملك هؤلاء هو نسخة عن إله ارسطو بالذات » .

واذا كان إله ارسطو مسكيناً ، لانه لا يستطيع ان يحل ولا يربط في الكون ، فاشد منه مسكنة إله افلاطون الذي تنسب اليه الافلاطونية الحديثة فانه لا يتأمل في شيء، حتى في ذاته نفسها !!

النزعـــة الماديـــة :

ومن سمات الفكر الغربي : المادية ، ونعني بها تلك النزعة التي تؤمن بالمادة وحدها ، وتفسر بها الكون والمعرفة والسلوك ، وتنكر الغيبيات ، وكل ما وراء الحس ، فهي لا تؤمن بإله خالق لهذا الكون ، ولا برسل له ينزل عليهم الوحي ، ولا بروح خالدة لهذا الانسان ، ولا بحياة أخرى بعد هذه الدنيا ، ولا بعالم غيبي غير هذا العالم المنظور ، ولا بقيم مثالية فوق المنافع واللذات الحاضرة ، لأن كل هذه الاشياء لا يشهد لها الحس ، ولا تهدي اليها الملاحظة والتجربة .

الفكر الغربي فكر مادي ، يحتقر الروحيات ، حسي ، لا يحفل بالمعنويات ، واقعي ، لا يؤمن بالمثاليات .

---

(١) ول ديورانت ، مباهج الفلسفة : ١٦١ ـ ١٦٢ من الترجمة العربية .

وأود أن أنبه اننا نحكم هنا على الغالب والسائد ، فلا يحتج علينا محتج بأن في الغرب روحيين وأخلاقيين ومثاليين ، اذ النادر لا حكم له ، والاكثر له حكم الكل ، كما هو معلوم .

وقد غلبت هذه النزعة المادية على الحياة الغربية المعاصرة ، سواء منها الجانب النظري أم الجانب العملي . حتى أصبح معروفاً لدى الدارسين المتعمقين أن ديانة الغرب الحقيقي اليوم هي « المادية » .

وربما أنكر هذه الحقيقة أو استغربها الذين ينظرون الى الامور من السطح ولا يغوصون الى الاعماق . اذ المعروف لديهم : ان أمم الغـــرب في مجموعها تدين بالمسيحية ، وينص كثير من دساتيرها على ذلك ، بل على مذهبها من كاثوليكية أو بروتستانتية ، وفرنسا تعتبر نفسها حامية الكثلكة في العالم ، وانجلترا كانت تعد نفسها حامية البروتستانتية . وقد ورثتها في ذلك الآن الولايات المتحدة الامريكية .

وفي ألمانيا وفرنسا وايطاليا وبلجيكا احـــزاب مسيحيـــة كاثوليكية كبيـــرة ، تولى بعضها الحكم أكثر من مرة ، وحزب المحافظين البريطاني يجعل من أهدافه اقامة حضارة مسيحية....فكيف يسوغ لنا ـ بعد هذا ـ ان نشكك في ايمان الغرب بالدين وتمسكه به؟.

ولكن لا ينبغي أن تخدعنا الصور عن الحقائق ، ولا القشور عن اللباب ، ولا الاسماء عن المسميات .

فالمسيحية عند هؤلاء « شعار » يرتبطون به ، و « صليب » يتجمعون حوله ، ونزهة الى « الكنيسة » في أيام الاجازات ، وليست « قيماً » يؤمنـون بهـــا ، و « عقائد » يخضعون لها ، ويكيفون حياتهم وفقاً لها . ونحن نتحدث طبعاً عن الغالبية العظمى ، لا عن أفراد يعدون شواذ بالقياس الى مجتمعهم . فهم في قومهم كحلقة في فلاة .

فالغربي الحديث اذا كشفت عن جوهره الحقيقي وجدت انساناً لا يعرف الا المادية دينا ، والنفعية مذهبا .

وننقل هنا كلمة رجل أوروبي دارس عميق هو « ليوبولد فايس » النمساوي الذي اهتدى الـى الاسلام وسمي باسم (محمد أسد) في كتابه (الاسلام علـى مفترق الطرق)[1] :

ان الاوروبي الحديث - بما انطوى عليه من جحود ممل لوجود النفس على انها حقيقة عملية - لم يبق لهدف الحياة عنده اهمية عملية ما . لقد ترك التأمل المطلق والاعتبار في الحياة وراءه ظهريا .

ان الاتجاه الديني مبني دائماً على الاعتقاد بأن هنالك قانوناً ادبياً مطلقاً شاملاً وأننا - نحن البشر - مجبرون على أن نخضع انفسنا لمقتضياته . ولكن المدنية الغربية الحديثة لا تقر الحاجة لخضوع ما ، الا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعية أو قومية . إن معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني ، ولكنه الرفاهية .

ثم حلل الكاتب مناهضة المدنية الأوروبية للدين ، وأعاده الى سببين أساسيين :

أولهما : وراثة أوروبا للمدنية الرومانية ، مع اتجاهها المادي التام فيما يتعلق بالحياة الانسانية ، وقيمتها الذاتية .

والثاني : ثورة الطبيعة الانسانية على احتقار النصرانية للدنيا ، وعلى كبت الرغبات الطبيعية والجهود المشروعة في الانسان[2] .

وقد حلل الحضارة الرومانية التي هي أم الحضارة الغربية تحليلاً دقيقاً ، ينبغي لنا ان نسجله ، وان نعيه وعياً جيداً . قال[3] :

[ان الرومانيين في الحقيقة لم يعرفوا الدين ، وان آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية . لقد كانت أشباحاً سكت عن وجودها حفاظاً للعرف الاجتماعي ، ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل في أمور الحياة الحقيقية بل كان عليها ان تنطق بالرجز على السنة عرافيها اذا سئلت عن مثل ذلك . ولكن لم يكن ينتظر منها ان تمنح البشر شرائع خلقية .

---

(١) محمد أسد (ليوبولد فايس) ، الاسلام على مفترق الطرق : ٣٠ .
(٢) المرجع نفسه : ٤٠ .
(٣) المرجع نفسه : ٣٤ وما بعدها .

تلك كانت التربة التي نمت فيها المدنية الغربية الحديثة : ولقد عملت فيها بلا شك مؤثرات أخرى كثيرة في أثناء تطورها . ثم انها بطبيعة الحال قد حورت وبدلت في ذلك الارث الثقافي الذي ورثته عن رومية ، في أكثر من ناحية واحدة ، ولكن الحقيقة الباقية ان كل ما هو اليوم حقيقي في الاستشراف الغربي للحياة والاخلاق يرجع الى المدنية الرومانية .

وكما ان الجو الفكري والاجتماعي في رومية القديمة كان نفعياً بحتاً ، ولا دينياً - لا على الافتراض بل على الحقيقة - فكذلك هو الجو في الغرب الحديث ...

ان المدنية الغربية لا تجحد الله البتة - أي جحوداً مطلقاً في قوة وصراحة - ولكنها لا ترى مجالاً ولا فائدة لله في نظامها الفكري الحالي ...

وهكذا يميل الأوروبي الحديث الى أن ينسب الأهمية العملية فقط الى تلك الافكار التي تقع في نطاق العلوم التجريبية ، أو تلك التي ينتظر منها على الاقل ان تؤثر في صلات الانسان الاجتماعية بطريقة ملموسة . وبما أن وجود الله لا يقع تحت هذا الوجه ، ولا تحت ذاك ، فان العقل الاوربي يميل بداءة الى اسقاط « الله » من دائرة الاعتبارات العملية] .

ولم ينكر « ليوبولد فايس » ان في الغرب بعض الافراد والمتدينين ، الا انهم لا يستطيعون أن يقفوا امام الموجة المادية العاتية ، أو يؤثروا في توجيه التيار الفكري العام . قال(١) :

[لا ريب أنه لا يزال في الغرب افراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب ديني ، ويبذلون جهود القانط حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم ، ولكن هؤلاء شواذ فقط .

« ان الأوروبي الحديث سواء عليه اكان ديمقراطياً أم فاشياً ، رأسمالياً أم بلشفياً صانعاً أم مفكراً يعرف ديناً ايجابياً واحداً ، هو التعبد للرقي المادي ، أي الاعتقاد بان ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر ...

---

(١) محمد أسد ، الاسلام على مفترق الطرق : ٤١ .

« ان هياكل هذه الديانة أي معابدها وكنائسها انما هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية ، وباحات الرقص واماكن توليد الكهرباء ! واما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما ، وقادة الصناعات وابطال الطيران!. وان النتيجة التي لا مفر منها في هذه الحال : هي الكدح لبلوغ القوة والمسرة .. أي اللذة وذلك يخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح ، مصممة على أن يفني بعضها بعضا حينما تتصادم مصالحها المتقابلة .

أما على الجانب الثقافي ، فنتيجة ذلك خلق نوع بشري تنحصر فلسفته الاخلاقية في مسائل الفائدة العملية ، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر ، انما هو التقدم المادي لا غير] .

وليست شهادة ليوبولد فايس على المدنية الغربية هي الشهادة الوحيدة . فهناك كثيرون غيره من أبناء الغرب المسيحيين شهدوا بما شهد ، واكدوا ما قال . وقد نقل لنا الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) عن الأستاذ (جود) الانجليزي قوله : « ان نظرية الحياة التي تسود هذا العصر وتحكم عليه ، هي النظرة في كل مسألة وشأن ، من ناحية المعدة والجيب »[1] .

وقد أجاد الصحفي الأمريكي المشهور (جون جنتر) تمثيل هذه النفسية في كتابه « في داخل أوربا » بقوله : « ان الانجليز انما يعبدون بنك انجلترا ستة أيام في الأسبوع ، ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة !! » .

وهذه شهادات قديمة ، وقد ساء الوضع وتدهور كثيراً وكثيراً جداً ، عما شهده وشهد به هؤلاء النقاد . وقد ذكرت الاحصاءات الحديثة أن ٥٪ فقط من الغربيين هم الذين يذهبون الى الكنيسة أيام الآحاد ، وان لم يكن هذا الذهاب يعني التدين بالضرورة.

---

(١) أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ١٥٧ .

النزعة العلمانيـــة :

ومن سمات الفكر الغربي وخصائصه : النزعة العلمانية ـ وهي من ثمار الخصيصتين السابقتين ولوازمهما ـ وهي تلك النزعة التي تفصل بين الدين والدولة ، وبعبارة أخرى : بين الدين والحياة الاجتماعية .

فالدين في نظر الغربي علاقة بين الانسان وربه ، محلها ضميره الذي بين جنبيه وليس من شأنه ان يوجه الحياة بالتشريع والالزام ، وفرض تعاليمه وأحكامه على المؤسسات التي تحكم المجتمع ، وتدير دفته من تعليم وتربية وثقافة واعلام ، وادارة واقتصاد ، وسياسة وتشريع .

وقد آمن الغرب بهذه الفكرة ، بعد صراعه المرير مع المؤسسة الدينية الممثلة في الكنيسة ورجالها وكهنتها ، الذين زعموا أنهم يمثلون في الأرض ارادة الاله في السماء ، وان رأيهم دين ، وطاعتهم عبادة ، ومخالفهم شيطان .

وللاسف كان رأيهم وفكرهم ـ الذي اعتبروه ديناً من عند الله ـ يؤيد الخرافة ضد الفكر ، والجهل ضد العلم ، والجمـود ضد التحرر ، والظلم ضد العـدل ، والظلام ضد النور .

أقامت الكنيسة (محاكم التفتيش) لمطاردة العلم ، ومحاكمة العقل ، ومقاومة الابتكار ، ومحاربة كل جديد . وفعلت الافاعيل ـ التي لم يعرف التاريخ لها مثيلاً ـ ضد العلماء والمفكرين والمخترعين ، وقتلتهم أحياء ، وحرقتهم امواتاً .

فلما مس الغرب المسيحي نفحة من الشرق الاسلامي ، هب يدافع عن ذاته ، ويثور على جلاديه ، ويرفض الدين الذي حرمه من الدنيا ، وحرم عليه العلم والتفكير ، دين الكنيسة والبابوات ، الذين يملكون قرارات الحرمان ، وصكوك الغفران ، يوزعونها على من يشاؤون .

رفض الفكر الغربي الناهض الدين الذي كبله بالاغلال ، ولم يسمح له بالبقاء الا مستكنا في الضمائر ، فان خرج فالى المعابد والكنائس أيام الآحاد لا يعدوها .

ولا غرو أن الغرب بعد ان أنزل الدين عن عرشه ، وعزله عن عجلة القيادة ، نهض بعد عثرة ، وارتقى بعد هبوط ، واغتنى بعد فقر ، وقوى بعد ضعف ، وهذا ما جعله يزداد ايماناً بما انتهى اليه خلال مسيرته التاريخية : ان لا مكان للدين في توجيه الدولة والمجتمع .

ومما يؤيد هذا التوجه في الفكر الغربي ، ان الانجيل نفسه يؤيد هذا الاتجاه ويدعمه، حيث يقول المسيح : دع ما لقيصر لقيصر، وما للّه للّه .

ومعنى هذا : أنه قبل قسمة الحياة نصفين : نصف للدولة المعبر عنها بـ (قيصر) ونصف للدين ، الذي هو لله .

فهذا الانشطار والانقسام والانفصام بين الله وقيصر ، أو بين الدين والدولة هو أحد السمات الاساسية لفكر الانسان الغربي .

الصـــراع :

ومن خصائص الحضارة الغربية ، أنها حضارة تقوم على الصراع ، لحمتها وسداها الصراع ، لا تعرف السلام ولا الطمأنينة ولا الحب .

وهو صراع متغلغل في كل النواحي ، متنوع الأشكال ، متعدد المجالات ، متباين الأسلحة والأساليب .

انه صراع بين الانسان ونفسه ، وصراع بين الانسان والطبيعة ، وصراع بين الانسان والانسان ، وصراع أيضاً بـــين الانسان والاله ! فالانسان في الغـــرب يصارع فطرته التي فطره الله عليها ، اذا أراد أن يحيا الحياة المثالية التي تريدها له ديانته النصرانية ، فالوضع المثالي له أن يستقذر الجنس ، ويرفض المال ، لأن الغنى لا يدخل ملكوت السموات الا اذا دخل الجمل سم الخياط ، ويحرم نفسه من الطيبات من الرزق ومن زينة الله التي أخــــرج لعباده . ويتحمل السيئة من المسيء ، ويدير خده الأيسر لمن ضربه على خـــده الأيمن ! فاذا لم يستطع أن يفعـــل ذلك ـ كما هو شأن معظم الناس ـ ظل يعاني عقدة الصراع بين مثاليته التي يؤمن بها وواقعه الذي يعيشه ويمارسه .

وانسان الحضارة الغربية في صراع مع الطبيعة ، لأنه ينطلق من أن الطبيعة عدو له، يجب أن يفرض سيطرته عليها ، ولهذا يعبر الغربيون عن ذلك بكلمة « قهر الطبيعة » وهي كلمة لها دلالتها وايحاؤها . على حين يرى الاسلام أن الطبيعة بكل ما فيها مسخر لمنفعة الانسان كما في قوله تعالى : ﴿ **ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** ﴾[1] .

وهو ما عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم أجمل تعبير وأرقه في شأن جبل أحد حين قال : « هذا جبل يحبنا ونحبه » .

والانسان في الحضارة الغربية في صراع مع أخيه الانسان ، وهو صراع يأخذ صوراً شتى .

فهو صراع بين الافراد من أجل منافعهم الفردية المتباينة ، ولا سيما مع سيادة النزعة الفردية ، والفلسفة النفعية ، وشيوع مقولة هوبز : الانسان ذئب للانسان ! وقول كل أمرىء بعد ذلك : انا وليخرب العالم !

وهو صراع بين الطبقات والجماعات ، وخصوصاً مع استئثار كل جماعة بالمنافع لأنفسها ، وجورها على غيرها ، واحتقارها لمن سواها .

وهو صراع بين الأمم والأجناس ، وخصوصاً مع حدة الشعور القومي ، ونزعة الاستعلاء عند كل أمة ، وهو ما أدى الى حروب اقليمية وعالمية ، وما لا نزال نرى أثره في العلاقة بين البيض والسود ، أو البيض والملوّنين عامة ، في أمريكا وأفريقيا وغيرها .

وهو صراع بين المؤسسات كالصراع بين الكنيسة والدولة ، الذي انتهى الى ما عرف عندنا باسم (العلمانية) وتعني : فصل الدين عن شؤون الدولة .

---

(١) لقمان : ٢٠ .

ومثله الصراع بين الدين والعلم ، وبعبارة أخرى بين المؤسسة التي تمثل الدين وهي الكنيسة ورجال الاكليروس ، والمؤسسة التي تمثل العلم ، وهي الجامعات ومراكز البحث وغيرها .. وقد تجسد هذا الصراع في محاكم التفتيش التاريخية وما قامت به ضد العلم والعلماء من مآس تشيب لهولها الولدان .

وأدهى من ذلك كله وأمرّ في الحضارة الغربية : الصراع بين الانسان والرب أو الاله ، وهذا فكر موروث من مصدرين رئيسيين :

١ ـ وثنية اليونان والهتها التي كانت تغير وتدمر وتحرق .

٢ ـ العهد القديم (التوراة وملحقاتها) الذي يصور الإله حاقداً ناقماً غيوراً حتى إنه يخلق الانسان (آدم) ثم يخاف منه ، ويخشى أن يزاحمه في المعرفة أو الخلود ، فيحرم عليه الأكل من الشجرة ، وهو يصارع اسرائيل ، فيصرعه اسرائيل ، فلا يفلته الا بوعد منه لمصلحة نسله وذريته !!

الفصل الثانـــي

عقلاء رجال الغرب يدقون أجراس الانذار

خفوت صوت الايمان في عصرنا :

لم يعد خافياً أن جمرة الايمان ـ في ظل حضارة العصر ـ فقدت كثيراً من توهجها واشتعالها في القلوب ، ان لم تكن قد انطفأت تماماً في قلوب كثيرة ، أماتتها المادية ، أو أمرضتها الغفلة والشهوة ، وان صوت الايمان قد خفت في حنايا الضمائر ، ولم يعد له من السلطان والتأثير ما كان من قبل ...

دق اجراس الانذار من خطر الحضارة المادية :

لقد افاقت البشرية على أخطار تهدد مسيرتها الحضارية ، بل تهدد وجودها ذاته . وشعرت البشرية كلها انها في أمسّ الحاجة الى الايمان بجوار العلم ، بل قبله . والى الروح الى جنب المادة بل أسبق منها . وقد بدأ العالم كله يعي ويحس بخطر الاستغراق في العلم المادي واستخداماته (التكنولوجية) بعيداً عن الله تعالى وعن الايمان به ، وبحسابه ولقائه ، والاهتداء بهداه .

لقد صنع الانسان الآلة ليسخرها لمنفعته ، ثم اصبح بعد مدة من الزمن عبداً لها تماماً كما صنع الانسان الجاهلي الصنم ، نحته بيده ، ثم غدا بعد ذلك أمامه عابداً خاشعاً، يسأله الرزق في السلم ، والنصر في الحرب !

ان علماء الغرب أنفسهم هم أول من شعر بخطر هذه (الآلة) التي جعلت الحياة الانسانية لفظاً بلا معنى ، وجسداً بلا روح .

ومنذ عقود من السنين ونحن نسمع اجراس الانذار ، يدقها علماء ومفكرون كبار من داخل العالم الغربي ، أحسوا بالخطر ، فلم يسعهم الا أن ينبهوا وينذروا قومهم لعلهم يحذرون .

الجميع يشعرون بخطر المادية المحدق :

لقد تفاقم الخطر ، وتطاير الشرر : خطر المادية ، وشرر الحياة الآلية ، ولم يبق ذو عقل الا أعلن شكواه من هذا البلاء الواقع والمتوقع ، الظاهر والكامن ، كمون النار في البركان ، يوشك ان ينفجر في لحظة من اللحظات ، فيأتي على الأخضر واليابس .

يستوي في ذلك العلماء والادباء ، والفلاسفة والمفكرون ، والسياسيون والاداريون .

تحذيرات رجال العلوم :

من هؤلاء العلامة (الكسيس كاريل) أحد اقطاب العلـم . والحاصل على جائزة (نوبل) في العلوم ، وصاحب الكتاب القيم الشهير (الانسان ذلك المجهول) . الذي نقد فيه الحضارة الغربية نقداً علمياً رصيناً ، قائماً على منطق العلم ومسلماته .

يقول الكسيس كاريل في كتابه ذاك :

« ان الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا ، فقد انشئت من غير أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، اذ إنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناسِ ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ، ورغباتهم ، وعلى الرغم من أنها انشئت بجهودنا ، فإنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا »(١) .

« لقد أهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعمال ، اهمالاً تاماً عند تنظيم الحياة الصناعية . اذ ان الصناعة العصرية تنهض على مبدأ : الحد الاقصى من الانتاج بأقل التكاليف ، حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد أن يحصلوا على أكبر مبلغ مستطاع من المال . وقد اتسع نطاقها دون أي تفكير في طبيعة البشر الذين يديرون الآلات . ودون أي اعتبار للتأثيرات التي تحدثها طريقة الحياة الصناعية التي يفرضها المصنع على الأفراد ، وأحفادهم »(٢) .

---

(١) الكسيس كاريل ، الانسان ذلك المجهول ، ترجمة عادل شفيق : ٢٧ .
(٢) المرجع نفسه : ٢٨ .

« يجب أن يكون الانسان مقياساً لكل شيء ، ولكن الواقع هو عكس ذلك ، فهو غريب في العالم الذي ابتدعه ، انه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته .. ومن ثم فان التقدم الضخم الذي احرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو احدى الكوارث التي عانت منها الانسانية .. فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا .. اننا قوم تعساء ، لأننا ننحط خلقياً وعقلياً.. ان الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي ، على وجه الدقة ، الجماعات والأمم الآخذة في الضعف ، والتي ستكون عودتها الى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليهما . ولكنها لا تدرك ذلك ، اذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيدها العلم حولها .. وحقيقة الأمرأن مدنيتنا مثل المدنيات التي سبقتها ، أوجدت أحوالاً معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة . وذلك لأسباب لا تزال غامضة ....

ان القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. إننا ضحاياً تأخرعلوم الحياة عن علوم الجماد . إن العلاج الوحيد الجائز لهذا الشر المستطير هو معرفة أكثر عمقاً بأنفسنا »(١) .

وفي موضع آخر :

« اننا لن نصيب أية فائدة من زيادة عدد الاختراعات الميكانيكية . وقد يكون من الأجدى أن لا نضفي مثل هذا القدر الكبير من الأهمية على اكتشافات الطبيعة والفلك والكيمياء . فحقيقة الأمر أن العلم الخالص لا يجلب لنا مطلقاً ضرراً مباشراً ، ولكن حينما يسيطر جماله الطاغي على عقولنا ، ويستعبد أفكارنا في مملكة الجماد ، فانه يصبح خطراً. ومن ثم يجب أن يحول الانسان اهتمامه الى نفسه والى السبب في عجزه الخلقي والعقلي . اذ ما جدوى زيادة الراحة والفخامة والجمال والمنظر وأسباب تعقيد حضارتنا اذا كان ضعفنا يمنعنا من الاستعانة بما يعود علينا بالنفع ؟ حقاً انه لمما لا يستحق أي عناء أن نمضي في تجميل طريق حياة تعود علينا بالانحطاط الخلقي ، وتؤدي الى اختفاء أنبل عناصر الأجناس الطيبة ، ومن ثم فانه من الأفضل كثيراً أن نوجه اهتماماً أكثر الى أنفسنا عن أن نبني بواخر أكثر سرعة ، وسيارة تتوافر فيها أسباب الراحة ، واجهزة راديو أقل ثمناً(٢) .

---

(١) الكسيس كاريل ، الانسان ذلك المجهول : ٣٠ - ٣١ .
(٢) نفسه : ٤٢ - ٤٣ .

وفي خواتيم كتابه ينادي قومه بما يشبه الإنذار بضرورة إعادة بناء الإنسان على أسس جديدة ، فيقول :

« يجب علينا الآن ان نعيد انشاء الانسان ـ في تمام شخصيته ـ الذي اضعفته الحياة العصرية ومقاييسها الموضوعة . كذلك يجب ان يحدد الجنسان مرة اخرى . فيجب ان يكون كل فرد اما ذكراً أو انثى ، فلا يظهر مطلقاً صفات الجنس الآخر العقلية وميوله الجنسية وطموحه .... وبدلاً من ان يشبه الآلة التي تنتج في مجموعات ، يجب على الانسان ـ بعكس ذلك ـ ان يؤكد وحدانيته . ولكي نعيد تكوين الشخصية يجب ان نحطم هيكل المدرسة والمصنع والمكتب وان ننبذ مبادئ الحضارة التكنولوجية نفسها .

... ان مثل هذا التغيير ليس غير عملي على الاطلاق .. وتجديد التعليم يحتاج بصفة خاصة الى قلب الاهمية النسبية المنسوبة الى الأبوين والمدرسين في تكوين الطفل ... اننا نعلم انه من المستحيل ان ننشيء افراداً بالجملة ، وانه لا يمكن اعتبار المدرسة بديلاً من التعليم الفردي ، ان المدرسين غالباً ما يؤدون عملهم التهذيبي كما يجب ، ولكن النشاط العاطفي والجمالي والديني يحتاج ايضاً الى أن ينمى ، فيجب ان يدرك الوالدان بوضوح ان دورهما حيوي . ويجب ان يعدا لتأديته .. أليس من العجيب ان برامج تعليم البنات لا تشتمل بصفة عامة على أية دراسة مستفيضة للصغار والأطفال وصفاتهم الفسيولوجية والعقلية ؟ يجب ان تعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التي لا تشتمل على الحمل فقط ، بل أيضاً على رعاية صغارها »(١) .

وفي موضع آخر يقول :

« يجب ان نحرر الانسان من الكونيات التي خلقها علماء الطبيعة والفلك .. تلك الكونيات التي حبس فيها الانسان منذ عصر النهضة، اذ على الرغم من ضخامته الكبيرة، فان عالم المادة أضيق من ان يتسع للانسان ، فهو كبيئته الاقتصادية والاجتماعية ، لا يلائمه »(٢) .

---

(١) الكسيس كارليل ، الانسان ذلك المجهول : ٢٣٩ .
(٢) نفسه : ٢٤٣ .

ويختم الكتاب كله بقوله :

« لقد حان اليوم الذي نبدأ فيه العمل لتجديد أنفسنا .. ولكننا لن نضع برنامجاً ، لأن البرنامج قد يخنق الحقيقة الحية خلف درع صلبة . انه سيمنع انبثاق غير المتكهن به ويحبس المستقبل داخل حدود عقلنا .

يجب ان ننهض ونمضي .. يجب ان نحرر انفسنا من التكنولوجيا العمياء ، ونفهم تعقد طبيعتنا وخصبها .. لقد حددت علوم الحياة اهدافها للانسانية ، ووضعت تحت تصرفها الوسائل المؤدية الى بلوغها ، ولكننا ما زلنا غارقين في عالم خلقته علوم الجماد من غير أي احترام لقوانين نمونا ، في عالم لم يصنع لنا ، لأنه ولد بسبب غلطة ارتكبها عقلنا ، وبسبب جهلنا بذاته الحقيقية .

وليس في استطاعتنا ان نكيف انفسنا بالنسبة لهذا العالم .. ومن ثم فسنثور عليه.. سنقلب قيمه وسنعيد انشاءها تبعاً لاحتياجاتنا الحقيقية .. ان علم الانسان يمدنا اليوم بقوة لتنمية امكانيات جسمنا .. فنحن نعرف الآليات السرية لنشاطنا الفسيولوجي والعقلي ، وكذلك اسباب ضعفنا .. ونعرف كيف اعتدينا على القوانين الطبيعية . ونعرف لماذا عوقبنا ، ولماذا فقدنا طريقنا في الظلام .. ولكن مهما يكن من أمر . فاننا نرى خلال ضباب الفجر ، وعلى الضوء الباهت ، طريقاً قد يقودنا إلى الخلاص .

لأول مرة في تاريخ الانسانية ، تستطيع حضارة متداعية ان تميز اسباب انحلالها ، ولأول مرة تجد مثل هذه الحضارة قوة العلم الضخمة تحت تصرفها . ترى هل تستخدم هذه المعرفة وهذه القوة ؟ انها املنا الوحيد في الفرار من المصير المشترك لجميع حضارات الماضي العظمى .. ان مصيرنا بين ايدينا .. فيجب ان نسير قدماً في الطريق الجديد »(١) .

وهذا انذار آخر أسجله هنا بنقل فقرات من كتاب مهم آخر ظهر في السبعينات لعالم من كبار علماء البيولوجيا ، ومن حملة جائزة نوبل أيضاً ، ويعتبر كتابه امتداداً لكتاب الكسيس كاريل ، بعد نحو ثلث قرن من الزمان .

---

(١) الكسيس كاريل ، الانسان ذلك المجهول : ٢٤٤ .

هذا الكتاب هو كتاب (So Human An Animal) للبروفسور (رينيه دوبو) الذي ترجمه الى العربية د. نبيل صبحي الطويل تحت عنوان (انسانية الانسان)[1] ، والكتاب ـ برغم ما فيه من نقاط ضعف ومآخذ ـ خليق ان يقرأ . وما أنقله هنا دليل على الباقي .

« نحن ندعي اننا نعيش في عصر العلم . الا ان الحقيقة هي أن الميدان العلمي كما يدار الآن ، ليس فيه توازن يسمح للعلم بأن يكون ذا فائدة تذكر في ادارة أمور الانسان؟ لقد جمعنا جسماً هائلاً من المعلومات حول المادة ، وتقنية قوية لضبط واستغلال العالم الخارجي .. ومع ذلك لا يزال جهلنا فاضحاً بالآثار التي قد تنتج عن اللعب بمهاراتنا هذه. ونتصرف في غالب الأحيان وكأننا آخر جيل يعيش على هذه الأرض .

لقد اكتسبنا معلومات كثيرة عن آلية الجسم ، وبعض المهارة في ضبط تفاعلاته وتصليح عيوبه ، ولكن ، بالمقابل ، نحن نكاد لا نعلم شيئاً مطلقاً عن الطرق التي يحول بها الانسان قابلياته الموروثة ليهندس بها شخصيته الفردية ، فبدون هذه المعلومات لن تفيد الاختراعات الحديثة ـ التقنية والاجتماعية ـ الأهداف الانسانية .

ان الحياة الشاذة التي يعيشها عامة الناس الآن تخنق وتعطل التفاعلات الحيوية الضرورية لسلامة الانسان العقلية ، ونمو الامكانات الانسانية .

ان كل المفكرين قلقون على مستقبل الأبناء الذين سيقضون حياتهم في بيئات اجتماعية ومحيطية سخيفة عابثة باطلة ، نخلقها نحن له بدون أي تفكير . وأكثر ما يزعج هو علمنا بأن الخصائص العضوية والفكرية للانسان تخططها اليوم البيئات الملوثة ، والشوارع المتراصة والابنية الشاهقة ، والخليط الحضري المتمرد ، والعادات الاجتماعية التي تهتم بالأشياء ، وتهمل البشر »[2] .

الانسان العصري قلق حتى ولو كان في زمن السلم وفي جو البحبوحة الاقتصادية ، لأن عالم التكنولوجيا الذي يشكل محيطه المباشر ، والذي فصله عن عالم الطبيعة الذي تطور الانسان فيه أصلاً ، فشل ـ أي عالم التكنولوجيا ـ في توفير حاجات

---

(١) نشرته مؤسسة الرسالة في بيروت .

(٢) رينيه دوبو ، انسانية الانسان (الترجمة العربية) : ٣١ .

الانسان الاساسية التي لـم تتغير ولـم تتبـدل ، ومن نـواح كثيرة يشبه انسان العصر « الحيوان البري » الذي يقضي حياته في حديقة الحيوانات فالانسان الآن كهذا الحيوان.. يتوفر له الغذاء الكافي والحماية الكافية من القسوة . ولكنه يحرم من المثيرات الطبيعية الأساسية للعديد من وظائفه الجسدية والفكرية . فانسان اليوم ليس فقط غريبا عن أخيه الانسان وعن الطبيعة بل الأهم بكثير هو أنه غريب معزول عن أعماق ذاته(١) .

منذ قرنين تقريباً والانسان الغربي يعتقد أن خلاصه سيأتي عن طريق الاكتشافات التكنولوجية ، ولا جدال في أن المكتشفات التكنولوجية زادت من غناه المادي وحسنت صحته العضوية .. الا انها لم تجلب له بالضرورة الغنى والصحة اللذين يولدان السعادة(٢) .

وتواجهنا العلوم المادية بتناقضات لا حلول لها عندما نحاول فهم حدود الفضاء ، أو بدايات الزمن ، أضف الى ذلك أن الانجازات العلمية تشير ـ بصورة عامة ـ الى مسائل أخلاقية يعتبرها كثير من العلماء خارج نطاق كفاءاتهم ، ويشيرون الى أن العلم والتكنولوجيا أدوات ووسائل ليس لها أخلاق ، ويمكن استعمالها لخير البشرية أو لدمارها . والاعتقاد بأن العلم قادر على حل أكثر المشاكل العلمية أمر يكذبه الوعي المتزايد بأن تكنولوجيا العلم تثير مشاكل جديدة في محاولاتها لحل المشكلات القديمة(٣).

واذا سمح للتكنولوجيا بالنمو دون مراقبة مناسبة ، فقد تصبح قوة مخربة تؤثر على العلاقات الدقيقة التي بنيت عليها المدنيات في الماضي . وكما تنبأ الكاتب الانكليزي (أ. م فورمستر) في كتابه « توقف الآلة » :

ستسير التكنولوجيا قدماً .. ولكن ليس على خطوطنا التي رسمناها لها وستتقدم ولكن ليس نحو أهدافنا !

وأكثر المسائل التي تثيرها التكنولوجيا ـ أساساً ـ اجتماعية سياسية اقتصادية اكثر مما هي علمية في طبيعتها . أضف الى ذلك ان التكنولوجيا غير قادرة ـ نظرياً ـ على التهرب من الرقابة البشرية ، الا انها في الواقع تسير في طريق مستقل لسبب بسيط ، هو أن مجتمعاتنا لم تضع بعد توجيهات وضوابط للتحكم فيها بالاسلوب الفعال المناسب .

---

(١) رينيه دوبو ، انسانية الانسان : ٤٩ .
(٢) المرجع نفسه : ١٨٦ .
(٣) المرجع نفسه : ٢٢٠ .

وكل المجتمعات المتأثرة بمدنية الغرب تتبع « **توراة التنمية** » كعقيدة . وتدور في دائرة تشبه (حلقات ذكر الدراويش) . وتقول هذه « التوراة » « انتجوا أكثر ، لكي تستهلكوا أكثر ، ثم لكي تنتجوا أكثر !! » ولا يحتاج الانسان أن يكون عالم اجتماع حتى يدرك أن هذه هي فلسفة مريضة ، مجنونة ، فلن يستطيع تسارع النمو الاستمرار طويلاً . فضلاً عن الاستمرار الدائم الى ما لا نهاية .

والواقع أن هذا النمو قد يتوقف في فترة أقصر مما يتوقعه الوعي الإنساني بين جمهور المثقفين ، والذي يعتقد أن التسارع التكنولوجي بدون ضوابط يضر بصفات « الكيف » لحياة الانسان .

وفي حديث بعنوان « هل تستطيع أميركا التغلب على خرافة النمو » ؟ كان سكرتير وزارة الداخلية (استيوارت .ل. أودال) شجاعاً عندما قال : « انه من السهل اعتبار اميركا التي صنعها الانسان .. كارثة على مستوى القارة » لقد ذكر (أودال) مستمعيه : « اننا نملك اكبر عدد من السيارات وأسوأ ساحات (الخردة) بالمقارنة مع أية دولة اخرى في العالم ! نحن أكثر سكان العالم تنقلاً ونتحمل أكبر قدر من الازدحام ! ونولد أكبر قدر من الطاقة ، وفي أجوائنا أكثر الهواء تلوثاً في العالم » . ولقد نقل عن رئيس بلدية (كليفلند) قوله مازحاً : « اذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل الذي رفع انساناً الى القمر .. بينما هو غائص الى ركبتيه في الاوحال والقاذورات »!!

ويقول الدكتور « هنري لنك » طبيب النفس الأمريكي الشهير ، معارضاً للذين ينكرون الايمان بالغيب ، باسم العلم واحترام الفكر ، مبيناً أن العلم وحده لا يستطيع أن يحقق للإنسان أسباب السعادة الحقة :

« والواقع أنه يوجد الآن في كل ميدان من ميادين العلم من الظواهر ما يؤجج شعلة ذلك الضلال ، وأعني به تعظيم شأن الفكر ، ومع ذلك كان علماء النفس هم الذين توصلوا الى أن الاعتماد المطلق على التفكير فحسب ، كفيل بهدم سعادة الانسان، وان لم يقوض دعائم نجاحه ، ثم ان اماطة اللثام عن هذا الاكتشاف لم تتم الا عن طريق تجارب هؤلاء العلماء مع الناس ، واختباراتهم العلمية التي أجروها على الآلاف، وبقي أن أقول : ان الوصول الى هذه المكتشفات قد تم بالنسبة لعلاقتها بطرق التعليم والدين ، والشخصية وفلسفة الحياة عموماً .

فلن نهتدي الى حل شاف لمشكلات الحياة العويصة ، ولن ننهل من مورد السعادة عن طريق تقدم المعلومات والمعرفة العلمية وحدها . فارتقاء العلـــم معناه ازدياد الارتباك و (اضطراد) التخبط ، وما لم يتم توحيد هذه العلوم كلها تحت راية حقائق الحياة اليومية الواضحة واخضاعها ، فلن تؤدي هذه العلوم الى تحرير العقول التي ابتدعتها وابتكرتها ، بل ستقود حتماً الى انهيار هذه العقول وتعفنها . كما أن هذا التوحيد لا بد أن يأتي عن طريق آخر غير طريق العلم ، وأعني به طريق الايمان »[1] .

تحذيرات رجال الفلسفة والفكر :

اما الفلاسفة والمفكرون الذين حذّروا من مادية الحضارة الغربية ، واغراقها في الآلية الصناعية ، فهم كثيرون ..

من ذلك تحذير الفيلسوف الامريكي الشهير (جون ديوي) الذي قال : ان الحضارة التي تسمح للعلم بتحطيم القيم المتعارف عليها ، ولا تثق بقوة هذا العلم في خلق قيم جديدة .. لهي حضارة تدمر نفسها بنفسها[2] .

ومنهم المفكر الكبير المؤرخ البريطاني المعاصر « توينبي » اذ ينقل عنه الكاتب الأمريكي كولن ولسون مقولة : لقد اغرت فنون الصناعة ضحاياها ، وجعلتهم يسلمونها قياد انفسهم ببيعها « المصابيح الجديدة » لهم مقابل « المصابيح القديمة » لقد اغرتهم فباعوها ارواحهم وأخذوا بدلاً منها « السينما » و « الراديو » ، وكانت نتيجة هذا الدمار الحضاري الذي سببته تلك « الصفقة الجديدة » اقفاراً روحياً وصفه افلاطون بأنه « مجتمع الخنازير » ووصفه الدوس هكسلي بأنه « عالم زاه جديد » .

ويأمل توينبي في نهاية البحث بأن خلاص الغرب لا يكون الا بالانتقال من الاقتصاد الى الدين ، ولكنه ـ كما يذكر ولسون ـ لا يخبرنا كيف سيتم هذا الانتقال ، وانما يؤكد قائلاً : « ان الغربي يستطيع بواسطة الدين ان يتصرف تصرفاً روحياً يضمن سلامته بالقوة المادية التي القتها بين يديه ميكانيكية الصناعة الغربية »[3] .

---

(١) هنري لنك ، العودة الى الايمان ، ترجمة ثروت عكاشة : ٨١ ـ ٨٢ .
وقد ذكر مترجم الكتاب : أن الكتاب طبع في أمريكا ٤٨ طبعة .

(٢) دوبو ، انسانية الانسان .

(٣) كولن ولسون ، سقوط الحضارة .

ولعل أحدث رجال الفكر من نقاد الحضارة الغربية المادية ، ومن أهلها هو المفكر الفرنسي الشهير (روجيه جارودي) الذي انتهى به نقده للحضارة الغربية الى هداية الاسلام ، ولنستمع اليه يقول في محاضرة له في جامعة قطر منذ عدة سنوات : « بفضل تخصيص ٦٠٠ مليون دولار سنة ١٩٨٢م للانفاق على التسلح أصبح كل ساكن من سكان الأرض تحت تهديد ما يعادل أربعة اطنان من المتفجرات ، وصارت الموارد والثروات في نفس السنة موزعة بشكل ادى الى هلاك ٥٠ مليون نسمة في العالم الثالث بسبب المجاعة وسوء التغذية ! ومن الصعب ان نسمي ذلك المسار التاريخي الذي سلكته الحضارة الغربية تقدماً ، والذي أصبحت على أثره ، ولأول مرة في تاريخ الملحمة الانسانية الذي يمتد على مدى مليوني أو ثلاثة ملايين سنة قادرة تقنياً على محو كل اثر للحياة الاجتماعية على وجه البسيطة » .

على الصعيد الاقتصادي يسود مفهوم النمو ، أي تلك الرغبة العمياء في زيادة الانتاج أكثرفأكثر ، بسرعة متزايدة ، وانتاج أي شيء صالحاً كان أو غير صالح ، مضراً أو مسبباً للهلاك .

على الصعيد السياسي ، قامت علاقات اجتماعية داخلية وخارجية يطغى عليها العنف ، أي الصراع بين مصالح الأفراد والطبقات والأمم ، ونزعتهم الى القوى والهيمنة.

على الصعيد الثقافي الذي يتميز بفقدان المعنى والغاية ، قامت تقنية غايتها التقنية لذاتها ، وعلم يهدف الى العلم ذاته ، وفن لا يهدف الا للفن ، وحياة لا تهدف الى شيء .

وفي مستوى العقيدة ضاع مفهوم التسامي والعلو ، أي ذلك البعد الانساني الحقيقي للبشر .

ان الثقافة (الفرعونية) التي تعتمد عليها هذه الحضارة تدعي حصر الحياة في الضرورة والصدفة ، كما يدعيه أحد علماء الأحياء ، أو الى عاطفة لا طائل من ورائها مثلما كتب أحد الفلاسفة ، أو الى اللا معقول كما أعلنه أحد الروائيين ، أي انعدام المعنى ، وموت الاله ، وموت الانسان ، وموت كل شيء ، مثلما يردده علينا دعاة العدم

والمتنبئون به . وليس هناك من حضارة أغفلت بصفة كلية التساؤل عن معنى الحياة والموت مثلما هو الشأن بالنسبة للحضارة الغربية الحالية ، فهذه الثقافة (الفرعونية) تعتمد على مبادىء أربع زجت بنا على مدى خمسة قرون في طريق مسدود لو استمررنا فيه فسوف يؤدي الى انتحار الكون بأكمله .

الفصل بين العلم والحكمة أي الفصل بين الوسائل والغايات .

اخضاع كل حقيقة واقعية الى المفاهيم والكمية . مستبعدين بذلك الحب والايمان والمعنى .

الفردانية التي تجعل من الافراد أو المجموعات محور ومقياس كل شيء وتعتبر كل (نظام) توازناً مؤقتاً بين اطماعهم المتنافسة .

إنكار التسامي ، أي امكانية الافلات من هدف المتاهات (الاكتفاء) بالنسبة لحتميات نمو يقتصر على الكم ويستبعد الخلق والحرية والامل .

تحذيرات رجال الأدب :

وأما الأدباء الذين نقدوا مادية الحضارة ، وحذروا من سيطرتها على الانسان بمقالاتهم أو أشعارهم أو رواياتهم وأقاصيصهم فهم كثيرون من شتى المدارس ، ومختلف الاتجاهات .

وحسبي أن أذكر هنا ما كتبه أديب أمريكي كبير ، هو (جون شتاينبك) وهو كاتب قصصي يعد في نظر كثيرين أعظم كتاب القصة في أمريكا ، وذاك في خطاب أرسله الى صديقه (ادلاى استيفنسون) مرشح الحزب الديمقراطي لرئاسة الجمهورية لسنتي ١٩٥١ و ١٩٥٦ .

وخلاصة الخطاب كما نشره الاستاذ أحمد بهاء الدين في صحيفة (الأخبار) القاهرية[١]:

« ان مشكلة أمريكا هي ثراؤها ، وأن لديها أشياء كثيرة ولكن ليس لديها رسالة روحية كافية . وقال : لو أنني أردت أن أدمر شعباً ، فانني أعطيه أكثر مما يريد ، فهذه الوفرة تجعله جشعاً تعيساً مريضاً ! ان شعبنا لا يمكن أن يعيش طويلاً على الأسس الحالية لحياته .

---

(١) بتاريخ ٢٨/١/١٩٦٠م .

اننا في حاجة الى ضربة قوية تجعلنا نفيق من ثرائنا ، لقد انتصرنا على الطبيعة ولكننا لم ننتصر على أنفسنا !!

ويكتب الاستاذ أنيس منصور عن الأدب الغربي المعاصر تحت عنوان (هذا الجيل بلا حدود ولا قيود ولا أمل)(١) .

يقول : هذه عبارة الكاتب الفرنسي (شارل مولبيه) في الجزء الثالث من كتابه عن (أدب القرن العشرين والمسيحية) في ٥٠٠ صفحة ، وهو في هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة لا يدافع عن المسيحية ولا يهاجمها ، ولكن يجعلها حائطاً كبيراً ترجع اليه الحضارة الغربية في محنتها الروحية ، وهذا الكتاب هو أحسن الكتب وأشملها عن أدب القرن العشرين ، فلم يظهر كتاب شامل عن أدب القرن العشرين إطلاقاً ، وانما كل الكتب التي صدرت هي دراسات خاصة مطولة عن كثير من هؤلاء الأدباء .. ولكن هذه الدراسات الموضوعية قد انفرد بها صابراً مجتهداً (شارل مولبيه) .

والمؤلف يعتمد على النصوص الأدبية ولا يطلق حكماً دون أن يكون في يديه وفي جيوبه حيثيات هذا الحكم . وهو لا يخلو للمداولة ويصدر أحكامه ، وانما يصدرها علناً في محكمة النقد الأدبي .

والجزء الثالث هذا قد تناول فيه الآثار العميقة لكل من مالرو ، وكافكا ، وفركرو ، وشولوخوف ، ومولنيه ، وبومبار ، وفرانسواز ساجان ، ولاديستاس ريمون . ومن رأي المؤلف أن الفيلسوف السياسي الموسيقار الطيار أندريه مالرو هو الذي وضع أصابعه على الخطر الذي ينتظر الإنسانية ، فهو وحده الذي أدرك منذ أكثر من ربع قرن محنة الروح الأوروبية . ومالرو هو الذي نفث روح القلق والأسى في الأدب الفرنسي والأوروبي بعد ذلك .

والغريب في هذا الجزء الثالث ما قاله المؤلف عن الأديبة الفرنسية فرانسواز ساجان التي صدرت لها قصتان هما « مرحباً أيها الحزن » و « ابتسامة ما » فهو يرى أن ساجان قد سجلت روح اليأس والمرارة واللامبالاة والتواكل ، تلك الروح التي عبر عنها سارتر

(١) صحيفة (الاخبار) القاهرية في ١٩٦٠/٢/١٢م .

في أعقاب الحرب الأخيرة . والذي يتذكر ما قال سارتر في الأعداد الأولى من مجلة « العصور الحديثة » يجده يصرخ ويقول : « لقد انتهت الحرب في فرنسا الجائعة ، ولكن السلام لم يبدأ . إننا نعيش في محنة ما بين الحربين . لقد كذب هؤلاء الذين قالوا : « إن السلام من طبيعة الأشياء وإن الحرب مسألة عارضة .. فما هذا الذي نحن فيه ؟ إنه الحرب والسلام معاً . إنها المحنة دائماً » !!

وهذا الذي قاله سارتر في قصصه وكتبه إنما هو تعميق للإحساس بالمأساة واليأس والمرارة ، وقد عبر عنه الشاعر الألماني « بروشرت » الذي توفي سنة ١٩٤٧ ، فقال في قصته « أمام الباب » : نحن جيل بلا رابط ولا عمق . عمقنا هو الهاوية ، نحن جيل بلا دين ولا راحة . شمسنا ضيقة . حبنا وحشية . وشبابنا بلا شباب !!

إننا جيل بلا قيود ولا حدود ولا حماية من أحد .

وكان لا بد أن تظهر هذه الصورة الشابة المعذبة في طلبة الجامعات والمدارس وأعماق الأديرة . ومن هذه الأديرة ، ومن الرهبانية القائمة ، خرجت فرانسواز ساجان لتعلن في قصتها: إنني لا أفكر ، ولا أستطيع . ولا أطيق أن أبقى وحدي . ولا أريد لأحد أن يكون كذلك . وأريد أن أعيش مثل شيء جديد ، ولو كان فيه عذاب . المهم أن يكون جديداً .

وكذلك فعلت (سسيل) بطلة قصة « مرحباً أيها الحزن » ولم تتردد « دومنيك » طالبة الحقوق وبطلة قصة « ابتسامة ما » .

سسيل ودومنيك صورتان لأبناء هذا الجيل الذي يتحرك ويتألم ويروح ويجيء ، ويحارب ويصرخ في الظلام بلا حدود ولا قيود يؤمن بها ، ولا أمل في أن يكون لديه أمل . وكفى بهذه الوثائق مستنداً .

تحذيرات رجال السياسة :

وأما السياسيون فنكتفي منهم بالسياسي الأمريكي الشهير (فوستر دلاس) وزير خارجية أمريكا في عهد الرئيس (ايزنهاور) وصاحب كتاب (حرب أم سلام ؟) ، يقول دلاس في فصل من كتابه ، تحت عنوان (حاجتنا الروحية) :

« ان هناك شيئاً ما يسير بشكل خاطئ في أمتنا وإلا لما أصبحنا في هذا الحرج ، وفي هذه الحالة النفسية .. لا يجدر بنا أن نأخذ موقفاً دفاعياً وأن يتملكنا الذعر .. ان ذلك أمر جديد في تاريخنا » !

« ان الأمر لا يتعلق بالماديات ، فلدينا أعظم انتاج عالمي في الأشياء المادية ، ان ما ينقصنا هو ايمان صحيح قوي ، فبدونه يكون كل ما لدينا قليلاً ، وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم ، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم ، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم ، أو القنابل مهما بلغت قوتها » !

« فمتى شعر الناس بالحاجة الى الاعتماد على الأشياء المادية ، فان النتائج السيئة تصبح أمراً حتمياً » .

« وفي بلادنا لا تجتذب نظمنا الاخلاص الروحي اللازم للدفاع عنها . وهناك حيرة في عقـــول الناس ، وتآكل لأرواحهم ، وذلك يجعل أمتنا معرضة للتغلغل المعادي - كما كشف عنه نشاط الجواسيس الذين تم كشفهم حتى الآن - ولن تستطيع أي ادارة لمكافحة التجسس أن تقوم بحمايتنا في هذه الظروف .

.... لقد تقابلنا مع أقسى الاختبارات التي يمكن أن يلتقي بها أي شعب .. وهو اختبار الحياة في رفاهية ... » .

« لقد قال يسوع : ان هذه الأشياء المادية سيحظى بها اولئك الذين يعملون من أجل ما أمر به الله ، ومن أجل تحقيق عدالته .. ولكن عندما يحدث ذلك فعندئذ يبدأ الامتحان الأكبر . لأن هذه الأشياء المادية - كما أنذر يسوع - يمكنها أن تصبح الصدأ الذي ينخر في الأرواح » .

«كذلك فان لدينا نموذجاً معروفاً ، فالرجال الذين لديهم احساس بالواجب إزاء كائن أعلى ، يجاهدون لتحقيق ارادته ، لأن ايمانهم يمنحهم القوة والفضيلة والحكمة المبسطة .. انهم لا يبنون ليومهم فقط ، بل للغد ، وليس لأنفسهم وحدهم ، وانما للجنس البشري ، ومجتمع هذا أساسه ستكون من نتائجه الثروة والرفاهية للكثيرين اذا ساعدته

الأحـــوال .. وعندما تأتي هـــذه المنتجات الفرعية فانها تكـــون طيبة ، الـــى درجة أنها تشجـــع علـــى الاعتقاد بأنها النهايـــة المرتقـــبة ، وبـــذا سيبتعد الناس عـــن بذل الجهـــود الانشائية للأجـــل الطويل ويبدأون الصراع من أجل الحصول على الأشياء المادية .

« **لقد أخفقنا بشكل يدعـــو الـــى الرثاء في أن نـــرى أن من الممكن الحصول على عدالة اجتماعية ، دون أن نمارس الالحاد والمادية** » .. ان ذلك يعتمد علـــى الرغبة الاختيارية للفـــرد في قبول أو التخلي عن الالتزامات الاجتماعية تجاه الفرد الآخر .

« ونتيجة لذلك ، فان كثيـــراً من قومنـــا قد فقدوا ايمانهم في مجتمـــع حر . وكأمة فقـــدنا كذلك ايماننا الديني وممارسة شعائرنا الدينية . رغـــم أننا مـــا زلنا متدينين **اننا نفـــرق بين الدين وممارسة الدين ، ولـــم نعد نؤمـــن بأن الايمان يتمشى مـــع الظروف الحديثـــة .. ومتـــى تحطمت الصلـــة بين الايمـــان والعمـــل ، فلـــن نستطيع بعـــد ذلك أن ننمي قـــوة روحيـــة نستطيـــع نشرها في جميع أنحاء العالم** » .

ويجب أن نفهـــم كذلك بوضـــوح أن مجتمعاً حـــراً ليس معنـــاه مجتمعاً يسعى كـــل فرد فيه لنفسه ، بـــل انه مجتمـــع متناسق . والقيود المفروضة هي قبل كل شيء . روابط الأخوة المنبعثة من الايمان . فان الناس خلقوا لكي يعيشوا اخواناً في رعاية الله .

ثم يختم هذا الفصل بقوله :

« لن تكـــون هنـــاك فائدة مـــن انشاء « أصـــوات أمريكا » أخـــرى عاليـــة الصوت الا اذا كان لدينـــا شيء نقولـــه ، يكـــون أكثر اغـــراء مما قيل حتى الآن ! » .

لقد كتب الرئيس ولسون قبل وفاته بأسابيع قليلة مقالاً استعرض فيه تهديد المبادىء الثورية وأعمال الشيوعية ، وختمه بقوله : ان اختصار المسألة بأسرها هو ما يلي: **ان حضارتنا لا تستطيع الاستمرار في البقاء من الناحية المادية ، الا اذا استردت روحانيتها ..**

هذا هو التحدي النهائي لكنائسنا ومنظماتنا السياسية وللرأسماليين عندنا ، ولكل فرد يخاف الله ، أو يحب بلده ...

فهل تستطيع المسيحية أن تقدم « طوق النجاة » لعالم يهدده الغرق ويحيط به الموج من كل مكان ؟؟

هذا ما سيجيب عنه الفصل التالي .

الفصل الثالـث

الحضارة التي ينشدها العالم

حكم القرآن على الحضارات المادية :

لقد دمغ القرآن الكريم بالطغيان والفساد حضارات ، أقامت مـن البناء المادي آيات ، وخلدت مصانع وعمارات ، ومع هذا استحقت عذاب الله ونقمته ، برغم ما كان لها من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين .

ذلك لأنهم عمروا الأرض ، وخربوا الإنسان ... أقاموا المباني ، وهدموا المعاني... عملوا للدنيا ، ونسوا الآخرة ، أكلوا نعمة الله ، ولم يؤدوا شكرها ... حابَوا الأقوياء ، وطغوا على الضعفاء ، أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات .

من هنا كانت عقوبة الله لهم ، وتدمير الله عليهم ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وإنذاره للظالمين بعدهم أن يصيبهم ما أصابهم ان لم يتداركوا أنفسهم بتوبة واصلاح .

اقرأوا قول الله تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الأوتاد . الذين طغوا في البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . ان ربك لبالمرصاد** ﴾[1] .

لم يغن هذه الأمم من عذاب الله ما شيدته من حضارات مادية ، وما تركته عاد إرم ، من آثار عمرانية شاهقة ﴿ **لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾ وما نحتته ثمود في الجبال من بيوت لم تزل مشهودة الى اليوم ، وما أقامه فرعون من أوتاد ، لعلها تلك (الأهرام) الفارعة التي تشهد بطول باعهم في فن الهندسة والعمران الى اليوم .

لم يغن ذلك عنهم شيئاً بعد أن ﴿ **طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد** ﴾ .

---

(١) الفجر : ٦ - ١٤ .

وقال تعالى في شأن فرعون وقومه ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونَعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك ، وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين** ﴾[(١)] .

وانظر الى قصة عاد وما بنوا وشيدوا ، وكيف حذرهم نبيهم هود من الاستغراق في المتاع المادي على حساب الجانب الروحي ، وخوّفهم عقاب الله اذا هم ظلوا على شركهم وفسادهم ، ونسيانهم أمر آخرتهم . يقول القرآن الكريم : ﴿ **كذبت عاد المرسلين ، اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . اني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسئلكم عليه من أجر إن أجري الا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمدّكم بما تعلمون . أمدّكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون. اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . ان هذا الا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين . فكذبوه فأهلكناهم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وان ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾[(٢)] .

وفي سورة أخرى يعرض القرآن لموقف عاد وعتوها في الأرض وطغيانها بغير الحق فيقول : ﴿ **فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولَم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحاً صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الاخرة اخزى وهم لا ينصرون** ﴾[(٣)] .

ويقول تعالى ﴿ **وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد** ﴾[(٤)] .

---

(١) الدخان : ٢٥ - ٢٩ .
(٢) الشعراء : ١٢٣ - ١٤٠ .
(٣) فصلت : ١٥ - ١٦ .
(٤) هود : ٥٩ .

ويحدثنا القرآن عن ثمود الذين ﴿ **قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسئلكم عليه من أجر إن أجري الا على رب العالمين . أتتركون في ما ههنا امنين . في جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين . فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون** ﴾(١) .

ويقول عنهم ﴿ **فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾(٢) .

ويحدثنا القرآن عن قوم لوط ، وما ابتكروه من فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين وكيف دمر الله عليهم قراهم ﴿ **فلمّا جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾(٣) .

ويحدثنا القرآن عن سبأ في اليمن ، وقد كان لهم في مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال . ولكنهم أعرضوا وكفروا بنعمة الله فأرسل عليهم سيل العرم ومزقهم كل ممزق ﴿ **ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور** ﴾(٤) .

ويؤكد القرآن الكريم في مواقف كثيرة سنن الله تعالى في اهلاك الامم ، برغم ثرواتها ، وآثارها المادية والعمرانية ، محذراً بذلك اللاحقين ان يحذوا حذو السابقين ، في فساد اعتقادهم ، وفساد أعمالهم .

يقول تعالى مخاطباً مشركي العرب : ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الارض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين** ﴾(٥) .

---

(١) الشعراء : ١٤٢ - ١٥٢ .
(٢) النمل : ٥٢ - ٥٣ .
(٣) هود : ٨٢ - ٨٣ .
(٤) سبأ : ١٧ .
(٥) الانعام : ٦ .

﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمَروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ﴾(١) .

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾(٢) .

لم يُنج هؤلاء من عقوبة القدر الأعلى ، ما كان لهم من كثرة العدد ، ولا من شدة القوة ، ولا من الآثار البارزة في الأرض ، ولا ما عندهم من العلم المادي ، الذي ردوا به علم النبوة ، ولم يؤمنوا الا بعد أن وقعت الواقعة ، وفات الأوان ، فالتمسوا الخلاص ، ولات حين مناص .

وبهذه الآيات المحكمات من كتاب الله الكريم ، يمكننا أن نحدد موقف الاسلام من الحضارة المادية المعاصرة ، التي أخذت الأرض فيها زخرفها وازينت ، وظن أهلها انهم قادرون عليها ، او كادوا ، فهم مهددون ببأس الله تعالى ، وعقوباته القدرية ، ان لم يتداركهم الله برحمة منه ، فيصلحوا ما افسدوا ، ويرتقوا ما فتقوا ، والا فعذاب الله شديد ، وما هو من الظالمين ببعيد .

أسباب هلاك الأمم :

لقد نبه القرآن الكريم في الكثير من آياته على أن الأمم لا تقوم أو تسقط اعتباطاً ، بل بناء على سنن ثابتة لا تتبدل . وفي الآيات التي ذكرناها هنا في هلاك الأمم الغابرة ، نبّه أولي الألباب على أسباب دمار هـذه الأمم وهلاكها - برغـم ازدهارها المادي والعمراني - فكان من هذه الأسباب :

---

(١) الروم : ٩ .

(٢) غافر : ٨٢ - ٨٥ .

١ ـ الجحود بآيات الله تعالى وعصيان رسله .

٢ ـ اتباع امر كل جبار عنيد ، واطاعة امر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، كفعل عاد وثمود .

٣ ـ الفرح بالعلم المادي ، والاعراض عما جاء به الوحي ، كالذين حكى الله عنهم في آخر سورة غافر .

٤ ـ الغرور بالقوة المادية والثروة المالية ، والغفلة عن بأس الله عزوجل ، كفعل فرعون وقارون .

٥ ـ الظلم والبخس والبغي بغير الحق ، وخصوصاً على الفقراء والمستضعفين ، كفعل مدين قوم شعيب .

٦ ـ اقتراف الفواحش ، واتباع الشهوات ، كفعل قوم لوط .

٧ ـ شيوع الفساد في الأرض ، واستعلان المنكر ، وعدم التناهي عنه كما فعل بنو إسرائيل ﴿ **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه** ﴾[١] .

٨ ـ الكفر بأنعم الله وعدم القيام بشكرها ، بل استخدامها في معاصي الله ﴿ **فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾[٢] .

٩ ـ الترف والبطر ﴿ **وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها** ﴾[٣] .

وكل واحدة من هذه الجرائم حرية ان تعجل بعقاب الله وبأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين .

فكيف اذا اجتمع عدد منها في أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات ؟

---

(١) المائدة : ٧٩ .
(٢) النحل : ١١٢ .
(٣) القصص : ٥٨ .

والناظر في الحضارة التي تسود عالمنا اليوم ، يجدها قد أخذت بنصيب ، يكثر أو يقل ، من حضارات الهالكين ، وانحرافاتهم العقدية والفكرية والسلوكية ، فلا غرو أن يخشى عليها أن ينزل بأهلها ما نزل بهم ﴿ **وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال . وقد مكروا مكرهم ، وعند الله مكرهم ، وان كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾[1] .

قانون المداولة بين الأمم ووراثة الحضارات :

ومما نبه عليه القرآن كذلك سنة من سنن الله في هذا العالم هي : سنة (التداول بين الأمم) أو تبادل الادوار في الحضارات . وهو القانون المذكور في قوله تعالى ﴿ **ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾[2] .

وكما أن الفرد الفقير لا يبقى فقيراً أبدا ، والغني لا يظل غنياً أبدا ، فكم فقير يغتني ، وكم من غني يفتقر ، وكذلك القوي والضعيف ، والملك والسوقة . فهكذا يقال في الأمم .

وقد قال تعالى في فرعون وقومه ﴿ **واورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** ﴾[3] . ﴿ **فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بني إسرائيل** ﴾[4] .

وقد بين القرآن في وراثة الأمم الهالكة قاعدتين اساسيتين :

الأولى : أن المستضعفين المظلومين يرثون الجبابرة الظالمين ﴿ **وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامي ، وخاف وعيد . واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد** ﴾[5] .

---

(١) ابراهيم : ٤٥ ـ ٤٦ .
(٢) آل عمران : ١٤٠ .
(٣) الاعراف : ١٣٧ .
(٤) الشعراء : ٥٧ ـ ٥٩ .
(٥) ابراهيم : ١٣ ـ ١٥ .

والثانية : ان الصالحين هم الذين يرثون الفاسدين والمفسدين ، فان الله لا يديل من فاسد لفاسد . قال تعالى : ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون** ﴾(١) .

والصالحون هنا ليسوا هم الدراويش أو البله ، بل هم الصالحون للقيام بعمارة الأرض وخلافة الله فيها بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، والدعـوة الى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . كما قال تعالى : ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز . الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** ﴾(٢) .

هذا ما يخشاه المؤمنون بالله تعالى على حضارة الغرب وجبابرتها المستكبرين في ارض بغير الحق ، الذين أضاعوا الصلوات ، واتبعوا الشهوات ، وكفروا بأنعم الله . ولم يغرّهم ما ينعمون به من متاع الدنيا وزخرفها ، فهذا هو (الاستدراج) الذي حدثنا القرآن عنه ، وحذرنا من عواقبه ﴿ **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم ان كيدي متين** ﴾(٣) .

وهو (الإمـلاء) للظالم الذي ذكره لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال (ان الله ليملي للظالم حتى اذا اخذه لم يفلته ، ثم تلا ﴿ **وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه اليم شديد** ﴾(٤) .

وكثيراً ما يكون هذا الأخذ بغتة حين لم تغن النذر ، ولم يعظهم ما أنزل لله بهم من فساد البر والبحر ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ، فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾(٥).

---

(١) الانبياء : ١٠٥ .
(٢) الحج : ٤٠ ـ ٤١ .
(٣) القلم : ٤٤ ـ ٤٥.
(٤) هود : ١٠٢ ـ رواه مسلم .
(٥) الانعام : ٤٤ ـ ٤٥ .

ما الدواء ؟ وأين الطبيب ؟

هذا ما يخشاه المؤمنون بمنطق الايمان .

وهو ما خشيه الكسيس كاريل ، ورينيه دوبو بمنطق عالم الحياة .

وما خشيه توينبي بمنطق عالم التاريخ .

وما خشيه جارودي بمنطق المفكر الفيلسوف .

ولكن السؤال المهم : كيف الخلاص ؟ وما الدواء ؟ وأين الطبيب ؟

الدواء كما يراه الكسيس كاريل وتعليق سيد قطب :

نقل الأستاذ سيد قطب رحمه الله فقرات مطولة من كتاب الدكتور الكسيس كاريل (الانسان ذلك المجهول) ونقده العلمي للحضارة الغربية ، وتشخيصه للداء تشخيصاً سليماً الى حد كبير ، الا انه لم يجد عنده دواء ناجحاً يقدمه للبشرية يشفيها من ادواء المادية المعاصرة .

كيف الخلاص اذن ؟

الدكتور كاريل يرى ان طريق الخلاص هو « مزيد من علوم الانسان يمكننا من اعادة انشاء الانسان » هو « معرفة أكثر عمقاً بأنفسنا » عن طريق علوم الحياة لتحل محل علوم الجماد .

ويعلق على ذلك الشهيد سيد قطب فيقول :

ونحن نهتف مع الدكتور كاريل « مزيداً من علـــوم الانسان » ولكننا لا نرى معه ـ أن هذا ـ وحده ـ يكفي . ولا نثق مثله هذه الثقة المطلقة في ما قد نصل اليه من المزيد في علوم الانسان . ولا نقف ـ مثله ـ يائسين من « وسيلة أخرى لمعرفة القواعد التي لا تلين لوجوه نشاطنا العضوي والروحي ، وتمييز ما هو محرم ، مما هو شرعي ، وإدراك أننا لسنا أحراراً لنعدل في بيئتنا وفي أنفسنا تبعاً لأهوائنا » .

إن المزيد من علوم الإنسان ضروري لنا .. لنعرف منه ـ على الأقل ـ أقصى الامكانيات التي في طوقنا ، وطوق العلم ، أن نبلغها من المعرفة « بالإنسان » ونقف على حدود المجهول الذي لا حيلة لنا وراءه . فهذه المعرفة ضرورية لنحدد ـ على ضوئها ـ ما الذي نملك وما الذي لا نملك من التصرف في شأن « الإنسان » لعلنا نلتزم حدودنا ولا نتعداها ، ولا نتخبط وراءها في التيه بلا دليل ، كما فعلنا حتى اليوم بلا مبالاة .

والدكتور كاريل كان قد سبق فقرر لنا أن هناك أسباباً لتخلف علوم الحياة عن علوم الجماد ـ ليست طارئة ولا وقتية ـ إنما هي ثابتة وطبيعية . أسباباً ترجع الى تعقد الحياة من جهة ، وإلى طبيعة عقلنا من جهة أخرى . ومن ثم قرر لنا أن علوم الحياة لن تبلغ ـ في يوم من الأيام ـ ما بلغته علوم الجماد من الدقة والجمال .. وبالضبط قال لنا بألفاظه .

[ان معرفة أنفسنا لن تصل أبداً إلى تلك المرتبة من البساطة المعبرة ، والتجرد ، والجمال التي بلغها علم المادة . إذ ليس من المحتمل أن تختفي العناصر التي أخرت تقدم علم الإنسان][1] .

فمن العجيب ـ بعد ذلك ـ أن يجعل اعتماده كله ، في حل مشكلة الحضارة ، واعادة انشاء الانسان على « مزيد من علوم الانسان » .

ولكننا لكي نزيل هذا العجيب ، يجب أن نواجه مشكلة دكتور كاريل نفسه . فإن مواجهتنا تفيدنا في تعيين الجهة التي يمكن أن يأتي منها الخلاص الحقيقي ، والاتجاه الواحد الميسور للخلاص .

إن هذا الرجل الواسع المعرفة ، العميق الحساسية ، الشديد الاخلاص ، المتحرر الفكر ، الثائر على الحضارة الصناعية ، حتى ليرى أن ليس هناك ما هو أقل من « قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أخرى للتقدم البشري » .

---

(١) الدكتور كاريل ، الانسان ذلك المجهول : ٢٣ .

إن هذا الرجل ـ على كل هذه الفضائل والخصائص فيه ـ رجل « غربي » نشأ في البيئة الغربية ، بكل ملابسات تاريخها القديم وحاضرها الراهن ، كما أنه نشأ في ظل هذه الحضارة وفي بيئة « العلم » الذي هو طابعها الظاهر ..

وبسبب كل هذه الملابسات فهو .. سجين هذه الحضارة .. سجين بيئتها وتاريخها وملابسات حياتها .. سجين الانطباعات والرواسب العميقة العنيفة في هذه البيئة ..

ومن ثم لا يملك ـ حين يثب الوثبة الكبرى ـ أن يخرج من إطارها ..

ونزيد هذه الحقيقة العجيبة ايضاحاً :

إن الدكتور كاريل يتنفس في بيئة آمنت بالعلم التجريبي ايماناً مطلقاً فترة قرنين من الزمان .. وعلى الرغم من أنها بدأت في هذا القرن الأخير تفيق من نشوة انتصار العلم ، وهي تراه يقف على عتبات المجهول عند آفات كثيرة . فإن رواسب القرنين الماضيين لا تزال عميقة وعنيفة .. حتى عند الذين عرفوا « حدود العلم » ..

وهو في الوقت ذاته يتنفس في بيئة عرفت الدين ـ في أحسن صوره ـ تصوفاً روحياً مرفرفاً شفيفا ، واتصالاً بالغيب من غير وساطة مادية ظاهرة ، وصلاة ودعاء يغيب فيها الفرد عن ذاته ، ويندمج في الملأ الأعلى .

وهذه هي الصورة الوضيئة المشرقة الحبيبة إلى نفس الدكتور العالم الشاعر المتصوف المرفرف ، كما يصفها في كتابه هذا ، وكتابه الآخر الذي عنوانه « الصلاة » ، وكما يكرر ضرورة توفير الجو المناسب لانطلاقها في حياة البشر .. وكما يثور على الحضارة المادية الصناعية ، لأنها تخنقها ، وتخنق معها كل شعور بالجمال ، وكل نشاط فني أو روحي أو ديني .

ومن هاتين النقطتين : نقطة الايمان بالعلم ، ونقطة تصور الدين على هذا النحو وفي هذه الحدود .. تنشأ مشكلة الدكتور كاريل ، وأمثاله ممن تهولهم فظاعة التدمير الذي تنشئه هذه الحضارة في حياة الإنسان « وروحه » وتهتف بهم أشواقهم الروحية إلى استشراف حياة فيها للعقيدة الروحية مكان ..

تنشأ المشكلة من ثورته على هذه الحضارة ومن « سجنه » في إطار هذه الحضارة في الوقت ذاته .

ومن هنا لا يرى أن هناك وسيلة أخرى لوقف هذا التدمير الذي تنشئه هذه الحضارة في الكيان الإنساني ..

إنه لا يملك منهجاً للحياة إلا الذي يقرره العلم .. لأن الدين - كما هو في بيئته - في أحسن صورة ، لا في الصورة الكريهة المنفرة الأخرى هو مجرد نشاط روحي ، وتهذيب خلقي ، واتصال بالعوالم الغيبية ...

وهو في صورته هذه يمثل جانباً واحداً من جوانب التكوين الإنساني . فالاقتصار عليه شديد الخطورة ، لأنه معوق للنشاط الواقعي العملي الإيجابي المادي - وهو يحذر أشد التحذير من أن يكون الهروب من الحضارة إلى مثل هذا العالم الذي لا يحوي إلا النشاط الروحي .. وهو محق تماماً في تحذيره هذا . اذ كان لا ينشيء إلا نكسة «الرهبنة» التي ذاقت منها أوربا ما ذاقت في تاريخها ، والتي انتهت - كما أسلفنا - إلى الجموح المادي الكافر الغليظ الجافي .

فأما لو فكر في أن يكون للحياة منهج ديني واقعي .. فإن صورة كريهة مفزعة تخايل له . لأنها الصورة التي عرفتها كذلك أوروبا .. صورة الكنيسة الطاغية التي تفرض تصوراتها الخرافية على العلم والعلماء وعلى الحياة والأحياء .. وهي صورة كذلك أمرّ وأدهى .

لا مفر إذن - لأمثال هؤلاء المخلصين المساكين - إلا أن يلجأوا إلى « العلم » وإلى العلم وحده . حتى فيما يحسون هم أنفسهم أن العلم لن يصل بهم فيه إلى نتائج حاسمة قاطعة كالتي وصل إليها في عالم المادة ..

ولكن ماذا بيدهم ؟ ماذا يملكون للبشرية غير هذا ؟[1] .

---

(١) سيد قطب ، الاسلام ومشكلات الحضارة : ١٦٤ - ١٦٧ .

اللورد لوثين وتعليق المودودي :

وقبل الشهيد سيد قطب بنحو ثلاثين سنة كتب الأستاذ ابو الأعلى المودودي معلقاً ـ بمثل ما علق به الشهيد ـ على خطبة (اللورد لوثين) أحد رجالات بريطانيا المهتمين بالثقافة والحضارة . وكان يرأس تحرير احدى المجلات العلمية . وقد القى خطبة في الهند ـ قبل استقلال باكستان عنها ـ في الثلاثينات بمناسبة تخريج فوج من جامعة عليكره الشهيرة ، نقد فيه الحضارة التي ادى العلم فيها الى أمرين عظيمين :

الاول : انه وسع من سيطرة الانسان على الطبيعة وقواها .

والثاني : انه ـ من جانب آخر ـ قد اضعف من سلطان الدين الموروث عن الأجيال المتخرجة في الجامعات ، وعلى سائر الناس على العموم .

وكل ما يوجد اليوم من المفاسد في هذه الدنيا المعاصرة ، فان نصفه ـ على الاقل ـ آت من هذين السببين . فالانسان المتعلم قد كاد يسكر بنشوة القوة والمقدرة الهائلة التي تردد بها العلم . ولكنه لم يتقدم في سبيل الاخلاق مثل تقدمه في المدنية والعلوم . مما يكون ضماناً بالا تستخدم هذه القوى لهلاك الانسان ، بل لفلاحه(١) .

عرض المودودي للخطبة في فصل من كتابه (نحن والحضارة الغربية) وعلق عليها . والمودودي أحد الاعلام الذين درسوا هذه الحضارة وخبروها وحللوها ونقدوها عن علم وبصيرة ، في غير ما كتاب من كتبه .

ولا عجب أن اهتم بهذه الخطبة في وقتها وبيان ما اشتملت عليه من تشخيص لأمراض الحضارة ، ووصف العلاج في نظره ، وهو الدين .

يقول اللورد في خواتيم خطبته او محاضرته :

[إن كنت لا أخطيء في تقدير الأوضاع الراهنة ، فان من الحقيقة أن الاختبار الذي قد تعرض له الدين في هذا الوقت لن يخرج منه فائزاً الا إذا اطمأن الجيل الناشيء بعد ما يمتحن نظامه الداخلي ، أنه يضمن الحل الأقوم لكل ما يواجهه في الحيـــــاة من المسائل

---

(١) أبو الاعلى المودودي ، نحن والحضارة الغربية : ٧٥ ـ ٧٦ .

العملية ، والمشكلات المزعجة المتعقدة . وذلك أن النحلة الشخصية قد مضى زمانها ، وان الديانة العاطفية المحضة أيضاً لم تعد طلبة أحد الآن . وقد انتهى كذلك عهد ذلك الدين الذي لا يهدىء من بال الفرد ولا يشد أزره ، إلا بأن يعطيه تعليمات قليلة بشأن سلوكه الخلقي ، ويبعث في نفسه أملاً في نجاة لن يكتشف أمرها الا بعد الممات . وانما الانسان العلمي العصري يريد أن يمتحن كل شيء حتى الحق والصدق على محك النتائج البينة . وان كان عليه أن يتبع الدين فهو يطلب أن يبين له الدين ماذا بيده من حل مسائل حياته العملية . أما الأمل في حصول النجاة بعد سلسلة متكررة من المواليد في هذه الدنيا ، أو الرجاء في التوصل الى الملكوت السماوي بعد اجتياز باب الموت ، فليس من الأمر الذي يدفعه الى اعتناق الدين على أساسه وحده . انه يطلب من الدين أن يزوده قبل كل شيء بذلك المفتاح الذي يفتح به الحقيقة المغلقة لهذا الوجود ، ويهتدي إلى حل للغزه تطمئن اليه النفس ، وأن يبين له ثانياً بإقامة البرهان على الصلة الواضحة بين العلة والمعلول والسبب والنتيجة على النحو العلمي السايتنفيكي أنه بأي وجه يمكن للانسان أن يسخر تلك القوى التي قد انفلتت من يده الآن ، وقد جاءت تهدد نوعه بالهلاك والبوار بدل أن تنفعه ، وبأي طريق يتغلب على المفاسد الاجتماعية المنتشرة في بني جنسه كالبطالة ، وعدم المساواة ، والظلم والاعتداء ، والحرب والقتال ، وكيف يمنع التنازع بين الأفراد ، وتبدد النظام العائلي ، الذي قد ذهب بمباهج الحياة الانسانية كلها .

ان الانسان لا يتطلع اليوم إلى الدين إلا بسبب أن العلم (Science) قد زاد في مشكلاته بدلاً من أن يحلها ! فهو مضطر لأن يطلب من الدين حلاً لشبهاته ومشكلاته اضطراراً لم يعهد فيه من قبل . فإذا كان الدين يريد الآن أن يحتفظ بمكانته ، ويستعيد ما زال من سلطانه ، فعليه أن يجيب عن كل هذه الأسئلة جواباً روحياً ، يكون في الوقت نفسه علمياً سايتنفيكيا ، ويمكن أن يختبر صدقه على محك النتائج في هذه الدنيا، بدون أن يحال ذلك على الحياة الأخرى بعد الموت . إننا ـ أهل الغرب ـ نعلم أن هذا هو السؤال الأخطر الأهم الذي قد واجهنا في هذا العصر . فهل باستطاعتكم ـ معشر أهل الهند ـ أن تجيبوه وتجدوا له حلاً ؟] .

ويعلق العلامة المودودي رحمه الله على ذلك فيقول :

« واذا مر القارىء على هذا الجزء من خطبة اللورد لوثين فانه ليخيل اليه أن هناك ظمآن لا يعرف وجود الماء ، ولكنه يحس بكيفية ظمئه أصدق ما يكون من الاحساس . فهو يمضي يبين لنا أن أوام كبده يتطلب شيئاً ما يكون فيه هذا وهذا من الصفات . فلو أننا نضع أمامه في هذه الحالة كأساً من الماء ، لصاحت فطرته على الفور : إن هذا هو الشيء الذي يتعطش اليه ، ووثب نحوه ليشربه . وليس هذا يخص اللورد لوثين وحده ، بل الامر أن الذين قد لفحهم سعير الحضارة والمدنية الغربية في أوربا وأميركا وسائر العالم ، وقد جاوزوا الحافة الشجراء من صحراء الفلسفة والعلوم إلى قلبها الرملي القفر الذي لا ماء فيه ولا ظل ، قد أصابهم جميعاً مثل هذا الأوام ، وهم كلهم يتطلبون شيئاً بتلك الصفات التي ذكرها اللورد لوثين ، وهم لا يعرفون اسم الماء ولا أين يوجد . ولكنهم يصيحون الفينة بعد الفينة « ظميء الفؤاد فهاتها يا ساقي ! » .

ان الماء لا ريب قد سمع القوم باسمه ، ولكنهم يرتاعون لهذا الاسم لمجرد أنهم لم يجدوا مسماه الحقيقي . وأما الذي قد بلغهم عنه من أسلافهم الجاهلين المتعصبين ، فهو أن الماء شيء مسموم جداً يجب أن لا يقاربه أحد . ولكنهم قد بلغ منهم التعطش أن لو يوضع أمامهم الشيء بذاته بدون أن يعلن اسمه فلا جرم أن يصيحوا : إن هذا هو الذي هم يظمأون اليه . ولو يقال لهم : إنه هو (الماء) الذي كانوا يهابون ذكره ، لقضوا العجب من هذا الخداع الذي قد انخدعوا به الى الآن .

إن الإنسان العلمي العصري ، قد امتحن النصرانية وخبر ما عندها جيداً . وقد تجلى له كالشمس أنها ليست العلاج الشافي لمرضه . وبعد النصرانية قد تروقه وتسحر لبه الديانتان : الهندوكية والبوذية ، لفلسفاتها الخيالية الاسطورية ولتعبدهما للقديم على الوجه التقليدي التاريخي ، ولكن فشل هاتين الديانتين أيضاً يفتضح لاول امتحان النقد والتحليل العلمي .

فأما البوذية فتكاد تكون طبعة هندية للنصرانية[1] وأما الديانة الهندوكية فهي تخلق بنفسها تلك المشاكل والعقد ، التي لأجل التخلص منها يشعر الانسان العلمي العصري بضرورة الدين . فهي التي تشجع على عدم المساواة بين الانسان والانسان أكثر

(١) وقد يقال بل ان النصرانية في صورتها الاخيرة هي طبعة (رومية) للبوذية الهندية .

من غيرها ، وتجعل المراباة واستثمار الاموال ـ الذي هو أقبح صور السلب والنهب الاقتصادي ـ جزءاً لنظامها لا ينفك . وتبقي على السبب الحقيقي لقيام الحروب ـ وهو التفريق بين المجتمع الانساني بمفارقات الجنس والنسل ، وبعث المنافرة النسلية بين أفراده شيئاً متأصلاً في أساسها لا يبرحه ، فالنظام الذي قد قررته هذه الديانة للحياة الاجتماعية ليس من شأنه أن يصل بين الافراد الانسانيين ، بل هو يقسمهم على شتى الاجناس والطبقات . وان قوانين اجتماعها تبلغ من الخلوقة والبلى بحيث قد اضطر أبناء البيوتات الهندوكية النازلة من آلاف السنين أنفسهم أن يلغوها في عصر الوعي العلمي والعملي هذا . ذلك بأن تلك القوانين لا تقوم على أساس من العلم والعقل ، بل تستند الى العصبيات والاوهام .

ثم إن هذه الديانة توجد أضعف وأفقر فيما وراء هذه المسائل الدنيوية من مسائل اللاهوت والاخلاق ، فليس عندها مفتاح لفتح المغلق من حقيقة هذا الكون بطريقة مقنعة ، وعقائدها من جنس العقائد التي لا يطلب في بابها الا القبول والاذعان ، ولا يمكن أن يثبت شيء من ذلك ببرهان علمي أو عقلي . واما في نظام الاخلاق فلا شك أن الديانة الهندوكية تقـدم طلسماً من المفروضات الرائعة المعجبة كما قدم واحـداً منها في أيامنا هـذه المهاتماغاندي ، ولكنه يخلو من البرهان العقلـي والحكمـة العملية (Practical Wisdom) وفي عصر الوعي العلمي هذا لا بد أن يفتضح فشله عما قريب ، إن لم يكن قد افتضح بعد .

ولا يبقى في المضمار بعد ذلك الا الاسلام . وهو الذي يثبت على المحك ، ويوافق كل معيار من تلك المعايير التي يطلبها فعلاً الانسان العلمي العصري ، أو يمكن أن يطلبها لدينه المنشود .

أما القول بان الدين مسألة شخصية فقط ، ولا صلة له الا بالضمير الفردي وحده، فقد أصبح من خبر كان . إنه من جملة السخافات الفكرية التي راجت في القرن التاسع عشر ، فلا ينفك يرددها في الهند في هذا العقد الرابع من القرن العشرين أولئك المحافظون الذين قد تعودوا السير خلف العالم على مسافة خمسين عاماً أبدا ، على رغم ادعائهم للتجدد والتقدم . وذلك أنه قد أصبح أو كاد من المسلم به الآن انه لا يمكن

تصور الفرد منفصلاً عن الجماعة ، اذ كل فرد إنساني قد ارتبط بفرد آخر بمالا يحصى من الاواصر الكبيرة والصغيرة ، وليس المجتمع في جملته الا كالجسم الحي يكون فيه الافراد بمثابة الجوارح والاعضاء . وان كانت هناك ضرورة للدين ، فهي ليست للفرد وحده لطمأنينة قلبه ونجاته بعد الممات ، بل هي للجماعة كلها ، لكي تنظم أمرها ، وتدبر جميع شؤون حياتها الدنيوية على ضوء هدايته . وان انعدمت ضرورة الدين ، فهي تنعدم للفرد أيضاً كما تنعدم للجماعة .

ومن التصور الصبياني السفيه أن يكون نظام الحياة الاجتماعية على وضع ، وتكون عقائد الافراد وأعمالهم الدينية على وضع آخر مختلف ، لا صلة بينها وبين ذلك النظام ، لأن العقائد والاعمال الدينية ان لم تكن مرتبطة بالحياة الاجتماعية برباط ، فانها شيء عبث يخلو من كل فائدة . وليس ذلك فقط ، بل هي حرية أن تضعف وتضمحل في نظام اجتماعي لا تتعامل مع أجزائه الاخرى . ومن ذلك لا يمكن أن يكون الامر الا على أحد اثنين : اما أن يكون نظام الجماعة باكملها لا دينياً صرفاً . ويطرد الدين من حياة الإنسان طرداً تاماً ، كما هو مذهب الشيوعيين . واما أن يكون النظام الاجتماعي باكمله دينياً ويعترف بكون الدين هادياً ومرشداً لكل من العلم والمدنية ، كما يقتضيه الاسلام . ولطالما جربت الدنيا الصورة الاولى منهما فنتجت عن هذه الشجرة الخبيثة تلك الثمرات الكريهة المرة التي قد ذكرها اللورد لوثين . وهذه هي التي كان يمكن أن تنتج عن تلك الشجرة بالفعل وستنتج أبداً فيما يستقبل . فليست نجاة الدنيا الآن الا في الصورة الاخرى ويبدو أن فرصة ظهورها الى حيز العمل لا تزال تتقارب يوماً بعد يوم . ولكن الانتفاع بهذه الفرصة أو تضييعها للابد كما مر متوقف على المسلمين .

ويؤكد الأستاذ المودودي هنا أن سبيل النجاة والخلاص واضحة ، ولكن عيون الغربيين لا تستطيع ان تراها ، لما يغشاها من ظلام التعصب . وانما يؤكد حاجة أهل الحضارة اليوم الى رجال من أهل الاسلام ينهضون بالعزم والجد ليزيحوا الغشاوة من أبصارها ، ويبرهنوا لها أن صراط الاسلام المستقيم هو وحده سبيل النجاة مما هي فيه . إن مثل هذه الجماعة المجتهدة والمجاهدة لو تنبعث من بين المسلمين اليوم فانه يمكنهم أن يصبحوا قادة العالم باجمعه ، ويستعيدوا مكانة العز والشرف التي كانوا عليها في الغابر، والتي يرون عليها الامم الغربية فيتحلب ريقهم حرصاً على اتباعها .

ولكنه إن بقي جمهور هذه الامة متقاعدين هكذا بضعف الهمة وخور العزيمة ، وبقي شبابها هكذا يظنون غاية كمالهم في اقتيات فضلات الغير ، وبقي علماؤها متشبثين كما هم الآن بالمناقشات العقيمة حول مسائل الفقه والكلام ، التي قد ولى زمانها .. وبقى من هوان قادتها وزعمائها السياسيين ومن حالتهم الذهنية المتخلفة أن يظنوا السير في مؤخر ركب الامم الاخرى أعلى مراتب العزيمة النضالية ، ويعتبروا دفع أمتهم إلى الخداع الاكبر من خدع هذا القرن العشرين ، غاية الكياسة والحكمة .. وبالجملة إن بقي كل أجزاء هذه الامة ، من الايدي العاملة إلى الاذهان المفكرة والنفوس الواعية ، على تعطلها أو على تعسفها وخرقها ، ولم يتقدم من هذا الحشد العظيم المشتمل على مئات الملايين من الافراد ، رجال قليلون قد تشمروا لمزاولة الجهاد والاجتهاد في سبيل الله :. فان هذه الامة المسلمة أيضاً ستتبع الدنيا إلى ما هي منحدرة اليه من الدرك الاسفل ، وتهوي في هاوية الهلاك مشدودة بذيلها ، وسينادي الغضب الالهي مرة أخرى : ألا بعداً للقوم الظالمين[1] !.

الدين هو معقد الرجاء :

لقد تبين لنا أن انسان العلم الحديث هو (ذلك المجهول) الذي لم يستطع العلم أن يسبر غوره ، وأن يتعرف على حقيقته ، وأن ينفذ الى أعماقه ، كما بين ذلك الكسيس كاريل ورينيه دوبو ، وغيرهما . لقد عرف العلم الجمادات أو المادة ، وحللها واكتشف قوانينها ، ولكنه عجز عن معرفة الإنسان ، لأن الإنسان من التركيب والتعقيد بحيث لا يعرفه الا من خلقه فسواه ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟** ﴾[2] .

وما دام العلم يجهل الإنسان ، فلا يؤمل منه أن يحسن توجيهه وتربيته والتشريع له . بل بدا اليوم أن العلم ـ وبعبارة أدق : تطبيقاته التكنولوجية ـ اصبح خطراً على فطرة الإنسان ، وبيئة الإنسان .

و(إنسان الفلسفة) ليس أحسن حظاً من إنسان العلم ، والفلسفة رغم اهتمامها بالإنسان ـ منذ انزلها سقراط من السماء الى الأرض ـ لم تتفق على رأي في نظرتها الى الانسان : أهو روح أم مادة ؟ جسم يفنى أم روح تبقى ؟ عقل أم شهوة ؟ ملاك أم شيطان ؟

(١) أبو الأعلى المودودي ، نحن والحضارة الغربية : ٨٤ ـ ٩١ .
(٢) الملك : ١٤ .

الأصل فيه الخير أم الشر ؟ .. أهو انسان كما نراه ، أم ذئب مقنّع ؟ أهو أناني أم غيري ؟ أهو فردي أم جماعي ؟ أهو ثابت أم متطور ؟ أتجدي فيه التربية أم لا تجدي ؟ أهو مختار أم مجبور ؟

اختلفت الفلسفات في الاجابة عن هذه التساؤلات وتناقضت ، فلا تستطيع أن تخرج منها بطائل ، حتى قال شيخنا د. عبدالحليم محمود ـ وهو استاذ الفلسفة في كلية أصول الدين ـ قبل أن يكون شيخاً للأزهر : الفلسفة لا رأي لها ، لأنها تقول الرأي وضده ، والفكرة ونقيضها .

واذا سقط إنسان العلم ، وإنسان الفلسفة ، بقي إنسان الدين ، ولكن أي دين هو القادر على بناء الإنسان المنشود ؟

عجز المسيحية عن القيام بدور المنقذ :

وجواباً عن ذلك السؤال نقول منصفين : أن المسيحية القائمة في العالم اليوم ، وفي الغرب خاصة ، لا تستطيع أن تقوم بدور المنقذ للبشرية المعاصرة مما تعانيه من القلق والتخبط تحت سلطان الحضارة الغربية السائدة ، وان تبني الإنسان المنشود .

وذلك لعدة أسباب :

(١) ان المسيحية في صورتها المثالية لا تحمل رسالة حضارية ، بل هي ـ في صلب تعاليمها ـ لا تهتم بالحياة ، ولا تحتكم للعقل ، ولا تدعو الى العلم ، ولا تحنو على فطرة الإنسان ، هذا ان لم نقل بصراحة : انها ـ كما صورها كهنتها ـ معادية للحياة ، مناوئة للعقل ، مجافية للعلم ، قاسية على فطرة الإنسان .

والمسيحي المثالي يتجسد في (الراهب) المعتزل للحياة ، المنقطع عن الدنيا ، المعرض عن الطيّبات ، حتى عن الزواج .

والاخلاق المسيحية اخلاق غير واقعية ، لأنها فوق الطاقة المعتادة للبشر ، كما في قول الانجيل : « أحبوا أعدائكم ، باركوا لاعنيكم ، من ضرب على خدك الأيمن ، فأدر له خدك الأيسر ، ومن سرق قميصك فأعطه ازارك .... » .

ان المسيحية الأصلية كانت رسالة مؤقتة ، لفترة محدودة ، ولقوم معينين ، ولم تكن مهيأة قط لتكون رسالة عامة ولا خالدة ، وقد عبر المسيح عن ذلك بأنه انما بعث لخراف بني إسرائيل الضالة ، وانه لم يقل كل الحق ، كما بشر بمن يأتي بعده ليبين للناس كل شيء ويكسر عمود الكفر .

فكيف والمسيحية الاصلية نفسها قد غيرت وبدلت ، وذهب كتابها الأصلي ، ودخل عليها من التحريف اللفظي والمعنوي في عقائدها وشعائرها وأصولها وفروعها ما مسخها وأضاع حقيقتها ، وأخرجها من التوحيد الى التثليث ومن عبادة الله الواحد الى عبادة المسيح أو العذراء !

والمسيح يقول : « لا يدخل الغني ملكوت السموات حتى يدخل الجمل في سم الخياط » ، ويقول لمن اراد ان يتبعه : « بع مالك ثم اتبعني » .

وشعار المسيحية المتوارث المشهور : اعتقد وأنت أعمى ! أي اعزل ايمانك عن عقلك .

والايمان المسيحي بطبيعته وتاريخه شيء خارج دائرة العقل ، حتى قال القديس أوجستين يوماً في تعليل ايمانه بغير المعقول : أومن بهذا ، لأنه محال !

معنى هذا أن المسيحي الحق لا بد أن يختار بين الحضارة والدين ، فإما دين بلا حضارة ، واما حضارة بلا دين !

(٢) أن المسيحية ينوء كاهلها بتاريخ شديد الظلمة ، حالك السواد ، ملطخ بدماء العلماء والمفكرين الاحرار ، تاريخ تقشعر لمجرد ذكره الأبدان ، وتشيب لهوله الولدان . تاريخ وقفت فيه الكنيسة مع الجمود ضد الفكر ، ومع الخرافة ضد العلم ، ومع الاستبداد ضد الحرية ، ومع الظلام ضد النور ، وصنعت من المجازر البشرية وخاصة مع النخبة والصفوة ـ مالا ينساه التاريخ .

وبهذا لم يعد وجه المسيحية مقبولاً بحال للقيام بالدور المنتظر ، حتى لو افترضنا قدرتها على ذلك ، وما هي بقادرة .

(٣) ان المسيحية لا تنفصل عن (الاكليروس) عن رجال الكهنوت . وسيادة المسيحية تعني سيادة هؤلاء الذين يتحكمون في ضمائر الناس ، ويزعمون انهم وحدهم الممسكون بمفاتيح ابواب الملكوت ، وأنهم حلقة الوصل بين السماء والأرض ، ومحتكرو الوساطة بين الله وعباده ، والبشرية التي دفعت ما دفعت للتحرر من استبداد الملوك ورجال الدنيا ، ليست مستعدة أن تقع اسيرة لاستبداد رجال الدين.

(٤) ان الحضارة الغربية يزعم لها الكثيرون انها حضارة مسيحية . ويحاولون الصاقها بالمسيح ، وإن كان المسيح منها براء ، فهي - كما قلت مرة - حضارة المسيح الدجال ، لا حضارة المسيح بن مريم ، لأن الدجال أعور ، وهي حضارة عوراء . تنظر الى الحياة بعين واحدة ، هي العين المادية .

ولهذا كله يستبعد المفكرون الغربيون أنفسهم ان تكون المسيحية هي مصدر الخلاص ، وسبيل النجاة .

فدور المسيحية قد انتهى الى غير رجعة ، والمسيح عندهم (قد مات) ، وهو ما عبر عنه ، نيتشه وغيره بأن الإله قد مات !

وعبارة (موت الإله) شديدة الوقع على الحس الإسلامي ، والعقل الإسلامي ، لأن الإله عندنا هو رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، الذي خلقهم وسواهم ، وأحياهم ثم يميتهم ثم يحييهم . ومثل هذا الإله المحيي المميت لا يتصور أن يموت ، بل هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، بله أن يعتريه موت .

أما إله الغرب ! أو إله المسيحيين ، فهو في اعتقادهم - مجرد بشر تجسد فيه ، أو حل فيه روح الإله . وهم يعتقدون انه صلب من قبل ، فلا غرابة أن يموت من بعد !!

يقول البرفسور رينيه دوبو ، في نقده للحضارة الغربيـــة ، وبعد فصل كامل سماه (البحث عن معنى) وتحت عنوان فصل جديد : (التخلص من اسطورة النمو والتنمية):

[اذا راجعنا التاريخ ربما يظهر موضوع « البحث عن معنى » عملاً لا فائدة منه . ففي كل مرة تتعرض البشرية لمثالية تعطيها معنى لحياتها تتجزأ هذه المثالية ، وتختفي ، ولقد ظهر في الماضي كثير من العقائد الدينية والفلسفية والاجتماعية أنارت للبشر طريقهم لمدة ما وضاعت من بعد ذلك في مستنقع من شكوك فلسفية وجدل ضيق عقيم .

بدت المسيحية في القرون الوسطى كقوة موحدة عندما أعطت شعوب أوروبا بعض الآمال ، والمطامح المشتركة، والسلوك الاجتماعي المستوحى من محبة الله وخوفه. ولقد حركت افكار المسيحية القدرات البشرية في أعمال جماعية مدهشة ، كبناء الأديرة والكاتدرائيات ذات الفن الغوطي والروماني .

ولكن بعد ذلك انشغل المسيحيون باطراد في مجادلات لاهوتية مكررة ، وتحولت المسيحية من عقيدة روحانية من المحبة الى اعتقاد جامد محافظ خال من أي الهام ، والآن كثيراً ما نراها ـ أي المسيحية ـ تتفتت لتصبح فئات متعددة تتبنى اخلاقاً اجتماعية مبهمة .

فاللاهوتيون مشغولون بمناقشات فلسفية زائفة لمحاولة التوفيق بين المسيحية والرأي الذي لا معنى له ، عن « موت الإله » !

ليت دوبو عرف الاسلام بحق ، إذن لوجد فيه ما افتقده في المسيحية !

اليهودية أشد عجزاً :

واذا كانت المسيحية عاجزة عن القيام بدور المنقذ ، فإن اليهودية أشد عجزا !.

واليهودية نفسها لا تزعم أن لديها هداية تقدمها للبشر ، فهي ديانة يغلب عليها الطابع العنصري ، وبنو إسرائيل ـ وحدهم دون الناس ـ هم شعب الله المختار !

والله في دين اليهود ليس رب العالمين ، ولكنه رب إسرائيل ، والآخرة عند اليهود ليست هي ملكوت السماء عند النصارى ، ولا جنة الخلد عند المسلمين ، إنما هي ملك إسرائيل .

و (العهد القديم) كتاب اليهود المقدس الذي يضم أسفار التوراة وملحقاتها يدور جله حول تاريخ إسرائيل ، واحلام إسرائيل .

التوحيد الذي دعا اليه موسى عليه السلام ضاع في هذا الكتاب الذي شوه صورة الألوهية ، واضفى على الإله من نقائص البشر، مثل الجهل والخوف والحسد ، والضعف.

والأنبياء الذين جعلهم الله هداة للبشر ومعلمين ، لوثت سيرتهم والصقت بهم التهم ، في هذا الكتاب ، فلم يعودوا صالحين أسوة للناس .

والشريعة فيه تحل لبني إسرائيل ما تحرمه على غيرهم ، فالربا حرام إذا تعامل اليهودي مع مثله . اما مع غيره من الناس فهو حلال زلال .

اما تعاليم (التلمود) فتجعل من اليهود (عصابة) تستحل دماء البشر ، وأموالهم وحرماتهم ، باسم الدين ، فكل من عداهم من الأمم يجب أن يكونوا عبيداً لهم ، وان يكون لهم السيادة على العالم ، وكل من دونهم احط من البهائم .

على أن اليهود لو كانوا يملكون رسالة لهداية البشر ، لكانوا أبعد الناس عن الصلاحية لحملها . فهم ـ بانانيتهم وعزلتهم ، وحقدهم وطمعهم وشرهم ـ لا يصلحون لحمل رسالة عالمية .

وهم ـ بما نشر عنهم في بروتوكولات حكماء صهيون ، وما ظهر على ايديهم في فلسطين ولبنان ـ أعداء البشرية لا منقذوها !

وهم ـ بتاريخهم الدموي مع انبياء الله ورسله : زكريا ويحيى والمسيح ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لا يصلحون لحمل رسالة .

وهم بتاريخهم في ايقاد الفتن ، وتمزيق الجماعات ، وبث الافكار الهدامة ، ونشر الفلسفات ، والمذاهب الانحلالية ـ لا يصلحون للانقاذ ، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور ، فان فاقد الشيء لا يعطيه !

الحضارة التي ينشدها العالم تتجلى في الاسلام :

ان البشرية اليوم في حاجة الى حضارة جديدة ، لها فلسفة ورسالة غير فلسفة الحضارة الغربية ورسالتها ، الحضارة الغربية بشقيها : الرأسمالي والشيوعي ، فكلاهما ثمرة لشجرة واحدة ، هي الشجرة الملعونة في القرآن والتوراة والإنجيل ، هي شجرة المادية النفعية .

البشرية في حاجة الى حضارة تعيد اليها ايمانها بالله وبرسالاته ، وبلقائه وبحسابه وعدالة جزائه ، وبالقيم العليا التي لا يكون الإنسان إنساناً بغيرها ، ولا يكون للحياة مذاق ولا معنى بسواها .

البشرية في حاجة ماسة الى حضارة جديدة تعطيها الدين ولا تفقدها العلم .. تعطيها الايمان ولا تسلبها العقل .. تعطيها الروح ولا تحرمها المادة .. تعطيها الآخرة ولا تحرم عليها الدنيا .. تعطيها الحق ولا تمنعها القوة .. تعطيها الاخلاق ولا تسلبها الحرية .

انه في حاجة الى حضارة تتصل بها الأرض بالسماء ، وتتعانق فيها المعاني الربانية والمصالح الانسانية ، ويتآخى فيها العقل المفكر والقلب المؤمن ، ويمضي فيها الإنسان قدماً الى الأمام مستضيئاً بنور الوحي الإلهي ، ونور الفكر البشري ، فكلاهما من فضل الله ورحمته بالإنسان ﴿ **نور على نور** ﴾[1] .

وليست هذه الحضارة الا حضارة الإسلام ، التي يتجلى فيها التوازن والتكامل بصورة لا يقدر عليها إلا العليم الحكيم ، الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض أو السموات .

حضارة التوازن والتكامل :

ان الإسلام هو الرسالة الوحيدة التي تقدم للبشرية منهجاً يتميز بالتوازن والتكامل، ونعني بالتوازن : التوسط بين طرفي الغلو والتفريط ، اللذين لم يسلم منهما منهج بشري صرف ، أو منهج ديني دخله تحريف البشر ، وهــو ما يعبر عنه القرآن باسم (الصراط المستقيم) وهو المذكور في فاتحة الكتاب ، الذي يسأل المسلم ربه كل يوم ان يهديه اليه مالا يقل عن سبع عشرة مرة في صلواته ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾[2] فهو منهج متميز عن طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين .

وقد يعبر عنه بـ (الميزان) الذي يجب الا يشوبه طغيان ولا اخسار كما قال تعالى ﴿ **والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان** ﴾[3] .

---

(١) النور : ٣٥ .
(٢) الفاتحة : ٦ .
(٣) الرحمن : ٧ - ٩ .

فالطغيان هو الميل الى جانب الغلو والافراط . والإخسار : هو الميل الى جانب التقصير والتفريط ، وكلاهما ذميم .

في هذا المنهج تلتقي المتقابلات التي يحسب كثير من الناس التقاءها ضرباً من المحال ، لأنها في نظرهم متضادة ، والضدان لا يجتمعان ، ولكنها في الإسلام تلتقي في صورة من الاتساق المبدع ، بحيث يأخذ كل منها المساحة المناسبة له ، دون أن يطغى على مقابله : لا طغيان ولا إخسار .

فهو يضع الموازين القسط :

بين الربانية والإنسانية

بين الوحي والعقل

بين الروحية والمادية

بين الأخروية والدنيوية

بين الفردية والجماعية

بين المثالية والواقعية

بين الماضوية والمستقبلية

بين المسؤولية والحرية

بين الاتباع والابتداع

بين الواجبات والحقوق

بين الثبات والتغير

بين الاعتزاز والتسامح

وبهذا التوازن تتميز الأمة المسلمة عن غيرها من الأمم ، ويضعها في مرتبة الاستاذية ، وهو ما خاطبها الله تعالى به بقوله : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس** ﴾[1] .

(١) البقرة : ١٤٣ .

وأما التكامل فلا نعني به التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين كالذي ذكرناه في التوازن .

انما نعني به اجتماع معان وأمور يكمل بعضها بعضا ، ولا يستغنى بأحدها عن الآخر ، لكي يؤدي الإنسان رسالته كاملة في عمارة الأرض ، وخلافة الله ، وعبادته ، كما أمر الله تعالى .

مثال ذلك :

العلم .. .. والايمان

الحق .. .. والقوة

العقيدة .. .. والعمل

الدين .. .. والدولة

التربية .. .. والتشريع

وازع الايمان .. .. ووازع السلطان

الابدع المادي .. .. والسمو الخلقي

القوة العسكرية .. .. والروح المعنوية

فليس العلم مقابلاً أو مضاداً للإيمان ، في نظر الإسلام ، ولا في واقع الأمر . وليس الحق مقابلاً للقوة ، وليست العقيدة مقابلة للعمل ، ولا التربية مقابلة للتشريع ... وهكذا . إنما هي معان يكمل بعضها بعضا .

فان الحياة التي ينشدها الإسلام لا تستقيم ولا تتكامل إلا بهذه الأمور كلها .

وعيب المناهج والأنظمة البشرية أنها تهتم ببعض الجوانب دون بعض ، وتركز على بعض القيم دون بعض ، فنراها تعنى - مثلا - بالاقتصاد والانتاج ، أعني باشباع البطون ، ولكن لا تعنى كثيراً باشباع العقول ، وقد تعنى باشباع العقول بالعلم المادي ، ولكنها لا تعنى باشباع القلوب والارواح برحيق الإيمان . وقد تهتم بتيسير المواصلات بين البلدان ، على حين تغفل الاهتمام بالصلات الاجتماعية والنفسية بين الناس .

ولكن الاسلام ـ منهج الله ـ يُعنى باشباع حاجات الإنسان كله : جسمه وعقله وروحه ، ويهتم بالإنسان في كل أحواله : فرداً ، وعضواً في اسرة ، وعضواً في مجتمع، ويوجه عنايته التوجيهية والتشريعية إلى الإنسان في كل مراحله وأوضاعه ، الإنسان طفلاً ، والإنسان شاباً ، والإنسان شيخاً .. الإنسان رجلاً ، والإنسان امرأة .. الإنسان حاكماً ، والإنسان محكوماً .

تكامل العلم والايمان في الاسلام :

ولعل أظهر ما يتجلى فيه التكامل الإسلامي ، هو تكامل العلم والإيمان .

فمن مظاهر التكامل في نظام الإسلام أن التقى به العلم والإيمان جنباً إلى جنب ، ولم يقم في مجتمعه ما قام في المجتمعات الأخرى من نزاع بين العلم والدين ، راح ضحيته الألوف من أهل العلم والفكر ، ومن رأى رأيهم أو سار على دربهم . وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى حافل بالمجازر البشرية الرهيبة التي سيق إليها العلماء والدارسون في ظل محاكم التفتيش وغيرها .

وقد حكى الشيخ محمد عبده في كتابه (الاسلام والنصرانية ، مع العلم والمدنية) جملا من هذه الوقائع تقشعر لمجرد ذكرها الجلود ، وتستنكرها في عصرنا أدنى العقول .

ومن حسن حظنا نحن المسلمين أن ديننا لا يضيق بالدعوة إلى العلم والتقدم ، كما قد يتوهم الذين لا يعرفون الإسلام ، ويريدون أن يجروا عليه ما جرى على الأديان الأخرى .

ونحن نعتبر التقدم العلمي وما يثمره في الحياة من استخدامات تكنولوجية نافعة ـ تيسر على الإنسان حياته ، وتوفر عليه جهده البدني والعقلي ـ عبادة بالنسبة للفرد المسلم ، يتقرب بمعرفتها واتقانها إلى ربه ، كما يتقرب بالصلاة والصيام . وهي ـ بالنسبة للمجتمع ـ فريضة كفائية ، يأثم المجتمع كله إذا لم يقم من أبنائه عدد كاف يسد كل الثغرات ، ويلبي كل الحاجات ، التي يتطلبها المجتمع في كل مجالاته المدنية والعسكرية .

ان مما تميز به الإسلام عن غيره من الأديان الاخرى ، هو احترامه للعقل ، ودعوته إلى النظر والتفكير ، وحثه على العلم والتعلم ، واشادته بالعلماء وأصحاب العقول ، وحملته على الجمود والجهل ، وتمجيده للقراءة والكتابة والقلم ، منذ أول آيات أنزلت من القرآن .

لم يقل في الإسلام ما قيل في أديان سابقة من مثل : آمن ثم اعلم ، أو أغمض عينيك ثم اتبعني أو الجهالة أم التقوى ! بل قرر من يعتد بهم من علماء المسلمين : ان إيمان المقلد لا يقبل ، وان العقل أساس النقل .

ولا عجب ان طالب القرآن المشركين وأمثالهم من أصحاب العقائد الباطلة بقوله : ﴿ **قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين** ﴾[1] .

وقال في شأنهم : ﴿ **وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغني من الحق شيئا** ﴾[2] .

لقد شاع في تاريخ الكنيسة الغربية طوال العصور الوسطى عندهم : ان العقل ضد الوحي ، وان العلم عدو الدين ، وان الفكر خصم الإيمان ، وان الشريعة نقيض الحكمة . اما الإسلام فلم يعرف هذه المشكلة ، فالعقل والوحي عنده أثران من آثار الألوهية ، لا يتعارضان ولا يتناقضان ، ولهذا نرى الوحي يمجد العقل ، ويحث على الانتفاع به ، ونرى العقل هو الدليل على صدق الوحي ، وهو الاداة لفهمه وشرحه .

ومن هنا قرر المحققون من أئمة الإسلام : انه لا تعارض ابداً بين صحيح المنقول وصريح المعقول ، وما ظنه بعض الناس من تعارض ، فلا بد انه نتيجة خطأ في فهم ما هو من العقل او ما هو من الدين .

أ ـ ولقد مضت اربعة عشر قرناً على نزول القرآن الكريم ، نشأ فيها كثير من المعارف والافكار ، ورغم هذا لم تخالف آية من آياته حقيقة علمية ثابتة ، وهذا من دلائل الاعجاز في هذا الكتاب العظيم .

---

(١) البقرة : ١١١ .

(٢) يونس : ٣٦ .

ب ـ ومع أن القرآن ليس كتاب « علم » بالمعنى الاصطلاحي للعلم الآن ، فقد تضمن اشارات كثيرة إلى حقائق علمية ، لم تكن تخطر على بال أحد في عصر نزوله ولا بعد عصره بقرون ، وألفت في ذلك كتب كثيرة كشفت عن لون جديد من اعجاز القرآن ، يمكن تسميته « الاعجاز العلمي » عقدت لبيانه ندوات ومؤتمرات .

جـ ـ وأكثر من ذلك ان القرآن ، ينشئ بتعاليمه « العقلية العلمية » التي تنكر الخرافة ، وترفض اتباع الظنون والاهواء ، وتستعصي على التبعية والتقليد ، وتؤمن بالبرهان في العقليات ، وتعتمد على الملاحظة والتجربة في الماديات ، وتعتقد ان العقل نعمة منحها الإنسان لينظر بها ، ويفكر في الانتفاع بالكون وما فيه ، والاستفادة من سير التاريخ ، وما يجري فيه من سنن لله لا تتبدل . ففيه آيات (لقوم يعقلون) و (لقوم يتفكرون) و (لقوم يعلمون) و (لأولي الالباب) و (أولي النهى) .

د ـ ويشيد القرآن بالعلماء في آيات كثيرة من سوره ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾[1] . ويجعلهم وحدهم أهلاً لخشية الله تعالى ومخافته ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[2] . وقد ذكر القرآن العلماء هنا بعد ذكر السماء والماء والنبات والجبال والحيوان والإنسان ، مما يشير الى ان العلماء هنا هم الراسخون في العلوم الكونية والحيوية وما يتعلق بها ، ان علمهم هذا يعرفهم بقدر الله عزوجل ، وعظيم نعمته ، وواسع رحمته .

هـ ـ وذكر القرآن من قصص النبيين والصالحين ما يلفت الانظار ـ بقوة ـ الى قيمة العلم ومنزلته ، في اعانة الإنسان على وظيفته في خلافة الله في الأرض ، واستخدامه في كثير من الأمور النافعة . كما في قصة آدم وتفوقه على الملائكة بالعلم ، وقصة يوسف وتدبيره امر مصر في المجاعة بالعلم ، وقصة سليمان واحضاره عرش بلقيس بالعلم ، وغيرها من قصص النبيين والمؤمنين .

---

(١) الزمر : ٩ .

(٢) فاطر : ٢٨ .

العلم لا يغني بغير الايمان :

ومع هذا فليس العقل كل شيء في الانسان ، ولا العلم كل شيء في الحياة .

ان العقل له ميدانه الذي لا يتجاوزه ، والعلم له مجاله الذي لا يتعداه ، وبعد ذلك يقف العقل والعلم حائرين . فسر الوجود ، وغاية الحياة ، ومبدأ الكون ومصيره ، وقضية الموت والحياة ، وما يتصل بذلك من قضايا الوجود الكبرى ، لا يستطيع العقل ان يدركها وحده ، ولا يستطيع العلم ان يمد اليها سلطانه ، لأن سلطانه فيما يخضع للملاحظة والتجربة ، أي في الماديات والمحسوسات .

فكان لا بد من معرفة أخرى تنبع من مصدر آخر ، لتحديد مركز الإنسان وغايته، ومهمته في هذه الأرض ، وعلاقته بالكون والحياة ، وخالق الكون والحياة ، وليس هذا المصدر إلا الوحي الإلهي . ولا سبيل الى التلقي عنه إلا بالإيمان . وقد حاول بعض مفكري البشر في مختلف العصور ان يصلوا إلى الحقائق الكبرى بعقولهم ، وان يحلوا مشكلات الوجود بافكارهم ، فلم يستطيعوا ، وخرجوا بنتائج متناقضة ، لا يطمئن بها قلب ، ولا تستقيم بها حياة . ان الايمان وحده هو الطريق المأمون ، اذا استند الى الوحي المعصوم ، ولا يوجد وحي معصوم اليوم الا في كتاب الاسلام .

ان الايمان ـ كما جاءت به الرسالة الخاتمة ـ هو الذي يفسر قضايا الوجود الكبرى، ويصل الانسان بالوجود الكبير ، وبالازل والابد ، ويجعل لحياته طعماً وهدفاً ورسالة .

وهو ـ مع ذلك ـ الذي يعصم العلم من الانحراف ، ويحول دون استخدامه في الشر والعدوان . ولهذا رأينا سليمان حين أحضر إليه عرش بلقيس بواسطة ﴿ **الذي عنده علم من الكتاب** ﴾[1]. يرجع الفضل الى الله فلا يطغى أو يغتر، بل قال ما قصه القرآن :

﴿ **فلما رآه مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم** ﴾[2] .

---

(١) النمل : ٤٠ .

(٢) النمل : ٤٠ .

وفي قصة ذي القرنين بعد أن أتم بناء السد ، يقول في تواضع المؤمنين ﴿ **هذا رحمة من ربي ، فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ، وكان وعد ربي حقا** ﴾[1] .

ورأينا العلم الذي قام بتوجيه الايمان في ظل الحضارة الاسلامية يبني ويعمر ، ويعمل لخدمة الانسان ، وتزكية الانسان ، واسعاد الانسان .

كما رأينا حين قام العلم في الغرب ـ لظروفه التاريخية مع الكنيسة ـ بعيداً عن هدى الله، مقطوعاً عن الايمان بالله ، كانت نتيجته الاسلحة الكيماوية والجرثومية وآلات الفتك والدمار ، التي جعلت البشرية تبيت على احلام مزعجة ، وتصحو على مخاوف مفزعة . لقد اعطاها العلم الوسائل ، ولكنه لم يعطها الغايات ، وحقق لها المتعة المادية ، ولكن لم يحقق لها السكينة النفسية . انتصرت به على الطبيعة ، ولكن لم تنتصر به على نفسها وشهواتها .

ومن هنا كان لا بد لنا من ايمان العلماء ، وعلم المؤمنين . وهذا ما تقوم عليه الحياة الاسلامية المتكاملة .

ولهذا جمعت أول آية نزلت من القرآن بين العلم والايمان . وهي قوله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾[2] ، فالقراءة ـ وهي مفتاح العلم ـ انما يريدها الاسلام قراءة باسم الله الخالق .

واذا كان مفتاح الاسلام هو العلم والفهم . فان جوهر الاسلام هو الايمان وجوهر الايمان هو التوحيد ، بل هو جوهر الرسالات السماوية كلها . ولهذا كان النداء الأول في رسالة الرسل : ﴿ **يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾[3] .

مكانة الايمان من حياة الانسان :

ان حقيقة الدين ومهمة الايمان تتجلى :

أولاً : في وصل ما بين الانسان وربه ، وإشعاره بقربه وحبه ، وملء ما بين جنبيه ثقة به ، واعتماداً عليه ، واطمئنانا اليه ، وأنساً به ، ويقيناً بكل ما جاء من عنده .

---

(١) الكهف : ٩٨ .
(٢) العلق : ١ .
(٣) الاعراف : ٥٩ .

وتتمثل ثانياً : في الارتفاع بقيمة الانسان من مجرد « حيوان متطور » كما تصوره أو صوره بعض الناس ،الى كائن مكرم مكلف مسؤول ، مخلوق في صورة الخالق ، مخلوق في أحسن تقويم ، مستخلف في الأرض ، مغبوط من الملأ الأعلى ، فلا غرو أن يعمل الدين على اعلاء « نفخة الروح الالهي » في كيانه على « قبضة الطين والحمأ المسنون » فيه . وبذلك لا يعيش الانسان مشدوداً الى أسفل .. الى المتاع الأدنى ، بل يحيا دائماً مشرئباً متطلعاً الى الأفق الأعلى .

وتتمثل ثالثاً : في توسيع صلته بالكون العريض من حوله ، فهو ليس كائناً طفيلياً في هذا الوجود الكبير ، ولا هو ـ أي الكون ـ بالعدو الذي يصارعه ، أو المجهول الذي يطارده ، بل هذا الكون كله مسخر لمنفعته ، وهو كذلك آية تدله على ربه . كما أن الناس فيه ـ كل الناس ـ أخوة له ، يشاركونه في العبودية لله والنبوة لآدم .

وتتمثل رابعاً : في مد عمر هذا الوجود الى ما بعد هذه الحياة القصيرة الأمد ، أي الى حياة الخلود والأبد ، فليست قصة البشرية مجرد أرحام تدفع وأرض تبلع ، أو كما قال القرآن على لسان الجاحدين ﴿ **إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين** ﴾[1] . بل الأمر كما قال عمر بن عبدالعزيز « انكم خلقتم للأبد ، وانما تنقلون من دار الى دار ! » .

وهذه المعاني كلها انما ينشئها ويحييها تنبيه الانسان الى سر وجوده ، وحقيقة انسانيته ، والوعي برسالته في الحياة . وكلها من ثمرات الايمان : الايمان بالله تعالى ، والايمان بالخلود في الآخرة . وهما ركنان أساسيان في كل دين .

لا بد من عمل لتجديد الايمان :

ولهذا كان لا بد من عمل لتجديد الايمان في الانفس والحياة ، بكل الوسائل والاساليب ، فان من أخطر الامور تركيز الفلسفات والانظمة التعليمية والتربوية على الجوانب المادية والتكنولوجية والعملية ـ وحدها ـ في مناهجها وكتبها ومدارسها ، والنظرة الى الدين نظرة اهمال أو عداء ، اتباعاً للعلمانيين في الغرب ، أو الماركسيين في الشرق ، فالاولون يسقطونه من الحساب ، والآخرون يعادونه سراً وعلانية .

---

(١) المؤمنون : ٣٧ .

فاذا دخل الدين المدرسة أو الجامعة لم يدخل مثل دخول صاحب البيت ورب الدار ، بل دخل كأنه زائر دخيل ، أو ضيف ثقيل ، ساعة في آخر اليوم المدرسي ، أو الاسبوع الجامعي ، تسد بها خانة أو يملأ بها فراغ ، حتى تسكت ألسنة المتدينين المتزمتين المتعبين !

ولا عجب ، أن أصبح التعليم يشكو الجفاف والجفاء والخواء ... ويحتاج الى الروح الذي يوقظ القلوب ، ويحرك المشاعر ، ويرد الى الجثث الهامدة الحياة ! ورحم الله الفيلسوف الشاعر المسلم محمد اقبال الذي قال عن هذا (التعليم الحديث) كما كان يسمى في عصره : « انه لا يعلم العين الدموع ، ولا القلب الخشوع » ! .

وما يقال عن التعليم والتربية يقال مثله عن الاعلام واجهزته الجبارة المؤثرة في التوجيه والتثقيف العام . بل غدا الاعلام اليوم - بتقاليده ومواريثه ومفاهيمه السائدة - اشد خطراً من اي شيء آخر على الايمان ، واخلاق الايمان .

ان الايمان هو سبيلنا الى رضوان الله تعالى ، وعدتنا في طريق الآخرة ، فقد حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات ، ولن نقدر على احتمال المكاره في طريق الجنة ، ولا أن نقاوم الشهوات المفضية الى النار ، الا بقوة روحية داخلية ، تستحب المكاره ، وتستعذب العذاب في سبيل الله ، كما ترك كل الشهوات ولذائذ الدنيا كلها ، اذا كان من ورائها سخط الله .

وهذه القوة الروحية انما يصنعها الايمان ، انه هو الذي يحفزنا الى اداء المهمة التي خلقنا لها ، وهي عبادة الله تعالى ، ويحبب الينا هذه العبادة حتى تغدو لنا قرة عين . وهو الذي يأخذ بيد المرء ليتقرب الى الله تعالى بأداء فرائضه الواجبة عليه ، ويزداد تقرباً اليه بنوافل الطاعات ، حتى يربح حبه له ، فاذا أحبه سبحانه كان سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، اذا دعاه أجابه ، واذا سأله أعطاه .

على ان الايمان ليس سبيلاً الى سعادة الآخرة فحسب ، بل هو السبيل أيضاً الى سعادة الدنيا التي يحرص كل الناس عليها ، ولا يجدها منهم الا القليل ، أو أقل القليل . وكم من أشياء يخطف بريقها أبصارهم ، فيلهثون وراءها يحسبون أن فيها السعادة المنشودة ، فاذا هي سراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئا .

ان الايمان وحده هو الذي يمنح الانسان الطمأنينة وسكينة النفس التي هي روح السعادة ، وسعادة الروح ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، الا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾[1] .

قد يستطيع الانسان بواسطة المال والثراء أن يوفر لنفسه كثيراً من اللذائذ ، وان يعب من الشهوات ما يمكن أن يُشترى بالدرهم والدينار . ولكن السعادة الحقيقية لا تعرض في الاسواق ، ولا تشترى بالنقود ، ولا بالنفوذ ! لأنها تنبع من أعماق النفس ، وليست سلعة نستوردها من هنا أوهناك ، وهي التي قال عنها احد السلف الصالح على شظف عيشه : إننا نعيش في سعادة ، لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف ! .

وقد يستطيع الانسان بواسطة العلم أن يعيش في عالم أوتوماتيكي ، يضغط بأصبعه على زر عن يمينه أو يساره ، أو أمامه أو خلفه ، فيدنو له البعيد ، ويلين له الحديد، ويتحرك الساكن ، ويسكن المتحرك ، ويعيش ناعماً مرفها ، كان عشرات من الخدم بين يديه ، فهو لا يقل - بل يزيد فيما يتمتع به - عن قارون العتيد ، أو هارون الرشيد . بل استطاع الانسان بالعلم أن يحرك الاشياء ويسكنها ، وان ينطق الأجهزة ويسكتها ، بغير أزرار ! .

ولكن العلم - وان هيأ للانسان رفاهية الجسم - لم يهيء له طمأنينة القلب . منحه الوسائل ، ولم يمنحه غاية يعيش لها ، لأن هذه ليست مهمة العلم ، بل هي مهمة الايمان.

والايمان الذي نعنيه ، هو الذي ينمي في الانسان حوافز الخير ، وكراهية الشر ، ويملأ ما بين جنبيه شوقاً الى التزكي ، ورغبة في الترقي عن جاذبية الطين الأدنى ، الى أفق الروح الأعلى ، وهو الذي يعطي الانسان الطاقة والقدرة للتحليق بأشواقه الصاعدة ، فوق مستوى الغرائز الهابطة . وهو الذي يهب الشباب في عنفوانه أمام الشهوات العارمة ارادة كارادة يوسف الصديق ، تقبل ذل السجن ، وترفض إغراء المعصية ، وشعاره ﴿ **رب السجن أحبُّ الي مما يدعونني اليه** ﴾[2] .

---

(١) الرعد : ٢٨ .

(٢) يوسف : ٣٣ .

الايمان هو الذي يمنـــح صاحبه في مواقف التضحية والفـداء ، صبـــراً كصبر اسماعيل ، وتسليماً كتسليمه لأمر الله ، اذ قال له أبوه إبراهيم ﴿ **يا بني اني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدني إن شاء الله من الصابرين** ﴾[1] .

ان الايمان الذي ننشده ، هو وحده الذي تنبت في تربته شجرة الأخلاق ، وتنمو في ربوعه أزهار الفضائل المثلى ، والقيم العليا ، ولقد أثبت التاريخ والواقع ان الامم بدون أخلاق ، لا تنهض بعبء جسيم ، ولا تقوم بعمل مبدع .

وان أمة بلا اخلاق ، كبنيان بلا أساس . فهو مهما علا وامتد حتمي الانهيار ، ورحم الله شوقي اذ قال :

واذا أصيب القوم في اخلاقهم   فأقم عليهم مأتماً وعويلا !

ولطالما حاول كثير من الحكام والزعماء والمسئولين ، أن يضبطوا سلوك مجتمعاتهم بالقوانين والقرارات وحدها ، ناسين أن الانسان انما يقاد من داخله لا من خارجه ، فلم تغن عنهم قوانينهم ولوائحهم شيئا ، وعادوا بالخيبة والخسران ، وغلب الهوى على الحق ، والأنانية على الخير ، وعلا صوت الشهوة على صوت الواجب ، ولا غرو أن شاعت جرائم كُبر ، وظهرت مآسٍ وفضائح على أعلى المستويات ، وكان مما كتبه أحد القضاة في بريطانيا تعليقاً على الحكم في احدى هذه القضايا الكبيرة المثيرة : بدون قانون لا يستقر مجتمع ، وبدون اخلاق لا يسود قانون ، وبدون ايمان لا تسود الاخلاق !

والايمان هو الذي يفجر الطاقات الكامنة في انسان شعوبنا المسلمة ، فيندفع بقوة العقيدة في الله وفي الدار الاخرة ، ليزرع الأعاجيب ، ويصنع البطولات ، وينشىء الروائع ، كما رأينا ذلك في التاريخ الماضي ، وفي الواقع الحاضر .

---

(١) الصافات : ١٠٢ .

ان الايمان هو الذي يحل مشكلة النزعة الذاتية الفردية عند الانسان ـ وهي نزعة فطرية أصيلة ـ حين يعلّمه أن ما يقدمه من خير للغير ، وما يضحي به من جهد للجماعة ، وما يبذل من مال أو نفس ، لن يضيع عند الله منه مثقال ذرة ، بل كله مكتوب له ، ومردود اليه ، ومضاف الى رصيده عند الله ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره** ﴾[1] ، ﴿ **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا يخاف ظلماً ولا هضما** ﴾[2] ، ﴿ **ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما** ﴾[3] .

والايمان هو الذي يضع بين يدي الانسان قوة هائلة ، حين يغرس في نفسه أن قدر الله نافذ لا محاله ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما يخاف عليه الناس من رزق أو أجل ، مكتوب عند الله لا مجال فيهما لزيادة أو نقصان ، فالأرزاق مقسومة والآجال معلومة ، ولو اجتمعت الأمة على أن ينفعوا أحداً بشيء لم ينفعوه الا بشيء قد كتبه الله له ، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه الا بشيء قد كتبه الله عليه .

هذا اليقين بالقدر ، يجعل المؤمن به يشعر أنه في جهاده ودعوته يمثل قدر الله الذي لا يرد ، وقضاءه الذي لا يغلب ، كما قال أحد الصحابة في حرب الفرس لأحد قوادهم ، وقد سأله : من أنتم ؟ فقال : نحن قدر الله ! ابتلاكم الله بنا ، كما ابتلانا بكم، فلو كنتم في سحابة لصعدنا اليكم ، أو لنزلتم الينا !!

والايمان كذلك هو الذي يوثق الروابط بين أهله ، فيجمعهم في ظل الأخوة ويصل بينهم بأوثق عرى المحبة ، فالايمان رحم بين أهله ، كما قال تعالى : ﴿ **انما المؤمنون اخوة** ﴾[4] .

واذا كانت هناك أشياء تفرق بين الناس بعضهم عن بعض ، من اختلاف العرق أو اللون أو اللغة أو الاقليم أو الطبقة أو النسب ، أو الثروة أو غير ذلك ، مما يحجز الناس بعضهم عن بعض ، فإن الايمان بحرارته وقوته هو الذي يذيب هـذه الحواجز ، ولا

(١) الزلزلة : ٧ .
(٢) طه : ١١٢ .
(٣) النساء : ٤٠ .
(٤) الحجرات : ١٠ .

يعترف بها ، ويجعل من وحدة العقيدة رابطة فوق رابطة الدم أو أقوى ، ولحمة كلحمة النسب ، أو أوثق ، حتى أن المؤمن ليؤثر أخاه في العقيدة على أخيه من النسب ، بل على ابنه من الصلب .

وفي رحاب هذه الأخوة الكبيرة ، تختفي الاحقاد الصغيرة ، وتهون الدنيا التي يتهارش عليها الناس ، وهي أهون عند الله من جناح بعوضة ، وتنكمش مشاعر الحسد والبغضاء التي سماها النبي صلى الله عليه وسلم « داء الأمم » وقال عن البغضاء بحق : انها الحالقة، لا بمعنى انها تحلق الشعر ولكن تحلق الدين .

ولا يقف الامر عند سلامة الصدر من الحسد والبغضاء ، بل يعمر القلوب حب كبير ، منبثق من حب الله تعالى ، انه حب لكل من والاه وآمن به ، حيث يرتفع بالانسان من الأنانية الدنيا الى الغيرية العليا . وفي هذا جاء الحديث الصحيح « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، « والذي نفسي بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابوا » .

وتتمثل الغيرية في أجلى صورها ، عندما تتجسد في هذا المعنى الذي لم يعرف ولن يعرف في غير مجتمع المؤمنين ، وهو معنى « الايثار » أن تجود بالشيء لأخيك وأنت محتاج اليه ، وان تتعب ليرتاح أخوك ، وتعرض صدرك لتلقي ضربات السيوف وطعنات الرماح لتحمي أخاك . وأن تبيت على الطوى لتقدم كل ما عندك من زاد عشاء لأخيك . وهذا هو الذي وصف الله به الانصار في قوله : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[1] .

وهنا تتحول المشاعر الراقية من الأخوة والمحبة والايثار ، الى تلاحم في الخير ، وتراحم في السراء والضراء ، وتعاون على البر والتقوى ، صوره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشد بعضه بعضا » ، « مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمّى » .

---

(١) الحشر : ٩ .

ان الايمان الحق وحده هو سبيل الخلاص ، وسفينة الانقاذ للبشرية من الغرق المخوف ﴿ **ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم** ﴾[1] .

ملامح الانسان الذي يصنعه الاسلام :

ان الاسلام هو الرسالة القادرة على بناء انسان قوي متوازن متكامل الشخصية : يمشي على الأرض ، ويتطلع الى السماء .. يعايش الواقع ، ويرنو الى المثال .. يعمل للدنيا ، ولا ينسى الآخرة .. يجمع المال ، ولا ينسى الحساب .. يأخذ الحق ، ولا ينسى الواجب .. يتعامل مع الخلق ، ولا ينسى الخالق .. يعتز بماضيه ، ولا ينسى حاضره ومستقبله .. يحب قومه ، ولا ينسى بني الانسان .. يصلح نفسه ، ولا ينسى اصلاح غيره .. يهتدي ويهدي ، يأتمر ويأمر ، وينتهي وينهى ، فهو دائماً داع الى الخير ، آمر بالمعروف ، ناه عن المنكر ، حافظ لحدود الله ، يتواصى مع سائر المؤمنين بالحق وبالصبر، كما أمر الله ﴿ **والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾[2] .

انسان متوازن الشخصية ، سوي النفس ، لا يطغيه الغنى ، ولا ينسيه الفقر ، لا يستخفه النصر ، ولا تسحقه الهزيمة ، لا تبطره النعمة ، ولا تزلزله المصيبة ، مطمئن القلب ، راضي النفس ، متفائل الروح ، لا ييأس وان سدت في وجهه الأبواب ، وتقطعت دونه الأسباب ، موقن بأن مع العسر يسرا ، وأن بعد الليل فجرا ، وبعد الضيق فرجا ، وأنه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون . ولا يقنط من رحمة ربه الا الضالون .

انسان يولد على الفطرة ، لم يلوث بخطيئة ورثها من أبيه الأول ، كما تزعم المسيحية ، ولم يحمل ذنب أحد ، انما يحمل مسئولية نفسه ، ان اهتدى فلها ، وان ضل فعليها ، وليس له الا ما سعى ، لا يخاف ظلماً ولا هضما . اقام الله له الحجة ، وبيّن له المحجة ، وازاح عنه العلة ، وارسل له الرسول ، وانزل عليه الكتاب ، وملّكه امر نفسه ، يزكيها او يدسيها ﴿ **قد افلح من زكاها . وقد خاب من دساها** ﴾[3] .

---

(١) آل عمران : ١٠١ .
(٢) العصر : ١ ـ ٣ .
(٣) الشمس : ٩ ـ ١٠ .

انسان يحترم فطرة الله ، التي فرقت بين الذكورة والانوثة ، فلا يمسخ هذه الفطرة ولا يتمرد عليها ، باسترجال المرأة أو تأنث الرجل ، فلكل منهما دوره في الدنيا ، وجزاؤه في الآخرة ﴿ **لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى** ﴾[١] . ولعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال . يبر المرأة أما ، ويرعاها بنتاً ، ويكرمها زوجة ، ويحميها انثى ، ويحترمها انساناً ، ويرحب بها عضواً في المجتمع.

انسان يمشي في مناكب الأرض ويأكل من رزق الله ، زارعاً أو صانعاً ، او تاجراً أو مشتغلاً بأي عمل حلال . يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا . لا يحرم زينة الله التي أخرج لعباده ولا الطيبات من الرزق ، ولا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة ، يسعى الى ذكر الله ويؤدي شعائر الله ، ثم ينتشر في الأرض مبتغياً من فضل الله ، فلا تناقض بين دينه ودنياه . بل يعتبر عمارة الأرض عبادة ، والسعي على المعاش قربة ، واتقان العمل الدنيوي فريضة ، فان الله تعالى كتب الاحسان على كل شيء ، وهو يحب من كل من عمل عملاً أن يتقنه ويحسنه فان الله يحب المحسنين .

انسان صنعته عقيدة (التوحيد الخالص) الذي تميز به الاسلام ، فلم تشبُه شائبة الوثنية ، فلا يشرك بالله شيئا ، ولا يشرك بالله أحدا ، لا يعبد نجماً في السماء ، ولا حجراً في الارض ، لا يعبد ملكاً في العالم العلوي ، ولا حيواناً في العالم السفلي ، لا يعبد جناً مستورا ، ولا بشراً منظورا . انما يعبد الله وحده لا شريك له . وهو ما دعا اليه الاسلام أهل الكتاب ﴿ **الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله** ﴾[٢] . تكمل هذه العقيدة عقيدة الجزاء ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، حيث توفّى كل نفس ما كسبت ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾[٣] .

---

(١) آل عمران : ١٩٥ .
(٢) آل عمران : ٦٤ .
(٣) الزلزلة : ٧ - ٨ .

انسان صقلته عبادات الاسلام التي حررها من رق الكهنوت ، ومن احتكار الكهان ، وفتح بابها للاتصال بالله الواحد الأحد ، بلا وسيط ولا سمسار مزعوم : من صلاة تصله بالله كل يوم خمس مرات ، ومن صيام يربي ارادته ، ويعدّه لتقوى الله شهراً من كل عام ، ومن زكاة تزكي نفسه ، وتطهرها من رجس الشح والانانية ، ليصبح في زمرة المنفقين مما رزق الله ، ومن حج يجمعه مرة في العمر بغيره من المسلمين من أقطار الأرض حول أول بيت وضع لعبادة الله .

انسان هذبته اخلاق الاسلام ، وجملت حياته آدابه ، ووضحت طريقه قيمه ومفاهيمه ، ورقته وتربيته وتعليمه ، يعلم علم اليقين ان عليه حقوقاً لازمة : نحو ربه ونحو نفسه ، ونحو والديه ، ونحو أولاده ، ونحو أقاربه ، ونحو جيرانه ، ونحو مجتمعه وأهل وطنه ، ونحو أبناء دينه ، ونحو بني جنسه من البشر ، ونحو الحيوانات المذللة له ، بل نحو الكون كله المسخر له من فوقه ومن تحته ومن حوله . فعليه أن يوازن بين هذه الحقوق وأن يعطي كل ذي حق حقه .

انسان هيأت له (شريعة الاسلام) ـ بمقاصدها الجامعة ، ومبادئها المتوازنة ، وأحكامها العادلة ، وفقهها الرحب ـ مناخاً صالحاً ، تنطلق فيه حوافزه ، وتنمو فيه خصائصه ، وتزدهر فيه فضائله ، ويحمى فيه دينه ونفسه وعرضه وماله وعقله ونسله ، بما شرع الله من أحكام ، وما فرض من فرائض ، وما أحل من حلال ، وحرم من حرام ، وأوجب من عقوبات ، أقام بها الموازين القسط بين الناس ، وحفظ بها مصالح العباد في المعاش والمعاد .

اسلام يتمثل في أمة :

ان الانسانية اليوم ـ تحت سلطات الحضارة المادية ـ مهددة بطوفان كطوفان نوح ، يمكن أن يأتي على بنيانها من القواعد ، ولا بد لها من سفينة كسفينة نوح ، بها يعصمها الله من الهلاك والدمار .

ولن تكون هذه السفينة الا رسالة الاسلام ، التي جعلها الله رحمة للعالمين وهداية للحائرين .

ولكن هذه الرسالة في حاجة الى أمة تمثلها وتتمثلها ، وتعطي للبشرية الأسوة والنموذج . كما اعطت أمة الاسلام في القرون الأولى ، ودخلت الأمم في دين الله أفواجا .

أمة يتجسد فيها الاسلام ، توحيداً خالصاً ، وإيماناً صادقاً ، وعلماً نافعاً ، وعملاً صالحاً ، وخلقاً فاضلاً ، ودعوة الى الخير ، وتواصياً بالحق والصبر ، وتعاوناً على البر والتقوى ، وجهاداً في سبيل ذلك كله ، حتى تكون بحق خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

أمة يرى الناس فيها نموذجاً حياً للمجتمع الاسلامي ، الذي طال انتظار ميلاده ، المجتمع الاسلامي بعقائده وتصوراته ، بشعائره وتعبداته ، بأفكاره ومشاعره ، بأخلاقه وفضائله ، بآدابه وتقاليده ، بقيمه ومثله ، بتشريعاته وقوانينه . وهو ليس مجتمع ملائكة، ولكنه مجتمع بشر تحكمهم في الارض هداية السماء .

أمة وسط ، لا تنتمي الى اليمين ولا الى اليسار ، لا الى الشرق الشيوعي ولا الى الغرب الرأسمالي ، أمة متميزة الوجهة ، مستقلة الشخصية ، ﴿ **لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ، ولو لم تمسسه نار ، نور على نور** ﴾[1] .

أمة لا تعيش لنفسها ، ولا لهمِّ يومها ، ولا لملء بطنها ، بل تعيش لغيرها ، وتحمل على كاهلها همّ البشرية المعذبة ، والانسانية الحائرة ، فهي أمة ذات رسالة عالمية ، لم تنبت من ذاتها ، بل أنبتها الله ، ولم تخرج كنبات البرية ، بل أخرجها الله ، ولم يخرجها لنفسها ، بل أخرجها للناس ، وأرسلها برسالة نبيها رحمة للعالمين ، وهداية للناس أجمعين .

ولن تستطيع هذه الأمة أن تقوم بدورها في إنقاذ البشرية من سعار الحضارة المادية، اذا أصابها هي من شررها وشرورها ما أصاب الاخرين من أدواء المادية والاباحية والنفعية والأنانية .

---

(١) النور : ٣٥ .

لهذا كان على هذه الأمة أن تحصن نفسها بالاسلام ، وان تجدد شبابها بالايمان ، وأن تعرض عما تشكو منه حضارة اليوم من أوصاب وأمراض ، وأن تنصر الله لينصرها الله ، ويمكن لها في الارض ، ويحقق لها وعده ﴿ **ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز . الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور** ﴾[1] .

شرطان لا بد منهما :

لن تستطيع أمتنا أن تقدم البديل للحضارة المعاصرة ، اذا هي قلدت هذه الحضارة واتخذتها مثلها الأعلى ، واتبعت سننها شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، كما دعا الى ذلك من دعا من قومنا ، في وقت من الأوقات ، زاعمين أننا لن نسلك سبيل الرقي ، مالم (نفن) في الاوروبيين ومالم ننقل حضارتهم بجذورها وفروعها ، او - كما قال - بخيرها وشرها ، وحلوها ومرها ، ما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب .

لقد اريد لنا يوماً أن نتخلى عن هُويتنا العربية الاسلامية ، لنلحق بالبحر الأبيض المتوسط - وبعبارة ادق - بالشاطىء الأوروبي منه .

كما يراد اليوم أن ننسى هذه الهوية أو نتناساها ، لنلحق بما سموه (الشرق الأوسط) - وهو التعبير البديل للعالم العربي والعالم الاسلامي - حتى ننصهر مع (إسرائيل) في بوتقة واحدة ، وتجمعنا حضارة (شرق أوسطية) جديدة ، لا تفرق بين عربي وإسرائيلي ، ولا بين اسلام ويهودية ! وبذلك نفقد حضارتنا المتميزة ، ورسالتنا المتفردة ، ودورنا المنشود .

انما تستطيع أمتنا أن تقدم البديل اذا تمسكت بمشروعها الحضاري المتوازن المتكامل ، واستماتت في الحفاظ على هويتها ورسالتها ، وسيكون هذا في صالحها ، وصالح البشرية معها .

---

(١) الحج : ٤٠ - ٤١ .

ليس معنى هذا أن تلفظ أمتنا الحضارة الغربية كلها لفظ النواة ، وان تقف موقف الرفض لكل منجزاتها العلمية والعملية ، بدعوى انها حضارة مادية الوجهة ، علمانية النزعة ، نفعية الصبغة ، عدوانية الحركة .

فالواقع أن في هذه الحضارة جوانب ايجابية لا بد لنا من الاستفادة منها ، ومن ذلك :

١ ـ العلم ، وتطبيقاته التكنولوجية ، وهو في الحق بضاعتنا ترد الينا ، فأسسه قد اقتبست من حضارتنا ، ولكنه اليوم بوثباته الهائلة علم غربي بلا ريب .

٢ ـ حسن الادارة والتنظيم لشئون الحياة ، وقد بلغوا فيه مبلغاً عظيماً .

٣ ـ العناية بحرية الانسان الفرد وحقوقه ، ووضع الضمانات العملية اللازمة لحمايتها من مخالب السلطات الحاكمة وتجاوزاتها .

فهذه جوانب من حضارة القوم لا يسعنا اغفالها أو الاعراض عنها ، وإن كان علينا أن نحوّر في كل ما نأخذه منهم ، بالحذف والاضافة والتعديل ، حتى يتلاءم مع قيمنا ، وينسجم مع أوضاعنا ، ويفقد نَسَبَهُ الأول ، ويندمج في كياننا الثقافي والحضاري .

وقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم أشياء كانت في الجاهلية ، مثل بعض أنواع النكاح ، والبيوع كالسلم ، والشركات كالمضاربة ، والعقوبات كالدية ، ولكنه أدخل عليها من الشروط والقيود ، ما جعلها اسلامية صرفاً . كما اقتبس المسلمون من الحضارات المجاورة ما انتفعوا به ، بعد أن تركوا من (بصماتهم) عليه ، ما جعله جزءاً من النظم الاسلامية .

هذا هو الشرط الأول لتقوم أمتنا برسالتها الحضارية .

أما الشرط الثاني فيتعلق بالبديل الذي تقدمه أمتنا للعالم الظامىء ، أعني : بالاسلام ورسالته الحضارية .

فإن كثيراً من المسلمين ظلموا الاسلام ظلماً مبيناً ، ومسخوه مسخاً شائهاً .

فمن الناس من يريد أن يفسر الاسلام تفسيراً يجعله (طبعة عربية) من الحضارة الغربية . فهو يريد ان يأخذ الحضارة الغربية بكل قيمها وتصوراتها واوضاعها ، ولكن بعد أن يخلع عن رأسها (القبعة) ليضع مكانها (العمامة) ! وبهذا يغدو (الخواجة) الاوربي - أو الأمريكي - المادي النفعي الدنيوي (شيخاً) عربياً مسلماً ! .

وهذا هو موقف (المدرسة التبريرية) التي تريد أن تضفي الشرعية على الواقع الذي صنعه الغرب في أوطاننا . وزادت على ذلك ، بشرح الاسلام شرحاً يجعل المفاهيم الغربية والقيم الغربية ، مفاهيم اسلامية ، وقيماً إسلامية ، وسوق النصوص قسراً لتأييد هذا التوجه .

إن هذا الاعتساف تحريف للاسلام من ناحية ، وتنفير للغربيين من الاهتداء بنوره من ناحية أخرى ، لأنهم لن يجدوا فيه بديلاً عن حضارتهم التي يشكون من ويلاتها ، بل سيجدون فيه روح هذه الحضارة ولبها في ثياب عربية اسلامية !

وفي مقابل هؤلاء أناس يقدمون الإسلام في صورة تقشعر من هولها الجلود ، وترتعد من قساوتها الفرائض ، وتوجل من ذكرها القلوب .

انه الإسلام الذي يدعو الى (الجبرية) في العقيدة ، (والشكلية) في العبادة و (السلبية) في السلوك و (السطحية) في التفكير ، و (الحرفية) في التفسير ، و (الظاهرية) في الفقه ، و (المظهرية) في الحياة .

انه الاسلام المقطب الوجه ، العبوس القمطرير ، الذي لا يعرف غير العنف في الدعوة ، والخشونة في المجادلة ، والغلظة في التعامل ، والفظاظة في الأسلوب .

انه الاسلام الجامد كالصخر ، الذي لا يعرف تعدد الآراء ، ولا يعترف بتنوع الاجتهادات ، ولا يقر الا الرأي الواحد ، والوجه الواحد ، ولا يسمع للرأي الآخر ، ولا للوجهة الأخرى ، ولا يرى أحدهم أن رأيه صواب يحتمل الخطأ ، وأن رأي غيره خطأ يحتمل الصواب .

انه الاسلام الذي لا يكاد يرى في الدين الا التشريع ، ولا يكاد يرى في التشريع الا الحدود .

انه الاسلام الذي لا يعرف التسامح مع المخالفين في الدين ، ولا يقبل الحوار مع المغايرين في الفكر ، ولا يأذن بوجود للمعارضين في السياسة .

انه الاسلام الذي ينظر بريبة الى المرأة ، فهو يدعو الى حبسها في البيت ، وحرمانها من العمل ، ومن المشاركة في الدعوة والحياة الاجتماعية ، ومنعها من التصويت ، بله الترشيح للمناصب .

انه الاسلام الذي لا يعنيه العدالة في توزيع الثروة ، ولا توكيد قاعدة الشورى في السياسة ، ولا اقرار الحرية للشعب ، ولا مساءلة اللصوص الكبار عما اقترفوه ، لكن يشغل الناس بالجدال في فرعيات فقهية ، وجزئيات خلافية ، في العبادات او المعاملات ، لا يمكن ان ينتهي فيها الخلاف .

انه الاسلام الذي يتوسع في (منطقة التحريم) حتى يكاد يجعل الحياة مجموعة من المحرمات ، فأقرب كلمة الى ألسنة دعاته ، واقلام كتابه : كلمة (حرام) .

ان الاسلام بهذه الصورة القاتمة السوداء ـ الذي يقدمه بها نفر من أبنائه المخلصين غالباً في نياتهم ، القاصرين في أفهامهم ـ لن يمكنه القيام بدور (البديل) أو (الوارث) للحضارة الغاربة أو التي توشك على الغروب .

ان الاسلام المنشود ، هو (الاسلام الأول) اسلام القرآن والسنة ، سنة النبي صلى الله عليه وسلم وسنة الراشدين المهديين من بعده ، إسلام التيسير لا التعسير ، والتبشير لا التنفير ، والرفق لا العنف ، والتعارف لا التناكر ، والتسامح لا التعصب ، والجوهر لا الشكل ، والعمل لا الجدل ، والعطاء لا الادعاء ، والاجتهاد لا التقليد ، والتجديد لا الجمود ، والانضباط لا التسيب ، والوسطية لا الغلو ولا التقصير .

اسلام يقوم على عقيدة روحها التوحيد ، وعبادةٍ روحها الاخلاص ، واخلاق روحها الخير ، وشريعة روحها العدل ، ورابطة روحها الاخاء . وثمرة ذلك كله حضارة روحها التوازن والتكامل .

هذا الاسلام وحده هو حبل النجاة لنا وللبشرية من ورائنا ، وهو القادر على انقاذ سفينة الحضارة قبل أن تغرق ونغرق كلنا معها .

فهل تستطيع أمتنا أن تقوم بالدور المطلوب منها ؟ وبعبارة أخرى : هل تريد أن تقوم بهذا الدور ؟ بمعنى أن تتبنى الاسلام عقيدة ورسالة ومنهاج حياة ، فتحسن الفقه له، والايمان به ، والتطبيق له ، والدعوة إليه .

هذا ما نأمله ويأمله كل المخلصين ، وما ينتظره التاريخ منا . **﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال : إنني من المسلمين ﴾**[1] .

---

(١) فصلت : ٣٣ .



الفصل الرابـــع

آفات الحضارة المعاصرة وآثارها على الحياة البشرية

ولّدت الحضارة المعاصرة - الى جوار آثارها الايجابية - آثاراً سلبية ، ما برحت البشرية تعاني ويلاتها ، وتذوق مر ثمراتها .

وسنذكر هنا المعالم البارزة لهذه الآثار ، معتمدين على واقع هذه الحضارة في ديارها الأم ، كما تصوره التقارير والأرقام والمشاهدات .

الانحلال الأخلاقــي :

أبرز آثار حضارة اليوم وآفاتها هو التحلل من قيود الأخلاق التي جاءت بها كل أديان السماء ، وهدت اليها رسالات الله جميعاً .

ان الثمرة من جنس الشجرة ، وشجرة المادية النفعية السارية في حضارة الغرب ، لا يمكن أن تثمر خلقاً انسانياً رفيعاً يمسك بناء المجتمع ، وانما تثمر التفسخ والتحلل الذي يهز صرح المجتمع ويزلزله ، ويهدده بالانهيار ، وصدق الله اذ يقول ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه ، والذي خبث لا يخرج الا نكدا** ﴾[1] .

قال ليوبولد فايس (محمد اسد) في كتابه : « الاسلام على مفترق الطرق »[2] .

« اننا نجد في التبدل الاساسي الذي تخضع له الحياة الاجتماعية في الغرب الآن ، تلك الفلسفة الاخلاقية الجديدة - المبنية على الانتفاع - تبرز للعيان شيئاً فشيئا . وكل الفضائل التي تتعلق مباشرة برفاهية المجتمع المادية - كالمقدرة الفنية والوطنية والشعور القومي - هي اليوم موضع للمديح ولرفع قيمتها فوق ماهو معقول بينما الفضائل التي ظلت تعتبر الى اليوم من جهة قيمتها الخلقية الخالصة كالحب الأبوي والعفاف ، تخسر من قيمتها بسرعة ، لأنها لا تهب المجتمع فائدة مادية محسوسة » .

---

(١) الاعراف : ٥٨ .

(٢) محمد أسد ، الاسلام على مفترق الطرق : ٤٥ - ٤٦ .

وفي موضع آخر يقول : « ان العفاف والاحصان يصبحان مع الأيام خبراً ماضياً في الغرب الحديث ، لأنهما مفروضان من طريق الخلق فحسب ، وليس للاعتبارات الخلقية أثر مباشر محسوس في رفاهية الشعب المادية . وهكذا نجد ان الفضائل الخلقية القديمة التي يؤيدها الدين ، أخذت تخلي مكانها بالتدريج للفضائل الغربية الجديدة التي تدعو الى حرية فردية للجسد البشري غير مقيدة ، اما ضبط النفس ومراقبة الصلات الجنسية فانهما تفقدان من أهميتهما بسرعة »[1] .

ويقول ريتشارد لفنجستون وكيل جامعة أكسفورد في كتابه (التربية لعالم حائر)[2] :

[لو أننا كنا نبحث عن كلمة براقة تصف عصرنا هذا ، لطرأت على أذهاننا عبارات عدة ، فقد نطلق عليه : عصر العلوم ، أو عصر الثورة الاجتماعية ، أو العصر الذي خلا من المعايير الخلقية ، غير أن اسماً من هذه الأسماء لن يبين حقيقة العصر كاملة، أو ينصفه انصافاً تاماً . على أن الاسم الأخير أجدر من غيره بعض الشيء بأن يوضع موضع الاعتبار] .

وفي مكان آخر من الكتاب يقول : [لكنك اذا انتقلت من ميدان العلوم الى ميدان الاخلاق والدين ، رأيت نفسك في أرض قفر ، تسودها المعتقدات المزعزعة ، والمعايير الخلقية المحطمة ، حيث لا يزال اللصوص ينهبون ، ويسلبون ، ففي هذا الميدان غدا عمل القرن العشرين أن يقوض أركان المعتقدات الوطيدة المستقرة ، التي سادت العصر الفكتوري ، فهوى أمام تلك الهجمات ايمان راسخ ، وتهشمت تحت تلك الضربات نظرة للحياة كانت في أكثر نواحيها نبيلة سامية][3] .

تقرير يحمل انذاراً :

نذكر هنا نموذجاً للانحلال الخلقي في الغرب ، وهو نموذج قديم يعتبر ما فيه (محافظاً) بالنسبة لما تطور اليه الحال ، وهو ترجمة حرفية لما نشرته كل صحف بريطانيا اليومية في ابريل سنة ١٩٦٤م ، وهو موجز للتقرير الضخم الحافل بعجائب المخزيات

(١) محمد أسد ، الاسلام على مفترق الطرق : ٤٣ .

(٢) ريتشارد لفنجستون ، التربية لعالم حائر ، ترجمة محمد بدران : ١٤ .

(٣) المرجع نفسه : ٢٨ .

الذي اصدرته الهيئة الطبية في كتيب تخطفته الايدي فور صدوره في لندن ، وهذه الترجمة ننقلها عن مجلة « المسلمون »[1] الشهرية العدد الثامن مايو ١٩٦٤م ، قالت المجلة : « اصدرت الهيئة الطبية البريطانية ، في الشهر الماضي تقريراً موضوعه : الشباب والامراض السرية كانت قد عهدت باعداده الى لجنة تضم ممثلين للكنيسة ، وباحثين اجتماعيين ونفسيين واساتذة جامعيين ، بالاضافة الـى بعض الأطبـاء ، ذكرت فيه ان « القنبلة » والخوف من التحطيم المرتقب للبشرية ، من بين الاسباب التي دعت الشباب الى اتخاذ اللذة مبدأ في الحياة ، لذة لا تحترم ديناً ولا علما ، ولا تلقي بالا لروابط الاسرة أو المسؤوليات الاجتماعية ، فشريعة اليوم هي البحث اليائس عن اللذة .

ان الشباب يودون ان يجمعوا كل انواع اللذات الحسية التي تجود بها الحياة قبل فوات الأوان ، والأدلة التي أدلى بها الشباب للباحثين الاجتماعيين والاطباء والبوليس وغيرهم من المهتمين بشؤون الشباب ، تدل على ان الصلات الجنسية قبل الزواج وخارج نطاق بيت الزوجية ، أصبحت امراً عادياً ، وقد ذكر احد الشهود بعد أن قام بدراسة خاصة لسلـوك الشباب ، ولا سيما الجامعيين منهم ، أن « شيوعية الجنس » أصبحـت « موضة » في السنوات السبع الأخيرة .

ويقول التقرير : ان نسبة زيادة الامراض السرية اكبر بكثير من نسبة الزيادة في عدد السكان ، فما بين سنتي ١٩٥١م ١٩٥٢م زاد عدد السكان بنسبة ٦٪ بينما زادت نسبة الامراض التي تنتقل عن طريق الصلات الجنسية بنسبة ٦٣٪ . والاطفال غير الشرعيين زادوا من ٤ر٦٪ الى ٦ر٦٪ في انجلترا وويلز ما بين ١٩٥٥ و ١٩٦٦م . وأما في لندن فالزيادة من ٧ر٧٪ الى ٤ر١١٪ ، ويعزى سبب الزيادة الى التغيير الكبير الذي طرأ على نظرة المجتمع للقيم الاخلاقية عامة ، والمتصلة فيها بالجنس خاصة ، ومن بين أسباب هذا التغيير تناقص اثر الدين ، وفقدان الأمن في الحياة الجديدة ، وفشل التربية والتوجيه الأبوي ، وقصور التربية الجنسية ، وما دامت الفوضى الجنسية نذيراً بانهيار اجتماعي ، فلا بد من اعادة الاهتمام بالتربية المنزلية .

---

(١) التي كان يصدرها الداعية الاسلامي المعروف الدكتور سعيد رمضان .

والحل الذي نراه هو « احداث تغيير جذري في المجتمع ذاته » وقد عدت الجمعية شرب الخمر ، واندية « الجاز » والحفلات الساهرة ، من بين العوامـــل التي قادت الـــى الفوضى الجنسية بين الشباب ، والجمعية تؤكد انه لا حـــل غير « العفة » اذ إن العفـــة « وحدها » هي الضمان ضد الامراض التناسلية والحمل السفاحي ، فان ثلث الفتيات اللائي يتزوجن قبل العشرين ، يتزوجن « وهن حاملات » !! كما تقترح اللجنة على الحكومـــة تكوين لجنة للنظر في امــر الادب المكشوف لصلته المباشرة بهذا الموضوع .

ولكن هل استجاب المجتمع ومؤسساته لهذا النـــداء المخلص في بريطانيا أو في غيرها ؟ .. هل وجدت الدعوة في العودة الى « العفة » قبولا ؟

الواقع ان المجتمع الغربي كله يزداد سوءا ، وينتقل من سيء الى أسوأ ، وقد كنت في زيارة للندن منذ بضع سنوات ، وكان معي صديق معه اسرته ، فذهب يوماً الى حديقة (هايد بارك) الشهيرة ، ومعه طفلته الصغيرة ، فوجد شاباً مع فتاة في وضع جنسي مكشوف ! فسألته الطفلة ماذا يعمل هؤلاء يا أبي ؟ قال : هؤلاء حيوانات ! فقالت الابنة ببراءة : وماذا يفعل هؤلاء الحيوانات ؟ ولم يستطع الأب أن يجيب . وفر من المكان الى مكان آخر ، فوجد مشهداً أقبح من الأول ، فأسرع الرجل بابنته عائداً الى الفندق الذي يقيم فيه ! وما زالت الصحف والمجلات والكتب تمدنا بالعجائب والغرائب مما يحدث في عالم الحضارة المادية الاستهلاكية .

والبلاد الأوروبية الأخرى أسوأ من بريطانيا ، وأمريكا كذلك :

ما زلنا نقرأ عن انتشار الشذوذ الجنسي ، الى حد مهزلة أو مأساة (زواج الرجال بالرجال) أو (زواج النساء بالنساء) وان بعض الكنائس باركت ذلك وان بعض القسس قام بمباركة هذه العقود الدنسة .

هذا بالرغم من ظهور ذلك الوباء الذي أصبح حديث العالم ، ومشغلة الأوساط الطبية والعلمية ، وهو ذلك المرض الذي يفقد صاحبه المناعة ، ويجعله فريسة سهلة لأي (ميكروب) يفتك به ، دون أن يجد من داخل الجسم الجند الطبيعي للمقاومة ، فقد قضى التحلل والشذوذ على هذا الجند الذي جهز الله به كيان الانسان . إنه (الإيدز) !

ما زلنا نقرأ عن افلام الجنس ، وانتشار المخدرات والسموم البيضاء ، بصورة اذهلت كل من يزور هذه البلاد حتى من الموالين للغرب فكراً واتجاهاً .

التفسخ العائلـي :

ولم يقف الامر عند انحطاط الاخلاق فحسب ، بل امتد الى مكان لا بد أن يمتد اليه : الى العواطف الانسانية النبيلة ، فغاضت منابعها أو كادت ، وتلوثت مياهها الصافية بجراثيم المادية الفتاكة ، فتفككت الاسرة وتفسخت روابطها .

فلم يعد بين المرء وزوجه تلك العاطفة الكريمة ، التي عرفتها الاسرة المسلمة ، والتي تتمثل فيما ذكره القرآن من سكينة ومودة ورحمة[1] ولم يعد بين الأخ وأخيه ولا بين القريب وقريبه تلك المشاعر الحلوة التي تربط افراد الأسرة الواحدة ـ فضلاً عن صلات الناس خارج الاسرة ـ ان تبادل المنافع والمسرات هو الرباط الفذ الذي يصل بعضهم ببعض . هذا هو الذي يربط القريب بالقريب والصديق بالصديق . واننا لنجد هذا المعنى فيما قاله أحد الساسة الغربيين : نحن ليس لنا أصدقاء دائمون ، ولا أعداء دائمون ، ولكن لنا مصالح دائمة .

وما قاله في جو السياسة ينطبق على الحياة كلها عندهم .

وهل هناك أسمى وأبقى وأخلد من عاطفة الابوة والامومة ؟ تلك العاطفة التي لم يحرم منها الحيوان الأعجم ، بله الانسان المكرم . ولكن النزعة المادية النفعية العارمة طغت حتى على تلك العاطفة الرقيقة الجميلة الاصيلة ، فجعلت الآباء والامهات يبيعون أبناءهم وبناتهم ، غير مكترثين .

وحسبي ان أسجل هنا بعض ما أحفظه في ملفات عندي مما أقرؤه في الصحف .

من ذلك ما نشرته صحيفة « أخبار اليوم » في كلمة لأحد رؤساء تحريرها[2] قال فيها : « قرأت هذا الاسبوع تقريراً اليما ، نشرته بعض الصحف البريطانية ، يقول باختصار : ان بريطانيا تنتشر فيها ظاهرة بيع الآباء والامهات لاطفالهم .. في سبيل شراء أشياء مختلفة : بيت صغير ، أو تليفزيون ، أو ثلاجة كهربائية . والذين باعوا أطفالهم بيعاً خلال سنة ١٩٥٩م في بريطانيا وصل عددهم الى ثلاثة الاف .

---

(١) ويشير اليها قوله تعالى : ﴿ ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ . (الروم : ٢١) .

(٢) أحمد بهاء الدين ، صحيفة أخبار اليوم في ١٩٥٩/١٢/٢٦م .

ويقول التقرير مفصلاً : ان الآباء والامهات الذين باعوا أولادهم كلهم أزواج شرعيون وليسوا من المطلقين والمطلقات أو الارامل .

وأغلب الحالات تبدأ في فترة الحمل ، أي قبل ولادة المولود .. وذلك عن طريق اتصالات خاصة ، يقوم بها الاباء والامهات بوساطة أصدقائهم أو أقاربهم ، حتى يعثروا على الاسرة التي ترغب في تبني طفلة أو طفل .

وقد اعترف القائمون على الجمعيات التي ترعى الاطفال غير الشرعيين بأن كثيراً من الآباء والامهات اتصلوا بهم ، وعرضوا عليهم أن يتركوا لهم اطفالهم المنتظرين ، كاطفال غير شرعيين ، بحيث يسهل تبني الآخرين لهم ، .. ولكن الجمعيات رفضت بالطبع ! أي أن الآباء والامهات في هذه الحالة تحملت نفوسهم أن يدرج أولادهم الشرعيون في كشف أولاد غير الشرعيين ! كما ظهر أن هناك حالات باع فيها الآباء والامهات أطفالهم حتــى بعد ولادتهم .. أطفال تتراوح أعمارهم بين شهر وعشرة أشهر .. فالأب والأم هنا يبيعان طفلاً ارتبطا به نفسياً ومعنوياً مدة عشرة شهور !!

ثلاثة آلاف طفل وطفلة تم بيعهم بهذا الأسلوب خلال سنة ١٩٥٩ في بلاد راقية غنية متقدمة هي بريطانيا !

وأسفر البحث الاجتماعي عن أن السبب هو « أن الآباء لا يستطيعون الانتقال الى شقة أوسع بنفس المستوى .. أو أنهم في حاجة الى شراء تليفزيون أو ثلاجة .. أو في حاجة الى امتلاك بيت صغير !! » .

أرأيت كيف هبط الانسان ؟ وكيف خبت جذوة العواطف الانسانية الرفيعة ؟ ان هذا التقرير الخطير يعلن أن الآباء والامهات لم يبيعوا فلذات أكبادهم طلباً لغداء يسد جوعتهم ، ولا لكساء يستر عورتهم ، ولا لضرورة من ضرورات الحياة ، بل باعوهم من أجل أشياء كمالية ، يعيش كثير من خلق الله بغيرها . من أجل ثلاجة أو جهاز تليفزيون. فما أغلى المبيع وما أرخص العوض !!

وفي المجتمع الغربي ظهرت مشكلة الاولاد المحرومين من عواطف الامومة والأبوة بسبب خروج الابوين معاً للعمل . وهو ما أطلق عليه بعض الكاتبين عنوان : « أطفال بلا أسر » !

وهناك ظاهرة ما يسمى بـ (البيوت المنهارة) وسببها الاختلاط الحر بين الجنسين، فتكثر حوادث الطلاق ، ويحرم اولاد هذه البيوت من التربية الوالدية والاشراف الفطري للأبوين ، فتهتز شخصياتهم منذ البداية ، ويصابون بأمراض نفسية ـ رغم تمتعهم بالصحة البدنية ـ فيشعرون بالملل ويميلون الى العنف ، ويهربون من المدرسة ... الخ ، وقد فشلت تدابير علماء النفس لعلاج هذه الظاهرة المرضية التي تتزايد يوماً بعد يوم .

وليس فقدان العواطف مقصوراً على الصغار ، بل الكبار يعانون الحرمان من عواطف الحب الصادق ، والصداقة الخالصة ، والعطف الذي لا تكلف فيه ، ولا مقابل له من أغراض الحياة .

ولعل هذا ما جعل الناس يقتنون الكلاب ليفرغوا فيها بعض عواطفهم من ناحية ، ويتمتعوا بصداقتها ووفائها من ناحية أخرى ! فهي لا تفارقهم عادة ، كما يفارقهم ابناؤهم واحفادهم، كما انها لا تغدر بهم ، كما يغدر بهم بعض أصحابهم وأصدقائهم، الذين احسنوا الظن بهم في يوم من الأيام !

وذكر تقرير فرنسي من عـدة سنوات ان في فرنسا سبعة ملايين مـن الكلاب في شعب عدده ٥٢ مليوناً . وتعيش هذه الكلاب مع اصحابها كأنها من أقاربهم ! ولم يعد غريباً في مطاعم باريس أن نشاهد الكلب وصاحبـه يتناولان الطعام علـى مائدة واحـدة !

سئل مسئول بجمعية رعاية الحيوان بباريس : لماذا يعامل الفرنسيون كلابهم مثلما يعاملون انفسهم ؟

أجاب : لانهم في حاجة الى أن يحبوا ، ولكنهم لا يجـدون بين الناس من يحبونه !!

حدثني بعض الاخوة الذين درسوا في الغرب ، وعايشوا أهله ، كيف يقضي الشيوخ من الرجال والعجائز من النساء حيـاة الشيخوخة ، انها حيـاة موحشة لامذاق لها ، قد يتوافر للمرء فيها الجانب المادي للمعيشة من جانب الدولة أو من مورد

الشخص نفسه ، أو من مساعدة اولاده ، ولكنها مقفرة من المعاني الانسانية ، فقد عودوا الابناء والبنات منذ البلوغ ان يمضي كل منهم لحال سبيله ، ولا علاقة للاسرة به ، كما لا علاقة له بالاسرة . فالفتى يبحث عن صديقة ، والفتاة تبحث عن صديق ، وهي صداقة متعة وجسد ، لا صداقة نفس وروح . ولهذا لا دوام لها ، ولا استقرار معها . انها في الواقع علاقة ذكر بانثى ، لا صداقة انسان لانسان !

وتمر الأيام والأسابيع والشهور ولا يكاد يرى الأب أو الأم ابنه أو ابنته ، لهذا احتاجوا الى يوم ـ يوم واحد ـ في العام ، يخصص للأم أو للأب ، وهو ما سموه (عيد الأم) أو (عيد الأب) . وقد أصبح مجرد صلة رسمية ، كل ما فيها زيارة تنتهي بهدية مادية ، وربما ارسلت الهدية بالبريد !

هذه التربية أدت الى تلك النهاية البائسة للأبوين في حالة الشيخوخة .

وقد ذكر لي بعض الأخوة أن عجوزاً في احدى المدن الامريكية كانت تعيش في بيت لها وحدها . ثم افتقدها الجيران بعض الأيام ، ولكن النزعة الفردية المادية لم تدفع احداً منهم الى السؤال عنها ، حتى انبعثت رائحة كريهة من داخل الشقة ، فقرعوا الباب، فلم يرد عليهم أحد ، فأبلغوا الشرطة ، الذين حضروا ودخلوا البيت بطريقتهم ، فوجدوا المرأة قد ماتت منذ أيام . ولم يعلم بأمرها أحد ، وربما كانت في حاجة الى اسعاف أو اغاثة ، فلم تجد حولها من يغيثها ، ولما بحثوا عن اسرتها وجدوا لها اولاداً وأحفاداً في مراكز مختلفة ، ولكن كل منهم مشغول بنفسه !

القلـــق النفسي :

ولا عجب ـ بعد أن يشيع في مجتمع ما جمود العواطف الانسانية ، وتفكك الروابط الاسرية وانحلال الأخلاق الأصيلة ـ أن يشكو الناس « القلق » ويسأموا الحياة ، ويضجروا من العيش ، ويسخطوا على الوجود كله ، وهذا ما نقرؤه ونسمعه كل يوم عن الناس في أوربا وأمريكا . وهذا ما ينقله الينا كل من رأى تلك البلاد ، سواء من عاش فيها طويلاً ، ومن زارها لماما . بل هذا ما يقوله القوم عن انفسهم في كتبهم وصحفهم ، وما يشكو منه مصلحوهم وذوو الفكر والرأي فيهم .

هذا مع أن القوم يملكون من وسائل النعيم ، وأدوات الترفيه مالم يكن يحلم به بشر من قبل . ماذا يقلق القوم اذن ؟ وماذا يسخطهم على انفسهم وعلى الحياة ؟ وعندهم كل ما يريدون ، وفوق ما يريدون ، من متاع الحياة الدنيا ؟

خذ أمريكا مثلاً : ان الفرد هناك يعيش في مستوى مادي رفيع يملك به من وسائل العيش ، ومظاهر النعمة والرفاهية ، وأدوات المتعة والتسلية ما يشبه أساطير الملوك الخالية. ولكن ما قيمة هذا والقوم يفتقدون السعادة ـ سعادة النفس ـ فلا يجدونها ؟ ما قيمة هذا وقد سماه كولن ولسون : « غطاء جميلا لحالة من التعاسة والشقاء » ؟

وسننقل بعد عن الاديب الامريكي جون شتاينبك قوله : [إن مشكلة أمريكا هي ثراؤها ، وأن لديها أشياء كثيرة ، ولكن ليس لديها رسالة روحية كافية . وقال : لو أنني أردت أن أدمر شعباً ، فانني أعطيه أكثر مما يريد ، فهذه الوفرة تجعله جشعاً تعيساً مريضا! ان شعبنا لا يمكن أن يعيش طويلاً على الأسس الحالية لحياته .

اننا في حاجة الى ضربة قوية تجعلنا نفيق من ثرائنا . لقد انتصرنا على الطبيعة ولكننا لم ننتصر على أنفسنا] !!

ويكفينا هذا الشاهد من أهلها !

الساخطون في هوليـود :

ثم ننقل هنا أيضاً ما سجله الصحفي المصري ، أنيس منصور(١) مما شاهده بعينه في « هوليود » مدينة الفن وكواكب السينما ، وتحت عنوان « الساخطون هنا » كتب من هناك ما يلي :

لأن كل شيء هنا واسع وطويل وعريض ومثير وواضح ، فالجيل الجديد يهرب الى الأماكن الضيقة المظلمة المزدحمة القذرة .

---

(١) من مقالة له في صحيفة أخبار اليوم ، القاهرة في ١٩٦٠/١/٥م .

ولأن كل شيء في الدنيا يخضع لنظام أو لهيئة أو لمؤسسة أو لثقافة ، وأن الفرد لا وجود له الا باعتباره عضواً في هيئة ، فان الشبان يهربون من النظام ومن القيود والتقاليد الى اماكن لا نظام فيها ولا ترتيب ولا أرقام ولا درجات ولا طوابير .

ولأن كل عمل يقوم به الشباب في هذا المجتمع يقتضي منه الانتباه والوعي وإلاّ ضاع وراحت عليه كل فرص الحياة .

ولأن الحياة تحتاج الى كفاح شديد ، وليست سهلة ولا هينة كما نتصور ؟

ولأن كل شيء هنا في امريكا بالفلوس .. كل شيء .. وفي استطاعتك أن تتخيل أي شيء ، أي مبدأ ، أي دين ، أي فلسفة ، أي عمل تجاري ، أي عمل أخلاقي ، كل شيء في أمريكا تجارة في تجارة ، فالجيل الجديد من الشبان يذهب الى اماكن سرية ويظل جالساً في استسلام لا يفكر ولا يقول شيئا ، وانما (يركن) عقله كأنه سيارة قطعت طريقاً طويلاً ، وموتورها يكاد يحترق ... يركن السيارة ويترك أبوابها ونوافذها وأغطيتها كلها مكشوفة ويجلس في استسلام وسلبية تامة ..

ولأن الصحف والاذاعة والتلفزيون والسينما تضغط على عقل الأمريكي الشاب، ولأنها كلها مؤسسات تجارية تزيد الجوع ، ولأن هذه المؤسسات تخدم أناساً لهم مصالح في الحروب وفي تجارة السلام .

ولأن بعض هؤلاء الأناس يغامرون بسلامة امريكا من أجل مصالحهم الخاصة .

ولأن هؤلاء الساسة قد ورطوا أمريكا والشعب الأمريكي في مواقف ضد مصالحه، فهؤلاء الشبان يهربون من الكلام في السياسة والاستماع الى السياسة والى الاعلانات والى القصص والافلام التي تقدمها شركات البطاطس وشركات البيض وأمواس الحلاقة ... يهرب من هذا ويجلس في صمت دون تفكير ودون قراءة ودون كتابة ويستسلم الى الجلوس في الظل ، الى الجلوس على الرف .

لقد رأيت عدداً من الشبان كالورد بلا شوك في اللون والشباب والذكاء ... كل هؤلاء جالسون يستمعون الى موسيقى عادية نادية من أصابع الزنوج ، وهؤلاء الشبان يشربون الشاي أو القهوة ويدخنون ولا يقولون شيئا .

وحاولت أن أسأل واحداً منهم ، ان كانوا يترددون هنا كل يوم ، وهز رأسه يقول: نعم وسألته : ان كانوا يفضلون الجلوس هكذا في صمت ... وعلمت منه ومن غيره ان هذا هو المكان الوحيد الذي لا يقول فيه انسان أي شيء ، فالكلام في أمريكا كثير ، ومكتوب بالنور وبالحبر وبالحديد وبالخشب ، ومكتوب بهذه الاجسام الشابة المستسلمة .. وكل يوم أقرأ في الصحف عن ارتفاع نسبة الجرائم بين الشبان .. في المدن الامريكية الكبرى ، جرائم السطو والاعتداء .. وكل يوم نسمع علماء النفس وعلماء التربية يصرخون بأعلى أصواتهم : ان الجيل الجديد في خطر ، وانه لا بد من تغيير أساليب التدريس .. الحياة المنزلية المعدومة ، الحياة الاجتماعية المفككة ، المجتمع الصناعي التجاري الساحق الذي أصبح يعبد الهيئة ، ويعبد المنظمة، ويعبد النقابة ، ويعبد الوقوف بين العلامات البيضاء على الأرض وعلى السقف ، وفي البيت ، وفي المكتب ، وفي المصنع ، وفي المعبد ..

الناس في أمريكا يعبدون النظام . لا للفائدة التي يحققها النظام ، ولكن لمجرد طاعة النظام ، طاعة الهيئة والمؤسسة ، **ولأن حياة الفرد في المجتمع الصناعي لا معنى لها وحدها**، وانما معناها بالجملة مع الآخرين ..

وثورة الشبان هي ثورة على قيود هذه الهيئات ، وتكون النتيجة دائماً أن يموت الفرد والفردية ، وتبقى الهيئة ، والمجرم الشاب الذي يقتل .. انه في الواقع أخطأ الطريق الى جريمته ، فانه بدلاً من أن يقتل كل المجتمع قتل الحروف الأولى منه ، قتل أحد افراده !!

والاحساس بالضياع هو أوضح شعور عند الشبان في أمريكا .. ضائعون تائهون لا يبالون بأي شيء .. انهم يريدون أن يعيشوا في سلام مع أنفسهم ومع غيرهم .. ولكن أعصاب الناس في أمريكا لا شك متعبة ، ولا شك أن الصحف والاذاعة والتليفزيون والسينما تحطمها نهائياً ، لتظهر أدوية وعقاقير وحبوب وسوائل وفيتامينات تصلح هذا الجسم المتعب والعقل المجهد ..

ويظل الشاب الأمريكي حائراً بين السينما والصحافة والصيدلية حتى يموت وهو يعمل ، وفي النهاية تقبض زوجته بوليصة التأمين على حياته وتنفقها على اولادها أو على زوجها الجديد ..

انني أعذر الشبان ولا أرى غرابة في الاتجاهات الصارخة من الادب الامريكي الشاب بزعامة « جاك كيرواك » وهو الذي أطلق على هذا الجيل الجديد اسم « الجيل الصارخ » وهو جيل عنده شعور بالفشل وخيبة الأمل والضياع ، وهو جيل أعجز من أن يقوم بأي اصلاح .

انه جيل قد اسند ظهره للحائط الذي يملكه التجار والسماسرة في كل أمريكا ..

انه جيل ساخط اليوم وحاقد غداً .. وصوته أضعف من أن يسمعه أحد .. ولذلك فكل افراد هذا الجيل يتجمعون في الظلام ، ويصوتون بعضهم على بعض .. فيحطمون بعضهم البعض ، دون ان تتناثر شظاياهم الى عيون الآخرين من الراضين اليوم والساخطين غداً .

حركات التمرد على الحضارة المادية

لقد كان نتيجة هذا القلق والسخط والتفاهة وفقدان الهدف الذي يعانيه الناس في الغرب ، ظهور تلك الاصناف التي نقرأ ونسمع عنها هناك من « الخنافس » و « الهيبيز» وما شابه ذلك مما تمخضت عنه حضارة المادية والآلة .

انهم يمثلون التمرد على الحضارة الغربية المادية الاستهلاكية ، التي لم تشبع جوعهم الروحي ، ولم تملأ فراغهم العقدي ، ولم تجب عن اسئلتهم الحائرة ولم يعرفوا معها للحياة هدفاً ومعنى ، ولذلك غاصوا في الاوحال بين المسكرات والمخدرات حتى غابوا عن انفسهم ، وما حولهم ، ثم طفقوا يبحثون عن شيء آخر غير مادي ، فتعلقوا بما سمي (تحضير الارواح) ويبدو أن هلوسة المخدرات جعلتهم يتخيلون انها حضرت فعلاً، وانهم رأوها عيانا !

وقد كتبت مجلة (الحوادث) اللبنانية[1] عن هذه الظاهرة منذ سنوات بقلم الأديبة غادة السمان التي كتبت من لندن تقول : « بدأت الحركة الهيبية بشكل حركة عصيان شابة انفجرت منذ سبعة أعوام .. حركة تطالب برد الاعتبار للفرد بعد ان سحقته الآلية ، والبيروقراطية ، والطبقية ، وسيطرة المؤسسات القديمة المتعفنة ، ووحشية الحياة الصناعية المعاصرة ، هذه كلها حولت الانسان الى مجرد (رقم) ، ورمت به بين انياب المدينة الكبيرة التي لا ترحم ، حيث قانون الغاب يسود في غاب معاصر جديد : غاب من الأبنية والحجارة والآلات والأطر المهيأة سلفاً لكل فرد . (هذا الرفض عبر عنه ايضاً كبار الادباء المعاصرين امثال فولكنر و ت.س. اليوت وشتاينبك وكافكا وغيرهم ، ولكنهم عبروا عنه بصورة مبدعة خالدة) .

اذن ثار الهيبز في محاولة لايقاف هستيريا التقدم العلمي على حساب الانسان ، والتذكير بان الانسان ما يزال انسانا وان اعصابه عاجزة عن احتمال هذه الضغوط الرهيبة التي يدفعها ثمناً لهستيريا العلم .. هستيريا التسلح .. هستيريا الذرة .. هستيريا الرحيل الى القمر .. ثار الهيبز في محاولة لتذكير العالم المجنون اللامبالي بالفرد ، بأن المدنية والعلم وجدا لخدمة الانسان ، وليس العكس .. وبان الحروب (الجشعية) يجب ان تتوقف .. وبأن الحضارة الحقيقية هي في اكتشاف مجاهل اعماق الانسان ومبعث الأمة ومداواتها ، قبل اكتشاف اعماق البحار أو مجاهل القمر ..

من هنا انطلقت حركة الهيبز في الغرب : من دوافع انسانية رائعة .. ولكنهم كانوا ـ للأسف ـ اسوأ محامين لأعدل قضية .

منذ البداية لم يكن هنالك أي تطابق بين سلوكهم الذاتي وبين المبادىء التي يدعون اليها ..

نادوا بالردة الـــى الطبيعـــة الام ، لكنهم لوثوا الطبيعـــة حين جعلوا منها ديكوراً لمسرحياتهم الانقلابية الهستيرية (جنس . حشيش . وحتى جريمة !) . ونادوا بالتحرر من قذارة المداهنات الاجتماعية ، لكنهم رفعوا راية العداء ضد الماء والصابون ! نادوا برفض (الصالونية) التقليدية في المظاهر ، لكنهم في رفضهم تبنوا بديلاً تقليدياً آخر : هو الشارعية التقليدية بدلاً من الصالونية .

---

(١) في عددها الصادر يوم ١٧/٦/١٩٧١م .

نادوا بالحب ، لكنهم ناصبوا العالم العداء .. بل ناصبوا انفسهم العداء ، اذ انحدروا بالذات الانسانية ـ التي ادعوا تكريمها ـ الى أحط درجات البهيمية ..

ورغم ذلك كله امتدت امبراطوريتهم لتغطي وجه اكثر من قارة .. ولتنتقل عدوى الوباء إلى اكثر من مكان ... ومرت الأيام ...

ولكن حركة الرفض العادلة هذه لم تتبلور ضمن اطار فلسفي واضح المعالم ، وانما ازدادت انحرافاً عن منطلقاتها .

لم يكن للهيبز خط تحرك واضح .. ولا هدف واضح .. وسقطوا في الهوة القائمة بين فكرهم وسلوكهم .. تلك الهوة التي تفصل عـادة بين الثوار والمهرجين .. وصارت كلمـة « هيبي » تذكر فوراً بسلوك لا مسؤول ، لا واع ، مائع ومهزوز كزئبق بلا وعاء ...

رفضهم لسقوط العالم في هوى الآلية كان عادلاً ، لكنه كان رفضاً سقط بدوره في هوة الرخص ، وافترسه الحشيش والتخدير والانحلال الخلقي والاستخفاف بالمبادىء الانسانية الاساسية . وهكذا كانوا « صرعة » بدلاً من « ثورة » .. يقتاتون كل عام بصرعة جديدة ....

صحيح انهم قطعوا علاقتهم مع العالم القائم (التقليدي البشع) ولكنهم أيضاً فشلوا في خلق بديل جديد له .. ووجدوا انفسهم يهرولون في طريق مسدودة بدأت تصبح رتيبة بل وحتى تقليدية .. وهذا العام حمل الينا تيارين هيبيين اساسيين حاولا تجديد السلوك الهيبي :

(١) الجريمة .

(٢) تحضير الأرواح .

تيار الجريمة هو المحاولة لتخطي الطريق المسدود لامبراطورية الهيبيين عبر العنف . ويمثل هذا التيار تشارلز مانسون بطل مجزرة (شارون تيت والمجموعة) فقد احس الهيبيون بأنهم صاروا مثل روبنسن كروزو المعزول في جزيرته .. صاروا معزولين في جزيرة رفضهم للعالم الخارجي ، ولكنه رفض سلبي لم يبدل في الأمور شيئا ، بل على العكس ، كان على كل هيبي يبلغ الثلاثين (دون ان ينتحر أو توصله المخدرات الى أحد المصحات) ان يعود للاندماج في المجتمع ، عبر البحث عن عمل والزواج والاستقرار ،

والاستعداد لكهولته ضمن الاطارات التقليدية القائمة ، التي لم يستطيعوا ايام (هيبّيتهم) اختراع مؤسسات بديلة لها .. مؤسسة (الجنس الجماعي) فشلت في ان تكون بديلاً عن مؤسسة الزواج مثلاً .. وهكذا فان روبنسن كروزو خرج من جزيرته ، وقرر ان يكون (قرصاناً) ليدمر (بالعنف) ما فشل في تدميره (بالحب) ...

اما المخرج الثاني للهيبيز من طريقهم المسدود فكان عبر تحضير الارواح ! .. فهم بعد ان هجروا العالم الخارجي وهجرهم ، قرروا ان يتعاملوا مع نوع واحد آخر من البشر.. بالضبط : مع الارواح ! .. لقد عجزوا عن التعايش مع (قذارة) المجتمع حولهم، فقرروا التعايش مع مجتمع بشري آخر هو مجتمع الارواح .. وهكذا فان روبنسن كروزو لن يقبع وحيداً في جزيرته . ولن يصير قرصاناً يواجه العالم الخارجي بالعنف ، لكنه بكل بساطة (سيخلق) لنفسه مجتمعاً جديداً يستحضره .. هو مجتمع الارواح الذي لم تعد حقارات المؤسسات والمصالح تدنسه ! ... ربما كان في هذا تفسير لانتشار تحضير الارواح المفاجئ في الاجواء الهيبّية .. وربما كان هناك تفسير آخر ، وهو ببساطة ان الهيبز الذين سلموا بممارسة حياتهم الرتيبة (جنس . مخدرات . ازياء عجيبة غريبة . رقص مجنون. مهرجانات جماعية مثل وودستوك في امريكا وسولزبيري في بريطانيا). وهذه كلها صارت تقليدية بعد انقضاء اعوام طويلة على تكرارها ، وجدوا في تطعيم هذه الحياة بحكاية الارواح نكهة جديدة مثيرة للخيال ، تستطيع ان تحميهم من السأم والتكرار فترة لا بأس بها ريثما يجدون صرعة جديدة يطلعون بها .. (ويؤكد ذلك ان تحضير الارواح على الطريقة الهيبية هو خطة تعرية وحشيش وجنس . انهم يعاملون الارواح كأنها زبائن في كاباريه) .

ولكن ترى هل تكون هذه الصرعة هي اخر صرعات الهيبيين ؟ كل الدلائل تشير الى سقوط امبراطورية الهيبيين نهائياً .. لقد قطعوا اخر خيط كان يمكن أن يربطهم بالحياة اليومية ومصير الفرد العادي والانسانية .. لقد رموا عن اكتافهم ـ نهائياً ـ المسؤولية التي تحتمها عليهم مبادئهم (التي ادعوها) ورحلوا عن ذلك كله لينتهي بعضهم على الكرسي الكهربائي ، وبعضهم الآخر وسيطاً مزيفاً لتحضير ارواح مزيفة ....

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاضطراب العقلــي :

ولم تقف أزمة الحضارة الغربية عند هذه الآثار المروعة من التحلل الخلقي والتفسخ الأسري ، والقلق المرضي ، والخوف الجماعي ، بل زادت على ذلك بما نقرؤه باستمرار عن الاعداد المتزايدة للمصابين بالأمراض العقلية والعصبية .

فهذا العلم الذي وثب وثبات هائلة في تسخير المادة عجز عن اصلاح الانسان ، بل زاده خبالا وفسادا ، حتى عجت المستشفيات المتخصصة بهذا النوع من المرضى .

وحسبنا أن نسجل هذه الفقرة من كتاب البروفسور الكسيس كاريل (الانسان ذلك المجهول) عن هذا الموضوع ، وهو شاهد من داخل البيت ، وان كانت الاحصاءات التي ذكرها اصبحت الآن قديمة ، وقد تضاعفت الأرقام ، ولكنها تعطي صورة واضحة وكافية ، يقول كاريل :

« .... ومن العجيب أن الأمراض العقلية أكثر عدداً من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة . ولهذا فان مستشفيات المجاذيب تعج بنزلائها ، وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم ، ويقول س. و. بيرس : ان شخصاً من كل ٢٢ شخصاً من سكان نيويورك يجب ادخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين حين وحين » .

وفي الولايات المتحدة تبدي المستشفيات عنايتها لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال عدد المصدورين . ففي كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية وما يماثلها من المؤسسات ، حوالي ستة وثمانين ألف حالة جديدة . فاذا استمر عدد المجانين في السير على هذا المعدل ، فان نحو مليون من الأطفال والشبان الذين يذهبون الآن الى المدارس والكليات سوف يدخلون الى المصحات إن عاجلاً أو آجلاً !

ففي عام ١٩٢٢ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية ٣٤٠٫٠٠٠ مجنون ، كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين المحجوزين في المصحات الخاصة ٨١٫٨٥٠ ، وكان عدد مطلقي السراح بشرط كلمة الشرف من ضعاف العقول ١٠٫٩٣٠ . ولا تشمل هـــذه الاحصاءات الحالات العقلية التي تعالج في المستشفيات

الخاصة . وعلاوة على المجانين يوجد في البلاد كلها .. ٥٠٠٫٠٠٠ شخص من ضعاف العقول ، ولقد كشف الفحص الذي تولته اللجنة الوطنية للصحة العقلية بعناية ، عن أن ٤٠٠٫٠٠٠ طفل بأقل تقدير على مستوى منخفض من الذكاء . الى درجة أنهم لا يستطيعون الاستمرار في المدارس العامة ، والافادة مما يتلقون من علم . وحقيقة الامر أن عدد الأفراد الذين انحطوا عقلياً أكثر من ذلك بكثير . ويقدر أن عدة مئات من الالاف ممن لم تشملهم الاحصاءات الرسمية مصابون باضطرابات نفسية . وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد شعور الرجل المتحضر للعطب . وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشاكل التي يواجهها المجتمع العصري . فان أمراض العقل خطر داهم . انها أكثر خطورة من السل والسرطان وامراض القلب والكلى ، بل التيفوس والطاعون والكوليرا . فيجب أن يحسب للأمراض العقلية حسابها ، لا لأنها تزيد عدد المجرمين فحسب ، بل لأنها ستضعف حتماً التفوق الذي تتمتع به الأجناس البيضاء[١] . على أنه يجب أن يكون مفهوماً أنه لا يوجد ضعاف عقول ومجانين بين المجرمين بالكثرة التي يوجدون بها بين افراد الشعب . !!

صحيح أن عدداً كبيراً ممن يعانون من النقائص العقلية موجود في السجون ، بيد أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن أكثر المجانين واسعي الثقافة ، ما زالوا مطلقي السراح !

ولا شك في أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطر الذي تعاني منه المدنية العصرية ، وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقاً الى تحسين صحتنا العقلية »[٢] .

الخوف الجماعـــــي :

ماذا يتوقع بعد هذا في مجتمع تسيطر عليه المادية والأنانية ، حتى غلب عليه التحلل الخلقي ، والتفسخ العائلي ، والقلق النفسي ، والاضطراب العقلي ؟

---

(١) نعجب لمثل هذا العالم الكبير أن يظل على هذا الاعتقاد اللاعلمي بتفوق الجنس الأبيض ! وهذا دليل على انه لا زال سجين الفكر الغربي والحضارة الغربية برغم نقده لها كما قال الشهيد سيد قطب بحق .

(٢) الدكتور كاريل ، الانسان ذلك المجهول ، ترجمة عادل شفيق : ١٢٣ ـ ١٢٤ .

انه لا بد من أن تسوده الجريمة . وسيادة الجريمة معناها الخوف . والخوف شر ما يبتلى به الانسان في الحياة ، وشر ما يعاقب القدر به الجماعات اذا انحرفت عن الجادة وكفرت بأنعم الله ، كالقرية التي حدث عنها القرآن وضربها مثلاً للآخرين ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾[1] .

وأبرز مثل لذلك هو أمريكا ، أولى دول العالم في الثراء والقوة المادية والعسكرية والتقدم التكنولوجي .

وحسبي أن أنقل الفقرات التالية التي تتكلم فيها الوقائع والأرقام وحدها معبرة عما يجري هناك ، وهي أرقام صادرة من داخل أمريكا نفسها ، ومن الجهات المسئولة فيها . وهو أمر بيّن يلمسه كل من زار هذه البلاد ، فكيف بمن يعيش فيها ؟

على الخوف تعيش أمريكا :

وهذه الفقرات من مقال توثيقي لمجلة (العربي) الكويتية تحت عنوان : على الخوف تعيش أمريكا !

[الجريمة تجتاح أمريكا . الجريمة بكل أنواعها في كل مكان . في المدن ، في الريف في الضواحي الهادئة ، في عدد كبير من الولايات الأمريكية في الشمال والجنوب.. في الشرق والغرب ، جرائم من كل نوع .. قتل ونهب ، سطو واعتداء ، سرقات بالاكراه واغتصاب تحت تهديد السلاح .. ومع الخطر المتزايد الذي يهدد حياة الناس في أكبر وأغنى دولة في العالم انطلقت موجة من الانذار في المدن وضواحيها .. أطلقتها أجهزة الأمن التي تقع عليها مسؤولية حماية أرواح الناس وممتلكاتهم بعد الزيادة المخيفة في معدلات الجريمة طبقاً لاحصائيات مكتب التحقيقات الجنائية .

فقد تعدت الجريمة في أكثر من خمس وعشرين مدينة أمريكية كل الأرقام التي سجلت على مدى السنوات العشر الأخيرة] .

هكذا تقول الصحف الأمريكية وهي تنقل لنا آخر ما سجلته الاحصائيات .

(١) النحل : ١١٢ .

تقرأ مجلة (تايم) الأسبوعية مثلاً فتجد أن هناك جريمة قتل ترتكب كل ٢٤ دقيقة في مكان ما بالولايات المتحدة ، وفي كل عشر ثوان يتعرض بيت للسطو ، وكل سبع دقائق تغتصب امرأة .. احصائيات أخيرة عن بعض ما وصلت اليه الجريمة في الشهور الأولى من هذا العام .

ثم تنقل لنا مجلة (يو ايس نيوز آند وورلد ريبورت) أرقاماً أخرى أكثر دقة وتفصيلا لانها مستقاة من مكتب التحقيقات الجنائية خلال عام ١٩٧٩ تقول : ان جريمة خطيرة ترتكب كل ثانيتين ونصف ، وحادث سرقة كل ثلاث ثوان ، وسطو كل عشر ثوان ، وجريمة عنف كل ٢٧ ثانية ، وسرقة سيارة كل ٢٩ ثانية ، واعتداء على أشخاص لأي سبب أو بلا سبب كل ٥١ ثانيـة ، واغتصاب كل سبع دقائق ، وجريمـــة قتل كل ٢٤ دقيقة .

وفي تحذير وزير العدل الامريكي وارن بيرجر ، نرى الصورة المخيفة التي يعيشها الأمريكيون . فقد قال في شهر فبراير من عام (١٩٨١م) وفي أعقاب قيام رئاسة جديدة وحكومة جديدة في أمريكا : « ان هناك حكماً من الارهاب يسود المدن الأمريكية » ثم يتساءل « ألسنا رهائن داخل حدود بلادنا المستنيرة المتحضرة ؟!

ويقول مدير شركة مدينة هوستون بولاية تكساس الأمريكية : « الخوف من الجريمة يهدد تدريجياً بشلل الحياة في المجتمع الأمريكي .. لقد سمحنا لأنفسنا بالتحلل والتفسخ الى الحد الذي أصبحنا فيه نعيش مثلما تعيش الحيوانات .. فنحن نعيش وراء قضبان حديدية تحمينا من وصول اللصوص الينا ، ومجموعة من الأقفال المثبتة في الأبواب وأجهزة الانذار ، ثم نرقد على الفراش وبجوارنا مسدس محشو بالرصاص ، وبعد هذا نحاول أن نحصل على شيء من الراحة .. يا للسخرية !

ورئيس شرطة هوستون يعرف عن أي شيء يتحدث ، لأنه هو نفسه يحتفظ بعدة مسدسات محشوة بالرصاص في غرفة نومه !

لقد أصبح الامريكيون يتصورون أن هذه الجرائم التي أصبحت بلادهم مسرحاً لها لا تقع الا في أمريكا . إنها جرائم موجهة ضد كل واحد منهم .. لقد أصبح المواطنون كلهم وبلا استثناء معرضين لها . لهذا وقف الامريكيون جميعاً صفاً واحداً لمقاومتها .. انهم في حرب ضد هذا العدو المجهول .. ولكن كيف يحاربون ؟ ومن هو العدو ؟!

ويجيب رجال الأمن على الشق الأول : « اذا كنت تسير وحدك في ساعة متأخرة بالليل ، وفجأة ظهر لك شبح وسط الظلام ، وأحسست بآلة حادة تلتصق بضلوعك من الخلف ، وصوت يأمرك بأن تعطيه حافظة نقودك ، فافعل دون تردد .. لا تقاوم ، أعطه كل شيء ، مالك وساعتك وأية مجوهرات أخرى تكون في حوزتك ، هذه هي نصيحة البوليس لك اذا كنت لا تريد أن تموت ، حتى لو كنت تحمل مسدساً ، لا تحاول أن تستخدمه ، لانك لو حاولت وتحركت أصابعك الى جيبك ، فسوف تكون حياتك قد انتهت ، وحتى لو كنت تجيد الجودو أو الكاراتية ، أنت ميت ميت ، فلا تقاوم .. فالرصاصة أسرع من أي حركة تقدم عليها ، لا تحاول مفاوضة من يهاجمك للاحتفاظ ببعض ما تحمل ، فكلما أحس بأنك تعرقل مهمته ، ازداد عنفاً ، لا تصرخ .. لا تقم بأي حركة مفاجئة ، وأنت تمد يدك الى جيبك لتخرج منه ما تريد أن يأخذه ، قل له انك تنوي أن تفعل ما يريد أن تفعله قبل أن تحرك ساكنا ، ولا تنس دائماً أن تخرج من بيتك وفي جيبك بعض المال ، لأن بعض هؤلاء المهاجمين سوف يتملكهم الغضب نتيجة خيبة الأمل التي أصابتهم وهم يخرجون بلا شيء من هذه المغامرة، وربما قتلوك على أية حال »!

وفي دراسة جديدة تحت عنوان « تقرير فيجي » عن أثر الجريمة على الحالة النفسية للأمريكيين أجريت على أكثر من ألف شخص من جميع أنحاء الولايات المتحدة .. خرج الدارسون بنتيجة هامة ، وضعوها في هذه الصورة الجديدة « الأمة خائفة » ! وهذه بعض ملامح الصورة :

* أربعة من كل عشرة مواطنين يشعرون أنهم معرضون للقتل والاعتداء والسرقة والاغتصاب وهو شعور دائم يلازمهم في حياتهم اليومية .

* الخوف من الجريمة ينتاب كل طبقات المجتمع في كل مكان بغض النظر عن أية حدود جغرافية ، ٥٢٪ في المدن الكبيرة يعيشون في خوف دائم وتهبط هذه النسبة الى ٤١٪ في المدن الصغيرة والى ٣١٪ في الضواحي الصغيرة والمناطق الريفية .

* ٥٢٪ من مجموع عدد الذين استجوبوا خلال هذه الدراسة يمتلكون أسلحة للدفاع بها عن أنفسهم .

* تسعة من بين كل عشرة مواطنين يغلقون أبواب منازلهم بالسدادة والمفتاح ، ويتعرفون على كل زائر قبل أن يفتحوا له الباب ويسمحوا له بالدخول .

* وسبعة من بين كل عشرة يغلقون أبواب السيارات من الداخل أثناء قيادتهم لها ، وستة من بين كل عشرة يتصلون تليفونياً بأصدقائهم أو أقاربهم الذين كانوا في زيارتهم ليطمئنوهم على وصولهم الى بيوتهم سالمين .

* أكثر من نصف الذين أجريت عليهم هذه الدراسة يحرص دائماً على الخروج بملابس عادية بسيطة لا تلفت إليه انظار المجرمين .

* ٦٣٪ يؤيدون منح البوليس سلطة أكبر تسمح لهم باستجواب المشتبه فيهم ، ولكن ثقة السود الأمريكيين في الشرطة أقل بكثير من ثقة المواطنين البيض .

* أكثر من النصف لا يمانعون في فرض مزيد من الضرائب ، بشرط أن تذهب هذه الأموال لدعم حماية الشرطة لهم .

* الغالبية العظمى تنادي بفرض عقوبات رادعة والسجن مدداً طويلة للذين يرتكبون جريمة من جرائم العنف ، بينما طالب اثنان من كل ثلاثة بالحكم بالاعدام ، ويقول التقرير في النهاية : « ان أمريكا تعيش اليوم في قبضة خوف جديد .... تزداد ضغطاً مع الوقت ... الخوف من أن تقع ضحية لجريمة .. الخوف من الاصابات الجسمانية .. الخوف من ضياع ما يملكون ... ان الأمريكيين اليوم يعيشون في خوف من بعضهم بعضا ! » .

الجريمــــة لمــاذا ؟

يقول بعض الاخصائيين في علم الجريمة : ان هذا الشعور الذي أصبح يسيطر على الأمريكيين ليس ظاهرة ، وانما هو نتيجة حتمية لاسلوب الحياة في هذا البلد الحضاري الكبير ، فالأسرة مفككة ... والأبناء ينسخلون عنها في سن مبكرة قبل أن يبلغوا العشرين في أغلب الحالات .... وهي فترة خطرة حرجة في سن الشباب الذي يجد نفسه فجأة قد أصبح حراً بعيداً عن نفوذ الوالدين ... وفي هذه الحرية المبكرة يضل الشباب الطريق أو تنحرف نسبة كبيرة منه .

والانسلاخ عن الاسرة يعني بالتالي الخروج على المجتمع الذي يعيش فيه . والنتيجة شعور بالضياع والوحدة ... والانسان في وحدته يتحول الى حيوان أو يتحول الى عبقري ... فهو في الحالتين يريد أن يثبت وجوده . محاربة الانحراف اذن لا بد أن تبدأ في المجتمع الصغير الذي ينشأ فيه ، ثم المجتمع الكبير الذي سيخرج اليه ويواجه العالم .. وإذا ما استطاع الامريكيون الابقاء على الصلة القوية التي تربط افراد الاسرة الواحدة ، نجحوا في القضاء على الجريمة التي زلزلت ضمير أمة تعيش في قمة الحضارة والتقدم .

الحضارة والأخـــلاق

الأستاذ عبدالوهاب بن منصور*

القرن

العشرين ، تقدماً حضارياً كبيراً شمل جميع مرافق الحياة ، ورقياً فكرياً مذهلاً استطاع به الإنسان أن يسبُر أعماق البحار ، ويضع قدمه على جبين الأقمار ، وتغيرت ، تبعاً لذلك، أوضاع المجتمعات ونظمُ الحياة ، بعضها بحكم القوانين التي شُرعت لتجعلها ملائمة للتطورات الحضارية الجديدة ، وبعضُها بتأثير المُخترعات والاكتشافات التي ظهرت ، واستلزمت من الإنسان أن يتكيف معها ، ويتخذ من الترتيبات ما يُناسبها ، بما في ذلك مسكنُه ومأكلُه وملبسُه وتربية أبنائه وعلاقتُه بأهله وسلوكُه إزاء محيطه ، وحتى حيالَ المجتمعات البعيدة عنه ، مما يجعل أسلوب معيشتِه يختلفُ كثيراً عن أسلوب معيشة اباته الأولين .

وليس من شكٍ في أن الإنسانية استفادت كثيراً من الخُطوات الإيجابية التي تحققت في الميدان الحضاري ، وهي خطواتٌ عملاقة ، وأن كثيراً من العقبات ذُللت أمام مسيرها فأصبحت الحياةُ أكثرَ يُسراً ومتعُها متوافرة والرغبةُ في البقاء تزداد ، ومن نافلة القول ، بل من لغو الحديث ، في محفل محترم كهذا الذي تضمنا رحابُه اليوم ، أن يشير الإنسان إلى الفوارق بين راكبي الدواب في الأسفار قديماً وبين راكبي الطائرات التي تسبقُ الصوت حديثاً ، أو بين المستشفي بالكي والحجامة وتعليق الرقي والتمائم وبين المعالج بأشعة الليزر وزرع الأعضاء وبالونات الأوكسجين ، أو بين المُستصبح بفتيل القنديلِ وبين المستضيء بالنور المتولد من الكهرباء أو المُقتبَس من طاقة الشمس ، إنها قدراتُ العقلِ البشري ومكاسبُه ، وفتوحاتُ العلمِ المتوالية المتلاحقة التي تؤكدُ ما خصَّ الله به الجنسَ البشري من تفضيل وتكريم ، وسخرَّ له من الكائنات ناطقها والساكت ، متحركها ، والجامد : **﴿ ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البرِ والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضَّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾**[1] .

---

* العضو العامل في المجمع الملكي / مؤرخ المملكة المغربية / الرباط ـ المغرب .

(١) الاسراء : ٧٠ .

إن الحضارة المعاصرة - وإن كانت ذات طابع متميز يكادُ يجعلُها منقطعة الجذور - ليست إلا امتداداً لحضارات سبقتها ، استقت من روافدها وعالجتها بمُخصِبات لم تُعرف من قبلُ حتى أينعت وأثمرت وأصبحت سامقة الفروع وريفة الظلال ، إذ ما زال الخَلَفُ يستمدُّ من السلَف معارفه ويحسِنُها بالصقل والتصحيح ، وما فتيء الآخِرُ يستفيدُ من تجارب الأول ويضيفُ إليها ما استجدَّ من التجارب وأفاد من المُمارسات ، وليس أحدٌ بقادر على أن ينكر ما بلغتْه أممٌ قديمة من معارف وتجارب كانت هي حجر الأساس للمعارف العصرية والتجارب الآنية ، كقدماء المصريين واليونان والرومان والفرس والصينيين ، وعندما يقرأُ المرءُ كتب التاريخ وهي تصفُ مظاهرَ الحياة الراقية التي عاشتها بعضُ الشعوب منذ آلاف السنين ، أو يقف في المتاحف أمام الآثار العجيبة والصناعات الدقيقة الراجعة إلى عصور قديمة سحيقة يدركه العجبُ مما اهتدى إليه الأقدمون من أسرار الطبيعة واكتشفوا من خفايا الكون ونواميسه ، ويقولُ إن المتأخرين ليسوا إلا تلامذةً للمتقدمين ، ولكن الحضاراتِ تُصاب ككل الكائنات بالقبض بعد البسط ، وبالضعف بعد القوة ، والهرم بعد الشباب ، ويخلفُ بعضُها بعضا ، فيتركُ الهَرِمُ المُعمَّرُ منها مكانه للناشيء الفتي ، والحضارةُ الإسلاميةُ هي واحدة من الحضارات السالفة التي استفادت منها الحضارةُ الحديثةُ واستمدت ، لقد كانت تلك الحضارةُ مِلءَ الأسماع والأبصار طيلةَ قرون ، في مملكة الإسلام الفسيحة الممتدة من أرض الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، وبفضلها حُفظت علومُ الأقدمين وتجاربُهم وأضيفت إليها معارفُ المسلمين وتجاربُهم قبلَ أن تُنقلَ إلى البلاد الغربية لتصير المنطلق الذي خطت منه الحضارةُ الحديثةُ خُطواتِها المُتواصلة ، ويرجعُ الفضلُ في شموخ بنيان الحضارة الإسلامية إلى الدين الإسلامي نفسه الذي فكَّ العقل من عِقال الجمُود ، وأمرَ معتنقيه بالتفقه والتعلم ، وحثهم على السير في الأرض والتأمُل في ملكوتها وملكوت السماوات ، وأهاب بهم النظر فيما حولهم وفوقهم وتحتهم ليُدركوا نواميس الكون وسُنن الله في الخلق ، وفضَّل العالم على العابد ، ورفع الذين أوتوا العلم درجاتٍ على الذين لم يُؤتوه ، وحضَّ على التماس المعرفة ولو تناءت مواطنُ التماسِها وأمكنةُ طلبِها ، فبفضل سماحة الإسلام وتعاليمه التقدمية تمكنَ المسلمون لا من بسطِ حكمِهم على أوسع مملكة فقط ، ولكن تمكنوا أيضاً من أن ينشئوا فيها مجتمعاتٍ متحضرةً يزينُها العدلُ والرفق ، ويدعمُها العلمُ

والمعرفةُ وحسنُ التنظيم ، ونشطتْ بفضل الإسلام في هذه المجتمعات الحركةُ العلمية ، وأقبل العلماءُ على دراسة مختلف العلوم والفنون إضافة إلى العلوم الدينية واللغوية ، فما من باب من أبواب العلم إلا طرقوه ، وما من درب من دروب الفن إلا سلكوه ، وآثارهم في الهندسة والفلك ، والطب والصيدلة ، والجغرافية والموسيقى ، والفلسفة والمنطق وغيرها ، تشهدُ بذلك ، كما أن حواضرهم بما اشتملت عليه من قصور فخيمة ، وحدائق أنيقة ، ومساجدَ مزخرفة ، ومدارسَ منمقة ، ومارستانات مريحة ، وأسواق نافقة ، ومهن مرتبة ، ومراكب تغدو بالبضائع والمسافرين وتروح ، كانت الشموسَ المضيئة والأقمارَ المنيرة في عصر ألقى الظلامُ بسجفه على غيرها من البلاد التي لا يدينُ أهلها بدين الإسلام ، وهل يجهلُ أحدٌ عظمة ما بلغتْه من حضارة رفيعة دمشقُ وبغداد ، وبخارى وأصبهان ، والقاهرةُ وتونس والقيروان ، وبجايةُ وتلمسان ، وفاس ومراكش وقرطبة وإشبيلية ؟ أم هل يجحدُ جاحدٌ فتوح العلم وكشوف المعرفة التي تحققت على أيدي العلماء المسلمين كابن سينا والبيروني والفارابي وابن الهيثم وابن النفيس في شرق البلاد الإسلامية ، وابن الجزار وابن البنا وابن طفيل وابن رشد وبني زهر في غربها ؟ كلا لا يستطيع .

ومما امتازت به الحضارة الإسلامية طابعُها الإنساني والأخلاقي ، لقد كان يُواكبُ مظاهرها المادية - المتمثلة في الرقي العمراني والإبداع الفني والتقدم العلمي - مظاهرُ أخرى تتمثلُ في التحلي بمحامد الأخلاق ومكارم الشيم التي وصى اللهُ بها عباده المؤمنين ، وحثَّ رسولُه الكريم على أن يتصف بها من دخلَ في دينه من المسلمين ، كاحترام كرامة الإنسان وتمتعه بحقوقه ، والحُكم بالعدل ، والتشاور في المصالح العمومية ، ورفق القوي بالضعيف ، ورد الغني من ماله على الفقير ، وسؤال الراعي عن رعيته ، وتحريم أكل الأموال بالباطل والإدلاء بها إلى الحُكام ، إن الإسلام أمر بالعدل والإحسان وأداء الأمانة ، والجُنوح إلى السلم وإفشاء السلام ، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، نهى حتى عن قهر اليتيم ونهر السائل وتعذيب الحيوان ، ألم يُخبر الرسول أن امرأةً دخلت الجنة في قطة وأُخرى دخلت النار فيها ؟ ألم يقلْ إن في كل ذي كبد حرَّى صدقة ؟ ألم يجعل إماطة الأذى عن الطريق من شُعَب الإيمان ؟ ألم يَخَف عمرُ بنُ الخطاب أن يحاسبَه اللهُ على دابةٍ زلَّ حافرها بشاطىء الفرات ؟

إن الحضارة الإسلامية تهدفُ إلى إسعاد الناس مادياً ومعنوياً ، تهدفُ إلى توفير الراحة البدنية لهم بنشر العلم وتنظيم العمارة وترقية الصناعة وتحسين الفلاحة لتأمين الغذاء اللازم لمعيشتهم ، كما تهدفُ إلى توفير الطمأنينة النفسية لهم ولمن يساكنُهم ، ولو كانوا على غير ملّتِهم ، بصيانة كرامتهم وضمان حقوقهم ، وتجنيبهم كلَّ ضيم أو ضرر يلحقُ دماءهم وأموالهم وأعراضهم من أي كان ، وإنا لواجدون في الآثار المُختلفة عن المسلمين أيام كانت حضارتُهم الحضارة السائدة شواهد تدلُّ على سمو تفكيرهم في الكائنات وبذلهم المال والمتاع لحفظها ابتغاء مرضاةِ الله ، إن في المغرب أوقافاً حبسها المحسنون لتجهيز اليتيمة والفقيرة إلى بيت بعلِها كما تجهز ذاتُ الأهل والمال ، وأُخرى لشراء الأواني التي قد تنكسرُ في الطريق بين أيدي الأطفال المُتعلمين وهم ينقلون فيها أطعمة إلى معلميهم الصناع من البيوت ، بل إن عندنا في المغرب أوقافاً يُصْرَفُ ريعُها على الطيور لجبر سيقانها وأجنحتها إذا انكسرت ، وأُخرى لإسماع الحمقَى والمجانين نغماتِ الموسيقى الراقية مرةً في كل اسبوع تهدئة لأعصابهم وتسكيناً لهياجهم ، ومثلُ هذا ولا شك في سائر البلاد الإسلامية كثير .

بيد أن هذه الحضارة التي وفرت للمجتمعات الإسلامية طيلة قرون تقدماً مادياً وسمواً أخلاقياً أصابها ما أصاب الحضارات التي سبقتها من تدهور فسقوط ، بفعل استبداد الحُكام وجورهم ، وتحجر أفكار العلماء والفقهاء ومداهنتِهم للوُلاة وسوءِ فهمهم وتأويلهم لأحكام الشريعة ومقاصدها ، مما جرّأ عليهم عدوَّهم وأطمعه في امتلاك أوطانهم واستعباد رقابِهم ، و ﴿ **إن الله لا يُغيرُ ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم** ﴾[1].

حضرات السادة

يجدُ المسلمون اليوم أنفسهم أمام حضارة حديثة وطيدة الأركان شامخة البنيان تطرحُ أمامهم تحديات عليهم أن يواجهوها ثم يرفعوها ، وهي الحضارة السائدة في العالم، المتغلبة على ما عداها من الحضارات ، وليس لأحد مهربٌ منها بسبب تقاربُ الأبعاد وسهولة المواصلات وتلاؤم الثقافات ، بل يرغبُ الكلُّ في أن يحياها ويستمتع بها ويسهم في تطويرها وتوسيع آفاقها بحظٍ من الحظوظ ، وتبذلُ الحكوماتُ والشعوبُ التي خلعت نير الاستعمار السائرةُ في طريق النمـــو جهداً وتنفقُ مالاً للاستفـــادة منها في

(١) الرعد : ١١

أوطانها والحذو حذو صانعيها فيما يُخططون لبلدانهم ويُحققون ، وتأخذهم غيرة مشروعة عندما يرون الأمم الراقية وقد أمسكت بناصية المعرفة وطوعت التكنولوجيا لصنع مخترعات جديدة أو تحسين ما سبق صنعُه منها كبيراً كان أو صغيراً ، من إبرة الخياطة وعود الثقاب إلى الحواسيب الدقيقة والصواريخ العابرة للقارات والأقمار الاصطناعية التي تُدركُ أبصارُها (النملة السوداء على الحجرة الصماء في الليلة الظلماء) ، ولكن الشعوب الإسلامية ـ وسائر شعوب العالم الثالث ـ تعوقها عن تحقيق مطامحها في التقدم العلمي والرقي الحضاري معوقاتٌ كثيرة ، بعضُها موروث عن الماضي ، وبعضُها عن مُخلفات الحكم الاستعماري الراحل أو من السياسات المُقررة من القُوى الكبرى في حقِها ، كانتشار الأمية وقلة المال وضعف الإنفاق على البحث العلمي وإغلاق باب الاجتهاد والفوضى الفكرية وانعدام الاستقرار في الميدان السياسي ، وما من أحد بقادر على أن يُقلل من أهمية الخطوات التي خطتها شعوبٌ إسلامية في مجال التعلم والتمدن والتصنيع ، ولكن ما من أحد بقادر أيضاً على أن يُنكر أنها لو نعمت بالاستقرار السياسي وتمتعت بحكم ديمقراطي يعبرُ عن إرادتها ورشدت أموالها وثرواتِها الطبيعية ، وأنفقت بسخاء على البحث العلمي في الجامعات والمصانع ، وتجاوزت مخلفات الماضي التي لم تبقَ صالحةً للحاضر لضاقت مسافةُ الخُلفِ المنفرجةُ بينها وبين الشعوب المتقدمة ، ولأدركت ما تطمحُ إليه وتبتغيه .

على أن هناك جوانب سلبية في الحضارة الحديثة تقترنُ بجوانبها الإيجابية ويصعبُ التفريقُ بينها إن لم يكن التفريقُ مستحيلا ، لأنها كلٌ لا يتجزأ ، ولأن بعضها نتيجةٌ حتميةٌ لبعض ، وهذا ما يجعل الشعوب الإسلامية أو النخبة المفكرة فيها تقفُ من الحضارة الحديثة موقفَ المتردد المحتار ، لا تدري كيف تأخذُ الصالحَ منها وحدَه وتتركُ الفاسد ، الحضارةُ الحديثة بمعناها الشمولي فيها أفكار مادية وممارسات منحرفة تتنافى مع ما جاء به الاسلامُ من حميد الشيم وكريم الأخلاق ، بل تتنافى مع جميع ما دعا إليه المصلحون قديماً وحديثاً من صفاء الروح وطهارة الجسد وحسن التعامل بين الناس وأن يحبَّ المرءُ لغيره ما يُحِبُّ لنفسه ، هي حضارةٌ ماديةٌ متنكرةٌ للأديان مستخفةٌ بالقيم الخلقية التي لا تستقيمُ بدونها مجتمعات ، صانعوها لا يفكرون إلا في المكاسب المادية والمتع البدنية ولو أضرت بالغير ، يستوي في ذلك أفرادهم وجماعاتهم والحكومات ،

إنما تمتازُ بحسنات كثيرة وسيئات عديدة ، تمتازُ بتطورِ الفكر وتقدم العلم اللذين نتج عنهما تحسُّنٌ في المأكل والملبس واستبحارُ العمران ، وخفت بهما حدةُ الأوبئة والأمراض وسهلت المواصلات وانتشرت الثقافات ، وحقق إنسان العصر الحديث ما لم يحققه إنسان العصر القديم من غوص في الماء وطيران في الفضاء وتصرفٍ في الإليكترون والكهرباء وتسخيرٍ للمادة وتطويعها كيفَ يَشاء ، وبهما وبما واكبهما من تخلٍ عن العقائد السليمة فسدت أخلاق الناس وتحركت نوازعُهم الشيطانية وغرائزُهم البهيمية ، فجروا وراء الملذات وتسابقوا إلى جمع الأموال وكنز الثروات ، وتفننوا في صنع ألات التدمير الكامل والإهلاك الشامل ، ونظروا إلى الخلق بمنظارين وكالوهم بمكيالين ، الحضارةُ الحديثةُ يُهددها اليوم ، بسبب تنكُّرها للدين ونبذها للقيم ، العديد من الأخطار وتتعرضُ لكثير من المحاذير ، كانتشار المخدرات وتفشي الدعارة وترويج أفلام الفسق والعنف وظهور أمراض مستجدة كالإيدز الذي يُقدر الإحصائيون عدد مرضاه في نهاية هذا القرن بأربعين مليوناً . يُهددها التلوثُ البيئي والتمييزُ العنصري وغشٌّ الأقوياء للضعفاء وتعريضُهم لأخطار محققة ببيع الأغذية والأدوية الفاسدة لهم ، ودفن النفايات المُشعة المُضرة بأرضهم ، وحظرُ تصدير التكنولوجيا والآلات المتطورة إليهم ، وحرمان طلبتهم من تلقي العلم في كلياتهم ومعاهدهم ، وإيصادُ أبواب بلدانهم في وجوههم ، والتضييق على من سبقت لهم الإقامة فيها بمختلف أنواع التضييق ، تُهددها اللامساواة في التعامل على الساحة الدولية ، فدولةٌ يباح لها ان تقيم المصانع لانتاج السلاح النووي والجرثومي دون أن تخضع مصانعُها لأية رقابة ، ودولة تقامُ من حولها الضجات لأنها أنشأت مصنعاً لإنتاج المواد الصيدلية أو مساحيق التجميل ، هِبات مالية كبرى تعطى لدولة واحدة صغيرة ويُعطى أقل منها لشعوب أُخرى مجتمعة أكثر سكاناً وأشد احتياجاً، شرعيةٌ دولية تُطبقُ بقوة الحديد والنار على شعب ، وشرعيةٌ دولية تقرر في حق شعبٍ آخر ثم يتناساها مُقرروها غداة تقريرها ، مناحاتٌ تقامُ في كل مكان حُزناً على طائر تلوث جناحه بنفط سفينة جنحت للشاطىء وأصواتٌ خافتة تستنكر ـ نفاقاً ـ كسر سواعد أطفال بالحجارة وقتل صبيان واغتصاب نساء وذبح رجال وتهجير شعب بأكمله

من دياره ، إنه الظلم المؤدي إلى خراب العمران المشار إليه في الآية الكريمة ﴿ **وتلك القُرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا** ﴾[1] ، والترف الطاغي المُفضي إلى تدمير الحضارة المعبرُ عنه بقوله سبحانه وتعالى ﴿ **وإذا أردنا أن نُهلك قريةً أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمرناها تدميرا** ﴾[2] .

حضرات السادة

ما كان للجوانب السيئة من الحضارة الحديثة أن تزهدنا فيها أو تصرفنا عنها ، إن فيها محاسن شتى ضرورية ولا غنى عنها ، وقد أخذنا منها بنصيب ، وقطعنا فيها أشواطاً ومراحل . ولا بد من مواصلة السير فيها واكتساب القوة من خلال التحكم فيها ، إذ لا حياة اليوم ـ مثل الأمس ـ لقاعدٍ في ركن بيته أو ضعيف ، علينا أن نعي كل الوعي جميع الأسباب والوسائل التي أدرك بها صانعو الحضارة الحديثة ما أدركوا من قوة ورخاء وسيطرةٍ على الطاقات وتسخيرٍ للكائنات ، فنعمل بها ما عملوا ، ونحقق بها مثل الذي حققوا أو فوق الذي حققوا ، ونُضفي على الحضارة الحديثة ـ على الأقل في بلادنا الإسلامية ـ طابعاً إسلامياً لتصير حضارة فُضلى تزدانُ بالحق والعدل ، وتتحلى بالرفق والمساواة وكلِّ خلق كريم ، فيستفيد من خيراتها جميعُ البشر دون تمييز ، لا فرقَ بين الناس من أجل اللون أو اللغة أو الدين ، وفي طليعة ما يُسهل علينا اختصار المسافات لنلحق بسرعة الركب الحضاري المنطلق العمل لتوطيد الاستقرار السياسي والتخلي عن العنف الديني والطائفي لاستكمال التحرر السياسي والاقتصادي لبلادنا الإسلامية ، والتمسك بالثوابت الإسلامية والنظر على ضوئها في قضايا العصر ومشاكله المستجدة لإيجاد الحلول لها دون التقيد بالآراء والاجتهادات التي حلَّ بها المتقدمون قضايا عصرهم ومشكلاته ، فإذا نحن فعلنا ذلك بتعقل وسماحة نفس ، وأخذنا بالوسائل الحديثة انفتحت أمامنا أبوابُ الرقي وتمهدت السبلُ لتطوير الحضارة الحديثة من حضارة مادية طاغية

---

(١) الكهف : ٥٩ .

(٢) الاسراء : ١٦ .

إلى حضارة إسلامية وسط ، تضمنُ راحةَ البدن والروح ، وتكفل لشطر غير ضئيل من المجموعة البشرية الهناء والاستقرار ، وتُحققُ فينا ولنا الوعد الذي وعد به الله سبحانه وتعالى المؤمنين الصالحين من عباده : ﴿ **وعد اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا** ﴾[1] . صدق الله العظيم .

---

(١) النور : ٥٥ .

نحو حضارة اسلاميــة .....

الشيخ محمد الغزالي*

أريد أن أذكر الحضارة الحديثة بما لها وما عليها ، لا وكس ولا شطط ! وقد علمنا كتابنا إذا حكمنا بين الناس أن نحكم بالعدل ، فلا يجوز أن ننحصر في جانب مظلم وننسى الجانب الآخر المضيء ، وأنا واحد من أهل الأرض الذين ينتفعون بثمرات هذه الحضارة في مأكلهم ومشربهم وصحتهم ومرضهم وسفرهم ومقامهم .. ولا أنسى في طفولتي وصباي كيف كنا نطعم بأعواد الحطب ، وكنا نقرأ على مصابيح الزيت وكنا نستخدم في تنقلنا الخيل والبغال والحمير ... صحيح أن الناس كانوا أطيب أخلاقاً ، وأكثر تعاوناً وأبعد اثرة .... وأنا كنا نعمر المساجد بدءاً من غبش الفجر حتى أول الليل بعد صلاة العشاء ... ليكن ! فما يمنعنا من أداء حقوق الله إذا تمهدت مرافقنا وكثرت مرفّهاتنا ؟ أما نؤدي لله حقه الا ونحن مُتعَبون ؟

إن الحضارة الوافدة حملت طبيعة الأرض التي جاءت منها ، وهي أرض لا تحسن معرفة الله ولا تجيد القيام بحقه ، ولم تسعد بالوحي الخاتم الذي يجعلها تكرم الروح والجسد وتوفي للدنيا والآخرة ، فلماذا لا نحسن نحن التوفيق بين الارتقاء المادي والمعنوي ونضم الى حركة العقل المتطلع حركة القلب الذاكر لربه المقر بعبوديته الموقن بأنه سوف يلقاه يوماً ... ؟

بل أنا ـ مع حفاوتي بزكاة القلب ـ أغالي بالعقل المؤمن ، وأرى أن سعة العلم وصدقه هما أساس الصلة بالله والشعور بعظمته وعدالته ، ولعل ذلك ما يستفاد من قوله تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾[1] . قد يكون قلب الطفل نقياً وقد تكون السذاجة أحب من الدهاء ، فمن قال ان التعمق في المعرفة والاستبحار في الدراسة قرينان للمكر والاحتيال وايلاف الشرور ؟ كنت يوماً أتابع « آنشتين » في بحوثه فقرأت له كلاماً عن الله يكاد يكون

* العضو المراسل في المجمع الملكي / القاهرة ـ جمهورية مصر العربية .
(١) آل عمران : ١٨ .

تسبيحا ! وكان اطلاعه على مسار القدرة العليا يجعله عاشقاً ويسلكه مع المتحدثين في الحب الآلهي ، بل يجعله من حُداة الأرواح الى بلاد الأفراح - كما يعبر ابن القيم . إن الحضارة الحديثة أماطت اللثام عن عظمة الكون الكبير ، فلماذا عجزنا نحن - بالمنطق نفسه - أن نقول لهم الله أكبر ؟ أجل ، إذا كان الملكوت ضخماً فخماً فمليكُهُ أجلّ واعظم ..!

والحضارة الحديثة تتسم بالطابع الانساني ، أو هكذا تعرض نفسها إذا جدّ الجدّ واحتدم النزاع ! وقد طال حديثها عن حقوق الانسان ووضعت لها مواثيق ، وتكلمت عن حقوق الشعوب المادية والأدبية وخاصمت الاستبداد السياسي والمظالم الاجتماعية ، وإذا كان هذا كله شعاراً لم يتحول الى حقيقة فقد رفعنا نحن قبلها هذا الشعار حين اعتنقنا الاسلام وطوّفنا به في العالمين ! فما يمنعنا نحن أن نرفع الشعار نفسه ، ونكون أكثر تطبيقاً وتصديقاً ؟ ومعروف أن خصاماً وقع بين الكنيسة والعلم ، وأن رجال الدين المسيحي خاصموا النهضة العلمية الحديثة وقاوموا طلائعها بإزهاق الأرواح وإشاعة الرهبة ! ما لنا نحن وهذه المآسي ؟ إن المسجد منذ رفع بنيانه وشمخت مآذنه كان جامعاً وجامعة ، والصلح المعقود بين العلم والاسلام ظل مرعيّ الجوانب مأمول الخير ... هناك حقيقة تاريخية أقررها في ثقة وهي : لم ينهزم المسلمـــون عسكرياً قط إلا لأسباب هم صانعوها ، ومسؤولون عنها منذ أُحُد الى غرناطة ، الى سقوط خلافتهم في العصر الأخير !! فهم الذين قتلوا أنفسهم قبل أن يقتلهم غيرهم ! وهذه الحقيقة الحربية تضارعها حقيقة علمية حضارية أساسها أنهم ما تخلّفوا في الميدان العالمي وطاشت كفتهم الا بمقدار ما جهلوا من دينهم وأساءوا الفهم أو أساءوا التطبيق ، لقد هززت رأسي أسفاً وأنا استمع الى امرىء مسلم يشتغل بالدعوة يقول : « الديمقراطية » لا صلة لها بالاسلام ، وصادف هذا القول أن الامريكيين كانوا مشغولين بانتخاب رئيسهم الأخير ، فقلت له : إن أقصى ما أرجوه لنظام الخلافة أن ينتقل الحكم من سلف الى خلف بهذا الأسلوب الحرّ النزيه ، إن ألسنتكم خرست لصور من السلطة لا دين فيها ولا دنيا - إلا شهوات بعض الناس - ثم جئتم اليوم تعيبون ما لا يعاب وتزعمون أن هذا ليس من الاسلام ! إن القوم غزوا الفضاء ونحن نلهث على الثرى ، وإذا كان هذا فارقاً حضارياً في ميدان العلم فان الفارق الحضاري في ميدان السياسة لا يقل عنه ، وهو فارق صنعه الجمود العقلي ، وفَرْضُ البلادة النفسية على تعاليم الاسلام ومثله ....

والأمر يحتاج الى تفصيل ، حتى نستطيع أولاً طـيّ مسافة التخلّف بيننا وبين غيرنا ، ثم السبق بفلسفة إسلامية تشرف الاسلام نظرياً وعملياً ... ولأسأل أولاً : ما حكم الاسلام في التمكين من الدنيا والاستبحار في علومها ؟ كل قارىء للكتاب العزيز يعلم أنّ الله سخّر الكون للانسان : ﴿ **وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[1] . فكيف يسخر الله العالم لنا ونمسي نحن المسلمين مسخرين فيه للصغير والكبير من الدول ؟ إن خللاً لا شك فيه وقع في تعاملنا مع الكون ، وهذا الخلل ظهر في ثقافتنا العامة ، من عدة أجيال ، فقد أهيل التراب على الخوارزمي والفخري وابن الهيثم وابن النفيس وآخرين ممن تفرّغوا لدراسة الرياضة والفيزياء والكيمياء والضوء ، في الوقت الذي اتسع المجال فيه لفقه دورة الحياة ، أو فقه الرقيق ، أو الشعر الماجن والأدب الرخيص ، أما علوم الحياة وفقه الدنيا فقد تجاوزناه ، وتركناه الى غيرنا يبحث ويكتشف ويرتقي ......

إن السيادة في الدنيا والرسوخ في علومها شرط لكسب الحياة والصدارة فيها ، ولما صرنا هملاً على ظهر الأرض وقعت أعاجيب ، فان أربعة ملايين يهودي هزموا مائتي مليون عربي ! وبضعة ملايين هولندي حكموا الشعب الاندونيسي الذي يزيد عليهم أضعافاً مضاعفة لعدة قرون مشئومة ... إن فقه الحياة في الفكر الديني من الأسس الأولى ، كان داود فناناً يتغنى بامجاد الله ، وكان في الوقت نفسه صانع أسلحة وفارس قتال : ﴿ **وألنّا له الحديد ، أن اعمل سابغات ، وقدّر في السرد ، واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير** ﴾[2] . والقتال في العصور الحديثة يتطلب تفوقاً في علوم البر والبحر والجو ، فهل هذا التفوق شذوذ في البيئة المؤمنة ؟ أم كان ظاهرة من ظواهر الايمان الحق تلحظها في سيرة ذي القرنين الذي سمع شكاية شعب متخلف بائس يشبه شعوب العالم الثالث في عصرنا فقال له في رسوخ واقتدار : ﴿ **فأعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال : آتوني أفرغ عليه قطرا ...** ﴾[3] ، وهكذا بقدرة هندسية رائعة استطاع الرجل الصالح أن يصنع سداً يمنع الأعداء ، يشبه خطوط ماجينو وسجفريد وبارليف التي صنعها الفرنسيون والألمان واليهود !

---

(١) الجاثية : ١٣ .

(٢) سبأ : ١٠ - ١١ .

(٣) الكهف : ٩٥ - ٩٦ .

هل أولياء الله يجب أن يكونوا آخر من يفقه أسراره في ملكوته وآياته في كونه ؟ هل هذه الأسرار والآيات حكر على أعداء الاسلام وحدهم ؟ إن القصور الاسلامي في هذا المجال فضيحة دينية ودنيوية يجب أن تُمحى وأن نستغفر الله منها ... وهناك حقيقة أخرى تتصل بجوهر الايمان ومعنى الصلة بالله : هل تغلق الباب على نفسك ، وتبدأ في التأمل لتعرف الله ؟ قد تكسب بهذا إيماناً نظرياً محدود القيمة ! أما الايمان المفهوم من القرآن الكريم فهو إيمان النظر في الكون والسياحة في ملكوت السموات والأرض ، قرأت هذه الكلمة في وصف العالم اثبتها مع تحرير وتعقيب : « كوكب الأرض واحد من تسعة كواكب تدور حول نجم واحد هو الشمس ، وخلال هذه المنظومة توجد ملايين الشهب ، وتوجد ملايين الملايين من الأجسام الصغيرة المكونة من التراب والغاز والجليد تدور حول هذه الكواكب من ألوف ملايين السنين ! والشمس ، هذا النجم الذي بدأ يبرد بالتدريج حتى ينطفىء تماماً بعد ثلاثة آلاف مليون سنة ـ تقع في الطرف الجنوبي للطريق اللبني ـ والطريق اللبني اسم المجرة التي نعيش فيها ، والتي تحتوي هي الأخرى على ملايين الملايين من النجوم أمثال الشمس ، وحول هذه النجوم ملايين الملايين من الكواكب التي تشبه الأرض ، والعقل لا يستبعد أن يكون هناك مائة الف كوكب صالحة للحياة . وفي الكون الذي نعرفه الآن توجد ملايين الملايين من المجرات . ولا تحسبن هذا حجم الكون ! إنما هو حجم ما نعرف منه عن طريق العدسات الضخمة في مراصدنا الأرضية أو عن طريق الموجات الصوتية والرادارية التي أطلقناها وارتدّت الينا ، أو عن طريق التلسكوبات المطلة من سفن الفضاء التي تدور حول الأرض أو التلسكوبات التي زوّدتنا بها سفن الفضاء المتجهة الى كواكب أخرى ! أما أرضنا التي نسكنها فمكانها في الكون مثل حبة سقطت من مسبحة عابد يسير في القاهرة ! فما تكون هذه الحبة إذا قيست بالقاهرة الكبرى ؟ على هذه الحبة تقوم الحضارة الانسانية كلها منذ بدأت الى أن تهمد ... » أرأيت سعة هذا العالم ؟ كم تكون عظمة خالقه وسعة قدرته وحكمته ! هذا طرف من ملك الله وصل اليه علمنا المحدود تستطيع بعده أن ترفع عقيرتك قائلاً : سبحان ذي الجبروت والملكوت والعظمة ، سبحان قيّم السموات والأرض وما فيهن ، سبحان من منح الوجـــود حياته ولو تركه لزال ... سبحان ذي

الجلال والاكرم ... إن الله يحب أن يتحدث عنه عالم به : ﴿ **الرحمن فاسأل به خبيرا** ﴾(١) . فهل هذا الذي أغلق على نفسه باب بيته ، أو الذي يتبع أذناب البقر يدري شيئاً عن الكون ومالكه ؟ وهل الأمة التي تنتظر رزقها من ملاك الأرض وغزاة الفضاء تدري عن ربها شيئاً ذا بال ؟ إنها لا تعرف ما حولها فكيف تعرف رب المشارق والمغارب ؟ إن الايمان الذي يصنعه هذا القرآن من طراز رفيع يحيط بفجاج الأرض وآفاق السماء ، ويرفض الأتباع الجهلة ... ليت شعري ما عرا المسلمين وأسكنهم هذه المنازل الهون .. ؟ وتتصل بهذه القضية قضية أخرى ، فالمسلمون في الأغلب فقراء ، وجلّ دولهم يرزح تحت ديون ثقيلة ، والفلسفات والأنظمة والمسالك الشائعة بينهم لا تؤذن بزوال هذا البلاء . وقد زرت مدناً وقرى في أوربا وامريكا فوجدت بشاشة النعمة ونظافة المباني والأفنية على عكس ما يشيع في مدننا وقرانا ، والمحزن ان هذا الفقر ليس طبيعة الأرض ، فالأمة الاسلامية تسكن أخصب البقاع وأحفلها بالخير ، وأجودها في الموقع ، بل إن ما لديها ارجح مما في الصين والولايات المتحدة ، ولكن الفقر في بلادنا من صنع أيدينا وثمرة مرة لهمم قاعدة ونظم فاسدة . والاسلام بريء من هذه الديون ومن البأساء التي دفعت اليها . قلت وأنا أفسر سورة الكهف عندما بلغت قصة صاحب الجنتين : « إن الله لم يحرّم اليسار والغنى على عباده الصالحين ليختص بهما العباد المجرمين . وهو لم يغضب على صاحب الجنة المغرور أن كانت له جنتان أو جنان ، إنما غضب عليه لأنه كان ذا فكر سخيف ومنطق غبي ! ما معنى أن يقول : ﴿ **ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت الى ربي لأجدن خيراً منها منقلبا** ﴾(٢) لماذا ؟ مكافأة على الكفر والتطاول ؟ إن هذا الأحمق جدير أن يكون حطب النار في الآخرة كما هو جدير بالحرمان في الدنيا » . وعلى ضوء ذلك تفهم التعليق الآلهي على هذه القصة عند قوله : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** ﴾(٣) ! إن المال والبنين كما يكونان زينة الحياة الدنيا يكونان عدّة النصر في معركة التحرير كما قال تعالى لبني اسرائيل حين نصرهم على عدوهم : ﴿ **ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا** ﴾(٤) ،

---

(١) الفرقان : ٥٩ .
(٢) الكهف : ٣٥ - ٣٦ .
(٣) الكهف : ٤٦ .
(٤) الاسراء : ٦ .

وفي الحديث : « نعم المال الصالح للعبد الصالح » . حين تنهزم دوافع الفداء والجهاد أمام حب الدنيا تكون الدنيا مصيبة ، وعندما يغلب الشره والبخل عند وجود المال يكون المال نكبة . أما صاحب المال الذي يساند به الايمان وينفقه في الجهاد فهو عابد رفيع الأجر .... ونحن ينبغي أن نفهم المرويات في ذم الدنيا وأن لا نتجاوز بها حدودها . ومن ذلك هذا الحديث الرقيق الذي يعين على العفّة والعزّة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ! . ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدّر له ، فلا يمسي إلا فقيراً ولا يصبح إلا فقيرا ، وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب العباد تنقاد اليه بالودّ والرحمة ، وكان الله بكل خير اليه أسرع » . إن هذا الحديث شفاء من جنون الشره وعبادة الحياة والتعلق بالحطام ، وبديهي أنه لا يصدّ عن غنى يجيء مع التماسك والأدب . إن الدين الحق تتنفس في شُعَبِه الفطرة النقية والعقل الذكي ، وهما قوام الانسانية المحترمة ، والحضارة الغربية الحاضرة تأخذ من هذين العنصرين بنصيب !! وإن عدت على ربوعها الشهوات كما تعدو الآفات على حقل مثمر . ويبدو أن ما بقي بعد هذا العدوان من حقائقها قدير على الحياة ، أو قل : قدير على مغالبة التدين المعتلّ وهزيمته !!

في ميدان العلاقات الدولية تعرض الحضارة المعاصرة فكرة هيئة الأمم ، والفكرة المجردة صالحة وإن شانها التطبيق الرديء ، فماذا يعرض الاسلاميون ؟ إن عدداً كبيراً منهم يتصور الاسلام دين هجوم عام ، وهو يقسم الدنيا الى دار إسلام ودار حرب .. وقد بذلت جهداً مع نفر من أولي الألباب أحسنوا فقه الاسلام كي أشرح أننا ما نقاتل إلا المعتدين والمستعمرين ودعاة الفتنة وآكلي الشعوب ، وأننا دعاة تعارف يصل ما انقطع ويؤثر الود والتراحم ، وأن تقسيم العالم الى دارين جاء من مسالك الصليبيين القدامى ، على أثر استباحتهم لنا .. وأننا اليوم نوافق على إنشاء اسرة دولية تحكمها شرائع العدالة ، وتدافع عن الحقوق والحريات .! ومع ذلك فإن نفراً من الشباب الأهوج يريد أن يكون مسعر حروب ، وينادي بمقاتلة الناس كافّة ويتهمنا بالضعف ـ أو التأثر بالاستشراق !! ـ والمحزن أن ذلك الصياح يحدث والعالم مدجج السلاح من الرأس الى القدم ، وقد أنزل بنا هزائم موجعة !! إن الحقّ لا يحتاج في معاركه الى النزق والطيش ، لا تخطىء مع الآخرين

وخذ أهبتك وحذرك فان أخطأ الآخرون معك فأنت مـــع القصاص العادل أو العفو الكريم ، أنت مع الاسلام الذي يقول : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين** ﴾[1] ولنترك ميدان العلاقات الدولية الى أسس الحكم السليم ، إنه مع بزوغ عصر الإحياء في أوربا اخذ الميزان يعتدل في الصلة بين الشعوب والحكام ، فلم تعد الجماهير قطعاناً تساق بالعصا ولم يعد الولاة فوق المسؤولية والمؤاخذة ، بل سمعنا النغمة التي عرفت أيام الخلافة الراشدة ونرى في يومنا هذا كيف يحاسب الرؤساء أدقّ حساب على ما يفعلون .! وأضحت للشورى صور حية تدار بها الأمور ، وتفحص المشروعات ، ويماز الصواب والخطأ بأناة وجراءة ... ذلك في أوربا وامريكا حيث استقرت « الديمقراطية » وأصبحت عنواناً مأنوساً في كل قطر ..!

أما بين لفيف من الاسلاميين فان الكلمة مكروهة ومطاردة وهدف الاتهام الدائم! هل قدمنا ، نظرياً أو عملياً ، صورة أفضل لنظم الحكم ، هل عرفت عندنا نماذج مشرقة لسياسة الجماهير أهدى مما قدمت الحضارة الحديثة ؟ لماذا لا نستفيد من التطبيقات التي أجدت على غيرنا ، والتي أحيت أزكى المبادىء في دولة الخلافة الأولى . إن الفطرة هي السمة الاولى في ديننا ، فاذا أنصف غيرنا الفطرة خيراً منا فلماذا لا ننظر في عمله بتدبّر ونستفيد من صنيعه كما استفاد عمر من صنيع الأعاجم عندما دوّن الدواوين ومصّر الامصار ؟ إن الاسلام - في منطق بعض الناس - يُظلم ظلم الحسين ، فهو ما خُيّر بين أمرين إلا اختار أعسرهما أو أبعدهما عن طبائع الأمور ودوافع المصلحة العامة حتى خيّل إليّ أن الاسلام هو الزمان الذي قال فيه البحتري :

وأن الزمان أصبح محمولاً هواه مع الأخسِّ الأخسِّ !!

وما نقدر على إقامة حضارة إسلامية إلا اذا صادقنا الفطرة واحترمنا العقل واعترفنا بأن من آبائنا من انحرف عن الصراط المستقيم فأورثنا أراضي محتلة ، وشعوباً مغلوبة على أمرها ، وأياديَ تأخذ ولا تعطي ... فَسُمّينا في هذا العصر العالم الثالث !

---

(١) القصص : ٨٣

والحضارة التي يقيمها الاسلام لن تكون على انقاض المرأة وانتقاص إنسانيتها ، إنه لا يزال بيننا من يعامل المرأة ويبت في قضاياها على أساس من إساءة الظنـون وتلمّس التهم .! فالرجل لا يجوز أن يدرس للبنات في فصل أو مدرّج يضمّ العشرات ! لماذا ؟ قد يفكر في السطو عليهن أو على إحداهن ! فلا بد أن يكون تدريسه من وراء حجاب ، وأن يتصل بهن وهو في حجرة مغلقة .. ! ولا يجوز أن تقود المرأة سيارة ، فأين تنطلق بها ؟ قد تذهب الى حبيب ! والأولى أن تصلّي في بيتها فان الذهاب الى المسجد باب الى معرفة الآخرين ! والقليل من العلم يكفي في الطفولة ، فاذا كبرت الفتاة فخير لها أن تمكث في البيت انتظاراً للزوج ! والقاعدة الذهبية ألاّ تخرج من البيت الا الى بيت الزوج أو القبر ..! هذه حضارة يشقى فيها نصف المجتمع ، ويموت ادبياً وعقلياً ، وتحميل الاسلام أوزار هذا الفكر الخانق ظلم بيّن ... إن محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، والنصيب الأوفر من هذه الرحمة ينبغي أن يكون لأمته ، لا تحـرم منه أم ولا بنت ولا زوجة ....

وقد ألفت كتب شتى تشرح أن النساء شقائق الرجال وأن المغانم والمغارم قسمة مشتركة بينهما ، وأن وأد المرأة صغيرة كانت أم كبيرة جرم غليظ . والخاصة الكبرى في حضارتنا الاسلامية إيماننا بخلود الحياة ، فالموت ليس عدما ! وإنما هو نقلة من عالم الى عالم اكبر ، أو من حياة محدودة الى حيوان موّارة بالحسّ والحركة والثواب والعقاب . إن الانسانية الصحيحة تعني هذا البقاء السرمديّ ، أما إنسانية العمر المحدود وحسب فهي لون من الحيوانية الهابطة ....

لذلك يجب أن تعرف حضارتنا الله تبارك اسمه ، وتعرّف به من يجهلونه ، وتذكر الغافلين بمالَهُ من حقوق ، وتجعل عبادته جزءاً من حقيقة الحيـاة المحسوسة ، مصداق قوله تعالى : ﴿ **الذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾[1] . إن الحضارة العالمية الحديثة تكره الحديث عن الآخرة أو تسخر منه ! وفي المحافل الجادّة لا يدور كلام عن هذه الدار الآخرة ، أما نحن فلنا صلة بالله تحسب للقائه ألف حساب .

---

(١) الحج : ٤١ .

البعد الأخلاقي العالمي وتحدّيات العصر

(من وجهة نظر إسلامية)

الدكتور اسماعيل باليتش*

يمكن القول بأنّ العلاقة التي تربط اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام ، هي علاقة جدلية . فبالاستناد إلى أقوال كتب موسى عليه السلام الخمسة ؛ « التوراة » ، نرى أن أهم هدف تسعى إليه الديانة اليهودية ، هو إعداد بني إسرائيل للعيش في هذا العالم الأرضي والتعامل معه . وفي بؤرة العقيدة اليهودية ؛ نواجه هذا الشعب وعلاقته الخاصة مع الله (العهد) . بينما تمثل تعاليـــم عيسى المسيح عليه السلام النظرة المقابلة لتلك العقيدة ، إذ إن مملكته ليست من هذا العالم ، وفكرة اقتراب يوم القيامة ونهاية الحياة الدنيا الوشيكة ، كانت تحتل مركز الثقل في المواعظ المسيحية . بينما يمثل الإسلام الطريق الوسط بينهما ، حيث يدعو الاسلام المسلم للتفكير بالآخرة وإعداد نفسه لها وكأنّه سيموت غداً ، والعمل لدنياه وكأنّه سيعيش فيها أبداً . والذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه يحدّثنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم ؛ لكن ﴿ ..... **وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون** ﴾[1] .

وحيث إن الاسلام يتفق مـع اليهودية والمسيحية فيما يتعلق بالجانب الأخلاقي ، لذا ؛ فإن الشروط الموضوعية لحفظ السلام في مجتمع متعـدد الثقافات ، متوافرة فيه أيضاً . إذ إن الإسلام يقرّ جميع قيم التمدن الإنساني الإيجابية ، ويدين العنصرية ، ويدين العصبية القومية ، ويدين التكبر ، واستغلال الانسان من لدن أخيه الانسان . وهدر الثروات عبثاً وتفريطاً . وأما تطلّعاته في هذا العالم الفاني ، فهي متواضعة تماماً ، في حين أن التضامن والتعاطف بين البشرية مطلب هام من مطالبه وفي مقدمة أولوياته ، لأن الاسلام يعتبر كل طفل ـ من حيث المبدأ ـ مسلماً على الفطرة « كلّ مولودٍ يولد على الفطرة .. ـ الحديث الشريف » . فالإسلام ، كمنهج للتغلب على مصاعب الحياة ومعاناتها في ظل الإنقياد والتسليم للّه تعالى ، يعتبر بعداً أخلاقياً متكاملاً .

---

* العضو المراسل في المجمع الملكي / النمسا .

(١) العنكبوت : ٤٦ .

والمقصد الحقيقي للتشريع الإسلامي هو الأمر بالمعروف والحفاظ عليه في المجتمع البشري ، وهذا التشريع يتحرّك في أمره ونهيه في حدود القاعدة الفقهية « لا ضرر ولا ضرار » . وأمّا تحديد ماهيّة المعروف ـ وفقاً لما يراه الدكتور حسن صعب ـ « فيتم عن طريق الخبرة والتجربة الإنسانية ، وليس عن طريق النصّ الديني المعتمد . فالمعارف المكتسبة من الخبرة ، تسمح لنا بإعادة صياغة السياسة الداخلية الإنسانية كلّما غدا ذلك ضرورياً ، وما لم يتعارض ذلك مع نصّ صريح في القرآن الكريم »[1] .

أكبر التحدّيات هي العقلية السائدة في العصر الحديث والأكثر حداثة :

إذ إن الإسلام لا ينظر إلى المسيحية التقليدية على أنها تشكل أيّ تحدٍ له ، وإنما التحدّي الحقيقي الذي يواجهه الإسلام يأتي من روح الحداثة التي تولدت من المسيحية الغربية ، وما تلاها ممّا يسمّى بعقلية ما بعد الحداثة . إنها روح العصر التي جعلت الأحداث كافة وكلّ التعاليم خاضعة للفحص والتمحيص حول صدقها وصحتها ، وفي الوقت نفسه ، قيّدت نفسها بالتوجّه وفق عدد من القيم الأخلاقية التي لا يجوز التفريط بها على الإطلاق .

ولا شك أن التقدّم التكنولوجي الهائل للغرب ؛ ومستوى المعيشة المرتفع في بلدانه ، مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بروح العصر هذه ، وبفكره السائد .

إن المصاعب التي واجه بها العصرُ الصناعي المسلمين المقيمين في بلدان الغرب ، تقع في المجال الاجتماعي والثقافي أكثر منها في المجال الديني ، وهذه المصاعب تنبع من عدم فهم الأسس الاجتماعية والموضوعية التي يرتكز عليها التقدم الغربي ، كما تنبع من طبيعة الناس المعنيين أنفسهم . حيث إن هؤلاء الناس يواجهون ، في الدرجة الأولى ، أزمة هوية ، بل إن عدّة مستويات من الشعور بالهوية تصطدم مع بعضها ، وتضاف إلى ذلك الهوّة الاجتماعية التي تفصلهم عن أكثر المجتمعات التي يعيشون فيها ، مما يخلق مصدراً ثرّاً للقلاقل . وفي كل مكان ؛ تهدد التأثيرات الاجتماعية والثقافية الغربية تقاليدهم الثقافية والحضارية الموروثة . وكردّ فعل على ذلك ، تستولي على قلوبهم ـ أحياناً ـ نزعات التطرف الديني والسياسي ، وما يرافق ذلك من مظاهر التمسّك

(١) حسن صعب ، الاسلام وتحديات العصر ١٩٦١ .

بالشكليّات والطقوس الخارجية ، كتعبير موهوم عن التمسك بالهوية الاسلامية الخاصة ، وما يرافق ذلك دائماً من تغليب البعد الايديولوجي على الاسلام .

وتشتمل القناعة الاسلامية بتحمل المسؤولية النهائية عن الإنسان والعالم ، على بعد أكبر بكثير من تلك القناعة السائدة في المسيحية بعد المجمع المسكوني الكاثوليكي الأخير ، مما يجعل الاسلام أكثر انغلاقاً تجاه فكرة نسبية القيم ، وتجاه اختلاف رغبات الإنسان الفرد . والسبب في هذا الوضع يعود إلى الفهم الإسلامي للوحي الإلهي . ومما يزيد في حدة الطابع المحافظ السائد في نظرة المؤمنين المسلمين للقيم وفي طريقة تفكيرهم ، عدم اطّلاعهم - بالقدر الكافي - على منجزات عصر التنوير ، وعلى الفكر الديني الجديد الذي انبثق عنها .

ولكن ذلك لا يعني أبداً أن الإسلام ضدّ حريّة الفكر والضمير . ألم يقل القرآن الكريم : ﴿ **ولا تقفُ ما ليس لك به علم . إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ اولئك كان عنه مسؤولا** ﴾[1] . بينما تنص آية كريمة أخرى بكل وضوح على أنه : ﴿ **لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغيّ .....** ﴾[2] .

ودون حرية المعتقد الديني والتفكير ، فإنه لا يمكن إبقاء المجتمع متعدد الثقافات على قيد الحياة . ولهذا السبب ؛ فإن الدعوات الصادرة عن بعض السياسيين في الشرق الإسلامي لوضع (قائمة بالكتب الممنوعة) ، لا بل تهديد مؤلفها بالموت ، تتسبب لدى كثيرٍ من المثقفين المسلمين ، وحتى لدى بعض العلماء المسلمين ، بكثير من القلق .

وفي سياق تاريخه الطويل ؛ فإنّ الإسلام لم يتقيّد دائماً بمنطوق مهمته التعليمية الإلهية ، إذ كثيراً ما طغت على بعض نواحي إنتاجه الفكري الموروثات الثقافية القومية ، وخاصّة العربية والتركية والفارسية منها .

(١) الاسراء : ٣٦ .
(٢) البقرة : ٢٥٦ .

ولعلّ العناصر الثابتة من مكونات الهوية الإسلامية هي : الاعتقاد برسالة القرآن ، والانتساب إلى جماعة المؤمنين في العالم أجمع ، والشعور بالتكريم بالانتماء إلى دين يبشر بالتوحيد الخالص ، والتعلّق بالطهارة البدنية بحكم الصلاة وما يسبقها من غسل ووضوء ، وتحرّي الحلال من طعام وشراب ، والتقيّد بنظافة العلاقات بين الجنسين .

وجميع أتباع الدين الإسلامي الذين يعيشون في المجتمع التعددي الغربي يواجهون ضغط الشعور الدائم بأنهم مطالبون بالبرهان على أهليتهم للعيش في ذلك المجتمع ، مع قلّة الخبرات التي حصلوا عليها في كيفية تطبيق قواعد الحياة الإسلامية في واقع محيطهم الجديد لقصر عهدهم بهذا المحيط . وفي هذا المحيط ثمة أمور كثيرة تختلف عمّا ألفوه في بلدان الإسلام الأصلية . والتحدّيات تكمن في نظام التفكير المختلف تماماً ، كما تكمن في الحس الحياتي المغاير . وهكذا ؛ فإن المسلم يواجه تحدّيات تتعلق بأسلوب صلاته ، وبموقف المواطنين من الوافدين الغرباء وعاداتهم ، وأخرى تتعلق بنظام التعليم ، وبأسلوب تعامل الرأي العام مع دينه ، وبعدم تفهمه واستيعابه لتصرفاته الدينية ، وباستبعاد الأمور الجنسية من نطاق الأخلاق المعهودة ، وغيرها كثير .....

اختلاف التحدّيـــات :

بعض الأمور تشكّل نوعاً من التحدّي للمتشددين من المسلمين فقط ، وليس للمسلم العادي . فمثلاً يضع المسلم العادي نقوده في أحد البنوك ، لأنه لا يرى في الفائدة المتحصلة منها استغلالاً لأحد . وليس الأمر كذلك بالنسبة للمسلم المتشدد ، الذي لا يرى فرقاً ما بين أية عملية بنكية تعـــود بفوائد مضمونة ، وبين الربا الفاحش . كما أن المتشدد يتجنب الأكل من أيّة أطعمة لم تحضّر بإشراف إسلامي ، علماً بأنه لا توجد أحكام إسلامية تفرض عليه ذلك (إذ إن التحريم اقتصر على لحم الخنزير وعلى الأطعمة المطبوخة بدهن الخنزير ، والسجق المحشو بالدم) . كما يطالب المتشددون بالاعتراف بأحكام الأحوال الشخصية الاسلامية في الدول الأوربية الغربية ، بينما لا يرد هذا الموضوع في مجال النقاش بالنسبة للمسلم العادي . حيث إن تطبيق هذه الأحكام قد توقف حتى في بعض البلدان ذات الأغلبية السكانية الإسلامية ، مثل تركيا ، وألبانيا ، وجمهورية البوسنة والهرسك .

إن المجتمع المتعدد الثقافات يعرّض عناصره المختلفة ، بالضرورة ، لاستفسارات انتقادية محرجة أحياناً ، حيث يطالب بالسّعي وراء القيمة الذاتية لكل فعل أو عمل . وربما أصبح هذا المجتمع مزعجاً في بعض الأحيان ، لأنه يشكك في جدوى القناعة والتحفظ الذي يبديه بعض أفراده ، ويغري بالتخلّي عن التقاليد الموروثة .

والشرط الأساسي لتحقيق مجتمع متعدد الثقافات ، هو وجود حرّية إبداء الرأي والتعبير عنه ، وأن تكون مكفولة قانوناً .

وحرية المعتقد الديني مطلبٌ صريح للإسلام[1] . لذا ، فإن الوقوف إلى جانب تحقيق الحرية في أمور ذات مضامين ومظاهر أقل قداسة ، مثل العلوم ، والفنون ، والصحافة ، ينبغي أن يكون ملزماً بدرجة أكبر ، حيث إن الدين لا يكفي وحده للمساعدة في التغلب على مصاعب الحياة ، بل لا بد ، وفقاً لصريح القرآن ، من الحكمة أيضاً .

إن الإجابات التي أعطاها خلفاء النبي محمد (عليه السلام) على مسائل عصرهم ومشكلاته ، لم تعد تتلاءم دائماً مع متطلبات يومنا هذا . كما أن تأدية العبادات عند التعامل مع الفروض الدينية ، والمبالغة بتقييد المؤمنين بحرفية كتب الفقه القديمة ، والتشدّق بالشعارات المفرغة من المضمون الحقيقي ، وغيرها كثير من مظاهر التهجّم على مشاعر ومفاهيم الحياة والحقوق لدى الإنسان المتنوّر ، كل هذه الأمور ، تلحق الضرر بصورة الإسلام لدى الناس . لذا ؛ فإن المطالبة بالتركيز بقدر أكبر على المضمون الاعتقادي للإسلام ، وعلى القيم الأخلاقية المشتركة مع الغير خاصة ، يتزايد ويكتسب أهمية كبيرة .

هذا ؛ ويرى المفكر الفرنسي الذي اعتنق الإسلام (روجيه جارودي) ، ضرورة اللجوء ، وبتركيز كبير ، إلى فتح باب الاجتهاد والعمل به ، لإضفاء الحداثة على صورة التفكير القانوني الإسلامي . وحسب قوله ، فإنّ القرآن الكريم يتضمن توجّهات أساسية باقية على مرّ الزمن ، ويزود المؤمنين بقيم أبدية ، غير أنه يشتمل ، في نفس الوقت ، على

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .

مواجهات مع مسائل تاريخية ، أعطى لها حلولاً مقيّدة بالمكان والزمان ، وملائمة لاحتياجات بيئة وعصر صاحب الرسالة (عليه السلام) . « فينبغي البحث عن تلك التوجّهات والأسس الملائمة لمواجهة مشكلات القرن العشرين . إذ إن الله تعالى كثيراً ما أورد في القرآن الكريم ، كما هو الحال في « الكتاب المقدس » ، أسلوب التمثيل والتعبير التصويري ، أو استعمال الرموز . لذا ؛ فإن التشبث بحرفية كلمات النصوص المقدسة ، لا يمثل شعلة الجماعة الإسلامية الأولى (السلف الصالح) ، بل يعبّر عن رماد تلك الشعلة فقط » .

وفي معرض تعليقه على مشكلة تأزّمت مؤخراً في فرنسا ، ونعني بها مسألة حمل التلميذات المسلمات على تغطية الرأس في المدرسة ، قال روجيه جارودي : « إن القرآن الكريم لا يرى في فهمه النهائي غير فرقٍ واحدٍ بين البشر ، ألا وهو درجة التقوى . والرجال والنساء متساوون من منظور الصيرورة والوجود ، وكل منهم مكمّل للآخر ، لذا ، فإن المساواة بينهم لا ينبغي أن ترمي أبداً إلى تحويل النساء إلى رجال . وليس للنساء الحق بالمعاملة المتساوية فقط ، بل لهم الحق بالمغايرة أيضاً . لذا فعليهم تغطية أنفسهم فقط بالقدر الذي يضمن تحقيق الغرض من حكم فرض الحجاب ، ألا وهو عدم السفور بالمفاتن الأنثوية بشكل يثير الغرائز . ولكن المسألة هنا ليست مسألة التزام شكل معيّن من الملابس ، بل هي تختلف من مدنية إلى أخرى » .

نهضة غير حقيقيـــة :

منذ سنوات بدأ الحديث عن نهضة إسلامية أو (بعث إسلامي) . والحقيقة أن أجزاء كثيرة من العالم تشهد كتلاً إسلامية آخذة بالتحرّك ، والإسلام أصبح أمراً جذاباً لدى الكثيرين . إلا أنّ السؤال حول ما إذا كان الإسلام يشهد ولادة جديدة في أسمى صوره أم لا ، سيبقى مفتوحاً .

برغم هذا فإن بعض المسلمين المعتزّين بإيمانهم ، يشكون من الفاقد الذي أخذ يبدو للعيان وبصورة متزايدة ، من المضمون الديني الحقيقي ، والأخلاقي ، والغيبي لدينهم . وفي بعض الأحيان ، يبـــدو الإسلام المعاصر وقد طغت عليـــه السياسة وظلّلته تماماً .

وقد كانت النهضة في أوربا تعني إطلاق القوى الخلاقة والإيجابية لدى الإنسان ، وفتح آفاق جديدة للثقافة والتعليم . بينما يبدو هذا البعد مفقوداً في التطبيق الإسلامي في أيامنا هذه . حيث يستنفد طاقاته في تقليد السلف ، وفي مجال العبادة طغت عليه العادة والروتينية ، وفي نطاق الحياة العامة تحوّل إلى قضية سياسية .

إن مشكلات أية جماعة دينية لا يمكن حلّها بالتطلّع إلى عصرها الأول ، والتعلق بمهدها ومنشئها . حيث إن التديّن يجب أن تكون له قيمته الذاتية . وعلى المؤمن أيضاً أن يثبت جدارته كل حين . ولا يثري التقليدُ عمليةَ التوجّه نحو القيم الحقيقية أبداً . وهذا التوجّه هو في الحقيقة واجب كل إنسان . مسلماً كان أو غير مسلم ، هذا إذا كان يريد النهوض بمهمة خلافة الله في الأرض علـى حقيقتها . لذا ؛ فإن المؤمن مطالب ، بالتحديد ، بأخذ زمام مصيره بيده ، إذ إن القرآن الكريم يقول : ﴿ **وأنْ ليس للإنسان إلاّ ما سعى** ﴾[1] .

الإسلام يشتمل على بعد أخلاقي كفيل بجذب الناس إليه :

إن الحماية الضئيلة لحقوق الإنسان في بعض المناطق المأهولة بالمسلمين ، تجعل الحاجة إلى تغطية النقص الحاصل في الجانب الأخلاقي واضحة للعيان .

وطالما لم يتمكن المسلمون من التصدّي بفاعليـــة لاستئصال المنكر المستحكم بينهم ، فلا دليل لديهم على شمول رحمة الله تعالى لتديّنهم . ويسوء الأمر تماماً عندما يتم عكس الدين وتأثيره إلى الضدّ . في حين أن الإسلام يمتلك جميع المقوّمات اللازمة لجعله ـ في عصرنا المتنوّر أيضاً ـ قوة أخلاقية ودينية مؤثرة وجذابة في خدمة الإنسانية . حيث يقول عالم الإسلاميات الألماني (ماكس هورتين) : « إن القيمة الكبرى التي يعلقها الإسلام على موضوع العدالة ، لهي دليل كافٍ على أن المسلم يعرف قيمة وكرامة الفرد الإنساني ويحترمهما . حيث إن الحديث المشهور يقول : « العدالة نصف الدين » .

(١) النجم : ٣٩ .

ويرى هذا البحاثة أن محبة الآخرين الإسلامية هي المعيار الحقيقي لاحترام الكيان الإنساني في الإسلام ، لأنها « تخرج عن الطوق » وتدل على الروابط القلبية . « والدين الإسلامي يبدو هنا في أعمق معايشة إرادية ـ خلقية ، وفي تأثيره الفعال في الحياة الاجتماعية ، كما يظهر كقوة مواخية بين بني الإنسان في أسمى صورها » ، والحديث الشريف يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه » .

وهنا تم إدراك الأساس الجذري لنشوء شرور البغضاء والعداوة بين البشر تمام الإدراك . إذ إننا غير مدعوين إلى القيام بأعمال البرّ الخارجية فقط ، مثل أداء الزكاة ، بل يجب علينا تطهير ميولنا ونوايانا تجاه الآخرين أيضاً : إذ إن التعاطف المنكر للذات مع الآخرين ؛ هو الذي يُضفي على الأفعال الخارجية قيمتها ، ومن دون ذلك ، فإن التوصل إلى حقيقة الإسلام الفعلية غير ممكن البتة . وتبعاً لذلك ، يمكن وصف محبة الغير مع إنكار الذات ، بأنها، بكل بساطة، حقيقة الإسلام وماهيّته. وورد في (لواقح الشعراني) بأن النبي صلى الله عليه وسلم ، قد سئل أي الإسلام أفضل ؟ فقال عليه السلام : « بذلُكَ المالَ لمن تعرف ومن لا تعرف ، وإطعام الطعام ، وإفشاء السلام » . وهكذا فإنّ محبّة الغير تتجلّى في صورة بذل العون المادي ، كما تتجلّى أيضاً في التعاطف والتضامن الشعوري مع الآخرين ، وتبدو ضرورة وشمولية التكليف بممارستهما تماماً ، مثل ندب إفشاء السلام ، وهذه الشفافية في الشعور التضامني تتطابق تماماً مع أسمى صور الإسلام ذاته . (هورتين) .

الابتعاد عن المشاركة في عملية التحرير لا يجلب أيّة منفعة :

واليوم ليس من النادر أن يتقابل الإسلام والمسيحية كضدّين ، للأسف . ويعود هذا التنافر ، في المرتبة الأولى ، إلى اختلاف مرحلة التطور التمدني بينهما . ففي حين أن الغرب المسيحي قد أحسن الاستفادة من المنجزات الرائعة لعصر التنوير ، الذي قام أساساً في منطقة دائرته الحضارية وعلى أرضه ، فإن الشرق الإسلامي لم يكد يمس ، ولو بنفحة بسيطة ، عصر التنوير ذاك . بل إن التفكير اللاّهوتي السابق على العصر الحديث ، والارتباط الشديد بأنماط التفكير والعيش العائدة إلى القرون الوسطى ، هي العوامل التي تجعل حياة المسلمين المقيمين في بلدان الغرب صعبة ومعقدة . علاوة على أن صدى

الأحداث المزعجة في الشرق ، والتي كثيراً ما ترتبط ، بطريقة أو أخرى ، بالاسلام ، تجلب المزيد من الصعوبات إلى وضعهم القلق .

ولعل لمسألة موقف المسلمين حيال الهياكل الديموقراطية للمجتمعات في أوروبا التي اختارت طريق العلمنة ، أبعد الآثار وأكثرها حسماً على مستقبلهم في هذا الجزء من العالم . ولعلّه من البدهي أيضاً ، أنهم لن يستطيعوا ، على المدى البعيد ، أن يبتعدوا بأنفسهم عن العملية الجارية لتعميق المفاهيم والممارسات الديموقراطية والتحررية في أوروبا ، حتى ولو أرادوا ذلك ورغبوا فيه . بل إن تمتعهم بالسعادة الشخصية وبالرفاه الجماعي في محيطهم الجديد ، يرتبط ، إلى حد بعيد ، بقابليتهم للتلاؤم مع ذلك المحيط ، وبتحمل قسطهم من المشاركة في حلّ مشكلاته ، وبالتضامن مع مواطنيهم من مختلف التوجهات الفكرية ، وباستعدادهم لتوسيع دائرة وعيهم الديني ، بالاستفادة من تجارب الآخرين ، مع التقيد الشديد بالمبادىء الاسلامية ، بطبيعة الحال .



جلسة العمل الرابعة للمؤتمر

الأربعاء ٢٤ من المحرم ١٤١٤هـ الموافق ١٤/٧/١٩٩٣م

* دراسة الدكتور محمد فاروق النبهان .

* دراسة حكيم حاج حافظ محمد سعيد والدكتور أنصار زاهد خان .

* دراسة الدكتور محمد عمارة .

* دراسة الدكتور علي اوزاك .



عقدت جلسة العمل الرابعة للمؤتمر العام التاسع للمجمع الملكي في الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم الاربعاء ٢٤ من المحرم ١٤١٤هـ الموافق ١٤/٧/١٩٩٣م في قاعة بترا بفندق ريجنسي بالاس ، برئاسة الدكتور هشام نشابة .

وقد ألقى كل من السادة التالية أسماؤهم ملخصاً عن الدراسة التي كان قد أعدها :

١ ـ الدكتور محمد فاروق النبهان، عن: « نحو خطة موحدة لمستقبل العالم الاسلامي».

٢ ـ الدكتور أنصار زاهد خان ، عن : « الانسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر اسلامية » وهي الدراسة التي أعدها بالمشاركة مع حكيم (حاج حافظ) محمد سعيد .

٣ ـ الدكتور محمد عمارة ، عن : « عالمنا حضارة واحدة أم تعددية في الحضارات » .

٤ ـ الدكتور علي أوزاك ، عن : « الانسان ومستقبل الحضارة الانسانية ، وجهة نظر اسلامية » .

وفيما يلي نصوص هذه الدراسات :

نحو خطة موحدة لمستقبل العالم الاسلامي

الدكتور محمد فاروق النبهان*

اتسعت مدارك الانسان في العصر الحديث ونمت اهتماماته ونضجت رؤيته بدرجات متفاوتة لقضاياه الانسانية ، فلم يعد انسان هذا العصر غافلاً عما يجري حوله من تحولات حضارية ، واهتزازات اجتماعية واضطرابات اقتصادية وأزمات انسانية ، وكل ذلك يجري بسرعة غريبة ، وكأن المجتمع البشري يعيش في قاعة مغلقة ، يسمع من يعيش جنباتها ما يجري في جنباتها الأخرى ، من جشع ظالم أعمت الأنانية المتولدة عن الترف عينيه عما حوله ، وأنّات متألم حجبه الألم عن كل ما يحيط به ، وشكوى جائع أنهك الجوع جسده ، وأحلام نائم قادته الأحلام بعيداً عن هموم أهله ..

ويقف الضمير الانساني حائراً متردداً ، يوقظ النيام ، ويحذرهم من مغبة غفلة قد تقود الى كارثة تقتل الآمال وتميت الحياة في مجتمع ساهمت أجياله المتعاقبة في توفير أسباب الحياة فيه ..

والانسان المعاصر المثقل بهمومه وأحزانه يتطلع الى يوم يجد نفسه فيه في قبضة رعاية توفر له الأمن النفسي وتبعد عنه أشباح الخوف من المستقبل وهي أشباح ليست أشباح وهم وسراب وانما هي أشباح تتراءى له من خلال مشاهدات حية لنماذج متفاوتة من الكوارث المتلاحقة ، سواء كانت كوارث طبيعية تصب جام غضبها على الانسان فتلاحقه وتطارده وتخيفه ، أم كانت كوارث ظلم يحمل لواءها معتدون آثمون ، جعلوا أنفسهم أوصياء على الانسان فطاردوا أحلامه الجميلة بسيوف القهر والظلم حتى استحالت آفاق الفجر المبشرة باشراق النور واطلالة الصباح نذراً مخيفة ذات قسمات مرعبة تخيف الانسان من الغد ، وكأن ذلك الغد هو امتداد لليل طويل ..

---

* العضو العامل في المجمع الملكي / مدير دار الحديث الحسنية / الرباط ـ المغرب .

وانسان اليوم يريد أن تكون حضارة الغد حضارة انسان يمد يده بمحبة ورفق الى أخيه الانسان، في شمال الأرض وجنوبها، وشرقها وغربها في تعاون وتناصر وتكاتف ، في رحلة الحياة من غد الى أمس ، وينال كل فرد حظه من ارثه الفطري والطبيعي في ملكية هذه الأرض ، مستخلفاً عليها مؤتمناً على خيراتها وصياً على ما توارثه من إرث الأولين من فضائل وأخلاق ، ساعياً في بناء هذه الأرض واستخراج الجديد من خيراتها ، لكي تكون في خدمة الانسان ..

ومن حق الانسان أن يتطلع الى المستقبل ، وأن يبحث عن مكانه في ذلك السجل الانساني ، وأن يدون فيه ما يقلقه ويخيفه ويرعبه ، وما يتمناه ويريده في صورة حضارية تلائم عصره وتستوعب قضاياه الملحة المتمثلة في تطلع مشروع الى الأمن النفسي والسلام الاجتماعي ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك الا من خلال الاحتكام الصادق للضمير الانساني الحي الذي تمثله حضارة الانسان في تعاطفها التاريخي الدائم مع المستضعفين من الأفراد والشعوب ..

والاسلام وهو رمز الضمير الانساني ، بما يمثله من قيم دينية رفيعة ، وعقائد سماوية سليمة ، وأحكام تشريعية عادلة ، ومواقف واضحة من الظلم ، وادانة صريحة لكل ما يخالف الفضيلة ، وينافي مبادىء الأخلاق ، يعتبر هو أداة المجتمع البشري لتحرير مفاهيمه ، وتصحيح مسيرته ، لكي تكون مسيرة الحضارة الانسانية مجسدة لقيم انسانية معترف بأصالتها ..

وتبرز حضارة الاسلام من خلال مواقفه الانسانية التي حمل الينا تراث الاسلام الكثير من معالمها . وأهم هذه المعالم ما يلي :

أولاً : الاحتكام الى العقل والثقة باختياراته ، واعتبار العقل البشري هو المخاطب بالنص الشرعي ، وهو المؤتمن على تفسير هذا النص ، ولا حدود لثقة الاسلام بقدرات العقل على التفسير والاجتهاد اذا توافرت في المفسر والمجتهد الشروط الموضوعية للتفسير السليم والاجتهاد السديد .

ثانياً : الثقة بالعلم ، والدعوة لتلقي العلم من العلماء المؤتمنين على الحقيقة العلمية ، والعلماء في المجتمع الاسلامي رموز مضيئة ومشاعل نور ، تغذي العقول بالمعرفة ، وتنقي الفطرة من شوائب الجهل والتخلف ، وتوقظ القلوب بخطاب الايمان ، وتحكم قبضتها على سلوك الانسان لكي يكون سلوكه سلوك استقامة وفضيلة ..

ثالثاً : احترام حقوق الانسان ، والاعتراف بالكرامة الانسانية ، لأن الإنسان في نظر الاسلام هو أسمى ما في الوجود ، وأكرم المخلوقات ، ولا تتحقق كرامته ، الا بحريته ، والحرية لا تعني الانفلات من القيود ، وانما تعني الاحتكام الى القدرة الذاتية للانسان في سيطرته على غرائزه الفطرية ، فلا يمارس غريزة الا في ظل ارادته الاختيارية التي يقودها عقل مميز ، يحكم قبضته على الحواس ، ويضبط حركتها الفطرية الغريزية بقبضة ارادية عاقلة مميزة ، واذا اعترف الاسلام بالكرامة الانسانية كحق يمثل امتداد وجوده الانساني فان اعترافه يتضمن الاعتراف بحق الانسان في الدفاع عن حقوقه بكل الوسائل ، ومن هذا المنطلق اعتبر الجهاد فريضة في نظر الاسلام ، لأنه امتداد طبيعي لاعتراف الاسلام بكرامة الانسان ، ولا يتصور اقرار حق الكرامة بدون اقرار حق المقاومة للدفاع عن تلك الكرامة ..

رابعاً : **اقرار أنظمة لتحقيق العدل الاجتماعي ، سواء فيما يتعلق بمطالب الانسان المادية أو فيما يتعلق بحقوقه الانسانية المعنوية** ، والفكر الاقتصادي الاسلامي غني بآرائه التي تجسد مبادىء العدل الاجتماعي ، سواء في التوزيع العادل للثروات وتحريم كل وسائل الكسب غير المشروع ، أو في رعاية شؤون المستضعفين من الفقراء والمساكين الذين يجدون في رحاب الانظمة الاسلامية احتضاناً كاملاً لاوجاعهم وآلامهم ، واعترافاً تاماً بشرعية حقوقهم في الحياة الكريمة ، من غير مذلة ولا منة ، في اطار نظام اجتماعي محكم ودقيق ، يعتبر نقطة الانطلاق في تكوين المجتمع الاسلامي ، ولا يتصور مجتمع اسلامي يحظى برعاية الاسلام مالم تحترم فيه أركان الاسلام ومرتكزاته التنظيمية ومقوماته الاجتماعية ..

خامساً : **الاعتزاز بالتـراث كرمز للأصالـة ، وكتعبير عـن الانتماء لحضارة متميزة ، بأبعادها الانسانية** ، والتراث ملهم للاجيال المتعاقبة ، وأداة لتطوير فكرها وعطائها ، ولا يمكن للتراث أن يكون نقيضاً لرؤية جيلنا لعصره واهتمامه بقضاياه المستحدثة والمتلاحقة والملحة ، والتراث جهد أجيال بانية وعطاء مبدعين متفوقين ، وليس التراث الماضي هو كل ما نملكه من قدرات ، فالأمم المعطاء المنجبة لا يتوقف عطاؤها ما دامت قادرة على الانجاب ، ولم تبلغ أمتنا مرحلة الشيخوخة والعقم ، ولن تبلغ ذلك ما دامت تتطلع الى المستقبل بأمل كبير وتعانق مفكريها وعلماءها بتشجيع معبر عن ايمانها بدور هؤلاء في اثراء فكرنا الاسلامي واغنائه .

ولا يمكن الثقة بأعداء التراث والمنكرين عليه دوره في حماية مسيرتنا العلمية ، فلا يمكن أن نبني الغد بتخريب ما أنجزته أجيال سبقت ، وتهديم صروح قائمة أدت دورها بكفاءة في حماية شخصيتنا الحضارية وثقافتنا الاسلامية ، والذين يبحثون عن المستقبل تحت أنقاض تراث يضيقون به ويعبثون بكيانه لن يجدوا تحت الأنقاض سوى سراب من الوهم سولت لهم نفوسهم أنه الطريق لبناء المستقبل ..

والشعوب التي تبني تحتاج الى ركائز ثابتة من تراثها تمدها بالرؤية المتميزة ، وتجسد قيم أصالتها ، لكي يكون بناؤها قوياً راسخاً لا تهدمه الزلازل ولا تهدده العواصف .

والتراث عنصر توازن في مسيرة الأمة الفكرية والثقافية والحضارية ، وأمة في مرحلة الاقلاع تجد في تراثها ملهماً صادقاً لا تضيق به ، وتراثنا ليس عبئاً على أجيالنا الحاضرة إنْ أرادت أن تضيف اليه وتنميه وترفع صرحه ، فما كان جديراً بالاعتزاز يجب أن نبرزه وأن نتعلمه وأن نستفيد منه ، وما كان عبئا على مسيرتنا من بقايا عصور التخلف من تقاليد ومفاهيم يجب أن نعيد النظر فيه لكي تكون منسجمة مع روح الاسلام معبرة عن القيم الاسلامية الحقيقية .

وليس هناك أي تناقض بين التعلق بالتراث والاعتزاز به وبين التطلع للمستقبل والتخطيط له، وتكوين الظروف النفسية للاعداد له ورسم ملامحه الاجتماعية والثقافية، ولا يمكن أن تكون صيغة المستقبل منقطعة عن الماضي متجاوزة له ، متجاهلة ركنيته في أي عمل مستقبلي ، والأمم الواعية تخط لنفسها طريق المستقبل وتصوغ ملامحه كما تريد لنفسها أن تكون ، محققة بعض مطامحها التي تتطلع اليها ، ولا يمكن للاسلام أن يمثل الماضي وأن يعنيه ، فالاسلام هو الخطاب التكليفي المتجدد ، الذي يحدد للأجيال المتعاقبة رؤيتها الفكرية ، ويرسم لها ملامحها التي تجسد القيم الانسانية الرفيعة ، التي تحارب الظلم الاجتماعي بجميع أشكاله ، وتندد بالاستبداد السياسي الذي يتجاهل حقوق الشعوب في بحثها عن الحرية والكرامة ، وتدين جميع أنواع السلوك الذي يتناقض مع الاستقامة ، وهذه قيم لا تمثل الماضي ولا تتوقف عند حدوده ، وانما تعني المستقبل ، ولا يمكن لأي شعب يخط معالم مستقبله أن يتجاهل أهمية هذه القيم الانسانية ، التي غذاها الاسلام في نفوس المسلمين ..

والأمم التي تشعر بالعجز والضعف وتتثاءب بكسل عندما تتحدث عن المستقبل تجد في الماضي مطية مقنعة لتبرير واقعها ، وكأن الماضي بعظمة ما تركه من آثار يغنيها عن البحث في المستقبل ، وهذه نظرة قاصرة ، وعجز يجب أن نقاومه بالارادة والعزم والتضحية ، ولا نريد لحاضرنا الذي نعيشه اليوم أن يكون الماضي المظلم في مسيرة أمتنا ، ولا نريد أن نكون الحلقة المفقودة في سلسلة تاريخنا ، فالماضي تتفاوت مكانته بحسب ما أعطته أجياله وأسهمت به ، فمنه الماضي المليء بالمنجزات والعطاءات والمواقف والانتصارات ، ومنه الماضي الشاحب المتردد الحائر الذي يجسد حالة التخلف السياسي والتراجع الفكري والضياع الثقافي ..

والمستقبل الذي تريده أمتنا هو ذلك النموذج التي تبرز فيه ملامح الرؤية الانسانية في علاقة الانسان مع ذاته وفي علاقته مع الآخرين ، سواء كان ذلك الآخر هو الفرد أم المجتمع أم العالم ممثلاً بدوله وشعوبه ، وهذه هي الانطلاقة الأولى في بناء حضارة سليمة متوازنة مؤهلة للاستمرار .

ولا يمكن أن تسيطر الرؤية الانسانية على مسيرة الحضارة الا من خلال أداتين للتوازن ، الأولى تمثل أداة التصحيح الذاتي للسلوك الانساني من **خلال دور الدين في التربية والتكوين وصياغة ملامح الشخصية المتوازنة، والثانية : تمثل أداة التمييز العقلي الذي ينبثق تلقائياً من سلامة الأسس المعرفية التي يتلقاها الانسان من البيئة المحيطة به ، كالبيت والمدرسة والكتاب والإعلام ، ومصادر المعرفة واسعة التنوع** ، والشخصية السوية تستمد رؤيتها المعرفية مما يحيط بها من أنواع المعارف المحيطة بالانسان .

والمعرفة أشمل من العلم ، والعلم هو أداة المعرفة ، وكلما اقترب العلم من الانسان أسهم في تكوين شخصيته المعرفية ، والعلم الذي لا يفيد الانسان في حياته ، ولا يلبي مقاصده وغاياته ولا يسهم في تكوين انسانيته لا يعتبر علماً نافعاً ، ومن اليسير الاستغناء عنه ، لكي تعيش مجتمعاتنا في ظل التزامها بانسانية الحضارة ، والحضارة التي تغفل انسانية الانسان وتنمي فيه مشاعر الانانية وتميت في كيانه عواطف الرحمة فلا يتحرك قلبه أمام مأساة الانسان وآلامه سرعان ما تفقد بريقها ، ويسعى بعضها في تهديم البعض الآخر ، في تنافس غير أخلاقي على المنافع والمصالح في ظل تكتلات جهوية واقليمية وقومية متناحرة ، تضيق الخناق على الحقوق المشروعة للانسان المعاصر المستضعف والمستذل ، فتدفعه دفعاً قوياً نحو الانغلاق اليائس الذي يؤدي الى تطرف مقرون بالعنف يعبر عن حالة يأس من الواقع ، وتمرد على كل القيم السائدة ، ورفض لكل القوانين الوضعية الجائرة ..

ومجتمعاتنا العربية الاسلامية مدعوة لاقرار استراتيجية موحدة تعبر عن رؤيتها المستقبلية ، والخطوات الضرورية التي تؤكد حرص هذه الأمة على أن تواجه المستقبل بعقلية واعية مدعمة بخطة عمل مدروسة ، يعكف على إعدادها علماء متخصصون في الميادين العلمية التي تتوقف عليها حياة الأمم ، وتعتمد هذه الخطة على دراسات وتقارير وتوقعات صادقة ودقيقة ، بحيث تكون هذه الخطة المستقبلية هي رمز التواصل بين الأجيال المتعاقبة ، توضّح فيها الثوابت والمبادىء ، وتَبيّن فيها المتغيرات التي تفرضها التحولات والتطورات .

وأهم ما يجب أن يراعى في هذه الخطة المستقبلية ما يلي :

أولاً : التأكيد على أهمية وضوح الهوية الفكرية والثقافية لهذه الأمـــة وهي هوية الانتماء الى الاسلام كعقيدة وثقافة وسلوك وتشريع ، « والاسلام » هو المشروع الحضاري لهذه الأمة ، بمفاهيمه الشمولية ورؤيته لمكانة الانسان في الحياة ، وطبيعة العلاقة بين الانسان والكون .. وبمقتضى هذا المبدأ تتحدد ثوابت أساسية في مجال وضوح الانتماء الايدلوجي والثقافي ، وما يتطلبه هذا الانتماء من حق هذه الأمة في الدفاع عن وجودها ومصالحها وأرضها ولغتها وثقافتها وكل ما تجسده معاني الانتماء من خصوصيات ، ولا حياة لأمة اذا لم تكن قادرة على الصمود في وجه التحديات التي تستهدف خصوصياتها الذاتية ، من عقيدة وتراث وثقافة وتاريخ ولغة ومقدسات .

ثانياً : الثقة بالمواطن كوعاء لكل آمال التقدم وكأداة حية للنهوض الاجتماعي وكطاقة انسانية تمثل قاعدة للترابط والتواصل بين الانسان والحياة بكل امكاناتها العلمية والتكنولوجية ، والثقة بالمواطن تتطلب توفير ضمانات انسانيته من حقوق وحريات تضمن له الكرامة والأمن النفسي ، ولا كرامة لمواطن يفتقد حرية من حرياته السياسية والاقتصادية والفكرية والشخصية ، وحقوق المواطن في نظر الاسلام لا تحتاج لاقرار دستور واعتراف قانون ، فما أقره الاسلام من حقوق وحريات لا يملك دستور أن ينكره ، ومهمة الدستور كفالة هذه الحقوق والسهر على توفيرها بقوة السلطة التي أناط بها الشعب مهمة الحفاظ على الحقوق المكتسبة بقوة الوجود الانساني ، والولاء بالمفهوم الشرعي هو الولاء للشعب الذي تنبثق من إرادته المعبر عنها بالانابة والتوكيل كل الشرعيات التفويضية .

ثالثاً : مضاعفة القدرات الانسانية في بناء الهيكل الحضاري وتكوين مقوماته وأسبابه عن طريق الاستخدام الأمثل للقدرات العلمية ، والعلم تراث حضاري ساهمت البشرية من خلال الحضارات المتعاقبة في اغنائه واثرائه ، لكي يكون أداة الانسان للنهوض والتطور والتقدم ، وكلما تطور العلم استطاع الانسان أن يسخّر الطبيعة لخدمة الانسانية ، توفيراً لأسباب الحيـــاة وتيسيراً على الانسان

لكي يعيش حياته براحة وأمان . والعلم هو أداة الانسان لتكوين قدراته العقلية ، والعلم الذي لا يفيد الانسان ولا يسعى إلى خيره وسعادته لا يحتاج اليه الانسان. وتكمن أهمية العلم في تكوين قابليات نفسية للتفكير السليم ، تسهم من خلال مناهجها العقلية في تطوير أساليب الفهم وطرق الاستنباط لكي يتمكن الانسان من تحقيق نتائج مفيدة في علاقته مع الطبيعة .. ولا يمكن أن يتحقق هذا الهدف الا عن طريق العناية بمؤسسات البحث العلمي وتطوير مناهج التعليم ووضع أسس علمية للمناهج التربوية ، بحيث تكون غاية التربية والتعليم تطوير ذهنية الطالب وتكوين قابليات عقلية متنوعة تمكنه من استكشاف العالم الذي يحيط به ، سواء كان ذلك العالم الخارجي عالم المعرفة والعلم أم عالم الممارسة السليمة للمسؤوليات والقدرة على حل المشكلات ، ولا يمكن أن يتم ذلك الا عن طريق تكوين ملكات ذاتية وقدرات شخصية وتوليد طاقات عقلية تمكن الانسان من التعايش السليم مع الحياة المتغيرة والمتطورة ، في اطار استعدادات نفسية للتكيف السليم مع التحولات التي يفرضها عالمنا المعاصر على هذا الجيل ..

رابعاً : ايجاد صيغة واقعية ممكنة لتعاون دولي بين المجموعة العربية الاسلامية والمجموعات الدولية ، في ظل تبادل عادل للمصالح ، واحترام كامل لقواعد المنافسة الاقتصادية ، ولا يمكن لعالمنا العربي أن يواجه التكتلات الدولية السياسية والاقتصادية ، سواء كانت تكتلات اقليمية أم تجمعات اقتصادية ، بالمواقف الانفعالية مكتفياً باتفاقات ثنائية غير عادلة تخفف أعباء ما تولده هذه السياسات الدولية من تجاهل لحقوق الشعوب في الدفاع عن مصالحها ، وعالم اليوم والغد هو عالمُ الأنانية المفرطة وعالم التسابق والتنافس ، وتحكمه معايير قوة ومصالح متبادلة ، ولا يمكن لصوت العقل والحكمة أن يسمع في قاعة مغلقة تتعالى فيها الأصوات وتتنافس الحناجر في التعبير عن غضب مكبوت وتوتر مرهق للأعصاب ، وبلادنا تملك أعظم الامكانات وتسيطر على ثروات طبيعية كبيرة ، وهي سوق رائجة لانتاج عالمي متنوع ، وهي قادرة إنْ أرادت على أن تحكم قبضتها على مصالحها الحيوية ، وتدافع عن حقوقها المشروعة بقوة الحجة والقانون ، وبقبضة القرار المعبر عن إرادة أمة متكافلة متناصرة .

واذا كان عالمنا ينتمي لعالم الجنوب المستذل بسياسة الهيمنة التي تحكم قبضتها على مصير الشعوب ، فان عالم الشمال لا يمكن أن يتنفس الا من خلال الرئة الجنوبية التي تعتبر المجال الحيوي لاقتصاد الشمال ، سوقاً مستهلكة ، وعمالة رخيصة ، ومناجم مليئة بكنوز من المعادن والمنتجات الضرورية لحضارة العصر ، وتكمن قوة الجنوب في قدرته على التلاحم والتواصل والتناصر لكي يفرض ذاته وكيانه من خلال مؤتمرات الحوار الشمالي الجنوبي ، وهي مؤتمرات اسكتشاف الآخر ، والآخر القوي المدعم بقدراته وامكاناته هو الأقدر على الامساك بناصية القرار ، سواء كان ذلك الآخر هو الشمال أو الجنوب ..

والخطوة الأهم في مسيرة أمتنا أن نعيد النظر فيما هو ايجابي وسلبي في حياتنا ، لكي نكتشف مواطن التعثر في سريان الدم في هذا الجسد ، فالشريان الذي ضاق وحبس دماء الحياة عن التدفق سرعان ما يؤدي الى شلل مفاجئ ، يعطل عمل بعض الأعضاء ، ولا يمكن لأمتنا أن تظل مستسلمة متهالكة وهي ترى صروحها المبنية بأحجار ثمينة من جهد أجيالنا السابقة تتساقط واحدة بعد أخرى مخلفة وراءها شعوراً بالاحباط النفسي الذي نرى معالمه اليوم شحوباً وتجاعيد في وجه كل مواطن ، حتى كادتْ ابتسامةُ الأمل على وجوه أطفالنا تفقد براءتها وجمالها ، ولسنا في الوضع الأسوأ كما نظن ونعتقد ، ويكفينا أننا ندرك الأمراض جيداً ، وننكر على أنفسنا أن نستسلم لها ، وأمة تُدينُ ما هو منكرمن سلوكها جديرة بأن تكون في موطن الثقة والجدارة ، فليس كل ما نعيشه سيئاً ، وليس كل ما ننجزه عبثاً ، واذا كنا عاجزين عن تحقيق النصر بسبب قوة المواجهة بين أمتنا والتحديات القاسية المفروضة عليها فاننا ما زلنا حتى اليوم نرفض الاستسلام ، ولا نضيق بالتضحية ، ونرفع أصواتنا بالانكار على كل من يفرط بحق من حقوقنا ، وهذا القدر من المقاومة يجسد حالة الوعي ويعبر عن سلامة الرؤية ..

ولا يجوز لنا أبداً أن نواجه المستقبل بمشاعر الاحباط ، ولا أن نستسلم أمام التحديات ، فنحن في بداية الطريق بعد ليل طويل ، وما زلنا نبحث عن الطريق الأفضل، وليس هناك طريق أسلمُ وأصحُ وأفضلُ من طريق الاسلام ، فهو الاختيار الوحيد الذي

لن يقودنا الى ضلالة ، لأنه يمثل بالنسبة لنا كل معاني الانتماء ويعمق في نفوسنا مشاعر الثقة بالنفس ، ويقودنا برفق الى المستقبل الذي نريده ..

ولا يمكن لأمة أن تبحث عن ذاتها خارج نطاق البيئة التي نمت فيها تلك الذات ، ففي تلك البيئة نجـــد ملامح الأمس وذكريات الطفولة ، ولن نكون غرباء أبداً في أحياء بلدنا ، ولن نبحث عن ذاتنا في أزقة العواصم العالمية ، ولن نجد هويتنا الا حيث يمكن أن تكون ..

الإنسان ومستقبل الحضارة : وجهة نظر إسلامية

حكيم (حاج حافظ) محمد سعيد*

والدكتور أنصار زاهد خان**

يترك اقتراب القرن العشرين من نهايته في ذيوله إدراكاً عميقاً للمشكلات التي تواجه عالمنا الحالي . ويبدو أن انهيار الاستعمار الغربي والشيوعية الدولية - وكلاهما نتاج للحضارة الغربية العلمانية والعقلانية ، إلى حد أصبحت معه إلحادية وذات طابع استغلالي - يؤذن بقرب انتهاء الهيمنة الغربية .

إننا نشعر بأن نظاماً عالمياً جديداً آخذ في التكوّن ، وإن كان من المتعذّر في الوقت الحاضر معرفة الشكل الذي سيتخذه هذا النظام . بيد أنه يمكن القول ، على الأقل ، انه لا يمكن أن يكون أحاديّ القطب ، لأن ترتيباً من هذا القبيل يتناقض مع الطبيعة البشرية ذاتها . فالناس مختلفون بعضهم عن بعض ، وينطلق التقدم الإنساني من هذه الحقيقة بعينها . وها هي الخلافات في الآراء والقيم والأهداف تطلق عملية التطور الإنساني الجدلية من عقالها على صورة فعل ورد فعل ، ثم تركيبة مؤلفة من الأخيرين معاً .

لذلك ؛ فإن اقتراب نهاية هذا القرن وبداية القرن الحادي والعشرين يدعونا إلى التوقف وإمعان الفكر في ظروفنا الراهنة ، والتعرّف إلى مشكلاتنا وتحليلها ، ومن ثم محاولة صياغة سياسات وأهداف وغايات للمدى القريب والبعيد على حدّ سواء . علينا أن نستعدّ لمواجهة نظام عالمي يكتنفه الغموض لبعض الوقت في الأيام المقبلة . غير أن المرء يجد أن نهاية الحرب الباردة وزوال الشكل الذي كان عليه العالم الغربي والشيوعية، بتحالفاتهما وترتيباتهما ، قد استهل ردّة على عالم متعدد الأقطاب ، مع التركيز على مواجهات عرقية وقومية ودينية . ولا مفرّ من تزايد هذه الصراعات مع تزايد

* العضو العامل في المجمع الملكي / رئيس مؤسسة هامدارد / كراتشي - باكستان .

** مؤسسة هامدارد / كراتشي - باكستان .

الضغط السكاني وتناقص الموارد الاقتصادية . أما العالم الغربي الذي اعتاد الاعتماد على موارد العالم الثالث ، فسوف يعمد إلى اتخاذ اجراءات اقتصادية قاسية ، مع إدراكه لتزايد صعوبة استخدام هذه الموارد . وسوف يفاقم ظهور القوى الاقتصادية في الشرق الأقصى من هذه الصراعات . كما ستزيد منها تطلعات العالم الثالث نحو تقدّم مادي وعلمي واقتصادي . ولذا ؛ فقد نشهد في السنوات المقبلة استعماراً اقتصادياً وصراعات على صورة محاولات يقوم بها المَرَدَةُ الاقتصاديون بغية التحكم بناصية الاقتصاد العالمي ، كما ستشهد نزاعات إقليمية وتطهيراً عرقياً ، وعالماً سوف يجد الضعفاء معه أن من الصعب عليهم البقاء على قيد الوجود . وسيكون ذلك أكثر انطباقاً على ما يسمى بالعالم الثالث ، وهو عالم المحرومين .

أما نحن المسلمين ؛ فسنواجه في صورة هذا المشهد مصاعب أعظم مما تواجهه بقية أقطار العالم . فنحن جزء من العالم الثالث لكننا ، مع ذلك ؛ منفصلون عنه ، ولدينا عدد من المشكلات الخاصة بنا . وسنحاول هنا أن نأتي على لمحة عامة لهذه المشكلات ، ونضع أهدافاً ومعالم محددة من أجل صوغ سياساتنا وأهدافنا .

وفي تعايشنا الممتدّ على مرّ العصور مع العالم غير الإسلامي ، يبدو أن المواجهة الشديدة الحالية لا تقلّ احتداماً وحدّة عما كان عليه الأمر أثناء الحروب الصليبية . إذ إن الغرب ، منذ مدة ، مسيطر على العالم ، ويحدث تأثيره في الثقافات المحلية والوطنية . وكان لهذا التأثير نتائج سلبية ومنهكة لهذه الثقافات . وفي حالة المسلمين ؛ فقد أدى ذلك إلى « صراع هويّة قويّ » أو « أزمة هوية »[1] . وبدأ هذا الصراع عندما أخذت القوى الاستعمارية الغربية ، أثناء سعيها لتقوية قبضتها على السكان المحليين ، في تدمير المؤسسات الثقافية المحلّية التي غالباً ما يتصدر خرّيجوها المعارضة لهذه القوى ، ابتداء من شمال إفريقيا وحتى أندونيسيا . كما حاولت القوى الاستعمارية خلق طبقة محليّة من صغار الموظفين والكتبة الذين كانوا انجليزاً أو فرنسيين أو هولنديين أو روساً في لغتهم وسلوكهم وملبسهم . كذلك قامت تلك القوى بتغيير الأنظمة القانونية والاقتصادية المحلّية .

(١) عبدالله الحسن ، أمّة أو قومية ؟ أزمة هوية في المجتمع الإسلامي المعاصر ، المؤسسة الإسلامية ، ولتشاير ١٩٩٢م .
وفون غرونباوم ، الإسلام الحديث : بحث عن هوية ثقافية ، مطبعة جامعة كليفورنيا ١٩٦٢م .

وقد أصبح هؤلاء الأشخاص المحليّون ، الذين تلقوا تعليماً يتّصف بالعقلانية والتحرّر والعلمانية مع الدعم الإداري ، حكاماً في نهاية المطاف بعد الاستقلال . وباستثناء السعودية والإمارات العربية المتحدة ودول-أخرى ، لا يزال هؤلاء يمسكون بالزمام في البلدان الإسلامية جميعها . وأدّت هذه الازدواجية إلى إحداث شرخ عميق في هذه البلدان على صعد الحياة الإسلاميـــة الثلاثة جميعها : الفردي والوطني والإسلامي . وينطبق ذلك بصورة خاصة على المثقف المسلم العصري ، الذي يجد صعوبة في التوفيق بين القومية الحديثة ومفهوم الأمة (الإسلامية) ، وأمثال هذا المثقف متردّدون أيضاً في تقبل أسلوب الحياة العلماني . ونظراً لإدراكهم التام لمزايا شكل الحكم الديمقراطي ، فإنهم يتوقون إلى التوفيق بينه وبين رؤيتهم لعصر الإسلام الذهبي ، أي عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة الراشدين . وقد تفاوت ردّ فعلهم إزاء هذا الصراع ، من تقليد كامل للغرب ، كما حدث في تركيا الكمالية والحكومات التي يسيطر عليها الاشتراكيون في الجيلين الأخيرين من القرن الحالي ، إلى عودة للمثل الإسلامية العليا التي يدعوها الغرب بالأصولية الإسلامية .

وبعد أن اجتذبهم بريق التقدم العلمي والتقني والمادي ، فإنهم يرغبون في تحقيقه . وكما سبق قوله ، فقد حاول عدد منا استخدام البديل الاشتراكي ، كما سعى آخرون إلى اتباع النظام المصرفي الرأسمالي . وقد أخفق البديل الاشتراكي في مهتمه ، أما الثاني فقد جرّ في ثناياه مصدراً آخر للتصارع داخل المجتمعات الإسلامية ، ألا وهو نظام الربا . وقد حَدَتْ المزايا الواضحة لتعبئة رأس المال واستخدامه عن طريق الفائدة الربوية والمصارف ببعض أبناء أجيالنا الأولى إلى سلوك طريق وسط ، وذلك بتمييزهم بين الفائدة Interest والربا usury ، وأعلنوا أن الفائدة والتأمين وما شاكلهما ليس من الأمور المخالفة للإسلام . لكن الأسياد الاستعماريين جعلوا من النظام المصرفي والفائدة شرعة ، بحيث أصبح الاقتصاد برمّته يقوم عليهما . وانتشر هذا النظام وتجذّر حتى أصبحنا ـ رغم كل نوايانا الطيبة ـ عاجزين عن التخلص منه . وقد أدت الحقائق المريرة الحديثة التي مؤداها أن القوى الغربية ليست علـــى استعداد لقبول أي تحدّ لنظامها المصرفي ، وتستخدم الوسائل جميعها للحيلولة بين المساعي الإسلامية وبين السيطرة عليه، أدّت إلى إثارة بعض الشكوك حول ما يعود به علينا من نفع على الصعيد الدولي .

وأما العامل الثالث في هذه الأزمة ، فهو رغبة المسلمين في إعادة نظامهم الشرعي الإسلامي السالف وقيمهم الخلقية الماضية . وهذه ظاهرة جديدة ، لأنها لم تخرج إلى حيز الوجود إلاّ في البلدان التي كانت تسيطر عليها القوى الاجنبية ، وبعد أن استعادت هذه البلدان استقلالها . وقد تفاوت ردّ الفعل هنا بين رفض صريح لإعادة النظام الذي كان سائداً في الماضي ، وإعلانات كلامية فقط عن بذل جهود إيجابية ، كالصلاحيات التي استخدمتها المحكمة العليا ومحاكم أخرى رفيعة الدرجة في باكستان(1) .

ويضاف إلى مشكلات الصراع الداخلي داخل الكيان السياسي للبلد ، المشكلات ذات الطابع الشامل في العالم الثالث ، كالافتقار إلى الموارد الاقتصادية من أجل التقدّم والبحث والتطوير ، والأمية ، والمشكلات الصحية وغيرها .

وتتضاءل هذه العوامل جميعها أمام تهديد العداء والكراهية اللذين يبديهما الغرب تجاه المسلمين والإسلام .

ولعل بالإمكان تتبع جذور هذه الكراهية والعداء إلى الحقبة المجيدة الأولى للتوسع الإسلامي ، عندما انتشر الإسلام بسرعة من إسبانيا إلى حدود الصين وجنوب آسيا . أما الطور الثاني من هذا الصراع الذي أعقب الحروب الصليبية بذكرياتها المريرة ، فقد أتى أخيراً مع التوسع الأوروبي الحديث وهيمنته على بقية أنحاء العالم . وخلال هذه الحقبة الزمنية البالغة الطول ، التي تناهز ألفاً وخمسمئة عام ، تمّ تكوين صورة مشوّهة للإسلام والمسلمين وإدامة هذه الصورة : أولاً على شكل ردة فعل دفاعية من أوروبا في مواجهة رسالة الإسلام ، وثانياً أثناء العهد الاستعماري على شكل الاستشراق ، لإضعاف المقاومة المحلية ونشر المعتقدات المسيحية ، بناء على الافتراض الاستعماري الخاطىء القائل إن ذلك سيشد من أزر الإمبراطوريات الاستعمارية . وما فتئت هذه الصورة تؤثر في المواقف والسياسات الغربية ، لا بل إنها تزداد حدّة بسبب انتشار المعتقدات الإسلامية في تلك البلدان ، وتحاول في أجهزتها التربوية والدعائية أن تلوّن المسلمين والإسلام بأشدّ الألوان قتامة ، بحيث تغرس حاجزاً من الكراهية ضد انتشار العقيدة الإسلامية .

(1) نسيم حسن شاه ، المفهوم الإسلامي للدولة وأثره في أسلمة القوانين في باكستان ، مجلة همدارد إسلاميكوس Hamdard Islanucus ، المجلد ١٦ ، العدد ١ ، ١٩٩٣م .

وتصطبغ هذه العداوة ، في ظاهرها ، باعتبارات اقتصادية . ومن اللافت للنظر أن أشار أحد علماء الدراسات الإسلامية إلى خطر فقدان الولايات المتحدة لإمدادات النفط الإيرانية نتيجة للثورة التي أطاحت بنظام الشاه . ولذا ؛ فإن القوى الغربية لا تألو جهداً في دعم ما يسمى بالجماعات العلمانية التحرّرية في الأفكار الإسلامية ، متجاهلة طابع الحركات الشعبية الديمقراطي المناوىء للملكية والاقطاع . ويدهش المرء لرؤية هذه الديمقراطيات التي تتشدق بملء أفواهها في إعلاناتها عن حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية ، وهي تساند الدكتاتوريين العسكريين القساة والطغاة ، من إفريقيا إلى أندونيسيا .

اقتراحـــــات :

يمكن ، بصفة عامة ، ذكر خطوات لتخفيف وطأة ما يعانيه المسلمون من بلاء ، وإيجاد حلول لمعضلاتهم ، وذلك ضمن ناحيتين رئيستين :

١ ـ توفير الأمن للأمة الإسلامية .

٢ ـ تحقيق الازدهار والتقدم والقوة .

ويمكن تحقيق الهدف الأول من خلال السعي إلى تحسين خلق المسلمين وطابعهم ، بحيث يصبحون مرة أخرى قدوة للبشر وأفراداً في خير أمة أخرجت للناس . ويتطلب ذلك تهذيب أخلاق الأفراد والجماعة . وسيؤدي تلقائياً إلى إزالة الصورة المشوهة للإسلام ، التي تقوم على أنه متعصب ومرادف للفساد .

وإضافة إلى تقوية النسيج الخلقي بهذه الصورة ، لا مندوحة لنا عن تكريس اهتمامنا بالحصول على المعرفة حتى من أقصى بقاع الدنيا . وكلنا يعرف أن الإسلام أولى المعرفة كل الاهتمام ، حيث بدأ بكلمة ﴿ اقرأ ﴾[1] . والعلم والتعلّم هما السبب الوحيد المفتوح أمام الشخص العادي ، من أجل أن يصلح من شؤونه ، ويحظى بالمكانة الكريمة والقوة والهيبة بين أهل الأرض . وعلينا في هذا الصدد بذل قصارى جهدنا للاستفادة من المنابر الدولية مثل اليونسكو . كما يعني ذلك ضمناً أنه لا بدّ لنا ـ كما

---

(١) العلق : ١ .

فعلت ماليزيا ـ من تخصيص نسبة كبيرة من ميزانياتنا الوطنية للتربية والتعليم والبحث والتطوير . والتعليم ، وليس الأسلحة المتطورة ، هو الجواب .

إن ازدهار الفقراء وتقدّمهم في العالم مهدّد من الاستغلال الرأسمالي ، وقد حلّ الاستعمار الاقتصادي محل الاستعمار السياسي ، وعلينا أن نتعلّم تحقيق التقدّم اعتماداً على قوتنا ومواردنا لا على رأس المال المقترض من القوى الغربية . إن المعونات والقروض هي الأصفاد الحديثة التي تكبّل حكوماتنا .

ومن سوء الطالع أنّ أولئك الذين يتمتعون منّا بالرفاهة الاقتصادية من خلال ما حبتْهم به الطبيعة من نعم وبركات ، خاضعون بدورهم للغـــرب عن طريق النظام المصرفي . وقد أصبحت الفائدة الربوية والمصارف ، وهي أسس التقدم الاقتصادي الحديث ، أدوات تستخدمها الأمم الثريّة لممارسة الاستغلال . وقد بيّن الإسلام مخرجاً من هذه الورطة بإلغائه الفائدة ، فهل تبلغ الجرأة بالمسلمين درجة تمكّنهم من إعادة انطلاق نظام اقتصادي خال من الربا مع اقتصاد سوق حرّ وترتيبات لتعبئة رأس المال ؟ وهل ستسمح المصارف القوية في الغرب بذلك ؟ لقد رأينا أنها ليست على استعداد للسماح للمسلمين بمنافستها في العمل المصرفي .

ولا مندوحة لنا أيضاً عن مزيد من الوحدة والجهد التعاوني المنظم على هيئة منظمة مؤتمر إسلامي أقوى مع ما يرافقها من منظمات ، وذلك للتأثير في الرأي العام العالمي بممارسة الضغط الأدبي في المنتديات الدولية عن طريق استخدام أفضل لوسائل الإعلام ، بحيث نكبح جماح وجهات النظر المنحازة والمعادية للإسلام .

وعندي أن أهم واجب أمامنا هو الحاجة الماسة إلى تقويض الخرافات المشوهة الباطلة القائمة على المشاعر المناهضة للإسلام في العالم الغربي .

لا بد لنا من إدراك أن العداء الغربي للإسلام ظاهرة قديمة العهد . أما إزالتها أو تحويلها إلى تفكير إيجابي فأمر يحتاج إلى جهود منسقة وعلى المدى البعيد . وكما أسلفنا فإنه لا مناص لنا ـ كشرط مسبق لهذا التحوّل ـ من تغيير أنفسنا وتقديم صورة لنا كمواطنين متميزين في العالم .

وعلينا ألاّ نعتمد فقط على سياسة الاندفاع والمواجهة الانفعالية والاحتجاجات حول كل قضية وتوجيه الشجب للغرب . ولا بدّ لروح (صلح) الحديبية من أن تحكم مساعينا وحياتنا . لم تكن الحديبية نصراً بالمعنى العسكري بل انفتاحاً أو مخرجاً واضح المعالم نحو السلام . إذ أظهرت للكفار أن الإسلام لا يصرّ على القضاء عليهم بل يسعى إلى تزويدهم بطريقة حياة أفضل . إن السلام وليس الحرب هو سبيل الإسلام .

وعلينا أن نعلمهم (الغربيين) أن الجهاد الأكبر هو جهاد المرء ضد العناصر الرديئة في نفسه ، وأن هذا الجهاد حرب ضد الظلم .

ومن واجبنا أن نطرح أمام العالم أهمية حقوق العباد ومفاهيم المساواة والإخاء والعدالة والإحسان على أنها أسس حياة الفرد ، وهي كذلك دعائم النظام الاجتماعي والكيان العالمي .

إن المشاورة والمحاسبة في شؤوننا أساس الحياة السياسية الإسلامية ، ومما يلفت النظر أن ذلك أساس النظام الديمقراطي أيضاً . وليس قيام الحكم الدكتاتوري ونظام الحزب الواحد بأسلوب حياة إسلامي ، لكنه ظاهرة شائعة في العالم الثالث بل موجودة في الغرب أيضاً . فالإسلام نظام ديمقراطي قادر - رغم عيوب المجتمعات الإسلامية الحالية جميعها - على الإطاحة بالملكيات القوية وبالقوى العظمى وتحدي كل حاكم مستبد .

وإلى جانب ذلك علينا السعي إلى إقامة « حوار » مع الآخرين والتجاوب الإيجابي مع المساعي جميعها للتقارب العالمي ، إذ إن ذلك سيزيل سوء التفاهم والمخاوف ويشجع العلاقات الودّية .

ويجب أيضاً بذل الجهود لجعل الآخرين يدركون أن التقدم لا يعني التوافق والتجانس على كل صعيد . فقد خلق الله الناس أفراداً مختلفين ، وينمو الناس ويتطوّرون نتيجة الخلاف في الآراء إذ يؤدي ذلك الى فتح باب الجدل وهو أساس عمليات التطور كافة . أما الخلاف فيجب أن لا ينظر إليه على أنه أصولية أو نزعة تقليدية نحو الظلامية والجمود . وإذا عدّ المسلم مسلماً فشأنه في ذلك شأن أي من أصحاب العقائد الأخرى مسيحية أو يهودية أو كنفوشية أو بوذية أو غيرها .

ومن الواجب أن يكون هدفنا وجود نظام دولي في القرن الحادي والعشرين يحقّ فيه لكل مجتمع دون استثناء أن يتمتع بحرية تطوير صيغته الخاصة من حيث العلاقات بالآخرين . وإذا لم يتحقق ذلك فإن الاحتكاكات العرقية والقومية والدينية النابعة عن ضيق الأفق ستجعل القرن القادم قرناً مرعباً مخيفاً . إذ إن مآسٍ كاغتصاب البوسنة والهرسك أو فلسطين أو كشمير ستتكرر في كل مكان . وإنا لنرجو الله أن يحمينا ويحمي الآخرين من هذه المزالق البشرية .

عالمنـــــا :
حضـــــارة واحـــــدة ؟
أو تعددية في الحضـــــارات ؟؟

الدكتور محمد عمارة*

قد لا يختلف الكثيرون في الإجابة عن هذا السؤال ، إن هم انطلقوا إلى الاجابة عنه من « الواقــع » ، المتجسّد في معالـم التمايز الحضاري ، تلك التي ترسم « حدوداً » لـ « الأوطان الحضارية » هي الأكثر رسوخاً والأطول أعماراً ـ في حياة الأمم والشعوب ـ من تلك التي تمثل « الحدود السياسية » للدول والإمبراطوريات .

فتميز اليابان ، كحضارة ذات هوية خاصة تميز أمتها ، عبر تاريخها الطويل ، هو حقيقة لا يختلف عليها السائحون ، فضلاً عن أهل الذكر والاختصاص !..

وتميز الهنـــد ، كحضارة مالكة لهوية حضارية خاصة ، أمـــر لا مجال فيه للاختلاف ..

وكذلك الحال بالنسبة للصين ، كحضارة متميزة ، إن في تراثها وتاريخها القديم ، أو في نهضتها المعاصرة، التي طوعت « الماركسية ـ الغربية » لتراثها الحضاري الخاص !..

أما تميز الغرب ، كحضارة .. فهو حقيقة يجمع عليها الدارسون . تستوي في ذلك التميز حقب جاهليتها اليونانية القديمة ، ونهضتها الأوروبية الحديثة ، والواقع المعاصر الذي تعيش فيه ..

لكن جدلاً كثيراً ، وخلافاً كبيراً تشهدهما ساحات الفكر ، في الإجابة عن هذا السؤال ، إذا كان الحديث عن علاقة حضارتنا الإسلامية بالحضارة الغربية على وجه التحديد ؟!..

---

* العضو المراسل في المجمع الملكي / القاهرة ـ جمهورية مصر العربية .

وفي هذا الميدان من ميادين الدراسات الحضارية ، تبرز دعاوى « واحدية الحضارة » ، ونعتها بـ « العالمية » وبـ « الإنسانية » ـ الأمر الذي يعني إنكار تميز الحضارة الإسلامية عن الحضارة الغربية بالسمات والقسمات التي تضمن لها هوية وخصوصية ترسم لأمتها وعالمها حدوداً حضارية يجب الحفاظ عليها وحمايتها من الغزو والمسخ والنسخ والتشويه والاقتلاع ؟!..

فلا أحد ـ من الغربيين أو المتغربين ـ يجادل في تميزنا ، حضارياً ، عن اليابان والهند والصين .. ولا في تميز تلك الحضارات الشرقية العريقة عن الحضارة الغربية .. وإنما يثور الجدل ويحتدم الخلاف إذا كان طرفا المقارنة وقطبا العلاقة : حضارة الغرب وحضارة الإسلام ؟!..

الأمـــر الذي يشي بـــدور المنافسة والصـــراع التاريخـــي بـين الحضارتين في « تزييف الوعي » لـــدى منكري التمايز الحضاري في هـــذه الحالة وحدها !.. وينبىء عن مقاصد الهيمنة التي تقف وراء دعوى هذه « الواحدية الحضارية » في هذا المقام بالذات ؟!

فحضارات الشرق الأقصى ـ اليابانية ، والصينية ، والهندية ـ هي حضارات محليـــة، لم تمتلك أي منها ـ عـــبر تاريخها ـ إمكانات المنافسة العالميـــة ، والعطاء والتأثـــير والقبول خارج الحـــدود .. ومن ثم فهي لا تمثـــل ، حتى في مراحـــل نهوض أممها ، خصماً حضارياً للحضارة الغربية ، التي تهيمن على مقدرات عالمنا منذ قرون عدة !..

بينما الحال في علاقة الحضارتين الإسلامية والغربية ليس كذلك ، فلكلتيهما إمكانات التأثير والعطاء والقبول خارج الحدود .. وبينهما تدافع بلغ حدّ الصراع عبر حقب طويلة من التاريخ ؟!.. الأمر الذي سيجعل البحث ، في هذه الصفحات ، عن إجابة علمية لهذا السؤال : عالمنا : حضارة واحدة ؟ أو تعددية في الحضارات ؟؟ وقفاً على إجابة الغربيين ، ومعهم المتغربون ؟ ، وعلى إجابة الإسلاميين ، النابعة من رؤية الإسلام للعلاقة بين الحضارات ..

الجـــــواب الغربـــي :

إذا شئنا « جواباً غربياً ، عن هذا السؤال - حضارة ؟ أو حضارات ؟؟ - فإن في الفكر السائد لدى مختلف ميادين الفكر الغربي ما يجسد لنا معالم هذا الجواب ..

* فمن نماذج فكر « السياسة - الحربية » و « الحرب - السياسية » نختار كلمات « جياني ديميكليس » ، عندمـا كان رئيساً للمجلس الوزاري الأوروبي ،.. فلقـد سأله مراسل « نيوزويك » ، الأمريكية ، عن مبررات بقاء حلف الأطلنطي بعد زوال المواجهة بين الغرب الليبرالي والمعسكر الذي كان اشتراكياً ؟.

فأجــــاب :

- « صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة . إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغربي والعالم الاسلامي » ..

فلما عاد مراسل نيوزويك ليسأله :

- وكيف يمكن تجنب تلك المواجهة المحتملة ؟..

- قال : « ينبغي أن تحل أوربا مشاكلها **ليصبح النموذج الغربي أكثر جاذبية وقبولاً من جانب الآخرين في مختلف أنحاء العالم . وإذا فشلنا في تعميم ذلك النموذج الغربي فإن العالم سيصبح مكاناً في منتهى الخطورة »**[1] ؟!

فهنا إجابة تهدّد بمحاربة مختلف أنحاء العالم - وفي المقدمة « العالم الإسلامي » - إذا لم يتم « **تعميم وقبول النموذج الغربي** » ؟!..

* ومن نماذج « فكر : السياسة الاستراتيجية » و « الاستراتيجية - السياسية » نختار رؤية الرئيس الأمريكي الأسبق « ريتشارد نيكسون » ، تلك التي حدّد فيها الخيارات النهضوية القائمة أمام العالم الإسلامي المعاصر .. فلقد حذر من :

(١) مجلة « النيوزويك » (يوليو ١٩٩٠م) نقلاً عن الأهرام المصرية (١٧ يوليو ١٩٩٠م) .

أ ـ خيار « الرجعية : صاحبة الأيديولوجية القومية المتعصبة » المتعلقة بـ « وهم الوحدة العربية » ؟!

ب ـ وخيار « الأصوليين الإسلاميين : المصمّمين على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضي ، وتطبيق الشريعة الإسلامية ، والمناداة بأن الإسلام دين ودولة ، واتخاذ الماضي هداية للمستقبل ». ودعا السياسة الأمريكية والغربية الى أن يلعبا « دوراً رئيسياً في تحديد الخيار الذي تختاره الشعوب المسلمة » ؟!.. وهو خيار :

جـ ـ التقدم : ونموذجه « تركيا ـ العلمانية ـ في انحيازها نحو الغرب .. وسعيها إلى ربط المسلمين بالعالم المتحضر ـ (الغرب) ـ من الناحية السياسية والاقتصادية » .. وإلا فإن « ردود فعل خطيرة ستحدث في العالم « إذا لم ينجح الغرب في دفع المسلمين إلى هذا الخيار[1] ؟!.

فهي ـ مرة ثانيـة ـ إجابة غربيـة تهدّد « بردود فعل عالميـة خطيرة إذا لـم يختر « المسلمون » الخيار الغربي ـ العلماني ـ الذي « يربطهم بالغرب سياسياً واقتصادياً » ؟!

* ومن نماذج تحليلات « خبراء الفكر والثقافة » ، التي تفسر هذا الموقف « السياسي .. والحربي .. والاستراتيجي » للحضارة الغربية من هذه القضية ـ قضية « الواحدية الحضارية » ؟.. أو « التعددية الحضارية » ؟؟ ـ نختار رؤية مجلة « شؤون دولية » ، التي تصدرها جامعة « كمبردج » ، والتي جاءت (بالملف) الذي خصّصته للإسلام والمسيحية والإسلام والماركسية ، وفيها قال خبراء الفكر والثقافة عن الإسلام : إنه الهدف الأول للحرب الغربية ، لا لشيء إلا لتحديه الخضوع للنموذج الغربي ، ورفضه التنازل عن خصوصيته المستعصية على العلمنة الغربية ؟!.. وبنص كلمات هؤلاء الخبراء : « يتساءل أوربيون كثيرون عما إذا كان يمكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلماني ؟.. أم أنه على قدر من الرسوخ في المجال السياسي والاجتماعي يجعله رافضاً لأي تمييز بين ما لله وما لقيصر » ؟!..

---

(١) نيكسون ، الفرصة السانحة ، ترجمة أحمد صدقي مراد ، طبعة القاهرة ، دار الهلال ١٩٩٢م ، ص : ٢٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ .

ـ « إن النظرية التي يعتنقها علمــاء الاجتماع ، والتي تقول : إن المجتمــع الصناعي والعلمي الحديث يقــوض الإيمان الديني ـ مقولة العلمنة ـ صالحة على العموم .. لكن عالــم الإسلام استثناء مدهش وتام جــداً من هذا .. إنه لــم تتم أي علمنة في عالــم الإسلام.. إن الإسلام مقاوم للعلمنة ، في ظــل مختلــف النظــم السياسية .. وسيطرته الآن علــى المؤمنين به أقــوى عما كانت مــن مائة سنة .. ولقــد مكنت التقاليد المحليــة الإسلامية العالــم الإسلامي من الإفلات مــن محاكاة الغــرب ، تلك المحاكاة المذلــة ، التي تضفي الطابــع المثالي علــى النموذج الغربــي . فباسم الإيمان المحلــي يتم الإصلاح ، دون علمنة » !

ـ « إن الإسلام هو الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدّ فعلي وحقيقي لمجتمعات الغرب .. ولذلك ، فإنه من بين الثقافات الموجودة في الجنوب ، هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة »[1] ؟!

فنحن ـ مــرة ثالثة ـ أمــام إجابة غربيــة ، تفسر لمــاذا هــذا الرفض الغــربي لتميز الخيــار الحضــاري الإسلامي عــن النمــوذج الغــربي .. ولماذا يتخــذ الغــرب الإسلام وأمتــه وعالمــه هــدفاً مباشراً للحملــة الغربيــة الجديدة ؟!..

تلك هي إجابات الفكر السائد بمختلف دوائر الفكر الغربي عن هذا السؤال : حضارة واحدة ؟.. أو تعددية في الحضارات ؟؟..

وفي هــذه الإجابات تفسير للممارسات الداميــة ، والتطبيقات المأساوية التي يصنعها الغــرب بالإسلام والمسلمين وقضاياهم وحقوقهم علــى امتداد الأوطان والقارات ؟! ..

---

(١) مجلة « شؤون دولية » ، المجلد ٦٧ ، العدد ١ يناير ١٩٩١م .

الجـــــواب الإسلامــــي :

أمّا إذا نحن التمسنا إجابة إسلامية عن هذا السؤال : حضارة واحدة لهذا الكوكب الذي نعيش فيه ؟ أو تعدّدية في حضارات أممه وشعوبه ؟؟ فإننا نجد للإسلام موقفاً حاسماً وواضحاً يؤكّد أن التعددية هي الأصل والقاعدة ، بل إنه ليجعلها القانون الإلهي والسنة الإلهية - الأزلية والأبدية - في ميادين الاجتماع الإنساني وشؤون العمران البشري ، التي لا تبديل لها ولا تحويل فيها .. فالوحدانية خصيصة للخالق الواحد ، سبحانه وتعالى .. أمّا ما عدا الخالق الواحد ، من عوالم الكون الطبيعي ، وشؤون الاجتماع البشري ، وميادين الحضارة والعمران ، فقائمة على التعددية كسنة جارية وحاسمة في هذه الميادين كلها ..

ففي القوميات والأجناس ، يوجد تعدّدية يتحـــدث عنها القرآن الكريم باعتبارها « آية » من آيات الله في الاجتماع الإنساني ﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين** ﴾[1] .

وفي الشعوب والقبائل ، يوجد تعدّدية ، تثمر التمايز الذي يدعو القرآن إلى توظيفه في إقامة علاقات التعارف بين المتمايزين ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير** ﴾[2] .

وفي الشرائع والمناهج ، ومن ثم في الحضارات ، يوجد تعدّدية يراها القرآن الكريم الأصل الدائم والقاعدة الأبدية ، والسنة الإلهية ، التي هي الحافز للتنافس في الخيرات ، والاستباق في الطيبات ، والسبب في التدافع الذي يقوم ويرشد مسارات أمم الحضارات على دروب التقدم والارتقاء .. فهي المصدر والباعث على حيوية الإبداع الذي لا سبيل إليه إذا غاب التمايز وطمست الخصوصية بين الحضارات ﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحـــدة ولا يزالون مختلفين . إلاّ من رحـــم ربك ولذلك خلقهم** ﴾[3] . حتى

---

(١) الروم : ٢٢ .

(٢) الحجرات : ١٣ .

(٣) هود : ١١٨ - ١١٩ .

ليتحدث المفسرون عن هذا « الاختلاف » وتلك التعددية باعتبارها علة الخلق ، فيقولون: إن المعنى « وللاختلاف خلقهم »[1] !. ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾[2] .. **فالتعدّدية هي الحافز على امتحانات وابتلاءات المنافسة والاستباق في ميادين الإبداع بين الفرقاء المتمايزين في الشرائع والمناهج والحضارات ..**

وعلى دروب مسارات استباق الخيرات ، يكون التدافع - وليس الصراع - السبيل الإسلامي لترشيد المسارات وضبط الاستباق حتى يظل في إطار المثل التي صاغها الإسلام .. بل إن غياب التعددية ، ومن ثم غياب هذا التدافع الحضاري والحراك الاجتماعي إنما يعني الموات المتمثل في غيبة إبداع الخصوصيات . ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** ﴾[3] ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً** ﴾[4] .

تلك هي إجابة الإسلام ، التي انحازت إلى التعددية في الأجناس والأقوام والشعوب والقبائل والشرائع والمناهج والحضارات ..

وهي الإجابة التي تجسّدت في دولة تعدّدت رعيتها في الديانات والمذاهب ، وشعوبها في اللغات والقوميات .. فلم تقف هذه الإجابة المتميزة عند حدود الفكر النظري ، وإنما تجسدت واقعاً حضارياً معيشاً .. بينما كان الرفض الغربي للتعدّدية هو الآخر تاريخاً حضارياً ، رفض التعدّدية حتى في المذاهب داخل النصرانية الواحدة ، وليس فقط التعددية في الديانات ؟!..

---

(١) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، طبعة دار الكتب المصرية ، ٩ : ١١٤ - ١١٥ .

(٢) المائدة : ٤٨ .

(٣) البقرة : ٢٥١ .

(٤) الحج : ٤٠ .

تعدّدية العموم .. والخصوص :

وهذه التعدّدية في الحضارات الإنسانية ، التي يؤسسها الإسلام على سنة التعدّدية في الشرائع والمناهج بين الأمم ، لا تعني : « قطيعة ـ التضاد » ، كما أنها لا تعني : « تماثل ـ التبعية » ، و « تطابق ـ التقليد » .. وإنما هي « تميُّز » يقف بين « الواحدية الحضارية » وبين « التضاد المطلق بين الحضارات » .. إنه « تميز » يقوم علـــى ساقين اثنتين » .. ساق « العموم » القائم فيما هو مشترك إنساني عام في حقائق وقوانين العلوم الموضوعية .. والطبيعية .. والمحايدة ، التي لا تتغاير حقائقها وقوانينها بتغاير عقائد وحضارات الباحثين فيها ، وذلك لثبات موضوعات هذه العلوم ، وتماثل ثمرات تجاربها ، مهما تعدّدت ، وتغيرت هويات القائمين بها ..

ففي هذه الميادين نكون بإزاء « مشترك إنساني عام » ، يمثل رصيداً « للعموم » الجامع بين مختلف الحضارات الإنسانية ، عبر الزمان والمكان ..

أما الساق الثانية التي يقوم عليها « تميُّز » العموم والخصوص بين الحضارات ، فهي ساق الخصوصيات الحضارية في الهويات والثقافات والفلسفات .. وميادين هذه الخصوصيات هي العلوم الإنسانية ، التي تتغاير بتغاير موضوعاتها ـ النفوس الإنسانية ـ التي تتكون وفق المواريث والعقائد والفلسفات والعادات والأعراف والتقاليد ..

وإذا كانت التجارب المادية تتكرر على « المادة » فتثمر ذات الحقيقة ونفس القانون، رغم التكرار ، ورغم تغاير هويات القائمين على هذه التجارب ، لثبات وحيــاد « المادة » موضوع التجارب .. فإن التجربة الفنية أو الشعرية أو الروحية ، وكذلك الاجتهاد في العلوم الإنسانية ، يستحيل التماثل فيها عند تكرارها حتى لدى الإنسان الواحد ، لأن موضوعاتها ـ النفس الإنسانية ـ ليس لها ثبات ولا حياد « المادة » الصماء !..

فعلى « العموم » ، الذي يمثل نطاق المشترك الإنساني العام في الفكر الإنساني ، وعلــى « الخصوص » ، الذي يمثـــل التعدّدية في الهويات والثقافات والإنسانيات ، يقــوم « التمايز » الممثل لرؤية الإسلام لمعيار « التعارف » بين الحضارات المتعدّدة للأمم والشعوب ..

نماذج شاهــــدة :

وإذا كان الناس لا يختلفون على عموم الحقائق والقوانين التي تمثل ثمرات الإبداع الإنساني في ميادين العلوم الطبيعية والموضوعية والمحايدة .. من طب .. وهندسة .. وطبيعة .. وكيمياء .. وفلك .. ورياضيات .. ونبات .. وحيوان .. وفي ميادين التجارب الإنسانية التي هي أقرب إلى الآليات والأوعية والمؤسسات التي توظف في خدمة المقاصد والفلسفات والغايات .. فإن خلافاً كبيراً يقوم بين تيارات فكرية متعدّدة حول التمايز الحضاري في ميادين الثقافات والهويات والإنسانيات .. آداباً وفنوناً .. وسياسة واجتماعاً .. واقتصاداً .. وعقائد .. ورؤى لمكانة الإنسان في الكون ، وعلاقته بالأغيار ، وفلسفته في حكمة الوجود ، وقصة البدء ، والمسيرة ، والمصير .. الخ فمن الناس من يرى موضوعات العلوم الإنسانية ، كموضوعات العلوم الطبيعية ، محايدة ، وصالحة للدرس بالمناهج الموحدة ، كما هو الحال في مناهج دراسة موضوعات العلوم الطبيعية ، الأمر الذي يثمر حقائق وقوانين واحدة ، تجعل ميادين هذه العلوم الإنسانية مما هو « مشترك إنساني عام » ، لا تتغاير فيه ولا تتمايز الحضارات .. وهؤلاء هم دعاة الواحدية الحضارية . الذين عبّر عن فكرهم الدكتور طه حسين (١٣٠٦-١٣٩٣هـ = ١٨٨٩-١٩٧٣م) - في مرحلة انبهاره بالحضارة الغربية - فقال بواحدية « العقل » بين الشرق والغرب ، لأن العقل الشرقي هو - كالعقل الأوروبي - مردّه إلى عناصر ثلاثة :

- « حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن .

- وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه .

- والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان » .

وبعد أن أنكر تمايز الحضارات في الإنسانيات ، وزعم وحدتها في الأدب والفلسفة والفن والسياسة والفقه والشرائع .. رتّب على ذلك واحدية العقل الشرقي والعقل الأوربي ، فقال : « لقد كانت مصر دائماً جزءاً من أوربا ، في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف فروعها وألوانها .. » .

ثم مضى فرفض أن يكون ظهور الإسلام ونزول القرآن قد أحدثا تميزاً للعقل الإسلامي الشرقي عن العقل النصراني الغربي ، فقال : وكما لم يغير الإنجيل من الطابع اليوناني للعقل الأوربي .. فكذلك القرآن ، لم يغير من الطابع اليوناني للعقل الشرقي ، لأن الاسلام « إنما جاء متمماً ومصدقاً للتوراة والانجيل » ؟!..

ثم انطلق من ميدان الحكم على الماضي والتراث ، ليعمم هذا القول على الحاضر والمستقبل ، فدعا الناس إلى أن يسلكوا في النهضة ويختاروا للتقدم الخيار الغربي نفسه ، زاعماً أنه خيار وحيد ، وسبيل واحدة لا تعدّد فيها ولا تمايز .. فقال إن السبيل « واضحة بينة مستقيمة ليس فيها لا عوج ولا التواء ، وهي واحدة فذة ليس لها تعدّد ، وهي : أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم ، لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ما يحبّ منها وما يكره ، وما يُحْمَدُ منها وما يعاب »[1] ؟!

ذلك هو مذهب المنكرين للتعدّدية الحضارية ، القائلين بالوحدة الحضارية في الإنسانيات كما في الطبيعيات ، وعندهم أن التمايز قائم في درجات ارتقاء الأمم على السلم الواحد للحضارة الواحدة .. وليس تمايزاً في الهويات والخصوصيات بين حضارات إنسانية متعدّدة ومتمايزة .

ولأن هذه القضية فيها هذا الخلاف .. ولأن القول بهذه « الواحدية الحضارية » ، يؤدي - في رأينا - ليس فقط إلى الخروج عن ما جعله القرآن الكريم آية من آيات الله ، سبحانه وتعالى ، في اختلاف الناس في الشرائع والمناهج ، ومن ثم في الحضارات .. بل إلى الخروج على حقائق الفكر التي تبلغ مرتبة البدهيات .. وأيضاً المعاندة والإنكار لواقع تاريخ الحضارات ..

لمّا كان هذا هو الرأي في دعوى القائلين « بواحدية الحضارة » .. حقّ علينا أن نضرب الأمثال الشاهدة على صدق الرؤية الإسلامية ، المؤسسة على وجود « تعدّدية التمايز » بين الحضارات ، كموقف وسطي بين دعاة « تغاير - التضاد » بين الحضارات ، وبين دعاة « تماثل - الوحدة » فيما يسمونها الحضارة « العالمية » و « الإنسانية » الواحدة..

---

(١) طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، طبعة القاهرة ١٩٣٨م : ٢١ - ٤٥ .

ومن بين الأمثال الكثيرة ، الشاهدة على صدق هذه الرؤية الإسلامية ، للتعدّدية الحضارية ، نختار بعضها .. من مثل :

١ ـ الاشتراك في « الإيمان بالخالق » .. والخصوصية في « آفاق تدبيره » :

في الحضارات كلها ، التاريخية منها والمعاصرة ـ وإذا نحن استثنينا القلة المادية المنكرة وجود خالق لهذا الوجود ـ يوجد اشتراك بين أمم تلك الحضارات جميعها في الإيمان بخالق لهذا الوجود .. ومع هذا الاشتراك توجد خصوصيات حضارية في تصور كل حضارة من الحضارات لنطاق وآفاق عمل وفعل وتدبير الذات الإلهية الخالقة لهذا الوجود ..

أ ـ فالتصور الوثني الجاهلي ، لم ينكر وجود خالق لهذا الوجود ، ولكنه وقف ـ في تصوره لعمل هذا الخالق ـ عند حدود « الخلق » .. ثم أشرك معه شركاء آخرين زعم أنهم الوسائط المدبرة لشؤون الحياة الدنيا ، يفزع إليهم الإنسان الجاهلي عند الملمّات..

ولذلك ، لم ينع القرآن على التصور الجاهلي إنكار الخالق للوجود .. وإنما نعى عليه الوقوف بعمل هذا الخالق عند حدود « الخلق » دون آفاق التدبير في ميادين الوجود كلها وسائر شؤون العمران .. لقد أقرهم على « نطاق الاشتراك » ـ الإيمان بخالق للوجود ـ ونعى عليهم الإيمان بالشركاء الذين زعموا اختصاصهم ، دون الله ، بالتدبير لشؤون هذه الحياة .. ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ، فأنّى يؤفكون . الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، إن الله بكل شيء عليم** ﴾[1] .

﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون . لله ما في السموات والأرض ، إن الله هو الغني الحميد** ﴾[2] .

---

(١) العنكبوت : ٦١ ـ ٦٢ .

(٢) لقمان : ٢٥ ـ ٢٦ .

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ ، قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾[1] .

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم . الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون . والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون . والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون . وجعلوا له من عباده جزءاً ، إن الإنسان لكفور مبين ﴾[2] .

ففي هذا التصور الجاهلي للذات الإلهية : اشتراك مع التصورات الأخرى في الإيمان بخالق لهذا الوجود .. وخصوصية جاهلية ، تقف بفعل الخالق عند حدود الخلق ، وتشرك معه الشركاء في التدبير والتلبية لحاجات الإنسان في هذا الوجود !..

ب ـ وفي التصور الأرسطي اليوناني للذات الإلهية شبه من هذا التصور الوثني الجاهلي.. فالله هو الخالق لهذا العالم .. لكنه خلقه ثم تركه يعمل بالأسباب المادية الذاتية المركبة فيه .. فعلاقة الخالق بالوجود « علاقة منطقية » ، كعلاقة المقدمة بالنتيجة .. وليست علاقة الراعي المدبر لشؤون هذا الوجود ؟!

ففي ـ هذا التصور الأرسطي للذات الإلهية ـ اشتراك مع التصورات الأخرى في الإيمان بخالق للكون .. وتميز في علاقة الخالق بالخلق ، وفي نطاق عمل وتدبير الله في المخلوقات ..

جـ ـ وشبيه بهذه التصورات لنطاق عمل الذات الإلهية ، التصور النصراني ، الذي يدع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ؟!.. لأنه يحبس تدبير الذات الإلهية عن العمران البشري ، ويحصره في شؤون مملكة السماء !..

---

(١) الزُمَر : ٣٨ .
(٢) الزخرف : ٩ ـ ١٥ .

د ـ بل إننا نستطيع أن نسلك التصور العلماني في إطار هذه التصورات .. فهو ـ عند أغلب العلمانيين ـ لا ينكر الله كخالق للكون ، ولا الدين كعقيدة وشعائر وعبادات.. ولكنه يحرّر العمران الإنساني ـ في السياسة والاجتماع والاقتصاد ومناهج البحث ـ من « الشريعة الإلهية » وضوابط التدبير الإلهي لهذه الميادين ..

ففي هذه التصورات كلها « اشتراك .. وعموم » مع التصور الديني الحق ، الذي تفرد به القرآن الكريم .. وفيها « تميز وخصوصية » فارقة بينها وبين التصور الإسلامي لنطاق عمل وفعل وتدبير الذات الإلهية في هذا الوجود .

هـ ـ يتميز التصور القرآني لنطاق عمل وفعل وتدبير الذات الإلهية ، عندما لا يقف بهذا النطاق عند حدود « الخلق » فقط لهذا الوجود ، وإنما يجعل الله ، سبحانه وتعالى ، الراعي والمدبر والحاكم ـ بقضائه وشرعه ـ لكل شؤون الحياة ، وسائر ميادين العمران ..

فهو « الخالق » وهو « مدبر الأمر » .. **﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه ، أفلا تذكرون ﴾**(١) ، ولــــه ، سبحانه وتعالى ، « الخلـــق » و « الأمر » ـ أي التدبير ـ **﴿ ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله ربّ العالمين ﴾**(٢) .

وهو باسط الرزق ومقدره .. **﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، إن الله بكل شيء عليم ﴾**(٣) .

وهو الذي « خلق » .. وهو الذي « هدى » .. **﴿ قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾**(٤) .

---

(١) يونس : ٣ .

(٢) الأعراف : ٥٤ .

(٣) العنكبوت : ٦٢ .

(٤) طه : ٤٩ ـ ٥٠ .

وهكذا ، تشترك الحضارات في « عموم » الإيمان بخالق لهذا الوجود في الوقت ذاته الذي تتمايز فيه تصوراتها في « خصوصية » نطاق وآفاق عمل وتدبير الخالق في هذا الوجود .. الأمر الذي يؤكد حقيقة التمايز الحضاري والخصوصية الحضارية.. والتعدّدية في الحضارات ..

٢ ـ الاشتراك في « إنسانية الحضارات » .. والخصوصية في « تصورات مكانة الإنسان في هذا الكون » :

الحضارات كلها « إنسانية » ، بمعنى أنها صناعة الإنسان وإبداعه عندما يرتقي في سلم التمدن والاستقرار .. وفي هذه الحقيقة تشترك الحضارات كلها ..

لكن التصور الفلسفي لمكانة الإنسان في الكون يختلف من حضارة إلى أخرى ، إلى الحدّ الذي يصبح فيه التميز في هذا التصور من الخصوصيات التي تتميز بها حضارة عن أخرى ، رغم أن جميعها تشترك في كونها من صنع هذا الإنسان ..

أ ـ ففي فلسفة الحضارة الهندية ، النرفانا Nirvana ، ومعها بعض مذاهب التصوف الفلسفي : الغنوصية ، والباطنية ، والعرفانية ، « تهميش » للإنسان ، يجعله الحقير.. المجبر .. الذي لا سبيل لخلاصه إلا بالفناء في المطلق أو في ذات « الحق ـ الله » ..

ب ـ وفي الفكر المادي ـ الذي طبع الحضارة الغربية منذ جاهليتها اليونانية وحتى نهضتها الأوربية الحديثة ـ تأليه للإنسان ، يجعل منه سيد الكون ، الذي يستطيع ـ بالحرية والاختيار ـ أن يحل الحرام الديني ويحرم الحلال الديني ، في شؤون العمران الدنيوي ، كحق من حقوقه الطبيعية ، التي لا تلتزم بشريعة من شرائع السماء في بناء هذا العمران ..

جـ ـ أما في الرؤية الإسلامية لمكانة الإنسان في هذا الكون ، فإن مكانته هي مكانةالخليفة لله ، سبحانه وتعالى ، في عمارة هذه الأرض ... والخليفة حرّ وقادر ومريد وفاعل، لكن في حدود بنود عقد وعهد الاستخلاف ، الذي هو الشريعة الإلهية .. فالإنسان سيد في الكون ، وليس سيد الكون ، لأنه خليفة لسيد الكون .. وبعبارة الإمـــام محمد عبده (١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) فإنه ـ الإنسان ـ « عبدالله وحده ، وسيد لكل شيء بعده » ! ..

وهذه الرؤية الإسلامية لمكانة الإنسان في الكون ، التي تمثل خصوصية حضارية للحضارة الإسلامية تتميز بها عن الحضارات الإنسانية الأخرى .. كما أنها ثمرة للوسطية الإسلامية ، التي تقف بمكان الخليفة بين « التأليه » و « التهميش » ، فإنها ثمرة من ثمرات التصور الإسلامي لنطاق عمل وتدبير الذات الإلهية .. فلما كان الله المدبر للخلق - وليس فقط الخالق للوجود - كان لتدبيره مدخل في الرعاية والترشيد للإنسان ، وهذا المدخل هو عقد وعهد الاستخلاف ، الذي جعل الإنسان حاملاً للأمانة فهو ليس المهمل المجبر المهمش - كما أنه ليس المنفلت من إطار التدبير الإلهي .. إنه خليفة الخالق ومدبر هذا الوجود ..

وهذا التصور الإسلامي للإنسان ، كخليفة عن الله .. مع تصور الذات الإلهية ، كمدبر للوجود الذي خلقه ، هما وجها عملة واحدة ، لعلها أخص ما يميز الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات ، فعنهما تتفرع خصوصيات أخرى كثيرة ، تشهد للحضارة الإسلامية بتميز الهوية وخصوصية الفلسفة ، عند المقارنة بالحضارات الأخرى ..

ولفكرة الخلافة والاستخلاف هذه امتدادات وتجليات كثيرة في ميدان التميز الحضاري لحضارتنا الإسلامية ، نجدها في الفلسفة الإسلامية المتميزة لعلاقة الإنسان بالثروات والأموال .. فهو المالك المجازي ، مالك النفعة ، المحكومة حريته في الحيازة والتصرف ببنود عقد وعهد استخلاف المالك الحقيقي ، مالك الرقبة في الأموال ، سبحانه وتعالى ﴿ **وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾[1] .

وهو حاكم .. لكنه مكلف - في عهد الاستخلاف - أن يحكم وفق بنود هذا العهد ﴿ **وأنِ احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ..** ﴾[2] ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ..** ﴾[3] .

---

(١) الحديد : ٧ .
(٢) المائدة : ٤٩ .
(٣) ص : ٢٦ .

وله حقوق .. لكنها محكومة بحقوق الله ، سبحانه وتعالى .. وله مصالح .. لكنها يجب أن تكون شرعية معتبرة .. وله حرية .. لكنها محكومة بإطار عقد وعهد الاستخلاف .. والدولة التي يقيمها هي دولة الخلافة عن الأمة ، محكومة بسلطة الأمة ، التي هي ـ أي الأمة ـ مستخلفة لله ، محكومة سلطاتها بإطار الشريعة الإلهية ..

فهذا الموقع ـ موقع الخليفة ـ الذي أراده الله للإنسان في عمارة هذه الأرض ، هو الذي يعبر عن خصوصية الرؤية الإسلامية ، والتزامه في بناء الحضارة الإسلامية هو الذي يجعل هذا الإنسان : إنساناً .. وربانياً في الوقت ذاته .. وهو الذي يحقق المعنى الذي لم تدركه الملائكة من ذاتها عندما خلق الله هذا الإنسان .. ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾[1] .

وكما أن تحقيق فلسفة الاستخلاف ، وضوابط الخلافة ، يجعل الإنسان الخليفة : إنساناً وربانياً في الوقت ذاته .. فإن ذلك التحقيق يجعل من صناعته للحضارة : حضارة إنسانية ، وإسلامية أيضاً ..

وبهذا تتميز حضارة الاستخلاف ، الإسلاميـــة ، عن غيرها مـــن الحضارات التي « تهمشه » أو « تؤلهه » .

٣ ـ الاشتراك في « الدين » .. والخصوصية في « مصدره » وفي « آفاقه » :

والحضارات الإنسانية كلها تشترك في التدين بالديانات .. بل إن الشريحة التي ألحدت ، وأحلت « المادة » محل « الله » قد جعلت من الفلسفة المادية عقيدة وديناً ؟!

لكن الحضارات تتمايز في رؤيتها لمصدر الدين .. فهناك حضارات الديانات الوضعية ، غير السماوية ـ مثـــل ديانات الشرق الأقصى ـ ومعها في هذه الفلسفة تقف « الوضعية الغربية » ، بمذاهبها المتعددة ، فلقد زعمت أن الدين ، ككل ألوان الفكر وأنساقه ، إنما هو إفراز بشري ، وثمرة من ثمرات العقل الإنساني ، بل قالت إنه المثل

(١) البقرة : ٣٠ .

للفكر الإنساني في طور طفولة العقل البشري ، الذي ارتقى بعد الطفولة : إلى مرحلة الميتافيزيقا ، والإيمان بما وراء الطبيعة ، ثم لما نضج أصبح وضعياً ، لا يرى علماً حقيقياً ولا معرفة حقيقية إلا إذا كانا من ثمرات التجارب الحسية والعقل المجرد ، انطلاقاً من حقائق الكون المادي المحسوس ..

فهذه الحضارات عرفت الدين ، لكنها جعلته « وضعاً إنسانياً » .. وليس « وضعاً إلهياً » ووحياً سماوياً !..

وحتى الحضارات ، أو التصورات الدينية التي اشتركت في الإيمان بالوضع الإلهي للدين ، نراها قد تمايزت في تحديد آفاق عمل هذا الدين ، فالذين جعلوا الدين عقيدة خاصة بين الفرد وخالقه ، وشعائر عبادية محبوسة في الهياكل والصوامع ، مع عزله عن أن يضبط ويدبر ويرشد ميادين العمران كلها ، الفكري منها والتطبيقي ، قد تميزت رؤية حضارتهم لآفاق عمل الدين ، ولنطاق التدين عن الرؤية الإسلامية لهذه الآفاق ..

فالدين في الرؤية الإسلامية ـ فضلاً عن أنه وضع إلهي ووحي سماوي ـ هو الروح السارية في مجالات العمل الإنساني كلها وسائر مناحي الحياة ، يضبط علاقة الفرد بربه .. وبمحيطه .. وبأهله ، وشعبه ، وأمته ، وبالإنسانية جمعاء .. كما يضبط علاقة الدنيا بالآخرة .. والعمران بالقيم .. والوسائل بالحكم والغايات .. والسياسة والاجتماع والاقتصاد ومناهج البحث ونظريات المعرفة بالفلسفات والأخلاقيات ..

وهكذا تتميز الحضارة الإسلامية عندما تكون حقاً إسلامية ـ عن الحضارات الأخرى ، المشاركة لها في التدين ـ بهذه الرؤية الخاصة لمصدر الدين ، ولنطاق وآفاق التدين في الحياة .

٤ ـ الاشتراك في « العقل » .. والخصوصية في « ماهية العقلانية » :

من دون « العقل » يستحيل أن يوجد إنجاز رشيد .. والحضارات الإنسانية كلها هي ثمرات لإبداع الإنسان العاقل ..

لكن .. رغم هذا الاشتراك في العقلانية بين الحضارات الإنسانية كلها فإنه يوجد تمايز وخصوصية لحضارة عن أخرى في مقام العقل ، وفي مكانته من سبل المعرفة الأخرى ، ومن ثم في ماهية العقلانية .. فالحضارات ، المشتركة في الاحتكام إلى العقل، تتفاوت في درجات هذا الاحتكام ، وفي مدى الاقتصار عليه ..

أ ـ ففي المذاهب « الباطنية ـ الغنوصية ـ العرفانية » يهمش العقل وتضمر العقلانية .. بل يهمش النقل وسبل المعرفة الأخرى كلها ، ويكاد الوجدان والحدس والعرفان الباطن والفيض والإلهام والوهب أن تستأثر بالمعارف جميعاً .. ولذلك ، استحال بناء حضارة على « العرفان » وإن أمكن أن يكون سبيلاً لخلاص آحاد الناس ، لأن الحضارة بناء جمعي ، بينما العرفان تجربة شديدة التفرد والاختصاص !

ب ـ وفي المذاهب المادية والوضعية يوجد إعلاء لمقام العقل إلى درجة « الغرور العقلاني » ؟! ..

فالاحتكام إلى براهينه مع ثمرات التجارب الحسية هما سبيلا المعرفة المعترف بهما ، وما لا تعقله العقول وتدركه الحواس لا يرقى لمرتبة حقائق المعارف والعلوم ..

جـ ـ أما في الرؤية الإسلامية ، التي صبغت بفلسفتها الحضارة الإسلامية ، فإن للعقلانية ماهية متميزة تميزاً كبيراً ..

لقد تبلورت العقلانية الغربية ، في طورها اليوناني ، عندما لم يوجد نقل ولا وحي يجاورها ، فجاءت عقلانية متحررة من النقل ومن وحي السماء ، متفردة بتحصيل المعارف وحقائق الأشياء .. بينما تبلورت العقلانية الإسلامية انطلاقاً من الوحي القرآني ، وفي خضمّ الدفاع عن الدين ، فجاءت عقلانية مؤمنة ، لإنسان مؤمن ، يدرك أن ملكاته ـ ومنها العقل ـ هي نسبية إذا قورنت بالعلم الإلهي الكلي والمحيط ـ ومن هنا جاءت العقلانية الإسلامية : **تقرأ النقل بالعقل ، وتحكم العقل بالنقل ، لأنها قد جعلت النقل مع العقل ، والحواس ، والوجدان ، سبلاً أربعة للمعرفة ، تتكامل في تحقيق الهداية للإنسان .. وجعلت مصادر المعرفة : كتابي الوحي المقروء ، والكون المنظور .. وليس فقط كتاب الكون المنظور، كما هو الحال في الوضعية الغربية .. فللمعرفة مصدران..**

ولسبلها أربع هدايات ، الأمر الذي عصم العقلانية الإسلامية من الصراع الذي اكتوت الحضارة الغربية بناره ، بين العقلانية وبين اللاهوت .. وهو الصراع الذي جعل العقلانية العربية الحديثة نقضاً للدين ، بعد أن كانت في حقبتها اليونانية خلواً من الدين! .. بينما ظلت العقلانية الإسلامية ، على مر تاريخنا الحضاري ، الأخت الرضيعة للشريعة الدينية ، لأنها واحدة من الهدايات ، وليست بديلاً ولا نقيضاً لهدايات الدين ..

بهذه العقلانية الإسلامية تميزت الحضارة الإسلامية ، رغم اشتراك سائر الحضارات في الاحتكام إلى العقل المبدع لهذه الحضارات !..

٥ ـ الاشتراك في « السببية » .. والخصوصية في « مرجعيتها » :

وإذا كانت الحضارات كلها قد اشتركت في الإيمان « بالأسباب » ، وبالعلاقة بين « الأسباب » و « المسببات » ، فإن مناهجها ومذاهبها وفلسفاتها قد تمايزت في مرجعية هذه الأسباب ، وفي طبيعة العلاقة بينها وبين المسبّبات ..

أ ـ فأهل العرفان ، الذين يجعلون « الله ـ الحق » ، سبحانه وتعالى ، سبباً أوحد لا سبب سواه في وجود المسببات كلها وفيما يتولّد عنها .. بل لقد ذهبوا على هذا الدرب إلى حيث أنكروا الوجود الحقيقي عن ما عدا الله ، سبحانه وتعالى : ..

ب ـ والحضارات المادية والمذاهب الوضعية التي ترجع « المسببات » إلى الأسباب المادية ، المركبة في المادة وقواها وظواهرها ، وفي الإنسان والاجتماع البشري ، وهم يرون فيها « أسباباً ذاتية » ، وليست مخلوقة لخالق وراءها ومفارق لمادتها ، إما لأنهم يجحدون وجود هذا الخالق ، أو يتصورونه على الصورة التي تصوره عليها أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ق. م) محركاً أول ، حرّك العالم ثم تركه لقواه وأسبابه الذاتية الفاعلة وحدها فيه ، دون علاقة تدبير بين الخالق وبين هذه الأسباب ..

جـ ـ أما الموقف الإسلامي من مرجعية السببية ، فهو الذي يؤمن بوجود الأسباب وبقيام العلاقة بينها وبين المسببات ، مع الإيمان بأن هذه الأسباب المركبة جميعها في المادة وقواها وظواهرها وفي الإنسان والاجتماع البشري ، هي جميعاً مخلوقة أيضاً لخالق هذه الأشياء ، وأن عملها في مسبباتها لا يعني انتفاء قدرة الموجد الأول والأوحد لها على إيقاف عملها ، إذا هو ، سبحانه ، شاء إخراج الأمر من « السعادة » إلى « خارق العادة » لحكمة يريدها الله ..

لقد اتفق على هذا التصور للسببية مفكرو الإسلام ، الذين صبغت بفكرهم حضارتنا الإسلامية .. فالغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ = ١٠٥٨ ـ ١١١١م) الذي يتهمه البعض بإنكار السببية ، والعلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات ، هو القائل : « إننا نسلم أن النار خلقت خلقة ، إذا لاقاها قطنتان متماثلتان أحرقتهما ، ولم تفرق بينهما إذا تماثلتا من كل وجه . ولكنا ، مع هذا ، نجوّز أن يُلقى شخص في النار فلا يحترق ، إما بتغير صفة النار، أو بتغير صفة الشخص ، فيحدث من الله تعالى أو من الملائكة صفة في النار تقصر سخونتها على جسمها بحيث لا تتعداها ، وتبقى معها سخونتها وتكون على صورة النار حقيقتها ، ولكن لا تتعدى سخونتها وأثرها . أو يحدث في بدن الشخص صفة ولا يخرجه عن كونه لحماً وعظماً فيدفع أثر النار ، فإنا نرى من يطلي نفسه بالطَّلْق ـ (مادة نباتية) ـ ثم يقعد في تنور موقد ، فإنه لا يتأثر بالنار . والذي لم يشاهد ذلك ينكره ، وإنكار الخصم اشتمال القدرة على إثبات صفة من الصفات في النار أو البدن تمنع الاحتراق ، كإنكار من لم يشاهد الطَّلْق وأثره ، وفي مقدورات الله تعالى غرائب وعجائب ، ونحن لم نشاهد جميعها ، فلا ينبغي أن ينكر إمكانها ويحكم باستحالتها »[1] ..

فإنكاره لم يكن للسببية ، ولا لعلاقة الضرورة بين الأسباب والمسببات ، وإنما كان للسببية المادية ، التي تنكر ـ بزعم الحتمية ـ قدرة مسبب الأسباب على خرق « العادة » بخلق أسباب أخرى غير المعتاد !..

---

(١) الغزالي ، تهافت الفلاسفة ، طبعة القاهرة ١٩٠٣م ، ص : ٦٧ ـ ٦٨ .

وابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥هـ = ١١٢٦ - ١١٩٨م) - الذي اتهمه البعض بالانحياز للسببية المادية ، هو الذي يقول : « ولا ينبغي أن يُشَكّ في أن هذه الموجودات قد يفعل بعضها بعضاً ومن بعض ، وأنها ليست مكتفية بأنفسها في هذا الفاعل ، بل بفاعل من خارج ، فعله شرط في فعلها ، بل في وجودها ، فضلاً عن فعلها »[١] .

فكلاهما - الغزالي وابن رشد - على عكس ما توهّم الذين ظنوا اختلافهما في هذه القضية يقولان بالسببية ، وبعلاقة الضرورة بين الأسباب والمسببات ، مع رفض السببية المادية ، التي تنكر قدرة وفعل مسبب الأسباب في إيقاف وتبديل فعل الأسباب في المسببات ..

وهذا المذهب الإسلامي ، الجامع بين فعل السبب ، المودَع في الأشياء ، الطبائع ، وبين قدرة خالق الأسباب والمسببات على خرق العادة ، وتبديل الأسباب ، أي ايجاد عناصر سببية جديدة ، هذا المذهب الإسلامي ، المتميز عن مذهب الذين أنكروا السببية وعن مذهب الذين قالوا بالسببية المادية ، هو الذي عبر عنه الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥هـ = ٧٨٠ - ٨٦٩م) عندما قال : إن « التوحيد » في الألوهية ، وهو الذي يعني الإيمان بخلق هذا الكون ، لا ينفي وجود الأسباب الفاعلة في الأشياء ، (الطبائع) ، وقد يكون تصور الأمر صعباً على غير أهله لكنه حق ممكن التصور ! « .. والمصيب هو الذي يجمع تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقّها من الأعمال . ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع ، فقد حمل عجزه على الكلام في التوحيد ، وكذلك إذا زعم أن الطبائع لا تصلح إذا قرنها بالتوحيد ، ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام في الطبائع . وإنما ييأس منك الملحد إذا لم يَدْعُك التوفر على التوحيد إلى بخس حقوق الطبائع ، لأن من رفع أعمالها رفع أعيانها ، وإذا كانت الأعيان هي الدالة على الله ، فرفعت الدليل ، فقد أبطلت المدلول عليه »[٢] .

فمع اشتراك الحضارات كلها في الإيمان بالسببية ، نراها قد توزعتها مذاهب متمايزة في مرجعية الأسباب ، وفي طبيعة العلاقة بين الأسباب والمسببات ، فكانت السببية مشتركاً إنسانياً عاماً ، وكانت مذاهبها من الخصوصيات الحضارية التي تتمايز فيها وبها الحضارات .

(١) المصدر نفسه : ١٢٤ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، تحقيق عبدالسلام هارون ، طبعة القاهرة ، ٢ : ١٣٤ - ١٣٥ .

شهادة التاريـــــخ :

وإذا كانت هذه النماذج والأمثال كافية لتشهد على حقيقة « التمايز والخصوصية الحضارية » ، التي تؤكد حقيقة تعدّد الحضارات في عالمنا .. وحقيقة أن هذه التعدّدية هي تعدّدية تمايز ، لا تضاد ، لأن بين الحضارات المتميزة « مشتركاً إنسانياً عاماً » ، تمثله حقائق وقوانين العلوم الطبيعية والمحايدة والموضوعية ، لثبات موضوعات هذه العلوم .. كما أن بينها هذا التمايز في معارف العلوم الإنسانية ، ذات الموضوعات المتغايرة بتغاير مواريث وفلسفات وعقائد أمم هذه الحضارات ..

إذا شهدت هذه النماذج بصدق هذا المعنى .. فإن التاريخ شاهد على أن هذا المعنى قد غدا قانوناً عاملاً في كل مراحل التقاء وتفاعل سائر الحضارات .

* فالمسلمون انفتحوا على الحضارة الهندية القديمة .. لكنهم أخذوا فلكها وحسابها ، ولم يأخذوا فلسفتها .. وهم انفتحوا على الحضارة الفارسية القديمة .. ومع ذلك وجدناهم يأخذون منها « التراتيب الإدارية » ، في الوقت الذي وجهوا فيه النقد والنقض لمذاهب الفرس وفلسفاتهم ودياناتهم .

وهم صنعوا ذلك مع التراث اليوناني ، عندما احتفوا بعلومه الطبيعية ، مع رفضهم لإلهياته ، وآدابه التي ارتبطت بتلك الإلهيات ..

لقد كان قانوناً حكم التقاء وتفاعل الحضارات ، طبقه المسلمون منذ عهد الفاروق عمر بن الخطاب ، الذي أخذ عن الرومان « تدوين الدواوين » - كتجربة إنسانية محايدة، ووعاء من أوعية التنظيم الاداري - في الوقت الذي رفض فيه « القانون الروماني » ، لاختلاف فلسفته في التشريع عن فلسفة الشريعة الإسلامية في فقه المعاملات !..

* والغربيون ، عندما انفتحوا على الحضارة الإسلامية ، إبان نهضتهم الحديثة ، أخذوا علومها الطبيعية ، ومنهجها التجريبي ، وتراثهم اليوناني الذي حفظه المسلمون وطوروه .. وفي الوقت ذاته رفضوا توحيد حضارة التوحيد ، ووسطيتها ، وقيمها ، ومثلها . بل لقد قسموا ابن رشد قسمين ، فأخذوا منه : الشارح الأكبر لأرسطو - لأن فيه تراثهم - ورفضوا فيه : الفقيه المالكي ، والمتكلم الإسلامي ، وصاحب العقلانية الإسلامية التي آخت ما بين الحكمة والشريعة ! ..

* وعندما أخذت حضارتنا الحديثة تتلمس سبل النهضة ـ قبل مرحلة الاستعمار ـ أرسلت البعثات إلى أوربا ، لتدرس **علوم التمدن المدني البشرية** ، **أي العلوم الحكمية** ، المفيدة في تمدن الواقـــع .. ولم يذهب مبعوث واحـــد ليـدرس **العقائد والفلسفات والإنسانيات** ـ علـــى عكس ما انقلب إليه الحـــال في ظل الاستعمار ، الذي أمطرنا بإنسانيات الغـــرب وحجب عنا مصادر القوة المتمثلة في العلـــوم الطبيعية والدقيقة ؟! ـ ..

ولقد عبّر رفاعة الطهطاوي (١٢١٦ ـ ١٢٩٠هـ = ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م) عن الوعي بهذه الحقيقة ، وعن الالتزام بهذا القانون : قانون التمايز بين الحضارات المتعدّدة في الإنسانيات ، التي تشترك جميعاً في حقائق وقوانين العلوم الموضوعية والمحايدة .. عبر عن ذلك عندما **رفض علمانية الغرب ولا دينيته ووضعيته التي اعتمدت « العقل المجرد »** و « **النواميس الطبيعية** » وحدهما سبلاً للمعرفة والتحسين والتقبيح ، وأكد على التزامه بالمنهاج الإسلامي الذي يجعل « الشرع » مع « العقل » و « النواميس الطبيعية » طرقاً للتحسين والتقبيح « فبلاد الإفرنج ـ (عنده) ـ مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات ، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية !. وليس لأهلها من دين النصرانية سوى الاسم فقط .. وهم من الفرق المحسنة والمقبّحة بالعقل .. أو من الإباحيين الذين يقولون : إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب ، ولذلك فهم لا يصدقون بشيء مما في كتب أهل الكتاب ، لخروجه عن الأمور الطبيعية » !..

وبعد أن حدّد الطهطاوي ملامح الوضعية الغربية ، أدانها ، وزكى النموذج الإسلامي الذي ميز حضارتنا عندما أقام بنيانها على « الشرع » و « العقل » جميعاً .. فقال : « إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتدّ به إلاّ إذا قرره الشارع . والتكاليف الشرعية والسياسية ، التي عليها مدار نظام العالم ، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن الموانع والشبهات ، لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى سبحانه . وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلاّ إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه .. ولا عبرة بالنفوس القاصرة ، الذين حكّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسيناً وتقبيحاً ، وظنوا أنهم

فازوا بالمقصود بتعدي الحدود !. فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع ، لا بطرق العقول المجردة »[1] !..

هكذا شهدت الحقائق على وجود « المشترك الإنساني العام » الجامع للحضارات الإنسانية كلها .. وعلى وجود « الخصوصيات الحضارية » الممثلة لتمايز الحضارات ، وتعدّديتها ..

وهكذا شهد تاريخ التقاء الحضارات وتفاعلها على ارتقاء هذه الحقيقة ... حقيقة تعدّد الحضارات - تعدّد تمايز ، لا تعدّد تناقض وتنافر - ارتقائها إلى مرتبة « القانون » الذي حكم التفاعل الصحي بين الحضارات ..

وسقطت دعاوى « واحدية الحضارة » في عالمنا ، تلك التي تخفي - أو تحاول أن تخفي - مقاصد الهيمنة وأغلال التبعية ومخاطر الاحتواء .. كما سقطت دعاوى الانغلاق والتناقض التام بين الحضارات في الميادين كلها ..

إن عالمنا يجب أن يكون « منتدى حضارات » .. تتفاعل جميعاً ، من موقف وموقع الراشد المستقل ، الذي يصافح الدنيا ، دون أن يتنازل عن « بصمته » التي تميزه ، وهويته التي تمثل الجوهر ، والروح الحضارية الحافظة لتميزه عن الآخرين عبر الزمان والمكان .

تلك هي الرؤية الإسلامية للإجابة عن هذا السؤال : عالمنا : حضارة واحدة ؟ .. أو تعددية في الحضارات ؟؟..

والله من وراء القصد .. منه نستمد العون والتوفيق .

---

(١) محمد عمارة ، الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي (دراسة وتحقيق) ، طبعة بيروت ١٩٧٣م ، ٢ : ٣٢ و ٧٩ و ١٥٩ - ١٦٠ و ٣٨٦ - ٣٨٧ و ٤٧٧ .

الإنسان ومستقبل الحضارة الإنسانية

« وجهة نظر إسلامية »

الدكتور علي أوزاك*

الإنسان مخلوق من مخلوقات الله تعالى ، رزق بعقل يعمل به ، له أو عليه ،لأنه كل ما يصدر من الإنسان إن لم يكن عملاً إرادياً لا مسؤولية له . فالحضارة من عمل الإنسان ، وعمل الإنسان قد يكون خيراً وقد يكون شراً كما أفاده القرآن والعلوم الإسلامية . لأن العقل أبرز ظاهرة في الإنسان ، ولا يوجد العلم والثقافة والفنون الجميلة إلاّ بالعقل . والمسؤولية أو التكاليف الشرعية بنيت على العقل .

أما الحضارة فهي أثر العقل ، فالإنسان يحمل أوصافاً كثيرة وميولاً عديدة نفسية أو روحية ، ولكن هذه الأوصاف والميول لا تفيد معنى إلاّ بالعقل ، لأن عدم وجود العقل يجعل الإنسان غير مكلّف .

ومستقبل الحضارة الإنسانية مربوط بفعاليات العقل الإنساني التي تنتج العلم والمعرفة والثقافة والفنون ، وهذه كلها تسمى حضارة . والمهم هنا توجيه العقل الإنساني توجيهاً صحيحاً ، فالقرآن يعمل هذا ويوجّه العقل الإنساني إلى الطريق الصحيح الذي به يصل إلى الله تعالى خالقه ورازقه وواهب عقله ، لأن القرآن كتاب هداية واعجاز . فالهدف من الهداية ليس الحياة الدنيا فقط بل مع الحياة الدنيا التهيؤ إلى الآخرة .

في مثل هذه البحوث يجب قبل كل شيء تحديد الفكرة الأصلية والهدف الأصلي من الموضوع .

على ما أظن أن الفكرة الأصلية والهدف الأصلي من هذا الموضوع هو إنارة الطريق للمسلمين خاصة وللناس عامة بتوضيح ما يسير عليه الناس في حياتهم اليومية ، ثم توجيههم إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة .

---

* العضو المراسل في المجمع الملكي / رئيس وقف دراسات العلوم الإسلامية / استنبول - تركيا .

للناس عامة طريقان في الحياة الدنيا :

طريق الأنبياء والرسل

طريق من يضاد الأنبياء والرسل من شياطين الأنس والجن .

وإذا نظرنا إلى الحضارة الموجودة الآن وجدنا أنها تتكون من هذين الطريقين أحياناً يغلب طريق الأنبياء على طريق الشياطين وأحياناً يغلب طريق الشياطين على طريق الأنبياء ، ففي هذه الأيام طريق الشياطين غلب على طريق الأنبياء . هذه سنة الله في الخلق. فالواجب علينا السعي إلى غلبة الشياطين .

كيف نحفظ أو نحافظ على حضارة الأنبياء ؟

طريق الأنبياء معروف ومشهور وهو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ووسائل الغلبة على طريق الشياطين موجود في الكتاب والسنّة ، إلاّ أننا انحرفنا عن هذا الطريق خاصة منذ قرن ونصف وتعلقنا بما فسره وشرحه علماؤنا القدماء وأسلافنا الصالحون تعلقاً شديداً يصعب علينا أن نتخلى عنه . مع أنهم ليسوا مسؤولين عنا ونحن لسنا مسؤولين عنهم .

وحل هذه المشكلة في نظري يحتاج إلى تفكير من جديد في البحث عن الثروة العلمية التي تركوها واكتسبوها باجتهاداتهم العلمية .

نذكر على سبيل المثال عمل السلف الصالح ونجاحهم الباهر في أول أمرهم لأنهم من أوائل أيامهم أنجزوا أعمالاً قيّمة في مدة قرن تقريباً . وصلت فتوح المسلمين في الغرب إلى إسبانيا بما فيها البرتغال وجزر البحر الأبيض مثل سجليا وقورسيقا وقبرص ووصلت في الشرق إلى آسيا الوسطى وإلى نهر السند . والغالبية العظمى من سكان تلك البلاد دخلوا في الإسلام .

والحقيقة أنه ما كان عند المسلمين بعد هذه المذاهب الاعتقادية والفقهية ولم توجد بعدُ هذه الكتب العلمية وهذه التفاسير الواسعة وهذه الطرق الصوفية وهذه الكتب التي تجمع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وكأن معهم كتاب الله وشيئاً من سنة رسول الله . وكتاب الله أيضاً كان لا يوجد إلاّ في أماكن معينة وفي أشخاص محدودين . فكيف فتحوا تلك البلاد ؟ وكيف نجحوا في نشر الإسلام بين الناس حتى إنهم نشروا مع الإسلام اللغة العربية في كثير من تلك البلاد المفتوحة ؟ وبماذا علّموا الإسلام إلى هؤلاء؟.

لأنهم كانوا يذهبون إلى سكان تلك البلاد بإسلام ساذج هدفه الأصلي هو الإيمان بما جاء به الإسلام ولا يهتمون بما فعله الناس من المساوىء . ولأنهم كانوا فهموا أن العمل بأوامر الإسلام لا يتحقق إلاّ بعد تحقق الإيمان القوي . إذن لا داعي للاهتمام بما يفعله الناس لأن المهم هو الفكرة الأصلية والهدف الأصلي وهو الإيمان . لذلك بهذه الطريقة أسلم الناس من تلقاء أنفسهم بعدما عرفوا حقيقة الدين .

ماذا نعمــــل الآن ؟

كل منّا يذهب إلى بلد يدعو فيه الناس إلى مذهبه أو إلى جماعته أو إلى طريقته أو إلى غير ذلك كما تعلمون .

والذي يسلم من الناس في الغرب والشرق ـ على ظني الغالب ـ أنه يسلم بقراءة القرآن عن طريق ترجمته أصلاً . نعم توجد كتب مفيدة في الدعوة إلاّ أن السائق الحقيقي هو القرآن .

إذن فلا بد من بحوث علمية عميقة عن الثروة العلمية الإسلامية لتخريج واستنباط شيء صحيح بسيط سهل ملخص يكفي للمسلم في العمل بالإسلام ، وهذا هو ما نقصده من التوجيه الصحيح للمسلمين .

لأن ما نملك الآن من المسائل والآراء التي تحتويها كتب الفقه والتفاسير وشروح الأحاديث كثيرة جداً لا يمكن ضبطها وتطبيقها فلا بد من الملخصات لتكون أساساً للعمل .

توجدحكمة تقول :

إن طلب الأحسن يضيع الحسن .

فالحسن هو الاكتفاء بالفرائض والعمل بالرخص .

قال الله تعالى في سورة النساء :

﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾[1] .

﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾[2] .

﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾[3] (أي الجنة) .

مثل هذه الآيات كثيرة في القرآن . لأن المهم هو الإيمان الصحيح والتوحيد الخالص .

توجيه المسلمين توجيهاً صحيحاً إلى الرزق الحلال

كما أن الوضوء شرط للصلاة فإن الرزق الحلال شرط في قبول العبادات ومن بينها الصلاة . والرزق الحلال كما ورد في الأحاديث مراراً هو كسب الإنسان رزقه بالذات باستعمال الحواس مثل اليد والعين والعقل وغيرها . لذلك كان الواجب الأول والفرض المهم على كل مسلم ومسلمة أن يكون له عمل يتكسب به ويصرف منه لإدامة حياته اليومية ليكون عبداً صالحاً محسناً مرضياً عند الله مدركاً بكيانه الذاتي .

وفي نظري لو كان المسؤولون من العلماء والحكام والأمراء وجهوا المسلمين بهذا التوجيه الصحيح كان المسلم بتوفيق الله سعى إلى أن يملك عملاً قبل كل شيء ليكون عبداً صالحاً عند الله . وكل من تعلّم العلوم الإسلامية يعرف في هذا الموضوع المقدار الكافي للتوجيه . ومن الغريب أن لا نرى من العلماء هذا التوجّه بالنسبة إلى العمل كما

---

(١) الآية : ٢٦ .
(٢) الآية : ٢٨ .
(٣) الآية : ٣١ .

أتقنوا التوجيه للعبادات ، لأن خير عمـل بعد الفرائض الدينية هـو سعي الإنسان إلى كسب رزقـه ذكراً كان أو أنثى . ولكن الحقيقة المـرة كما أفادها إحصائيون في العالـم أن نسبة المسلمين في العالـم كله حوالي ٢١ في المئـة وأن نصيب المسلمين من التجـارة العالميـة ٣ في المئـة بما فيـه البـترول . وإذا استثنينا البتـرول ينـزل نصيب المسلمين مـن التجـارة العالميـة إلـى واحـد ونصـف . فمعنـى هـذا أن المسلمـين في العالـم كله أفقـر الناس . فماذا يعمـل هؤلاء بهذا الفقر ؟.

ومن المستحسن أن نبحث هذا الموضوع أيضاً لتوجيه المسلمين إلى ما يفيدهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم .

ومن المعلـوم أن التوجيه لا يكون إلاّ بالتعليـم والتربيـة ، ولو سعينا من الأول في توجيه الصغار والشباب بطريق التعليـم والتربية إلـى أهمية اكتساب العمـل ليكتسب به وإلـى أهميـة أن يكسب الفـرد ما يستهلكه في حياته اليوميـة لوصلنا إلـى نتيجة حسنة ، لأن المجتمـع بعد هـذا التوجيه يتكون علـى أساس أن يسعى الفرد فيه لأن يجد لنفسه عملاً يكسب به ويعيش بين الناس فرداً حراً محترماً يشعر بكيان ذاته .

وذلك أن الحيوانات كلها تعيش كما تعلمون بجدّها الذاتي ولا تطلب من الآخرين شيئاً وتجاهد وتصل إلى ما تحتاج إليه بالذات .

وكذلك الإنسان نوع مـن الحيـوان أعطاه الله تعالـى ما يحتاج إليـه من الوسائل مثل العقـل واليد والعين والرجـل والقوة وما إلـى ذلك فيجب علـى كل إنسان أن يكسب رزقـه بالذات مثل الحيوانات الأخـرى ثم يتوجه إلـى الله بالعبادة شكراً لما منحه مـن الإمكانيات، فبعد ذلك يطـبق الإسلام في نفسه ثم ينشره في العالم .

إبعاد المسلمين عن الاشتغال بالزراعة كأمة

روى البخاري عن أبي أمامة الباهلي أنه رأى سكة وشيئاً من آلة الزرع فقال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يدخل هذا بيتَ قوم إلاّ أُخِذَ له الذُلُّ » . ومعنى هذا الحديث وما أشبه ذلك أن الاشتغال بالزراعة يمنع أو يبعد الناس عن العلم والصنعة والتكنولوجيا . والرسول صلى الله عليه وسلم أوصى المسلمين أن يشتغلوا بالعلم والتكنولوجيا والتجارة لأن وسيلة السيطرة على العالم هي العلم والتجارة والتكنولوجيا في التاريخ وفي يومنا . ونحتاج إلى بحوث علمية عملية لإبعاد المسلمين عن الاشتغال بالزراعة إلى الاشتغال بالعلم والتجارة والتكنولوجيا .

وآخر مثال لهذا هو القوراية كان بلداً فقيراً فأصبح الآن من أغنى البلاد لأن أهله توجّهوا إلى العلم والتجارة والتكنولوجيا . وعلم الاقتصاد يقول أيضاً : إن البلاد التي تشتغل بالزراعة عموماً بلاد متخلفة متأخرة .

والإحصائيون يقولون إن من يشتغل بالزراعة ويكسب حياته من الزراعة في أمريكا من السكان خمسة في المئة وإن هذه النسبة أربعة في المئة في ألمانيا وفي اليابان . وإن حصة المسلمين من التجارة العالمية ٣٪ وفيها البترول واذا أخرجت البترول تنزل هذه النسبة إلى واحد ونصف في المئة ، مع أن السكان المسلمين أكثر من عشرين في المئة بالنسبة إلى سكان العالم . فيجب علينا أن نلفت نظرنا إلى هذه الحقائق ونبحث المشكلة من جديد . فلا بدّ من توجيه المسلمين بسرعة إلى الاشتغال بالعلم والتجارة والصناعة ، وأحسن طريق لهذا هو البحث في وضع كل بلد وفي حالة كل مجتمع ثم البحث فيما يصلح لهذا البلد ولهذا المجتمع من العلوم والصناعات والتكنولوجيا . ومن هذا الطريق يمكن للفرد أن يجد عملاً يكسب به ما يحتاج إليه .

ضرورة البحوث الاجتماعية قبل الاقتصادية

في الحقيقة أن الإنسان حيوان اجتماعي كما قال ابن خلدون ، لذلك قبل أن نبحث عن الوضع الاقتصادي في المجتمع ينبغي لنا أن نعرف الإنسان ضمن مجتمع يعيش فيه لأن النظام الاجتماعي طابع أو مؤثر قوي في توجيه الفرد وذلك إن لم يملك الفرد ما يحتاج إليه لإدامة حياته اليومية لم يذق طعم العبادة ولا طعم الحياة لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « كاد الفقر أن يكون كفراً » وهنا نستطيع أن نقول : إن « كاد » في الحديث بمعنى كان وإن الفقر بمعنى المفقور أي الاحتياج وكان أدب النبي صلى الله عليه وسلم يمنع أن يعلن هذه الحقيقة لذلك سلك طريق المجاز . والكفر قد يكون بمعنى كفران النعمة .

تصور شخصاً ذا كيان شخصي له زوجة وأولاد ، ليس له عمل ليتكسب قوته وقوت عائلته ماذا يعمل هذا المسكين ؟ أيفيده صلاته وعبادته ؟ أم أنه لو صلى هل هو يصلي بالشعور ؟. لا . لأن ذهنه مشغول بما عنده من الفقر القاتل ويرى كل شيء أسود بل هو حائر لا يدرك ما يفعله . والرسول كان يهتم بمن لا يملك ما يحتاج إليه اهتماماً بالغاً كما نعلم من سيرته ، وكذلك كان يهتم بمن لا زوجة له لأن هذين الاحتياجين كانا من الاحتياجات الأصلية للإنسان ، فالشريعة أجازت السرقة بمقدار الضرورة لإدامة الحياة .

واذا نظرنا إلى المسألة من الناحية الاجتماعية بالنسبة للفقراء نقصد منهم الآن من ليس له عمل يعيش به لا من ليس له إمكان مالي ، رأينا أن الفرد يرتكب الجرائم لأجل أن لا يهان في المجتمع .

لا ينفع لمن لا شغل له إلاّ إيجاد عمل يكسب منه ما يحتاج إليه لذلك يجب أن توجد بحوث لأجل إيجاد عمل لكل مسلم ذكراً كان أو أنثى في مجتمعهما الذي يعيشان فيه .

وأنا أعتقد أننا في إمكاننا أن نحل المشكلة إن أجرينا بحوثاً اجتماعية ثم بحوثاً اقتصادية في المجتمع نفسه لإيجاد عمل لكل من لا عمل له في المجتمع ، ولوصلنا إلى نتيجة سليمة مفيدة ، لأن المساعدات الخارجية لأي مجتمع لا تأتي بخير ، لأن المهم هنا تربية كل فرد ومجتمع على أن يكتفي بذاته حسب شروط المجتمع والبلد اللذين يعيش فيهما الفرد .

ضبط النظام الاقتصادي للإسلام

كان لكل نبي مهنة يتكسب بها قوته كبشر في المجتمع . وكانت مهنة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم التجارة قبل النبوة وبعدها مدة . وكان يعيش في مجتمع نظامه الاقتصادي رأسمالية لأنه كان يقر بملكية الفرد مع معاملة الربا المنتشرة .

* ماذا عمل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن أرسل نبياً ؟

إنه لم يغيّر شيئاً من النظام السائد غير أنه أتى ثلاثة :

١ ـ أنه حرم الربا بأمر من الله تعالى وطبقه في حياته كما ورد في خطبة الوداع .

٢ ـ بصّر بمبدأ الحرام وهذه الميزة المتميزة في نظام الإسلام لأن المعاملة إما تكون حراماً أو حلالاً وهذا هو المعيار الحقيقي للإسلام ولا داعي للتشديد . ننظر إلى المسألة هل هي حرام أو لا ، فاذا كانت حراماً نتجنّبها وإلاّ نترك الأمر لمصالح الحياة .

٣ ـ أمر بإخراج الزكاة .

ويدل هذا على أن الإسلام أقر برأسمالية عامة ، ثم بصّر بالحرام وهذا هو الأساس الذي انبنى عليه النظام الاقتصادي ، وكان المسلمون يتعاملون فيما بينهم بالتجارة مراعين حدود الله في أوامره ونواهيه .

لذلك نحن لا نتعب أنفسنا في إيجاد نظام اقتصادي إسلامي جديد كما يدعي بعض الناس لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : الحكمة ضالة المؤمن أين وجدها أخذها .

ونحن نأخذ كل اختراع علمي بشري بشرط أن لا يمس بحرام أو يخل بحلال ما دام الربا حراماً فالمسلم يتوقاه ويؤدي زكاة ماله ويمشي في طريق وسط لأن الإسلام دين وسط .

لأننا اذا نظرنا إلى النظم الاقتصادية في العالم الآن وجدنا أن بعضها يوافق الإسلام وبعضها الآخر يخالفه ، فنحن نأخذ الموافق ونترك المخالف . وعلى رأيي يجب أن تكون البحوث على هذا المنوال .

إن كثيراً من الناس يظن أنه يوجد نظام اقتصادي إسلامي ويفحص كتب العلماء ولا يجد شيئاً ويستغرب لأنه لا ينظر في الأصل بل ينظر في الكتب القديمة ، ولو أنه نظر إلى أصول الإسلام إلى الكتاب والسنّة لوجد ما يبحثه .

الختـــــام

نجاحنا مربوط بعملنا . وعملنا مربوط بعقيدتنا ، وعقيدتنا هي الإيمان بالإسلام وبالتوحيد الخالص . والعمل ليس جزءاً من الإيمان .

والآن علينا أن لا ننظر إلى أعمال الناس وإنما ننظر إلى إيمانهم وأفكارهم . بهذه الطريقة يمكننا أن نكثر جماعة الإسلام وأن نتحد ونتعاون ونقف ضد الأعداء وننجح بإذن الله تعالى .

جلسة تأبين راحلين من أعضاء المجمع الملكي

الأربعاء ٢٤ من المحرَّم ١٤١٤هـ الموافق ١٤/٧/١٩٩٣م

* كلمة الدكتور أحمد كمال أبو المجد في تأبين الدكتور عبدالعزيز كامل .

* كلمة الدكتور عبدالهادي التازي في تأبين الأستاذ محمد الفاسي .



عقد المجمع الملكي جلسة خاصة في تمام الساعة السادسة والنصف من مساء يوم الأربعاء ٢٤ من المحرَّم ١٤١٤هـ الموافق ١٤/٧/١٩٩٣م في قاعة بترا بفندق ريجنسي بالاس ، لتأبين عضوي المجمع : الدكتور عبدالعزيز كامل (العضو العامل من جمهورية مصر العربية) والأستاذ محمد الفاسي (العضو العامل من المملكة المغربية) رحمهما الله رحمة واسعة ، وأسكنهما فسيح جنانه . وقد ترأس الجلسة رئيس المجمع الدكتور ناصرالدين الأسد .

وفي بداية الجلسة ألقى الدكتور أحمد كمال أبو المجد كلمة في رثاء الدكتور عبدالعزيز كامل ، ثم ألقى الدكتور عبدالهادي التازي كلمة في رثاء الأستاذ محمد الفاسي ، ونثبت فيما يلي نص الكلمتين :

كلمة في رثاء الدكتور عبدالعزيز كامل

الدكتور أحمد كمال أبو المجد*

ما كان يخطر ببالي ، وأنا أنعم بصحبته وآنس بحديثه ومجلسه ، أن أقف متحدثاً عنه في غيبته وسط جمع كريم .

كان رحمه الله درّة من درره ونجماً من نجومه المضيئة الساطعة . والذين لم يقتربوا من عبدالعزيز كامل في حياته ، وإنما عرفوه من كلماته المكتوبة وأحاديثه المذاعة سيظلون يعرفونه مفكراً رصيناً وداعية حكيماً وعالماً محققاً ونموذجاً تقرّ به العيون والقلوب للجمع بين الثقافات ولمعالجة قضايا الإسلام والمسلمين بقلب مؤمن يستغرقه الإيمان ، وعقل مرهف يشغله الالتزام بمنطق العلوم ومنهاج العلماء في البحث والتحقيق... وسيذكره كذلك مشاركاً في حمل المسؤولية الرسمية عن الدعوة الإسلامية في مصر سنين غير قليلة كان خلالها رمزاً من رموز الحكمة والاتزان والاشتغال بالعمل النافع الذي تبقى آثاره الطيبة بعد رحيل الذين بدأوه أول مرة .

أما الذين عرفوا عبدالعزيز كامل عن قرب فستبقى له عندهم صورة تجاوز ذلك كله ... صورة عبد صالح تقي وصل قلبه بالله ونور أيامه ولياليه بالصلاة ومصاحبة القرآن ... وصورة مجاهد في سبيل الله من غير صخب ولا دعاية ولا إعلان ... أوذي في الله فصبر ... وامتُحن مرات ومرات ... ولقي من الأذى ما يسخط النفوس ويملؤها مرارة ... ولكنه رحمه الله - ظل مع ذلك وبعده هادىء القلب ... صافي النفس ... ساكن الجوارح ... لا تفارقه وضاءة القسمات وابتسامة الثغر على البأساء والضراء ... وظل لسانه في السراء والضراء لساناً ذاكراً عفيفاً لا يمتد - حتى إلى ظالميه - بكلمة سوء جارحة ... فقد كان الله تعالى حسبه ... وكانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أسوته ... كما كانت سيرة المجاهدين الصابرين على امتداد تاريخ الإسلام حاضرةً بين عينيه وجارية على لسانه ... فألحق نفسه بهم ، ووصل قلبه بسيرتهم ... وظل على هذا الحال الرفيع لا يفارقه حتى أذن الله له بالرحيل ... فرجع إلى ربه راضياً مرضياً بعد حياة

* العضو العامل في المجمع الملكي / جمهورية مصر العربية .

عامرة زاخرة ... مليئة بجهاد طويل وسعي وكدح آن له أن يستريح بعده ... وكأني في هذا المقام أتابع أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين بلغتها وفاة علي كرم الله وجهه ، فذكرت حياته العامرة بالجهاد والكدح والحركة ... فتمثلت بقول القائل :

فألقت عصاها واستقر بها النـــوى
كما قر عيناً بالإياب المسافـــــــر

عاش عبدالعزيز كامل في دنيانا هذه اثنين وسبعين عاماً منذ مولده بحي راغب في مدينة الإسكندرية في نهاية يناير ١٩١٩م حتى لقي ربه في الأسبوع الأول من إبريل ١٩٩١م ... حصل على ليسانس الآداب من جامعة القاهرة عام ١٩٤٠م ثم حصل على الدكتوراه مع مرتبة الشرف من الجامعة نفسها عام ١٩٥٧م وعمل بالتدريس في الجامعة حتى حصل على درجة أستاذ مساعد عام ١٩٦٣م ، وفي النصف الثاني من عام ١٩٦٧م تولى وزارة الأوقاف وشارك في وزارة محمود فوزي وعزيز صدقي والسادات وعُيّن نائباً لرئيس الوزراء عام ١٩٧٤م ثم سافر إلى الكويت وبقي فيها ستة عشر عاماً مدرساً ومديراً لجامعتها ومستشاراً لأميرها ، ومن مؤلفاته العديدة :

١ ـ وجه العالم الاسلامي .

٢ ـ المقريزي وفيضان النيل .

٣ ـ التفرقة العنصرية في جنوب إفريقيا .

٤ ـ وجه الإسلام في إفريقيا .

٥ ـ جغرافية الإسلام في عهد النبوة .

٦ ـ الإسلام والعروبة في عالم متغير .

٧ ـ دروس من سورة يوسف .

٨ ـ دروس في الدين والحياة .

٩ ـ دروس من غزوة أحد .

وله في الإذاعات المسموعة والمرئية أحاديث متفرقة .

رأيته أول مرة ـ ولم أكن أعرفه ـ منذ أكثر من أربعين عاماً ... كنت في أول الشباب ، وكان هو في أوسطه ، جالساً وسط حلقة من الشباب المؤمن المتحمس الذي يتوق شوقاً لإصلاح الأمة بمنهج الإسلام ورسالته ... وتحدث وحاور وأجاب عن أسئلة... فأدركت ـ على الفور ـ انني امام داعية من نوع خاص ، ندب نفسه لأمر يجاوز كثيراً حدود الحماس للإسلام والاندفاع العاطفي لدعوته ... كان جهده موجهاً الى إلجام العاطفة بسلطان العقل ... وإلى تطعيم المثالية المتوثبة بواقعية متبصرة ... وكان خلال هذه المقابلة الأولى ـ كما ظل حتى يوم وفاته ـ يستعين في شرحه وتدليله بوقائع التاريخ ، وحقائق الجغرافيا ، وبأمثلةٍ من العلوم والمعارف من عالمنا وأخرى من عالم الآخرين ... وكان ذلك كله أمراً غير مألوف بين الدعاة المتحمسين الذين اقتصر جهد بعضهم على مبادلة الحماس بالحماس ، وتزكية العواطف المشتعلة بعواطف مثلها ... حتى أوشك صوت العقل والحكمة والاعتدال في مناسبات كثيرة ، أن يخفق أو يضيع .

وظل عبدالعزيز كامل طول حياته جزءاً من الدعوة الإسلامية في مصر والعالم ... ولكنه كان جزءاً مميزاً فريداً لم يقتصر دوره على المسايرة ، وإنما كان أشبه بضمير من ضمائر تلك الدعوة ، يذكّر ويراجع ويستدرك ويدعو إلى إعادة النظر في مفاهيم العمل وأساليبه ، كل ذلك بنبرة هادئة وصوت خفيض وحجة ... ولما أتيح له أن يتوجّه بمزيد الجهد إلى البحث والدراسة والتحقيق العلمي ، ازداد فكره وضوحاً ونضجاً ... وتحدّدت معالم الدّور الذي يتصوره للمسلمين في العالم ، وللحركة الإسلامية في سعيها لنشر كلمة الله وإعلاء دينه ورعاية مصالح الناس ... واستطعت من خلال متابعة شبه منتظمة لما يكتبه ويقوله ويتحدث به أن أبين المعالم التالية في تصوره لذلك كله :

أولاً : على نطاق الحركات الإسلامية داخل الأقطار الإسلامية استقر رأيه وموقفه على ضرورة الدعوة إلى نبذ الالتجاء إلى العنف والوسائل الانقلابية ... وأنه لا بديل في نشر الاسلام والدعوة إليه من أمرين اثنين :

ـ العمل بالوسائل الديمقراطية التي تنبع من فكرة الشورى وتعتمد على رضى المشاركين ومساهمتهم .

- والتربية الفكرية والسلوكية التي يتغير بها حال الأمة تغيّراً حقيقياً لا تغيراً فوقياً يؤهلها لمباشرة النهضة ...

ولقد مارس عبدالعزيز كامل مهمة التربية الفكرية داخل صفوف الحركة الإسلامية وخارجها ... كما مارسها من خلال مسؤولياته الرسمية والأنشطة الاجتماعية والسياسية العديدة التي شارك فيها ... فكان رحمه الله - معلّماً ومربياً - أكثر منه سياسياً وداعياً .

وانطلاقاً من هذا الحرص على ترشيد مسيرة الحركات الإسلامية وتجنيبها عواقب المواجهات والمصادمات مع سلطات الحكم وجه عبدالعزيز كامل جزءاً كبيراً من عنايته إلى ما صرنا نسميه اليوم « ضرورة فض الاشتباك بين حركات الشباب المسلم الغاضب وبين الحكومات ... مؤمناً بأن التزام الدعاة منهجاً علمياً صارماً ومتكاملاً في تعليم الشباب من شأنه أن يضعهم على طريق خدمة الإسلام دون أن يعرضهم للاصطدام بسلطان الحكم والقانون »[1] .

ثانياً : على نطاق « الأمة » ووسائل نهضتها تبنى عبدالعزيز كامل مبدأ ضرورة الجمع بين العلم والإيمان فوجه جانباً كبيراً من كتاباته إلى بيان استحالة التناقض بينهما ، وإلى ضرورة الحرص الدائب عليهما . ختم رحمه الله حديثاً له بعنوان : « حوار بين العلم والدين » ، بقوله[2] :

« هذا العلم الذي يجمع بين عالمية المنهج وتجريبية الدليل وروح الفريق هو الذي نودّ أن يسود بين شبابنا ، وان التحديات التي يقابلها المجتمع في نموه والموازنة بين الأوضاع العلمية في عالمنا العربي والإسلامي من ناحية والعالم المتقدم من ناحية أخرى تفرض علينا أن نوجه طاقة شبابنا إلى التعاون في تحقيق صورة أفضل للمستقبل . لا بديل عن العلم ولا بديل عن الإيمان . ومن الخير أن نبعث النهضة من أصولنا وجذورنا ، وأن نتخذ من الدين دافعاً قوياً ومن المنهجية العلمية

---

(١) من مقال له نشر أخيراً في إحدى الصحف اليومية .
(٢) جريدة المساء المصرية يوم ١٢/٤/١٩٨٢م .

أسلوباً ومن التغلب على عقبات التخلف هدفاً ، ومن التعاون العلمي العالمي وسيلة تجعلنا على صلة بكل إبداع الإنسان . بهذا تكون عندنا علمية جديدة متفوقة تستطيع أن تستقطب الكثير من طاقات الشباب إلى ما هو أجدى دون أن تنحرف بالدين أو تنحرف عنه ، ويكون لشبابنا هذا الصبر الطويل على العمل ، والتواصل الحميد بين الأجيال ، والتعاون الذي يختصر الطريق ويقترب من الهدف المنشود » . ويؤكد عبدالعزيز كامل المقالة نفسها وتفصيلها في حديث له بعد تسع سنوات من هذا الحديث في حوار له مع محرر جريدة الجمهورية القاهرية في السادس من أبريل ١٩٩١م .

ولم يكتفِ عبدالعزيز كامل بالدعوة العامة إلى الالتزام بمنهج العلم لبناء نهضة الأمة ... وإنما عُني - وكان هذا دأبه - بالوقوف عند ما لا آخر له من التفصيلات والجزئيات المتعلقة بالسلوك الفردي والاجتماعي حتى كانت كتاباته أشبه بدروس عملية لتقويم السلوك . واتسعت دائرة الأمور التي تعرض لها .

وفي هذا كله كان عبدالعزيز كامل مطلعاً على أحوال الأمم الأخرى ، منصفاً في تقييم جوانب تقدّمها ، داعياً إلى الأخذ بمثله دون أن يقع في شرك الاستغراب أو الاستشراق ... بل ظل حسه الإيماني مرهفاً ، وظل انتماؤه بالعقل والقلب معاً إلى عقيدة الإسلام وحضارته انتماء واضحاً معلناً ...

ثالثاً : وعلى نطاق الثقافة العامة تجاوز عبدالعزيز كامل حدود « الأمة » وانطلق - خصوصاً خلال السنوات العشرين الأواخر من حياته - إلى المشاركة في الأنشطة الثقافية العالمية ... فتعاون في ذلك مع اليونسكو وشارك في أنشطتها ... ونذكر له جميعاً من هذا إسهامه الكبير في إعداد الردّ على ما اشتملت عليه الطبعة الإنجليزية من المجلد الثالث من كتاب « تاريخ البشرية » من أخطاء ومغالطات وتجنٍّ على الإسلام وتاريخ أهله . وعن القرآن الكريم ... ونشر رحمه الله مقالات عدة في الصحف اليومية والأسبوعية عن هذا الإسهام ، نذكر منها حديثاً له في الأهرام يوم ٢٧/٦/١٩٧٥م .

كذلك انطلق عبدالعزيز كامل خلال الفترة ذاتها إلى المشاركة النشطة في الحوار الإسلامي المسيحي إيماناً بإمكان بناء قاعدة مشتركة من التعاون ، يجري من خلالها إسهام المسلمين في بناء ثقافة عالمية مؤمنة ... وكان خلال حلقات هذا الحوار موضع احترام ومودّة من جانب المشاركين فيه مبعثهما معرفته الواسعة بالأديان ... ودقته المنهجية في التعامل مع قضايا ذلك الحوار ... واعتصامه - دون تعقيد - بعقيدته وشريعته التي يؤمن بها ... وما كان عليه من أدب جمّ وموفور في مجادلة الموافقين والمخالفين .

وفي السنوات الأخيرة من حياته ازداد شعوره - رحمه الله - إرهافاً وداخلته رنةُ إحساس فيّاض بآلام الآخرين ... من الأحياء ومن الماضين ... وكثر فيما يكتب ذكر الموت ... ففي ١٩٩١/٥/١٠م ، نشر له - رحمه لله - بعد وفاته مقال في جريدة الأخبار عنوانه : « الكتاب المبين والقلب الحزين » .

والمقال كله تأمل ودراسة لتفسير الفخر الرازي لقول الحق سبحانه من سورة يوسف : ﴿ **توفني مسلماً وألحقني بالصالحين** ﴾[1] حيث يذكر أنه لاحظ في إفاضة الفخر الرازي في شرح هذه الآية رنة حزنه ، يقول عبدالعزيز كامل « كأنك تسمع أنيناً أو ترى دمعة تنبع من القلب والعين معاً وزهداً في الدنيا وزينتها وتطلعاً إلى الآخرة وهي دار القرار » ... ويقول عبدالعزيز كامل إنه تابع القراءة حتى أدرك آخر السورة فوجد الإمام الفخر الرازي يقول : « تم تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم الأربعاء السابع من شعبان ... سنة إحدى وستمئة هجرية ، وقد كنت ضيق الصدر جداً بسبب وفاة الولد الصالح محمد تغمّده الله بالرحمة والغفران » .

ثم يعود إلى بعض ما ذكره الرازي - رحمه الله - في تفسير الآية فيورد قوله : المعنى ألحقني بهم في ثوابهم ومراتبهم ودرجاتهم ... إن النفوس المفارقة للدنيا والخطايا إذا أشرقت بالأنوار الإلهية انعكس النور الذي في كل واحد منها إلى الأخرى بسبب تلك الملازمة والمجانسة فتتقوى تلك الأنوار وتتقوى تلك الأضواء كأنها المرايا الصافية عندما تشرق الشمس عليها ... » .

---

(١) الآية : ١٠١ .

سأله أحد أصدقائه المقربين يوماً أن يترفّق بصحته ونفسه وكان يشكو من علة في القلب فكان ردّه قول الله عزوجل : ﴿ **يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه** ﴾[1] . وقوله عزوجل : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في كبد** ﴾[2] .

استقر - رحمه الله - في اخريات أيامه بالكويت يشير على حاكمها بالخير والصدق ، ويملأ الآفاق بكتاباته النيرة الهادئة الهادية ... وحسبنا أن الأمن والاستقرار قد عادا إليه وإلى حياته ... فإذا بغزو الكويت يقطع عليه ذلك كله وإذا بالمرض يداهمه فلا يكاد يقوى على الخروج منها مع الخارجين ثم يلحّ عليه بعض المشفقين على صحته فيتوجه إلى لندن للعلاج ... وتجرى له جراحة ... ويعود إلى القاهرة ليعاوده المرض ويقتربُ موعد لقاء الله ... زرته في مستشفاه قبل موته بأيام قليلة ... فاذا الهدوء هو الهدوء وإذا الصفاء هو الصفاء ... وإذا به مشغولٌ بهموم الناس عن همّه وبمستقبل الأمة عما بقي له هو من أيام معدودات في هذه الدنيا ... وأهداني رحمه الله آخر كتبه وكتب على غلافه كلمة إهداء طويلة ... وقرأت فيها نعيه لنفسه ... ورأيت فيها كلمة وداع ... فغالبت دموعي ... وخرجت ومن معي من أصدقائه وتلامذته لم يشغلنا عن الحزن معه وعليه إلا ما طلبه منا من أمور متعلّقة بنشر بعض ما كتب ... وأداء بعض أمانات الناس عنده ...

رحم الله عبدالعزيز كامل رحمة واسعة ... ونفع الأمة بعطائه الغزير وألهم محبيه وإخوته في رحلة الحياة أن يقتبسوا من صفاءِ نفسه وعفة قلبه ولسانه ورجاحة أفقه ما يستعينون به - ونستعين معهم - على مواجهة أزمتنا التي لم يعد لها من دون الله كاشفة .

وعوضنا الله وعوض المجمع الملكي عنه خيراً .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

---

(١) الانشقاق : ٦ .

(٢) البلد : ٤ .

كلمة في رثاء الأستاذ محمد الفاسي

الدكتور عبدالهادي التازي*

سيدي الرئيس

السادة الزملاء الأعزاء

أرجو قبل كل شيء أن أقدر هذه المبادرة من (مجمع آل البيت) في حق أستاذنا المجمعي الراحل ، فعلاوة على أنها برور بروحه الطاهرة ، هي تعبير عن تقديركم لمعنى كلمة « الخالدين » التي تقال عادة للذين يقضون عمرهم في البحث والتنقيب ... وقد كان الأستاذ الفاسي في صدرهم وفي عيونهم ومن زمرتهم .

وأريد ـ أيها السادة الزملاء ـ أن أقول منذ البداية إن الحديث عن حياة هذا الرجل يرتبط تمام الارتباط بالحديث عن التاريخ الثقافي والاجتماعي ، بل عن التاريخ السياسي والنضال الوطني للمملكة المغربية بقيادة جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله ، فالحديث عنه إذن حديث عن كل تلك الأحياز في تاريخ المغرب أو على أدق تعبير في تاريخ بلدكم المغرب الذي تعرفون جيداً عن موقعه في العالم العربي والإسلامي وعن مدى إسهامه في بناء الحضارة العربية والإسلامية ...

من خلال مخالطتي الطويلة لهذا الأستاذ الجليل القدر وقفت على جوانب من حياته ، كانت لافتة للنظر حقاً ، وكانت تستحق التنويه بها والإعلاء من شأنها ، ليس فقط للإشادة بالرجل الراحل ولكن لحمل الناس على الاقتداء به والسلوك على منواله .

لقد كان أول لقاء لي مع الأستاذ الفاسي قبل خمسين سنة بالضبط ، أي في السنة الجامعية ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣م عندما عينه جلالة الملك محمد الخامس مديراً لجامعة القرويين بفاس .

---

* العضو العامل في المجمع الملكي / المملكة المغربية .

وأنتم تعلمون أن هذه الجامعة كانت القلعة الحصينة التي اعتمد عليها المغرب طوال عمره في تكوين الأجيال التي حافظت على عروبته وعلى إسلامه ، ومن هنا فإن الملك محمد الخامس كان يرى فيها المنقذ الأول للمغرب من فَرَنْسيته وتعجيمه وذوبانه في حضارة أخرى ، وهكذا وجدناه يقترح اسمه على الإقامة الفرنسية حتى يستطيع أن يطعِم الجامعة المَذكورة بما تقتضيه الظروف من تطور وتقدم .

لقد كانت جامعة القرويين إلى العهد القريب تُسيَّر من قبل ثلة من المشايخ العلماء الأعلام الذين كانوا يتعاقبون عليها ، ولكن انقطاع أولئك المشايخ إلى اختصاصاتهم وحقول معرفتهم جعلهم يبتعدون شيئاً فشيئاً عن مواكبة ركب الحاضر الذي كان يتطلّب التطور والتقدم ـ كما قلنا ـ ، ومن هنا كان سر اختيار الأستاذ الفاسي لأنه كان يجمع بين ثقافة تقليدية ـ إذا صح التعبير ـ وبين ثقافة عصرية تمكن منها عندما كان يدرس في باريس ... علاوة على أنه كان أستاذاً بالمعهد المولوي حيث يَدْرُسُ عددٌ من التلاميذ كان على رأسهم ولي العهد الأمير مولاي الحسن . فهو ـ بهذه الصفة ـ سيبقى على صلةٍ تامة بالعاهل الذي كان يسهر على الجامع القروي بفاس مثل سهره على المعهد المولوي بالرباط .

وقد كان الترحيب به عظيماً وبالاجماع في كلية القرويين ، فهو الرجل الذي كان يجمع بين الأصالة وبين الحداثة ، وهو قبل هذا وبعد هذا يحظى بتزكية الملك المحبوب محمد الخامس الذي كان المغاربة جميعهم يلتفون حوله ، وقد أدرك الناس كلهم أن الملك محمد الخامس كان يهدف إلى قصدٍ بعيد من تسمية الأستاذ الفاسي في تلك المؤسسة العظيمة التي ـ كما أسلفت ـ يرجع لها الفضل الأكبر في بقاء المغرب عربياً مسلماً طوال الأحقاب .

وسأقول إلى جانب هذا : إن الاستعمار لم يكن مرتاحاً من هذا التعيين تمام الارتياح خصوصاً بعد أن اقترن وجود الفاسي بالقرويين بحدوث « ثورة » في مناهج الدراسة بالجامعة ، وفي تنظيم حياة الطلبة ، وأمرِ الشهادات ومعادلاتها ، وفي الامتحانات والعطل السنوية ... وأكثر من هذا كله في إحداثه لقسمٍ للفتيات تابع للجامعة يتدرّجن فيه إلى أن يصبحن عالمات على قدم وساق مع السادة خريجي الجامعة!

لقد قام الملك محمد الخامس يوم ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩٤٣م بإلقاء خطابه التاريخي في قلب محراب هذه الجامعة يطلب إلى الآباء أن يقصدوا ببناتهم إلى المدارس، « فما هو مقبول إطلاقاً أن يظل نصف الجسد عاطلاً ، وما هو مقبول إطلاقاً أن يقوم الجسر على عمود واحد » ، ومن هنا انطلق محمد الفاسي في إنشاء قسم الفتيات امتثالاً للأمر الملكي وهي المبادرة التي لم تكن لترضي الاستعمار التي اعتبرها تحضيراً حقيقياً لمواجهةٍ مرتقبة بين الشعب المغربي وبين المستعمر ..! ولم يكن غريباً علينا مع هذا أن تزدحم الأحداث وتتوالى الاصطدامات ويبعد الأستاذ الفاسي عن الجامعة بل يسجن ! بحجة أنه بقراراته وبمبادراته « يضع الإدارة الفرنسية أمام الأمر الواقع » ، وقد كان مما زاد في سوء حظه معهم أنه كان في صدر الذين وقّعوا العريضة التي تطالب باستقلال المغرب عن فرنسا ، وقّعها إلى جانب زوجته السيدة مالكة التي كانت الفتاة الوحيدة التي ظهر اسمها إلى جانب أسماء الموقّعين على العريضة ، ولا بدّ لنا من التذكير هنا بأن تحرير هذه العريضة تم بتحضير مشترك بين الزعماء الوطنيين وبين جلالة الملك محمد الخامس ، وبأن محمد الفاسي كان من بين الذين يقومون سراً بربط حلقات الاتصال بين الملك وحزب الاستقلال .

ولا يخفى ما كان في هذه الحركات كلها من معنى يعبر عن الدور الذي كان يقوم به الأستاذ الفاسي في حظيرة جامعة القرويين التي ظلت صاحبة التفوق في السياسة والقرار ...

وقد كان إقصاء محمد الفاسي باعثاً على الاحتجاج الذي تجلى في تعطيل الامتحانات ، الأمر الذي أدى إلى إلهاب الحماس والمناداة بالمقاومة ، حيث انتهى الأمر إلى الرضوخ للإرادة الملكية والشعبية بإطلاق سراح محمد الفاسي ، بل عودته إلى القرويين في يوم مشهود حضره سائر العلماء والطلبة ـ وكنت فيهم ـ كما حضره السادة العلماء الذين كان من بينهم الأستاذ علاّل الفاسي الذي كان حديث عهدٍ بعودته من المنفى ... في هـذا الاحتفال العظيـم حلّى الملك محمد الخامس الأستاذ الفاسي بصفة « الغَيور » وقد تَرَكَتْ تلك « التحلية » أثراً غير مقبول كذلك للاستعمار الفرنسي ! وهكذا عاد محمد الفاسي أقوى ما يكون إلى الجامعة ...

وقد صادفت الاحتفالات التي أقامها جلالة الملك محمد الخامس يوم ٩ تموز (يوليو) ١٩٤٧م - بمناسبة إحراز ولي العهد الأمير مولاي الحسن على البكالوريا - وصولَ الجنرال جوان إلى المغرب بقصد ردع الوطنيين وقمعهم لاسترجاع هيبة فرنسا ، على حد تعبير الصحف الفرنسية في ذلك العهد ... ومن هنا سيكون من السهل علينا أن نسمع أن الأستاذ الفاسي تتوجّه إليه التهمة بأنه يعمل لصالح حزب سياسي معروف بعمله المتوالي لنسف العلاقات « الطيّبة » بين فرنسا والمغرب !!

وكانت هنا فرصة تضامن الوطنيين المغاربة جميعهم مع الملك محمد الخامس عندما أخذ الجنرال جوان يمارس الضغط على العاهل حتى يتبرأ من بعض الأحزاب ، وحتى يقبل بعض الإصلاحات المقدمة إليه من لدن القوى الاستعمارية ...

لقد رأى الاستعمار أن في إبعاد الزعماء - وخاصة منهم الذي يتصلون بالملك - وسيلة لنجاح تنفيذ مخططهم ، وهنا وجدنا الأستاذ الفاسي مرة أخرى في السجن حيث قدر عليه أن يتلقى وهو في منفاه خبر نفي الملك محمد الخامس إلى مجاهل الدنيا !

وتشتعل الثورة في المغرب ضد صنيع الاستعمار الذي اضطر في أعقاب حصاد معظم عملائه أن يرجع العاهل المناضل الملك محمد الخامس الذي رأيناه يعين الأستاذ محمد الفاسي وزيراً للتربية الوطنية في أول حكومة وطنية .

وهنا تعرفت مرةً ثانية على الأستاذ الفاسي عندما دعاني إلى الرباط للعمل معه على رأس القسم الثقافي بالوزارة ، وهنا تمكنت من الوقوف على جوانب أخرى من حياته بعد أن تعرفت عليه طالباً بجامعة القرويين وأستاذاً فيها كذلك .

وفي الوزارة مارس رئاسة جامعة محمد الخامس التي حضرنا ميلادها بمدينة الرباط في يومٍ عظيم حضر فيه الملك محمد الخامس ، وقد شاءت الأقدار أن يحضر العاهل والأستاذ كلاهما في الحفل الكبير الذي أقيم تكريماً لجامعة القرويين بمناسبة مرور أحد عشر قرناً على إنشائها ...

وقد حظي محمد الفاسي - بعد أن انتقل الملك محمد الخامس إلى جوار ربه - بعطف تلميذه القديم جلالة الملك الحسن الثاني الذي أغدق عليه من تشجيعاته وأفاض عليه من عطائه ، وهكذا فبعد أن عيّنه على رأس وزارة الثقافة والتعليم الأصلي الذي كان يُعنى به نوع التعليم الذي كانت جامعة القرويين تعتمده في دراساتها ، بعد ذلك ألحقه بديوانه وظل ينعم بالتشريفات نفسها التي ينعم بها كبار رجالات الدولة إلى أن نال من جلالة الملك الحسن الثاني القلادة الكبرى في يوم وطني مشهود ؛ ١٩٨٩/٣/٣م بمدينة مراكش قصدنا معاً - على أثره - مدينة القاهرة لحضور أعمال مجمع اللغة العربية في آخر دورة حضرها هناك ، ولقد كان من أبرز ما كرّمه به جلالة الملك الحسن الثاني أنه أصدر أمراً ملكياً بدفن الأستاذ الفاسي في مقبرة القصور الملكية تعبيراً من العاهل عن تقديره الجمّ لما قام به الأستاذ الفاسي من أعمال جليلة إزاء الدولة العلوية ...

تلك بعض لقطات من حياة الأستاذ الفاسي رحمه الله ، فماذا يمكن أن نستخلص من تلك الحياة الحافلة من سجايا ومزايا وأخلاق وطباع ؟

سأقف قليلاً لأشير إلى ما يميّز شخصية الأستاذ رحمه الله ...

إن أول ما يميزه كان هو هويته الإسلامية التي كانت تتجلى فيما كتبه عن الإسلام من دراسات وعروض وما أثر عنه كذلك من انتقادات واعتراضات على كل من يحاول أن ينتقص من مزايا الإسلام ويتنكر لقيمه العليا ...

وقد كان الخلق الثاني يتمثل فيما يُبرز هُويتَه العربية ، ومن هنا فإننا سنجد أنفسنا أمام مناصرٍ وفيّ للغة العربية ، فهو يدافع عن مناهجها وأسلوبها وثروتها وغنائها ، وهو يتصدى لكل أعدائها أو جاهلها بكل ما يفهمهم أنهم في طريقهم ضالون ! وكم عرّضه هذا الموقف للكثير من العداوات ولكنه كان لا يبالي أن يقف أحدهم وهو يسمعه يلحن أو يشوه مفرداً من مفردات اللغة العربية .

وبعد هذا نشعربأن هناك هُويةً ثالثة تجتذبه ولا يجد مناصاً عن التأثر بها والسير في طريقها غير مبال بما قد يقال عنه أو يروى ، تلك هي هويته المغربية ، فهو أينما كان لا بد أن يشعر الآخرين بأهمية المغرب وموقع المغرب ومركز المغرب ، وهو أينما كان لازم له أن يبحث عن المخطوطات التي تتصل بالمغرب وعما قيل عن هذا المغرب في تلك الجهات حتى يستطيع أن يربط بلاده بتلك البلاد الأخرى .

وأخيراً لا بدلنا أن نقول هذا ـ على سبيل الإتحاف والاطراف ـ إن الاستاذ الفاسي يهيم بمدينته الأصلية فاس : يحبها حباً جماً ، فهو يعتقد أنها أصل الأصول او المحور الذي تدور عليه مقاليد الأمور .! وهو يردد دائماً ما كان جاء على لسان الأميرة الجليلة لالة عائشة كريمة المغفور له الملك محمد الخامس عندما قالت يوم ١٩٤٦/١٠/٦م وهي توجّه خطاباً لها بمناسبة تدشين مدرسة ابن غازي : قالت هذه الكلمة التي أصبحت مثلاً يتردّد على الألسنة : « فاس والكل في فاس » !

محمد الفاسي عنده أنّ المزايا كلها والسجايا كلها تتمثل في فاس ! ولذلك فإنه يحاول متى رأى عبقرياً من عباقرة المغرب ـ ممن لا ينتسبون لفاس ولم يكتب لهم أن يولدوا بها ـ أن يرفع نسبه إلى فاس بأية طريقة من الطرق ، يسأله عن جدّه ، الأدبي والأعلى حتى يجد له خيطاً يربطه بفاس !

بل إن هذا « الفضول » منه ـ واسمحوا لي أن أضع كلمة الفضول بين هلالين ـ يتجاوز المغاربة إلى غيرهم ، فهو في البلاد الأخرى عندما يسمع عن أسرة من الأسر التي يقترب معناها من اسم أسرة بفاس يقول : إن بفاس أسرةً تحمل مثل هذا الاسم ، ولعل بعض أفرادها ذهب للحج وترك له ذرية فيها !

ولعل مما يسلينا في هذا المقام أن أحكي أمامكم هذه القصة :

عندما زار جلالة الملك الحسين أخاه جلالة الملك محمد الخامس في أوائل عام ١٩٦٠م ، جرت له حفلة استقبال كبرى بقصر دار السلام بالرباط ، وقد كنت من الحاضرين بل من الذين تقدموا إلى جلالة الملك الحسين للسلام عليه إذ كنت تشرفت بالتعرف إليه بعمان في أيلول ١٩٥٩م بمحضر الشيخ الشنقيطي وزير التربية والتعليم في ذلك العهد .

عندما التقى الأستاذ الفاسي بالشيخ الشنقيطي جرى الحديث عن شنقيط وصلتها الوثيقة بمدينة فاس ، وسأله الأستاذ الفاسي : هل سبق له أن درس بفاس بجامعة القرويين، وفي عبارات مجاملة اعترف الشيخ الشنقيطي بفضل فاس على المنطقة كلها ... وهنا سأله الاستاذ الفاسي عما إذا كان له تلامذة ببلاد المشرق وبالذات في الأردن ؟ ولما أجابه الشيخ الشنقيطي بالإيجاب ، قال له الأستاذ الفاسي : إذن مثقفو الأردن الذين درسوا عليك يعتبرون في عداد طلبة فاس !!

فإذا ما انتقلنا من هذا الجانب في حياته إلى مُحاولة سرد الأحياز التي كان الأستاذ الفاسي دائم الحضور بها ، فإننا سنجد أمامنا المنظّمات الدولية ، والمجامع والمؤسسات والمؤتمرات والندوات واللقاءات التي كان يحضرها بانتظام في جهات الدنيا كلها ...

وينبغي أن نبحث عنه في زوايا اليونسكو التي يعرفه فيها مجلسها التنفيذي ، ومؤتمراتها الأصلية والفرعية ومؤلفاتها وموسوعاتها ... كما ينبغي أن نبحث عنه في زوايا الأليكسو التي لم يكن يتغيب عن مجلس من مجالسها ، وينبغي أن نسأل عنه كذلك في أبهاء الايسيكو التي استفادت من خبرته وجعلته ضمن رجالاتها .

والأستاذ الفاسي في هذه المؤتمرات كلها يظهر كرجل يعتز بالأصالة فقد كان يكره شديد الكره أن ينتقل عما تركه الأسلاف إلى تقاليد غريبة عنا ! فهو يكره أن يُدعى بالفاسي محمد تقليداً للعادة التي اتبعها الأجانب في تقديم اسم العائلة على الاسم الشخصي ! ولا بد أن نرجع إلى بحثه القيم حول تحقيقه كتاب « الكُنى والألقاب » ، إذ سنرى فيه مدى تعلقه وتعشقه للأصالة الإسلامية والعربية والمغربية التي تصر على أن يُسمى المرء عبدالهادي التازي وليس التازي عبدالهادي .!!

ويوجد جانب بارز في حياته العلمية ذلك أنه رجل شمولي المعرفة فهو فقيه مجتهد وهو أديب مستذوق ، وهو فنان ذو لوحات رائعة ، وهو مؤرخ ناقد ، وجغرافي لامع ، وهو موسيقي رائع .

وإذا كانت مؤلفات المرء خير معبر وأصدق ترجمان لحياة الشخص ، فإن محمد الفاسي ترك طائفة من المؤلفات ومن التحقيقات ومن المقالات ، وإن فيها ما يكتسي طابع الموسوعية على نحو ما نرى في كتابه : « شعر الملحون » الذي تقوم بطبعه اليوم أكاديميتنا الملكية المغربية ... فتتبع مقالاته وانحز إلى بحوثه فستتأكد مما قلناه عن شموله وتكامل أفكاره ...

وإذا كنا نريد أن نبحث عن رجال لم يضيعوا لحظة من حياتهم ، فإننا سنجد الأستاذ الفاسي من أبرز الذين كانوا يعرفون معنى قيمة الوقت ، ومعنى قداسة الساعة والدقيقة والثانية .

وفي آخر زيارة له وهو على فراش مرضه وجدته إلى جانب زوجته وكاتبه غارقاً في جُزَازاته وأوراقه يعطي التعليمات لكاتبه أن يبدأ بهذا الفصل قبل الآخر ، ويستشير هذا دون ذاك ...

لقد كان له مع كل واحد منا تاريخ ، وكان له مع كل تاريخ حضور متميز ، وإن أبهى ما أعتز به أنني في مرافقاتي كلها له سواء داخل المغرب أو خارج المغرب ... في العالم العربي والإسلامي ، والعالم الأوربي والآسيوي كنت أجد في خدمته متعة وأجد في إدخال السرور عليه زلفى ، وكنت أجد في بسمته وفي ضحكته وفي استجاباته لنداء الحق ما يجعلني أحبه أكثر وأجله أوفر !

أيهـــا السادة !

أرجو منكم أن تقرأوا معي (الفاتحة) على روحه الكريم وكذلك على زميلنا الدكتور عبدالعزيز كامــل تغمدهما الله برحمته وألحقنا بهما ونحن مسلمون مؤمنون وإنا لله وإنا إليه راجعون .

جلسة العمل الخامسة للمؤتمر

الخميس ٢٥ من المحرَّم ١٤١٤هـ الموافق ١٥/٧/١٩٩٣م

* اقتراح الدكتور مهدي محقّق بتدوين دائرة معارف خاصة بتاريخ الطب في الإسلام .

* كلمة الدكتور شمس الدين خان .

* كلمة الدكتور إسماعيل بالتيش .

* كلمة الدكتور سيّد مقبول أحمد .

* تقرير عن « المؤتمر العام التاسع للمجمع » .



عقد اللقاء الأول من جلسة العمل الخامسة للمؤتمر العام التاسع في تمام الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الخميس ٢٥ من المحرَّم ١٤١٤هـ الموافق ١٥/٧/١٩٩٣م في قاعة بترا بفندق ريجنسي بالاس ، برئاسة الدكتور محمد أحمد الشريف .

وفي بداية الجلسة عرض الدكتور مهدي محقق عناصر الاقتراح المبدئي الذي تقدم به لتدوين دائرة معارف خاصة بتاريخ الطب في الإسلام .

ثم ألقى كل من السادة التالية أسماؤهم كلمات بينوا فيها أحوال المسلمين في بلدانهم :

١ ـ الدكتور شمس الدين خان ، عن : « الإنسان ومستقبل الحضارة الإسلامية على ضوء الأحداث في دول آسيا المركزية » .

٢ ـ الدكتور إسماعيل بالتيش ، عن : « المسلمون في البلقان » .

٣ ـ الدكتور سيّد مقبول أحمد « الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية » .

وعقد اللقاء الثاني من جلسة العمل الخامسة للمؤتمر العام التاسع في تمام الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الخميس ٢٥ من المحرَّم ١٤٨٤هـ الموافق ١٥/٧/١٩٩٣م في قاعة بترا بفندق ريجنسي بالاس برئاسة الدكتور ناصرالدين الأسد رئيس المجمع .

وقد خصص هذا اللقاء لمناقشة تقرير تم إعداده عن المؤتمر العام التاسع للمجمع . ونثبت فيما يلي الوثائق المقدّمة لهذه الجلسة .

اقتراح مبدئي
بتدوين دائرة معارف خاصة بتاريخ الطب في الإسلام

الدكتور مهدي محقّق*

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

أ : مقدمـــة

لقد حظي علم الطب بأهمية فائقة تحت ظلال الإسلام ، فاعتبر من أشرف العلوم بعد علم الحلال والحرام ، يعني الفقه . وفي الحديث الشريف أنه وضع علم الأبدان على السواء مع علم الأديان ، فمالم تتوافر سلامة البدن فلن يتاح التفكير في مبـــدئ الوجود وحمده وعبادته . يقول الحكيم ميري الطبيب الإيراني النابه في مقدمـــة كتابه « دانشنامه ، پزشكى » :

إذا لـــم تعــرف الطـــب والديـــن	خسرت الدنيــــا والأخــــرى
فعلمـــك بالطب ملجـــأ لجسمـــك	ومعرفتك بالدين قدرة لروحـــك
تنبغي السلامة للجسم وصحة العمــل	فلا يكون كليماً ولا موجعاً ولا مريضاً
حتـــى يتهـــيأ له تعلـــم دين اللــه	وبالعلـــم يتهـــيأ له إشراق الــروح

وكان الطب الإيراني أحد المصادر الهامة للطب في العالم الإسلامي ، فقد كان لعلم الطب وعلم العقاقير والأعشاب الطبية في ايران ـ ما قبل الإسلام ـ رونقها ورواجها العظيم . وكان الأطباء[1] يعتبرون من الطبقات المتميّزة في المجتمع . وحسبنا قصة برزويه الطبيب الواردة في مستهل كليلة ودمنة دليلاً على شرف علم الطب وأصوله ومبادئه الأخلاقية وآدابه في إيران ما قبل الإسلام . لقد كان مشفى[2] جنديشابور فـــي الأهواز

---

* العضو العامل في المجمع الملكي / طهران ـ جمهورية إيران الإسلامية .

(١) الكلمة الواردة في النص الفارسي « پجشكان » وهي فارسية قديمة وتعني « پزشكان » في لغة اليوم وهي بمعنى الأطباء .

(٢) الكلمة الواردة في النص هي « بيمارستان » وهي مستعملة في البلاد العربية إلا أن الأقرب إلى الفهم اليوم هو كلمة المشفى أو المستشفى .

أحد المراكز الهامة لهذا العلم في إيران ، حيث توافر العلماء الإيرانيون واليونان والهنود واشتغلوا أياً ما كان دينهم ومذهبهم بهذه المهنة الشريفة ، وظلت آثار ذلك المركز العلمي وسائر المراكز الأخرى باقية قروناً بعد الإسلام . وقد ترك لنا شابور بن سهل المتوفى سنة ٢٥٥ هجرية كتاباً بعنوان « أقرباذين في البيمارستان » وفي هذا الكتاب ، الذي يقدّم كاتبه نفسه في أوله على أنه « كبير أطباء بيمارستان جنديشابور بمدينة الأهواز » ، يذكر بالتفصيل مركباً يستعمل للأمراض المختلفة كان يحتفظ به في المشفى .

ولم يقتصر الإسلام الذي لا يوقفه حدّ عن الإفادة من العلم والمعرفة ، على الطب الإيراني فحسب ، بل لقد أفاد من الطب الهندي . وقد ألف علي بن ربّن الطبري ـ وهو من أقدم العلماء ـ كتاباً جامعاً في الطب ، المقولة الرابعة في هذا الكتاب المعروف باسم « فردوس الحكمة » جاءت تحت عنوان « من جوامع كتب الهند » حيث نقل كثيراً من المطالب عن مصدرين هنديين هامين هما « كتاب سرد » و « كتاب جرك » وكانت ترجمتهما العربية موجودة .

إلا أن أهم مصادر الطب الإسلامي هو آثار العلماء اليونان ، وخاصة بقراط وجالينوس . ولدينا رسالة من حنين بن إسحق عدد فيها ما يزيد على المئة كتاب من جالينوس ترجمت بمعرفته هو وأعوانه من اليونانية إلى العربية . هذه الآثار كانت مورد إفادة العلماء الإسلاميين الكبار أمثال علي بن عباس المجوسي الأهوازي في كتاب « كامل الصناعة » ومحمد بن زكريا الرازي في « الحاوي » وابن سينا في « القانون » وأبي الريحان البيروني في « الصيدنة » . كما كانت هذه الكتب بدورها المنبع المهم لتأليف العلماء الإيرانيين الكبار الذين قدموا الطب بالفارسية إلى شعب إيران ومن أهم ما قدموه نذكر « الأبنية عن حقائق الأدوية » لابي منصور موفق الهروي ، و « هداية المتعلمين » للاخويني البخاري ، و « ذخيرة . خوارزمشاهي » للسيد إسماعيل الجرجاني .

وكان نتيجة لاهتمام علماء الإسلام الكبار بعلم الطب أن بلغ غاية من الرواج وتشعب وتفرع إلى فروع كثيرة . وكان هذا التشعب يرتبط أحياناً بموضوعات العلم مثل الطب والبيطرة وعلم الأدوية ومعرفة العقاقير والأعشاب الطبية وأحياناً بكيفية العلاج ، مثل الكي والجبر أو التجبير والجراحة ، وأحياناً بطريقة العلاج مثل طريقة

أصحاب القياس وأصحاب التجارب وأصحاب الطب الحيلي ، وأحياناً بحالات الإنسان المختلفة أثناء المعالجة والتداوي مثل : « تدبير الأصحاء » بمعنى طب المحافظة على سلامة المتمتعين بالصحة ، و « تدبير الحبالى » بمعنى المحافظة على سلامة الحبالى من النساء بما يحقق سلامة الطفل في الرحم ، و « تدبير المولودين » وهو طب المواليد ، و « تدبير الصبيان » وهو طب الأطفال ، و « تدبير المشايخ » وهو طب المسنين .

وقد جمع علماء المسلمين ما ورد في القرآن والحديث مما يتعلق بحفظ الصحة والسلامة والوقاية من الأمراض . ويمكننا أن نذكر من بين أهم هذه المجموعات : « الطب في الكتاب والسنة » لعبد اللطيف البغدادي ، و « الطب النبوي » للذهبي ، و « الطب النبوي » لابن القيّم ، و « الرحمة في الطب والحكمة » للسيوطي . وفي هذه الكتب أُعطيت النصائح والمبادىء الكلية للمحافظة على الصحة . من ذلك : وجوب عدم الإسراف في الأكل والشرب ، فالمعدة رأس كل داء ، والحمية رأس كل دواء ، وأنّ معالجة المريض تكون بالغذاء على قدر الإمكان إذ ينبغي عدم الانكباب على الدواء .

وعلاوة على الجاميع الطبية مثل كامل الصناعة والحاوي والقانون وهداية المتعلمين والذخيرة الخوارزمشاهية التي أشرنا إليها آنفاً ، صنّف كبار الأطباء كتباً مفردة في صدد الأمراض المختلفة كل على حدة . مثل : « في المرض المسمى ديابيطا » لعبداللطيف البغدادي و « في المعدة ومداواتها » لابن الجزر القيرواني ، و « الحميات » لاسحق بن سليمان ، و « في الماليخوليا » لإسحق بن عمران ، و « في الأغذية » لإسحق بن سليمان و « في النبض والتفسرة »[1] لعلي بن رضوان ، و « العمدة في الجراحة » لابن القف ، و « عشر مقالات في العين » لحنين بن إسحق .

ونظراً لاعتقاد المسلمين بالتأثير المتبادل بين الروح والجسم ، فقد توجهوا بالعناية الفائقة إلى علاج النفس والطب الروحاني ، وألفوا الآثار العديدة في هذا المجال ، ويمكن أن نشير إلى أن من أهمها : « الطب والأحداث النفسانية » لابي سعيد بختيشوع ، و « الطب الروحاني » للرازي ، و « الطب الروحاني » لابن الجوزي .

---

(١) التفسرة = الادرار .

أما الآداب والأخلاق الطبية ، فقد بذلت العناية الفائقة وصنف كثير من الكتب في هذا الموضوع . منها : « في التطرق بالطب إلى السعادة » لابن رضوان ، و « أدب الطبيب » للرّهاوي ، و « التشويق الطبي » لصاعد بن الحسن . وكذلك بالنسبة لتعليم الطبيب وتربيــة الأطباء ، فقد ألفت كتب مثل : « مفتاح الطب ومنهاج الطلاب » لابن هندو ، و « النافع في كيفية تعليم صناعة الطب » لابن رضوان . وفي هذه الكتب جرى التأكيد على ضرورة تأسّي الأطباء بيقراط في الحفاظ على شرف مهنة الطب وصونها عن البيع بالمال والجاه والدنيا ، وأن يجعلوه قدوة لهم ، فقد أرسل إليه أحد الملوك مئة ألف دينار على أن يترك اليونان ويذهب إليه ، ووعده أيضاً بمئة ألف دينار أخرى يسلمها إليه . ولكن بقراط أجاب ، « أنا لا أبيع الفضيلة بالمال » واشتغل في قرى اليونان بمعالجة الفقراء بالمجان . كما قالوا : إن الطبيب الواقعي يجب أن يرجحَ الفقر مع الحلال على الثروة مع الحرام ، لأن الذكر الجميل الذي يبقى أفضل من المال النفيس الذي يفنى . إن المال متوافر لدى السفهاء والجهال ، ولكنها الحكمة هي ما يمكن أن يُوْجَد لدى أهل الفضل والكمال وحدهم .

ولما كان الطب مرتبطاً بروح الناس وحياتهم فقد اعتُبِرَ الطبيب ضامناً ومسؤولاً . وقد قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم : « من تطبب ولم يُعلَم منه طب من قبل فهو ضامن » . ومن ثم أولِيَ امتحان الأطباء وتمييز الأطباء من المتطببين الأدعياء وحسبة الأطباء اهتماماً كبيراً . وكُتِبَ في امتحان الأطباء كتاب بعنوان « في محنة الطبيب » ، وفي معرفة الأدعياء كتاب باسم « في مخاريق المشاتين » بمعرفة الرازي . ووردت في كتب الحسبة المعتبرة مثل « معالم القربة في أحكام الحسبة » للقرشي ، و « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » للشيزري ، فصول عن شرائط الطبيب وتفتيش الأطباء ومجازاة المتخلفين منهم .

وهكذا ، مع التوجه إلى أهمية علوم الطب والفنون المرتبطة به ورواجها الواسع في عالم الإسلام عامة وفي إيران خاصة ، ينشأ الإحساس بضرورة تدوين دائرة معارف خاصة لتاريخ الطب ونشرها ، فيها يتناول الموضوع بأبعاده جميعها بالتحقيق والدراسة ، وفيها يجري التعريف بالعلماء الأفذاذ جميعهم ومصنفاتهم القيمة وأفكارهم المبتكرة . وإذ ذاك نكون قد عرّفنا العالم أصالة الفكر وقدرة المسلمين الفكرية ونبوغهم العلمي .

ب : المواد والمطالب التي تندرج في دائرة المعارف بتاريخ الطب في الإسلام وإيران :

١ ـ شرح أحوال الأطباء في ظل الحضارة الإسلامية وآثارهم على أساس الروّاد الأوائل مثل : ابن النديم والقفطي والشهرزوري وابن أبي أصيبعة .

٢ ـ التعريف بكتب الطب وعلم الأدوية (الصيدلة) على أساس المصادر المذكورة أعلاه إضافة إلى كشف الظنون والذريعة .

٣ ـ أسماء الأمراض ومعرفة العلاج وطرقه على أساس المصادر مثل : الحاوي والقانون وهداية المتعلمين والذخيرة الخوارزمشاهية .

٤ ـ شرح أحوال الأطباء اليونان الذين كانت آثارهم مورد استفادة المسلمين مثل بقراط وجالينوس .

٥ ـ اسم المشافي (البيمارستانات) ودور الشفاء على أساس المتون التاريخية وكتاب « تاريخ البيمارستانات » لأحمد عيسى بك .

٦ ـ الأدوية المفردة والمركبة على أساس المصادر ، مثل : الحاوي ، والقانون ، والأبنية للهروي ، ومفردات ابن سمجون وابن البيطار والغافقي .

٧ ـ « أقرباذينات » مثل : أقرباذين شابور بن سهل ، وأقرباذين الكندي ، وأقرباذين السمرقندي .

٨ ـ آلات الجراحة وأدواتها على أساس المصادر مثل : التصريف للزهراوي ، والعمدة في الجراحة لابن القف الكركي .

٩ ـ العلماء العرب والمسلمون الذين كتبوا تاريخاً للطب ، مثل : شوكت الشطي، وسامي الحمارنة .

١٠ـ العلماء الأوربيون الذين كتبوا تاريخ الطب الإسلامي ، مثل : لكلرك ، وبراون ، والكود ، وديتريش ، وأولمان .

١١ـ العلماء الإيرانيون الذين كتبوا كتباً أو مقالات في تاريخ الطب الإسلامي ، مثل : الدكتور نجم آبادي ، والدكتور ولايتي ، والدكتور مهدي محقّق .

١٢- ترجمة كتب الطب الإسلامي ، التي كُتبت بلغات أجنبية وفيها مشاهدات سريرية لمؤلفي هذه الكتب .

١٣- التعريف بفهارس الكتب الطبية ، مثل : بيناكس جالينوس ، ورسالة حنين ، ورسالة البيروني .

١٤- الأعشاب الطبية مع ذكر معادلها الخارجي وما جاء عنها في الكتب اللاتينية واليونانية وخواصها وتحليلها وتجزئتها على أساس المصادر الأولى ، مثل : « الصيدنة » تحقيق الدكتور زرياب، و « كياهان داروئي» للدكتور زركري.

١٥- الاصطلاحات الخاصة المتعلقة بعلم الطب ، مثل خادم (تومرجي) ، دستور (نسخة الطبيب) .

١٦- الوصايا والنصائح والأمثال المرتبطة بالطب على أساس كتب الأخلاق الخاصة بالطب في الإسلام وفي بطون الكتب الطبية .

١٧- الآيات والأحاديث المرتبطة بالطب مع الإفادة من كتب طب النبي ، والطب النبوي .

١٨- أدب الطبيب ، بالإفادة من المصادر مثل : إصلاح الصناعة الطبية لابن جميع وأدب الطبيب للرهاوي .

١٩- التعريف بالمقالات والتحقيقات التي ترتبط بالطب وكانت موضع دراسات في المؤتمرات الدولية الخاصة بتاريخ الطب .

٢٠- التعريف بمراكز التحقيق في ميدان الطب الإسلامي وفعالياتها العلمية ، مثل مؤسسة «همدرد» في الهند والباكستان ، ومؤسسة « تاريخ التراث العلمي » بحلب ، ومؤسسة « التراث العلمي العربي » بفرانكفورت .

جـ : المراجع اللازمة للحصول على المطالب والإفادة منها في المرحلة الأولى :

١ - بقراط : كتاب في الأجِنّة (كمبردج ١٩٨٧م) ، في حبل على حبل (كمبردج ١٩٦٨م) ، في طبيعة الإنسان (كمبردج ١٩٦٨م) ، في تدبير الأمراض الحادة (كمبردج ١٩٦٦م) ، في الأخلاط (كمبردج ١٩٧١) ، في الغذاء (كمبردج ١٩٧١م) ، في الأمراض البلدية (كمبردج ١٩٧١م) .

٢ ـ جالينوس : في فــــرق الطب (القاهرة ١٩٧٨م) ، فـــي النبض للمتعلّمين (القاهرة ١٩٨٦م) ، « إلى اغلوقن في التأتي لشفاء الأمراض » (القاهرة ١٩٨٢م) ، الاسطقات على رأي بقراط (١٩٨٧م) ، في اختلاف الأعضاء المتشابهة (برلين ١٩٧٠م) ، في أن قوى النفس تابعة لمزاج البدن (بيروت ١٩٨١) ، في التجربة الطبية (أكسفورد ١٩٤٤م) ، في أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفاً (كوتينكن ١٩٦٦م) ، في أجزاء الطب (برلين ١٩٦٩م) ، في الأسباب الماسكة (برلين ١٩٦٩م) . في عمل التشريح (ليبزيك ١٩٠٦م) في الأسماء الطبية (برلين ١٩٣١م) ، في المحنة التي يعرف بها أفضل الأطباء (برلين ١٩٨٨م) ، في الصناعة الصغيرة (القاهرة ١٩٨٨) .

٣ ـ الطب النبوي : « الطب في الكتاب والسنة » لعبداللطيف البغدادي (بيروت ١٤٠٦هـ) ، « الطب النبــــوي » للحافظ الذهبي (القاهــرة ١٤٠٤هـ) ، « الطب النبوي » لابن القيم الجوزية (القاهرة ١٣٩٨هـ) ، « الرحمة في الطب والحكمة » لجلال الدين السيوطي (القاهرة ١٣٥٧هـ) ، « الأحكام النبوية في الصناعة الطبيـــة » لابن طرخان الحمـــوي (القاهرة ١٩٠٠م) ، « الأربعين الطبية » للبرزالي (القاهرة ١٣٩٢هـ) ، « المنهل الروي في الطب النبوي » لابن طولون (حيدرآباد ١٩٨٧م) .

٤ ـ علي بن ربّن الطبري : « فردوس الحكمة » (برلين ١٩٢٨) .

٥ ـ محمد بن زكريا الرازي : الحاوي (حيدرآباد ١٩٧٤م) ، الفارق أو الفرق بين الأمراض ـ (حلب ١٩٧٨م) ، منافع الأغذية ودفع مضارها (بيروت ١٩٨٤م) ، الطب المنصوري (١٩٨٦م) .

٦ ـ علي بن عباس المجوسي : كامل الصناعة الطبية (القاهرة ١٢٩٤م) .

٧ ـ ابن سينا : القانون (القاهرة ١٢٩٤هـ) ، الأرجوزة في الطب (باريس ١٩٥٦م) ، دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية (حلب ١٩٨٤م) ، الأدوية القلبية (حلب ١٩٨٤م) .

٨ ـ ابن رشد الأندلسي : تلخيصات ابن رشد إلى جالينوس (مدريد ١٩٨٤م) ، تلخيص كتاب في أصناف المزاج (القاهرة ١٩٨٧م) في مجموعة « رسائل ابن رشد الطبية » .

٩ ـ ابن زهر الأندلسي : التيسير في المداواة والتدبير (دمشق ١٤٠٣هـ) .

١٠ـ ابن رضوان المصري : دفع مضار الأبدان (كاليفورنيا ١٩٨٤م) ، كفاية الطبيب (لون ١٩٧٨م) .

١١ـ ابن نفيس : شرح تشريح القانون (القاهرة ١٩٨٨م) ، الموجز في الطب (القاهرة ١٩٨٦م) .

١٢ـ طب الأطفال : « تدبير الحبالى والأطفال » لأحمد محمد البلدي (بغداد ١٩٨٠م) ، « خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين » لعريب بن سعد القرطبي (الجزائر ١٩٥٦م) ، « سياسة الصبيان وتدبيرهم » لابن الجزار القيرواني (تونس ١٩٦٨م) .

١٣ـ طب العين : « عشر مقالات في العين » لحنين بن إسحق (القاهرة ١٩٢٨م)، « تذكرة الكحالين » لعلي بن عيسى (حيدرآباد ١٩٨٣م) .

١٤ـ الجراحة : « العمدة في الجراحة » لابن القف (حيدرآباد ١٣٥٦هـ) ، «التصريف لمن عجز عن التأليف » لخلف بن عباس الزهراوي (كاليفورنيا ١٩٧٢م) .

١٥ـ كتب مفردة (= مونوجراف) في الأمراض والعلل المختلفة : « في المرض المسمى ديابيطا » لعبد اللطيف البغدادي (بون ١٩٧١م) ، « في المعدة وأمراضها ومداواتها » لابن الجزار القيرواني (بغداد ١٩٨٠م) ، « مصالح الأبدان والأنفس » لابي زيد البلخي (فرانكفورت ١٩٨٤م) ، « الحميات » لإسحق بن سليمان (كمبردج ١٩٨١م) ، « في الماليخوليا » لإسحق بن عمران (همبورج ١٩٧٧م)، « الأغذية » لإسحق بن سليمان (فرانكفورت ١٩٨٦م) ، « في النبض والتفسرة (= الادرار) » لعلي بن رضوان المصري (بون ١٩٨٤م) .

١٦ ـ الأخلاق والآداب الطبية : « النافع في كيفية تعليم صناعة الطب » لابن رضوان المصري (بغداد ١٩٨٤م) ، « التشويق الطبي » لصاعد بن الحسن (بون ١٩٦٨م)، « أدب الطبيب» لأيوب الرهاوي (فرانكفورت ١٩٨٥م)، « المقالة الصلاحية في إحياء الصناعة الطبية » لابن جميع (وفسبادن ١٩٨٣م)، « في التطرق بالطب إلى السعادة » لابن رضوان المصري (حلب ١٩٧٨م)، « النـوادر الطبيـة » ليحيى بن ماسويه (جنيـف ١٩٨٠م) ، « عمل من طب لمن حب » لابن الخطيب (سلمنقة ١٩٧٢م) .

١٧ـ متفرقات : « الدستور البيمارستاني » لابن أبي البيان (القاهرة ١٩٣٣م) ، «دعوة الأطباء » لابن بطلان (ويسبادن ١٩٨٥م) ، « خمس رسائل » لابن بطلان البغدادي وابن رضوان المصري (القاهرة ١٩٣٧م) ، « الذخيرة » لثابت بن قرة (القاهرة ١٩٢٨م) ، مقالة في تدبير الأمراض العارضة «للرهبان الساكنين في الديرة ومن بعد عن المدينة » (ميشيكان ١٩٦٨م) . « الروضة الطبية » لعبيد الله بن جبرائيل بختيشوع (القاهرة ١٩٢٧م) ، «رسالة في الطب والأحداث النفسانية » لأبي سعيد بن بختيشوع (بيروت ١٩٧٧م) ، « مقالتان في الحواس » لعبد اللطيف البغدادي (الكويت ١٣٩٢هـ) ، « مفتاح الطب » لابن هندو (طهران ١٣٦٨هـ . ش.) ، «بستان الأطباء » لابن المطران (طهران ١٣٦٩هـ . ش.) .

١٨ـ كتب الأدوية « مفردات الأدوية » لابن البيطار ، « مفردات الأدوية » للغافقي ، « النبـات » لأبي حنيفـة الدينوري ، « جامـع أسماء النبـات » للشريف الإدريسي ، « مفردات الأدوية » لابن سمجون . « الصيدنة » لأبي الريحان البيروني ، « المعتمد في الأدوية المفردة » للغساني ، « تذكرة داود الأنطاكي ».

ومن كتب المعاصرين : « إحياء التذكرة في النباتات الطبية والمفردات العطارية » للدكتور رمزي مفتاح ، « النباتات الطبية »[١] للدكتور علي زركري .

---

(١) كياهان داروئي .

١٩ـ منابع متفرقة : فهارس عامة لمعرفة النسخ الخطية الطبية ، مثل فهرس بروكلمان ، وفهرس فؤاد سزكين ، وفهرس مؤسسة « ولكام لندن » في تاريخ الطب . وفهرس مؤسسة « أوسلر جامعة مكجيل » في تاريخ الطب ، وفهارس النسخ الخطية في الداخل والخارج ، والوقوف على المقالات المرتبطة بتاريخ الطب في « ايندكس إسلاميكوس » الفهرس الاسلامي بالنسبة للمقالات الخارجية ، وفهرس افشار للمقالات الفارسية بالنسبة للمقالات الداخلية .

٢٠ـ الكتب الفارسية : « الأبنية عن حقائق الأدوية » لأبي منصور موفق الهروي، « التنوير » لأبي منصور حسن بن نوح القمري البخاري . « دانشنامه ، حكيم ميسرى » ، « ترجمة تقويم الصحة » لابن بطلان ، « الذخيرة الخوارزمشاهية » للسيد إسماعيل الجرجاني ، « الأغراض الطبية » للسيد إسماعيل الجرجاني ، « خفي علائي » للسيد إسماعيل الجرجاني ، « هداية المتعلمين » للاخويني البخاري ، « مخزن الأدوية » لعقيلي الخراساني ، «تحفة المؤمنين » لحكيم مؤمن .

د : المراحل البعدية

جمع الكتب المذكورة والكتب المطبوعة الأخرى في هذا الموضوع . والحصول على الرقائق (ميكرو فيلم) والنسخ المصورة من النسخ الخطية الموجودة في دور الكتب في الداخل والخارج ، وتصوير المقالات الداخلية والخارجية . تعيين عناوين دائرة المعارف ومداخلها . تعيين كيفية تحرير المقالات وسبكها وأسلوبها . نشر طرح تفصيلي لدائرة المعارف . استخراج المواد والمطالب من المنابع . إعداد إضبارة علمية لكل من المداخل والعناوين وضبط المواد والمطالب فيها . تعيين رئيس لكل من الشعب الفرعية للموضوع . تعيين كاتب للمقالات من أجل المداخل والعناوين المختصة بكلٍ من الشعب . مراحل تصحيح دائرة المعارف وطبعها .

وأخيراً ، ما أحقنا بأن نذكّر أن تحقّق هذا الهدف العلمي الكبير الذي يعرفنا على الموروث العلمي العظيم لأربعة عشر قرناً من مساعي المسلمين وجهودهم مرهون بمساعدة العلماء والمحققين جميعهم في هذا الفن ، وأساتذة الجامعات وأعضاء الدوائر والمدارس العلمية وسائر محبي العلم والثقافة ، ومعاونتهم ، ومعونة الوزارات المرتبطة بالمراكز العلمية والبحوث وإحياء التراث في البلاد .

وكاتب هذا المختصر ينتظر أن يفوز بإرشادهم وريادتهم وعونهم ومساعدتهم في المراحل جميعها ، حتى ينتقل هذا الهدف بأسرع وقت ممكن إلى مرحلة الإجراء والتنفيذ ، بعون الله تعالى وتوفيقه .

الإنسان ومستقبل الحضارة الإسلامية على ضوء الأحداث في دول آسيا المركزية

الدكتور شمس الدين باباخانوف*

الحمد لله الذي هدانا للإيمان والإسلام ، وجعلنا من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وبعد :

أيها الإخوة الأعزاء

تناقش في دورة المجمع هذه مسائل حيوية ، ليست علمية فحسب ، بل عملية أيضاً ، وهي لا تنفك عن الأحداث الجارية في منطقتنا ـ منطقة دول آسيا المركزية ـ ومن أهم المسائل التي يتطلب حلّها في معظم الجمهوريات التي أعلنت استقلالها عن الاتحاد السوفياتي السابق، ومن بينها جمهورية أوزبكستان ، مشكلة سد الفراغ الأيديولوجي الناتج عن انهيار الأيديولوجية الشيوعية . وطيف الأفكار في محاولة حل هذه المشكلة واسع جداً، وقد بدأت منافسات ومناقشات جادة في اختيار أفضل طريق لتطوير الدولة واستراتيجية وتكتيك الحكومة ، وكذلك اختيار القوى التي يمكن الاعتماد عليها في السياسة الداخلية والخارجية ، وطريقة انتهاء هذا الصراع يصعب التنبؤ بها إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الجيل الحالي قد تربّى في ظروف النظام الشيوعي الحديدي الذي فصل الدولة وشعوبها عن العالم الحضاري بشكل إجباري . ومن هنا فإن أكثرية الناس ، ومن ضمنهم معظم المثقفين ، لم يتحـرروا حتى الآن من ربق العادات السابقة والعقيدة الجامدة .

إن روسيا القيصرية ـ بعد احتلالها دول آسيا المركزية ـ حاولت أن توقف التقدّم القومي في المنطقة . ثم جاء البلاشفة واستولوا على الحكم في هذه البقاع من الأرض ، وبذلوا كل ما وسعهم لتزييف تأريخنا واستئصال أصول مجتمعنا . حيث أنكروا تقاليدنا وثقافتنا ولم يحترموا عقيدة المسلمين ولا نمط حياتهم ولا علاقاتهم العائلية . ورغم أنواع

---

* العضو العامل في المجمع الملكي / طشقند ـ أوزبكستان .

الطرد والتهجير والاضطهاد القاسي ، فإن أغلبية المسلمين لم يرتدوا عن دينهم ولم يغيروا عقيدتهم ، بل تمسكوا بشعائر الإسلام ، وأدّوا فرائضهم بقدر الإمكان ، وطوّروا ثقافتهم وقيمهم الروحية .

إن استقلال دول آسيا المركزية قد خلق أولويات ضرورية لتطوير الوعي القومي والثقافي والديني ، وفي هذه الظروف ، يجب علينا أن نبذل قصارى جهودنا لتوطيد الاستقلال ، ويجب قبل كل شيء وضع أيديولوجية جديدة تراعي القومية ولا تعارض المبادىء الدينية .

إننا نعتقد أن أيديولوجية الشعوب المسلمة ستكون متينة إذا انطلقت من ضرورة الحياة ومصالح الشعوب الأصلية وتاريخها الخاص وطرق التجدد وغايات المجتمع .

قال الله تعالى ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[1] وتظهر صحة هذا القول الإلهي في عادات وتقاليد قومية ، ومن طبيعة كل مسلم التطلع للتعاون وتقديم مساعدات نزيهة ، إذ أمرنا الله عزوجل : ﴿ **وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾[2] .

ومن الطبيعي أن الناس يهتمون بمعرفة الحقيقة عن تاريخ وطنهم ، وكذلك عن تاريخ العلاقات المتبادلة بين الشعوب المسلمة التي تطورت منذ انتشار الدين الإسلامي في أنحاء العالم . إننا نريد إحياء ونشر تلك الأعمال الخيرة المشتركة التي جمعتنا ووحدت ماضينا التاريخي ، ونريد أيضاً القضاء على عوامل الانعزال عن الشعوب الأخرى طوال مئة سنة ، والإسراع للانطلاق بالحضارة الإسلامية نحو الآفاق العالمية . ودون ذلك ، فإنه يستحيل ـ كما يبدو ـ التغلب على الأزمة الروحية في مجتمعنا ، ووضع الأيديولوجية الجديدة الملهمة ، وخلق ثقة بالمستقبل السعيد .

---

(١) الحجرات : ١٠ .

(٢) المائدة : ٢ .

إننا ننطلق في جهودنا كلها من أن المسلم الحقيقي لا يهتم بأمور الدنيا فقط ، بل لا بد أن يهتم بالمحافظة على التراث الحضاري والروحي للأمة الإسلامية وإثرائه ، كما قال صلوات الله تعالى وسلامه عليه : « خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ، ولا دنياه لآخرته ، ولم يكن كـلّاً على الناس » .

وانطلاقاً من هذا المبدأ ، فإننا قد أسسنا في شهر أيار (مايو) من عام ١٩٩٢م صندوق التعاون الإسلامي بمدينة طشقند . واعتماداً منا على أموالنا المتواضعة وتجاربنا وجهودنا الخاصة ، والمساعدة غير المغرضة المقدمة من المحسنين والمتبرعين في الدول الخارجية ، فإننا قد شرفنا بنشر الكتب التالية باللغة الأوزبكية وتوزيعها على سكان جمهوريتنا مجاناً :

١ ـ « الأدب المفرد » للإمام البخاري ـ ٢٠٠ ألف نسخة .

٢ ـ « ألف حديث وحديث » منتخب « الجامع الصغير » للإمام السيوطي ٥٠ ألف نسخة .

٣ ـ « العقيدة الطحاوية » ١٠٠ ألف نسخة ، وزعت مجاناً .

٤ ـ « ترجمة جزء عم » من القرآن الكريم ٥٠٠ ألف نسخة .

٥ ـ « مبادىء الإسلام » ٥٠ ألف نسخة ، وزعت مجاناً .

٦ ـ « مبادىء الإسلام مع التكملة » ١٠٠ ألف نسخة .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإننا قد كتبنا مقالات دينية عديدة تحتوي على مكارم الأخلاق وفضائل الآداب الإسلامية نشرت في الصحف المحلية .

وبمناسبة ذكرى مرور ٦٧٥ عاما على ميلاد الشيخ بهاء الدين نقشبند محمد بن محمد ، مؤسس الطريقة النقشبندية ـ من طرق الصوفية ـ بقرار من حكومة أوزبكستان، فإننا بالاشتراك مع الشيخ عبدالعزيز منصور قد ألفنا فهرساً يحتوي على ٥٠٠ نسخة مخطوطة تتعلق بهذه الطريقة من بين ٤٠٫٠٠٠ مخطوطة باللغات العربية والفارسية والتركية . والفهرس ألفناه باللغة الأوزبكية ، وبتقديم شرح موجز يتضمن وصف كل مخطوطة ، وسننشره بإذن الله تعالى وتوفيقه عن قريب . ونحن مستعدون لتأليف هذا الدليل باللغة العربية إذا وجدنا من يطبعه ويوزعه في العالم الإسلامي .

وإضافة إلى ذلك ، فإني الآن على وشك الانتهاء من « رسالة الإسلام حول الأخلاق الحميدة » التي تهم هذه المرحلة لتطور المجتمع في منطقتنا .

ويجدر بالذكر أننا قد وفقنا كذلك لفتح مكتب الحضارة الإسلامية والدبلوماسية الشعبية لدى أكاديمية أوزبكستان الشعبية ونحن نعمل الآن في نطاقه .

ويخطط صندوق التعاون الإسلامي ـ على قدر إمكانياته المالية ـ لإنجاز الأمور التالية :

١ ـ وضع ونشر الفهرس للمخطوطات المحفوظة في خزانات الجمهورية حول تاريخ الحضارة الإسلامية .

٢ ـ تأليف ونشر موسوعة عن أبرز علماء الإسلام في المنطقة .

٣ ـ نشر وتوزيع كتب عن الحضارة الإسلامية .

٤ ـ المشاركة في إصلاح وترميم المساجد والمدارس والآثار الإسلامية وبنائها من جديد .

٥ ـ نشر التقاليد الإسلامية والقيم الإنسانية عبر وسائل الإعلام وتطوير التعاون الاجتماعي بين الناس .

٦ ـ تطوير التعاون مع المنظمات الإسلامية والعلمية والمراكز الدينية الخارجية وكذلك مع أبناء المنطقة القاطنين في الخارج .

فبهذا الطريق الصعب نستعيد ونحيي تاريخنا مع جميع عناصره المفقودة ، ونريد التأكيد على أن الدين الإسلامي كان وسيبقى عضواً لا ينفك عن الحضارة القومية ، وأنه ممزوج جذرياً بتاريخ الشعوب المسلمة في آسيا المركزية .

ونحن نرغب كذلك بنشر منجزات الدول الإسلامية وبث الحقيقة عن حياتها إلى ملايين المواطنين ، الأمر الذي يمكّن عقولهم من التحرر السريع من العقائد الشيوعية ، ومن إدراك واقعية الحياة وخلق العقيدة الصالحة لهم .

إننا نعتقد أن التدابير المكتسبة وتحقيق أحسنها ستساعد على توسيع قواعد التعاون وتطوير الحضارة الإسلامية .

وينشأ السؤال الطبيعي مما ذكر : أي مصير ينتظر توصيات المشاركين في هذه الدورة للمجمع الملكي ؟

في رأيي أنه من المناسب الاقتراح على مسؤولي المجمع الملكي الشروع بالاتصال بالحكومات والمنظمات الإسلامية والصناديق والمتبرعين لاستطلاع إمكانياتهم للمشاركة الفعالة في إنجاز توصيات الدورة التاسعة للمجمع الملكي ، وحل المشكلات الأخرى التي تمس مستقبل الحضارة الإسلامية ، وكذلك البحث عن النشاط المشترك .

إن صندوق التعاون الإسلامي يجب أن يعبّر عن استعداده لأن يفعل كل ما بوسعه من أجل ازدهار المثل العليا للإسلام ، وأن يشارك في التدابير المرجوّة .

إن إنجاز التوصيات المذكورة وما يشابهها يظهر كشاهد بيّن على وعي أئمة الإسلام لرسالتهم التاريخية الخاصة لضمان مستقبل الحضارة الإسلامية وتمتين قدرتها وسمعة الأمة الإسلامية في العالم .

والله الموفق لتحقيق آمالنا السامية في سبيل توثيق عرى الصداقة والمودّة بين المسلمين جميعهم .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ..

المسلمون في البلقان

الدكتور إسماعيل بالتيش*

هناك ما يقارب الخمسة عشر مليون مسلم يعيشون في البلقان . منهم ستة ملايين يعيشون كمواطنين في القسم الأوروبي من تركيا ، والآخـــرون يعيشون في يوغسلافيا السابقة ، ورومانيا ، وبلغاريا ، والبانيـــا ، واليونان . وتتكـــون الأغلبية المسلمة غير التركيـــة من الألبان أولاً ثم البوسنيين ، وكلتاهما : مسلمـــون عرقيون ومسلمون متدينون . ويبلـــغ عدد السكان المسلمين في أصغر جمهورية في البلقان مليونين علـــى الأكثر سواء أكانوا اسميين أو أتباعـــاً حقيقيين . وقد كان هذا واقـــع الحـــال حتى شهر نيسان (إبريل) ١٩٩٢م ، حوالي ٥٠٪ من عدد السكان الإجمالي في جمهورية البوسنة والهرسك .

ومنذ عام ١٩٧١م ، ولأسباب ذرائعية وأخرى تعود للسياسة المحلية ، صنف السكان المسلمون في البوسنة التاريخية بـ : « المسلمون بالمفهوم القومي » ، لكن اسمهم القومي الصحيح هو البوسنيون (البشناق) . وقد أعلن عن هذا التصنيف الجديد عندما سمحت القيادة المركزية في يوغسلافيا الفيدرالية بنظام لتوسيع الإدارة الذاتية وبالتالي الحكم الذاتي . وانبثق في ذلك الوقت فهم جديد لمفهوم « القومية » وقد استجاب التصنيف للمعايير المستحدثة والمؤهلة بالتالي لرفعها للسلطة الرسمية . ولعقود كثيرة ظل السكان المسلمون في جمهورية البوسنة والهرسك يخضعون لهذا التصنيف شأنهم في ذلك شأن سكان سنجاق نوفي بازار .

إن الكينونة البوسنية كهوية قومية ، مغروسة بعمق في المسلمين البوسنيين ، فقد كان معظم أسلافهم في مملكـــة البوسنـــة المستقلة (١٣٧٧ - ١٤٦٣م) ، التباريـــن أو « البوجملس » في الإمبراطورية العثمانية (١٤٦٣ - ١٨٧٨م) ، وكانوا يشعرون أيضاً في الأراضي النمساوية - الهنغارية أنهم ينتمون لهذه الكينونة .

* العضو المراسل في المجمع الملكي / النمسا .

كانت العقود الأربعة للوجود النمساوي - الهنغاري في البوسنة والهرسك تعني بالنسبة للبلاد زمناً من التمييز الكبير . فقد نصّب البوسنيون الكاثوليك أنفسهم على الوجود الكرواتي ، أما أرثوذكس بارفوسلانس فنصّبوا أنفسهم على الوجود الصربي . ومنذ البداية ادعت كل من هاتين القوميتين بتبعية المسلمين لها . وفي الوقت نفسه ، كرست الجهود ، بشكل سافر ، نحو إزالة الوجود البوسني من المعجم السياسي والوعي العام .

وهذا قد يفسر من ناحية ، حتى في وقتنا الحاضر ، قيادة المنظمة السياسية للمسلمين البوسنيين ، ويعتبر حزب العمل الديمقراطي نفسه ممثلاً عن « المسلمين بالمفهوم القومي » وليس عن البوسنيين ، في حين أن منظمة المسلمين البوسنيين تصر بشدة على أن البوسنيين هو اللقب الصحيح للمجموعة العرقية . يشعر الغرباء غالباً بالحيرة والارتباك برؤية عنصر طائفي يظهر على شكل طائفة قومية كما هو الحال في سينتاجما في البوسنة حيث يوجد الصرب والكروات والمسلمون .

إن ظهور الإسلام في إقليم الدانوب وشمال البلقان ليس نتيجة للتوسع العثماني فحسب ، بل كانت هناك جيوب للسكان المسلمين في هذا الجزء من أوروبا منذ القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر . وقد وجدوا بكثافة معينة معظمها في سيرميا وماكفا وشمالي البوسنة . إن العلوم التاريخية تربط اسم الصقالبة المطلق على حرس الخلفاء المغاربة في قرطبة بسلاف البلقان وإقليم الدانوب .

لقد تحول كثيرون إلى الإسلام في القرن الخامس عشر والسادس عشر معظمهم من البوجملس أو التبارين أو من سلالاتهم من الكاثوليك ، الذين بقوا في البلاد بعد سنوات طويلة من الاضطهاد . وكانت هناك ميزات روحية قوية للإسلام الذي اعتنقته الجيوش العثمانية في ذلك الوقت ، تصاحبه عوامل متعددة للتوفيق بين المعتقدات الدينية، وكان ديناً كريماً وبعيد النظر ومتسامحاً .

كذلك فإن الكنيسة البوسنية ، كما عبر البتارون الأصليون عن أنفسهم ، كانوا يسيرون على مبادئ شبيهة بالنظام الروحي الإسلامي، إضافة إلى كبير الأساقفة البابوي، فقد تقبلوا المسيح على أنه شخص روحي ، وكانوا يؤدون صلاتهم خمس مرات

في اليوم ، ويتبعون أنماطاً في الامتناع عن الطعام بشكل لا يختلف كثيراً عن الصيام في الإسلام ، فرأى البوسنيون البوجملس أنفسهم مرتبطين بصلة روحية عند ظهور العثمانيين .

بالإضافة إلى ذلك فإن الهجوم الرئيسي للتوسع العثماني كان يتركز باتجاه هنغاريا، وهي المضطهدة السابقة التي قادت حملات صليبية ضد البوسنيين البتارين ودولتهم . لذلك كانت هناك اعتبارات سياسية وقومية سائدة ، فاعتنق الدين الإسلامي قسم كبير من السكان الذين تحكمهم الارستقراطية .

بناء على ذلك ، فإن شعار الدعاية السياسية الصربية هو أن البوسنيين المسلمين الذين خانوا الأمة بدخولهم الإسلام ، ولم يكونوا صرباً على أي حال ، هم حمقى . إن الغالبية العظمى في الدولة التي تدعم البوسنيين كانت مسلمة منذ منتصف القرن الخامس عشر ، ومنذ عام ١٩٧١م أصبح البوسنيون « مسلمين بالمفهوم القومي » ، وهذا مفهوم ذاتي أوجدته الظروف .

أظهرت نتائج الإحصاء السكاني الذي أجري في عام ١٩٩١م في منطقة يوغسلافيا السابقة أنه يوجد ٣٢٨ و ٢٫٢٩٩ مليون مسلم بالمفهوم العرقي . وأن ٩٠٪ منهم أعلنوا أن اللغة البوسنية هي لغتهم ، وهذا سبب حقيقي واحد لانتشار لهجتهم في البوسنة إبان الحكم العثماني وفي زمن الحكم النمساوي ـ الهنغاري .

بداية الإبادة الجماعيـــة :

كما يعبر عنه بالنسب ، فإن المسلمين بالمفهوم القومي يشكلون ٤٤٪ من العدد الإجمالي لسكان البوسنة . وبما أن معظم اليوغسلاف المسجلين في البوسنة يمكن أن يعتبروا منتمين إلى منطقة المسلمين التقليدية ، فإنه يوجد عشرات الآلاف من المسلمين الذين سجلوا أنفسهم كصرب وكروات في قوائم الإقامة ، فليس من الخطأ الافتراض أنه في بداية عام ١٩٩٢م ، أي قبل عمليات الغزو التي قام بها المتطرفون الصرب وقبل أولى علامات الإبادة الجماعية ضد المسلمين ، كان المسلمون هم الغالبية العظمى في الجمهورية الصغيرة . وفي سنجاق نوفي بازار ، يشكل أعضاء هذه المجموعة العرقية ٧١٪ من مجموع السكان .

وفي الوقت الحاضر فإن المسلمين البوسنيين هم ضحية لعدوان وحشي غير متوقع، أو لنقل إبادة جماعية . ورغم كل مساعي السلام التي تبذلها الحكومة الشرعية ، فقد جُرّت البلاد إلى سيناريو غير متكافىء من العنف والجريمة والسلب . وعلى عكس المفهوم الشائع ، فهي ليست حرباً أهلية ولكنها هجوم خططت له منذ زمن المجموعات المسلحة ووحدات الجيش ضد جيران مسلمين عزل من السلاح وضد مواطنين أبرياء .

لقد بدأت الإبادة الجماعية ضد المسلمين البوسنيين مباشرة بعد هزيمة الجيش العثماني أمام فينا عام ١٦٨٣م . وقد سميت هذه الإبادة الجماعية في مونتنجرو « إبادة الذين أصبحوا أتراكاً » ، وقد حدث ذلك في بداية القرن الثامن عشر في حين وصف المطران الأرثوذكسي هذا السيناريو الوحشي ، وهو شاعر يدعى « بيتار تبروفيتش نيجوش » (توفي سنة ١٨٥١) في كتابه « إكليل الجبل » (Gorski Vijenac) . وقد قدم نيجوش أساس ملحمة فكرية لأعمال القتل والاضطهاد اللاحقة .

لقد هاجم الثوار الصرب وقتلوا في ذلك الوقت السكان المدنيين بطريقة وحشية. ملحوظة : (لقد كانت فترة من الوقت خاليـــة مما يسمى بـ « الأصولية الإسلاميـــة ») . « تقاريرجديـــدة من مؤرخين وخبراء إقليميين » ، كتبت صحيفة الهيرالد تربيون[1] ، : « لنفترض أن هجمات الصرب على المدن البوسنية في سراييفو وموستار أصابت عن قصد وبنجاح المكتبات الوطنية والمتاحف والأرشيفات ، في نية مسح كل السجلات المكتوبة الموثقة لتاريخ البوسنة » .

من أين أتى حقد الصربيين القوميين اللامتناهي للسكان المجاورين المختلفين عنهم في الدين ، وضد الإسلام وأتباعه أولاً وأخيراً ؟ هذا الحقد مغروس في تراث قديم ، في روح جمهرة القرويين الأرثوذكس في البلقان وأسلوب حياتهم ، وهو موجه أولاً وأخيراً ضد الأتراك وما يدور في رأس القرويين الصرب البسطاء الذين يعتبرون أتراكاً ، كالألبان ، والبوسنيين والبماسك ، أي المسلمين من أصل بلغاري الذين يعيشون في جبال رودوب . إن المنشأ المشترك لهذه الجماعات والسلاف ، حتى لو أن علاقتهم الوطنية جاءت نتيجة

(١) تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٢م .

الزواج ، لا أهمية لها ، فقاطع الطريق الصربي المتعصب (تشناتنك) يماثله في ذلك البلغار الهايدوك ، يتخذ موقفاً قومياً ضيق الأفق ، يشوبه إنكار مزدر لأي إنسانية ، كذريعة وحيدة لاستبداده في مختلف أفعاله . وكما يقتل الجزار الدواب بكل سذاجة فإنه لا يتردد في ذبح قرينه المواطن من دين آخر وجنسية مختلفة على أنه لم يقترف أي ذنب سوى تمسكه بدينه . هكذا وصف العالم الألماني جورج روزن ، قبل ١١٥ سنة ، العمل الوحشي الذي ارتكبه هايدوك البلقاني ، إن الوصف ينطبق تماماً على سلوك التشناتنك الصربي في السيناريو البوسني اللعين ، إن التشناتنك ، شأنه في ذلك شأن الهايدوك ، يصور وحشيته على أنها عقاب مستحق لخطايا لأتراك ، وأحياناً يصوره على أنه قتال ضد « الإرهاب الأصولي » ، ويدعي الحق في الثأر من الأمة كلها لجرائم فردية ، وشعاره « من لا يثأر يبقى بعيداً عن القداسة » . لدرجة أن الأحداث الدامية في البوسنة ، من وجهة النظر الصربية ، ماهي إلا حرب دينية .

إن الأغلبية العظمى من التشناتنك هم من القرويين ، أو ينتمون بشكل عام إلى السكان القرويين ، وقد انضموا إلى المجرمين من كل صنف . ويقول روزن : « إن البلدان الأخرى أصيبت بهذا البلاء من اللصوص والمجرمين ، لكن الإسباني والإيطالي لا يطمح أبداً بالافتخار بقطاع الطرق أو يرى فيهم دعماً لقوميته . ولن يرى التركي ، الذي يعتبرونه أيضاً في مصاف رعاع البلقان ، في نبلاء الغرب أكثر من نمو طفيلي في المجتمع يدعو إلى الرفاه ، وذلك رغم الأفضلية التي يعطيها سانت كلير وبروفي للصوص البلغار » .

إن القناعة الدينية للقومية الصربية مغروسة في الإعجاب بسابا المقدس واسمه الحقيقي راستكو نيمارجك (توفي سنة ١٢٣٥) ، وهو مؤسس الكنيسة الصربية ، وقد اعتبره الصرب كاتبهم الأول العظيم ، نظراً لكتابه الذي أصدره عن سيرة حياته ، الذي يصف فيه حياة والده المحافظ الكبير ستيفن نيمارجا .

لقد شجعت كتابات الكاتب المطران بيتر بتيروفتش بنجوش (توفي سنة ١٨٥١م)، كثيراً على نهوض القومية الصربية في القرن التاسع عشر إلى جانب الرومانتيكية القومية، في ملحمته الشعرية (إكليل الجبل) ، إلى جانب اغاني جوسلار التي تتغنى بمجد البطولة الصربية القديمة ، وانغرست - باحترام عميـــق - في نفوس الناس البسطاء لدرجة

أنها أصبحت بمثابة الانجيل ، في المملكة الصربية ، وكما في الولايات اليوغسلافية اللاحقة، ألزم تدريس هذا العمل الأدبي في المدارس وفرض على التلاميذ حفظه عن ظهر قلب . إن نيجوش يمجد في شعره إبادة المسلمين المقيمين في أجزاء من موطنه مونتجرو، خلال عهد المطران دانلو ، (توفي سنة ١٧٣٥) . ويقدم أحد الأبطال في قصيدته « The Vaivo de Batric »، وصفاً لمذبحة سيتنجي ، العاصمة القديمة لمونتجرو ،حيث أبيد الجميع ولم يكتب لأحد النجاة كي يخبر عما حدث ، وقد قتل كل من رفض التحول إلى المسيحية ، وتم تدمير كل منازل الأتراك كي لا يتركوا أي أثر . وكانت المواعظ تسدى لإبادة الهوية الإسلامية . « حطموا المآذن والمساجد » .

وهذا هو النموذج نفسه الذي يتبعه قطاع الطرق الصربيون ، وهم التشناتنك الذين سبق ذكرهم ، في تدمير كل ما له صلة بهوية المسلمين الثقافية والدينية .

وقد ذكر محمد فليبوفتش ، وهو أستاذ للفلسفة مرموق في سراييفو ، في مقالة له نشرت عام ١٩٦٧م ، أن في رأيه أن ايفو أندريك الفائز بجائزة نوبل وبعض الأدباء الآخرين الذين يتبنون وجهة نظر تاريخية محددة ، أصابوا موطنه البوسنة بدمار أكثر من ذاك الذي أحدثه غزو بعض الجيوش الأجنبية الغازية أثناء الحرب . ونظراً للتخريب الوحشي الذي أوقع بالبوسنة على يد قوميين متطرفين من الملهمين بهذا الأدب ، فقد لاقت كلماته تأييداً واسعاً .

وفي الواقع ، أن جزءاً من الأدب السلافي الجنوبي ، لا سيما الكتابات البلغارية والصربية بالإضافة إلى اغاني الملاحم القومية القديمة ، أبرز الإسلام والمسلمين على أنهم العدو الأول . ولأكثر من عقد ، انضم الأدب الشعري الصربي إلى مصاف العلم ، بل تعداه إلى مصاف الإعلان والصحافة المتميزة من أجل الدعاية ضد المسلمين . وكانت في طليعة هذا العمل الصحف والمجلات التي تنشر « Politika » في بلغراد ، تتبعها في ذلك بعض الصحف الصادرة عن الكنيسة مثل « Glas Crkve » (صوت الكنيسة) في ساباك . وأسبوعاً بعد أسبوع فإن هذه الصحف اليومية مثل : « Polita » و « Vecernje Novo » ومجلة « Duga » و « Svet » أشبعت القراء بتقارير متحيزة ضد الإسلام وأصوليته، وبسبب الهجوم الجماعي في وسائل الإعلام الصربية على الأصولية المزعومة اضطر المجتمع الإسلامي في البوسنة والهرسك

إلى عقد ندوة في سراييفو في عام ١٩٩٠م بعنوان « الأصولية ماهي ؟ » ، حضرها علماء قديرون من المسلمين وغير المسلمين . ونشرت بحوثهم في خلاصة وافية بالعنوان ذاته .

وفي الفترة القصيرة التي اكتسبت فيها الحرية حديثاً بعد انهيار النظام الشيوعي (١٩٩٠ - ١٩٩٢) مارست البوسنة أنماطاً مختلفة لتظاهرات فاعلة للنهضة الإسلامية. ولعل الاحتفالات الدينية التي بثها التلفزيون المحلي مرتين أو ثلاثة ، صدمت أعضاء من الجمهور اليوغسلافي بأدائها المؤثر والغني الذي نظمه فنانون محليون . لقد ظلت وسائل الإعلام في بلغراد تشك لسنوات في أي نشاط استقلالي للألبان والمسلمين على أنه حركة انشقاقية دينية ، أو حتى تظاهرة لبث روح الجهاد .

إن حركة إعادة الصحوة الإسلامية لم تمر على مسلمي البوسنة دون أن تترك أثراً. فرؤساء هذه الحركة معروفون جيداً بالنسبة للمتدينين البوسنيين المهتمين . ففي السبعينات أصبحت سراييفو مركزاً هاماً لنشر الأدب الإسلامي وترجمته .

وعلى أي حال ، يعتبر البوسنيون المسلمون أنفسهم جزءاً من أوروبا . وفي قرار يدعى « الإعلان » تبناه كل أعضاء البرلمان وممثلي الحكومة في العاشر من حزيران عام ١٩٩١م أكدوا فيه هذا التوجه :

« بناء على قناعتنا بأهمية الديمقراطية وكل مؤسساتها ، نعلن استعدادنا للدخول في حوار مع القوى السياسية الأخرى وبحث كل قضايا التعايش في جمهورية البوسنة والهرسك الديمقراطية . إن البوسنيين المسلمين هم القوة المحركة التي تضمن استمرار وجود البوسنة والهرسك كجمهورية مستقلة غير قابلة للتجزئة ، مبنية على أسس التجربة المثلى للدول الأوروبية البرجوازية » . وقبل ثلاث سنوات من ذلك ، وكان حينئذ رئيس البوسنة الإسلامية هو نيرهاد افندي ستيا ، حيث حدد أماكن وجود المجموعة الدينية . وبمناسبة الاحتفالات بمرور ٤٥٠ سنة على تأسيس معهد الغازي هزريفيج ، قال :

« إن هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام في هذه المناطق محظوظون بالانتماء إلى السكان الأوروبيين قديمي العهد ، والمشاركة في أفضل إنجازات الحضارة الأوروبية » .

لقد أصبح إسلام البوسنة ، بسبب روح هذا الإعلان ، هدفاً لإساءة وسائل الإعلام وعداواتهم في بلغراد خلال العقد الماضي ، بمساعدة عالم الاجتماع البلغرادي ميروجب جيفتش ، وهو شيوعي سابق تحول إلى قومي متحمس ، يتظاهر على أنه خبير بالإسلام ، وقد لعب دوراً هاماً في نشر هذه الكراهية .

الحل الأخير ـ الصيغة الصربية :

ناشد عدد من الكتاب القوميين الصرب المتطرفين والسياسيين المواطنين بانتهاج ضرب جديد من العداء للسامية ونفخ في هذا العداء روحاً ليجعله نموذجاً لمقاومة العدو . وكانت النتيجة هي « الحل الأخير ـ الصيغة الصربية » التي نشهدها الآن في البوسنة . وتعبئة الجماهير بالمناشدة باستياء تاريخي ومفاهيم ميثوبولوجية لماضي مجموعتهم العرقية المجيد . لقد عادت إلى الاذهان ذكرى الكارثة التي حلت بالصرب في معركة امسيلفيلد في عام ١٣٨٩ . وتعاظمت الرغبة في الانتقام . إن سلالات الأتراك المتوزعة ، وهم مسلمو البلقان ، هم الضحايا . لقد أعيد الآن إحياء العصور المظلمة في جنوبي شرقي أوروبا .

ولكي يحرروا نفوسهم من الشعور بالذنب ، ادعى الصرب المتطرفون أن البوسنيين المسلمين ماهم إلا أصوليون جرأوا على الرغبة في إقامة جمهورية إسلامية في قلب أوروبا . لذلك فإن ڤيليمر اوستوفيتش ، وزير الإعلام في حكومة الصرب التي نصبت من نفسها حاكما على البوسنة ، فشل في فهم السبب الداعي لهذه الضجة ، التي يحدثها الصرب المسيحي حول المعاملة اللا إنسانية للنزلاء المسلمين في معسكرات ا لاعتقال الخاصة بهم .

إن الأصولية الإسلامية التي يخشى منها الغرب الليبرالي والديمقراطي كثيراً ، تعرف بخمس خصائص ، هي :

١ ـ أنها تفهم الإسلام على أنه وحدة من الدين والدولة .

٢ ـ أنها تعتبر بشكل جوهري أنه لا بد أن يكون للدين سلطان تام على حياة أفراده .

٣ ـ تتحول في حالات الكوارث إلى مذهب سياسي وعسكري .

٤ ـ لا تحب حرية الفكر .

٥ - يعتبر أتباعها أنفسهم مؤمنين يتجاوزون حدود المقياس المفروض للمارسات الدينية الإجبارية بدرجات عدة . وهذا أحد الأسباب أنهم غير راضين عن الأهلية العرفية لهم كمسلمين يريدون أن يتميزوا كإسلاميين . ولكن لم يتحقق بشكل عام أي من هذه الاتجاهات في البوسنة .

إن الإسلام في البوسنة هو خلفية تجربة ١١٤ عاماً في التعامل مع أوروبا المتقدمة ، وهو واسع الأفق ، متحرر ومتسامح في إطار ما يتضمنه إعلان حقوق الإنسان . هذا الإسلام ينتمي إلى أوروبا انتماء جغرافياً وتاريخياً وعرقياً وثقافياً .

الإنسان ومستقبل الحضارة : وجهة نظر إسلامية

الدكتور سيّد مقبول أحمد*

السيد الرئيس ، سيداتي سادتي ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

لقد شهد القرن الحالي تغيرات وتحولات جوهرية في القيم الإنسانية التقليدية والعادات والممارسات الدينية والاجتماعية في معظم أجزاء العالم . إن انحطاط القيم الاجتماعية القديمة والمفاهيم الأخلاقية و اضح تماماً في العالم الغربي وخاصة في أمريكا وأوروبا الغربية ، كذلك في الهند وباكستان . وبالتالي ازداد العنف والإرهاب ، ليس في العالم الغربي فحسب ، بل في بلدان كثيرة في الشرق . ويعاني الناس في الشرق تغيرات مشابهة في مفاهيمهم الدينية والأخلاقية نتيجة للتأثير الغربي . وقد برزت هذه الظاهرة نتيجة حربين داميتين وقعتا خلال قرن واحد ، كذلك بسبب حروب أهلية عدة، وأيضاً بسبب الثورة العلمية والتكنولوجيا التي حدثت بعد الحرب والتي لم تشهد البشرية مثيلاً لها من قبل . لذلك فإن عملية الانحطاط الحالي للقيم الأخلاقية والاجتماعية لا بد أن تتوقف وأن تستبدل بها قيم جديدة ، وإلا فقدت البشرية كل ما أنجزته في الماضي ، وأصبح مجتمعها خالياً من القيم في القرن الحادي والعشرين .

وهذه العملية تأخذ الان مجراها ، بدرجة أقل ، في المجتمع الإسلامي وفي أنحاء العالم جميعه بما في ذلك الهند . وفي الماضي ، منذ بداية ظهور الإسلام حتى القرن السادس عشر كان المسلمون متقدمين في مجالات النشاط الإنساني كلها ، في العلوم والآداب والفكر الاجتماعي والاقتصادي ، والحكومة والإدارة . ثم بدأت بعد ذلك مرحلة انحطاط بعدما كان المسلمون في وقت ما أكثر الأمم تقدماً في العالم ، وقد حدث الانحطاط نتيجة لعوامل عدة كان أحدها استعمار الغرب للبلدان الإسلامية ، كما هو الحال في الهند أيضاً ، وتدهور التجارة في المحيط الهندي وبالتالي حدث الانحطاط الاقتصادي ، ثم ظهور القوى الاقطاعية ، وظهور الدوغماتية والتشدد في الفكر الديني

* العضو المراسل في المجمع الملكي / لندن ـ المملكة المتحدة .

الذي كان أصلاً للجـــدل بين المعتزلة والأشعرية في العصور الوسطى . لو أن هــذه العوامـل لم تمس المجتمـــع الإسلامي ، لشهد العالـــم الإسلامـــي نهضـــة وثورة صناعية ، ولما نجح الاستعمار فـــي الشرق . وفي الوقت الحاضـــر ، فـإن المجتمعات الشرقيـــة بشكل عـــام ، بما في ذلك الهند وباكستان ، والمجتمـــع الإسلامي بشكل خاص ، تخلفت قـــرناً إلى الوراء في الازدهـــار الاقتصادي والتقـــدم العلمي والتكنولوجـــي مقارنة بالغـــرب . وخلال الخمسين عـــاماً الماضيـــة أو مـــا يقاربها ، لم يحـــرز المسلمون أي تقـــدم في العلـــم والتكنولوجيـــا رغـــم أنهم قادرون عـــلى ذلك .

لقد كان الإسلام دائماً ديناً تقدمياً ، يدرس الفكر العقلاني والليبرالية وسعة الأفق. إن المبادئ الأولى للإسلام مثل الأخوة العالمية ، والمساواة والإخاء لها مدلول عالمي . لذلك اعتقد أنه من واجـــب العلماء المسلمين والقادة الدينيين أن يرشدوا المسلمين إلـــى الطريق القويم . يجب أن تستبـــــدل بالدوغمانيـــــة والتقليـــدية العقلانية والتنوير ، وهي أمـــــور نادى بها القرآن الكريـــــم ومارسها الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : كي نخرج من المأزق الحالي ، على البلدان الإسلامية بالإضافة إلى مسلمي الهند، أن يبذلوا جهداً في اقتباس التعليم العلماني والعلمي الذي بمقدوره وحده أن يضع أساس اقتصاد الاكتفاء الذاتي والتقدم التكنولوجي . وهذا العمل قد يحرر العالم الإسلامي من قيود الغرب الاقتصادية .

ثالثاً : نظراً للأحوال السائدة في الوقت الحاضر ، فإن الوحدة السياسية غير محبذة لأن لكل بلد اقتصاده الخاص وأهدافه السياسية الخاصة . لكن تستطيع البلدان الإسلامية أن تقيم تعاوناً اقتصادياً ومساعدات متبادلة في سبيل محو الأمية والقضاء على الفقر وسوء التغذية ، وبالتالي التخلص من المساعدات الغربية المزعومة ، التي تتخذ ذريعة في الوقت الحاضر للسيطرة السياسية . وبسبب التشوش السياسي والضعف الاقتصادي أصبحت هدفاً للهيمنة السياسية والاستغلال الإقتصادي .

رابعاً : هناك اتجاه متنام في الغرب وفي بعض البلدان النامية في العالم الثالث بتلقيب الإسلام والمسلمين بالأصوليين والإرهابيين والمتطرفين . وأصبحت البلدان الإسلامية ، وكذلك الأقليات الإسلامية كما في الهند ، أهدافاً لهذه الدعاية العشوائية والمغرضة . ولا يمكن محاربة ذلك إلا على المستوى السياسي .

وأخيراً ، إن من واجب العلماء المسلمين وكذلك الحكومات أن يرفعوا أصواتهم ضد اضطهاد المسلمين وحرمانهم من حقوق الإنسان ، وأن ينقذوهم من الفناء . واعتقد أن الرأي الإسلامي المتنور يمكن أن يؤدي دوراً هاماً في إحياء المجتمع الإسلامي الذي يمر اليوم بأسوأ مراحله .

تقرير عن المؤتمر العام التاسع
للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية
(مؤسسة آل البيت)

افتتح المؤتمر صباح يوم الثالث والعشرين من المحــــرّم ١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٣/٧/١٣م ، في قاعة المؤتمرات بالمركز الثقافي الملكي بعمان ، برعاية كريمة من حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الملك الحسين المعظم ، وبحضور صاحب السمو الملكي الأمير الحسن ، نائب جلالة الملك وولي العهد المعظم ، الذي ألقى كلمة في حفل الافتتاح دعا فيها إلى جمع كلمة المسلمين ، والدفاع عن حقوقهم في ديار الإسلام وخارجها ، وإلى ضرورة إقامة العلاقات الدولية على أسس من العدل والتكافؤ والسلام ، واحترام حقوق الإنسان الشاملة دون تمييز .

كما ألقى معالي الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد ، رئيس المجمع ، كلمة حيّا فيها جلالة الملك الحسين ونائبه وولي عهده سمو الأمير الحسن ، واستعرض منجزات المجمع منذ تأسيسه ، وخاصة ما حققه في العامين الأخيرين بين دورتي المؤتمر العام الثامنة والتاسعة .

وتحدث فضيلة الدكتور الله شكور بن همت باشا زاده ، رئيس المجلس الديني الأعلى في القفقاس ، نيابة عن الأعضاء ، ونوّه بجهاد الهاشميين الموصول في سبيل رفعة المسلمين وعزّهم ، والعمل على التقريب بينهم ، وصولاً إلى تضامن إسلامي حقيقي ، يعيد للمسلمين رسالتهم الفاعلة في المجتمع الدولي .

وقد عقدت الجلسة الأولى للمؤتمر في المركز الثقافي الملكي ، وخصصت لاستقبال الأعضاء العاملين الجدد السادة : الدكتور أحمد مطلوب (من العراق) وقدمه العضو الدكتور بشار عواد معروف ، والدكتور عبداللطيف بربيش (من المغرب) وقدمه العضو الدكتور عباس الجراري ، والأستاذ عبدالوهاب بن منصور (من المغرب) وقدمه العضو الدكتور محمد فاروق النبهان ، والدكتور سيّد حسين نصر (من إيران) وقدمه العضو الدكتور عبدالعزيز الخياط نائب رئيس المجمع .

وتابع المؤتمر جلساته في فندق ريجنسي بالاس ، حيث عقد أربع جلسات ، استمع فيها إلى عروض موجزة للبحوث المقدمة إلى المؤتمر ، عن الموضوع الرئيسي وعنوانه : « الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية » ، وقد أعد هذه البحوث الخبيران السيدان الدكتور علي عثمان والدكتور فهمي جدعان ، وأعضاء المجمع السادة : الدكتور أحمد صدقي الدجاني ، والدكتور سيّد حسين نصر ، والدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي ، والدكتور جاويد إقبال ، والأستاذ عبدالله باه ، والدكتور جلال شوقي، والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، والدكتور روجيه جارودي ، والدكتور إحسان دوغرمجي ، والدكتور يوسف القرضاوي ، والأستاذ عبدالوهاب بن منصور ، والشيخ محمد الغزالي ، والدكتور إسماعيل باليتش ، والدكتور محمد فاروق النبهان ، وحكيم حاج حافظ محمد سعيد ، والدكتور أنصار زاهد خان ، والدكتور محمد عمارة ، والدكتور علي أوزاك .

كما استمع المؤتمر ، في جلسة خاصة ، إلى كلمتي رثاء ، ألقى إحداهما الدكتور أحمد كمال أبو المجد في رثاء الدكتور عبدالعزيز كامل رحمه الله ، وقدم الأخرى الدكتور عبدالهادي التازي في رثاء الأستاذ محمد الفاسي رحمه الله .

وألقى السادة : الدكتور شمس الدين خان ، والدكتور إسماعيل باليتش ، والدكتور سيّد مقبول أحمد ، كلمات عن أحوال المسلمين في مناطقهم في كل من : دول آسيا المركزية ، والبوسنة والهرسك ، والهند . وقدم الدكتور مهدي محقّق اقتراحاً مبدئياً بتدوين دائرة معارف خاصة بتاريخ الطب في الإسلام .

وأقام حضرة صاحب السمو الملكي الأمير الحسن ، نائب جلالة الملك وولي العهد المعظم ، حفل عشاء تكريماً للمشاركين في المؤتمر مساء يوم ١٩٩٣/٧/١٤م في قصر بسمان العامر ، وتحدّث سموّه في حفل العشاء ، فأكد على ما يوليه الإسلام من أهمية واحترام للعقل والفكر المستنير ، وحثّ علماء الأمة ومفكريها على استشراف المستقبل القريب ، ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين ، والتمعّن في المنهج الذي يمكّن المسلمين من الإسهام في النظام العالمي الجديد ، ورسم صورة المستقبل ، كي لا يتجاوزهم العالم ويفرض عليهم ما لا حيلة لهم برفضه ، وأعاد سموه تأكيد قيم الإسلام

العظيمة ودورها في تعزيز هذا الإسهام . كما أكد سموه وجوب تحديد موقف عربي إسلامي موحد تجاه القضايا الرئيسية المطروحة في مؤتمرات دولية قادمة .

وتحدث في حفل العشاء معالي الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي باسم المشاركين، وحيّا جلالة الملك الحسين المعظم وسمو الأمير الحسن نائب جلالته وولي عهده ، على ما لقيه وأعضاء المؤتمر من حفاوة وتكريم ، كما أكّد أن إسهام المسلمين في الحضارة العالمية من جديد مرهون بمراجعة علاقتنا بالذات ، وعلاقتنا بالغير .

ودارت حول البحوث مناقشات وتعليقات شارك فيها أعضاء المؤتمر . وأثارت تلك البحوث والتعليقات سؤالاً محورياً يتعلق بمسيرة أمتنا الإسلامية ، وسط الظروف العالمية المعقدة التي تمر بها الحضارة الإنسانية ، وبالمكانة المنتظرة لأمتنا الإسلامية على خريطة العالم .

وسجّل المجتمعون أمرين أساسيين ، كانا موضع إجماع بينهم :

أولهما : أن أمتنا تتعرض لحملة تشويه وعدوان واسعة النطاق ، على حضارتها وشعوبها، تهدف إلى حرمانها من المشاركة في أي نظام حضاري دولي جديد . وذلك من خلال الترويج بمقولة خاطئة مؤداها أن المسلمين أمة غير قادرة على حمل راية الحضارة من ناحية ، وأنها عدوانية من ناحية أخرى .

وثانيهما : أن إسهام أمتنا في علاج أزمة الحضارة المعاصرة ، وفي بناء نسق حضاري جديد يقوم على التعددية والحرية والعدل ، لا يمكن أن يتم ما بقيت أوضاعنا « الذاتية » على ما هي عليه من ضعف وتفكك وجمود .

وانتهى المجتمعون إلى أن أمتنا تواجه تحدياً غير مسبوق ، وأن مواجهته تقتضي البدء فوراً في مباشرة جهد مزدوج على جبهتين :

الجبهة الداخلية :

وذلك بمباشرة جهاد إصلاحي داخل الأمة ، على صعيد الإصلاح السياسي ، لتوفير مزيد من المشاركة الشعبية ومن احترام الحقوق والحريات ، وعلى صعيد زيادة الفاعلية الاقتصادية، ومن خلال الاستنفار الكامل لقوى الانتاج في المجتمعات الإسلامية،

وعلى صعيد توحيد طاقات الأمة وتجميعها ، بتصفية حالات الإنقسام والخصومات القطرية ، والفئوية ، والثقافية ، التي لا أمل للأمة - مع استمرارها - في تحقيق طموحاتها في المستقبل ... ومما يسند ذلك كله أن يستجلي العالم الإسلامي ، بعمق ووضوح ، مفاهيم حضارته ومقوماتها ، وأن يعتمد مختلف الوسائل لإحياء هذه المفاهيم والمقومات ، ونشرها في مجتمعاته ، وخاصة عند الشباب المسلم .

وأن يعي المسلمون ، أن نصرة بعضهم بعضاً واجب يفرضه الإيمان والانتماء للحضارة الإسلامية الجامعة ، ولذلك فمن واجبهم نصرة إخوانهم في أقطارهم جميعها، خاصة في فلسطين والبوسنة والهرسك ، بالوسائل المتاحة جميعها .

الجبهة الخارجية :

وذلك بالمشاركة النشطة في مجالات العمل الدولي والإقليمي جميعها ، التي لا يجوز الغياب عنها خلال هذه المرحلة ، وبالعمل المتواصل على تصحيح صورة « الإسلام والمسلمين » في عقل العالم ووجدانه ، وبتأكيد أن المسلمين يرفضون أن يُصنَّفوا أعداء لأية حضارة ، إذ إن حضارة الإسلام هي حضارة إنصاف وتعارف ، لا حضارة عداء أو استعداء . على أن تكون هذه المشاركة كلها في إطار موقف محدد ومتفق عليه.

وانطلاقاً إلى أداء هذه التبعات ؛ قدّر المجتمعون أن أبحاث مؤتمراتهم المقبلة ينبغي أن تمثل حلقات جديدة تخدم هذه الأهداف ، وأن تدور حول محورين : أولهما - حث الخطى على طريق النهضة الإسلامية باستيفاء شروطها وإقامة الآليات والوسائل المعينة على تحقيقها ... وثانيهما - تصحيح علاقة المسلمين بالعالم وتنشيطها ، والاتفاق على وسائل العمل التي تؤمّن مساهمة المسلمين في الحضارة العالمية ، والتي تحفظ عليهم خصوصيتهم الثقافية ، إذ إنها هي الأمل الحقيقي في إقامة حضارة إنسانية جديدة ، قوامها الإيمان والحرية والعدل والسلام والتعاون على الخير .

واقترح المجتمعون ثلاثة موضوعات لاختيار أحدها للمؤتمر العام العاشر للمجمع ، وهي :

١ ـ الوحدة والتنوع في العالم الاسلامي .

٢ ـ المسلمون على طريق النهضة : الواقع ، والمأمول .

٣ ـ المسلمون وحوار الحضارات في العالم المعاصر .

على أن يتولى المجمع تحديد الموضوع ، وتشكيل لجنة تحضيرية لتحديد محاوره والعناصر التي تندرج في كل من هذه المحاور .

ورفع المؤتمرون برقيتي شكر وتقدير إلى مقام حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الملك الحسين المعظم ، وسموّ نائبه وولي عهده الأمين الأمير الحسن المعظم ، فيما يلي نصهما :

برقيـــــة

صاحب الجلالة الهاشمية الملك الحسين المعظم أيّده الله

إن أعضاء مجمع آل البيت المجتمعين في مؤتمرهم العام التاسع في رحابكم الكريمة يشرفهم أن يرفعوا إلى مقامكم السامي أجزل الشكر على تفضلكم برعاية المؤتمر ، وهي مأثرة هاشمية تعوّدوها على مدى السنين ، مقدرين لعميد آل البيت جهده المتصل في السعي إلى تقارب المسلمين وتآلفهم ووحدة كلمتهم ، ودعوته الدائبة للتقدم إلى الإسلام كي يعمّ نوره المسلمين والعالم لنظل كما أرادنا الباري جلّت قدرته خير أمة ، وداعين المولى تبارك وتعالى أن يبارك في عمركم ويسدّد على الخير خطاكم ، إنه نِعْم المولى ونِعم النصير .

أخوكـــــم

الحسن بن طلال

رئيس المؤتمر العام لمجمع آل البيت

برقيـــــة

صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال نائب جلالة الملك ولي العهد المعظّم

سعد المشاركون في المؤتمر العام التاسع لمجمع آل البيت بالاستماع إلى كلمة سموكم في حفل افتتاح المؤتمر بما تضمّنته من دعوة مخلصة إلى جمع كلمة المسلمين ، والدفاع عن حقوقهم في ديار الإسلام وخارجها ، ودعوة إلى وضع ميثاق شرف للسلوك الإنساني بحيث تقوم العلاقات الدولية على مبادىء العدل والتكافؤ والسلام ، وهي جميعها مُثُل الإسلام الرفيعة التي نذرتم أنفسكم ، آل البيت البررة ، لتحقيقها مهما تكن التضحيات .

وفق الله سموكم لتحقيق آمال أمتكم العربية الإسلامية في ظل القيادة الرشيدة الرائدة لجلالة الملك الهاشمي الحسين المفدى .

(المخلص الوفي)
ناصـر الديـن الأسـد
رئيس المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية
(مؤسسة آل البيت)

الجلسة الختاميـــة للمؤتمر

الخميس ٢٥ من المحرَّم ١٤١٤هـ الموافق ١٥/٧/١٩٩٣م



عقدت الجلسة الختامية للمؤتمر العام التاسع في تمام الساعة الثانية عشرة من صباح يوم الخميس ٢٥ من المحرّم ١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٣/٧/١٥م ، في الديوان الملكي الهاشمي العامر ، برئاسة صاحب السموّ الملكي الأمير الحسن نائب جلالة الملك وولي العهد المعظّم .

وفي بداية الجلسة تلا الدكتور ناصرالدين الأسد ، رئيس المجمع ، التقرير الذي أقرّه المشاركون عن أعمال المؤتمر .

وفي معرض تعقيب سموه على الموضوعات الثلاثة التي اقترحها المشاركون لاختيار أحدها للمؤتمر العام العاشر للمجمع ، وهي :

- الوحدة والتنوّع في العالم الاسلامي .

- المسلمون على طريق النهضة : الواقع والمأمول .

- المسلمون وحوار الحضارات في العالم المعاصر .

تساءل سموه إن كان ثمة تصوّر لمنهجية جديدة لعمل المجمع في إطار المؤتمر العام، أو إضافة علمية من خلال الندوات العلمية المتخصصة من جانب آخر، إذ إن الموضوعات هامة والصلة محكمة بينها .

وقال سموه إن الموضوع الأول المتمثل بالوحدة والتنوع في العالم الإسلامي المعاصر قد يأخذ أشكالاً عدة منها حوار العلماء في إطار حوار المذاهب ، لإقرار الجوامع والتعرف إلى الفروق .

وأشار سموه إلى أنه إذا كان لنا أن نطرح عنواناً على الندوة المتخصصة القادمة في إطار حوار المذاهب ، فإننا نؤكد ثانية على موضوع الزكاة ، للتذكير بضرورة الشروع في إقامة المؤسسة العالمية للزكاة . وأوضح سموه أن الحديث عن إقامة المؤسسة لا يقصد به الاجحاف بحق المؤسسات القائمة بأدوار هامة على الساحة الإسلامية .

وأضاف سموه قائلاً: إننا لا نستطيع أن نتحدث عن واقع المسلم المعاصر ما لم تصل الزكاة بالصورة الكفؤة والفاعلة التي تعكس لغة العصر ، في الوقت المناسب ، والمكان المناسب ، والسرعة المناسبة إلى المسلمين المستضعفين والمعوزين في ديار الإسلام، مشيراً إلى أنه يشعر أن مبادرة الأقطار والحكومات في هذا الاتجاه متفرقة ، ولا تفي بالغرض .

وأكّد سموه أننا مطالبون بإذكاء النشاط في الندوات المتخصصة والحلقات البحثية، عند الحديث عن الشباب والسعي إلى ترغيبهم في المشاركة الفاعلة لطرح أفكارهم ومشكلاتهم والإسهام في تلمس الحلول الناجعة لما يواجهونه ، وأشار سموه إلى ما يمكن للمجمع أن يقوم به من دور إيجابي في المبادرة إلى الاتصال بالتجمعات الشبابية ، وإشراك الشباب والنساء في مختلف الأنشطة العلمية بمعيار يتفق عليه ، وبأسلوب ينسجم والأهداف المتوخاة في تفعيل دورهم الأساسي .

أما فيما يتعلق بالمسلمين وبالحوار الحضاري الخارجي ، فقال سموه ، إننا في هذا المجال أقمنا تسع ندوات أفرزت دراسات متعمقة في عناوين مختلفة ، ما زالت تنتظر جهداً هاماً في التحرير وإعادة الصياغة ، كما أنها بحاجة إلى الترجمة إلى اللغات الأخرى .

ونّوه سموه بأهمية الرصيد العلمي لمنشورات المجمع من الدراسات والبحوث التي نهض بها ، وأهمية الرجوع إليها والاستفادة منها عند النظر في المستجدات والقضايا التي تطرح على الساحة الإسلامية .

كما أشار سموه إلى ضرورة تفريغ فريق عمل يستعرض الدراسات المستقبلية التي توضع من جهات وحضارات عديدة ، وتساءل : لماذا لا نبادر إلى وضع هذه الدراسة في العام الحالي ؟ إذ توجد دراسات مستقبلية كبيرة ضمن أنشطة الأمم المتحدة .

وتحدّث سموه عن أهمية المبادرة الإنسانية الإسلامية لإغاثة الفقير أينما وجد ، وعن الأوضاع البائسة في كثير من المجتمعات الإسلامية ، وحثّ على القيام بمبادرات للتبرع إلى المسلمين في آسيا الوسطى بتأمين الدواء وغيره مما يحتاجونه ، مؤكداً أهمية إحكام الصلة بين المسلم وأخيه دون هاجس أو خوف ، ومشيراً إلى الزيارة التي قام بها أخيراً وفد أردني رفيع المستوى إلى الجمهوريات الإسلامية التي استقلت عن الاتحاد السوفييتي السابق .

وفي ختام كلمته ، شكر سمو الأمير الحسن نائب جلالة الملك وولي العهد لرئيس المجمع وأعضائه جهودهم الخيرة ، ودعا الله أن يوفق الجميع إلى ما يحبه ويرضاه .



ملخص المناقشات



ملخص المناقشات

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي :

تعقيبي هذا موجه إلى بحث الدكتور علي عثمان . يقول في بحثه : إنه على الرغم من تقديره للسنّة فإنه يرى أن يكتفى بطلب الدين كله من القرآن فقط ، وأنا أحب أن أقول إن تجربة تجاوز السنّة باسم التمسك بالقرآن تجربة عرفناها ، وهي تجربة مكشوفة وواضحة . وكلما كان الإنسان أكثر تمسكاً بالقرآن لا بدّ أن يكون أكثر تمسكاً بالسنّة ، وكلما كان الإنسان أكثر إعراضاً عن السنّة كان هذا الإنسان بالطبع والضرورة أكثر إعراضاً عن القرآن .

قال بعد ذلك : إن في القرآن مشكلتين : الأولى أن أحكامه متنافرة غير متناسقة ، والأهم من هذا أن مبادىء الدين وأحكامه لم ترتب حسب الأهمية فالمهم والأهم وغير المهم متمازج في كتاب الله عزوجل .

كيف هذا ؟ إن سلّم المصالح وترتيبها قد قتل بحثاً في أصول الفقه الإسلامي ، وفي الفقه الإسلامي الذي هاجمه هجوماً عنيفاً كما سنرى . وإن عدنا إلى ما قد كتبه علماء الشريعة الإسلامية استنباطاً من القرآن لا من غير القرآن ، لرأينا سلّم المصالح بل المقاصد في الشريعة الإسلامية منسّقاً تنسيقاً عمودياً وتنسيقاً أفقياً بشكل لا نستطيع أن نفصل القول فيه الآن . ويقول في بحثه كانت الأديان السابقة تنكر على الإنسان أنه يملك القدرات الذاتية ، لعل الدكتور علي يريد هنا بكلمة الأديان فهم بعض الأمم للأديان، والاختراعات التي أضافوها إلى الأديان ، أما إذا كان يقصد الأديان السماوية التي تنزلت ، فهي في الواقع دين واحد ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾[1] ، وكل ما نزل على الرسل والأنبياء صنو الذي نزل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نبه الدين الإنسان إلى قدراته وحمّله مسؤولية بناء المجتمع ، أليس هو القائل على لسان سيدنا لوط ﴿ **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾[2] .

(١) الشورى : ١٣ .

(٢) هود : ٦١ .

ويقول الباحث أيضاً إن حديث « إن المرأة خلقت من ضلع » ، من الإسرائيليات ، كيف هذا ؟ أنا سأتجاوز الحديث ، حتى الحديث الصحيح ، ألم تقرأ القرآن : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها** ﴾[1] ، وقال في مكان آخر مبيناً الحيثية ، قال : ﴿ **وجعل منها زوجها ليسكن إليها** ﴾[2] ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الحديث الصحيح في الصحاح : « خلقت المرأة من ضلع » ، فالمرأة كجنس تتمثل في حواء خلقت من الرجل كجنس يتمثل في آدم . وهذا قرار الله سبحانه وتعالى وكلامه . يقول الباحث أيضاً « إن الرسول تمنى أن يؤذن له بمعجزات كالتي جهر بها الأنبياء من قبل ولكن الله لم يستجب له ذلك » . أنت هنا يا أخي تنكر الإسرائيليات ، فما بالك جئت بحديث لم تسمع به قط ، رسول الله تمنى لو أعطى شيئاً من المعجزات ؟ ألا تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحداه المشركون أن يشق له القمر فسأل الله ذلك فشق له القمر . ألم تقرأ في كتاب الله قوله ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾[3] ، ولو اتسع الوقت لأفضت الحديث عن سلسلة من الخوارق أكرم الله بها رسوله ، نعم الخارقة العظمى الباقية هي كتاب الله عزوجل . وفي مكان آخر في البحث قال : « النظم الإسلامية كلها علمانية ، بمعنى أنها لا تمثل مشيئة الله وهي من الاجتهاد البشري » ، إذا صح هذافبوسعنا أن نقول : النظم العالمية كلها تدخل في معنى الفقه الإسلامي ، لئن كان الفقه الإسلامي اجتهاداً بشرياً لا صلة له بمشيئة الله ، إذن قوانين الغرب والشرق التي كانت موجودة بالأمس والقائمة اليوم كلها فقه إسلامي ، ما الذي يفصل فقهاً عن فقه إذن ؟ الاجتهاد موجود في الفقه الإسلامي ، و٣٠٪ من أحكام الشريعة الإسلامية محل اجتهاد ، لكنها اجتهادات تتحرك في ساحة البحث عن حكم الله وعن معنى كلام الله سبحانه وتعالى .

يقول الدكتور عثمان أيضاً في بحثه إن كلمة التسبيح تعني حقيقة الشيء وليست بمعنى التنزيه الذي نعرفه ، فلو كان التسبيح عبارة عن واقع الشيء وكينونته ، إذن ما أيسر بواسطة العلم أن نفقه تسبيحهم . وهنا يقفز إلى ذهني هذيان قرأته في كتاب صدر أخيراً ،

---

(١) النساء : ١ .

(٢) الأعراف : ١٨٩ .

(٣) القمر : ١ .

يقول إن التسبيح في القرآن إنما هو بمعنى التناقضات الكامنة في جوهر الشيء التي تجعله يستمر استمراراً أبدياً . أخشى أن يكون أخي الدكتور قد أخذ هذا الكلام من ذلك الهذيان وأخيراً يقول : لم ينجح المسلمون حتى الآن في ترجمة نظام الدين الذي نزل به القرآن ، والفقهاء صادروا مؤسسات الإسلام المعرفية ، صادروا الإجماع لحسابهم ، وصادروا مفهوم العلوم وضيقوه ، وطغى الفقه على سائر العلوم والمعارف ، أكذلك يا أخي ؟ الفقه الإسلامي احتكر الإجماع لنفسه ؟ ألم تقرأ كلام الفقهاء أن الإجماع على طعام يحرم تناوله يتوقف على قرار الأطباء في ذلك ، أحال الفقهاء بأمانة كل علم إلى أصحابه ، ألم تعلم أنهم اتخذوا من علماء الفلك متكأً لإجماعهم على ما ينبغي أن يعرفوا من مواقيت ؟

الدكتور محمد عمـــــارة :

أنا لدي ملاحظات عابرة على البحث القيم والجيد للأستاذ جلال شوقي . أورد الباحث حديثاً عن العوامل التي هي ضرورية لمجابهة التحدي التكنولوجي مثل ضعف التعليم العام ومشكلة الأميّة والتقصير في الإنفاق على البحث والتطوير وعدم تنمية القدرات الابتكارية والانفجار السكاني ، ويشير الباحث في مكان آخر من البحث إلى أن بعض التجارب التنموية لم تحقّق هذه الشروط كلها ، ومع ذلك تغلبت على التحدي التكنولوجي مثل التجارب الآسيوية ، وهناك إشارة إلـى أن الدول النامية تنفق على التعليم بنسبة تقل عن ٤٪ من إجمالي الناتج القومي ، وأعتقد أنه كان من المفيد الإشارة عند هذه النسبة إلى مقارنة نسبة ال ٤٪ التي تنفق على التعليم بالإنفاق في مجالات أخرى مثل أجهزة القمع وعسكرة الدولة وإنفاق أرقام فلكية على استيراد السلاح في الوقت الذي نصل فيه إلى أرقام فلكية في الصراعات الداخلية ومستويات عليا في التبعية. أورد الباحث في الجدول رقم (٥) نسبة الإنفاق على التعليم إلى إجمالي الناتج القومي . أنا الاحظ أن الأرقام المجردة أحياناً لا تكون ذات دلالة صادقة ، لأنه على سبيل المثال نسبة الإنفاق على التعليم قد تكون دلالات خادعة أو على الأقل غير كافية وحدها في المقارنة . ففي هذا الجدول إنفاق السعودية على التعليم أعلى من إنفاق ألمانيا ، وبالتالي لا توجد دلالة للرقـم . وإنفاق الاتحاد السوفيتي أعلـى من إنفاق اليابان ، وهنا أيضاً

لا دلالة للرقم . وإنفاق كوريا الجنوبية أعلى من إنفاق ألمانيا . إذن قد تكون للنسبة دلالة حقيقية وفاصلة إذا أشير إلى درجة التراكم المعرفي في البلد وإلى نوعية التعليم الذي يتم الإنفاق عليه وعلاقته بتكنولوجيا التنمية ، وأيضاً إلى عدد السكان مقارناً بحجم الناتج القومي .

وفي الجدول رقم (٧) نسبة الإنفاق على البحث العلمي وتوظيفه من أجل التنمية إلى إجمالي الناتج القومي . أيضاً الأرقام وحدها قد لا تكون ذات دلالة صادقة .

ففي هذا الجدول نجد أن بنغلاديش والسودان تنفقان أعلى من باكستان وإيران وأندونيسيا ، ومع ذلك فالثمرات لا تتفق مع هذه النسبة .

ملاحظة أخيرة حول الإنفجار السكاني ، أنا أقول إذا كنا نتفق على أن التنمية القطرية قد ثبت فشلها وإذا كنا نتطلع إلى تنمية على نطاق الوطن العربي في تكامله مع العالم الإسلامي وإذا نظرنا إلى المساحة والإمكانات والسكان هل ثمة حاجة إلى تحديد السكان ؟ إن خريطة العالم العربي إذا قورنت بخريطة الصين تثبت أن الحديث عن موضوع الإنفجار السكاني يحتاج إلى مراجعة ، إن تعداد الأمة الإسلامية مليار وربع المليار ، وهو تعداد الصين نفسه ، والناظر إلى خريطة العالم الإسلامي وإمكاناته مقارنة بخريطة الصين وإمكاناتها لا بدّ أن يعيد النظر في الحديث عن الإنفجار السكاني . هنا الإنسان ثروة لكنها مهدورة ، ومن هنا تأتي ضرورة إعادة النظر في الانفجار السكاني ، خاصة ونحن نعلم أن مصدر هذا الحديث والإنفاق على هذه الجهود هي المؤسسات ذاتها التي تناصب أمتنا ونهضتنا وتنميتنا العداء كلّه .

الدكتور بشار عواد معروف :

عندي تعليق بسيط على ما استمعنا إليه من محاضرة الأستاذ جارودي ، ففي الورقة بعض العبارات التي قد أعزوها إلى الترجمة والتي أرجو منه أن يعيد النظر فيها لتصحّح ، وهذه العبارات سوف لا أعرج عليها ولكن سوف أعرج على ما ورد في موضوع المحاضرة . لقد خلط الأستاذ جارودي لفهمه لبعض نصوص القرآن في معنى الدين الواحد ، وهذه قضية يقع فيها كثير من الناس ، فظن أن الدين الواحد الذي ورد في كثير من الآيات القرآنية الكريمة يعني وحدة الأديان، وهذا أمر غير صحيح لأننا نفهم

كما تفضّل قبل قليل الأستاذ القرضاوي فبين أن اليهودية والمسيحية كانتا أدياناً مؤقتة في زمانها ﴿ إن الدين عندالله الإسلام ﴾(١) ، بمعنى أن الدين عند الله الإسلام هو اليهودية في زمانها والنصرانية في زمانها ، والإسلام هو النسخة الأخيرة التي جاء بها محمد صلوات الله وسلامه عليه لتكون النسخة الأخيرة الخالدة التي لا تغير . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾(٢) . هذا هو المفهوم الذي يجب أن يفهم من معنى إن الدين عند الله الإسلام . وإلا فإن الجميع كما هو معروف من المفسرين والعلماء والفقهاء وعلماء الكلام قالوا بأن الله سبحانه وتعالى بعث المرسلين جميعهم في دين واحد . وهذا لا شك فيه ولكن هذا الدين يكون على مراحل كثيرة ومعروفة فيجب أن يفهم ضمن هذا الإطار .

أما الشريعة فهي أيضاً فيها نوع من الفهم الناقص لها . وأود أن أبين أن الشريعة ليست هي فقط ما جاء في اليهودية وما جاء في النصرانية وما جاء في الأديان السابقة أو أنها ما جاء في القرآن الكريم . فالشريعة عندنا واضحة هي الكتاب والسنّة النبوية الشريفة ، فكل ما جاء في القرآن الكريم وما صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو شريعة لنا . ولا ينبغي لنا أن نهمل السنّة النبوية الشريفة لورود العديد من الآيات القرآنية الكريمة المعروفة التي قرن الله سبحانه وتعالى طاعته بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو بورود الكثير من الآيات الكريمة التي أفرغ فيها وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وأن يحكم في حياة الإنسان فيما شجر بين المسلمين وفيما إلى ذلك . أرجو من السيد المحاضر أن يعيد النظر في هذه الملاحظة .

الدكتور أحمد كمال أبو المجد :

أرجو أن تأذنوا لي بحرية استخدام الكلمات الثلاث ما بين التساؤل والتعقيب ، أنا أطرح تساؤلاً منهجياً على سيرنا كله . نحن هنا جئنا لحساب هذه الأمة الإسلامية ، لنعالج همّاً كبيراً وهو الإنسان ومستقبل الحضارة ، ومكاننا من ذلك كلّه . وأخشى أن ننعطف عن هذا إلى الدخول في مناقشة الأوراق ، لأن المناقشة الجزئية لكل ما ورد في الأوراق قد تنتهي بنا إلى غير شيء ، كأنما هي حلقة في جامعة تناقش أوراق باحثين . الأوراق وسيلة ومدخل لمعالجة القضية الموضوعية التي جئنا من أجلها . ومن هذا المنطلق

---

(١) آل عمران : ١٩ .

(٢) آل عمران : ٨٥ .

لن أعقب على ورقة بعينها ، وإنما التمس من إخوتي المشاركين أن يلاحظوا من مجموع ما سمعنا وما فكرنا هنا ومن قبل أنه في هذه المشكلة يوجد عدد من القضايا المحقّقة التي لا نرى وجهاً للمجادلة فيها ما دامت محقّقة ولا لإطالة الكلام في شأنها بغير نهاية ، وإنما نعتبرها منطلقات أو معطيات من عندها نبدأ .

الأمر الأول : أن العالم يواجه أزمة ذات شقين ، حيث توجد مشاكل البيئة التي كشف عنها التقدم الصناعي والاستهلاك ومشاكل علاقة الناس بالناس على المستوى الداخلي في علاقة الأفراد بالحكومات أو على المستوى الدولي في علاقة الشعوب بالشعوب وفي علاقة الشعوب المفردة بالمنظمات الدولية .

الأمر الثاني : أننا على أبواب حلقة جديدة من ثورات علمية متعاقبة تولّدها ثمرات الثورات السابقة في حركة أُسيّة أو متوالية هندسية ، وإن لذلك أثره الهائل على المشكلتين السابقتين ، وإن الوضع السياسي العالمي يواجه ـ هو الآخر ـ أزمة، فقد سقط نظام وقام نظام، ونحن نعيش في فوضى ما بين النظامين، وثمرات ذلك كله مرة .

الأمر الثالث : أننا نحن المسلمين ـ بعيداً عن المكابرة والادعاء والوهم والأمنية والدفاع ـ نعيش أزمة حقيقية تتمثل في أمور عدة . توجد حيرة في تحديد التصور الإسلامي ، والأمة منشطرة على نفسها في حروب أهلية فكرية وثقافية لا آخر لها ، ولا يعفينا من ذلك أن ننكرها .

الأمر الرابع : أننا توقفنا أو كدنا عن العطاء ، فلم نساهم خلال المئتي سنة الأخيرة في عطاء نافع للبشرية ، وإنما ندور حول أنفسنا ، وبسبب هذين الأمرين تراجعنا في المكان والقوة ، وإن وجود الأمة الإسلامية يزداد تهميشاً يوماً بعد يوم .

الأمر الخامس : قضية مستقبل الحضارة ، هناك أخطار نتيجة ما سلم به من الأزمات ، وأمامنا فرص واحتمالات عن طريق العلاج من الداخل أو عن طريق العلاج بأفكار ووسائل جديدة .

الأمر السادس : وهو مسألة نؤمن بها كمسلمين ، أنه بعيداً عن المفارقة بين الإسلام والمسلمين ، وعن أسباب الأزمة كلها فنحن نعرف بإيماننا وباستقرائنا وبعلمنا أن الإسلام يحمل صيغاً متوازنة لعلاج كثير من المشاكل ، مردها أن الله سبحانه وتعالى يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير . ولذلك تفصيل ليس هنا موضعه .

ولكن المشكلة الكبرى أن العالم - ولنكن واقعيين ولنضع أنفسنا مكان الآخرين - لن يأخذ النصيحة من مغلوب ضعيف ، ومن أمة ليس عندها الآن شيء ، ومن نظر إلى أوضاعنا يكون مجنوناً إذا أخذ منا شيئاً . أما أن نقول له سوف نستطيع تقديم هذا الشيء بعد أن نصلح أوضاعنا ونقويّ شأننا ونكون قادرين على الإصلاح ، فهذا كلام لا يصلح الآن .

لهذا أتصور أن القضية الحقيقية هي أن نكف عن وضع أنفسنا موضع التقابل فوراً، لأن هذه الفورية قاتلة لنا إذا كنا لا نستطيع أن نحل الان محل أحد فلماذا نضع أنفسنا محل المنافس والخصم والبديل الذي يريد أن يزيح الآخر ليحل محله ، بعد أن يصلح حاله هو .

نحن عندنا ثلاث قضايا كبيرة ، الأولى : قضية تصحيح المفاهيم ، وأنا أزعم أن الفكرة السائدة في العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه وقعت فيه وتقع فيه وتمارس فيه أغلاط فكرية كبيرة ، وأن كثيراً من المسلمين شباباً وشيوخاً لم يجيبوا إجابة تستريح إليها العقول والضمائر عما يراد من المسلم في حياته .

القضية الثانية : شروط النهضة ، فالنهضة ليست أمنية ، ونحن لا ننتقل إليها لأن في تراثنا عناصر النهضة ، وإنما ينتقل إلى النهضة بالجهاد ، والجهاد أخذ بالأسباب ، والأسباب جهد رجال ونساء وشبان . فما هي شروط النهضة ؟

هذا أمر تكلم فيه مالك بن نبي وتكلم فيه علماء كثيرون . للنهضة شروط وهي سنن الله ولا نصل إليها أبداً ولو كان القرآن في جيوبنا لأنه ليس بين الله وبين أحد نسباً ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب** ﴾[1] . فالقضية شروط النهضة التي لكل شرط منها نسق فكري وأخلاقي وعملي وتخطيطي ما لم يؤخذ به فلا نهضة .

---

(١) النساء : ١٢٣ .

القضية الثالثة : التواصل مع العالم ، فنحن في مرحلة لا أقول إنها مرحلة استضعاف ، بل هي مرحلة ضعف . ومن كان هذا حاله فلا غنى له عن أن يحافظ على قدر أدنى من علاقة الودّ مع العالم كله حتى يستطيع إذا قوي أن يجد له سنداً هنا ونصيراً هناك ومستمعاً هنا ومستجيباً هناك . أما أن نقطع العلاقات من الآن ونقذف الناس بالحجارة ثم نقول لهم بعد كل حجر يسقط على رؤوسهم نحن أولى منكم وسنحل مكانكم ، فأظن أن هذا يعظم ويجذّر إحساسهم بالخطر منا ويدفعهم إلى السعي لتصفيتنا في وقت نحن فيه أضعف ما يكون .

هذه القضايا الثلاث : تصحيح المفاهيم وشروط النهضة وتحديد علاقتنا مع العالم وتصحيحها يجب أن تعالج ، وكما يقال إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية . وإذا ابتعدنا عن مسيرة التاريخ أكلنا أكلاً يسيراً هيناً . هذه مداخل التمس من عرضها أن تكون موضعاً لتعقيبات متعاقبة ، فهي التي تقدمنا على طريق بحث موضوع الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية .

الدكتور عمر جاه :

أود بادىء ذي بدء أن أتقدم بكلمة شكر لصاحب الجلالة الملك الحسين بن طلال ولصاحب السمو الملكي الأمير الحسن على إقامة هذه المؤسسة الإسلامية ؛ المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) التي تتيح لنا فرصة اللقاء سنوياً لنتبادل الآراء فيما يعني وجودنا الفكري والثقافي والحضاري . وليس من طريق الصدفة أن تحمل هذه المؤسسة اسم آل البيت ، ونحن نستبشر خيراً بآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يقول الشاعر :

يا آل بيت رسول الله حبكم ... أمر من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم القدر أنكم ... من لم يصل عليكم لا صلاة له

أما القضية المطروحة وهي قضية الفكر والحضارة والثقافة فهي قضية خطيرة لأنها تمثل التحدي لوجودنا الحضاري والفكري والثقافي والعلمي . وقد أغناني كثير من الإخوة الذين تحدثوا عن هذه القضية منهم الأستاذ جارودي والأستاذ الدجاني والأستاذ أبو المجد والشيخ القرضاوي ، ولكن القضية ـ كما أراها ـ تتعلق بموقف الإنسان من عمله في هذا الكون . ومن المعروف أن قضية الحضارة والثقافة والفكر قد تتعلق بموقف الإنسان من ربه وبموقف الإنسان من المحيط الذي يعيش فيه وينبغي أن يكون تركيزنا منصباً على المنطلق الإيماني التوحيدي الذي حدّد موقف الإنسان المسلم من تصرفاته تجاه الكون ، وتجاه أخيه الإنسان ، وتجاه القائم بأمور الدولة . فالحضارة الغربية التي يدور الحديث عنها هي حضارة مادية لا تعترف بأنه يوجد خالق يدبر الكون ، وأن هذا الكون هو الذي يوجه الإنسان في تصرفاته ، ويجب علينا نحن المسلمين أن نأخذ في اعتبارنا أن القضية التي تواجهنا هي قضية التحدي ، وهذه القضية خطيرة لأن القوى التي تتحكم في العالم الآن هي قوى مادية لا تؤمن بالقيم وإنما تؤمن بالقوة . وقد أعجبني تعبير الأستاذ جارودي عندما قال « دين جديد » يأخذ به من يقومون بتدبير هذه الحضارة الغربية المادية . والاتجاه المادي والانغماس في الكسب المادي سواء كان شرعياً أم غير شرعي . فينبغي علينا أن نفكر وأنا أوافق الأستاذ أبو المجد على أن القضية الآن هي قضية أين المسير وما الذي نستطيع تقديمه وتحقيقه لإنقاذ الموقف . فالمسألة ليست مسألة ماذا يحدث بل ما هو موقفنا من الذي سيحدث ؟ وما هو الدور المتوقع منا الآن ؟ وأعتقد أن المسألة في منتهى الخطورة ، وينبغي أن نعود إلى الله سبحانه وتعالى لأن القضية قضية النفس . والمادية التي نشير إليها هي عبادة النفس وعبادة المصالح ، والقرآن الكريم يحذرنا من هذا ، ويحدد الموقف السليم من اتجاه الإنسان للتوحيد حينما يقول : ﴿ **ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها** ﴾[1] .

فالعودة إلى الله سبحانه وتعالى ليس بالأمر السهل لأنه يحتاج إلى محاربة النفس وتطهير القلب وتوجيه الفكر لخدمة الهدف الأساسي الذي خلقنا من أجله . فالله سبحانه وتعالى يقول ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[2] . وهـذه العبادة

---

(١) الشمس : ٧ ـ ١٠ .

(٢) الذاريات : ٥٦ .

ينبغي أن تكون لله سبحانه وتعالى أولاً وخدمة خلقه بتجنب الفساد الذي وصل إليه الفكر الإنساني . وأعتقد أنه يجب أن يكون تركيزنا منصباً على محاولة الوصول إلى مبادىء أساسية نستخرج منها حلولاً نستطيع أن نحمي بها أنفسنا ، لأن الله سبحانه وتعالى عندما يقول ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[1] إنما يشير إلى العمل الصالح . فالمسلم مطلوب منه أن يفكر تفكيراً سليماً ويعمل عملاً صالحاً لأجل الإنسانية لا لأجل فرد أو فئة بعينها ، لأن الإسلام - كما تفضل أستاذنا القرضاوي - هو الدين الوحيد الذي يهدف إلى خدمة البشرية ، فهو دين إلهي سماوي عالمي ليس محدداً بزمان أو مكان . فالقضية المطروحة أمامنا هي من أخطر القضايا التي يواجهها الإنسان ، قضية تحديد المفاهيم والعمل عملاً صالحاً لإنقاذ البشرية ليس فقط لإنقاذ الإنسان المسلم ، لأن المسلم جزء من البشرية ، فإذا كانت البشرية في أمن وسلام كان المسلم في أمن وسلام وهذا لا يتأتى إلا بالعودة إلى الله سبحانه وتعالى والعمل بموجب الشريعة بمنطلق فكري سليم .

الأستاذ كامل الشريف :

الحقيقة أنه توجد قضايا كثيرة أثيرت في هذه الأبحاث ويصعب تناولها ، وكنت أرى أنه لا بدّ من استكمال الأسلوب أو الإجراء . فما يعرض من القضايا يجب أن يأخذ حظه من البحث والمناقشة .

وأنا عندي نقطتان ، الأولى : هي ما نلاحظه من أن الأفكار البشرية والأيديولوجيات حينما تفشل وتهزم فإنه يزول كل أثر لها ، بينما نرى في الأديان - وفي الإسلام بشكل خاص - أن مظاهر الحضارة أو مؤسساتها قد تنسف فعلاً ، ولكن الجذر الإسلامي يبقى موجوداً ويثمر مرة أخرى بعد ذلك ، ويوجد من الشواهد الكثير . وما نشاهده الآن من صحوة إسلامية هو دليل على صدق هذا القول . لذلك هل يمكن أن نتفق على نقطة - على الأقل - في مجتمعاتنا ومع حكوماتنا أن أي إعادة وأي صياغة للحضارة الإسلامية التي يراد منها أن تسهم في الحضارة الإنسانية ، يجب أن تنطلق من الجذر الحي للإسلام الذي ثبتت صلاحيته واستمراره رغم الهجمات المستمرة

---

(١) الرعد : ١١ .

التي وقعت عليه ، ذلك أننا نسمع أحياناً من يقول إنه لا بدّ من أن نعيد البناء على أسس جديدة بعيدة عن الأساس الذي يوصف بأنه قديم ، وبهذا أعتقد أننا نبني على سراب أو على رمال متحركة ، وهي لا بدّ أن تنتهي في المآل إلى التدمير ، فربما لو اتفقنا على هذه النقطة أن صياغة الحضارة الجديدة وإسهامنا في الحضارة العالمية ينبغي أن ينطلق من الجذر الإسلامي الحي . هذه نقطة أردت أن أبينها لعلها تكون إحدى الأمور التي يتفق عليها بيننا وبين غيرنا الذين لا تنقصهم النية الحسنة في نهضة العالم العربي والإسلامي .

النقطة الأخرى ، وهي مصاحبة لهذه ، فنحن نتكلم عن العلمانية في الغرب ونبيّن سيئاتها ، وهذا طبعاً صحيح . ونتكلم عن الأسباب التي أدت إليها حين وقف الدين معوقاً للحضارة ، وحين وقفت الكهنوتية ، وحين وقفت الخرافات لتعطل النمو والتقدم الإنساني ، حين ذاك أصبحت العلمانية هي الملاذ له . وأنا أخشى أن يكون هذا المخاض قد أصبح موجوداً في بلادنا . ومن أسباب وجوده - ويجب أن نعترف بهذا - ربما عائد إلى تطوير الفهم للفقه ولا أقول الفقه نفسه ، تطوير الفهم للشريعة لا يزال ناقصاً ولا تزال تنقصه الجرأة وينقصه الإقدام وتنقصه معالجة المشكلات معالجة جذرية . يجب أن لا ننسى أن تطور الفقه تعطل لقرون طويلة بسبب الاستعمار الأجنبي وبسبب العوامل الأخرى . هذه الفجوة لكي نتجاوزها لا بدّ من عمل جريء وحازم يتعلق بقضايا كثيرة . لذلك نحن عندنا تصور بأن المخاض الذي ولدت فيه العلمانية في الغرب أصبح موجوداً في بلادنا . وما نشاهده الآن من صراع في المنطقة قد يردّ إلى هذا . وهذه بعض عوامل الصراع وليس مسبباته كلها . نريد أن نمضي في علاقات دولية وفي نظام دولي جديد وفي تطوير المجتمعات ، بجوار ذلك لدينا بعض المدارس الفقهية التي تعطل أشياء كثيرة منه، حينذاك يصبح المناخ مهيأ لذلك . وأعتقد أن بياننا الحضاري يجب أن ينطلق من الإسلام مع القبول بالأفكار المختلفة ، وينبغي أن يقع اتفاق على ضرورة تطوير الفهم للفكر الإسلامي والشريعة الإسلامية بحيث نواجه حقيقة لا كلاماً الواقع الذي سنعيشه في المستقبل .

الدكتور أبو الحسن صادق

في البداية أحب أن أقدم تهنئتي للأستاذ جلال شوقي على تقديمه لهذه الورقة القيمة بعنوان « أدوات التنمية في ظل التحدي التكنولوجي » لقد تناول صاحب المقال موضوعه في أربعة جوانب :

١ ـ الانفتاح التكنولوجي .

٢ ـ قسمات التحدي التكنولوجي .

٣ ـ معوقات التنمية التكنولوجية .

٤ ـ إمكانيات الوطن العربي .

تركز معظم الورقة على إعطاء التفاصيل التاريخية للتكنولوجيا وعلى إعطاء احصائيات عن الإنجازات التكنولوجية في مختلف أنحاء البلاد الإسلامية وبلاد أخرى ووضح المؤلف خلال حديثه ، أن الأمة المسلمة متخلفة في المجال التكنولوجي وذلك لأربعة أسباب . أعتقد أن هذه المعوقات الأربعة هي الأفكار الرئيسية للورقة وتتلخص هذه الأفكار فيما يلي :

١ ـ ضعف التعليم العام ومشكلة الأمية .

٢ ـ قصور الإنفاق على البحث والتطوير .

٣ ـ عدم تنمية القدرات الابتكارية .

٤ ـ الإنفجار السكاني .

أريد أن أقدم بعض التعليقات على هذه الأمور ، وسأحاول أن أضيف بعض النقاط بالنسبة لهذا الموضوع :

الأولى : بالنسبة لضعف التعليم العام ومشكلة الأمّية ، إن الإنفاق على التعليم بالمقارنة إلى إجمالي الناتج القومي قليل في البلاد الإسلامية وهو حوالي ٤٪ ، وذلك يؤدي إلى تفاقم مشكلة الأمّية التي تعتبر عقبة رئيسية في التنمية التكنولوجية ، كما ذكره المؤلف في الورقة ولكنه لم يشرح أن هذه العقبة هل تتعلق بالابتكار والاختراع أو بالتطوير والتوفيق فحسب .؟

إنني أرى أن ضعف التعليم العام ومشكلة الأمّيّة لا يشكلان عقبة حقيقية في الابتكار والاختراع لأن الابتكار والاختراع ليسا من شأن عامة المتعلمين وإنما من عمل المتخصصين في ذلك الفن ، فعلينا أن نرى هل يتوافر عندنا هذا النوع الخاص من التعليم فيمكن أن يكون ضعف التعليم العام مشكلة في التطوير والتوفيق ولكنه لا يعتبر عقبة حقيقية فيه .

يصعب علينا أن نتصور وضعاً ما تتوافر فيه الحالات الملائمة جميعها إلا أنه يفشل لقلة نسبة المتعلمين ، لأن هذه المشكلة يمكننا أن نتغلب عليها عن طريق تدريب الناس أثناء الخدمة .

الثانية : بالنسبة لقصور الإنفاق على البحث والتطوير ، نقول إنه لا شك السبب الحقيقي في كون التقدم التكنولوجي محدوداً في البلاد الإسلامية ، ولكن يجب علينا أن نتبين هل هذا القصور في القطاع العام أو في القطاع الخاص ، إن قدرات القطاع الخاص محدودة جداً في الإنفاق على البحث والتطوير لصغر حجمها وقلة إمكانيتها لأن حجم السوق في الدول النامية لا يسمح لمؤسسات القطاع الخاص بالإنفاق في مثل هذا المجال ، ولا يشجعها على أن تتحمل خطراً مثل الإنفاق على البحث والتطوير . وكذلك حال القطاع العام . لديه أيضاً قدرة محدودة على الإنفاق في هذا المجال الذي ينفقه فعلاً لا يكون في ضوء برنامج منتظم ومن هنا لا يعطي ثماره المطلوبة كما نرى أن القطاع العام في كثير من الدول النامية يفشل في كثير من الأحيان في تحديد المجالات التي تستحق الأولية والأسبقية للإنفاق على البحث والتطوير . مثلاً نرى أن بعض أفقر الدول في العالم تميل إلى الإنفاق على الطاقة النووية مع أنها تفقد حتى التسهيلات الأساسية في التكنولوجيا .

الثالثة : بالنسبة لعدم تنمية القدرات الابتكارية ، أتردد في قبول ما يراه صاحب المقال من أنه يشكل عقبة أمام التقدم التكنولوجي في الدول النامية لأنه توجد فيها العقول الممتازة التي تمتلك القدرة الابتكارية ما يكفي لأن يلعب دوراً هاماً في التقدم التكنولوجي للبلاد فالمشكلة الرئيسية لا تكمن في فقد العقول القادرة المبتكرة بل المشكلة الحقيقية تكمن في فرار تلك العقول من بلادها إلى الدولة المتقدّمة نتيجة لقلة الفرص لتطبيق القدرات والمعلومات في بلادهم .

فالمشكلة ليست في جانب التوفير لكنها في جانب الطلب .

الرابعة : الإنفجار السكاني .

لا شك أن الإنفجار السكاني يعتبر مشكلة حقيقية في الدول النامية وله تأثير سلبي في اقتصاد البلاد والتقدم التكنولوجي على السواء فكان المؤلف مصيباً جداً في تحديد هذه المشكلة ولكن هذه المشكلة في حقيقة الأمر هي مشكلة غير مباشرة لا يمكن إنكارها . وأودّ في هذه الفرصة أن أبدي تعليقاً عاماً بالنسبة لهذه المعوقات الأربعة المذكورة في البحث .

إن المؤلف قد أعطى أهمية كبيرة لجانب العرض كمشكلة رئيسية ولكنها ليست مشكلة بهذه النسبة التي يراها صاحب المقال ، بل المشكلة الرئيسية عندي في جانب الطلب . لو وجد الطلب للتكنولوجيا فلا بدّ أن يتفجر ذلك سواء كان من الداخل أم من الخارج . في الحقيقة إذا وجد طلب جدي للتكنولوجيا يكون توفيره مضموناً ، وتحديد هذا الطلب يتوقف على أوضاع اجتماعية واقتصادية أخرى حلها ليس بسهل .

فمع هذه التعليقات أود أن أطرح هنا ثلاث قضايا هامة تتعلق بالتحدي التقني للأمة الإسلامية .

أولاها : طبيعة التكنولوجيا : التكنولوجيا المناسبة ، ماذا نعني بالتكنولوجيا ؟ علينا أن نضع في الاعتبار دائماً أن التكنولوجيا المخترعة والمتطورة في إطار الدول المتقدمة قد لا تكون صالحة لأغراضنا . وكذلك التكنولوجيا التي تم تطويرها على أيدي الخبراء على أساس خبراتهم الغربية أيضاً قد لا تكون ملائمة للدول النامية .

فنقول إن وجود التكنولوجيا ليس بكافٍ بل الدول النامية في حاجة إلى التكنولوجيا التي تتلاءم مع احتياجاتها ومواردها ومواهبها ، التكنولوجيا التي تعتمد على رأس المال المكثف لا تناسب البلاد التي تتوافر فيها الأيدي العاملة ، فهذا النوع من البلاد في حاجة إلى التكنولوجيا التي تعتمد على كثافة العمال ، فمثلاً لا يصلح استيراد التكنولوجيا المتعلقة بانتاج السيارات للبلاد التي لا تقدر على بيع الدراجة ، فمن الضروري أن يكون استيراد التكنولوجيا على قدر حاجة البلاد إليها ، ويتّبع المبدأ نفسه عند القيام بعمل الاختراع والاكتشاف .

الثانية : توفير التكنولوجيا :

مع أن الدول النامية في حاجة شديدة إلى الإنفاق على البحوث والتطوير ، لكنها تعجز عنه إلى حد كبير ومؤسسات القطاع الخاص غير قادرة عليه لصغر حجمها ومحدودية قدرتها على التمويل ، وأما القطاع العام فلديه أمور أخرى وهي التي يشرف عليها لحاجة مفضلة ، ومن هنا ينبغي أن يعطي تركيزاً أكثر إلى مهنة التعليم والبحث الجامعي ، فالتعليم الجامعي في مجال العلوم والهندسة لا بدّ أن يوفر تسهيلات للبحث وبرامج تشجيعية للتكنولوجيا المناسبة لطبيعة البلاد .

الثالثة : التأييد الرسمي للتطويع والتوفيق :

إن اختراع التكنولوجيا المناسبة لا يعني شيئاً إذا لم يطبق ويستخدم فعلاً بالتأييد الرسمي وبالتمويل للانتاج والتسويق بعد الانتاج ، وبجانب التمويل ينبغي حماية أصحاب الصناعات من أخطار التوفيق عن طريق تمويل مبرمج ، وأريد أن أوضح هذا بمثال، لقد استطاع أساتذة الجامعة الهندسية والتقنية في بنغلاديش القيام باختراعات متنوعة في مجال التكنولوجيا بما يتناسب مع طبيعة البلاد ، ولكن لا يمكن تطبيق إلا القدر القليل منها لفقد التأييد الرسمي للمنتجين والمطبقين لهذه الاختراعات ، ومن ناحية أخرى اكتشفت مؤخراً دراجة آلية ذات ثلاث عجلات ، واستطاع الشعب أن يستفيد من هذا الاختراع بفضل دعم البنك الإسلامي لهذا المشروع .

خلاصة القول : أن مجال التكنولوجيا تحدٍ كبير بالنسبة للبلاد الإسلامية ويجب علينا أن نفعل شيئاً في هذا المجال ، ولكننا إذا بدأنا في التقليد الأعمى للتكنولوجيا الغربية المتقدمة دون أن نراعي مواهبنا وحاجاتنا لن نستطيع أن نتقدم كثيراً ، فعلينا أن نفكر في الجانب العملي ولا نكون عاطفيين .

إن الجانب الاقتصادي هو أحد العوامل الهامة في صقل الحضارة . وهو سبب ومسبب في حضارتنا . لقد خاض العالم تجارب في الرأسمالية . فهي ترتكز على المصلحة الذاتية ، وحرية العمل على ضوء ظاهرة البقاء للأقوى . وهذا النظام الاقتصادي يجعل من بعض الناس أسياداً ومن الآخرين عبيداً لهم .

كانت البشرية في حاجة إلى عملية إنقاذ لهذه المعاناة ، وقد حاول كارل ماركس ولينين أن يفعلا ذلك . لكنهما فشلا في إنقاذ البشرية من المعاناة ، وبالمقابل قدّما نظاماً يعتبر هروباً من الشمس الحارة إلى النار ، أو من مرض إلى داء أكثر خطورة ، وكما يعلم الجميع فإن هذا النظام هو الاشتراكية التي زادت من معاناة البشرية بدلاً من تخفيفها. ولا يمكن للنظام الاشتراكي أن يدوم طويلاً لأنه حوّل الإنسانية إلى اللا إنسانية. لذلك شهد العالم انهيار الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي وفي أوروبا .

وماذا سيحدث بعد ؟ هل تعود البشرية إلى الرأسمالية ؟ اعتقد أن ذلك سيكون تقهقراً خطيراً .

وهنا أودّ أن أؤكد أن على الأمة الإسلامية أن تقدم الاقتصاد الإسلامي إلى البشرية حيث إن هذا هو الوقت المناسب لتقديم القيم الاقتصادية الإسلامية إلى العالم المعذب الذي هو بحاجة إلى نظام اقتصادي . وإذا لم نستطع أن نفعل ذلك فإن العالم ، وخاصة العالم الإسلامي ، سيبقى عبداً تابعاً للغرب من الناحية الاقتصادية والفكرية ، ولن ننجح في إحياء الحضارة الإسلامية دون العناية بالجانب الاقتصادي لمشاكل البشرية . أرجو من العلماء المسلمين وعلماء الاقتصاد أن يولوا هذا الموضوع عناية خاصة .

لدي ملاحظة على بحث الدكتور سيّد حسين نصر وأخرى على بحث الدكتور جاويد إقبال .

أما بخصوص بحث الدكتور سيّد حسين نصر ، فقد عالج في بحثه مستقبل الحضارة في العالم الإسلامي وليس مستقبل حضارة الإنسان بشكل عام . وقد ذكر أن بعض المسلمين العصريين بدأوا يفقدون الثقة بالمؤسسات والحضارة الإسلامية بسبب سيطرة الغرب على العالم . وذكر أنه لا بدّ من حل هذه المشكلة ، ولا بدّ للحضارة الإسلامية من أن ترتكز على مفهوم الإنسان المسلم ، وفي هذا السياق نادى بالجهاد للحفاظ على الإسلام والحضارة الإسلامية .

لكن السؤال هو : كيف يمكن القيام بهذا الجهاد ؟ وما هو منهجه ؟ حيث إن الدكتور نصر لم يطرح هذا السؤال . وفي رأيي أن أحد أسلحة الجهاد الفاعلة هو تنمية الفكر الإسلامي . ويجب أن تعالج القضايا المعاصرة من وجهة نظر إسلامية . نحن بحاجة إلى إيجاد حلول مقبولة وعملية لمشكلات البشرية ، وأن نعمل على أسلمة المعرفة. فإذا تحقق ذلك نكون قد حافظنا على الشباب والثقة بالمؤسسات والحضارة الإسلامية ، وننقل بذلك الحضارة الإسلامية إلى العالم وليس في العالم الإسلامي فقط .

أما بخصوص بحث الدكتور جاويد إقبال ، فهو يقول إن الناس الذين يدينون بدين واحد يجب أن يحترموا ديانات الآخرين ومعتقداتهم كي يسود عالم أفضل ، وهذه بالضبط هي الروح الإسلامية . وفي هذا السياق يقول « كل دين ينطوي على الحقيقة المطلقة على أعلى مستوى » ، وقد يساء تفسير هذه العبارة إن لم توضّح .

يجب أن نفرق بين التسامح مع الأديان الأخـرى ، والاعتراف بالأديان الأخرى بـ « الحقيقة المطلقة » حتى لو كانت على أعلى المستويات . لا يمكن أن تنطوي الأديان كلها على الحقيقة المطلقة بما أنها تنطوي على نماذج تتصارع مع بعضها بعضاً . فإذا كان النموذج التوحيدي في الإسلام ينطوي على الحقيقة المطلقة كلها فهو بالتالي يدحض النموذج القائم على الثالوث . قال تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[1] ، وهذا يعني أن الإسلام هو الدين الصحيح ، والتسامح مع الأديان الأخرى مطلوب .

الدكتور يوسف القرضاوي :

ما ذكره الأخ الأستاذ أبو المجد من أنه ينبغي الاهتمام بالنظرة الكليّة لموضوع هذا المؤتمر ، هذا صحيح ، ولكن هذا لا يعني أن نهمل بعض القضايا الجزئية المهمة في الورقات المقدمة ، لأن الذي يقدم ورقته أولاً يريد من إخوته أن يصححوه أو يكملوه ، وهذا ما أرجوه أنا في ورقتي ، وأظن أن كل من قدم ورقة يريد أن يصحح وأن يكمل وأن يستدرك عليه . ولا يوجد أحد أكبر من أن ينصح . أو أصغر من أن ينصح . لهذا فإنني أرى أنه مع وجود النظرة الكلية لا بد أيضاً من بعض الاستدراكات والتنبيهات

---

(١) آل عمران : ١٩ .

الجزئية . ولهذا فإن لي بعض الاستدراكات أو التنبيهات على ما قيل في الأمس وما قيل هذا الصباح . فالبنسبة لورقة الدكتور علي عثمان التي لم أقرأها بعد ولكن من خلال ما سمعته منه أثناء إلقاء كلمته ، فقد اعتبر القرآن المكي مرجعاً للقرآن المدني . وأنا أرى أن القرآن الكريم كله مرجع ولا يفرق فيه بين مدني ومكي . فيجب أن يؤخذ القرآن بكليته ويفسر بعضه ببعض فالقرآن المدني هو الذي جاء آخراً وفسّر كثيراً من الأحكام . والقرآن يصدق بعضه بعضا ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾[1] والقرآن نفسه يبين أن ﴿ **منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات** ﴾[2] فينبغي أن ترد المتشابهات إلى المحكمات سواء كانت في القرآن المكي أو في القرآن المدني . والدكتور علي نفسه استشهد بكثير من القرآن المدني مثل ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾[3] و ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة** ﴾[4] هذا كله قرآن مدني . وآيات التسبيح كلها مدنية ، فينبغي أن يؤخذ القرآن بكليته مدنياً كان أو مكيّاً . ولعل الباحث يعلم أنه ظهر شخص في السودان في وقت ما زعم أن العبرة في القرآن المكي ولا عبرة في القرآن المدني . ويجب علينا الحذر من هذه الاطلاقات وأن تقيد تقييداً يزيل عنها اللبس وسوء الفهم .

بالنسبة للدكتور فهمي جدعان ، كنت أريد أن أسأله ـ لو كان موجوداً هنا ـ ماذا قصد عندما أثار قضية الأصالة والمعاصرة حيث جعل الذين يدعون إلى الأصالة والذين يدعون إلى المعاصرة معاً . فالذين يدعون إلى إعادة قراءة التراث من جديد إعادة موظفة أو بنيوية أو معرفية أو اجتماعية أي الذين يؤدلجون التراث بمعنى يجعلونه يخدم أيديولوجية معينة، فهؤلاء ليسوا دعاة أصالة ومعاصرة بل هم مستغربون متغربون يريدون أن يستخدموا التراث من أجل خدمة فكرتهم .

---

(١) النساء : ٨٢ .
(٢) آل عمران : ٧ .
(٣) البقرة : ٢٥٦ .
(٤) النساء : ١ .

بالنسبة للأستاذ عبدالله باه : كلمته جيدة ولغته جميلة ولكنه استشهد بأحاديث لا أصل لها مثل قوله : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . فهذا من كلام الصحابة وقد نسبوه إلى الإمام علي بن ابي طالب كرّم الله وجهه مرة ومرة أخرى إلى عمرو بن العاص . المعنى صحيح ولكن لا داعي أن ننسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ما لم يقله . وكذلك ذكر « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » و « اطلبوا العلم ولو في الصين » هذه كلها لا أصل لها في الأحاديث المرفوعة وإن كان معناها صحيحاً . ويغني عنها ما هو ثابت بيقين من الأحاديث ومن القرآن الكريم .

وبالنسبة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي : لقد أوّل حديث « حتى تطلع الشمس من مغربها » بأنه قد يعني أن يطلع الإسلام من الغرب . بينما الحديث من علامات الساعة الكبرى حينما يقفل باب التوبة ولا يكون للحياة معنى ﴿ **يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً** ﴾[1] ومن الأحاديث الصحاح « إن الله يبسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » . أي بمعنى حدوث انقلاب في النظام الكوني . وبالتالي لا ينفع إيمان من جديد ولا توبة من جديد . كما أن لي عتباً عليه في مسألة تسليط الحكام على الإسلاميين وتسليط الإسلاميين على الحكام . فالواقع أن الإسلاميين هم الذين يسلط عليهم دائماً ، وإذا نظرنا في الأعم الأغلب هم الضحايا ، فكلمته شديدة في هذه الناحية فأرجو أن يراجعها .

الدكتور علـــي عثمان :

لا أريد أن أعقب على ما قيل عن ورقتي بالأمس ، لأنه توجد قضايا أهم من ذلك، وما قيل عن هذه الورقة لا يستحق التعليق لأنها لم تفهم كما يجب أن تفهم .

أريد أن أسأل العلماء الأفاضل بعض الأسئلة الأساسية التي سيتعلق مصيرنا عليها : أنا أرى أن وجود الدولة القطرية في البلاد العربية وبقاءها هو المدخل الأساسي للتحكم الأمريكي اليهودي بالأمة العربية ، وأن وجود هذه الدولة هو العقبة الكبرى في وجه الوحدة العربية ، وهو العقبة الكبرى التي من خلالها يتم تسخير ثروات البلاد العربية .

---

(١) الأنعام : ١٥٨ .

ولذلك أريد أن أسأل العلماء الأفاضل : هل يجوز لدولة إسلامية أن تميز بين مسلم وآخر باسم المواطنة ؟ وهل هذا مواطن وهذا مسلم غير مواطن وهذا أجنبي ؟ هل للمسلم في بلد إسلامية ما للمسلمين جميعهم في تلك البلد وعليه ما عليهم جميعاً أو أنه أجنبي باسم المواطنة ؟ هل يجوز لدولة إسلامية أن تمنع مسلماً من دخول أراضيها والإقامة فيها والعمل كأي مسلم مواطن آخر ؟ هل يجوز لدولة إسلامية أن تستقل عن سائر البلاد العربية باسم السيادة الوطنية التي استوردناها من المفاهيم الغربية ؟

هذه أسئلة يجب أن لا نسكت عنها ، وعلى علمائنا أن ينشروها بين الشعوب العربية ، لأنني أرى أنه لا إمكانية لتضامن أو وحدة عربية بين الحكومات لأن مصالح أهل هذه الحكومات سوف تحول دون هذه الوحدة ، فيجب علينا أن نخاطب الشعوب ولا نخاطب الحكومات .

وتوجد قضية أخرى تتعلق بنظام التعليم السائد في البلاد العربية ذلك النظام الذي ورثناه من العهد الاستعماري . فهذا النظام يضع الدين موضوعاً مدرسياً إلى جانب مواضيع دراسية تساويه ويساويها . فهل يقتصر الدين على ما هو موجود في كتب هذا النظام التعليمي ؟ أو أنه يشمل - ويجب أن يشمل - العلوم الطبيعية والرياضيات والكيمياء وعلوم الأحياء وغيرها التي تكشف عن آيات الله في خلقه والتي هي سبيل الإنسان إلى معرفة الله ؟ هل نسكت عن نظام التعليم المتوارث أو يجب أن نغير هذا النظام ليكون الدين هو الإطار الكلي لميادين العلوم والمعرفة جميعها . هذه أسئلة أوجهها إلى علمائنا الأفاضل ، لاننا في الاجابة عليها نستطيع أن نتحرك نحو حضارة إسلامية إن شاء الله .

الأستاذ روجيه جارودي :

أودّ أن أجيب عن سؤالين بخصوص البحث الذي قدمته . قال أحد الإخوة بأنني قلت أن الإسلام هو وحدة الأديان ، وفسره على أنه خلط للمفاهيم ، وأودّ أن أوضح أنني لم أقل ذلك ، بل على العكس ، قلت إن الإسلام وهو الاستسلام لله سبحانه وتعالى وهو الدين الأول والأخير منذ أن نفخ الله الروح في الإنسان ، وهو لم يبدأ منذ نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد ، لقد ولد سيدنا إبراهيم قبل نزول الإسلام بقرون ،

قال تعالى ﴿ **ملة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل** ﴾[1] إن سيدنا إبراهيم لم يكن يهوديــاً ولا نصرانياً . أما بخصوص السؤال الثاني حــول الشريعة ، فيقول تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه** ﴾[2] ، فإنه واضح أن ذلك قانون إلهي منزل من عند الله سبحانه وتعالى ، لكن التطبيق يعتمد على الإنسان في كل زمان ومجتمع ، والتشريعات الواردة في القرآن الكريم هي نوع من التطبيق . وأعطي مثلاً على ذلك أن نبياً عاش في زمن فيه عبودية ، فتطبيق الشريعة في هذه الحالة يتطلب أن نضفي صفة الإنسانية كما في قوله تعالى ﴿ **ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم** ﴾[3] .

ومثال آخر : يقول تعالى ﴿ **إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أُجورهن وما ملكت يمينك** ﴾[4] ، وهذا الأمر يرتبط بزمن لا ينطبق على وقتنا الحاضر ، وأنا لم أقل سوى ذلك . وفي زمننا الحاضر ، وهو زمن الجاهلية الجديدة ، لا بدّ أن نبين أن الإسلام يصلح أن يكون روحاً لنظام عالمي جديد ، ومن الضروري ألا نحاول أن نفرض باسم الشريعة تشريعات تعود إلى القرن السابع أو العاشر أو السادس عشر . ففي القرآن الكريم لا يوجد سوى مئتي آية تتحدث عن حلول لمشكلات قانونية من أصل ستة آلاف آية ، فإننا إذا خلطنا في مفهوم الشريعة بين التوجه الديني والأخلاقي نحو قيمة مطلقة وبين مجموعة القوانين الخاصة بكل مجتمع في حقبة تاريخية معينة ، فهذا الأمر يشكل تهويداً للإسلام ويوصلنا من خلال التفسير الحرفي للقرآن ، إلى إعطاء صورة تتعارض كلياً مع التحديد الواضح للشريعة .

الدكتور جــلال شوقــي :

أودّ أن أعقب في البداية على كلمة الدكتور أبو الحسن صادق :

١ ـ التقدمة التاريخية التي أوردناها قصد بها بيان التسارع الرهيب في التقدم التكنولوجي ، الأمر الذي يلقي على الدول النامية أعباء جدّ ثقيلة في مواجهة التحدي التكنولوجي .

---

(١) الحج : ٧٨ .
(٢) الشورى : ١٣ .
(٣) البقرة : ٢٢١ .
(٤) الأحزاب : ٥٠ .

٢ ـ يمثل **ضعف التعليم العام** مشكلة أساسية ، إذ إن الزيادة المعرفية تتنامى بمعدل أسّي ، بحيث يتضاعف حجم المعارف كل ٤ إلى ٨ سنوات تقريباً ، وبالتالي فإن لم يتواكب مستوى التعليم مع الانفجار المعرفي فلا أمل في صلاحية نقطة البداية .

٣ ـ مشكلة الأميّة هي مشكلة قومية تنعكس بلا شك على المستوى المعرفي ، ومعنى وجود أميّة أنه ما زال يوجد جهد يعمل تحت الصفر .

٤ ـ إن تنمية القدرات الإبداعية والابتكارية قد يمكن ممارستها لعدد مميّز من البشر (دون تأثر بوجود نقائص كالأميّة مثلاً) ، ولا يفرز مثل هذا المنحى سوى بعض نجاحات فردية ، ولن يكون بديلاً بحال عن الارتقاء بالتعليم العام .

٥ ـ عندما نتكلم عن التكنولوجيا نقصد التكنولوجيا بصورها العامة ، وليس في إقليم بعينه .

٦ ـ من البديهي أن التكنولوجيات المستوردة تمثل التكنولوجيات المطلوبة فحسب ، ولا يعقل أن نسعى لاكتساب تكنولوجيات عصر الفضاء في مجتمعات تنقصها وسائل الاتصال العادية .

٧ ـ الإنفاق على التعليم ، كذلك على البحث العلمي والتطوير يقع في المقام الأول على كاهل الدولة ، أما القطاع الخاص فإنه يكتفي ـ لدواع اقتصادية ـ بقضايا النسخ والتحسين وما إليها .

٨ ـ التكنولوجيا بمضمونها الواسع يقصد بها التكنولوجيا التي تعيد حضارة الإسلام إلى موضع الصدارة والريادة ، ولا يقصد الحديث عن تكنولوجيات بسيطة توائم ظروفاً محلية ، وإنما ينصب الكلام هنا على استراتيجية عامة لمواجهة التقدم التكنولوجي الذي يسير بخطى جدّ متسارعة ، وإن لم تلحق أمة الإسلام بركب العلم والمعرفة والتكنولوجيا ، فإنها بلا ريب تكون قد حكمت على نفسها بدوام التخلف والتبعية التكنولوجية .

ـ أما بالنسبة للزميل الدكتور محمد عمارة ، فقد أورد ملاحظات على الإنفاق سواء على التعليم العام أو على البحث والتطوير ، وأنا أوافقه على أن النسب قليلة وكان من الأولى أن يكون الإنفاق على التعليم عموماً وعلى البحث وعلى التطوير يزيد على ٤٪، وهو مختلف من دولة إلى أخرى ، وما أوردناه لا يؤدي إلا لمؤشرات عامة حيث إن المعايير ليست شاملة للعناصر كلها ، ومن هنا جاء الاعتماد عليها على أنها مؤشرات وتوجيهات فقط .

بالنسبة للإنفجار السكاني ، أوافق الدكتور عمارة على أنه يوجد سوء توزيع لمصادر الانتاج ، ولو حسن استثمار البشر لكان الإنفجار السكاني ذا تأثير إيجابي .

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي :

أنا قلت إنه لعل من معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها » . ومن للتبعيض ، والذي أعرفه إلى الآن أن الكلمة يجوز أن تفسر بحقيقتها ومجازها في آن واحد ، وفي القرآن الكريم كلمات كثيرة فسرت بالحقيقة والمجاز معاً ، فالمعنى الحقيقي جاثم وثابت لا إشكال فيه والأمر أهون من النقاش فيه .

ـ والموضوع الآخر حديثي عن أن هنالك من يسلط الشباب الإسلاميين على حكامهم ليسلطوا الحكام على الشباب ليس من عندي ، ولدي وثائق في هذا من كتّاب غربيين سأنشرها إن شاء الله من خلال كتابي الذي أنا بصدد إنهائه .

هناك صحفي أمريكي فضح الحكومة الأمريكية عندما قال إن الحكومة الأمريكية تغرق العالم العربي في بحار من المشكلات والمصائب ثم تقول لهم أعطوني قلوبكم أنقذكم من الغرق ، ويقول هذا الكاتب إن الغرب يغري الشباب الإسلاميين بالثورة على حكامهم ليغري الحكام بالاشتغال بمحاربة هؤلاء الشباب لكي يشغل الشباب الإسلاميين عن الدعوة الإسلامية الحقيقية ، ولكي يشغل الحكام عن بناء مجتمعهم تماماً . اعتقد أننا جميعاً نعلم أن الخط البياني في الأماكن التي يقوم بها هذا الاشتباك بين الشباب الإسلاميين والحكام يوضّح أن الخط البياني يجعـــل الإسلام يهبط إلى الأدنى الواقع

والأمور بنتائجها ، ولذلك فأنا أدعو إلى المبدأ الذي يقوله أخي الدكتور أحمد كمال أبو المجد بفض الاشتباك ، وعندما أقول فض الاشتباك فمسؤولية تقع على الحكام ، كما أن هنالك مسؤولية تقع على الشباب . والدعوة إلى الله تتكون من داع ومدعو ، داع إلى الله ببصيرة ، ومدعو يتمثل في ملحد ، في تائه ، في ضائع ، نحن الآن نتعامل مع أنفسنا ونسمي هذا التعامل دعوة إلى الله .

الدكتور محمد المختار ولد أباه :

أود أن أثني على بحث الأستاذ عبدالله باه وأضم صوتي معه لمناشدة الحكام العرب ومؤسساتهم لمساعدة المسلمين في إفريقيا وفي البلاد غير العربية للحفاظ على اللغة العربية .

وأود أن أعود إلى البحث المثير الذي قدمه لنا الأستاذ أحمد صدقي الدجاني ، وسأقتصر في ملاحظتي على عنوانين وردا في البحث ، الأول : واقع الحضارة. والثاني : النظرة الإسلامية . لقد أعطانا الباحث صورة مخيفة لأن العلماء الآن يتوقعون ـ اعتماداً على هذا الواقع ـ أن المحيط الأرضي أو المحيط البشري الحيوي قد لا يكون صالحاً لسكنى البشر بعد مدة معينة اعتماداً على مؤشرات التطور الطبيعي ، فالإنسان في طغيانه سوف يستنزف هذه الموارد المحدودة لهذا المحيط ، فاستمرار الحروب والتسابق في التسلح وتقلص الغابات سوف يؤدي إلى تناقص الأمطار وامتداد التصحر بسبب الجفاف وينتشر التلوث البيئي بسبب الغازات السامة ويزداد تناقص غلاف الأوزون وتزداد حرارة الأرض ويمكن أن نزيد على هذه اللوحة القاتمة ما يتصوره العلماء والأطباء من قضية زيادة أعداد المصابين بمرض الايدز ، وازدياد خطر الإشعاعات النووية . وهذه الصورة القائمة تذكرني بما سمعته من عالم فلكي قال : بعد خمسمئة مليون سنة ستزداد حرارة الشمس حتى تكون الأرض غير صالحة للسكن البشري . وهذا أثار في نفسي فزعاً كبيراً رغم أنني لن أكون خلال هذه المدة ممن على الأرض . ولكن الصورة الثانية سوف تهدئ من هذا الفزع وهو صورة النهضة الإسلامية أو الصحوة الإسلامية وقد عرضها أخونا الدكتور الدجاني بكثير من البراعة ، حيث تحدث عن خلافة الإنسان في الأرض وعمارتها وعن مستويات المعالجة على الصعيد العالمي والفردي وخاصة بالإيمان والدعاء والتواصي بالحق

والتواصي بالصبر . والملاحظة عندي بعد هذا العرض أن هاتين الحقيقتين وردتا عند الباحث منفصلتين ، فصار ينتقل في البحث من صورة إلى أخرى ، ولم نر في البحث ذلك الربط الذي ينبغي أن يكون بين هاتين الحقيقتين ، لأننا نعرف أن الحقيقة واحدة ولكنها ذات أوجه متعددة . فما هي أوجه هذه الحقيقة ؟ إنها الإرادة الكونية أو المشيئة . ومن هذه الأوجه شيء أعتقد أنه على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لمستقبل الحضارة، فنحن عندما نتحدث عن المستقبل نتحدث عنه من صميم عقيدتنا الإسلامية وهي أنه لا يعلم الغيب إلا الله وحده .

الأستاذ مصطفى الزرقا :

أحب أن أتناول بالملاحظة نقطتين ، الأولى منهما لعلها منهجية تتعلق بموضوعات المؤتمر بوجه عام، والأخرى تعليق على شيء مما مضى، فأما الأولى وهي المنهجية ، فإني - ولعل هذا ناشيء من أني عشت حياتي بين النصوص وتحليلاتها - رأيت أن عنوان المؤتمر مستقبل الحضارة الإنسانية من وجهة نظر إسلامية ، وهذا العنوان يوحي بأن البحوث المطلوبة يجب أن لا تتحدث عن مستقبل الإسلام ، لأن العنوان مستقبل الحضارة الإنسانية لكن من وجهة نظر إسلامية ، فلو أن العنوان كان مستقبل الإسلام لوجد مجال واسع لأن تتركز البحوث على ما يتوقع للإسلام في القرن القادم ، ولكن نظراً لأن العنوان مستقبل الحضارة الإنسانية ، فالحضارة الإنسانية قد ينظر إليها بالنسبة للمستقبل المتوقع من وجهات نظر كثيرة والعقائديات المختلفة والمبادئ والنظم السياسية والاقتصادية والوقائع المتوقعة في المستقبل قياساً على الماضي أو ما يتوقع من أمور جديدة كلها قد تختلف نظرتها إلى مستقبل الحضارة الإنسانية ، ولكن المطلوب أن ينظر إلى مستقبل الحضارة الإنسانية من وجهة نظر إسلامية بمعنى أنه قد يكون من وجهة نظرات أخرى ينظر إلى أن المستقبل - مستقبل الحضارة - يبشر بمستقبل مزدهر تعيش فيه الإنسانية في حياة طيبة وتترك خلفها مآسي الماضي وتستقبل مستقبلاً إنسانياً بالمعنى الصحيح . وتوجد وجهة نظر أخرى قد ترى العكس ، وهكذا قد تختلف وجهات النظر حول مستقبل الإنسانية فكان المطلوب أن يكون الحكم على مستقبل الحضارة الإنسانية حكماً منظوراً فيه من منظور إسلامي ، فقد يرى العالم كله أن مستقبل الحضارة هو في خير في مستقبل الأيام والسنين ، ولكن النظر الإسلامي للحياة الإنسانية التي يجب أن يتحلى بها

الإنسان كإنسان في هذا الكون تكون مختلفة ، فيرى أن العالم إلى شقاء وإن كانت مجموعة نظمه ترى أنه في نعيم وفي ازدهار ، فالذي لاحظته بوجه عام أن معظم البحوث كانت تتركز على الكلام حول مستقبل الإسلام وأعتقد أن هذا ليس هو محور المؤتمر . واذا أخذت أنا وجهة النظر الإسلامية لمستقبل الحضارة الإنسانية فأرى أن الجو مظلم لهذا المستقبل وأن القتام يخيم وأن الآمال في أن تصلح الحياة الإنسانية بالنظر الإسلامي ضعيفة جداً ، ذلك لأننا نرى أن الأساليب التي كانت في القرن الماضي كان فيها هذا التوازن الذي حصل نتيجة وجود قوتين كبيرتين متوازنتين وكان الإسلام بينهما وكان يرى أن كل ما تمّ التوصل إليه من اختراعات هائلة قد سخّر لتدمير الإنسانية لأن أياً منهما سواء النظام الاشتراكي أو الرأسمالي لم يكن مؤهلاً لقيادة الحضارة . وهذه وجهة النظر الإسلامية في الماضي والذي أراه أن المستقبل كالماضي بل قد يزدادسوءاً لأن التوازن الذي كان قائماً في الماضي قد فُقِدَ مع الأسف ، وقد كان يمنع طغيان جهة بقوتها على العالم فنحن في ظل النظام العالمي الجديد الأحادي القوّه نرى أنه يقوم على الكيل بألف مكيال ونشهد الويلات والمآسي المتعددة في البوسنة والهرسك وفي بورما وفي فلسطين وفي غيرها ، وهذه كلها تغطّى بالعجرفة والقوة والتمويه والتضليل ، ولا نرى إلا الشعارات الكاذبة وهذه المآسي والويلات كلها تغطّى لأنها تقع على المسلمين ، ولو وقع جزء منها على غير المسلمين لقامت الدنيا وما قعدت . إذن أين الديمقراطية وأين حقوق الإنسان التي ينادى بها . وآخر ما قرأت الكتاب الذي وجهه رئيس وزراء بريطانيا إلى وزير خارجيته ونشرته الصحف بنصه الإنجليزي وترجمته العربية يوجهه فيه إلى التظاهر بعكس ما هو مطلوب لتشديد الحصار على المسلمين في البوسنة ، وعدم إمدادهم بالسلاح ، وبالتالي القضاء عليهم لأنه لا يجب أن تقوم دولة مسلمة فِي وسط أوروبا . فأنا أرى أن المستقبل قاتم إلا أن يشاء الله سبحانه وتعالى شيئاً آخر ويُوجِدَ توازناً جديداً . فقد وصف شاعرنا الكبير بدوي الجبل هذا المستقبل قبل سبعين سنة بقوله :

أيـــن الشرائـــــع لا أرى	في الأرض ظـلاً للشرائـــع
درست وقــــام بنا علـــى	أنقاضها ديـــــن المطامـــع
والحــق مــا نطقت به فـي	الكـــون أفـــواه المدافـــع
والصدق مـا قامت تؤيـــده	الظبـا البيـض القواطـــع

* * *

دول تـــدول وغيرهـــا تبنـــى علـــى أنقاضهـــا
وممالـــك مرضـــت فحـــار الطـــب فـــي أمراضهـــا
قصـــت قوادمهـــا فمـــن يحنـــو علـــى منهاضها
ترمـــي الليالـــي بالخطوب ونحـــن مـــن أغراضهـــا

* * *

كـذب الـذي زعـم الأنـام عـن القديـم تقدمـوا
الناس فـي كـل العصـور كمـا علمتـم هـم هـم
يقلـى الضعيـف ويستبـد بـه الكمـي المعلـم
وتحلـل الأطمـاع مـا تختـاره وتحـرم

* * *

ففي ظل هذه الغطرسة الدولية والضعف المسيطر على شعوب العالم الثالث عامة لا أرى أن مستقبل الحضارة الإنسانية سيكون مشرقاً من وجهة النظر الإسلامية .

ملاحظة أخيرة على بحث أخينا الدكتور علي عثمان ، إن موضوع هدم السنّة النبوية ليس أمراً جديداً، فقد تم التخطيط له بعد الحرب العالمية الأولى وأعلن بترتيب على يد بعض الغربيين من أنه لا بدّ من تعطيل القرآن ، ولكن لا يمكن أن ينادى بالمسلمين لأن يتركوا القرآن لأن هذه الدعوة وبهذا الشكل عبث . ولكن يجب تعطيله عملياً لأنه رباط جامع يجمع المسلمين جميعاً من مختلف القوميات واللغات ويوحدهم بلغة القرآن الكريم ، وهذا التوحيد لا يوجد له نظير في هذا العالم . أما عملية تعطيله فقد جاءت عن طريق المستشرقين الذين مهدوا لهم الطريق، وهم طلائع الاستعمار حيث قدموا دراسات وأبحاثاً كثيرة . وقالوا بأن تعطيل القرآن يجب أن يبدأ بتعطيل السنّة النبوية . لأنها دعامة القرآن وطريق بيانه العملي ، ولذلك ظهرت هذه البدعة بأن السنّة فيها الضعيف والموضوع والصحيح ، والأمور فيها مختلفة ، بخلاف القرآن الذي نصه ثابت ، ولذلك بدأوا بالدعوة إلى هدم السنة ، وأنا أعرف أن كثيراً من أفاضل المسلمين وأهل العلم والثقافة والقضاة وغيرهم غرّر بهم في هذا المجال وساروا بهذه الدعوة ، وذلك لضعف علمهم وثقافتهم ، ولم يعلموا أن السنّة نخلت تنخيلاً بأيد كان عملها مـن المعجزات ، وهؤلاء المسلمون الذين

قاموا بحمل راية هذه الدعوة يجب أن لا نسيء الظن بهم من الناحية الشرعية لأنهم غرّر بهم وغُشّوا في هذا المجال لعدم معرفتهم بحقيقة السنّة النبوية المطهّرة . وقد أقام هؤلاء معاهد خاصة لهذه الغاية ، مثل معهد مونتريال في كندا ، فهذا المعهد غرّر بالكثير من المسلمين الذين تخرجوا منه . وهكذا نلاحظ أن هذه الدعوة كان قد خطط لها بكل دقة ومنذ زمن طويل . وهذه حلقة في سلسلة طويلة ومنها الدعوة إلى العامية أيضاً .

الدكتور علـي عثمـان :

إن ملاحظات الشيوخ الأفاضل ، الدكتور البوطي والشيخ الزرقا كانت تحريفاً لما قلته ، فأنا قلت إن المحاولة التي قمت بها في تلك الورقة لا يمكن أن تستكمل إلا بالنظر في السنّة أيضاً ، ولكني اقتصرت على القرآن اقتصاداً للوقت ، ولأن القرآن لا يختلف حوله المسلمون ، وقلت أيضاً إن أول تجسيد للإسلام ظهر في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وفي أفعاله : فأنا من الذين يحبون الرسول ويحبون سنته . وهذا الكلام لا أدري كيف توصل إليه البوطي أو الزرقا . فأرجو أن يعودا إلى ما قلته في تلك الورقة وأن لا يتهماني باتهامات أنا بعيد عنها ، فأنا عدت من دراسة الفلسفة الغربية متمسكاً بالإسلام عن قناعة ، وكتابي عن الإنسان عند الغزالي يدرّس في الجامعات الغربية ، ومقالاتي وكتبي معروفة ، ولذلك أنا استهجن هذا الكلام ممن هم مسؤولون عن الأمانة العلمية والأخلاقيات العلمية .

الدكتور عبدالعزيز الخياط :

لي ملاحظات ثلاث أقدمها بإيجاز شديد :

أولاً : بحث الدكتور محمد عمارة بحث جيد ولكني أخالفه في فهم التعدّدية وأرى أنه فهم غير صحيح . في نظـــري الإسلام أباح للناس أن يكونوا على أديانهم ومعتقداتهم ولكنه في ضمن التشريع الإسلامي يكونون مع الأمة الإسلامية خاضعين للتشريع الإسلامي والحكم الإسلامي ويمنعون من أن ينشروا معتقداتهم المتعارضة مع الإسلام . أما التعدّدية ضمن إطار الإسلام والتعدّدية الاجتهادية فهي مقبولة وواسعة وضرورية .

ثانياً : بحث الدكتور فهمي جدعان بحث جيد ، لكنني استغرب أنه مرّ على الإخوة العلماء وكان ينبغي أن يناقش مناقشة جيدة ، وكيف استطاع الدكتور فهمي جدعان ، على تقديري له ، أن يضع مفهوم التشكيك في حضارة الإسلام المتكاملة وتطبيق نمطها ، وفي التساؤلات الإنكارية التي طرحها بأسلوب ذكي بحيث جاز على بعض الإخوة المناقشين ، وظنوا أنه يشيد بحضارة الإسلام بنظرة متفائلة ، والواقع أنه متشائم بالنسبة لها ولمستقبلها ، وأشاع هذا التشاؤم وشكك فيه في مصطلحات جدلية فلسفية خفيت معها نظرته غير المتخوفة من الغرب وهجومه وعدائه ، أي الغرب ، للإسلام ومنها مصطلحات : حدّ الذات وحدّ الاخر ، والدفع الجذري ، وجوهرية الأصولية والنقلية ، واللحظة الجدلية ، والنقيضين الاتباعية والابتداعية وجوهري الحداثة ومرجعيات الإسلام الجوهرية والوحي والاستخلاف الحي ومعطيات الواقع المباشر ، واستعلاء الإيمان ، والإسلام في أزمة والإسلام المشخص وغير ذلك من المصطلحات الضبابية .

ثالثاً : بحث الدكتور علي عثمان : أغناني أخي الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي وأستاذنا الشيخ مصطفى الزرقا عن تناول النقاط التي نخالف فيها الدكتور علي عثمان ولا نقرّه عليها ، ولا سيما فيما يتعلق بإعاقة الفقهاء تطور الحضارة الإسلامية وعدم فهمهم للنظرية التربوية ، مع العلم أن الفقه كله تربية إسلامية لأنه تعليم للأحكام الشرعية وتوضيح لطريق السلوك في الحلال والحرام ، والفقهاء كلهم كانوا على أعلى مستوى من التربية الإسلامية والتزام الخلق والقيم فهل كان كبار الفقهاء من التابعين وأئمة الفقه كأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل والأوزاعي وعبدالله بن المبارك ومالك بن أنس ومن تبعهم من أئمة الفقه لا يعرفون التربية الإسلامية ، والإمام الغزالي الذي مدحه الباحث وأشاد بنظريته التربوية ، لو لم يكن فقيهاً لما استطاع أن يضع نظريته على ما في بعضها من نظر ، وما يتعلق بمصادرة الفقهاء للإجماع وحصرهم للعلوم الشرعية ، هل نسي أخونا الدكتور عثمان أن الإجماع مصدر رئيسي من مصادر الأحكام الشرعية وأدلتها عند الفقهاء ، وهل نسي أو تناسى أن العلوم كانت مختلطة عند المسلمين ، فكم من فقيه هو عالم بالاقتصاد والفلك والفلسفة والنحو واللغة ، وكم من طبيب

أو فلكي أو عالم بالغناء كالموصلي ، كان فقيهاً مفسراً فيلسوفاً ، وهل نسي الرازي وابن سينا وابن رشد وغيرهم . هل صحيح أن المسلمين لم ينجحوا في ترجمة نظرة الإسلام إلى الإنسان في نظام اجتماعي كلي مجسد في نظام تربوي إسلامي خالص ، وفي نظام سياسي اقتصادي إسلامي خالص . وهل صحيح أن العلماء المسلمين صادروا المفاتيح العلمية لتجسيد علوم الإسلام .

ولعل من أخطر آراء الباحث أفكاره أن لا يكون للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) معجزات مادية ، والقرآن نفسه معجز مادي ، وكذلك جعل الباحث العلم هو الحكم الفاصل بين الحق والباطل ودعوته إلى التحرر من تراث الماضي .

اقترح على المجمع الملكي أن ينشر مع بحث الدكتور عثمان الردود والتصحيحات كلها في هوامش البحث لا منفصلة عنه رعاية للمنهج العلمي .

وعندما لخصت الأبحاث وقدمتها إلى المجمع الملكي ذكرت هذه المؤاخذات ولكن رأي المجمع ورأي معالي رئيس المجمع أن تبقى بين أيدي الأعضاء للمناقشة عملاً بحرية الرأي والكلام ، اقترح عند نشر هذا البحث أن تضمن المناقشات في الهوامش تحت البحث لإزالة ما ورد فيه .

الملاحـــــق :

وهي الدراسات التي وزعت على المشاركين في المؤتمر :

ـ الدكتور طه جابر العلواني ، عن : « الإنسان في القرآن » .

ـ الدكتور هشام نشابة ، عن : « معايير الحضارة من وجهة نظر إسلامية » .

ـ الأستاذ عبدالهادي بو طالب ، عن : « الإنسان ورهانات المستقبل » .

ـ الدكتور خورشيد أحمد ، عن : « الإنسان ومستقبل الحضارة من منظور إسلامي » .

ـ الدكتور إحسان دوغرمجي ، عن : « الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية » .

ـ الدكتور عبدالهادي التازي ، عن : « معيار الحضارة بالنسبة للإنسان » .

ـ الدكتور مدثر عبدالرحيم الطيب ، عن : « الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية » .

ـ الكلمة التي ألقاها الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي في حفل العشاء الذي أقامه صاحب السمو الملكي الأمير الحسن ولي العهد المعظم يوم ١٤/٧/١٩٩٣م .



الإنسان في القرآن

الدكتور طه جابر العلواني *

يمثل الإنسان محور الخطاب القرآني ومقصده كله والمخاطب به وعليه ، ومن أجله أنزل القرآن وفصلت آياته وبان منهجه ، بل لا نبالغ إذا قلنا إن مخلوقات الله سبحانه جميعها مرتبطة بدرجة أو بأخرى بالإنسان ودائرة حوله ، وصدق الله العظيم اذ يقول ﴿ **اني جاعل في الأرض خليفة** ﴾(١) وقال : ﴿ **الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخرلكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾(٢) . فالكون بما فيه من طبيعة وأفلاك وكائنات حية مسخرة للإنسان تسخيراً على مستوى الأشياء والأفكار حيث تسخير الأشياء متمثل في تذليلها لخدمة الإنسان وتحقيق مطلوبه ، وتسخير الأفكار هو تسخير معرفي متمثل في جعل قوانين الكون منضبطة منتظمة يستطيع الإنسان أن يصل إليها ويفهمها .

وإذا كان الله سبحانه قد سخّر الكون بكل ما فيه من جماد وطير وحيوان ونبات وبحار وأنهار لخدمة الإنسان يقيم معها علاقته على أساس منهاج الله سبحانه ويعاملها على أنها مخلوقات تسبح بحمد الله سبحانه ، فلا يجوز إهدارها أو تدميرها وإنما توظيفها في إطار كوني أوسع يحقق عبادة الله سبحانه في تعمير أرضه وتحقيق خلافته ، إذا كانت هذه المخلوقات قد ذللت لله سبحانه وسخرت ، فإن باقي المخلوقات قد وظفت في سبيل تحقيق مهمة الإنسان وأدائه للأمانة التي حملها . فالجن له دور وظيفي في حياة الإنسان ، فهو يمثل دافعاً وحافزاً على الاستقامة والعمل الدؤوب حتى لا يقع الإنسان في مسالكه ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ..** ﴾(٣) ، وكذلك لخلق حالة التحدي عند

---

* العضو العامل في المجمع الملكي / رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن .

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) ابراهيم : ٣٢ - ٣٤ .

(٣) الحجر : ٤٢ .

الإنسان إذ لا بد أن يوجد محفز من عدو أو منافس حتى يندفع الإنسان ويبني ويعمر المجتمعات على مدى التاريخ ، لا بد أن يوجد عدو وإذا لم يوجد ذاك العدو على مستوى البشر فقد جعل الله سبحانه الشيطان عدواً دائماً لا ينتهي ولا يزول ﴿ **إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدواً** ﴾[1] ، حتى يتحقق العمران والحضارة ، وحتى يظل الإنسان يقظاً مقاوماً مندفعاً ولا يركن إلى الدعة والسلام والارتخاء فتنهار حضارته ويزول وجوده . أما الملائكة فقد جعلهم الله سبحانه قوة دافعة محركة للإنسان تعينه إذا ارتقى بالإيمان وتراقبه في الوقت نفسه ، كذلك تنافسه في العبادة والتقرب إلى الله سبحانه وجميعها أفعال دافعة للإنسان محفزة له على الفعل الحضاري .

وما من شك في أن القرآن الكريم قد ركز على تكريم الإنسان إلى مستوى الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لأدم : ﴿ **إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** ﴾[2] وارتبط ذلك التكريم بالخلافة في الأرض : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾[3] ، وامتد التكريم إلى التفضيل على سائر الكائنات : ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً** ﴾[4] .

فإذا كان هدف الخلق وغايته أن يقذف الله بالحق على الباطل فيزهقه ، وإذا كان الإنسان ـ من دون الكائنات الأخرى ـ هو مناط التكريم والتفضيل والاستخلاف ، فيعني ذلك وبكل أنواع الاستدلال أن الإنسان هو المطالب من ربه بتحمل مسؤولية الحق وتحقيقه في الخلق .

فالحق هو معيار الشخصية الإنسانية في القرآن وسلوكها وفعلها ، وبقدر سلوكه الذي يجسد الإنسان به ـ في بنائه العقلي والأخلاقي ـ التزامه بالحق ، يكون منسجماً مع غاية وجوده على المستوى الكوني كله ، وهذه هي الشرطية الوجودية التي تتعلق بالمعنى الحقيقي للشخصية الإنسانية في القرآن ، ولتحليل هذا المنظور نحتاج إلى ثلاث من الدراسات المتكاملة :

---

(١) فاطر : ٦ .
(٢) ص : ٧١ - ٧٢ .
(٣) البقرة : ٣٠ .
(٤) الاسراء : ٧٠ .

الدراسة الأولـــــى :

حول مفهوم الحق الذي خلق الله به الكــون ، وهــو ما يبسطه الله فرقاناً فــي تعبير (الميزان) الذي تنضبط به في القياس دقائق الأمور ، وتتم به الهيمنة على كل قول وفعل، وعلى كل فكر وممارسة : ﴿ **الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب** ﴾[1] ، وكذلك : ﴿ **والسماء رفعها ووضع الميزان** ﴾[2] . فالميزان هو مجموع القيم المعيارية لقياس الحق وضوابطه وهو ما يسمى في المصطلح العام بالمنهجية ، فمن خلال استمداد المفهوم المنهجي للخلق الكوني وفق الغاية الإلهية ، يدرك الإنسان الكتاب والميزان ، أي القرآن والمنهج ، فتكتمل في ذهنه صورة الحق ويتبعها . فالحق قائم في أصل الخلق الكوني ، وعلى الإنسان أن يكتشف منهجيته (الميزان) ، فمن خلال اكتشاف منهجية الخلق الغائبة ـ غير العبثية ـ يصل الإنسان إلى معنى الحق ومعاييره القياسية .

الدراسة الثانيـــة :

حول مفهوم التناقض بين الحق والباطل ، فالباطل ليس أصلاً للخلق كالحق ، وإنما هو عرض جانبي زاهق بالضرورة تماماً كالأمراض الملازمة للنمو الصحي ، فالدورات الحضارية البشرية الوضعيـــة كلها تعقبها دورات دينية . فمن بعـــد طغيان الهيلينية والرومانية جاء الإسلام ، ثم من بعد هذه الدورة الحضارية الوضعية العالمية يعود الهدى ودين الحق ليظهره الله على العالم كله ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾[3] .

فالتناقض ليس بين قوتين متكافئتين أو متعادلتين ، وإنما بين صحة هي الأصل في البناء الكوني (الحق) وعارض أشبه بالعرض (الباطل) فمهمة الإنسان استكمال مسيرة الحق القائمة أصلاً في الوجود بحيث لا تثنيه العقبات مهما تراءت قوتها وضخامتها ، فصيرورة الخلق إذن تقتضي التناقض إلا أن غاية الخلق تحمل انتصار الحق .

---

(١) الشورى : ١٧ .
(٢) الرحمن : ٧ .
(٣) التوبة : ٣٢ ـ ٣٣ .

والدراسة الثالثــــة :

حول ثلاثية الوعي الإنساني في القرآن : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾(١) ، وهي قوى وعي تستكشف الحق والميزان ثم تنطلق بالإرادة التي يصفها الله بالعزم ﴿ **لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور** ﴾(٢) .

إذا تم استكمال هذه الدراسات سيتضح لنا أن هذا الإنسان المكرم والمفضل والمستخلف تتحدّد معايير شخصيته في القرآن بقضية وجوده الأساسية لعبور التناقض بين الحق والباطل باتجاه الحق الذي هو أصل البنائية الكونية ، وقد زوده الله بقوى الوعي الثلاثي والعزم . فالإنسان في القرآن رسالة وقضية .

أساس الأمر عبودية غير مستلبة :

إن المعنى القرآني للإنسان أكبر مما نتصور ، إذ يتحمل هذا المعنى البعد الكوني لوجوده ، وهو أمر لا يتصل فقط بقيمة الإنسان ولكن بقدراته من ناحية وبالعطاء الإلهي له من ناحية أخرى . فبالتكريم والتفضيل والاستخلاف تتنامى في المقابل قيمة الإنسان وقدراته وعطاء الله له . فقدرات الإنسان الكامنة في تكوينه أكبر مما يتصورها هو عن نفسه مهما بلغ درجة النبوغ العقلي والاستشفاف النفسي والحدسي والحيوية الجسدية ، ويمكن الرجوع إلى العديد من الآيات التي تتحدث عن كيفية تخليق الإنسان وقدراته الذهنية والنفسية ، فهو الذي علمه الله البيان وهو أكثر شيء جدلاً ، وفي موازاة هذه القدرات التي تكاد تصل إلى حدود لا متناهية ، كذلك العطاء الإلهي له إلى حدود لا متناهية ، وذلك كله لمقابلة مهمته ورسالته . فالإنسان في القرآن ليس مستلباً ، لا على مستوى القيمة ولا على مستوى العطاء الموفور له .

---

(١) النحل : ٧٨ .

(٢) آل عمران : ١٨٦ .

وفي إطار هذا التركيب الفلسفي الدقيق يختلف مفهوم عبودية الإنسان للّه في القرآن عن عبودية الإنسان للإنسان ، فمالك الرقيق يستلب عبده استلاباً كاملاً ، حيث إن المملوك أبكم لا يقدر على شيء ، أي حبيس الرأي غير قادر على التصريح وعاجز عن التصرف ، ثم إن العبد المملوك مستلب لمولاه يتصرف فيه كالمتاع : ﴿ **ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً ، هل يستوون ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ، وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** ﴾[1] .

لهذا حذر الله ـ سبحانه وتعالى ـ من مماثلة عبودية الإنسان له بعبودية المملوك لمالكه : ﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾[2] . وجعل هذه الآية مقدمة شارحة للآيتين التاليتين لها .

فالإنسان في القرآن لا متناهي القدرات الذاتية وغير مستلب ، فهو في هذا الكون كالطير ﴿ **مسخرات في جو السماء** ﴾[3] . فإذا كانت كثير من الكائنات خاضعة بحكم التكوين للعبودية المطلقة فإن الإنسان استثناء في ذلك : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء** ﴾[4] . ويتأكد هذا الخيار الذاتي للإنسان في قوله تعالى : ﴿ **ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها** ﴾[5] .

---

(١) النحل : ٧٥ ـ ٧٦ .
(٢) النحل : ٧٤ .
(٣) النحل : ٧٩ .
(٤) الحج : ١٨ .
(٥) الشمس : ٧ ـ ١٠ .

وعلى هذا فإن العبودية الحقة لله هي التحرر الكامل للإنسان اللامتناهي القدرات. وقياساً على ذلك تختلف دلالات الألفاظ التي تشير إلى عبودية الإنسان لله في القرآن عن تلك التي يطلقها البشر بين بعضهم ، كما تختلف الأفعال ، فالوقوف بين يديّ الله والركوع والسجود هي كمالات في علاقات العبودية الإنسانية لله في حين أن هذه الأفعال هي نقيض ذلك بين البشر .

بل إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يكتب الرهبنة على الإنسان حتى لا تحمل العلاقة معه شبهة الاستلاب ، ولتعارض الرهبنة مع حرية الانسان وذاتيته : ﴿ **ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم** ﴾[1] .

تعبد الذات واستعباد الآخر :

ضمن هذا النسق القرآني القيمي والأخلاقي يرتقي الله بالإنسان من تعبد ذاته من خلال الحد من الاستجابة المجانية لنوازعه الجسدية والنفسية ، وليوظف هذه النوازع في الإطار الكوني لحقيقة الإنسان المفضل والمكرم والمستخلف ، أما إذا أخلد الإنسان لنوازعه الجسدية والنفسية متعبداً ذاته وهو بهذه القدرات الهائلة التي خلقه الله بها فإنه سرعان ما يستعبد الآخرين لذاته ، فتنشأ الإمبراطوريات على أجساد العبيد ، فيقام الهرم كمدفن للإله البشر وقد دفن تحت كل حجر عشرات العبيد ، وتمتد صروح روما وأعمدتها ، وهكذا تدخل البشرية مرحلة الصراع الدامي الذي يتلون بأشكال اجتماعية وحضارية بل ثقافية أيضاً .

ثم تحاول البشرية ضمن أرقى مراحل حضاراتها الوضعية معالجة ظواهر العرض دون أصل المرض نفسه ، فتطرح مواثيق حقوق الإنسان مع الإبقاء على أصل المرض ، وهو تعبد هذا الإنسان لذاته ، مما يدفعه لاستعباد الغير وبأشكال متطورة مهما كانت هذه المواثيق . فإذا درسنا هذه المواثيق منذ الثورة الأمريكية وإلى الثورة الفرنسية وانتهاء بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨م بمواده الثلاثين ، نجد أنها قد صيغت ضمن مشروعية الفرد الليبرالية في علاقته مع الآخرين الذين يسلبونه حقوقه ، فهي مواثيق دفاع عن حقوق مع الإبقاء على أصل الداء ، بل تكريس ذلك وهو تعبد الإنسان لذاته ولنوازعه النفسية والجسدية وسلبه عبوديته لله تعالى .

---

(١) الحديد : ٢٧ .

وعلى النقيض من هذا نجد أن حقوق الإنسان في القرآن جاءت من الداخل وليس من الخارج ، أي من خلال الذات الإنسانيــة نفسها ، فحقوق الإنسان الوضعيــة تحصين ضد الآخر في حين أن حقوق الإنسان في القرآن تحصين ضد الذات بتحجيم نوازعها بوساطة العديد من القيم العقلية والأخلاقية بحيث يصبح الإنسان نافعاً لنفسه . ولغيره في الوقت ذاته وليس ضاراً يخشى شره كما هو الأمر في مواثيق حقوق الإنسان الوضعية .

فحين تمنع المادة الثانية ـ مثلاً ـ من ميثاق حقــوق الإنسان التمييز بين البشر بسبب اللــون أو الجنس أو اللغة ، فإن القرآن لا يبدأ بالسلب الذي هــو المنع وإنمــا يبــدأ بالإيجاب ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكــر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكــم عند الله أتقاكــم إن الله عليــم خبير** ﴾[1] . فهنا تأكيد على وحــدة الانتماء الانساني ﴿ **إنا خلقناكم من ذكــر وأنثى** ﴾[1] ثم يرد الله التباينات إلــى عوامل التكوين والتشيؤ وفق قوانين الظاهــرات وليس لذاتية العنصر أو الجنس ﴿ **ألم تر أن الله أنــزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومــن الجبال جدد بيض وحمــر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومــن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور** ﴾[2] .

فليست قضية القرآن هنا ألا يميز إنسان إنساناً آخــر ، بمعنى السلب ، ولكــن أن (ينتمي) الإنسان إلى الآخر ، وأن يدرك أن التباينات ليست لذاتها ، فهذا تحصين من الداخل الإنساني ، وهكذا الأمر إذا تتبعنا المــواد الثلاثين لحقــوق الإنسان الوضعية كلها ، نكتشف ما يقابلها في القــرآن كتحصين داخلي وترقية ثم تجاوز لها باتجاه الحقيقة الكونية للإنسان المكرم والمفضل والمستخلف والمرتبط بمنهجية الحق (الميزان) وغائية الوجود . فالقرآن يقدّم معالجة الأسباب على دفع النتائج السلبية أي إصلاح الإنسان نفسه .

---

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) فاطر : ٢٧ ـ ٢٨ .

الإصلاح القرآني للإنسان ليس طوباويا :

فقد أوضحنا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يستلب الإنسان ويصادره كما تقول بعض الاتجاهات اللاهوتية ، إذ جعل الله الإنسان فائق القدرات ولأبعد مما يدركه الإنسان عن نفسه . ولنفي الاستلاب منع الله الرهبنة له كما أوضحنا ، وأوضح خطأ المماثلة بين عبيده وعبيد البشر، بل الله ـ سبحانه ـ هو مصدر عطاء ورزق لعبيده ، بداية من العمل (البسيط) كالغيث للزرع ، وليس انتهاء بالعمل (المركب) كاللبن ما بين فرث ودم والعسل المختلف ألوانه . فالله يدفع الإنسان لتحقيق وجوده عبر هذه القدرات الهائلة ويشجعه على ذلك بالوسائل كلها ، فالحقيقة الإنسانية في القرآن قائمة كحقيقة إنسانية لا تمتد لأبعد منها ولا تتدنى إلى ما دونها .

فالتدني إلى ما دونها : هي الحالة الطوطمية التي يفسر بها بعض علماء السلوك الاجتماعي والأنثروبولوجي العقائد الدينية لبعض القبائل البدائية التي ترجع أصولها إلى حيوانات معينة .

والامتداد لأبعد منها : تتفرع إلى حالات عديدة ، كقول بعضهم إن الله ـ سبحانه ـ قد خلق الإنسان على صورته ، وهو ـ سبحانه ـ ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[1] . وكقول بعضهم إن الإنسان حيز للحلول الإلهي ، فهذه كلها تصورات شركية وحلولية تستلب الإنسان في النهاية وتخرجه عن حقيقته الإنسانية في القرآن .

لهذا لم يطلب الله من الإنسان في القرآن أن يتجاوز حقيقته الإنسانية ، ولم يجعل علاج الضعف الإنساني بالتجسد في شكل إنسان ثم فدائه ، بل جعل معالجة الضعف التزكية العبادية بشتى أشكالها بما في ذلك المعاملات التي تعتبر عبادة في ذاتها . فالذين افترضوا طوباوية الإنسان بمنطق لاهوتي عالجوا الخطايا الإنسانية خارج حقيقة الإنسان ،

---

(١) الشورى : ١١ .

وهذا فارق كبير وخطير بين نظــرة القرآن للإنسان ونظرة الآخـــرين . لهــذا فإن ما يراه البعض في أصل الخطيئة الأدبية يختلف تماماً عن رؤية القـــرآن ، فخطيئة آدم في القــرآن ليست خطيئة أصلية مركبة في جبلة الإنسان ، وإنما هي (نسيان) و (ضعف عزم) ، وهكــذا . قال الله تعالى : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزمــاً** ﴾[1] .

فالرجوع الى آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالمعصية أو الغواية هو رجوع إلى حالة النسيان أو عدم العزم وليس رجوعاً إلى (خطيئة أولى) مركبة في جبلة الإنسان . وعلاج المعصية هو العودة إلى الله ضمن الحقيقة الإنسانية وليس بالفداء الخارجي . فالقرآن لم يطلب من الإنسان تجاوز نفسه ولكن طلب منه الترقية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم** ﴾[2] .

---

(١) طه : ١١٥ .

(٢) النور : ٢١ .

معايير الحضارة من وجهة نظر إسلامية

الدكتور هشام نشابة*

اسمحو لي أن أستهل هذا الموضوع برواية حادثة شخصية . فقد زرت مؤخراً في مدينة أميركية غير ذات شأن متحفاً متواضعاً لم يكن فيه ما يستحق الذكر . والمدن الأميركية الصغيرة تتشابه كلها حتى لتكاد أن تكون نسخاً متكررة لنموذج واحد . وإنما لفت انتباهي في متحف تلك المدينة صندوق من الزجاج وضعت فيه قطعة من معدن أبيض كتب تحتها « المتر The Meter » وحدة القياس للمسافة الأكثر استعمالاً في العالم اليوم . فسألت مرافقي الأميركي : وأي مبرّر لوضع « المتر » في هذا المعرض ؟ والمتر معروف في العالم كله ، ومتوفر في كل مكان وفي حقيبة كل تلميذ وجعبة كل نجار ؟ واجتهد صاحبي فقال : لعلّ المبرّر أنه إذا اختلف اثنان في قياس المتر لجأوا إلى هذا المتر المعروض في المتحف لفض الخلاف . فهذا « المتر » هو « المعيار » الذي يعتمد لتحديد قياس المتر الصحيح . قلت في نفسي ، ليت يوجد « متر » نلجأ إليه لنقيس به كل شأن من شؤون الحضارة ، إذاً لكان عندنا « معيار » نفرق به بين التقدم والتخلف، والصحيح والخطأ ، والجميل والقبيح ، والحق والباطل .

ذلك أننا في عصرنا الحاضر قد فقدنا المعيار ، أو قل ، اعتمدنا معايير مختلفة فاختلطت علينا شؤون الحضارة ولم نعد ندري إن كنّا نسير قدماً إلى الأمام أو نتراجع إلى الوراء .

فما معيار التقدم وما معيار التخلّف ؟ بل ما معيار الحضارة ؟ فإن كان التقدم التكنولوجي أو المادي هو معيار الحضارة ، فلا بدّ ، عندئذٍ ، لتحقيق التقدم من تسخير طاقاتنا وثرواتنا جميعها لإحراز التقدم التكنولوجي مهما كان الثمن ، وأن نعتبر بالتالي ، أن كل جهد يبذل في غير هذا السبيل هو هدر ، ومضيعة للوقت . وأن علينا أن نسخر القيم الأخلاقية والدين والتراث في سبيل التقدم التكنولوجي المنشود . وعندئذٍ يصبح الصدق والأمانة والشرف والوفاء ، مثلاً ، قيماً لا لذاتها وإنما لأن التقدم التكنولوجي يتطلبها . فإن لم تخدم هذه القيم هذا النوع من التقدم أمكن الاستغناء عنها ، بل وجب التخلّي عنها .

---

* العضو العامل في المجمع الملكي / مدير المعهد العالي للدراسات الإسلامية / جمعية المقاصد الخيرية / بيروت - الجمهورية اللبنانية .

ولعله لهذا السبب ، نرى مثلاً ، أنّ الدقة في حفظ المواعيد أصبحت في عصرنا الحاضر قيمة ذات شأن رفيع ، يفوق ما كان لها من شأن في العصـور الغابرة ، ذلك أنّ « الدقة » في حفظ المواعيد وفي العمل هي شرط من شروط زيادة الانتاج وحسن تسيير المصانع وازدهار التجارة . بل يمكننا أن نذهب أبعد من هذا فنقول ، إن نظام القيم كله غير ذي شأن في الحضارة التكنولوجية وإنما « القيمة » الوحيدة الثابتة هي **الانتاج والكسب أو الربح** ولعل هذا التقويم هو الذي يدفع بعض الناس إلى الأخذ بمبدأ النسبية في القيم ، فيصبح الصدق مفيداً حيناً ومضراً حيناً أخر . وكذلك الأمانة والاحترام والشرف إلى آخر ما هنالك من قيم معروفة .

هنا يكمن الفارق الجوهري بين نظام قيم الحضارة المعاصرة والقيم الدينية ، فالأولى متغيرة حسب متطلبات التقدم المادي ، والأخرى ثابتة ومطلقة سواء أدّت إلى هذا النوع من التقدم أو لم تؤدّ .

ولا شكّ أنّ للحضارة التكنولوجية المعاصرة قيماً جليلة ، لأن العلم الذي تقوم عليه مبني على قواعد وأصول وضوابط للسلوك الفردي والجماعي لا يمكن للعلم أن يستقيم دونها . وهذه القواعد والأصول والضوابط تشكّل أساساً لنظام قيمي عظيم الشأن بين أنظمة القيم المعروفة . والمشكلة بالنسبة إلينا كمسلمين هي أن النظام القيمي للحضارة التكنولوجية / العلمية يعتبر الانتاج المادي والربح المعيار الأسمى للتقدم . بينما نظامنا القيمي الإسلامي ثابت ، مطلق ، يطلب لذاته لا لربح مادي أو فائدة عابرة .

ويشترك العالم الغربي كله - والأيديولوجيات الغربية كلها - في اعتماد المعيار المادي . فالعلم لا يطلب لذاته وإنما لتحقيق التقدم المادي (أي للانتاج والربح) ، ومحو الأمية ضروري لأنه يساعد على زيادة الانتاج . وهو ضروري أيضاً لأنه يساعد على تحديد النسل . وتحديد النسل ضروري خاصة في البلاد المتخلفة لأن عدم تحديده يهدد الرخاء المادي في المجتمعات المتقدمة بالدرجة الأولى وفي المجتمعات المتخلفة بالدرجة الثانية . والحرب ضرورية أحياناً لاستيعاب انتاج المصانع الحربية ، التي تستخدم ملايين العمال ، الخ ... مع العلم أن التقدم المادي هو ، باعتراف كل ذي بصيرة في الغرب ، كما في كل مكان ، لا يضمن السعادة للناس ولا يوفرها لهم . ومفهوم التقـدم على

أساس المعيار المادي هو باعتراف الجميع مفهوم بدائي بل يكاد يكون همجياً . وهو بالنسبة إلينا ، كمسلمين ، معيار خاطئ لأنه يتنافى مع مبادئ الإسلام التي تتوخى سعادة الإنسان في هذه الدنيا وفي الآخرة ، وتحرص على أن تقيم توازناً دقيقاً بين الروحانية والمادية ، وتغلب فيه الروحانية على المتطلبات المادية للسعادة .

منذ سنوات يتردد مثل شائع في الولايات المتحدة الأميركية ، وهي من أكثر دول العالم « تقدماً » إن لم نقل أكثرها تقدماً على الإطلاق ودون منازع ، يقول Nothing Succeeds Like Success . إن شيوع هذا المثل وكثرة استعماله ، جعلنا نغفل عن مضمونه القيمي . ولو حاولنا ترجمة هذا المثل الأميركي الشائع إلى اللغة العربية لظهر لنا معناه القيمي الخطير ومخالفته لأبسط القواعد الأخلاقية . إذ يقول هذا المثل : « إن النجاح يبرر كل شيء » . و « النجاح » المقصود هنا هو النجاح المادي . هذا يعني أنك إن استطعت أن تحقق الربح المادي أياً كانت الوسيلة التي تستعملها ، فإن هذا الربح يبرّر الوسيلة المستعملة طالما أنك حققت ربحك دون أن تقع تحت طائلة القانون .

لذلك فإن الاثرياء ، أياً كانت السبل التي اعتمدوها لجمع الثروة ، هم سادة هذه الحضارة وهم فيها موضع التقدير والاحترم أكثر من أية فئة أخرى من الناس .

وإن معيار الثروة المادية معتمد لا عند عامة الناس وحسب ، بل عند الخاصة المميزة وكبار المفكرين أيضاً .

وللتدليل على هذا تحضرني القصة التالية : عندما كنت على مقاعد الدراسة سألنا أستاذنا في علم السياسة : ما هو الخطأ الأكبر الذي اقترفه هتلر في الحرب العالمية الثانية ؟ فأجاب أحد الطلاب بأن هذا الخطأ كان في القتال على أكثر من جبهة ، وقال آخر إنه كان ديكتاتوراً لا يستمع إلى العقلاء من مستشاريه . وقال ثالث إنه اضطهد كل من لم يؤيد رأيه . ولم ترض أستاذنا أي من هذه الإجابات على ما فيها من صواب ، وقال لنا بشيء من السخرية اللاذعة : إن خطأ هتلر كان أنه خسر الحرب ، ولو أنه ربح الحرب لكانت هذه الأخطاء كلها التي ذكرتم موضع تقدير واحترام ودليل عبقرية . فالنجاح يبرّر كل تصرف وإن كان خسيساً ، والفشل يزري بصاحبه في كل حال .

وفي هذا السياق سمعت مؤخراً أحد المسؤولين عن الرياضة في الولايات المتحدة الأميركية يقول في حديث إذاعي لمحطة الإذاعة البريطانية (كانون الأول ١٩٩٢م) : « ليس الفوز أهم شيء في الألعاب الرياضية ، إنه الشيء الوحيد » . وكنت أتوقع منه أن يقول إن **المشاركة** هي الأهم أو **بذل قصارى الجهد** ، أو غير ذلك مما كانوا يقولونه لنا يوم كنا ندرس مبادىء التربية والتعليم .

إن مكونات الحضارة الغربية المعاصرة ثلاثة عناصر اجتمعت وتضافرت وتحالفت. وهذه العناصر هي : **رأس لمال ، والآلة ، واليد العاملة** . فقد استطاع رأس المال الذي جمعه الأفراد تارة . والسلطة الحاكمة تارة أخرى ، أن يسخّر الآلة واليد العاملة لخدمته مستعيناً لتحقيق غايته بالعلم والعلماء . فاذا بنا في العصر الحديث أمام مجتمع تخضع فيه العلوم والفنون على اختلافها ، والقيم والأيديولوجيات كلها ، لرأس المال . وإن النظام الشيوعي رغم أنه بدا معارضاً للرأسمالية سوى أنه ، منذ وجد وحتى نهايته . كان متأثراً بالمادية الرأسمالية ومؤثراً فيها ، متفاعلاً معها ومتفقاً معها حضارياً ، من حيث الحرص على تسخير طاقات المجتمع كلها للتقدم المادي . ولئن قام الصراع ردحاً من الزمن بين شقّي أوروبا ، الغربي والشرقي ، فكلا الشقين هما في آخر المطاف من حضارة واحدة . وهذه الحضارة هي الحضارة الغربية ذات السمة التكنولوجية والمادية المميّزة .

والجديد والخطير في هذه الحضارة التكنولوجية والمادية . أنها قد نجحت ، كما لم تنجح أية حضارة من قبل ، في السيطرة على العالم ، فلم يفلت من قبضتها أي شعب من شعوب الدنيا . ودخلت إلى كل بيت . ونتيجة ذلك أصبحت حضارات العالم كله ، شاءت أو أبت ، مجبرة على الأخذ بهذه الحضارة التكنولوجية ـ المادية والتكيّف معها ، مما أدىّ ويؤدي ، تدريجياً ، إلى تحويل الحضارات الأخرى ـ حتى العريقة منها ذات الجذور الضاربة في أعماق التاريخ ـ من حضارات ذات كيان مستقل ونظام قيمي وحضاري قائم بذاته ، إلى حضارات ضعيفة الكيان والأثر ، تتحول مضامينها تدريجياً إلى مجموعات من التقاليد والأعراف هي أقرب إلى **الفولكلور** منها إلى السمات المميّزة لحضارات مستقلة .

وإن القيّمين على الحضارة التكنولوجية الحديثة إدراكاً منهم لما قد يسببه طغيان الحضارة التكنولوجية المادية المعاصرة من ردود فعل أو معارضة عند الشعوب التي تحرص على تراثها ، قد سمحوا للحضارات الأخرى بالبقاء ، وإنما على شكل **فولكلور** ، وطالما أنها لا تؤثر على المسار الجارف للحضارة التكنولوجية / المادية .

كل هذا يعيد طرح موضوع المعيار الحقيقي للتقدم والتخلف على بساط البحث .

لو استعرضنا حضارات الأمم التي شهدها العالم منذ زمن بعيد لوجدنا أنّ لكل حضارة كبرى خاصة مميزة بل خصائص . وهذه الخصائص هي التي تحددت على ضوئها معاييرها - معايير الخير والشر والحسن والقبح والحق والباطل .... الخ - وهكذا نستطيع أن نقول إن الحضارة اليونانية القديمة كانت حضارة « الحكمة » . إذ كانت « الحكمة » ميزتها الفكرية الباقية التي وسمت بها تاريخ الفكر الحضاري العالمي . وربّ قائل بأن ما نعرفه عن حضارة قدامى اليونانيين لم يكن في الواقع متميزاً بالحكمة ، بل إن القوة والبطش كانا أكثر تأثيراً في حياة الناس في عهد اليونان من حكمة سقراط وأفلاطون وأرسطو . وقد يكون هذا القول صحيحاً ، ولكن « الحكمة » هي على كل حال ، خير ما وصلنا من الحضارة اليونانية . فلنقبل « الحكمة » صفة مميزة للحضارة اليونانية على ما في هذا القول من مآخذ .

وقياساً على ذلك لعلّنا على حق إذا قلنا بأن الحضارة الرومانية القديمة كانت « حضارة الإدارة » . فإدارة الحكم ومؤسساته هي التي مكّنت الإمبراطورية الرومانية من السيطرة على الأراضي الشاسعة التي وقعت تحت حكم الرومان .

وقد يقال بأن الحضارة النصرانية ، إن جاز لنا أن نطلق هذا الاسم على حضارة القرون الوسطى هي « حضارة المحبة » . لا على أساس ما كان قائماً في تلك القرون من علاقة محبة بين الناس ، إذ الظلم والقهر ، لا المحبة ، كانا المسيطرين على المجتمعات آنذاك وإنما على أساس ما تتضمنه رسالة عيسى المسيح عليه السلام من دعوة إلى المحبة .

وإن كانت الحضارة المعاصرة هي حضارة التكنولوجيا ، كما بيّنا آنفاً ، فأي صفة مميزة نطلقها على الحضارة الإسلامية ؟ وأي معيار مميّز لهذا الحضارة ؟ وهل هذا المعيار ما يزال قائماً اليوم ؟ وهل هو صالح لهذا العصر ؟ ومقنع لنا ولسائر الأمم ؟ سأحاول فيما تبقى من هذا الحديث أن أجيب على هذه الأسئلة آملاً أن يساعد هذا الطرح في تحديد دور الأمة العربية والإسلامية في بناء الحضارة الإنسانية المعاصرة .

لو استعرضنا آيات القرآن الكريم ، وهو دون منازع أعظم مصدر نستقي منه مبادئنا ومثلنا العليا ومعاييرنا ، وهو الكتاب الذي أثر وما يزال يؤثر في حياتنا كعرب وكمسلمين أكثر من أي كتاب آخر . فإن « العدل » هو المعيار الأسمى الذي استمدته الحضارة العربية الإسلامية من كتاب الله تعالى ، وجعلته ، نظرياً على الأقل ، أساس هذه الحضارة .

فالعدل صفة من صفات الله عزوجل ، وصفة الحاكم الذي يجب أن يطاع ، وواجب المسلم في تعامله مع غيره ، وهو أساس صلاح الدنيا ، وهو المبدأ السائد في الآخرة وهو أساس السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة .

وإن الآيات القرآنية التي تحض على العدل عديدة يكفي أن نذكر بعضها هنا :

يقول الله تعالى :

- ﴿ **آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم** ﴾[1] . فالعدل صفة النبي عليه الصلاة والسلام بأمر من الله عزوجل .
- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾[2] . فواجب المؤمنين أن يتصفوا بالعدل حتى ولو كان غيرهم غير عادل .
- ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾[3] .

---

(١) الشورى : ١٥ .
(٢) المائدة : ٨ .
(٣) النساء : ٥٨ .

ـ ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾[1] .

ـ ﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ﴾[2] .

ـ ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾[3] .

هذه بعض الآيات الكريمة التي تفرض على الناس العدل فيما بينهم ، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين . أصدقاء أم ذوي قربى أم أعداء . فالعدل هو حكم الإسلام وأساس التعامل ، ﴿ وأنّا مِنّا المسلمون ومِنّا القاسطون ﴾[4] .

وإن عدل الله عزوجل ، هو الذي يسود يوم القيامة ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[5] .

والناس يوم القيامة يجزون جزاءً عادلاً : ﴿ فأما من ثَقُلَتْ موازينه فهو في عيشة راضية . وأمّا من خفّت موازينه فأمه هاوية ﴾[6] .

﴿ والوزن يومئذٍ الحقُ فمن ثقُلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾[7] .

ولو استعرضنا تاريخنا العربي والإسلامي لوجدنا أن المؤرخين عبر العصور قد اعتمدوا معيار العدل أكثر من أي معيار آخر للحكم على صلاح الحاكم وحسن أدائه وتقواه . وعلى صلاح الإنسان في معاملاته مع أهله ومع الناس كافة . ولعلّي لا أبالغ إن

---

(١) النحل : ٩٠ .

(٢) المائدة : ٤٢ .

(٣) الحديد : ٢٥ .

(٤) الجن : ١٤ .

(٥) آل عمران : ١٨ .

(٦) القارعة : ٦ ـ ٩ .

(٧) الأعراف : ٨ ـ ٩ .

قلت بأن صفة العدل هي الصفة المميزة الأولى التي يتوخاها العرب والمسلمون فيمن يريدون تكريمه أو امتداحه ، فالصفات والفضائل الأخرى جميعها تأتي دون مرتبة العدل في الأهمية والاعتبار عند تقويم الراعي والرعية .

وليس العدل الصفة الأسمى للمجتمعات البشرية وحسب ، وإنما هو أيضاً الصفة الأصلية للمخلوقات جميعاً . إنها الفطرة التي فطر الله الناس والكون عليها . يقول الله تعالى في سورة الرحمن :

﴿ الرحمن . علّم القرآن . خلق الإنسان . علّمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . ألاّ تطغوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾[1] .

يشير القرآن الكريم في الآيات الأولى من « سورة الرحمن » إلى الإنسان والكون المحيط به وكلهم يسجد للنظام الذي وضعه الله سبحانه وهو نظام يعتمد على « ميزان » أي على توازن عادل بين مختلف المخلوقات والقوى الفاعلة في الكون . ويحذر الله سبحانه تحذيراً صارماً من الطغيان في هذا « الميزان » . والميزان هنا هو رمز العدل والاعتدال والقاعدة لصلاح أمور الناس والدنيا والكائنات جميعاً .

ولا يسعنا ونحن نمعن النظر في هذه الآيات الكريمة من « سورة الرحمن » من أن نلفت النظر إلى انسجام الدعوات المعاصرة للحفاظ على البيئة وحمايتها من تعسّف الإنسان مع ما في هذه الآيات البينات من دعوة إلى عدم التعرض للميزان الطبيعي الذي يقوم عليه العالم .

ثم إن ما سمّي في كثير من الكتابات الحديثة « بوسطية » الإسلام في إقرار الحقوق والواجبات إنما هو التعبير الاجتماعي لفكرة العدل والاعتدال . فما جعل الله المسلمين « أمة وسطا » إلا لأنهم عادلون يضعون العدل على رأس الفضائل .

---

(١) الرحمن : ١ - ٩ .

وليس غريباً ، إذاً ، أن ينصرف الفكر الإسلامي في عهوده المختلفة إلى إيلاء الشريعة الإسلامية اهتماماً خاصاً ، ذلك أن الشرع هو التعبير القانوني لفكرة العدل .

وليس غريباً أن يتمتع القضاة منذ فجر التاريخ الإسلامي ، ومنذ بداية العصر الأموي على وجه التحديد ، بالاستقلالية التي حفظت للقضاة في المجتمع الإسلامي الحرية التامة حتى أمكن اعتبار حرية القضاء واستقلاله مقياساً لصلاح الحكم في الإسلام .

ولأن العدل يمكن أن يكون قاسياً ، قرن الله العدل بالإحسان ، وكتب الله على نفسه الرحمة ، وبشّر الناس بأنه سبحانه يغفر الذنوب جميعاً ولا يغفر أن يُشرك به .

ولأن القانون الصالح ـ أي الشريعة في الإسلام ـ هو القانون الصارم والواضح الذي يمنع أو يسمح ، ويحلل أو يحرم ، لا القانون الذي يفسح المجال لكثرة الاستثناءات أو للاحتيال عليه ، لذلك كان لا بد ـ منعاً للجمود الذي تتميز به القوانين ـ من أن يكون « الاجتهاد » مصدراً من مصادر التشريع في الإسلام ، انطلاقاً من المبدأ القائل بأن القوانين تحتاج دائماً إلى تجديد وتحديث وتطوير وأن « الاجتهاد » حق من حقوق الإنسان الذي تتوافر فيه شروط المجتهد . ولذلك أيضاً ، كان لا بدّ ، منعاً للجمود في الشريعة ، من أن يكون « الإجماع » مصدراً من مصادر التشريع أيضاً ، انطلاقاً من المبدأ المأخوذ من الحديث النبوي الشريف الذي يقول : « لن تجمع أمتي على خطأ » .

إن العدل هو المثل الأعلى الذي تسعى الحضارة الإسلامية لتحقيقه ، وهو المعيار الذي تقاس به الإنجازات الحضارية جميعها ، إنه معيار صلاح الأفراد والمجتمعات والكائنات ، فهل تكون الحضارة الإسلامية حضارة العدل ؟ وهل تكون بالتالي ، الحضارة المنقذة لهذا العصر الذي ساد فيه التطرف في كل مجال ؟ التطرف المادي والتطرف الروحاني . وساد فيه الطغيان في كل مجال ، الطغيان على الإنسان والطغيان على الموارد الطبيعية ، وطغيان التعصب ؟

أسئلة تطرح فتثير عندنا الأمل والخوف في آنٍ ، الأمل بأن ينهض المسلمون برسالة العدل ، والخوف من أن يفشلوا في ذلك فتجرفهم الحضارة المعاصرة وتُذهب ريحهم .

الإنسان ورهانات المستقبل

الأستاذ عبدالهادي بو طالب*

١ ـ تتميز المجموعات البشرية التي خصّها الخالق بموهبة الذكاء بالسعي الحثيث إلى تحسين ظروف عيشها بوسائل شتّى، من بينها تسخير الطبيعة لخدمتها، وابتكار الصناعات، وتحسين المهارات ، واستعمال التقنيات ، وسنّ القوانين والتشريعات ، وتنظيم ظروف العيش . وكل ذلك يعني أن الإنسان مخلوق حضاري .

وكلما تقدم في هذا السبيل ارتقى مستوى حضارته ، وأصبح أكثر سيطرة على الأرض ، وأصبح مجتمعه من أغنى الحضارات وأجدرها بالقدوة .

٢ ـ وفي تلاحقها التاريخي اتسمت الحضارات المتتالية بتنوع مقاصدها وأبعادها وفق المراحل الثلاث التالية :

أولاً : مرحلة الإمبراطوريات الوثنية التي لم تكن تسعى إلا إلى بسط سلطان الغلبة والتي سبقت ظهور الأديان السماوية .

ثانياً : مرحلة الإمبراطوريات الدينية التي عرفها العصر الأخير من الحكم الروماني والتي بلغت أوجها في شكل الخلافة الإسلامية ، معتمدة في الحكم على التعاليم السماوية .

ثالثاً : المرحلة الاستهلاكية التي نشأت في أوروبا واستمرت طيلة ما ينيف على قرنين وتوسعت بتوسع النمط الغربي ، والتي لا تهدف إلا إلى المزيد من التكاثر والاستهلاك .

٣ ـ وإذا كانت الحضارة المعاصرة قد حققت نقلة نوعية هائلة في ميادين المعرفة والابتكار كافة ، فقد جاءت كذلك بنمط من السلوك يكاد ـ من جهة ـ يفرغها من المبادئ التي جاءت بها ، ويتوخى ـ من جهة أخرى ـ أهدافاً غير الأهداف التي أعلنت هي نفسها عنها .

---

* العضو العامل في المجمع الملكي / الرباط ـ المملكة المغربية .

٤ ـ فمن حيث المبادئ ، يبدو واضحاً أن مفهوم الحرية كحق طبيعي للإنسان انتهى في واقـع الأمر ـ ولظروف خاصة بالغرب ـ إلى إبعاد الفـــرد عن القيم الروحيـــة والأخلاقية . وقد ترتب على ذلك طغيان في الأنانية وغرور في السلوك الفردي والجماعي ، كان من نتائجهما أن حلت الكبرياء بالنفوس لتبرر الاستعمار والعنصرية ورفض الآخر .

٥ ـ ومن حيث الأهداف ، فإن التحديث أو « العصرنة » الذي فرضه الغرب على الكثير من الشعوب باسم التمدن ، لم يفلح في إضفاء الكونية على النمط الحضاري الغربي ، لأنه نمط لا يستقيم عوده إلا على جرف خيرات العالم الثالث لفائدة الدول المصنّعة ، مما يستحيل معه انصهار الشعوب جميعها في بوتقته .

٦ ـ ورغم انقراض الحكم الاستعماري المباشر ، فإن منهجه لا يزال يتحكم في العلاقات الدولية ، خاصة في مجال التوازن الاقتصادي حيث تسير عجلة التنمية بسرعتين متعارضتين : تكاثر في الشمال ، وتراجع في الجنوب .

ومما يزيد في حدّة الأزمة أن الهجرة من العالم الثالث قد بدأت تتدفق على الغرب بسبب ما يعرفه الجنوب من تضخم سكاني وتدنٍ في نسبة النمو .

٧ ـ وإذا وُجد إجماع على أن الاستقرار في العالم لن يتأتّى إلا بتعميم التنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعي ، فإن الخلاف يبقى مع ذلك قائماً حول المنهجية التي يجدر أن يتحقق بها هذان الهدفان : أهي الليبيرالية مطلقة العنان ؟ أم هل توجد منهجيات أخرى ؟

٨ ـ وفي غياب جواب شافٍ عن هذا التساؤل ، ولا سيما بعد فشل التجربة الاشتراكية، تسود الليبيرالية مجالات التعامل كلها لتفرض اقتصاد السوق الذي يفرض بدوره رفع يد الدولة عن كل ما يتصل بوسائل الانتاج ، وأن لا تتدخل بالتالي في توجيهه أو الحد من حريته .

- وإذا كان التطور المؤسساتي والتجربة الرأسمالية الراسخة في الغرب يجيزان لشعوبه الانسياق وراء هذه النظرية ، فإن الشعوب الأخرى - وخاصة منها الشعوب الإسلامية - لا يمكنها أن تقبل هذا الخيار ، وذلك لأسباب اجتماعية واقتصادية وحتى عَقَدية تحتم على الدولة أن تبقى الراعي الأول للتوازنات المجتمعية .

١- وهكذا ، ففي الوقت الذي أصبح فيه العالم قرية متماسكة فضائياً ، إذ بإشكالية المستقبل تنبري أمام شعوبه لتطرح رهانات خطيرة ومصيرية من شأنها أن تؤدي برفاهية الشمال قبل أن تزيد من كدّ الجنوب ، لأن ازدهار الأول بني أساساً على أنه سيظل أبداً يمتص قدرات الثاني .

١- بل إن هذه المعادلة أصبحت متجاوزة بعدما برزت ظاهرتان متكاملتان :

أولاهما : تتجلّى في تحول المقاولات الكبرى من وطنية أو متعددة الأطراف إلى نسيج متشابك عالمياً .

وثانيتهما : تعود إلى رفع الحدود أمام الأسواق المالية لتمرير العملات حسبما يقتضيه تيار المضاربات . ومن ثم أصبح الاقتصاد العالمي يخضع لديناميكية شمولية ومستقلة .

١١- وبحثاً عن منهج للخروج من الأزمة العالمية المزمنة ، ما فتىء العديد من المتخصصين الغربيين يقترحون إعطاء الأسبقية لرفع معدل النمو في الدول المصنّعة حتى يمكنها أن تؤدي دور القاطرة بالنسبة لدول الجنوب ، في حين يرى متخصصو العالم الثالث أن تواتر النمو بالشمال لن يستديم إلا بتنمية الجنوب أولاً .

١٢- وطالما استمر النقاش منحصراً في البعد الاقتصادي للأزمة ، فلن يفلح المنظّرون - شماليّين كانوا أو جنوبيّين - في الوصول إلى الحلول الناجعة التي يفرضها المنعطف الحضاري الحالي .

صحيح أن العديد من المنظّمات المتخصّصة بدأت تنادي بإدماج بُعد الثقافة كأحد الأبعاد الأساسية للتنمية ، لكن نداءها لا يزال منحصراً في الخطاب الظرفي دون اعتماد أية منهجية واقعية لبلورته .

١٤- وفي اعتقادنا الشخصي أن مسلسل التكاثر الذي انطلق بانطلاقة الثورة الصناعية منذ أكثر من قرنين قد بلغ حدّه ، بل إنه بدأ في التراجع بحكم تناقص الموارد الطبيعية . وإن كان صحيحاً أن القيمة المضافة المُسهِمة في الثراء ستنجُم استقبالاً عن الابتكارات اللامادية ، فمعنى هذا أن حظّ التقدم سوف ينحصر في النخبة وحدها مما ينذر بهزات اجتماعية أكيدة .

١٥- لذا ، فإن وُجد نظام عالمي جديد يُرتجَى ، فالمؤمّل أنه سيسعى إلى تحقيق مشروع حضاري كوني ، وذلك بسن نمط جديد للتنمية يخلف النمط القائم الذي أصبح يهدد مستقبل المعمور ، نمط يأخذ بعين الاعتبار متطلبات الإنسان كلها من مادية وسياسية وروحية . ولن يتأتى ذلك إلا بالعودة إلى المدلول الحقيقي للحضارة ، ألا وهو البعد الثقافي لكل مشروع بشري .

١٦- وإذا كانت الحضارة المعاصرة قد أعطت دفعاً للابتكارات المادية ، وكشفت للإنسان عن أسرار الطبيعة ، فإنها قد أنْسَتْه - من جهة أخرى - دوره كمستخلف في الأرض . وفي تنكره لهذا الدور تنكر لإنسيته وحتى لإنسانيته التي فقدت أهم ملكاتها ، أعني بذلك سلطان الفكر على غريزة التكاثر والاستهلاك . لذا ، والإنسان اليوم على عتبة مرحلة جديدة ، يجدر به أن يجعل من هذه المرحلة منطلقاً واعداً نحو حضارة إنسانية كونية ، حضارة تمتاز بوحدة الهدف وإن تعددت مشاربها ، تنصهر فيها الثقافات جميعها دون أن تفقد كل واحدة خصوصياتها . وفي هذا الرهان يكمن مستقبل الإنسان ومصيره .

الإنسان ومستقبل الحضارة من منظور إسلامي

الدكتور خورشيد أحمد*

قهر الإنسان البحار وامتطى الأجواء وسخّر قوى الطبيعة لخدمته وأوجد
ـسسات ومنظمات ضخمة ومعقدة لإدارة شؤونه ، ويبدو أن الإنسان قد بلغ ذروة
قدم المادي .

كما يزعم الإنسان أنه أمعن فكره في موقعه من الكون . وقد أخذ يفسر الحقيقة
ستخدماً منطقه والمعرفة التي منحتها له حواسّه . ومع ثقة الإنسان التي اكتشفها حديثاً
ـدرته على استخدام المنطق والعقل ، وبقوى العلم والتكنولوجيا ، فقد عمد إلى نبذ
لاقته بالتقاليد وبالحقيقة المنزلة ، وبضروب الهداية كلها الخارجة عن نطاق ذاته .

وهو يسعى من هذا المكان العليّ إلى رضع العالم في قالب يتفق ونزواته وأهوائه .
ـد أن « العالم الشجاع » الذي خلقه أخذ يسوق المزيد من النساء والرجال نحو خيبة
ل عميقة . إذ إنه رغم التقدم التكنولوجي المعهود والتطور المادي الشامل فإن حالة
ٳنسان أبعد ما تكون عن الاستقرار . فهو يرى القوي يستبد بالضعيف والغني يسيطر
لى الفقير ، والمحرومين يقفون صفاً واحداً ضد ذوي اليسار ، كما يشاهد الظلم
لاستغلال على الصعيدين الوطني والدولي . إنه يرى تفكك روابط الأسرة وانسلاخ
ـرد عن المجتمع ومستوياته ، بل عن نفسه ، ويشاهد سوء استعمال الثقة والسلطة في
ـاحي الحياة الإنسانية جميعها والنشاط الإنساني كله . ومع أنه أظهر قدرته على
ـحليق في الهواء كالطيور والسباحة في المحيطات كالأسماك ، إلا أنه أخفق في إظهار
ـدرته على الحياة على هذه الأرض ككائن إنساني طيب . ويشكك إخفاقه هنا في
ـرته على تصريف أموره دون خطوط هادية للعمل الإنساني .

العضو العامل في المجمع الملكي / رئيس المؤسسة الإسلامية في لِستَرْ بالمملكة المتحدة ورئيس معهد الدراسات
السياسية في إسلام أباد . وهو وزير اتحادي سابق للتخطيط والتنمية . وهو الآن عضو في مجلس الشيوخ
الباكستاني ورئيس لجنته الدائمة للمالية والاقتصاد . وقد حصل الأستاذ خورشيد على جائزة الملك فيصل للعام
١٩٩٠م التي نالها على ما قدمه من خدمات للإسلام وحاصل على جائزة البنك الإسلامي للتنمية سنة ١٩٨٨م
لقاء خدماته المتميزة لتنمية الاقتصاد الإسلامي والرفع من شأنه .

ويجد الإنسان نفسه وقد أمسكت بتلابيبه معضلة . فهو يعتقد أنه وصل قمة الحضارة . ولكن عند الوصول إلى القمة يواجه خواء جديداً أعظم . ويجد نفسه والحضارة التي ساد بنيانها أمام تهديد قوي من صنعه . ويبحث بصورة محمومة عن علاج ينقذ حياته من نذر الدمار الذي يهدد بحرمانه من حلمه الذي ما فتئ يراوده بالسعادة النهائية . ويرى أن نظرته إلى العالم تفتقر إلى معايير محددة تساعد في الفصل بين الصواب والخطأ ، ويكتشف أن علمه وخبرته عاجزان عن إمداده بمقاييس عامة يميّز بها بين الغث والسمين ، ويتبيّن له أن التغيّر ووتيرة هذا التغيّر قد جرفاه وقذفا به إلى مستنقع النسبية ، ولم يبق شيء ملموس ودائم ليكوّن قاعدة لأخلاق الفرد والجماعة . وتتزايد شكوك الإنسان في الاتجاه الذي يسير نحوه . ويؤدّي به العجز عن تبيّن مخرج من هذه الورطة إلى القنوط والغمّ . ويصبح ابن آدم أكثر أنانية وتجاهلاً لبني جنسه ، ولذوي قرباه بقدر ما هو متجاهل الاحتياجات الجماعية للإنسانية . ويعي الإنسان أنه أمام خيارين : إما أن يتخلى عن أي ادعاء سوى أنه ليس إلا حيواناً ويصف نفسه بمرارة على أنه « قرد عار » أو يواصل كفاحه ليستعيد عقله وسعيه وراء نموذج جديد للإنسان والمجتمع .

أزمــــة الحضـــــارة :

هذا هو مأزق الإنسان في العقد الأخير من القرن العشرين . ويعتقد كبار فلاسفة التاريخ جميعهم في القرن الحالي من ازوالد شبنغلر (انحطاط الغرب) ، إلى أرنولد توينبي (دراسة التاريخ) ، إلى بكريم سوروكين (الديناميات الاجتماعية والثقافة وأزمة العصر) أن حضارة الغرب العلمانية الإنسانية السائدة رغم ثرائها المادي وجبروتها العسكري تعاني من آلام أزمة مبرّحة . إذ فقدت القوى التي أدت إلى سيطرة هذه الحضارة قدرتها على الاستقطاب . وها هي قوى التفكك والاضمحلال تتجاوز قوى التعاضد والتماسك ، والمراسي التي ثبّتت السفينة آخذة في التداعي ، والقيم التي جمعت الناس معاً تعاني من الاضطراب . ولم تعد العلل مقصورة على قطاع واحد أو عدد قليل من القطاعات بل أصبح نهر الحياة برمته ملوّثاً .

وصف جوزيف أ. كاميللري ، وهو محلل نافذ البصيرة لتاريخنا المعاصر ، أزمة عصرنا هذه وصفاً لامعاً فقال : « إن الأزمة الإنسانية المعاصرة على درجة من العمق والشمول بحيث أن كل محاولة لتحليلها ـ ناهيك عن حلّها ـ تبدو عصية على قدرة العقل والتصوّر الإنساني . وها هي المعركة من أجل البقاء يخوضها الآن ملايين البشر الذين يتصف وجودهم المتقلقل بالفقر والقذارة وحتى الجوع . وتترك محنة الإنسان بصماتها على مستقبل أمم بأسرها يتهدّدها العدوان الخارجي والتمزّق الداخلي . وتسيطر هـذه المحنة على شبكة العلاقات الدولية الضخمة التي تقوم على بنيان هش « لميزان الرعب » الخطر والمهزوز .

أما المفاهيم التقليدية للزمان والمكان والحركة فقد أطاحت بها الثورة التكنولوجية والانتقال إلى ثقافة استغلالية مرتكزة على القوة . وتمخضت الثغرة الاجتماعية والنفسية والفراغ ، وهي العواقب التي تلت ذلك ، عن أزمة خانقة للمصير وهروب واسع النطاق من الواقع .

إن الأزمة التي تواجه إنسان القرن العشرين عالمية في الحقيقة ليس فقط بسبب عدد لا يحصى من الرجال والنساء ، ولكن بالمعنى الأبعد أثراً والذي مفاده أنها تتخلل جميع أنسجة العلاقات والمؤسسات الإنسانية وتفسدها ، وها هي الآن تشوّه كل علاقة للإنسان بالنظام الطبيعي ... وليس في وسع أي مجتمع إنساني أو فرد أو ركن من أركان الأرض مهما كان نائياً ومنعزلاً ، ومهما بلغ من قوّة وموارد ، أن يهرب من الفوضى التي تفعل فعلها في المعمورة بكاملها ... ولعل أفضل وصف يمكننا أن نطلقه على الأزمة العالمية هو أنها خلل أساسي في التوازن يقيّد بشدة قدرة البشر على التكيف البيولوجي والثقافي مع بيئتهم ، وقد يؤدّي هذا الخلل إلى القضاء على هذه القدرة في نهاية الأمر .

ولعل من أكثر ضروب السلوك شيوعاً في المجتمع الصناعي الحديث ، الانهماك في الامتلاك والاكتساب بدلاً من الوجود والصيرورة ، والافتتان بالحصول على القوّة من أجل السيطرة بدلاً من التحرير ، والشعور العميق بالعزلة بدلاً من المشاركة في واقع اجتماعي أوسع ، والاتجاه نحو جعل العمل وأوقات الراحة وسيلة لقتل الوقت بدلاً من قضائه في عيش حياة مبدعة والميل إلى سيكولوجية تتجه نحو تفضيل العيش وسط مجتمع تفضيلي يقوم على التمييز الجنسي أو العرقي أو المذهبي أو القومي ، وهو ميل

لحل الصراعات عن طريق استخدام القوة والتهديد باستخدامها بدلاً من التعايش المنفتح مع الآخرين . وإن ما يميز النظام الذي تجاوز المرحلة الصناعية ، وانتشار إمبراطوريته في شتى بقـــاع الأرض ، هو الدرجة العاليـــة التي حققها المرض الاجتماعـــي فـــي مجال « المأسسة » (إضفاء الطابع المؤسسي) من خلال نظام هرميّ في النزوة والقوة والمعرفة ، وأهم من ذلك كله ، من خلال احتكار متزايد للانتاج الصناعي الفائض عن تلبية الحاجات الإنسانية ... وقد بلغ التكامل المؤسسي لهذا السلوك العليل أبعاداً أصبح معها مجرد بقاء الحياة البشرية ، وليس نوعيتها فقط ، في خطر . وإذا ما كان ذلك تشخيصاً دقيقاً لوضع حضارتنا الخطير المتدهور ، فإنه لا يحتمل أن يكون أي علاج تدريجي أو مؤقت أو محدود علاجاً ذا جدوى . وسيبدو أنه من أجل الإبقاء على التطور العضوي للجنس البشري لا بد من تطوير منظورات وردود جذرية وعالمية »[1] .

إن أحدث تقرير صادر عن نادي روما بعنوان « الثورة العالمية الأولى » (١٩٩١) والذي جاء بمثابة متابعة لتقرير سابق نشر عام ١٩٧٢ تحت عنوان « حدود النمو » لا يمثل آخر مؤشر على هذه الأزمة وحسب ، بل إنه أيضاً نداء بليغ للبحث عن مخرج من الأزمة وذلك بالرجوع إلى الأساسيات الأولى . ويستهلّ التقرير بملاحظة بارعة الإيجاز تقول : « يبدو أن البشرية واقعة في إسار شعور بانعدام اليقين في آخر هذا القرن وعلى عتبة قرن جديد ، إلا أن نهاية الألف الثاني بعد الميلاد تجلب في ثناياها مسحة أعمق من الغموض بما يلازمها من إحساس بالتغيير السريع وما يرافقه من شكوك »[2] .

ويعترف التقرير أنه رغم التطور الاقتصادي غير المعهود ، فإن حوالي ٣ر١ مليار من الناس أو أكثر من ٢٠٪ من سكان العالـــم يعانون من الأمراض الخطيرة أو سوء التغذية . وجاء في التقرير - كحقيقة لا مراء فيها - « إن التناقضات الاقتصادية في العالم والمظالم الصارخة والفقر الهائل المدقع تقف في مواجهة ثراء فاحش » . وإن « جميع ضروب التوترات والصراعات آخـــذة في الظهور هنا وهناك في مختلـــف أصقاع المعمورة » . ويركّز التقرير على « الوضع المعاصر » على « أنه شعور بأن البشر في لهاثهم

(١) جوزيف أ. كاميللري ، الحضارة في أزمة : آفاق إنسانية في عالم متغير ، مطبعة جامعة كمبردج ، كمبردج ١٩٧٦م ، ص ١-٢ ، ٥ ، ٩ ، ١١ ، ١٧٩-١٨٠ .

(٢) الكسندر كنغ وبرتراند شنايدر ، الثورة العالمية الأولى (تقرير صادر عن مجلس نادي روما) ، سيمون وشوستر ، لندن ١٩٩١م ، ص : ١٥ .

وراء المكاسب المادّية عن طريق استغلال الطبيعة إنما يسرعون نحو دمار هذا الكوكب ذاته . وفي معرض تأكيده على « التوعك الإنساني » يقول التقرير : « إن موجات الصدمة التي تمخضت عنها التغيّرات الكاسحة الناجمة عن أول ثورة عالمية لا تستثني أية منطقة أو مجتمع . وقد أدى هذا الزلزال إلى فصم عرى العلاقات والنظم الاجتماعية التي ورثناها عن الماضي دون وضع خطوط هادية تدلنا على مسارنا في المستقبل .

« وهناك العديد من أسباب الشكوك واليأس مثل اختفاء القيم والمرجعيات ، وازدياد العالم تعقيداً وغموضاً ، وصعوبة فهم المجتمع العالمي الجديد ، والمشكلات غير المحلولة كالتدهور المستمر في البيئة ، وأثر وسائل الإعلام التي كثيراً ما تؤدي دور العدسة المكبّرة في وصفها لواقع مرير ، وترديدها ألحان الكارثة »[1] .

وفي معرض تصويره لطبيعة التحدي ومداه يقول التقرير : « لم يحدث من قبل في التاريخ أن واجه الجنس البشري هذا العدد الكبير من التهديدات والأخطار ، وبعد أن قذف به ، دون أن يكون مستعداً ، في خضم عالم تلاشى فيه الزمان والمسافات ، وقع الإنسان في براثن دوامة عالمية ناجمة عن عوامل غير مترابطة على ما يبدو ، وتشكّل أسبابها ونتائجها تيهاً لا سبيل إلى الخروج منه في نهاية هذا القرن ، وقد غرق في لجج ظاهرة تنتابه من كل حدب وصوب ، لقد غرق - وليس في هذه الكلمة من مبالغة هنا - لأن البنى والمؤسسات التقليدية لم تعد قادرة على مواجهة المشكلات في بُعدها الحالي ، ومما زاد الوضع سوءاً أن البُنَى غير الملائمة التي عفا عليها الزمن محاصرة بأزمة خلقية حقيقية . فهناك اختفاء لنظم القيم ، وتساؤل حول التقاليد ، وانهيار في العقائديات ، وغياب للرؤية العالمية ، ومحددات الممارسات الديمقراطية الراهنة ، وكلها تؤكد وجود الخواء الذي يقف للمجتمعات بالمرصاد . ويشعر الأفراد بالعجز وكأنما أخذ بخناقهم ظهور أخطار لم تعرف ، وعجز عن إجابة تأتي في وقتها الملائم عن مشكلات معقدة ، وتتصدى لجذور الشر وليس لعواقبه فقط »[2] .

---

(١) المرجع نفسه : ٨٧ .

(٢) الكسندر كنغ وبرتراند شنايدر ، الثورة العالمية الأولى : ٥٩٥ - ٥٩٦ .

ومن اللافت للنظر والمفيد أن نلاحظ أن هذا التقرير وهو يجيل الفكر في هذه المعضلــة ، يطالب بني آدم بالتأمل في سورة « العصر » في القرآن الكــريم التي تقول : ﴿ **والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾[1] .

البديــل الإسلامــي :

لا بد أن يوحي أي تحليل موضوعي لأزمة الحضارة المعاصرة بأن الإنسان يقف على مفترق طرق خطير . وأن المزيد من هذا الوضع ما هو إلا وصفة مؤدّية نحو الكارثة. ويتوقف البقاء على بداية جديدة وعلى إعادة اكتشاف للمراسي الخلقية التي تثبت السفينة الإنسانية ، والتوكيد على رؤية للإنسان والمجتمع قائمة على فهم خلقي للعالم وللإنسان ومصيره .

وعند هذه المرحلة يحتاج الإنسان إلى اكتشاف كلمة الله التي تنبؤه عن وجود خالقه وعن الهدف من خلقه وتعلمه بمكانته بوصفه أفضل المخلوقات ، وتمده بالهداية ليعيش حياة حافلة بالإنجاز والإنابة ، وتخبره عن الآخرة وتعلمه قيمة بني جنسه ، وتجعل كل ما عدا ذلك خاضعاً لقاعدة الحق ، وقصارى القول ، تمكنه من أن يكون في حالة وئام مع ذاته ومع المخلوقات جميعها وخالقها .

وفي مواجهة لهذا التحدي الحقيقي الحالي للبشر ، لا بد أن ينادي أبناء آدم جميعهم ذكوراً وإناثاً بملء أصواتهم أن المشكلة الحقيقية ليست قضية نظام اقتصادي جديد أو ترتيب سياسي جديد ، بل هي قضية نظام عالمي جديد يقوم على مفهوم جديد للإنسان ورؤية مختلفة للمجتمع الإنساني . ولا بد أن يبدأ أي مسعى للإصلاح يستمد إلهامه من الأديان العالمية عامة ومن الإسلام خاصة بتصحيح هذا المنظور من أجل فهم المأزق البشري .

(١) المرجع نفسه : ٨٩ ، والقرآن الكريم : العصر : ١ ـ ٣ .

ولا تكمن الحاجة الحقيقية في طلب تنازلات من هنا وهناك بغية إحداث بعض تغيرات في البنى العلوية ، بل تكمن في إعداد دراسة دقيقة للأسس التي يقوم عليها بناء لمجتمع والاقتصاد برمته ودراسة للمثل العليا التي تتطلع الثقافة إلى تحقيقها . إن أزمة علاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية نتيجة طبيعية لتلك المثل العليا والبنى التي نيمت للوصول إليها . ولذلك يرى الإسلام أن السبيل الوحيد لترتيب البيت الإنساني ـو رؤية جديدة للإنسان والمجتمع . ويتطلب هذا الأمر تغيّراً جوهرياً في السبيل الذي سلكه .

أما المنحى الذي ينحوه الغرب فيفترض أن بالإمكان إحداث تغيير من خلال تغيير بيئة . وهذا هو السبب الذي يفسر التركيز المستمر على التغيير في البنى . ويتمثل خفاق هذا التغيير في تجاهل تركيزه على الإنسان وعلى معتقداته ودوافعه وقيمه التزاماته . وقد فشل هذا الأسلوب في التوصل إلى نتائج ملائمة ، ولم يلتفت للحاجة ى إحداث تغيير في داخل نفوس البشر ذكوراً وإناثاً بل أولى اهتماماً أكبر بتغيير العالم لخارجي . بيد أن الحاجة تدعو إلى تغيير شامل داخل نفوس البشر إضافة إلى تغيير في بيئتهم الاجتماعية . وليست القضية بنيوية وحسب ، وإن كان لا بد أيضاً من إعادة شكيل الترتيبات البنيوية . ولكن لا مندوحة عن جعل نقطة الانطلاق تبدأ من قلوب ناس وعقولهم وإدراكهم للواقع ومكانهم ورسالتهم في هذه الحياة .

ويولي تناول الإسلام للتغيير الاجتماعي اهتماماً بهذه العناصر كافة .

ـ فالتغيّر الاجتماعي ليس نتيجة قوى تاريخية مقررة كلها مسبقاً . إن وجود عدد من العوائق والمقيّدات هو إحدى حقائق الحياة والتاريخ ، إلا أنه لا توجد هناك حتمية تاريخية . ولا بد من التخطيط للتغيير وهندسته ولا بدّ لهذا التغيير أن يكون هادفاً ، أي أن يمثل تحرّكاً نحو المثل الأعلى .

ب ـ الإنسان هو العامل النشط في التغيير ، وقد أخضعت له القوى جميعها بصفته خليفة الله في الأرض . وضمن إطار الترتيب الإلهي لهذا الكون وقوانينه فإن الإنسان نفسه هو المسؤول عن صنع مصيره أو تدمير ذلك المصير .

جـ - يتكون التغيير من تغيير في البيئة وكذلك داخل قلوب البشر وأرواحهم تغيير في اتجاهاتهم ، ودوافعهم ، والتزامهم ، وتصميمهم على تعبئة كل ما هو داخل ذواتهم وخارجها بغية تحقيق أهدافهم .

د - إن الحياة شبكة من العلاقات المتبادلة المتداخلة . وينطوي التغيير على فصم بعض هذه الروابط في بعض النواحي والمجالات . ولذا فثمة خطر من أن يصبح التغيير وسيلة للإخلال بالتوازن داخل النفوس والمجتمع على حد سواء . أما التغيير الإسلامي التوجّه ، فسينطوي على حد أدنى من الاحتكاك والاختلالات ، وذلك لأن هذا التوجيه يرقى في حركة مخططة منسّقة من حالة توازن إلى حالة أعلى ، أو من حالة اللاتوازن إلى حالة التوازن . وبناء على ذلك لا مفرّ من أن يكون التجديد متوازناً وتدريجياً وتطورياً ، ويجب أن يقترن التجديد بالتكامل . إن هذا المنحى الإسلامي الفريد هو الذي يؤدي إلى تغييرات ثورية باتباعه مساراً تطورياً وارتقائياً .

وإذا ما نفّذت هذه التغييرات الأساسية ، فإنها ستحدث ثورة في المنحى الذي ننحوه تجاه مشكلات نظام عالمي جديد .

ويجسّد الدين الإسلامي كلمة الله النهائية التامّة . وهو تجسيد لدستور الحياة الذي أنزله الله ، خالق هذا الكون وسيده ، هدى للناس . ويجمع الإسلام بين الإنسان والله ومخلوقاته بطريقة متكاملة تجعل الإنسان يتحرك متعاوناً مع الموجودات كلها . وقد أدّى إهمال هذا البعد إلى إقفار الحياة الإنسانية وجعل من غالبية انتصارات الإنسان المادّية أموراً لا معنى لها . لقد جرّد الغلوّ في العلمانية الحياة الإنسانية من أهميتها الروحية ، لكنه لا يمكن بلوغ العظمة الروحية بمجرّد تحرّك رقاص الساعة إلى نهاية الطرف الآخر . ولا يمكن التوصل إلى التناسق والتوازن إلا بدمج الأمور المادية بالروحيّة . هذا هو المبدأ الذي ينفذه الإسلام : إنه يضفي الطابع الروحي والديني على كل ما في الوجود . وينادي بتناغم المشيئة الإنسانية مع المشيئة الإلهية ، هذا هو السبيل المؤدّي إلى تحقيق السلام في الحياة البشرية . ومن خلال السلام مع الله يتوصل البشر إلى السلام في النظام الإنساني إضافة إلى السلام مع الطبيعة في داخل أنفسهم وخارجها على حد سواء .

وفي بحثنا عن نظام عالمي جديد الآن ، يؤكد الإسلام أنه لا مندوحة لنا عن
طلع إلى نظام جديد للحياة قادر على تناول المشكلات الإنسانية من منظور مختلف ،
يس من منظور المصالح القومية أو الإقليمية الضيقة بل من منظور ما هو حق وباطل
فضل السبل للكفاح من أجل الخروج بنظام عالمي عادل وإنساني على مختلف الصعد
، حياتنا : الفردية منها والوطنية والدولية .

أما أن النظام الحالي يتميز بالظلم والاستغلال ، فأمر ثابت لا مجال فيه لأي شك .
كن الإسلام يقول إن النظام الحالي يفشل لأنه يقوم على مفهوم خاطئ للإنسان وعلاقته
م الكائنات البشرية الأخرى ومع المجتمع والطبيعة والعالم . ويقودنا البحث عن نظام
ـديد نحو الحاجة إلى مفهوم جديد للإنسان ودوره . ومن وجهة نظر الأديان العالمية
امة والإسلام خاصة ، لا غنى عن تحويل الاهتمام نحو رؤية جديدة للإنسان والمجتمع ،
نحو بذل جهود لإحداث تغيير على صعيد الوعي الإنساني للقيم وهو الوعي الذي
ـود إلى تحوّل ثقافي .

الإسلام حركة اجتماعية من أجل التغيير الاجتماعي . ولا يقتصر على تقديم
فهوم واضح للمجتمع وحسب ، والبحث عن سبيل للوصول إلى التغيير الذي صبا إليه
بشر عبر التاريخ فقط ، بل إنه يقدّم أيضاً خطوطاً هادية لرسم سياسة اقتصادية
جتماعية، ونحو مؤسسات رئيسية تضمن تنفيذ تلك السياسة ، وسعي اجتماعي منظّم
ـت قيادة منضبطة للاطمئنان على حدوث هذه التغييرات في المكان والزمان .

ولدى المسلمين هذا المنحى الحر في التوجه نحو الدين . ويعمل هذا النموذج
لى ثلاثة مستويات : مستوى الفرد والمجتمع والعالم . فبداية ، لا يمكن تحقيق التغيير
لطلوب ما لم يكن لدى الفرد وعي وإيمان جديد ، وتصوّر جديد لدوره . وثانياً على
ـعيد المجتمع ، وقد يكون على المستوى الوطني أو القومي في بادئ الأمر ولكنه على
ستوى العالم بأسره في النهاية . وتتمثل الاستراتيجية الإسلامية في انطلاقها من خلق
عي جديد لدى الفرد الذي يتشرّب قيمها ويجاهد في العمل على إقامة حياة عادلة لا
قوم علـى النظرة النفعيّة أو السعي وراء مصالح فرد أو جماعة ، بل علـى فعل ما هو
حق وعـدل .. ويبيّن لنا القرآن كيف يجب تناول قضية فردية علـى الصعيد العام عندما

يقول إن ﴿ مَنْ قَتَلَ نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومَنْ أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾[1] . هذا هو الأسلوب الذي يتحوّل منه الحادث الفردي إلى مشكلة عالمية ويبين كيف ينتقل الحدث إلى نطاق القيم .

ولا يدافع الإسلام عن الوضع الراهن ، بل هو بدلاً من ذلك نقد للحياة الإنسانية بما فيها حياة المسلمين وتنظيم المجتمع الإسلامي . والمجتمع الإسلامي الحالي قاصر كل القصور عن المعايير الإسلامية . وعلى ذلك نرى أن لا غنى عن تغيير المجتمع الإسلامي من أجل إقامة تلك المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تقيم العدل في العلاقات الإنسانية . ويودّ الإسلام وضع السلطة السياسية تحت سيطرة مثله الخلقية العليا . ويمكن إقامة مجتمع ودولة من هذا القبيل نتيجة تحرك اجتماعي موجّه نحو إحياء إسلامي . وعندئذ يصبح العالم الإسلامي في وضع يؤدي فيه دوره العقائدي في العالم ، بأن يجعل موارده الإسلامية الخاصة متاحة لبناء مجتمع نموذجي يتمتع فيه بالسلطة السياسية ثم باقتسامها مع الآخرين لصالح العدالة ، سيراً على المبدأ نفسه الذي اتبعه النبي عندما ساعد أهل مكة الذين أصابتهم المجاعة مع أنهم كانوا يقفون ضده من الناحية السياسية .

ولم تكن الدولة الإسلامية في حالة حرب مع البشر كبشر ، ولكن فقط مع المؤسسات التي تمثل السلطة السياسية ذات النزعة المعادية . وقد يؤدي ذلك إلى قيادة البشر نحو النماذج لنظام عالمي جديد حيث تمارس العدالة في التعامل مع الجميع أعداء كانوا أو أصدقاء ، وحيث يمكن اقتسام الثروة مع المحتاجين لأسباب مصلحية بل بدافع العدالة .

وفيما يلي القيم الأساسية التي يقوم عليها هذا النظام العالمي (الإسلامي) :

١ ـ التوحيد : (وحدانية الله وسيادته)

هذا هو الأساس الذي تقوم عليه نظرة الإسلام إلى العالم وخطته في الحياة . فهو يضع قواعد العلاقات بين الله والإنسان وبين الإنسان والإنسان . وليس التوحيد مجرّد عقيدة غيبية ، إذ إن الاتجاه الإنساني نحو واقع اجتماعي جزء لا يتجزأ من هذا الاعتقاد . ويعني الإيمان بوحدانية الله وسيادته أن البشر جميعهم متساوون وأن حقوق العباد امتداد طبيعي لحقوق الله .

---

(١) المائدة : ٣٢ .

وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ **أرأيت الذي يكذب بالدين ، فذلك الذي يدعّ اليتيم ، ولا يحضّ على طعام المسكين ، فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراؤون ، ويمنعون الماعون** ﴾[1] .

٢ ـ الخلافة : (خلافة الله في الأرض)

يعرّف الإسلام مكانتنا في الدنيا بأننا خلفاء الله أو وكلاؤه ونوّابه . وكل شيء موجود موضوع تحت تصرفنا بغية تحقيق هذا الدور وهو بمثابة وديعة في أيدينا . ومعنى ذلك أننا لسنا سادة بل نحن وكلاء لله ويجب أن يكون مدار اهتمامنا الأول تنفيذ مشيئة الرب . فنحن بمثابة أمناء في كل ما يوجد في الكون ، وكل ما يتعلق بقدراتنا الشخصية وما هو في حوزتنا من ممتلكات . ويجب ممارسة السلطات كلها ضمن إطار هذه الأمانة كما أننا عرضة للمساءلة عما نعمله . ويشترط هذا المبدأ مشاركتنا الفعالة في الحياة كما يدعونا إلى معاملة المخلوقات كافة ، ليس معاملة الأعداء ، بل معاملة الأصدقاء والشركاء الذين خلقوا لتنفيذ الغايات نفسها . إن المفهوم الإسلامي للمساواة والأخوة بين البشر ، وإيجاد أخوّة العقيدة في الأمّة من العناصر الأساسية في مبدأ الخلافة هذا وفي وضعنا كرعاة وأمناء .

٣ ـ إقامة العدل بين الناس

إقامة العدل بين الناس أحد الأهداف الأساسية التي اختار الله من أجلها أنبياءه وأنزل هدايته[2] . وللبشر كلهم الحق في جميع ما وفّره الله ولذا لا بدّ من اقتسام هذه الخيرات بالعدل[3] . وللفقراء والمساكين حق في أموال الأغنياء والمجتمع[4] . ويجب مساعدتهم وتمكينهم من المشاركة في الكفاح من أجل العيش بفاعلية وكرامة .

---

(١) الماعون : ١ ـ ٧ .

(٢) الحديد : ٢٥ .

(٣) ابراهيم : ٣٢ ـ ٣٤ .

(٤) الذاريات : ١٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ ـ السلطة الاقتصادية والسياسية ليست شراً

إن تسخير السلطة الاقتصادية والسياسية لتحقيق أهداف خلقية جزء من رسالتنا الدينية . وبدلاً من أن تظل أدوات للعسف والاستغلال ، يجب جعلها في خدمة أغراض العدالة والأمر بالمعروف والفضيلة والنهي عن المنكر والرّذيلة(١) .

٥ ـ لا وسطاء بين الله والانسان

تجلّت هداية الله لنا في صورة كتابه وسنة نبيّه التي هي قدوتنا في الحياة . ويقرر هذان المصدران بوضوح المثل العليا والقيم والمبادئ التي نحتاج إليها في بناء حياتنا الفردية والجماعية على الصدق والعدالة ، ويوجد في هذه الهداية آليّة لتلبية مطالب الأزمان المتغيرة . والتغيّر والتطور من الأمور الممكنة ضمن هذا الإطار . ولا خلود إلا للشريعة الإلهية ، أما الوسائل البشرية جميعها فمؤقتة ومقيّدة بالزمان . واتّباع القانون الإلهي هو أقوى ضمانة ضد التحكم البشري والانتكاس في الظلم .

هذه هي المبادئ الأساسية التي يريد الإسلام أن يعيد بناء النظام العالمي على أساسها . وأول ما يريد الإسلام الإسهام به هو على صعيد تناول الفرد لهذه المشكلة . ويتبنى الإسلام منحى شمولياً يقوم على التقدير الروحي للحقيقة . فهو يتناول البشر ضمن سياق وجودهم الشامل . ومن حيث علاقتهم بخالقهم ومخلوقاته جميعهم . ولا يقر أي فصل بين المادة والروح ولا بين الأمور المادية والمعنوية . كما أنه يخرج ما هو ديني مما هو علماني ويعامل الحياة وكأنّها متكامل متناسق .

ويؤيد الإسلام التغيير الشامل وذلك بخلاف العقائد المعاصرة جميعها وبعض النظم الدينية التي تكتفي بالتغيير الجزئي . كما أنه يطهّر الفرد ويعيد بناء المجتمع ، دافعاً كليهما بذلك للارتقاء نحو مثل أعلى أكثر سموّاً : وهو تنفيذ المشيئة الربّانية .

ويقوم منحاه على القيم وليس على مطالب المصلحة شخصية كانت أو وطنية . ونظرته إيجابية بناءة لا سلبية هدامة . إنه يسعى نحو تحقيق مصلحة الفرد الخلقية المعنوية والاجتماعيـــة والاقتصادية . ويؤيد تحقيق العدالـــة في نواحي الحياة الإنسانية جميعها .

(١) البقرة : ١٤٣ ، آل عمران : ١١٠ .

ويقف إلى جانب مبدأ الخير والعدالة العامين ، ويطلب إلى المجتمع الإنساني بأسره العمل على تحقيق هذا المبدأ . إنه يؤكد على نزاهة الفرد وقداسة حقوقه الإنسانية ذكراً كان أو أنثى ، على أنها حقوق كفلها الخالق ، كما يسعى إلى إقامة نظام اجتماعي يسوده السلام والكرامة والعدل .

وتتألف استراتيجية الإسلام لإقامة عالم كهذا من دعوة بني البشر جميعهم لسلوك هذا السبيل بصرف النظر عن ألوانهم وأجناسهم ولغتهم وقومياتهم وأصلهم العرقي أو التاريخي . ولا تتحدث بلغة مصالح الشرق أو الغرب ، الشمال أو الجنوب ، البلدان المتطورة أو البلدان المتخلفة : إنها تريد إقامة النظام الجديد للبشر جميعهم في أرجاء المعمورة كافة . ومن خلال هذا المنحى الشامل يريد الإسلام إحداث وعي جديد بالمثل العليا والمبادئ التي يجب أن يعاد بناء بيت الإنسانية عليها ، وتدعو هذه المثل والمبادئ إلى إعلان مضامينها المتعلقة بإعادة بناء الفكر الإنساني والسياسة .

كذلك يطلق الإسلام حركة اجتماعية وهي حركة دولية تشمل جميع أولئك الذين يتقبلون هذه المثل والمبادئ من أجل إقامة النظام الجديد . والإسلام توّاق لإقامة النموذج الجديد في أية بقعة في العالم . وإذا ما بنى العالم الإسلامي نظامه الاجتماعي على هذه المبادئ فإن بإمكانه أن يكون المثال الحي على هذا النظام الجديد . بيد أن الواقع الراهن للمسلمين بعيد غاية البعد عن المثل الأعلى . وما إن ترفع دعائم هذا النموذج في جزء ما من العالم ، حتى يصبح بالإمكان اقتسام هذه التجربة مع الباقين جميعهم كما يتقاسم الناس جميعهم ضوء الشمس . وتتوقف احتمالات ذلك إلى حدّ بعيد على الحركة الإسلامية التي تحاول أن تشكل رأس الحربة في هذا المسعى الاجتماعي من أجل بناء نظام عالمي جديد .

الانبعاث الإسلامي والنظام العالمي الجديد

إن الانبعاث الإسلامي المعاصر فريد في شمولية طابعه وثراء عمقه ، وقد كافحت العقائد السياسية من أجل تحقيق وحدة مشابهة لكنها أخفقت جميعاً بعد نجاح ظاهري قصير الأمد . فقد أثبتت قومية جمال عبدالناصر العربية فشلها بعد أن خدعت العالم العربي . أما نظاما الحكم البعثيان السوري والعراقي فلا يعملان إلا نتيجة الإجراءات القمعية الشديدة التي يلجآن إليها . وأما المهزلة السوفيتية فقد باءت بإخفاق

مخز في الاتحاد السوفيتي السابق وأوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية وأمريكا الوسطى وإفريقيا . وها هي الاشتراكية تتراجع لتقبع في زوايا النسيان بينما وحّد الإسلام عبر القارّات شعوباً مختلفة فــي أعراقها وثقافاتها . ولــم يترك مجالاً « للإسلام العربي » أو « الإسلام الباكستاني » أو « الإسلام التركي » ، بل يوجد الإسلام لا غير . وهكذا نرى وحدة دون تجانس ضمن شمولية الإسلام .

والمسلمون عامة ولا سيما الكثير من زعماء التجديد الحالي يمارسون نقد الذات بقدر ما هم مختلفون من ناحية عرقية . وتهدف هذه الرغبة في إعادة النظر في الرموز التي أدخلت ضمن التقليد الديني ، إلى إعادة بناء مفاهيم معيّنة في الإسلام على الصعيد الروحي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي . وعليه فإن بالإمكان تعريف روح التجديد الإسلامي بأنها عودة إلى جذور الطابع الإسلامي الأصيل .

ويرى المسلمون في هذه العودة إلى « المنبع » قوة تحررية ، لكن المجموعات العلمانية والغرب يصفونها بأنها « أصولية » . غير أن إحياء العقيدة وإقامة أسس الدين الذي يشكل الأساس الذي تقوم عليه الحياة الإسلامية لا يماثل « أصولية » تغرق نفسها في حمأة التفكير الرجعي العنيف والتفكير الرغبي القائم على الأماني المجردة . إنه بالأحرى يأتي في ثناياه بتجديد في المنحى ، والالتزام ، وبالحركة والمرونة والقدرة على مواجهة التحديات الراهنة . ويعيد الكثيرون اكتشاف الإسلام على أنه مصدر للحضارة والثقافة وعامل ضروري في تكوين صورة المجتمع .

وتنطوي المرحلة الحالية من الانبعاث الإسلامي على ابتعاد عن التقليد الأعمى للنموذج الغربي متخذة منحى انتقائياً فيما يجب اقتباسه من الحضارة الخارجية وما لا يجب . ويمكن للمجتمع الإسلامي الاستفادة من التجربة الغربية في عدد من الطرق ، لكن دون أن ينوى الإبقاء إلى الأبد على فرض الثقافات الغربية على حساب ثقافته .

وكثيراً ما يطرح المراقبون السؤال التالي : هل في مقدور البلدان الإسلامية رفض خيارات معينة مقابل التنمية والتكنولوجيا وغير ذلك ؟ نقول بكل بساطة إنها لا تهدف إلى الرفض ، غير أن القضية الحقيقية تتمحور حول نوع التنمية المعروضة وماهية الأهداف التي تسعى إليها . ويخشى المسلمون أن يكون التطور أو التنمية المعروضة على

بلدانهم تفسيرات حديثة للشعار الأوروبي حول عبء الرجل الأبيض . وهو قوة « تحضيرية » (داعية إلى التمدن) ستؤثر سلبياً على التنمية الاقتصادية والاجتماعية والمعنوية الخلقية والعقائدية . كما يتساءل المسلمون حول مستقبل الروابط بين الدول الإسلامية . وهل سيكتب على البلدان الإسلامية التي رسم الاستعمار حدودها أن تتفكك ويعاد رسم خريطتها أو هل سيستمرّ وجودها كدول قومية ؟

من الناحية الواقعية لا يوجد تراجع في التاريخ ، وعلى المسلمين أن يحققوا تقدماً وإبداعاً أكثر مما حققه أسلافهم . إن الدولة القومية مقبولة كنقطة بداية بيد أنها ليست مثلاً إسلامياً أعلى . إنها واقع جو سياسي إذا تم تقويضه بصورة تحكمية فإنه سيخلق فراغاً سياسياً تملؤه الفوضى . ولذا لا بدّ من إذكاء شعور التضامن داخل الأمة الإسلامية وتشجيع مزيد من التعاون والتكامل بين البلدان الإسلامية . وتقرر المثالية الإسلامية أن كل دولة قومية ستتحوّل في نهاية الأمر إلى دولة عقائدية وبذا تخلق إطارا لمجموعة أمم من المناطق الإسلامية . وواقع الحال أنه إما أن الغرب يحسّ بهذا المفهوم وبالتالي يخشى منه وهو مخطئ ، أو يرى ، نتيجة لقصر النظر ، أن المرحلة الحاضرة في أسلمة الدول الإسلامية مقدمة محفوفة بالخطر متجهة نحو الفوضى ولا بدّ من إيقافها .

لقد أخفق الغرب عامة في إدراك قوة التجديد الإسلامي وإمكاناته . ووصم أعضاء الحركات الإسلامية بأنهم أصوليون ورواد يكاليون ومتطرفون ومتعصبون وإرهابيون ومعادون للغرب وموجودون في غير وقتهم إلى غير ذلك من النعوت . والواضح أن تعاريف ضيقة قادحة لا تشجع على التفاهم المتبادل . فالغرب يقترف أخطاء مشابهة لأخطاء أسلافه الاستعماريين ، أي أن تعريفه للظواهر السياسية يقوم على إطاره الخاصّ الذي ينطوي على الأنانية وتفضيل الذات حاطّاً بذلك من قدر التنوع الاجتماعي السياسي للحضارات الأخرى .

ويُلحق هذا الأسلوب الانتقائي ظلماً صارخاً لا بالمسلمين وحدهم ، بل بالإنسانية عامة ، ويشجع على تشويه المعلومات لدى الغربيين من علماء وصانعي سياسة وأشخاص عاديين . ويمرّ التجديد الإسلامي في تاريخه عبر مرحلة يرى أنصاره أنها صاخبة ، ولكن هذه التناقضات لا تعرّف أو تحدد الصحوة الإسلامية أو العنقاء التي ستظهر من بين نيران الفساد والأغلال في أجزاء واسعة من العالم الإسلامي .

ويفهم المسلمون محنتهم الحالية على أنها أمرٌ أكبر من أمراضهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . ويذهب تصورهم إلى مدى أعمق من مظاهر النقص المادية في حياتهم ، ويتناول المشكلات الأساسية التي يواجهونها وهي الانحلال الخلقي والقيم المعوجّة الضالة . ويعبر البعض بعمق عن هذا الإدراك بينما يلجأ الآخرون إلى أساليب أقل صراحة في التعبير . غير أن هذه العناصر مفقودة لدرجة تدعو إلى الرثاء في التحليلات الغربية للصحوة الإسلامية . إذ كثيراً ما يستبعد البعد الروحي للمشكلة فيما يتعلق الأمر بالمسلمين . وبدلاً من ذلك فإن الانبعاث الإسلامي يُعزَى كلّه ، وبصورة فيها إسراف في التبسيط ، إلى شعور بالإحباط يرافقه قصور عن التقدم لدى الناس الذين يأملون في التقدم الاقتصادي والتكنولوجي تحت ستار الإسلام . إن تحليلاً أحادي البعد كهذا يكشف عن جهل بروح الجماعة الإسلامية .

ويشبه ذلك في خطئه اختزال التجديد الإسلامي بجعله مجرد ردة فعل غاضبة من جانب المسلمين المحرومين ضد الثراء الغربي . صحيح أن المسلمين يعبرون عن أمور أكثر من الهيجان السياسي . فثمة سبب أكثر بروزاً للاضطراب وهو عدم الرضى عن المثل والقيم الغربية التي استوردتها مجموعات النخب وفرضتها على الجماهير . إذ تفرض النخب التي تصرّف شؤون المؤسسات وأنظمة الحكم قوانين وأنظمة غربية على الناس بالقوة . كما أن المسلمين على العموم ناقمون على غالبية حكوماتهم التي يرون أنها تعزز المصالح الغربية (بفرض القيم العلمانية الغربية كنماذج للتطور) وتتجاهل القيم الإسلامية .

لذلك فإن الانبعاث الإسلامي بمثابة نقد للجمود في المجتمعات الإسلامية والتغريب العلماني لهذه المجتمعات . وينبع هذا التحليل الناقد من نقطة مرجعية لا تلاحظ في التاريخ المعاصر . إذ بينما لجأت حكومات إسلامية كثيرة إلى الرموز والمظاهر الإسلامية بحثاً عن شرعية لهذه الحكومات ، فإنه نادراً ما وجدت حكومة إسلامية تسعى وراء تنفيذ سياسات إسلامية بإخلاص حقيقي . فالحركات الإسلامية في هذه الأيام تعبّر عن عمق في الإخلاص للقرآن والإيمان به ، وبسنّة النبي محمد ، لم تفصح عنه أغلبية المؤسسات السياسية في المنطقة . وإن ما حاول بعض المراقبين أن يسموه بأنه

الوحش الإسلامي المستيقظ » ما هو في الحقيقة إلا استيقاظ للعقيدة الإسلامية والمصير
إسلامي . فقد ولدت الروحية والمثالية الإسلامية توجهاً جديداً والتزاماً ثابتاً بإعادة بناء
المهما بصرف النظر عن التضحيات الشخصية .

أما النموذج الاستعماري في القيادة فقد بني على المصالح الشخصية دون غيرها .
أصابت هذه العدوى العالم الإسلامي جاعلة المجتمع مجرداً بالفعل من القيم الخلقية
راتعاً في الفساد . فصار الاستغلال هو القاعدة في هذه المنطقة . لقد كان للمسلمين
احي ضعفهم الخاصة بهم التي أدت إلى اضمحلال حضارتهم ، غير أن درجة الفساد
ستفحل بينهم هذه الأيام ظاهرة جديدة . ويربط المسلمون هذا التراجع بالأثر الذي
حدثه التغريب العلماني .

وقد تصدرت بعض التفسيرات الإسلامية للعصرية أو الحداثة حركة الاندفاع
حو علمنة المجتمع الإسلامي محاولة وضع الاتجاه التحرري (او الليبرالي) الغربي فوق
شاعر الإسلامية ـ وهي تركيبة تحمل مقومات الانفجار ! ـ وهكذا فقد تم التنازل
ن الفضائل الإسلامية وتقويضها تاركة وراءها الفراغ . واستغلت النزعات
لأنانية والاستغلال الاقتصادي الاجتماعي هذا الفراغ باسم التنمية الاقتصادية
التقدم المادي .

إن الانبعاث الإسلامي ثورة ضد اتجاهات تدميرية كهذه وهو يسعى من ناحية
ثالية إلى إعادة توكيد الفضائل الإسلامية وإعادة توجيه مصادر الأمة (الإسلامية)
المادية منها والبشرية ـ نحو العدالة الاجتماعية والاعتماد على الذات .

والانبعاث الإسلامي حركة عقائدية إيجابية معنية بإعادة بناء العالم الإسلامي ،
ون أن تكون لديها أية نزعات توسعية . إنها حركة لا بدّ من أن تتعارض مع أعضاء في
لمجتمع الدولي وتختلف مع بعضهم . ورغم وجود علاقة لتركة الاستعمار بالاضطراب
شعبي في المنطقة إلا أن تلك التركة لن تظل العامل الأكبر في إثارة ردة الفعل
لإسلامية .

يريد المسلمون إعادة بناء نظامهم الاجتماعي الاقتصادي وفق قيم الإسلام . ولا بد أن يصطدم هذا الهدف بالوضع العالمي الراهن . غير أن الانتقاد الإسلامي للحضارة الغربية ليس تمريناً في المواجهة السياسية ولا يجب تعريفه على أنه كذلك . فالعلاقة علاقة تنافس بين حضارتين : إحداهما مبنية على القيم الإسلامية بينما تقوم الأخرى على المادية والقومية والليبرالية ، الأمر الذي يتمخض عن اختيار بين المبدأ الإلهي والثقافة المادية العلمانية . وحرية الاختيار هي بيت القصيد إذ لا يجوز للعلمانية سواء ارتبطت بالرأسمالية أو الاشتراكية أن تحتكر الساحة وتتمتع بأفضلية على العقيدة الملائمة . ويوفر وجود الانبعاث الإسلامي سبلاً متعددة للهروب من قيود المادية الدنيوية ، لأن هذا الانبعاث يوسع من حرية الاختيار أمام الإنسانية ، وهو أمر يجب أن ينظر إليه على أنه نعمة وفرصة وليس تهديداً .

الإنسان ومستقبل الحضارة :

وجهة نظر إسلامية

الدكتور إحسان دوغرمجي*

إنه من دواعي غبطتي أن أشارك اليوم في المؤتمر العام التاسع لمجمع آل البيت ، وأخاطب نخبة ممتازة من المؤتمرين والضيوف .

وإني أهنئكم لاختيار موضوع وجهة النظر الإسلامية في مستقبل حضارة الإنسان، في عهد وُلدت فيه جمهوريات مسلمة فتية مع انهيار النظام الماركسي في الاتحاد السوفييتي . وفي حين يتعرض المسلمون فيه لأبشع أنواع التعذيب ، وتُغتصب نساؤهم وأرواحهم وأموالهم في البوسنة والهرسك ، كما شاهدت بأم عيني حين زرت البوسنة . وأجد أن الوقت قد حان لعالم الإسلام لاسترداد مكانته ، ولفرد جناح الشفقة ومدّ يد العون لهذه الجمهوريات والشعوب المسلمة الأخرى ، التي تقاسي من آلام الفقر والجوع ، كما هو الحال في الصومال ، وعدم إسناح المجال للدول الغربية بانتهاز هذه الفرصة لمد سيادتها على تلك المناطق . وحينما نلقي نظرة على الوضع الراهن ، نجد أن العصر الحالي يتميز بسيادة الحضارة الغربية ، واتخاذها موضع القيادة في كثير من النواحي في حياتنا اليومية ، ولدى تساؤلنا عن أسباب هذا التفوق ، نجد أن السر يكمن - في الواقع - في تطبيقهم مبادئ الإسلام التي من ضمنها العدالة الاجتماعية ، وتكافؤ الفرص ، واحترام حقوق الإنسان ، واتقان العمل والإخلاص فيه ، وعلى الأخص إتاحة فرصة التعليم لأفراد المجتمع على حد سواء وبنسبة عالية ، وهذا - في نظري - من أهم عوامل تقدم الحضارة الإنسانية .

إن دين الإسلام هو أول الاديان السماوية التي دعت إلى طلب العلم ، حيث أنزلت الآية القرآنية الكريمة : ﴿ **اقرأ باسم ربّك الذي خلق ، خلق الانسان من علق** ﴾[1] ،

* العضو العامل في المجمع الملكي / رئيس مجلس الأمناء - جامعة بلكنت ، أنقرة - تركيا .

(١) العلق : ١ - ٢ .

وتلتها آيات بينات أخرى كلها تؤكد أهمية العلم وتحث علـى اقتنائه ، كالآية الكريمة : ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾[1] . والأحاديث النبوية الشريفة تحث هي الأخرى المسلمين على طلب المعرفة والعلم ، حيث قال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام : « اطلبوا العلم ولو في الصين » و « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » وتاريخ الإسلام الزاهر مليء بصفحات مشرقة منورة بالعلم والرغبة فيه ، وأحسن مثال لذلك هو ترجمة كثير من كتب الفلسفة والعلوم في شتى المواضيع ، كالطب والكيمياء والهندسة ، إلى اللغة العربية . وخاصة في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، وبلغت هذه الحركة الثقافية أوجها في عهد الخليفة المأمون .

ومن الجدير بالذكر أن الحضارة الإسلامية هذه ازدهرت في وقت كانت فيه الكنيسة تحارب العلم والعلماء في الغرب . ولكن الذي حدث ـ للأسف ـ أن الحضارة الغربية تطورت بصورة سريعة تحير الألباب ، حتى أصبحت ـ في يومنا هذا ـ مهيمنة على الكون أجمع ، بينما نجد أن معظم الدول الإسلامية ليست في المستوى اللائق بها من الرقي والتقدم ، فهل من الممكن استعادة تلك السيادة ؟ إن أول شرط لذلك هو أن ينور الجيل الجديد بصورة مفصلة حول الدور الهام الذي لعبه الإسلام في الماضي ، والذي ترك آثاره في الدنيا ، بما فيها العالم الغربي . ولديّ ملخص بحث أعددته في هذا المضمار، سيوزع على المساهمين في المؤتمر .

إن من أهم الأسباب التي دعت إلى تراجع العالم الإسلامي في الدور الحضاري ، فيما كان العالم الغربي يتقدم بخطوات سريعة نحو تحقيق أهدافه ونهضته ، هو عدم منح الأهمية الكافية للعلم والثقافة . ولو ألقينا نظرة سريعة إلى نسبة الأمية حالياً في الدول الإسلامية ، وقسناها بالدول المتطورة ، لوجدنا هوة كبيرة بينهما ، وكذلك يوجد فرق شاسع في نسبة الإنفاق على التعليم بين هذه الامم . وإن مستوى التعليم العالي وعلى الخصوص في الدول الإسلامية ، ليس في مستوى يوفّر له دور القيادة في الابتكارات التكنولوجية أو حتى في استخدامها بصورة دقيقة ومحكمة . وعصرنا هذا هو عصر التكنولوجية في مجالاته كلها ، ومن أجل منافسة العالم الغربي ، يجب أن نرفع مستوى التعليم العالي ـ بما فيه تعلم اللغات الأجنبية ـ التي تتيح للمرء الاستفادة من نعم التقدم ، وتهب له إمكان إتقان كل ما هو جديد على أحسن وجه .

---

(١) الزُّمَر : ٩ .

وبما أن الإسلام قد حض المسلمين على طلب العلم مهما كان لونهم أو جنسيتهم،
ب أن تمنح فرصة التعليم لأفراد المجتمع كافة ذكورهم وإناثهم دون تفريق . ولعلّ تثقيف
ة - التي هي نصف المجتمع - هو من أهم الأمور التي يجب مراعاتها ، خاصة أن المرأة هي
التي تنشئ الأجيال القادمة . وإن تجهيزها بسلاح الثقافة يعني إنشاء جيل جديد يتحلى
خلاق الفاضلة ، ويكون نواة لمجتمع جديد يتصف بمقومات الحضارة كلها . لذلك يجب
، الدول الإسلامية كافة أن تبذل المزيد من الجهود لرفع نسبة الدخل المخصص للتعليم في
حله كلها . كما يتحتم إيفاد أبنائنا إلى الدول المتقدمة لتوفير فرصة التعليم في مهده ، وبذلك
نون أكثر نفعاً حال عودتهم إلى أوطانهم .

وبهذه المناسبة ، أود أن أشير إلى ضرورة تقارب الدول الإسلامية وتعاونها مع
نها في مجالات العلوم والبحوث ، وإلى ضرورة مد يد العون ، على وجه الخصوص
الدول الإسلاميــة الحديثة التي تأسست بعد انهيار الإمبراطورية الروسية ودول
قان . وكمثال للخطوات الإيجابية التي قطعت في هــذا المضمار ، يأتي إنشاء مركز
حمد اليسوي) في قازاقستان .

وفي إطار التبادل الثقافي بين الجمهورية التركية وهذه الجمهوريات ، منحت
الة لعشرة آلاف طالب من الحكومة التركية ، لمواصلة دراساتهم الجامعية أو الثانوية في
كيا ، كما أوفد ثلاثة آلاف طالب تركي إلى هذه الجمهوريات .

إن إنشاء جيل جديد يؤمن بربه وبدينه ، وفي الوقت نفسه بأهمية التقدم
كنولوجي ، ويحسن استخدامه ، وإنشاء جيل لا يكتفي بالتقليد تقليداً أعمى ، وإنما
تخدم مواهبه في اكتشافات وابتكارات جديدة ، سيكون أهم عامل في استعادة مكانة
سلام ودوره الهام في الحضارة الإنسانية .

وفي الختام أود أن أضيف أن شباب العالم الإسلامي جدير بكل ما سنبذل له من
ماع وجهود، وبكل ما ننفق في سبيل تعليمهم . وإن كل خطوة نخطوها اليوم في هذا
ضمار ، ستعطي ثمراتها في المستقبل القريب ، لبعث الحضارة الإسلامية من جديد ،
عب دورها القيادي في مستقبل حضارة الإنسان بإذن الله .

ولكم فائق شكري لحسن ضيافتكم وإصغائكم ، وعليكم سلام الله ورحمته وبركاته .

معيار الحضارة بالنّسبة للإنسان

الدكتور عبدالهادي التازي*

ونحن نتحدث عن (الإنسان ومستقبل الحضارة) رأيتُ أن أنطلق من قاعدةٍ أعتبرها الأساس للتوجُّهات كلها التي نتطلع إليها ... هذه القاعدة تتمثل بالدّرجة الأولى في السُّلوك الذي يطبع مسيرتنا ...

وقد شجّعني على إيثار هذا الموضوع بالتناول ، ما ورد في النبذة التعريفية التي توجه بها إلينا المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ... والتي تشير إلى إمكانية الحديث عن حاضر المسلمين ، والانطلاق منه إلى مستقبلهم الحضاري ...

من هنا رأيتُ - قبل أن أصل إلى هذا الحاضر - أن أتحدث عن ماضي المسلمين كما تُصوِّره بعض الروايات الحية التي كانت صادرة عن شاهدي عيان ، فمن وجهة النظر الإسلامية الحقة لا يمكن أن نتصور أي نمطٍ من أنماط الحضارات في ظل الظلم والعدوان والتختل والنفاق .

وهكذا فليس من الجائز إطلاقاً أن نتحدث عن حضارة الغد دون أن نقف لِنسأل أنفسنا بصراحة : هل نحن على درجةٍ من الاستقامة الخُلُقية تؤهلنا لِمّا نتوق من الأخذ بالأسباب التي تقودنا إلى مواجهة التحدّيات التي تنتظرنا ...

لقد عشت طوال السنوات الخمس الماضية مع مرويات الرحالة المسلمين الذين جابوا الأرض بالطول والعرض ، وكنت أشتف من خلال تلك المرويات أحوالنا بالأمس لأقارنها بأحوالنا اليوم ، لأصل عبر المقارنات والمفارقات إلى مدى ما حصل من تغييرٍ في سيرتنا ... وهل استفدنا من تجربة الماضي أو أن دار لقمان ما تزال على حالها ، كما يقولون ، ثم والحالة هذه هل نحن حقّاً جادون عندما نتحدث عن نظرة الإسلام إلى الإنسان ، ونتحدث عن استشراف آفاق المستقبل ...

---

* العضو العامل في المجمع الملكي / المملكة المغربية .

نحن هنا ـ في رحاب هذا المجمع الموقر ـ نتحدث حديث أفراد الأسرة بعضها للبعض الآخر .. لا تجمل ولا تعمل ... ولا مصانعة ولا مواربة ..! فهل نحن راضون تمام الرضى على تعامل أحدنا مع الآخر بجدٍ وصدقٍ وبراءةٍ وحسن نية ؟

قلتُ لكم : إنني كنتُ أقرأ بعض ما كتبه شاهدو العيان عن البلاد الإسلامية في العصر الوسيط ، وقد كان أشدَّ ما أثار انتباهي رفع العقيرة بالشكوى من سلوك بعض المسلمين الذين مكنتهم الظروف من تحمل مسوولية ما من المسؤوليات فكانوا مثلاً للجور والحيف وغمط الحقوق !!

كان هـــذا موضوع سمر ضَمَّنا ذات مساء علـى عشاء في بيت الأستاذ عبدالهادي بوطالب يوم ٢٠ تشرين الثاني من السنة الماضية ضمَّ نخبةً من عِلّيَةِ القوم نفوذاً وثقافةً وسياسةً ، وكان ضيف الشرف فيه أخونا الرئيس د. ناصرالدين الأسد حيث جرى الحديث عن الأزمة الأخلاقية التي يعيشها المسلمون ... حول مَدَى تطبيقنا نحن المسلمين للقولة السَّائرة على الألسن التي تذكر أن (الدين هو المعاملة) : فمتى كانت هنا معاملة جيدة فإن هناك ديناً ، ومتى اختلت شروط المعاملة فإنه لا يوجد هناك دين ...

لقد أخذ الناس بهذه الكلمة الساحرة الرائعة : (الدين المعاملة) حتى اعتبرها بعضهم حديثاً نبوياً ولو أنها ليست كذلك ، ولكنها في صدقها وفي هدفها ترقى لأن تكون من جيد القول وعيون الكلام ...

تحدثنا عن هذا الموضوع وأبدى كلنا ـ دون استثناء ـ أسفه من الواقع المؤلم الذي نعيشه والذي لا يساعد ـ بأية حال ـ على أننا فعلاً نسير في الطريق السليم الذي سار فيه أسلافٌ لنا من ذي قبل ...

سأقتصرُ في تدخلي هذا على ذكرِ ثلاثة رحالة من المشاهير الذين دونوا مذكراتهم التي أصبحت متداولة بين الناس .

وأذكر في صدر أولئك الرحالة الشيخ محمد بن عبدالرحيم المعروف بأبي حامد الأندلسي الغرناطي الذي قـام برحلته أواسط القرن السادس الهجـري[1] وقد سماها (تحفة الألباب) .

لقد أتى أبو حامد في رحلته هذه بعددٍ من المقاطع التي كانت تلفت نظر المهتمين بأمر الرحلات نظراً لطرافتها وجدتها ، لكن أبرز ما شد القراء إليه ، هو حرصه على تصويره للحالة الاجتماعية التي يعيشها المسلمون في بلادهم والتي أقل ما يمكن أن يقال عنها : إنها حالة لا تشرف المسلمين ! فهم في أغلب الأحيان مضطهدون من قبل إخوانهم ومن قبل حكامهم مستهدفون للظلم والحيف ، والأنكى من هذا والأشد مرارة أنهم عندما يوجدون بأرض الآخرين يعاملهم هؤلاء الآخرون باحترامٍ وإكبارٍ بل إن هؤلاء الآخرين يعفونهم من بعض التكاليف تكريماً لهم وإعظاماً لِشأنهم باعتبارهم غرباء عن بلادهم .

ومن الطريف أن أذكر هنا أن أبا حامد الغرناطي نصَّبَ نفسه ـ وقد رُوِّع بهذه الظاهرة : ظاهرة الظلم المتفشي بين المسلمين ـ مفسراً لحديث نبوي شريف يجري كثيراً على ألسنتنا ، فسّره أبو حامد الغرناطي على هذا الشكل الغريب التالي :

الحديث الشريف هو قوله صلى الله عليه وسلم (الدنيا سجن المؤمن) ، والسجن كما نعلم مظِنَّةٌ لشظف العيشِ وضيق الخاطر وللخوف والإرهاب ، ولا يكون هذا إلا مع عدم العدل ومع انتشار الظُّلم والجور ... ففي نظر أبي حامد أن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : (الدنيا سجن المؤمن) يخبر بحالة المسلمين اليوم ، فهو حديث معجزة أي أنه أخبر بما كان سيجري بعد وفاته صلى الله عليه وسلم !

وهكذا ففي حديثه عن بلاد الصين أشاد بمعاملة الصينيين للتجار من المسلمين الذين كانوا يتلقون غاية الاحـترام ـ كما قلنا ـ ويعفون من التعشير والمكس ، وقد تمنى أبو حامد أن يقتدي ملوك المسلمين بمثل هـذه السيرة الحسنة ، لكن الطريف في الخبر أن أبا حامـد وصل إلـى فهمٍ ذكيٍ للحديث النبوي ، فقـد أدرك حكمته الإلهية

(١) Journal Asiatique, juillet - septembre 1925 p. 32 - 33 .

ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الدنيا سجن المؤمن) ومعنى هذا أنها سجن كل معنى الكلمة فهي ، أي دنيا المسلم ، خالية من العدل والإنصاف ..! وفي مقابلة هذا يقول صلى الله عليه وسلم : (الدنيا جنة الكافر) ، فكما أن السجن يعني الضيق والخوف ، فإن معنى الجنة يعني أنها موضع الرخاء والنعمة والأمن والعدل والسياسة وأنواع الطيبات !

وقد ختم تفسيره الجيد بهذه العبارة الرائعة التي يمكن أن يُستشف منها معاني النقد اللاذع كلها قال :

« الحمد لله الذي جعل جور ولاة المسلمين من معجزات سيد المرسلين » !!

ومعنى هذا أن وجود بعض الحكام في جهات الإسلام كان خير تفسير لذلك الحديث النبوي الذي يعتبر من جوامع الكَلِم ...

ومعنى هذا أيضاً أن الظلم قَدَرٌ ومصير للمسلم في هذه الدنيا !!

وأذكر بعد هذا رحالة ثانياً يتأخر قليلاً في الزمن عن أبي حامد الغرناطي ، ويتعلق الأمر بأبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير .

فلقد أفاض هذا الرجل في وصف ما لقيه عندما نزل ميناء الإسكندرية من عنت أمناء الأمير الذين استحضروا من كان في المركب جميعهم من المسلمين على الخصوص واحداً واحداً ... وسُئل كل واحد عما لديه من سلع وأموال ليؤدي زكاة ذلك كلّه دون أن يسمح للناس بالجواب عن أن تلك الأموال التي لا تستوجب الزكاة !!

ولقد تعرض أحدهم وهو أحمد بن حسان للاستنطاق من أكثر من جهة : من الأمير ثم القاضي ثم أهل الديوان ثم حاشية الأمير .. ووقع تفتيش أمتعة المسلمين ما دق منها وما جلّ واختلط بعضها ببعض وأدخلت الأيادي إلى أوساطهم بحثاً عما يمكن أن يكون فيها ..! قبل أن يستحلفوا ! : هل عندهم غير ما وجد ؟!! وقد ضاع كثير من المتاع في تكاثر الزحام .. وكان موقفاً من الذل والخزي عظيماً على الناس !!

وقد عزّ على ابن جبير أن تتم مثل هذه المعاملات في أيام السلطان العظيم صلاح الدين الأيوبي ولكن الواقع هو ذاك !!

ويعود ابن جبير مرةً أخرى لمواقف الخزي والعار هذه فيشجب معاملة المسلمين لإخوانهم المسلمين بحجة البحث عما يحمله الحجاج معهم من مال فيقف هؤلاء بين أيدي أولئك المردة الذين يصعدون إلى المراكب استكشافاً وتجسساً فلا يتركون غرارة إلا ويتخللونها ..!

وعندما كان ابن جبير في (عيذاب) تحدث عن العدوان الذي يتعرض له المسلم من قبل أخيه المسلم ، وكشف عن أن أصحاب المراكب إنما يهمهم أن يشحنوا زوايا مراكبهم ! فكأنها أقفاص الدجاج المملوءة حتى يستوفي صاحب المركب ثمنه في طريق واحدة غير مبال بما يصنعه البحر بعد ذلك ، وهم يقولون : علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح !!

ومن هنا ردّد ابن جبير قولة فقهاء الأندلس : (الحج ساقط عن أهل المغرب) !!

ومن المهم أن نعرف أنه في مقابلة هذه الحكايات المزرية عن معاملة المسلمين بعضهم لبعض نجد أن ابن جبير يشيد بالمعاملة الحسنة التي كان يلقاها على ظهر المركب الجنوي الذي كان يمتطيه من سبتة إلى الإسكندرية ثم من عكة عند العودة ...

يضاف إلى هذا أن ابن جبير لم ينس أن يسجل أن ملك صِقِلية غليام أشفق على فقراء المسلمين وقد نزلوا نزولاً اضطرارياً في (مسينة) الإيطالية وليس لهم شيء يؤدونه، فأمر لهم بمئة رباعي من سكته ! بل إن ابن جبير أشاد بحسن سيرة الملك غليام ومعاملته للمسلمين الذين كانوا محل ثقته وملاذه فيما يهتم به ... وكانوا أهل دولته والمرتسمين بخاصته ، وعليهم يلوح رونق مملكته ... إن ما قدّمه ابن جبير من وصفٍ للمسلمين في دولة غليام ما يزال إلى اليوم رصيداً سياسياً تردده إيطاليا كدليل على ما يربطها بالعالم الإسلامي من علاقات تضرب في جذور التاريخ !

قصدت بعرض هـــذه الشهادات بنصها وفصها التدليل على نوع السلوك لسلوك ...

فالناس أكيس من أن يحمدوا رجلاً

من غير أن يجدوا آثار إحسان !

ولنودع الرحالة ابن جبير لنلتقي برحالة العرب والعجم[1] ابن بطوطة الطنجي ذي طبقت شهرته الآفاق وأمست مذكّراته منذ أكثر من قرن ونصف القرن مشغلة باحثين في مختلف جهات الدنيا حتى الجهات التي لم يقدر للرحالة أن يصل إليها !

لقد كانت رحلة ابن بطّوطة في الواقع رحلةً في عددٍ من العوالم : رحلةً في عالم تاريخ والجغرافيا ، رحلةً في عالم السياسة والانثروبولوجيا ، رحلة في عالم الفكر وعالم رأة إلى اخره ... ولكنها كانت أيضاً رحلة في عالم التعامل بين بني الإنسان ، وفي فروق التي كان يلمسها ابن بطوطة أحياناً في التعامل بين أمة وأمة ، وهو الأمر الذي كان يثير انتباهه إلى حدٍ لا يمتلك فيه نفسه دون أن يشيد بهذا الفريق ويندد بالآخر غير كترثٍ إطلاقاً بالفروق الدينية التي توجد بين فريق وفريق !! وكون هذا مسلماً والثاني كافراً ، وذاك عربياً وهذا أعجمياً ..!

لقد كان يهمه فقط ميزان العدل والإنصاف ، فعلى أساسه كان يحكم على ناس، ولا يهمه فقط النطق بالشهادة أو التوجه إلى الكعبة !!

فإن ابن بطوطة مؤمن بمصداقية الحديث النبوي الذي رواه الإمام البخاري على لصحابي الجليل الشعبي : « المسلم من سلِم المسلمون من لِسانه ويده » !

لقد كان أول ما ندّد به ظلم وجور ما شاهده وهو ما يزال على أرض الشمال لإفريقي عندما شجب تصرف أحد عمال الموحدين وولاتهم[2] في بجاية .

وعند وصوله لسوريا ردد القولة السائرة : « البركة في الشام والشفقة في الروم »! وهذا يعني ما يعنيه في اصطلاح المهتمين بقضايا الأخلاق .

---

(١) الرحلة ، الطبعة الباريسية ، ٤ : ٢١٩ .

(٢) Voyagesd'ibn battota : par C. Defremery er B.R. Sanguinetti. Paris 1968 Tom 1 P. 17.

وقد نوّه كثيراً بالطرق الآمنة التي لا يتعرض فيها المسافرون للنهب والسطو ، وأفاض في ذكر الوسائل التي يضطر الحاكم لاتخاذها من أجل بسط الأمن في بلاده . ونحن نعـــرف أن (المسافر) ـ أيّ مسافر ـ أكثر إدراكاً وأكثر تقديراً للأمن من أي كائن غيره[1] ...

وعندما وجد نفسه في سيلان لم يفته أن يشيد بالتعظيم الذي يلقاه المسلمون هناك من لدن الحاكمين الآخرين ، وابن بطوطة دائماً يشجب أعمال العنف ...

ونحو هذا سمعناه منه وهو في جاوة عندما علم أهلها بأنه ضيفٌ وَرد من بلاد نائية على رأسها سلطان كبير !. وهو بالصين تحدث كذلك عن المسلمين المقيمين بتلك البلاد... وخاصة الذين هم من أصل مغربي كالسبتي والسلجماسي ... وكيف أنهم كانوا يحظون بمعاملةٍ إنسانية تتسم بالاحترام ...

أريد القول : إن هؤلاء الرحالة الذين سُقنا حديثهم اليوم كانوا خير شاهد على أنه يوجد شيء ينقصنا يجب علينا أن لا نتهاون في علاجه ... بل يجب أن نجعله في صدر أولوياتنا !!

وأرجو أن تسمحوا لي بإثارة هذا الحديث هنا ونحن نتناول موضوع الإنسان ومستقبل الحضارة من وجهة نـظر إسلامية ، أعتقد أنه من هنا كان علينا أن ننطلق ، إن الفرق بين الأمم المتحضرة والمتخلفة ليس هو الشمال والجنوب وليس الشرق والغرب ولا حتى الثقافات .. ولكن الفرق الحقيقي يكمن في مدى اهتمام الناس بأمر العدل والإنصاف ، في مدى محاربة الناس للظلم والجور والقهر ..!

أرجو أن تسمحوا لي بطرق موضوع ربما اعتبر عند آخرين على أنه ضرب من الوعظ والإرشاد ! فإننا نعلم مدى جدوى هذه المحاسبة الصريحة ومدى هذا النقد الذاتي ولو كان أمر هذه (الفروق) اقتصر على الأمس لكنا اعتبرناه تاريخاً يروى لكنه أمرٌ يجرّ بذيوله إلى عصرنا الحاضر ... وهكذا نلمس ـ مع كامل الأسف ـ أنه توجد حالات مريرة تبدو هنا أو هناك تؤكد على هذا التنكر لأخلاق عُرفت لنا بالأمس حتى اعتبرت أساس الإسلام ... واعتبرت الهدف الوحيد من فرض العبادات وسن التشريعات لِضبط المعاملات ... إنّ حالة اليوم تلفت نظر غيرنا وبصفة تدعو إلى الرثاء !

---

(١) الرحلة ٤ : ٧٤ .

فلقد حزّ في نفسي أن أقرأ منذ شهور خلت تصريحاً خطيراً لأحد رجالات الفكر
ربي ممن يتبوأ اليوم أهم منبر ثقافي في العالم ... سمعته يقول : « ينبغي لعالم الجنوب
يعني نحن) أن « يتلقح » (Se Greffer)[1] بالحضارات المتينة للشمال حتى يخرج
ن تخلفه » !

وهكذا تحول الوضع بين الأمس واليوم : الأمس عندما كُنا « نلقح » الفكر الغربي
ر كتبنا وتراثنا ، واليوم عندما أمسينا مطالبين بتقديم سواعدنا لعمليات تلقيح من
طرف الآخر ...

---

(1) Le Matin du Sahara 2 nov 1992

الإنسان ومستقبل الحضارة : وجهة نظر إسلامية

الدكتور مدثر عبدالرحيم الطيب*

مقدمـــــة :

لا شك أن انهيار المنظومة الشيوعية أواخر العقد المنصرم ومطلع هذا العقد الأخير من القرن العشرين قد كان من أهم الأحداث العالمية التي وقعت في هذا القرن ـ على الأقل منذ عام ١٩١٧م ـ ومن أعظمها تأثيراً في عالمنا المعاصر ، وعلى مختلف الأصعدة عملية وفكرية: وذلك لأن قوى الشيوعية المنهارة لم تتمثل في مجموعة من كبريات الدول ومن أعظمها قوة ونفوذاً في العالم وحسب ، بل لأن الماركسية ـ اللينينية التي بنيت عليها قد كانت مشروعاً حضارياً متكاملاً سعى بناته ودعاته لإعادة صياغة الحياة البشرية في ضوئه ، ولخلق إنسان جديد وفق القيم والتصورات التي ناضلوا وماتوا من أجلها(١) .

ولئن استنتج سدنة النظام العالمي الذي بدأ في التبلور منذ انهيار الشيوعية (ومن بينهم ـ على صعيد الفكر ـ رجال من أمثال فوكوياما ، صاحب « نهاية التاريخ ») أن الزلزال الذي أطاح بالنظم الشيوعية قد فتح الطريق للمبادئ والقيم التي يختص المعسكر الغربي برعايتها لكي تسود العالمين ، وأن سيادة تلك القيم بعد انهيار الشيوعية يمثل نهاية التاريخ ـ كما ادعى فوكوياما(٢) ـ فالأرجح ، في تقديرنا ، أن الموقف يحتاج لمزيد من النظر المتأني والفحص الدقيق : إذ إن النهجين المتنافسين (الشيوعي المندحر والرأسمالي الذي ما زال قائماً) وبصرف النظر عن الخلافات الهامة التي مازت كلاً منهما عن الآخر، إنما استمدا أصولهما من ذات الحضارة الغربية الحديثة .

---

* العضو العامل في المجمع الملكي / جمهورية السودان .

(١) لا شك أن كتابات ماركس وانجلز واتباعهما هي خير المصادر للتعرف إلى المشروع الحضاري الشيوعي . ومن أجود الدراسات الناقدة لتيارات الفكر الماركسي منذ مبتدئها كتاب :

Lezek Kolakowski : Main Currents of Marxism, London, 1078 .

ومن أمتع الدراسات الخاصة بانهيار المنظومة الشيوعية كتابا :

- Ralf Dahrendorf : Reflections on the Revolution in Europe, London , 1990 .
- Z. Brzezinski : The Grand Failure, New York, 1990

F. Fukuyama : The End of History, London, 1991 .

ولكن هذه الحضارة الغربية الحديثة ـ رغم روعة صروحها ، وعلى عظم إنجازاتها في شتى ميادين الفكر والعمل ـ حضارة مريضة مأزومة توشك ، إن لم يتم إسعافها بمعالجات حاسمة تداوي بها أدواءها وتتجاوز من ثم بها عيوبها ونواقصها ، أن تنتهي لا إلى ما بشر به فوكوياما من نصر كبير يختتم به التاريخ فصوله ، بل إلى نهاية من نوع آخر أشد قتامة ومأساوية لأنها تستتبع القضاء ليس على الحضارة الإنسانية ، غربية وغير غربية وحسب ، بل لأنها تنطوي على احتمال حقيقي وكبير ينبغي ألا نخادع أنفسنا بتناسيه والتغافل عنه هو القضاء على الحياة نفسها ، بشرية وغير بشرية ، على وجه هذا الكوكب الصغير .

ما هي مظاهر تلك الأزمة ؟

وما أسبابها ؟

وهل يمكن أو يتوقع تلافيها أو تجاوزها في إطار هذه الحضارة نفسها أو يستلزم الأمر التماس الخلاص في إطار بديل من القيم والنظم الحضارية ؟

أزمة الحضارة الغربية المعاصرة : مظاهرها وأسبابها

تعود أهم إنجازات الحضارة الغربية وأدوائها جميعاً إلى الثورة الفكرية والاجتماعية التي تمخض عنها الصدام الهائل الذي دارت رحاه بين الكنيسة الكاثوليكية مطلع النهضة الأوربية الحديثة وبين رواد تلك النهضة منذئذ ، والتي كان القرنان السابع عشر والثامن عشر مرحلة حاسمة في تطورها ، إذ تبلورت أثناءهما نظرة أوربا العامة إلى قضايا العقل والطبيعة والدين على الشاكلة المعهودة اليوم ، والتي ما زالت تطبيقاتها المتعددة تنداح على مختلف الأصعدة الفكرية والعملية فيها[1] مؤثرة ، بدرجات وصور مختلفة ، في غيرها من المجتمعات والحضارات التي تغلبت عليها ـ بما في ذلك المجتمعات الإسلامية المعاصرة .

وكما هو معلوم مشهور فقد كان من أهم ما تمخض عنه ذلك الصدام الهام أن أعرضت أوربا عن الدين وأسقطت الإيمان بالله من حسابها حتى صارت إلى ما هي عليه اليوم من العيش في « عصر ما بعد المسيحية » كما يقولون كناية عن وضع يعتبر فيه الدين

(١) من أجود الدراسات في هذا الشأن كتابا :

- B Rusell . Religion and Science, London, 1960 .
- A. Toynbee An Historian's Approach to Religion, London, 1957

مجموعة من الطقوس والمعتقدات شبه الخرافية فهو لذلك (وفي أحسن الحالات) أمر شخصي بحت لا أثر له ولا مكان في الحياة الفكرية والاجتماعية إلا بصورة شكلية هامشية[١]. وقد زاد الأمر تعقيداً وتوهيناً أثناء العقود الأخيرة أن صار كثير من رجال الدين أنفسهم إلى الإيمان ـ والإعلان ـ بما سماه نيتشه قبل نحو قرن من الزمان « موت الله » كما قال (وناقل الكفر ليس بكافر) فأصبحوا لذلك يتحدثون ويكتبون عن « لاهوت ما بعد موت الله »[٢] .

هذا بينما اعتبر الدين في حالات أخرى (ولا سيما في ظل النظم الشيوعية المنهارة) خطراً اجتماعياً وسياسياً إلى جانب اعتباره خطأً فكرياً أو وعياً كاذباً كما قال كارل ماركس[٣] : فالتزمت الدولة لذلك بمحاربته حرباً منظمة استهدفت استئصاله حتى من حياة الأفراد وأطراف المجتمع الهامشية[٤] .

وبصرف النظر عما استتبعته تلك الثورة وانطوت عليه هذه الأساليب ، المستمدة أساساً من التجربة التاريخية للمجتمعات الأوربية ، من خطأ أو صواب في فهم الأسس التي يقوم عليها الإيمان ، وفي تقييم دور الدين ومكانته المستحقة في حياة الأفراد والمجتمعات ، فلا شك أن نتائج ـ إيجابية وسلبية ـ بالغة الأهمية قد ترتبت عليها .

من أعظم النتائج الإيجابية التي تمخضت عنها تلك الثورة : انطلاق العقل الغربي الحديث من عقال الهيمنة الكنسية الذي كان قد كبله حيناً من الدهر ، وارتياده آفاقاً واسعة من ميادين الفكر النظري والتطبيقي تمكن بها من استكناه أعماق الذرة والخلية ، ومن استكشاف السدم والمجرات ، كما تمكن من إبداع الكثير المتزايد من المخترعات التي صيرت العالم قرية واحدة مترابطة الأجزاء ، ومكنت البشر من التعارف والتعاون محاربة للأوبئة والأمراض ، ونشراً للعلم والمعرفة ، وتوليداً للثروة والرفاه بصور وأقدار لم يعرف التاريخ لها مثيلاً من قبل .

---

(١) انظر المقالات المختارة من كتاب :

R. Bococh and K. Thompson : Religion and Ideology, London, 1985 .
J. Sperna Weiland : New Way in Theology. Dublin, 1968.

(٢) انظر مثلاً :

- T. J. J. Altizer and W. Hamilton : Radical Theology and the Death of God, New York, 1966 .
- G. Vahanian : The Death of God · The Culture of our Post - Christian Era, New York, 1961 .

(٣) انظر في هذا الصدد كتابي :

- K. Marx and F. Engels : On Religion. Moscow n.d.
- D. Mclellan . Marxism and Religion, London, 1987.

(٤) انظر مثلاً :

- W. Kolarz : Religion in the Soviet Union, London, 1961 .
- A. Benninqsen and C. Hemercier - Quelquejay : Islam in the Soviet Union, London, 1967 .

ولكن نتائج سلبية بالغة الخطورة قد انبثقت عن تلك الثورة أيضاً . ولعل من أول هذه وأخطرها (وجميعها مفعـم بالأخطار) أن التقدم العلمـي والتقني الهائل الذي مكّن الإنسان (الغربي) الحديث من التحكم في مصائر الأحياء وغير الأحياء من الكائنات لم يصحبه تقدم مماثل في الوعي الروحي أو الشعور بالمسؤولية الخلقية ، بل إنه ربما تراجع في ذينك المضمارين تراجعاً لم تغن معه الفلسفات الإنسانية التي أريد لها أن تقوم مقام الدين[1] ، ولكنها - على ما اتسم به بعضها من جاذبية مغرية[2] - لم تحقق شيئاً ذا بال من الآمال التي كانت معقودة عليها ، بل - على العكس - كان اعتمادها ، واعتماد ما صاحبها وانبثق عنها من نظرة للقيم الخلقية تقوم أساساً على الاعتقاد بنسبيتها، وارتباطها بالمصالح الفردية والطبقية ، أو الأمزجة والأذواق الشخصية الخ ، إيذاناً بانطلاق نوازع الشر في النفوس انطلاقاً مدمراً صوّره اثنان من أكثر المراقبين نفاذ بصيرة مطلع هذا العصر الحديث (هما هوبز الإنجليزي ومكيافيلي الإيطالي) تصويراً مريعاً يبرز الإنسان فيه ذئباً يعدو على الآخرين ، وتصير الحياة الاجتماعية حرباً ضروساً يصبح فيها كل إنسان عدواً لكل إنسان ، ولا ينجو فيها آخر الأمر إلا أكثر الناس مكراً وفتكا[3] .

ولئن كان التظالم قديماً في المجتمعات البشرية قدم هابيل وقابيل ، ثم لم تنجح أي من الحضارات البشرية المتعاقبة نجاحاً تاماً في اقتلاع جذوره وإن سعت في سبيل ذلك سعياً حثيثاً حيثما ارتفعت صروحها ، فقد فشا التظالم وانتشر في ظل الحضارة الأوربية الحديثة واتخذ فيها صوراً مؤسسية رسخ بها في حياتها الداخلية ثم ما زال ينتشر منها بشتى صوره وأشكاله حيثما امتد ظلها في مختلف أنحاء العالم .

وحسبنا الإشارة في هذا المقام إلى ثلاثة أشكال متداخلة من تلكم الروح المدمرة تكوّن في مجملها الجانب المظلم من هذه الحضارة الأوربية الحديثة المأزومة .

---

(١) من أشهر الكتابات في هذا الشأن دراسة :

Julian Huxley · Religion wothout Revolution, London, 1957

(٢) انظر مثلاً :

Corliss Hamont . The Philosophy of Humanism, New York, 1965 .

(٣) انظر كتابيهما الشهيرين :

- T. Hobbes; Leviathan .
- N. Machiavelli; The Prince .

أول تلك الأشكال وأسبقها تاريخياً التعصب الديني والمذهبي المستمر حتى في هذا العهد الذي كثيراً ما وصفه الأوربيون المعاصرون بأنه عهد ما بعد المسيحية . فقد أدى ذلك التعصب ، فيما مضى ، إلى نشوب الحروب الدينية الشهيرة إضافة إلى محاكم التفتيش المرعبة[1] ، كما كانت ظاهرة اضطهاد اليهود من أمر ثمراته[2] ، إضافة إلى محو المجتمعات الإسلامية التي كانت قد نشأت في مناطق مختلفة في أوربا منها الأندلس وصقلية وجنوبي فرنسا[3] . وما مأساة البوسنة والهرسك اليوم إلا امتداداً طبيعياً لذلك التراث من التعصب المدمر. ويلحق بهذه وتلك الاضطهاد المستمر الذي ما زالت جماعات مختلفة من المسلمين تكتوي بنيرانه حتى اليوم : في انجلترا وفرنسا وألمانيا وأجزاء مختلفة من بلاد البلقان وفي الجمهوريات التي نشأت في أعقاب انهيار الاتحاد السوفييتي ، بل حتى في دول كالسويد[4] وكل ذلك بالرغم من إعلانات حقوق الإنسان الكثيرة المختلفة التي تكرر صدورها منذ الثورات الأربع الكبرى (الإنجليزية والأمريكية والفرنسية والسوفييتية) ثم بعد قيام منظمة الأمم المتحدة وهيآتها المتخصصة العديدة في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، حتى قيام النظام العالمي الجديد الآخذ في التشكل اليوم .

وقد تداخل مع العصبية الدينية والمذهبية المستمرة (حتى بعد فقدان الكثيرين إيمانهم بالدين والمذهب) صنف آخر من صنوف تلك الروح المدمرة تتمثل في العنجهية العنصرية والقومية (والظاهرتان ، وإنْ أمكن التمييز بينهما في بعض الأحيان ، متشابكتان في أحيان كثيرة أخرى) . وقد أدى هذان ، وما يزالان يؤديان ، إلى كثير من القلاقل والحروب الحاصدة

---

(١) انظر كتاب : H. Kamen : The Spanish Inquisition, London, 1968 .

(٢) من أجود الدراسات الكثيرة التي نشرت حول ظاهرة اضطهاد اليهود في الغرب المسيحي كتابا :

- M. Ray : Europe and the Jews, Boston, 1961 .
- Leon Poliakov : The History of Anti - Semitism, New York, 1974 .

(٣) انظر مثلاً :

- J. M. Powell (Ed.) : Muslims Under Latin Rule 1100 - 1300, Princeton, 1990 .
- W. Montgomery Watt : A History of Islamic Spain, Edinburgh, 1965 .
- S Lane Pool : The Moors in Spain, Beirut, 1967 .

(٤) هذه إشارة إلى تدنيس بعض المساجد وتحطيمها أكثر من مرة في السويد ، وقد شهدت بنفسي آثار إحدى هذه الحملات التخريبية عام ١٩٧٥م . كما لفتت نظري - وعلى غير توقع - حوادث مماثلة أخرى تكشف عن ذات الروح العدائية المتعصبة ضد الإسلام والمسلمين أثناء الأعوام التالية إبان إقامتي في السويد في الأعوام ١٩٧٤م - ١٩٧٧م .

لم تكن الحربان العالميتان ، الأولى والثانية ، إلا بعض آثارهما بالأمس . وما الحروب التي تدور رحاها اليوم في الجمهوريات التي نشأت عقب انهيار الاتحادين السوفييتي واليوغسلافي إلا آخر حلقات ذلك المسلسل الطويل المفجع .

يضاف إلى ما تقدم التطاحن المرير الذي نشأ عن الفروق الطبقية التي وسمت المجتمعات الأوربية الحديثة(1) وتفجرت بسببها ثورات عديدة عارمة أشهرها ولا شك الثورتان الفرنسية قبل مئتي عام ثم الثورة البلشفية التي تفجرت براكينها عام ١٩١٧م .

ولئن كانت أهم أهداف الثورات المذكورة محو الفوارق الطبقية فمن اللافت للأنظار الجدير بالتأمل أن هذه ، وإنْ خفت حدتها واختلفت صورها ، لم تزل قائمة في غرب أوربا وشرقها جميعاً . وإن من أهم ضروب النقد التي وجهت - وبحق - للتجربة السوفييتية (قبل انهيارها بنحو عقدين من الزمان ، ومن قبل مفكرين ماركسيين من أمثال مليوفان دجيلاس) أنها وإنْ استهدفت إزالة الفروق الطبقية قد انتهت بإقامة نظام طبقي جديد صار الحزب الشيوعي فيه المحتكر للسلطة المتمتع من ثم بشتى ضروب الجاه والرفاه(2) .

على أن تلك الروح المدمّرة ، على اختلاف منابعها وجذورها - دينية وعنصرية وطبقية - لم ينحصر بلاؤها في الأقطار والمجتمعات التي تبلورت وانتشرت فيها أصلاً ، بل امتدت بامتداد نفوذ أوربا وانتشار هيمنتها في مختلف أنحاء العالم منذ مطالع هذا العصر الحديث : إذ دمر الأوربيون شعوباً عديدة بأسرها واقتلعوا حضارات كاملة من

---

(1) لا شك أن دراسات كارل ماركس وماكس فيبر - على ما بينهما من اختلافات هامة - تشكل أجود المداخل لدراسة هذا الموضوع . أما فيما يتعلق بالثورات ، فانظر مثلاً :

- T Skocpol : States and Societ Revolutions, London, 1980.

- Barrington Moore Jr. Social Origins of Dictatorship and Democracy, London, 1979 .

Crane Brinton . The Anatomy of Revelution . New York 1965.

(2) M. Djilas The New Class - An Analysis of The Communist System. London, 1975 .

جذورها (كما حدث في الأمريكتين مثلاً) . بينما بسطوا هيمنتهم على غيرها فأذلوا أهلها ، وانتهبوا خيراتها ، وما يزالون يتحكمون في مصائرها وثرواتها حتى بعد نيلها استقلالها السياسي الرسمي في أوقات مختلفة لا سيما منذ الحرب العالمية الثانية(١) .

ولكن هذه الروح المدمرة لم تنحصر آثارها في دائرة المجتمعات البشرية بل تجاوزتها إلى تدمير الأرض نفسها : وذلك بأساليب عدّة منها إزالة غطائها الشجري والغابي (كما يجري اليوم في منطقة الأمازون مثلاً على أيدي المستثمرين الرأسماليين الذين لا يحسبون حساباً لغير الأرباح العاجلة) ثم بتسميم مياهها وإفساد هوائها بما يُصب في أنهارها ويُصَعَّد في أجوائها من مخلفات تفرزها المصانع ووسائل المواصلات وغيرها من الآلات . وذلك إضافة إلى الإسراف الشديد في اصطياد الأسماك والحيتان وغيرها من أصناف الحيوان مما أدى إلى انقراض فصائل عديدة منها ويهدد بانقراض المزيد : إما بسبب الصيد والتقتيل المباشر ، وإما بتدمير البيئة الطبيعية التي تعيش فيها تلك الأحياء(٢) .

وإذا تجاوزنا المخاطر المحدقة بالكرة الأرضية والبيئة الحيوية فيها ، فثمة احتمال لا يمكن تجاهله بتدميرها وإفناء جميع ما عليها من أصناف الحياة - بشرية وغير بشرية - بسبب المتفجرات النووية الجبارة المبثوثة في باطنها وأعماق بحارها ، والمنشرة في نواح واسعة على سطحها ، أو المحلقة بين طيات أجوائها وفي الفضاء الخارجي الذي يحيط بها. ولئن انخفضت المخاطر المتأتية من هذه وتلك بانتهاء ما شهده العالم طوال الحرب الباردة من تسابق محموم للتسلح بين المعسكر الغربي والاتحاد السوفييتي المنهار وحلفائه، فما زالت كميات كبيرة من الأسلحة والمعدات النووية الهائلة منتشرة في مختلف أنحاء العالم يكفي بعضها ، (سواء تفجر قصداً أو عرضاً ودون قصد) لتدمير الكرة الأرضية وإفناء جميع ما عليها من أصناف الكائنات الحية ، لا مرة واحدة بل مرات عديدة متكررة !

---

(١) من الدراسات الجيدة التي نشرت حول هذا الموضوع :

- L. S. Stavrianos . Global Rift, New York, 1981 .
- E. Wolf : Europe and the People Without - History . London, 1982 .
- Pierre Jalee : The Pillage of the Third world, London, 1968 .
- R. Jenkins : Exploitation, London, 1971 .

(٢) انظر مثلاً :

- Our Common Future : World Commission on Environment and Development, Oxford, 1987 .
- R. Clarke : Water - The International Crisis, London, 1991 .
- The Ecologist : A Blueprint for Survival, London, 1973 .

ثم الفصول الأولى والأخيرة من كتاب :

- A. Toynbee : Mankind and Mother Earth, London, 1978 .

نحـو آفـاق جديدة :

في ضوء ما تقدم به الذكر من أخطار هائلة تحدق بالأرض ومن عليها ، أصبح واضحاً أن الحضارة الأوربية الحديثة (التي أصبحت هي المهيمنة على مصائر العالم والبشر أجمعين) تعاني سكرات موت أليم يوشك أن يعصف بها وبسائر العالمين ، وأن ذلك المصير المفجع لا يمكن تجنبه إلا بمقدار خروج الإنسانية وتجاوزها الأنماط الحضارية التي طوقتها بها أوربا وهي ، كما رأينا ، أنماط تستمد أصولها من فلسفة مادية تسوق المؤمنين بها والمنجرين في ركابها للتمادي في الاستهلاك دون قيد ، والاستزادة من الأرباح دون حدّ ، وتؤدي بهم آخر الأمر إلى استنزاف جميع ما في الأرض من خيرات لن تسدّ نهمهم المتزايد وإنْ عظمت ، وتدفعهم من ثم واستباقاً لتلك الغاية ، إلى مزيد من التصارع والتطاحن من أجل الغلبة المستمرة والهيمنة المطلقة تلتمس لها المبررات بصياغة مزيد من الفلسفات الاستعلائية المؤدية ، طال الأمد أو قصر، إلى وقوع الانفجار وحدوث الدمار .

وسعياً للتنائي بأنفسهم وبالبشرية عن ذلك المـآل ، شرع كثير من المفكرين والملهمين يتلمسون طريقهم لقيم ، بل لحضارة ، جديدة تستعيد بها الإنسانية توازنها بين المادية والروحانية ، ويتصالح في إطارها العقل والدين ، وتنجو بها البشرية من التظالم القائم على أسس من العنجهية العنصرية ، أو العصبية الدينية أو المذهبية ، أو المشاحنات والصراعات الطبقية ، وتسلم بها أمنا الأرض من شرور الإسراف والاستنزاف .

وليس غريباً أنْ اهتدى كثير من أولئك الباحثين ـ شرقيين وغربيين ـ إلى أن الإسلام، بما تضمن من تلكم القيم المفتقدة ، وبكل ما اتسم به من توازن حكيم وتنسيق بديع بين أبعاد الحياة المختلفة ـ روحية ومادية ، وعقلية ووجدانية ، وفردية وجماعية الخ ـ هو الطريق إلى نجاتهم ونجاة الإنسانية .

ولئن بدا استكشاف الإسلام على أيدي غربيين نشأ بعضهم في أجواء بعيدة عن الإسلام بل معادية له وللمسلمين أمراً مدهشاً مثيراً للعجب[1] فإن إعادة اكتشاف الإسلام علـى يـد آخـرين مـن مجتمعات إسلامـية تقليدية عبر حجب كثيفـة

---

(١) لعل سير محمد أسد ، وما لكم اكس وروجيه جارودي من أروع التجارب الإنسانية وأبلغها دلالة في هذا السياق .

من العادة والألفة وركام هائل من التخلف الفاضح والانحراف الواضح بمقاييس الإسلام وبمقاييس المعاصرين أجمعين ، وفي ظروف شديدة التعقيد والإرباك[1] قد يبدو أمراً لا يقل طرافة وإثارة للدهشة والعجب كذلك . ولكن اهتداء هؤلاء وأولئك - متى جزنا الظواهر إلى ما وراءها من حقائق وجواهر - ليس شيئاً مما ينبغي أن يستغرب له أو يتعجب منه : فالإسلام دين الفطرة ، تهفو إليه ، تلقائياً ، قلوب من لم تفسد فطرتهم ولم تعش عن نور الحق أبصارهم وبصائرهم ، وهو الرسالة الخاتمة التي بعث بها الله رسوله الكريم رحمة ونجاة للعالمين ، وقد وعد سبحانه فقال وهو أصدق القائلين : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾[2] .

ولكن المهتدين المدركين لطبيعة هذا الحق ولحاجة العالم والعالمين إليه اليوم على كل حال قلة بين العالمين (وإن كانت قلة تتزايد عدة وعدداً على مرّ السنين) . ثم إنهم قلة تحول بينها وبين أن يسمع صوتها فيعرف الحق الذي تدعو إليه حوائل كثيفة من ضوضاء الدعايات المعادية التي تشوه دعوتهم بمكرها وضجيجها أيما تشويه[3] ، كما أن الواقع الذي تعيشه مجتمعات العالم الإسلامي التقليدي واقع شائه متخلف بمقاييس الإسلام ومقاييس المعاصرين أجمعين كما تقدم . فعلى تلكم القلة إذن تقع مسؤولية مزدوجة : هي مسؤولية تجلية وجه الحق الذي يعلمون وإبلاغه الخلق البلاغ المبين ، مع مواصلة العمل المنهجي الرصين لإعادة بناء المجتمعات الإسلامية - في الغرب والشرق أجمعين - على هدي من العقائد والقيم التي تنزل بها القرآن العظيم وأبانها الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وفي ضوء اجتهاد جديد بصيربحقائق الحياة ومتطلبات الإنسانية في خواتيم هذا القرن العشرين ، متطلع إلى ما بعده من الحقب والسنين ، غير ناس قول الله سبحانه ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾[4] والله غالب على أمره ولو كره المبطلون !

---

(١) يراجع في ذلك بحث الدكتور مدثر عبدالرحيم الطيب عن : « الدعوة الإسلامية في المجتمعات المسلمة » ، العدد الثاني ، مجلة الفكر الإسلامي ، الخرطوم ، ذو الحجة ١٤٠٤هـ / سبتمبر ١٩٨٤م ، وبحثه الآخر عن : « بين الأصالة والتبعية : تجربة الاستعمار وانماط التحرر الثقافي في البلاد الآسيوية والافريقية » ، دار نشر جامعة الخرطوم ، ١٩٧٨م .

(٢) فصلت : ٥٣ .

(٣) انظر في هذا الصدد الدراسة الجيدة التي نشرها إدوارد سعيد بعنوان :

Covering Islam : How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World. London, 1981.

(٤) العنكبوت : ٦٩ .

الكلمة التي ألقاها الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي*
نيابة عن المشاركين في حفل العشاء الذي أقامه
سمو الأمير الحسن تكريماً لأعضاء المؤتمر

بتاريخ ١٤/٧/١٩٩٣م

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال

طلب مني رئيسنا الجليل الدكتور ناصرالدين الأسد أن ألقي كلمة باسم إخواني أعضاء المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، عطفاً على كلمتكم ، حيث أكرمتمونا ثلاث مرّات : بخطابكم القيم في افتتاح المؤتمر ، ثم بالحفل الذي أقمتموه ، ثم بهذه الكلمة التي نعتبرها تكملة وشرحاً لخطابكم الافتتاحي .

نحن نعتقد أن أهم ما يميّز المجمع الأردني هو دعوته العلماء من شتى الأقطار الإسلامية ، مما يجعلنا نحن العرب نطّلع على بعض جهود إخواننا مفكري القارتين الآسيوية والإفريقية واجتهاداتهم ، إسهاماً منهم في حلّ معضلات العالم الإسلامي .

وبما أن موضوع مؤتمرنا هو « الإنسان ومستقبل الحضارة » فلا بدّ أن نؤكد أن إسهام المسلمين في الحضارة العالمية من جديد مرهون بمراجعة علاقتنا بالذات وعلاقتنا بالغير .

أمّا الذات فمن الضروري أن نعود إلى سيرة الأجداد التي كانت تتسم بالعلم والعقل والعدل والأخلاق ، فعندما سادوا العالم كانوا يأخذون بالعلم ويحكّمون العقل ويحكمون بالعدل ، كما كانوا يدركون غاية الإدراك أن الأمم الأخلاق .

أمّا اليوم ، فنحن ـ حكاماً ومحكومين ـ أبعد ما نكون عن العلم والعقل والعدل والأخلاق ، وهنا يكمن السر في تخلفنا وانحطاطنا وهزائمنا .

---

* العضو العامل في المجمع الملكي / الجزائر .

أمّا العلاقة بالغير ، فلا بدّ أن نستوعب التغييرات التي طرأت على الساحة الدولية بعد انهيار المعسكر الاشتراكي ، حيث أصبح الإسلام يقدم بصراحة - من طرف بعض ساسة ومفكري الغرب - كالعدو الأساسي .

وقد شرحتم - يا صاحب السمو - في خطابكم معالم المعركة التي يجب أن نخوضها سياسياً واقتصادياً وإعلامياً حتى نمحو الصورة المشوهة التي تروجها وسائل الإعلام الغربية عن الإسلام .

ومن جهة أخرى ترسم ملامح القرن الواحد والعشرين في غيابنا إنْ لم يكن على حسابنا ، وإذا أردنا أن يحترمنا الغير فلا بدّ أن نوحّد صفوفنا ونتضامن ونحلّ مشاكلنا عن طريق الحوار .

هذه بعض الخواطر ، أتقدم بها أمامكم يا صاحب السمو ، وأجدد شكرنا لكم ، وندعو الله أن يعود جلالة الملك الحسين إلى وطنه وشعبه بصحة وعافية .

ونسأل الله في الختام أن يجعل اجتماعنا هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن يمدّنا بروح منه ، حتى تنتصر قضايا الإسلام في شتّى الميادين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تقرير موجز عن بحوث المؤتمر

الدكتور عبدالعزيز الخياط



تقرير موجز عن الأبحاث والكلمات

الدكتور عبدالعزيز الخياط*

١ ـ بحث الأستاذ حكيم (حاج حافظ) محمد سعيد ، والدكتور أنصار زاهد خان :

« الإنسان ومستقبل الحضارة : وجهة نظر إسلامية » .

يعمد البحث إلى تصوير وتحليل لواقع الاسلام الحديث وصراعه مع الغرب في مواجهة مفاهيمه وسيطرته الاقتصادية ، وكراهية الغرب للإسلام والمسلمين ، وقد تقدم الباحثان باقتراحات من شأنها توفير الأمن للأمة الإسلامية ، وتحقيق الازدهار بتقوية الأخلاق والمعرفة والعلم والاعتماد على مواردنا الاقتصادية والتخّلص من التعامل الربوي ، وتقويض الخرافات الباطلة وليدة المشاعر المناهضة للإسلام في العالم الغربي . ويرى الباحثان ضرورة سيطرة روح صلح الحديبية المتسامح المسالم ليفهم الغرب أننا نريد بالإسلام الخير للانسانية ، كما أنهما يظهران أهمية المشاورة بين المسلمين ومحاسبة المسؤولين .

٢ ـ بحث الدكتور محمد عمارة :

« عالمنا حضارة واحدة أم تعددية في الحضارات ؟ » .

تناول الباحث فيه تعدد حضارات اليابان والصين والهند والغرب والحضارة الإسلامية وعلاقتها بالحضارة الغربية على وجه التحديد . وأنكر دعاوى واحدية الحضارة ، وبيّن تمايز الحضارتين الغربية والإسلامية وتميز الحضارة الإسلامية . ويرى أن الحضارات الأخرى لا تمثل خصماً حضارياً للغرب لأنها حضارات محلية . ثم عرض لمفهوم التعددية وأنها سنة في الخلق ، ولا تعني قطيعة التضاد ، وإنما هي تعددية العموم والخصوص ، وأتى بشواهد ونماذج على صدق الرؤية الإسلامية بتمايز الحضارة الإسلامية وعدم واحدية الحضارة . وبيّن أن الاشتراك في تصور الإنسان والعقل والدين والسلبية لا يعني الأحادية بل تميز الإسلام في النظرة . ويرى أخيراً أن عالمنا يجب أن يكون ملتقى حضارات متفاعلة .

---

* نائب رئيس المجمع الملكي ـ عمان .

٣ ـ بحث الدكتور طه جابر العلواني :

« الإنسان في القرآن » .

تحدث في مفهوم الإنسان في القرآن الكريم وأن الحق معيار الشخصية الإنسانية في القرآن ، مبيناً أن ذلك يتناول ثلاث دراسات : مفهوم الحق ، ومفهوم التناقض بين الحق والباطل ، والوعي الإنساني في القرآن ، ثم تحدث عن معنى عبودية الإنسان لله وأنها لا تستلب قدرات الإنسان، وعرض لمسألةحقوق الإنسان في ميثاق حقوق الإنسان العالمي، وأن الإصلاح في القرآن ليس طوباويا .

٤ ـ بحث الدكتور يوسف القرضاوي :

« الإسلام حضارة الغد » .

بحث مطول يقع في (٨٤) صفحة ، ذكر فيه أن الحضارة الغربية استغنت عن الله ، مبيناً أنه يخاف على هذه الحضارة لما فيها من خير ينتفع به الجميع ، مما يستدعي إضفاء الجانب الروحي عليها من خلال رسالتنا الحضارية . وقد تناول فيه فصولاً هي :

الفصل الأول : وبحث فيه روح الحضارة المعاصرة التي أوجدت الرفاهية للإنسان بالمخترعات ولكنها لم تهيء له السعادة بنزعتها المادية وهي مرتبطة كهنوتاً بالدين المسيحي ، ولذلك فإن النزعة العلمانية التي تفصل بين الدين والعلم وبينه وبين الدولة ، ونزعة الصراع وكذلك الفطرة الإنسانية بارزة فيها ، وهذه هي أهم سمات وجذور الحضارة الغربية .

الفصل الثاني : العقلاء يدقون جرس الإنذار من خطر الحضارة الغربية المادية ، وفيها ذكر أقوالاً لعددٍ من العلماء الغربيين سياسيين وأدباء وعلميين وفلاسفة ينذرون بخطر المادية المحدق وبُعدها عن الروحانية .

الفصل الثالث : الحضارة التي ينشدها العالم ، حيث استعرض الباحث حملة القرآن علي الحضارات المادية القديمة وإهلاك أصحابها وأسباب ذلك ، من الجحود والترف واتباع الجبّارين والظلم والفواحش والفساد وغيرها. وتناول قانون المداولة بين الأمم ووراثة الحضارات، ثم ذكر أن الدواء لذلك هو الدين ، وبالذات الدين الإسلامي ، إذ ان الديانتين المسيحية واليهودية عجزتا عن إنقاذ البشرية ، بينما الحضارة الاسلامية هي حضارة التوازن والتكامل والوسطية بين العلم والإيمان ، ولا بدّ من عمل يؤدي لتجديد الإيمان . وذكر بعد ذلك ملامح الإنسان الذي تصنعه عقيدة الإسلام ، والإسلام الذي يتمثل في أمة .

٥ ـ بحث الدكتور إسماعيل باليتش :

« البعد الأخلاقي العالمي وتحديات العصر : (من وجهة نظر إسلامية) .

في البحـــث بعـــض الآراء الفقهيـــة حـــول الأطعمـــة المحرمـــة التـــي لا مخالفـــة فيها .

وفيه يرى الباحث « أن الدين وحده لا يكفي للمساعدة في التغلب على مصاعب الحياة بـل لا بدّ ، وفقاً لصريح القرآن ، من الحكمـــة أيضاً . إن الإجابات التي أعطاها خلفـــاء محمد (عليه السلام) على مسائل عصرهم ومشكلاته لـم تعد تتلاءم أيضاً مع متطلبات يومنا هذا » . وهو يقصد تغير الأحكام بتغير الأزمان ، ويدعو إلى ترك الجمود والتقليد الأعمى .

وفي البحث أحاديث لا سند لها مثل « اعمـل لدنياك كأنك تعيش أبـــداً واعمل لآخرتك كأنك تمـــوت غداً » وحديث « العدالـــة نصف الدين » فهذه ليست مما ثبت أنه أحاديث نبويـــــة .

٦ ـ بحث الدكتور أحمد صدقي الدجاني :

« الإنسان ومستقبل الحضارة ، وجهة نظر إسلامية » .

وفيه يتحدث الباحث عن الأرض والمحيط الحيوي ، وعن الإنسان ، ثم يتأمل في واقع عالمنا الحضاري وما يسوده من تقدم التقنية ، ويورد كثيراً من آراء علماء الغرب في ذلك ، كما يتحدث عن الصراعات الحديثة والأخطار التي تهدد الحضارة ، وعن أزمة السلام الحادة وسياسة التوتر ، وأزمة القيم الأخلاقية العقدية أمام المادية الدهرية الملحدة ، وينتهي إلى ضرورة التخلص من الأزمة الروحية ببلورة مفهوم للحضارة يقوم على الرؤية المؤمنة المسلمة الكفيلة بتحقيق التكامل بين العقيدة والأخلاق والقانون ، والتعاون الإيجابي لبناء الحضارة ومقاومة التخريب .

٧ ـ بحث الدكتور جلال شوقي :

« أدوات التنمية في ظل التحدي التكنولوجي » .

يتحدث فيه عن أدوات التنمية في ظل التحدي التكنولوجي ، وعن تصنيفاتها ، وأهم إنجازاتها وتغيراتها ، وعن الدورات الاقتصادية ومعدلات النمو الاقتصادي .

البحث بما فيه من جداول وبيانات له طابع علمي إحصائي ، وفيه دعوة للمسلمين إلى الأخذ بأسباب التقدم العلمي .

٨ ـ بحث الشيخ محمد الغزالي :

« نحو حضارة إسلامية » .

أسلوبه أدبي ، يهتم بالعقل المؤمن كما يهتم بالقلب المؤمن ، ويبين أن المسجد كان جامعاً وجامعة ، ولم يكن صراعاً بين العلم والدين ، ويضرب مثلاً بحضارة الغرب التي فقهت أسرار ملكوت الله من ناحية مادية ، ولكنها لم ترتبط بالله ، واننا نحن أفقر ما نكون وأبعد عن فهم حضارة الإسلام وتطبيقها، مبيناً نواحي كثيرة من حضارة الإسلام، وموضحاً سمات حضارة الإسلام المطلوبة .

٩ ـ بحث الأستاذ عبدالوهاب بن منصور :

« الحضارة والأخلاق » .

تحدث فيه عن تواصل الحضارات ، وأن سبب شموخ الحضارة الإسلامية هو الدين، ودعا إلى الأخذ بجوانب الحضارة الغربية الحسنة ونبذ السيئ منها ، وتحكيم الأخلاق الإسلامية فيها ، وضرورة نبذ الفرقة والطائفية والغلو ، وتمهيد السبل لتطوير الحضارة الانسانية أخذاً بحضارة الإسلام لتوطيد الاستقرار السياسي وحلّ مشكلات العصر وقضاياه .

١٠ـ بحث الدكتور محمد فاروق النبهان :

« نحو خطة موحدة لمستقبل العالم الإسلامي » .

تحدث فيه عن ضرورة الاحتكام إلى العقل المخاطب بالنص الشرعي ، وضرورة الثقة بالعلم ، واحترام حقوق الإنسان ، وإقرار الأنظمة التي تحقق العدل الإجتماعي ، والاعتزاز بالتراث الإسلامي والاهتداء به في نهضتنا الحاليـة ، وهو يرى أن الإسلام

لا يعني الماضي بل هو خطاب تكليفي متجدّد . ومسيرة الحضارة تحتاج إلى توازن قائم على تصحيح ذاتي في السلوك الإنساني وتمييز فعلي ، ونحن بحاجة إلى وضوح الهوية الفكرية والثقة بالمواطن ومضاعفة القدرات البشرية في بناء الهيكل الحضاري ، وإيجاد صيغة واقعية ممكنة تحقّق تعاوناً مثمراً بين المجموعة العربية الإسلامية وبين المجموعات الدولية .

١١ ـ بحث الأستاذ عبدالله باه :

« تأملات في الحضارة الإسلامية (ماضياً وحاضراً ومستقبلاً) » .

يفرق الباحث بين معنى الحضارة والثقافة والمدنية ، إضافة إلى اعتبار أن الحضارة ملك للجميع ، مع أن فجر الحضارة كان في المشرق العربي ، وأن الإسلام ذروة الحضارة ، وأنه واءم بين العقيدة والمادية ، ورفع من قيمة الإنسان ، وتناول ـ في عرض تاريخي ـ مسيرة الفكر والثقافة في الحضارة الإسلامية وأثرها في العالم ، وبيّن الرواسب التي خلّفها الاستعمار في بلادنا ومنها الانفصام الذاتي والعلمانية ، ومحاربة اللغة العربية ، والدعوة إلى الإسلام الأسود والإقليمية. وأن الإسلام يواجه حرباً ولا بدّ من إنقاذ إفريقيا المسلمة ومحو الأمية المنتشرة بين أبنائها .

١٢ ـ بحث الخبير الدكتور علي عثمان :

« وكيف نصير خير أمة » .

يتناول الباحث الدراسة في خمسة أقسام هي :

١ ـ الفترة المكية وملامحها .

٢ ـ نظرة القرآن إلى الإنسان .

٣ ـ منظور الإسلام الكلي .

٤ ـ تغيير الواقع العربي لنتوجه بالإسلام .

٥ ـ العودة إلى نظرة الإسلام إلى الإنسان خاصة .

وهو يركز على العنصر العربي واستعداده لحمل الإسلام ، ومما تناوله الباحث ظاهرة اهتمام المجتمع المكي كله بالإسلام في قضايا الإنسان ، وهذه تجربة ليس لها مثيل في خضمّ القضايا التي انشغل بها الناس ، ويعرض الباحث للحضارة من خلال توضيحه لرؤية جديدة مشتركة للإسلام ، مبيناً نظرة الإسلام المتميزة للإنسان والعلم ، والألوهية ، والدعوة إلى الاجتهاد ، ومنها تبين موقف الغرب من حضارتنا وموقفنا من حضارته ، ومنها فهم الإسلام للتطور ، ومنها عداوة اليهود لحضارة الإسلام ، ثم تعرض لضرورة تغيير الواقع العربي على ضوء فهم جديد للإسلام لا الفهم المتوارث لدى جمهور المسلمين ، وحدّد المعالم والخطوات التي نصير بها خير أمة أخرجت للناس ، وأشاد بالتجربة الديمقراطية في الأردن وتميزه بها .

١٣ـ بحث الخبير الدكتور فهمي جدعان :

« الإسلام والمستقبل » .

فيه أفكار جديدة بيّن فيها أن الإسلام مرهون بحدّين رئيسيين : الذات الإسلامية والنزوع إلى الغرب . وقد طلب من الدولة المدنية الحديثة في عالم الإسلام أن تنصاع لقواعد السلطة الحديثة أي تنصاع للقانون ومباديء العدالة الكاملة وبأصل العدل وقد تساءل عن خير القرون وعن مستقبل العالم الإسلامي الذي يرى أنه سوف لا يحمل حضارة إسلامية شاملة ، وعن قدرته على حمل بديل للحضارة الغربية ، وقد أشاد بحضارة الإسلام مع أن واقع الإسلام اليوم في أزمة من حيث التقليد والخلاف بين السنة والشيعة وفوضى القيم ، وغياب الصيغة الوفاقية بين الدين والدولة الحديثة ، ولكن لا بد من أن يعود المسلم إلى ذاته ويعاود النظر فيها وفي كل القضايا والمشكلات .

١٤- بحث الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي :

« هل للإسلام دور في النظام العالمي الجديد ؟ » .

تساءل الباحث عن دور الإسلام في النظام العالمي الجديد ، وهاجم الغزو الفكري الغربي ، وبين مخاوفه من الإسلام ، وأنه في الوقت الذي أعلن فيه اغتباطه بزوال المعسكر الشرقي لم يستطع أن يخفي فزعه الشديد من المد الإسلامي المتوقع ، وقد تعرض الباحث لبعض العوامل التي أضعف الغرب المسلمين بها لكنه طالبهم بضرورة العودة إلى الإسلام في جذوره الاعتقادية وبنيانه الحضاري بالحوار والتعددية وإبراز قوة الإسلام الذاتية .

١٥- بحث الدكتور جاويد إقبال :

« الإنسان ومستقبل الحضارة ، من منظور إسلامي » .

وفيه إحصائيات مفيدة ، وتحديدات جيدة للحضارة ، مع بيان موقف الحضارة الغربية من الدين ، ويرى الباحث ضرورة إعادة البناء بالإسلام من غير توضيح .

١٦- بحث الدكتور مهدي محقّق :

« اقتراح مبدئي بتدوين دائرة معارف خاصة بتاريخ الطب في الإسلام » .

أشاد الباحث بأهمية علم الطب في ظلال الإسلام ، وأن الطب الإيراني كان أحد المصادر المهمة لطب العالم الإسلامي ، وذكر صلة الطب الإسلامي بالطب الهندي والفارسي واليوناني القديم ، وذكر أنه ألّفت كتب ومجامع كثيرة في الطب الإسلامي ، وبعد أن يبين ما في موروثنا الحضاري من غنىً يقترح تدوين دائرة معارف خاصة تتناول تاريخ الطب وأحوال الأطباء والأدوية والآلات الطبية وما له من صلة بالتداوي في الحضارة الإسلامية .

١٧ـ بحث الدكتور سيد حسين نصر :

« تأملات حول الإنسان ومستقبل الحضارة » .

بيّن الباحث ماهية الإنسان ، والمقصود بالحضارة قديماً وحديثاً ، وأن الحضارة الحديثة شرعت في تدمير الحضارات القديمة بما فيها الإسلامية ، وهو لا يرى أي مستقبل للإنسان في ظل الحضارة الحديثة ، ثم بيّن مفهوم الإسلام للإنسان وأنه خليفة الله في الأرض ، وأن الإسلام يلقى هجوماً من الغرب ولا بدّ من مواجهة التفوق المادي الغربي ، ونبه إلى العقلانيين المتزمتين، الذين أفسحوا المجال بتزمتهم لمناوأة الغرب للإسلام ، ثم دعا إلى الحفاظ على الإسلام ديناً وحضارة وأن يفهم المسلمون بعمق الحضارة الغربية ويأخذوا من إيجابياتها .

١٨ـ بحث الدكتور هشام نشابة :

«معايير الحضارة من وجهة نظر إسلامية » .

يحاول الكاتب أن يضع معياراً للحضارة ، بعد أن رأى بعض الناس ينادون بأن يكون التقدم التكنولوجي هذا المعيار ، الذي رفضه الباحث لأن نظام الحضارة التكنولوجية يقوم على الانتاج المادي والربح ، وهذه على الرغم من أن لها قيماً جليلة في نظره ، إلا أنه يرى أن نظامنا القيمي الإسلامي ثابت مطلق يطلب لذاته لا لربح مادي عابر لا يحقق السعادة التي يحققها الإسلام في إقامة التوازن بين الروحية والمادية .

ويسوق الباحث أمثلة على فساد القيم المادية كالمثل الأمريكي « إن النجاح يبرر كل شيء ».. الذي مكن لأثرياء العالم جمع ثرواتهم من أي طريق وسيادة الحضارة بها.

وثمة مثل آخر يقول « ليس الفوز أهم شيء في الألعاب الرياضية إنه الشيء الوحيد » .

كما أن الناس ـ في قصة يسردها ـ يرون مبررات السقوط هي مبررات النجاح فيما لو نجح صاحبها .

ويرى الباحث أن مكونات الحضارة الغربية ثلاثة : المال والآلة واليد العاملة ، وقد نجحت دول هذه الحضارة بها وسادت ، مع إبقائها على الخصائص المميزة للحضارات الأخرى كالحكم ميزة الحضارة اليونانية ، والإدارة ، ميزة الحضارة الرومانية .

ويرى أن (العدل) هو ميزة الحضارة الإسلامية ، ويسوق الأدلة من القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾[1] وهو معيار الحضارة الإسلامية ، الذي يحكم صلاح الإنسان حاكماً ومحكوماً في جميع معاملاته وفضائله وتقواه ، وهو المثل الأعلى الذي تسعى الحضارة الإسلامية إلى تحقيقه ، وتقيس به جميع الإنجازات الحضارية.

١٩ـ بحث الأستاذ عبدالهادي بو طالب :

« الإنسان ورهانات المستقبل » .

هذا البحث ملخص عن أصل مطول يتناول فيه ست عشرة نقطة ، ويمكن إجمال محتوى الملخص فيما يلي :

١ ـ سعي الإنسان لتحسين ظروف حياته بوسائل شتى ، وأن الحضارات تتنوع بتنوع مقاصدها في ثلاث مراحل : الإمبراطوريات الوثنية والدينية التي بلغت أوجها في الخلافة الإسلامية ، والاستهلاكية التي تمثل النمط الغربي ، كما أن الحضارة المعاصرة ليس لها مبادئ ، بل نرى ظاهرة حلول الأنانية والكبرياء محل الحرية باعتبارها حقاً طبيعياً للإنسان وهذا من مخلفات الاستعمار .

أما من حيث الأهداف فقد فرض الغرب التحديث باسم التمدن ، ولا يزال المنهج الاستعماري يحكم العلاقات الدولية في مجال التوازن الاقتصادي ، مما أدّى إلى الهجرة من العالم الثالث إلى العالم الغربي . ويتساءل الباحث عن المنهجية التي تحقّق الاستقرار أهي الليبيرالية المطلقة أم منهج آخر ؟

ثم يذكّربأن التجربة الاشتراكية . قد فشلت ، وأن الشعوب الأخرى ولا سيما الإسلامية لا تقبل الليبرالية المطلقة ، ومع كون العالم قرية واحدة ، فإن الشمال لا يزال يزدهر على حساب كدّ الجنوب ، مما يؤدي إلى رهانات خطيرة ومصيرية . ونحن اليوم ندرك أن هناك ظاهرتان : الوطنية ، ورفع الحدود أمام الأسواق المالية .

---

(١) النحل : ٩٠ .

وللخروج من مأزق الأزمة العالمية يرى بعض المتخصصين أنه لا بدّ من استمرار النمو لدى الشمال ، بينما يرى العالم الثالث أنه لا بدّ من تنمية الجنوب حتى يستمر الشمال . ويرى الباحث أن البعد الاقتصادي لن يحل المشكلة وأن مسلسل التكاثر بالثورة الصناعية قد بلغ حده فهو ينذر بهزات اجتماعية أكيدة . فلا بدّ من البعد الثقافي لكل مشروع بشري . والسبيل مفتوح لحضارة تمتاز بوحدة الهدف (وإن تعددت مشاربها) تنصهر فيها جميع الثقافات التي تسيطر على إنسانية الإنسان .

٢٠ـ بحث الدكتور خورشيد أحمد :

« الإنسان ومستقبل الحضارة من منظور إسلامي » .

لقد بلغ الإنسان ذروة التقدم المادي ، ونبذ علاقته بالتقاليد والحقيقة المنزلة ، وكل ضروب الهداية الخارجة عن نطاق ذاته . وأوجد عدم الاستقرار بسيطرة الأغنياء والأقوياء وتفكك روابط الأسرة وانتشار الظلم وأنانية الفـــرد ، ولم يعد « الإنسان الطيب » ، ومن المخاطر أنه وصل قمة الحضارة وفي هذا دماره .

ويرى الباحث أن أزمة الحضارة الحديثـــة تتجلى في انحطاطها وفقدانها القـــدرة على « الاستقطاب » كما يقول الكتاب الغربيون .. لقد أصبح نهر الحياة ملوثاً ، وأصبح ميزان الرعب يسود العلاقات الدولية . لقد ضاعت المفاهيم التقليدية ، وانتشرت الفوضى وسيطر على السلوك في المجتمع الصناعي الحديث الانهماك في الامتلاك والاكتساب بدلاً من الوجـــود والصيرورة .

وساق المؤلف آراء الكثيرين ودراساتهم عن تدهور الحضارة المادية إذ أن ٢٠٪ من العالم يعاني من أمـــراض خطيرة (توعك إنساني ، الشكـــوك ، اليأس) والعالـــم مقبل علـــى كارثة وأخطار ، ولذلك لا بدّ والحالـــة هـــــذه من تطوير منظـــورات وردود عالميـــة جذرية ، لأن المؤسسات التقليدية لـــم تعد قادرة علـــى مواجهة المشكلات وحلها .

ويرى الباحث أن البديل لحل أزمة الحضارة المعاصرة هو الإسلام في اكتشاف كلمة الله ، ليست المشكلة في النظام الاقتصادي والسياسي ، بل بإقامة نظام عالمي جديد يقوم على مفهوم جديد للإنسان ورؤية حقيقته ، وذلك من خلال العناصر التالية :

١ ـ التغيير الاجتماعي .

٢ ـ الإنسان هو المسؤول عن صنع مصيره .

٣ ـ لا بدّ من تغيير البيئة والنفس الإنسانية .

٤ ـ الإسلام هو دستور الحياة الذي أنزله الله .

ويورد الباحث الادلة على صلاحية الإسلام وفساد النظام المعاصر مبيناً قدرة الإسلام باعتباره حركة اجتماعية قادرة على رفع مستوى الفرد والمجتمع والعالم ، ولا عبرة بقصور المجتمع الإسلامي الحالي ، وذلك من خلال التوحيد وخلافة الإنسان لله في الأرض ، وإقامة العدل بين الناس ، والاهتمام بالسلطة الاقتصادية والسياسية ، وأنها ليست شراً ، ويؤكد أنه لا واسطة بين الله والإنسان ، ويرى أن قيم الإسلام هذه هي التي توجد التغيير الشامل ، والانبعاث الإسلامي من جديد ، ومهما وصف الغرب هذا الانبعاث بأنه أصولي أو راديكالي أو متطرف أو متعصب أو إرهابي أو معادٍ للغرب ، وأي صفات فادحة ، فلن يغير مفهوم الإسلام وانبعاثه ، وأنه سينقذ العالم من الرموز والمظاهر التي تتخذها الحكومات أو من الضعف في المجتمعات الإسلامية وتغريبها ، ويرى ضرورة تنحية النموذج الاستعماري عن القيادة ، فلا يجوز للقيادة العلمانية أن تحتكر الساحة وتتمتع بأفضلية على العقيدة الإسلامية .

٢١ـ بحث الدكتور عبدالهادي التازي :

« معيار الحضارة للإنسان » .

إن القاعدة الأساسية التي ينطلق منها الباحث تتمثل في السلوك ، وهو يرى أن البحث في حضارة الغد يتطلب معرفة الماضي من جهة ، وأن تكون على درجة من الاستقامة الخلقية والمعاملة الحسنة ، والواقع ليس كذلك ، ويشير إلى حالات ثلاث للرحّالة المسلمين هم : الشيخ محمد بن عبدالرحيم المعروف بأبي حامد الإندلسي الغرناطي

صاحب رحلة « تحفة الألباب » في القرن السادس الهجري الذي رأى الظلم المتفشي عند المسلمين مصداقاً للحديث « إن الدنيا سجن المؤمن » ، بينما يرى العدل عند غيرهم كالصين مصداقاً للحديث « الدنيا جنة الكافر » واعتبر هذين الحديثين من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم .

والرحّالة الثاني هو محمد أبو الحسن محمد بن أحمد « بن جبير » الذي رأى ظلم الأمراء والحكام في المعاملة وأخذ المال في الإسكندرية ، وعز عليه أن يكون ذلك في عهد صلاح الدين الأيوبي ، وكذلك في عيذاب ، بينما وجد المعاملة الحسنة في مركب جنوي عند ملك صقلية غير المسلم .

والرحّالة الثالث هو ابن بطوطة الذي رأى الظلم في المعاملة عند عمال الموحدين في بجاية ، خلافاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » على أنه رأى الأمن والمعاملة الحسنة في بلاد الشام وسيلان وجاوة .

ويؤكد الباحث أن الذي ما نحن في حاجة إليه هو الأخلاق ، حتى نرتفع عن تخلفنا في واقعنا المؤلم .

٢٢ـ بحث الدكتور شمس الدين خان :

«الإنسان ومستقبل الحضارة الإسلامية على ضوء الأحداث في دول آسيا المركزية».

يتحدث عن مشكلة سد الفراغ الأيدلوجي في منطقة دول آسيا المركزية ولا سيما جمهورية أوزبكستان بعد انهيار الشيوعية ، مبيناً أنه ظهرت منافسات ومناقشات ، وأن الناس لم يتحرروا من رق العادات السابقة والعقيدة الجاحدة والانفصال عن العالم الحضاري .

لقي أهل البلاد اضطهاداً شديداً من القيصرية والشيوعية ضد الإسلام والمسلمين ومع ذلك ظل المسلمون متمسكين بدينهم ، واستقلالهم اليوم يحتاج إلى ايدلوجية تراعي القومية ولا تتعارض مع المبادئ الدينية ، في ظل أخوة الإسلام والتعاون على التقوى وإيجاد العلاقات مع العالم الإسلامي ، والتغلب على الأزمة الروحية والجمع بين أمور الدنيا والدين .

ويقول الباحث إن شعوب دول آسيا المركزية عملوا على نشر كتب عن الإسلام كالعقيدة الطحاوية والأدب المفرد ومبادئ الإسلام ، كما رتّبوا فهرساً يحتوي على (٥٠٠) مخطوطة باللغة الأوزبكية ، من بين أربعمئة ألف مخطوطة باللغات العربية والفارسية والتركية ، وكان ذلك بمناسبة الذكرى الألفية للشيخ النقشبندي الصوفي .

ومن جهودهم أنهم أنشأوا صندوق التعاون الإسلامي ، وذلك لنشر المخطوطات ، وعمل موسوعة عن تاريخ علماء المسلمين في المنطقة ، وبناء المساجد وإصلاحها ، ونشر التقاليد الإسلامية وتطوير التعاون مع العالم الإسلامي . راجياً دعم هذا الصندوق لضمان مستقبل الحضارة الإسلامية في آسيا الوسطى .

٢٣ـ بحث الدكتور إسماعيل بالتيش :

« المسلمون في البلقان » .

يقدّر الباحث عدد المسلمين في البلقان بنحو خمسة عشر مليوناً ، منهم ٦ ملايين في القسم الأوروبي من تركيا والباقون في يوغسلافيا (السابقة) وبلغاريا ورومانيا وألبانيا واليونان . وهؤلاء أغلبهم من الأتراك .

ثم يشير إلى أن القومية نشأت حديثاً مع الإسلام. فالقومية البوسنية مغروسة بعمق عند المسلمين . كما كان يشعر أسلافهم في مملكة البوسنة المستقلة (١٣٧٧ ـ ١٤٦٣) وسيطر البوسنيون الكاثوليك على الوجود الكرواتي ، والأرثوذكسيون على الوجود الصربي وجعلوا المسلمين تبعاً لهم ، ثم نشأ حزب العمل الديموقراطي في البوسنة ممثلاً للمسلمين .

ويذكر الباحث أن الإسلام وجد في البلقان في القرن التاسع الميلادي قبل الدولة العثمانية. والصقالبة كانوا حرس الخلفاء في قرطبة وهم من إقليم الدانوب . وقد انتشر الإسلام هناك في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

ومما يشير إليه الباحث أن الكنيسة البوسنية قلدت المسلمين في نظامها الروحي ، فأتباعها يؤدون الصلاة خمس مرات ويصومون كالمسلمين . ومما يلاحظه كذلك أن الهجوم العثماني كان شديداً على بلغاريا التي قادت الحملات الصليبية . وأن الصربيين يرون أن البوسنيين خانوا الأمة بدخولهم في الإسلام .

ومنذ سنة ١٩٧١ أصبح البوسنيون « مسلمين بالمفهوم القومي » ، وأظهر إحصاء سنة ١٩٩١ أن مليونين ومائتين وتسعة وتسعين ألفاً وثلاثمائة وثمانية وعشرين مسلماً هم مسلمون بالمفهوم العرقي واتخذوا اللغة البوسنية لغتهم ، وقد بدأت عمليات الإبادة الجماعية عند المسلمين البوسنيين الذين يشكلون الأغلبية في البوسنة منذ سنة ١٦٨٣ حتى يومنا هذا .

وشرح الباحث كيف كان الهجوم الوحشي والفتك والهتك والاعتقال والتكسير والتدمير والهدم والتهجير وغيرها من الأعمال الوحشية يقع على أهل البوسنة على مرّ العصور ولا سيما في الوقت الحاضر ، نتيجة للعداوة المتوارثة والكراهية للإسلام والمسلمين ، وكل ذلك بمساعدة الغرب لمنع نهضة المسلمين في أوروبا .

ويذكّر بأن الإسلام دين التحرر والتسامح ، وأن المسلمين يريدون أن يتميزوا كمسلمين لا عرقيين ، وأن الإسلام عندهم وحدة الدين والدولة ، وأن الإسلام ينتمي إلى أوروبا جغرافياً وتاريخياً وعرقياً وثقافياً .

٢٤ـ بحث الدكتور سيد مقبول أحمد :

« الإنسان ومستقبل الحضارة : وجهة نظر إسلامية » .

يرى الباحث أن العالم يشهد انحطاطاً أخلاقياً وتغيرات جوهرية على أثر حربين عالميتين تبعتهما حروب أهلية ، وبسبب الثورة التكنولوجية . وقد كان المسلمون متقدمين في الهند في كل الميادين ، إلا أن استعمار الغرب لهم أخرهم كما حصل في العالم الإسلامي ، وقد ساعد ذلك على ظهور الدوغماتية والتشرد في الفكر الديني وإلا لما أثر الاستعمار فيهم .

ويرى أن الإسلام دين التقدم والعقلانية والليبرالية وسعة الأفق ، وتعاليمه تدعو إلى الأخوة العالمية والمساواة، لذلك فمن واجب علماء المسلمين العمل للإسلام والخروج من الواقع الحالي وأن يقتبسوا من التقدم العلمي ، للقضاء على الفقر والعمل على الاكتفاء الذاتي ورفع الاضطهاد عن المسلمين .

٢٥ـ بحث الدكتور علي أوزاك :

« الإنسان ومستقبل الحضارة الإنسانية : وجهة نظر إسلامية » .

يرى الباحث أن الإنسان مسؤول مكلّف ، وأن التكاليف بنيت على العقل ، والحضارة من أثر العقل ، ومستقبلها مربوط بأنشطة العقل الإنساني كما ذكر القرآن .

ويحدد الهدف من هذا الموضوع وهو إنارة الطريق للمسلمين خاصة وللناس عامة للأخذ بطريق الأنبياء والرسل لا بطريق شياطين الانس والجن ، وطريق القرآن هو الطريق الأمثل الذي نجح به المسلمون الأوائل الذين فتحوا البلاد ونشروا الإسلام وعلموه الناس سمحاً بسيطاً . وعلينا الآن نحن أبناء هذا الدين الدعوة إلى الإسلام بالقرآن والتيسير على اتباعه بأحكامه ليكون عندهم إيمان صحيح وتوحيد خالص . ويرى ضرورة الكسب الحلال بالرزق الحلال ورفع الفقر عن المسلمين بالتجارة العالمية . وذلك بتوجيههم من خلال التربية والتعليم إلى العمل والعلم والصناعة والتكنولوجيا ، ويرى أن التكسب بالزراعة وحدها يؤدي إلى الفقر ، ففي أمريكا ٥٪ في الزراعة وفي اليابان والمانيا ٤٪ وأن حصة المسلمين من التجارة ٣٪ وإذا أخذت منها تجارة البترول تصبح $\frac{1}{2}$١٪ وهذا خطير .

ولا يتم ذلك إلا بالبحوث الاجتماعية قبل الاقتصادية ، ويرى أن العبادة وحدها لا تكفي . ولا بدّ من ضبط النظام الاقتصادي للمسلمين اقتداء برسول الله الذي حرم الربا ووضح الحلال والحرام وأمر بإخراج الزكاة ، والاستفادة من تقدم العالم ونجاحنا في العمل مربوط بالعقيدة ، والاتحاد والتعاون .

٢٦ـ بحث الدكتور إحسان دوغرمجي :

« الإنسان ومستقبل الحضارة : وجهة نظر إسلامية » .

يرى الباحث أن واقع العالم الإسلامي سيء من حيث الفقر والجوع وسيادة الغرب عليه بسبب أنه أخذ بمبادئ العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص وحقوق الإنسان وإتقان العمل ونشر التعليم وهي من أهم أسباب تقدم الحضارة .

وأن دين الإسلام أول الأديان التي دعت إلى العلم واتبع المسلمون ذلك في حركة ثقافية مزدهرة في وقت كان العالم في جهالة ، ويمكن استعادة السيادة العلمية والرقي للمسلمين إذا عرفوا تاريخهم ودينهم وفهموا لماذا تقدم الغرب عليهم بالعلم والتكنولوجيا ، والمسلمون تركوا ذلك فلا بدّ من العودة إليه باتحاد المسلمين وتبادل الثقافة بينهم وإنشاء جيل جديد يؤمن بربه ودينه والعلم والتكنولوجيا ، ولا بدّ من بذل الجهود لذلك .

٢٧ـ بحث الدكتور روجيه جارودي :

« مستقبل الإسلام » .

كل مسلم مسؤول عن مستقبل الإسلام ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد** ﴾[1] وعلينا أن نعمل بصورة ديناميكية لهذا المستقبل ، وأن نغير واقعنا ونستخدم الكون بالمشاركة في عملية الخلق الإلهية كما أمرنا الله . ليس « بدعة» أن نغير المجتمع وأنفسنا ، فكل عادة إن لم تتغير تمت ، والبشر إن لم يعملوا يتقهقروا .

والعمل للتخلص من التأخر هو أولاً : بدراسة أسباب الازدهار والانحطاط ، وأن نعتقد أن انتشار الإسلام كان بالثورة الثقافية ، وأسبابها الديانة الجديدة . الإسلام إيمان جامع واستسلام له وإيمان بما سبق من الأنبياء والكتب ، ونبذ البدع والتقليد والدعوة الشمولية التي تحارب الطائفية . ويشكل يقظة دينية تعطي حياة جديدة ، وبهذا واجه الإسلام الإمبراطورية الرومانية والفارسية وسكانها فاقبلوا على الإسلام وآمنوا به .

(١) الحشر : ١٨ .

وثانياً : معرفة أن الله وحده الحاكم والمالك والعالم وأن الإنسان مستخلف على الأرض ، والثروة تستعاد منه إذا لم يستثمرها ويجعلها في خدمة الجماعة .

ويرى أن المجتمع الإسلامي يرتكز على المساواة والعدل بين الناس ، وعدم الاستبداد والارتفاع الأخلاقي ، والازدهار الثقافي بإنشاء المكتبات وانتشار التعليم والبحث عن الحقيقة .

ولما استبد الخلفاء وانغلق الفهم عندهم وعند الناس وتعلقوا بالقشور واهتموا بالتقليد ضعفوا .

ويشرح الباحث معنى سنة الله أنها استمرارية العطاء وسنة الرسول ادخال المبادئ الأبدية في التاريخ ، وسنة الفقهاء إيجاد الفقهاء المبدعين كأبي حنيفة الذي تميز بالفهم الدقيق . ويرى أن الأشعري أكمل عملية « تجفيف الإسلام » التي حققها أحمد بن حنبل في الجمود والتعليم العقائدي المتحجر والتفسيرات الحرفية وعزل العبادات عن إطارها الكامل .

وتعني « الشريعة » عند الباحث « الطريق المؤدي إلى الله » وهي مشتركة بين جميع الشعوب التي أرسل الله إليها رسله ، والفقه خلاف الشريعة المشتركة ، ويستمر في تفسير ذلك ويضرب مثلاً بالقبلة وتحولها عن القدس إلى الكعبة ، وحيثما تولوا فثم وجه الله ، وكل ذلك يدور في مفهوم الله الحاكم والمالك والعالم . ويفرق الباحث بين الإسلام واليهودية ، فينبه إلى أن الإسلام واضح فيه التداخل بين الصمدية والتاريخ والدين والسياسة أي بين الشريعة والقوانين ، بخلاف اليهودية فإنها وصايا .

كما يفرق بين الشريعة وبين البرامج ، فالشريعة لا تتحجر ، ويجب أن لا تخلط مع فقه كل قرن ، بمعنى أنه لا بدّ من التقدم والتطور في الاجتهاد ، ويضرب أمثلة من قرطبة والهند .

ويدعو لمستقبل الإسلام من خلال تحقيق ثوابت تتناول البعد الشمولي الجامع ، أي عدم التقليد ، والبعد الداخلي الروحاني (الحب الإلهي) ، والبعد الاجتماعي الذي يحقق العدل ، والبعد الناقد ، وإعادة بناء الفكر الديني في الإسلام .

٢٨ـ بحث الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي :

« أفكار وخواطر حول الإسهامات التي يمكن أن يقدمها العالم الإسلامي ونحن على أعتاب نظام عالمي جديد » .

يتناول الكاتب في بحثه مقدمة يصور فيها ما عليه القرن العشرون من ابتكارات وتطورات ، أيدلوجية وسياسية واقتصادية .

ثم يلخص المشكلات التي تواجه المسلمين وهم على أعتاب نظام عالمي جديد وهي:

في الميدان الاعتقادي : الفهم الديني الضيق المتعصب ، وفي الجانبين السياسي والإداري : تناقض الأنظمة وانهيار الشيوعية ، ودول العالم الثالث (النامية) تأثرت بذلك لا سيما بعد انهيار الشيوعية ، وبرز ذلك في البلقان كما برزت الاختلافات في الدين والعرق بعد عام ١٩٩٠م .

وفي الميدان الاقتصادي : توسع الهوة بين الفقراء والأغنياء دولاً وأفراداً ، وفي الجانب الثقافي : انتشار القيم الغربية واختلاطها بكيان الثقافات المحلية ، كمبدأ حقوق الإنسان وتقاليد الغرب وتصرفاته وميثاق العمل ، مما يظهر اتجاهات متباينة لا سيما من خلال النظام الاقتصادي الذي ينتشر مع عناصره الثقافية .

ويرى الباحث أن العالم الإسلامي الذي يملك موقعاً متميزاً يعيش تابعاً للدول الصناعية ، وهذا يترك تأثيراً ثقافياً في هجرة العقول والعمالة ووسائل الإعلام . بينما الإنسان قادر على التشييد والهدم ، فهو أنشأ الحضارات العلمية والإنسانية ، وهو الذي ينشئ أدوات التخريب والهدم في التكنولوجيا العسكرية والأسلحة المختلفة .

ويتناول الكاتب السبيل الذي يجب أن يسلكه العالم الإسلامي في مواجهة الأزمة العالمية ، وذلك بتحريك الفكر الإسلامي وتدعيمه على ضوء التطورات الحادثة ، واتخاذ التدابير اللازمة لحماية هويته الثقافية ووحدته العضوية والأخذ بزمام المبادرة .

ويلزم ذلك اعتقاد أن الإنسان خليفة الله في الأرض ، وهو مسؤول أمام الله تعالى عن علاقته بالآخرين وعن البيئة والكون اللذين سخرهما له ، مسؤولية تقوى ، فهو وارث أمانة وحامل رسالة ، محترم لذاته وللآخرين .

وعلى الإنسان المسلم أن يتحمل المصاعب التي تتعرض لها الحضارة الإسلامية ويبحث عن الحلول اللازمة لها ، وأن يتضامن المسلمون ويتشاوروا ، وأن يوحدوا أنظمتهم وأن يجعلوا هدفهم العمل على محو التفرقة العنصرية ودعم السلام والأمن ودعم كفاح شعوب الإسلام وتعزيز التعاون ، ووضع البرامج لذلك . وأن ينهض العالم الإسلامي نهضة صناعية ، وأن يتسامح ويتعايش مع الشعوب الأخرى . ويرى الكاتب أن ذلك يتم بالاهتمام بالمؤسسات الإسلامية والأوقاف وغيرها .

٢٩ـ بحث الدكتور مدثر عبدالرحيم الطيب :

« الإنسان ومستقبل الحضارة : وجهة نظر إسلامية » .

تحدّث فيه عن انهيار النظام الشيوعي في هذا القرن وسيطرة النظام الرأسمالي على العالم ، وأشار إلى أن هذين النظامين استمدّا أصولهما من الحضارة الغربية الحديثة التي تعاني من أزمات دينية وعنصرية وطبقية توشك أن تقضي على الحياة الإنسانية نفسها إن لم يتمّ تلافيها ومعالجتها معالجة حاسمة ، حتى تستطيع الحضارة الغربية تجاوز عيوبها ونواقصها . ويستعرض الباحث مظاهر تلك الأزمة وأسبابها التي تعود إلى الثورة الفكرية والاجتماعية ، ويبين النتائج الإيجابية والسلبية التي تمخضت عنها ، من حيث انطلاق العقل الغربي إلى ميادين الفكر النظري والتطبيقي بعيداً عن سيطرة الكنيسة ، أو من حيث عدم تقدّم الوعي الروحي أو الشعور بالمسؤولية الخلقية تقدماً يصاحب التقدم العلمي والتقني ، وذلك لانتشار الظلم وتفشّيه في ظل الحضارة الأوروبية .

واستشهد الباحث بثلاثة أشكال من هذه الروح المدمّرة التي كوّنت الجانب المظلم في الحضارة الأوروبية ، فذكر العصبية الدينية والمذهبية المستمرة ، والعنجهية العنصرية والقومية ، والتطاحن المرير الذي نشأ عن الفروق الطبقية . وقد شمل بلاؤها مناطق مختلفة من العالم وتجاوز دائرة المجتمعات البشرية إلى تدمير الأرض نفسها ، وكانت تتخذ في ذلك أساليب عدّة .

وتطلّع الباحث إلى حياة جديدة تنقذ البشرية من هذا المصير المفجع ، وذلك حين تستبعد الإنسانية الأنماط الحضارية التي طوّقتها بها أوروبا ، وتسلك طريق العودة إلى الإسلام الذي يقيم توازناً بين أبعاد الحياة المختلفة : بين المادة والروح ، وبين العقل والدين، وبين الفرد والجماعة .



أسماء الأعضاء المشاركين في المؤتمر العام التاسع


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعضاء المؤتمر العام التاسع

أولاً : الأعضاء العاملون

أ ـ مجلس المجمع (العاملون المقيمون في الأردن) :

١ ـ الدكتور ناصرالدين الاسد	رئيس المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) ص.ب (٩٥٠٣٦١) عمّان ـ الأردن

أعضاء مجلس المجمع (حسب الترتيب الهجائي) :

٢ ـ الدكتور إحسان عباس	أستاذ باحث في الجامعة الأردنية عمّان ـ الأردن
٣ ـ الدكتور بشار عواد معروف	المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) ص.ب (٩٥٠٣٦١) عمّان ـ الأردن
٤ ـ الدكتور عبدالسلام العبادي	وزير الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية عمّان ـ الأردن
٥ ـ الدكتور عبدالعزيز الخياط	نائب رئيس المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) ص.ب (٩٥٠٣٦١) عمّان ـ الأردن
٦ ـ الدكتور عبدالعزيز الدوري	أستاذ التاريخ بكلية الآداب ـ الجامعة الأردنية عمّان ـ الأردن

٧ ـ الدكتور عبدالكريم خليفة — رئيس مجمع اللغة العربية الأردني
ص.ب (٣٦٨)
عمّان ـ الأردن

٨ ـ الدكتور عبدالكريم غرايبة — كلية الآداب ـ الجامعة الأردنية
عمّان ـ الأردن

٩ ـ الأستاذ كامل الشريف — رئيس المكتب التنفيذي للمؤتمر الإسلامي العام لبيت المقدس وعضو مجلس الأعيان
ص.ب (٢٠٧٤)
عمّان ـ الأردن

ب ـ الأعضاء العاملون غير المقيمين في الأردن (حسب الترتيب الهجائي) :

١٠ ـ الأستاذ إبراهيم شبوح — مستشار وزارة الثقافة
وزارة الثقافة ـ تونس
الجمهورية التونسية

١١ ـ الدكتور إحسان دوغرمجي
Dr. Ihsan Dogramci
Chairman, Board of Trustees
Bilkent University
06533 Bilkent
Ankara - Turkey

١٢ـ الدكتور أحمد صدقي الدجاني — ٩٩ ش السباق ـ شقة ٩٤ هيليو بوليس
مصر الجديدة ـ جمهورية مصر العربية
تلكس : Telex : 22140 EMAN UN

١٣ـ الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي — ١٤ شارع عبدالقادر قدوش
حيدرة الجزائر
الجمهورية الجزائرية Algeria
تلكس : Telex : 53794 Maffet

١٤ ـ الدكتور أحمد كمال ابو المجد
٥٦ شارع جامعة الدول العربية
المهندسين ـ الجيزة ـ عمارة أبو الفتوح
الدور العشرين ـ القاهرة
جمهورية مصر العربية
فاكس : (٣٦٠٠٠٧١)

١٥ ـ الدكتور أحمد مطلوب
الأمين العام للهيئة العليا للعناية باللغة العربية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
بغداد ـ الجمهورية العراقية

١٦ ـ القاضي إسماعيل بن علي الأكوع
ص.ب (٢٢٧)
صنعاء ـ الجمهورية العربية اليمنية

١٧ ـ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو
المدير العام لمركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية / استنبول .
Dr. Ekmelddin Ihsan Oglu
Dirtctor
The Research Center for Islamic History
Art and Culture
Yildiz Sarayi Seyir Kosku, Barbaros
Bulvari, Besiktas
P.O. Box : 24 - Istanbul - Turkey
Telex : 26484 ISLAM TR.

١٨ ـ الدكتور جاويد إقبال
عضو المحكمة العليا سابقاً / لاهور
Dr. Javid Iqbal
61 Main Gulberg
Lahore - 11 Pakistan.

١٩ ـ الدكتور جلال شوقي
عميد كلية الهندسة / جامعة قطر
ص.ب : (٢٧١٣)
دولة ـ قطر

٢٠ ـ الدكتور حسام الدين السامرائي
ص.ب (٨٥٤)
مكة المكرمة ـ المملكة العربية السعودية

٢١ـ الدكتور روجيه (رجا) جارودي
Dr. Roger Gharoudy
69 Rue de Sucy
94430 Chennevicrs / Sur - Marne
France

٢٢ـ الدكتور سيد حسين نصر
Dr. Seyyed Hossein Nasr
University Professor of Islamic Studies
George Washington University
Gelman Library 712
Washington Dc 20052
U. S. A
Fax : (202) 994 - 0458

٢٣ـ الدكتور شاكر الفحام
رئيس مجمع اللغة العربية
ص.ب (٣٢٧)
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية

٢٤ـ الدكتور شمس الدين بابا خانوف
Dr. Shamsudin Baba Khanof
c/o 103 Hamza Street (55)
Tashkent - Auzbakistan

٢٥ـ الدكتور عباس الجراري
كلية الآداب ـ جامعة محمد الخامس
الرباط ـ المملكة المغربية

٢٦ـ الدكتور عبداللطيف بربيش
أمين السر الدائم لأكاديمية المملكة المغربية
ص.ب (١٣٨٠)
الرباط ـ المملكة المغربية

٢٧ـ الدكتور عبدالهادي التازي
فيلا بغداد ـ ٦ زنقة ايت اورير
حي السويس
الرباط ـ المملكة المغربية

٢٨ ـ الأستاذ عبدالوهاب بن منصور	مؤرخ المملكة المغربية القصر الملكي ـ الرباط المملكة المغربية
٢٩ـ الدكتور محمد أحمد الشريف	أمين جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ص.ب (٢٥٤٩) طرابلس الغرب ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
٣٠ـ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة	الأمين العام لمجمع الفقه الإسلامي ص.ب (١٣٧١٩) جدة ٢١٤١٤ المملكة العربية السعودية فاكس : ٦٦٧٠٨٧٣
٣١ـ حكيم (حاج حافظ) محمد سعيد	Hakim Muhammad Said Hamdard Center Nazimabad Karachı 74600 Pakistan
٣٢ـ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي	رئيس قسم علوم العقائد والأديان ـ كلية الشريعة جامعة دمشق دمشق ـ الجمهورية العربية السورية تلكس : 411444 SAHARA sy
٣٣ـ الدكتور محمد عبدالرؤوف	Dr. Mohammad Abdul Rauf American Islamic Research Institute 5911 Massachusetts Avenue Bethesda, MD 20816 U. S. A Fax : (301) 320 - 4871
٣٤ـ الدكتور محمد عبدالقادر بافقيه	رئيس الهيئة العامة للآثار ودور الكتب ص.ب (٢٢٧) صنعاء ـ الجمهورية اليمنية فاكس : ٢٧٦٧٦٤

٣٥ـ الدكتور محمد فاروق النبهان	مدير دار الحديث الحسنية القصر الملكي الرباط ـ المملكة المغربية
٣٦ـ الدكتور محمد المختار ولد اباه	178 شارع آسفي ـ شاطئ الهرهورة تمارة ـ المملكة المغربية
٣٧ـ الدكتور محمد يوسف نجم	دائرة اللغة العربية ـ الجامعة الأمريكية بيروت ـ الجمهورية اللبنانية تلكس : Telex : 20880 Bexprle
٣٨ـ الدكتور محيي الدين صابر	٩أ شارع أبو الفداء ـ الزمالك القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
٣٩ـ الدكتور مدثر عبدالرحيم الطيب	مستشار لجنة التوجيه والشؤون الاجتماعية القصر الجمهوري الخرطوم ـ جمهورية السودان الديمقراطية
٤٠ـ الأستاذ مصطفى الزرقا	مركز البحوث الفقهية ص.ب (٥٨٤٣٩) الرياض ١١٥٩٤ المملكة العربية السعودية
٤١ـ الدكتور مهدي محقق	Dr. M. Mohaghegh McGill Institute of Islamic Studies Tehran Branch 36 M. Labbafi Nejad St., Amir Akram Vali - Asr - Ave., P.O. Box : (13 - 145 - 133) Tehran - Iran

٤٢ـ الدكتور هشام نشابة	مدير المعهد العالي للدراسات الإسلامية جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية ص.ب (٥٨٣٢) بيروت ـ الجمهورية اللبنانية تلكس : 23317 MADAF LE
٤٣ـ الدكتور يوسف القرضاوي	عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة قطر الدوحة ـ دولة قطر تلكس : Telex : 4630 UNVSTY DH

ثانياً : الأعضاء المراسلون (من خارج الأردن حسب الترتيب الهجائي) :

٤٤ـ الدكتور أبو الحسن صادق	Dr. Abul Hasan Sadeq Dean, Research Center International Islamic University P.O. Box : 70, Jalan Sultan 46700 Petaling Jaya Selangor - Malaysia Fax : 03 - 7579589
٤٥ـ الدكتور إسماعيل باليتش	Dr. Smail Balic A - 2261 Angern (Near Vienna) P.O. Box (11) Austria
٤٦ـ الحاج الله شكور بن همت باشازاده	Al-Haj Allah Shakur Ibn Hematt Basha-zada Merza Fatteh Ali Street 7 Baku 1, Azerbaidzhan
٤٧ـ الأستاذ داود كاون	Mr. David Cowan 24 Montagu Mews South London WIH ITH United Kingdom

٤٨- الدكتور سامي خلف حمارنة	International Institute of Islamic Thought and Civiligation (ISIC) P. O. Box : 11961 50762 Kuala Lumpur, Malaysia Fax. : 254 - 8343
٤٩- الدكتور سعيد هبة الله كاميليف	Dr. Said Hibatullah Kamilev Institute of Islamic Civilization Building N. I. Mal. Tishinsky per., 22, Moscow 123056 Russian Federation Fax : 95 - 9406571
٥٠- الدكتور سيّد مقبول أحمد	Dr. Sayyid Maqbul Ahmad 18 Granvilles Gardens, Ealing Common London W5 3PA United Kingdom
٥١- الأستاذ عبدالله باه	Mr. Abdaulaye Ba L'Union Des Volontaires pour L'Education et La Culture Islamique Usine Parc Parcelle No. 2430 Dakar - Senegal
٥٢- الدكتور عبدالمجيد مكين	Dr. Abdul Majid Mackeen 24, Lorong Kemaris Dua Bukit Bandar Raya Bangsar 59100 Kuala Lumpur Malaysia Telex : 90600 PUBKL MA

٥٣ـ الدكتور علي أوزاك

Dr. Ali Auzak
Islamic Ilimler Arastirma
Vakfi Kistasi
Kamil Pasa Sokak No. 7
Fatih - Istanbul
Turkey 34260
Fax : 5236537

٥٤ـ الدكتور عمار الطالبي

Dr. Amar Al - Talibi
Cite' des Asphodeles
BT. C 1-10
Ben Aknoun
El - Biar
Alger

٥٥ـ الدكتور عمر جاه

البنك الإسلامي للتنمية
ص.ب (٩٢٠١) جدة (٢١٤٣٢)
المملكة العربية السعودية
Telex : 607407 ISDB SJ تلكس : ٦٠١٤٠٧

٥٦ـ الدكتور محمد سواعي

Dr. Mohammad Sawaie
Chairman,
Asian and Middle Eastern Languages
and Cultures
BO27 Cabell Hall
University of Virginia
Charlottesville, Va 22903
U. S. A
Fax : 804 - 982 - 2002

٥٧ـ الدكتور محمد عمارة

٢٦ شارع الزيتون
حدائق الزيتون
القاهرة ـ جمهورية مصر العربية

٥٨ ـ الشيخ محمد الغزالي
١٠ ميدان الدكتور سليمان
الدقي ـ شارع قمبيز
القاهرة ـ جمهورية مصر العربية

٥٩ـ الدكتور محمد نوري عثمانوف
Dr. Muhammad Nuri Osmanov
Institute of Oriental Studies
Academy of Sciences
12, Rozhdestvenka Street
103753 Moscow GSP
Russian Federation

ثالثاً : ضيوف المؤتمر العام التاسع للمجمع الملكي (حسب الترتيب الهجائي) :

٦٠ـ الدكتور أنصار زاهد خان
Hamdard Center
Nazimabad - Karachi 74600
Pakistan

٦١ـ الدكتور سعود عبدالعزيز زبيدي
مستشار الأمين العام / رئيس الإدارة العام
لمركز التوثيق والمعلومات
الأمانة العامة لجامعة الدول العربية
القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
فاكس : ٧٤٠٣٣١

٦٢ـ الدكتور علي عثمان
Dr. Ali Othman
124 Billulph - Mansions
Elgin Ave.
London W9 1HU
United Kingdom

٦٣ـ الدكتور فهمي جدعان
عميد كلية الآداب ـ جامعة البنات الأردنية
عمّان ـ الأردن

٦٤ـ الأستاذ محمد الميلي الإبراهيمي
المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
ص.ب (١١٢٠)
القباضة الأصلية
تونس ـ الجمهورية التونسية
Fax : 216 - 1784965

فهرس المحتويات

منشورات
المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية
(مؤسسة آل البيت)
رقم (١٥٥)

رمضـــــان ١٤١٤هـ
آذار (مارس) ١٩٩٤م

المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية
(مؤسسة آل البيت)

العنوان البريدي : ص.ب ٩٥٠٣٦١ عمّان ١١١٩٥
العنوان البرقي : آل البيت ـ عمّان
التلكس : 22363 Albait Jo, Amman - Jordan
الهاتف : ٨١٥٤٧١ ـ ٨١٥٤٧٤
الفاكس : ٨٢٦٤٧١

رقم الايداع لدى المكتبة الوطنية
(١٩٩٤/٢/١٦٨)



المطابع التعاونية ـ عمان